مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

تصنيف

شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله

المعروف بسبط ابن الجوزي

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء التاسع عشر

٤٤٩ - ٤٩٩ هـ

حققه هذا الجزء وعلق عليه

محمد أنس الخن

كامل محمد الخراط

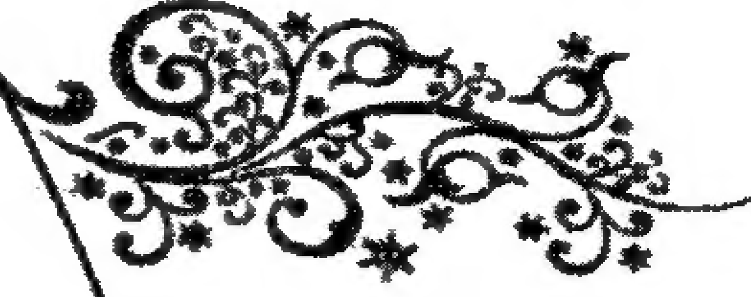
الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

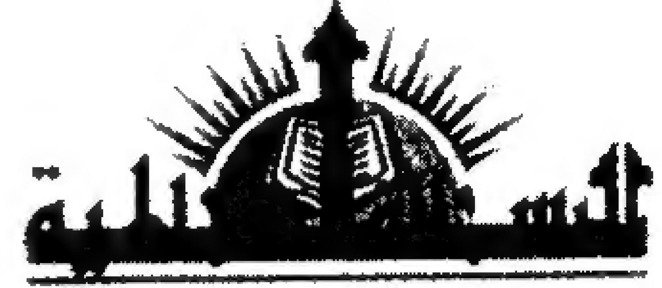
مرآة الزمان

في تواريخ الأعيان

١٩



بسم الله الرحمن الرحيم



دار الرسالة العالمية

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m.
Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي و صلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

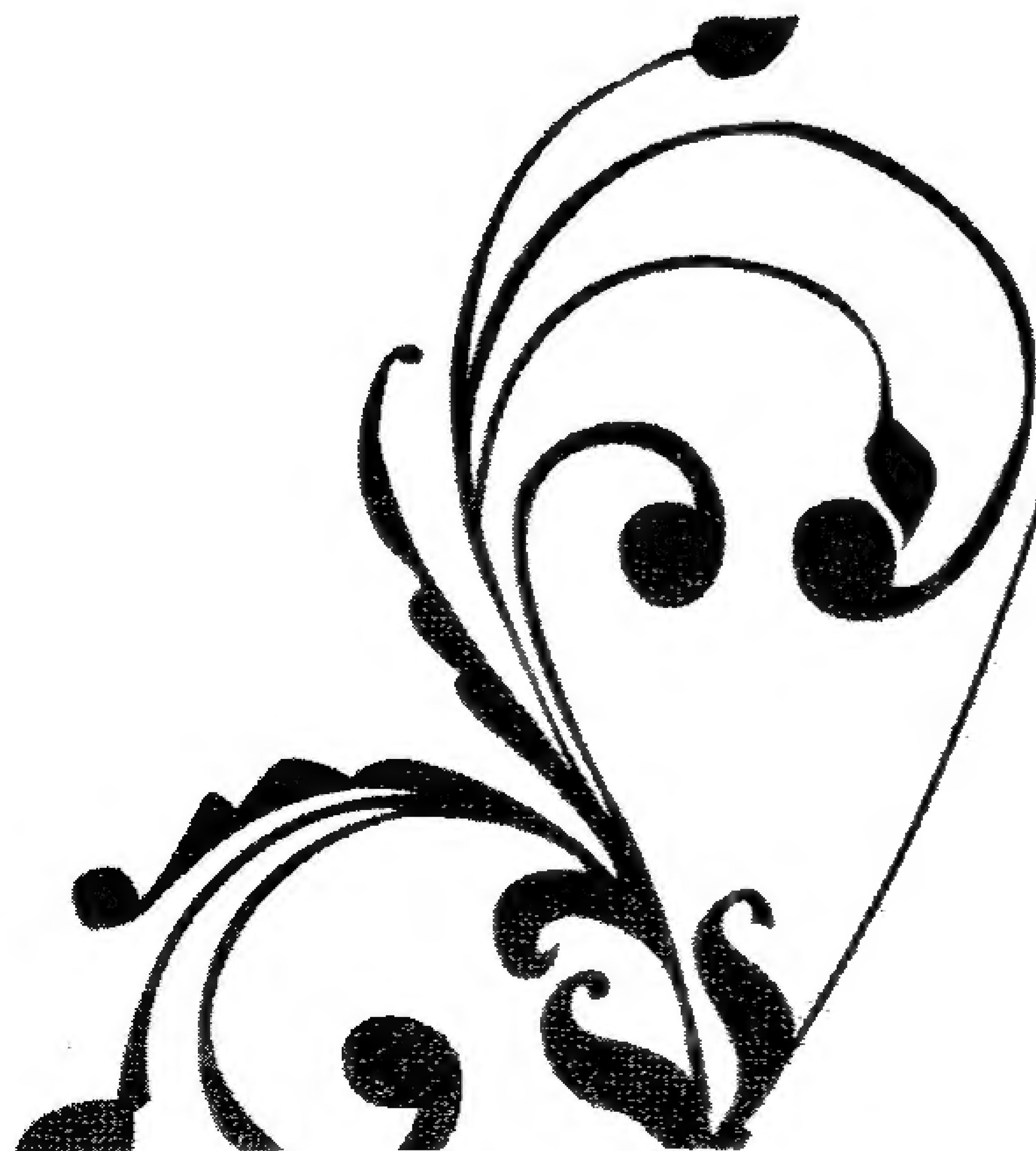
BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460

الطبعة الأولى

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ



السنة التاسعة والأربعون والأربع مئة

فيها في المحرَّم استعفى ابن النسوي من ولاية الشرطة ببغداد؛ لاستيلاء العيَّارين واللصوص عليها، بحيث أُقيم تحت تاج الخليفة مَنْ يحفظ الزبازب والطيار الذي للخليفة من الحريق.

وفيه فُتحت واسط، وهرب ابن فَسانْجِس وابن يانس في ثالث عشره، وأُقيمت الدعوة للقائم، وفي العشر الآخر منه اشتدَّ الغلاء ببغداد، فبِيعت العقارات بالرُّغفان، وأُكِلت الميتات والكلاب والقطاط. قال غرس النعمة: لقد شاهدتُ امرأةً بنهر مُعلَّى ومعها فخذ كلب ميت قد اخضرَّ وجفَّ وهي [تنهشه و][1] تأكله. ورأيتُ امرأةً رمَتْ من سطح طائراً ميتاً، فاجتمع عليه خمس أنفُس واقتسموه وأكلوه.

وخرب البلد[2] والسواد جميعه خراباً دارساً، ونقضت الدور الشاطية وغيرها، وسُدَّت أبوابٌ كثيرةٌ مات أهلها [وخلا منها من كان بها] وكان الإنسان يمشي ببغداد في الجانبين فلا يرى إلا الواحد بعد الواحد.

وفي المُحرَّم مات [عيسى بن] خميس بن ثعلب صاحب تِكريت، وقَتلَتْ زوجتُه أميرةُ بنت غُريب أخاه أبا الغشَّام[3]، وكان معتقلاً في القلعة، فخافت منه أن يستولي عليها وعلى القلعة، وتسمَّت بعيسى، وقيل: إن عيسى أمرها بقتله، وأصعدت إلى الموصل، فنزلت على [نور الدولة] دُبَيس [بن مزيد] وكان [أبو المعالي] قريش قد خطبها وأرغبها، فمالت إلى عيسى [بن خميس هذا المتوفى وتزوَّجته]، ووقع بين عيسى وقريش لأجلها، وخطب البساسيري، ونزع طاعة قريش، فلما أصعدت إلى الموصل بعث إليها قريش فأطاعته.

[وقال ابن الصابيء: ووجدت في أتون بباب البصرة إنساناً بصيراً وآخر ضريراً كانا يُكديان[4] على القنطرة، قد شويا صبيةً صغيرةً في نار التنُّور وهما يأكلانها، وقد بقي

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(م١)، وما سيأتي في هذا الجزء من زيادات لم يُشر إليها فهو منهما.

(٢) تحرفت في (خ) إلى: الولد، والمثبت من باقي النسخ.

(٣) بعدها في (خ) و(ف) زيادة: عيسى.

(٤) يُكديان: يُلِحَّان في المسألة. المعجم الوسيط (كدي).

رأسها وأطرافها، فقتلوا الضرير ورموا به في بئر، ونكسوا البصير من باب القنطرة على رأسه إلى الصراة، وكان الضعفاء يعملون مثل ذلك، ولا يُعلم بهم].

وفيه قبض عميد العراق على صندل خادم الخليفة، فقامت عليه القيامة، وكتب إلى رئيس الرؤساء رقعةً طويلةً بخطِّه يقول فيها: قد عرفت ما كان الانقباض واقعاً منه عند النص على استخدام أحمد بن علي - يعني العميد - على الباب العزيز، فإن أسباب الكراهة لذلك كانت باديةً، ثم ظنَّ أنَّ ما سوَّفه به من اللفظ العالي السامي المعظَّم يوم الوداع كافٍ لملوك الأرض، فضلاً عنه، وذكر أفعال العميد وما عامل به أمراء الأطراف، وقال: ومن العناء رياضة الهَرِم[1]، فأطلق الخادمَ، واعتذر بأنه لم يعلم أنه من خدم الخاصة، وفي هذا الوقت أُسِرَ أبو الغنائم بن فسانْجِس، وسببه أن أبا الفضل الهَمَذاني عميد العراق خرج من بغداد في جماعة من الجند والعجم والعرب لاعتراض ابن فسانْجِس في إصعاده من واسط، فصادفوه يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، وهو في جمع كثير من الغلمان الواسطية والدَّيلم وبين خَفاجة ورجاله، وكان الهَمَذاني في نَوْشير[2]، فلما رآه العميد رمى بنفسه ومَنْ معه عليهم، فهزمهم وقتلهم، وأخذَ ابنَ فسانْجِس أسيراً وأخاه وأهلَه، وكتب إلى بغداد على جناح طائر، فضُربت البشائر، وحُمل إلى بغداد يوم الأحد تاسع عشر صفر على [جمل][3] وعليه قميص أحمر، وطرطور أحمر بوَدَعٍ، وأُخِذَ من رَحْله دراهم عليها اسم صاحب مصر، فعُلِّق بعضُها في عصابة على جبينه، وطِيفَ به بغداد من الجانبين، وصعد الخليفة ورئيس الرؤساء إلى المنظرة بباب الحلبة حتى شاهداه، ووراءه الناس يضربونه، ويُنادى عليه: هذا جزاء من كفر النعمة، وأساء إلى من أحسن إليه. فلمَّا بلغ النجميَّ حُطَّ وقد نُصِبت له خشبة فصُلِبَ عليها، وشُدَّت رجلاه في رأسه، وقُطِعَ رأسُه، ورُميت جثَّتُه إلى الكلاب فأكلتها، وبعث العميد رأسه إلى السلطان مع المنجوق الذي له، وعليه اسم صاحب مصر، فأمر السلطان بأن يُعلَّق رأسُه على المنجوق ويُطاف به في العسكر.

---

(١) هذا عجز بيت لمثل شعريٍّ من الكامل صدرُه:

أتـروضُ عِـرسـكَ بـعـدمـا هَـرِمـت.

وهو في المستقصى من أمثال العرب ٢/ ٣٤٩ ، وجمهرة الأمثال ٢/ ٤٠ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٠١ .

(٢) هكذا في النسخ، ولعلها: نَوْشَار: وهي قرية ببَلْخ. ينظر معجم البلدان ٥/ ٣١٠ .

(٣) هذه الزيادة من (ف).

وفي صفر كُبِسَت دارُ أبي جعفر الطُّوسي فقيه الشيعة بالكَرْخ، وأُخِذَ ما كان فيها من الكتب وغيرها، وكرسيٌّ كان يجلس للكلام عليه، وسَناجق[١] بِيض كان الزوَّار من أهل الكَرْخ قديماً يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة المشهدين، فأحرق الجميع في سوق الكَرْخ، وكان ببغداد الزهيريُّ وابنُ اليدن، وكانا فاتِكين، فجرى منهما في هذا اليوم على أهل الكَرْخ من السب والشتم شيءٌ عظيم، وقالا: أنتم أعداء الخليفة، ولم تستعملوا مع ابن فَسانْجِس قبيحاً في قول ولا فعل لمَّا شهروه في محالِّكم، وأطلق رئيس الرؤساء لسانَه في الشيعة، وتهدَّدهم بالقتل والصلب.

وفي ربيع الأول عقد السلطان جسراً على الزاب الأول وعبر إلى قلعة كُشاف[٢]، وكانت لمحلي بن درع، ففتحها وأخذ منها غلَّاتٍ كثيرة، وأصنافاً مختلفةً، وكان قد ضاقت به الميرة.

وفي مستهلِّ ربيع الآخر قصد الزُّهيري وابن اليدن وجماعةٌ من أهل باب البصرة والحربية ونهر طابق ودرب الشعير والقلَّائين مشهدَ موسى بن جعفر، ومعهم النوائح فيه بقصائد في حريق المشهد، وسنَّموا قبور المشهد، وفعلوا كلَّ قبيح، وانتقل العلويُّون منه، ولم يبقَ فيه إلا القليل، فمن القصائد: [من السريع]

يا مُوقِدَ النيرانِ[٣] بالمشهدِ بُورِكَ في كفَّيكَ من مُوْقِدِ
طهَّرتَ أرضاً كلُّ سُكَّانها ما بين زنديقٍ إلى مُلحدِ
لا حافظ للذِّكر فيهِمْ ولا مقدِّسٌ يركعُ في مسجدِ
من كلِّ بِدْعيٍّ له مذهبٌ متخذاً للرِّفضِ بالمسندِ
لا تابعٌ للدين فيهمْ ولا معتقِدٌ للبعثِ من مرقدِ
بلى يظنُّون وويلٌ لهم أنَّ المنايا آخرُ المَوردِ
وأنَّهم مثلُ حشيشٍ ذوى بعد اخضرارٍ ليس بالعُوَّدِ

(١) في (خ) و(ف): مناجيق، وفي المنتظم ١٦/١٦ : مجانيق. والسناجق جمع سنجق، وهو: الراية.
(٢) كُشاف: موضع من زاب الموصل. معجم البلدان ٤/ ٤٦١ .
(٣) في (ف): الناس.

فهل بهذا أحدٌ راضياً كلَّا وربِّ الحجرِ الأسودِ
فلا سقاهم أبداً وابلاً من بارقٍ يلمعُ أو مُرْعِدِ
ولا رعى من عهدهم ذمةً في مولدٍ يولد أو والدِ

ومن أخرى: [من المجتث]

سَلْ دارساتِ الطُّلولِ كم بينها من قتيلِ
واربَعْ على عَرَصاتِ بين النَّقَا والدَّخولِ
فسلِ القبابَ العوالي بالمشهدِ المخذولِ
وللعيونِ اللواتي تجري ببول(١) الوُعول
عن كلِّ زنديقِ كفرٍ عن كلِّ حقٍّ عَدولِ
يا مشهداً يشهد الكفْـ ـرَ في ليالي القَبولِ
تجولُ فيه البغايا على ذكورِ الفُحولِ
يُمازحون البلايا بسبِّ صَحْبِ الرسولِ
حبلُ الرَّوافضِ أهونُ بالرَّفضِ من شُرَحبيلِ

وفي ثامن ربيع الآخر عاد الزُّهيري وابن اليدن والجماعة المُقدَّم ذِكْرُهم إلى المشهد وسنَّموا ضريح موسى بن جعفر والجواد وجميع القبور، وصَعِد على ضريح الإمام رجلٌ وقال: يا موسى بن جعفر، إن كنت تُحِبُّ أبا بكر وعمر فرحمك الله، وإن كنت تبغضهما، وذكر اللعنة. وصَعِد آخرُ يُعرف بابن فهد، فركض عليه، فيقال: إنه انتفخت قدماه، وعالجهما الطبيب وبطَّهما، وأخذ الزُّهيري طاسة فضة كانت عند رأس الإمام يُطرح فيها الخَلوق، وقال: هذه يُثرد فيها، وأنت يا موسى ممَّن يدَّعي الروافض؛ أنك تسمع الكلام وتردُّ الجواب، وما قدرتَ على منعي مما فعلت، وصارت الجماعة في كل سبت يقصدون المكان ومعهم النوائح، فينوحون ويلعنون الشيعة، وكذا في جميع مشاهد الشيعة، وكانوا يدخلون الكَرْخ فينهبون ويقولون: أسلموا يا كفار. وفتح في المشهد بابٌ إلى الحربية، وجُعِلَ طريقاً للسابلة، وكلُّ هذا يتقدم رئيس الرؤساء، وجاء كتاب سيف الدولة إبراهيم ينَّال إلى أخيه السلطان يتعلَّل ويُسوِّف، فغاظ ذلك

(١) في (خ): ببوس! والمثبت من (ف).

السلطان، وكان ينَّال مقيماً بطُوس، ووصل داود ابن أخي السلطان بنِيَّة غزاة الروم، وكان معه خلقٌ كثير، فتعوَّض به عن إبراهيم ينَّال، وسار السلطان إلى الموصل، واندفع البساسيري عنها مقدار عشرة فراسخ، ونزل السلطان تل بُوَيه، وهرب أهلُ الموصل، وعبر السلطان إليها يوم الثلاثاء رابع الشهر، فنزل دار الإمارة، ونزل أصحابه دور الناس، وكانت قد خَلَتْ منهم، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنزوله الموصل، وسار منها، فنزل الدَّكَّة، والبساسيري ومَنْ معه بِنَوْشَرى[1] وبينهم عشرة فراسخ، وأقطع السلطان الموصل لهزارسب، وطالبه العسكر بنهبها، فقال: هذا بلد قد أقطعناه لهزارسب وقد خَدَمنا، ونحن محتاجون إلى الإقامات والعلوفات. فقالوا: إمَّا تأذن لنا في نهبه، وإلَّا انصرفنا. وسأله هزارسب في حريم المسلمين وأموالهم، فقال: قد دافعتُ عنهم وما أطقتُ، ولا بدَّ لهم من إقامات أو عطاء، وما معي مال، فنمضي الليلة ونُخرِجُ مَنْ في البلد إلى معسكرك ليحرزوا نفوسهم، فأرسل إلى أهل البلد، وأخبرهم، فارتاعوا، وخرج مَنْ قَدَر منهم، وأصبح العسكر فدخلوا البلد، فما أمسى إلا وهو خراب دارس، وحمي لهزارسب النساءُ والرجالُ، وفرَّق فيهم مالاً، وأعادهم إلى البلد.

ذكر ما جرى بين عسكر السلطان والعرب:

لمَّا طالت المدة في المقام ضجر كلُّ واحد من الفريقين، فقال هزارسب للسلطان وكان عنده في المنزلة العالية يستشيره في أمور المصلحة: أسير وأُشرف على حلل العرب، فإما أن نُنتج صلحاً، أو نُثير حرباً، فقد طال المُقام، وإني أجود معي ألفَ غلام [ممن أختار. فقال له السلطان: ألف غلام][2] لا يكفونك، فخذ ثلاثة آلاف. فقال: في ألف كفاية، وفي الزيادة عليهم تعب. وإنما أسري جريدةً[3]. فقال: افعَلْ. وسار وأقام الكمناء، فوافق العربَ راحلين إلى بَرْقعيد، فلما رأوا طلائعه لم يشكُّوا أنه السلطان بنفسه، فانهزموا، وتبعهم أسراً وقتلاً، وأُخذ محمد بن منصور أسيراً، وعاد

(١) هكذا في النسخ، ولعلها: نَوْشَهر: وهي اسم لنيسابور ونواحيها بخراسان. ينظر معجم البلدان ٥/ ٣١١ .

(٢) هذه الزيادة من (ف).

(٣) الجريدة: الخيل التي لا رجَّالة فيها. المعجم الوسيط (جرد).

فجلس السلطان على كرسي، وأحضر منهم جماعةً وأرماهم تحت أرجل الفِيَلة، وفيهم غلامٌ أمردُ وضيء الوجه، فامتنع الفيل من قتله، فعفا عنه السلطان.

ولمَّا جرَتْ هذه الواقعة جاءت رسلُ قريش ودُبيس إلى السلطان يسألان[١] العفو والصفح ويدخلان في الطاعة، ويقولان: إنَّ البساسيري حُكْمُه حُكْمُنا، ويدخل فيما دخلنا فيه، ويؤدي في كل سنة ما جرَتْ به العادة، ويخطب للدولة العباسية، ويعود إلى ما كُنَّا عليه. فقال السلطان: إننا لكما مؤثرون، وبما جرى منكما مسامحون، ويجب أن تُنفِذا مَنْ تَثِقا به ليتوثَّق منا، ويسمع لفظنا لتسكن نفوسكما إلينا، وتطآ بساطنا، ونُفيض الإنعام عليكما، وأما البساسيري فالعفو فيه راجع إلى أمير المؤمنين، فإن عفا عَفونا وسلَّمنا إليه من الأعمال ما يختار، فقد بلَغَنا من شهامته ما يقتضي الاهتمام بمراعاته. وانصرف الرسلُ ثم عادوا بالشكر، وسألوا إبعادَ ابن وَرَّام ليقرر ذلك، وذكروا أن البساسيري لمَّا عرف ذلك رحل إلى الرَّحبة ومعه الغلمان البغدادية ومَنْ تَبِعه من بني شيبان والأكراد ومقتبل وجماعة، ومضى خائفاً وقد ثَقُل عليه حديث الصلح.

وفي رواية: أن سبب هذه الرسالة من السلطان أنَّ محمد بن منصور لمَّا أُسِر قال لهزارسب: قد أنعم عليَّ السلطان ببقاء نفسي، وأنا واللهِ أُشير عليه بما أنصحه فيه، وأجلب به الخير لبني عمي وعشيرتي والناس أجمعين، وقد خربت بلاد العراق، وضاعت الأموال، وهلكت الدنيا التي يقع عليها القتال، والمصلحة أن تأمرني أن أدخل بينه وبين العرب، وأرُدَّ الجميع إلى طاعته وخدمته، وتُقرِّرَ ما في أيديهم على ما كانوا عليه مع[٢] ملوك العرب، فلو أمنوا ثغرة هذا الجيش ما عصوا، وتحقِنَ هذه الدماء، وتكون أنت الواسطة، فعرف هزارسب السلطان، فقال: مصلحة، أُطلقه وأبعثه رسولاً إليهم. فقال محمد: بل أبقى ها هنا وأُراسلهم. فبعث إليهم بعضَ العرب، وبيَّن لهم وجه الصواب، فأجابوا، ولمَّا عرف البساسيري رحل عن الحلل مغاضباً لقريش ودُبيس، فنزل على فرسخ منهم، فركبا إليه وعايناه وقالا: قد خرِبَتْ بلادُنا،

---

(١) هكذا في (خ) - وهي النسخة الوحيدة لذكر هذا الخبر - بالتثنية، وكذلك في الكلام الآتي، والصواب أن يكون بضمير الجمع كما سيأتي في آخر الخبر.

(٢) في (ف): من.

وقُتِلَ رجالُنا، وسُبي حريمُنا بسببك، والحرب سِجال، وما ندري ما يكون، وهذا السلطان معه أممٌ لا طاقةَ لنا بهم، وما راسلناه حتى اقترحنا عليه أن تكون البصرة لك، وحكمك حكمنا في صلحنا، وإلا فقد خربت ديارنا. فقال: لستُ لما يُبذل لكم متحققاً، وما غرضُه إلَّا تبديدُ جمعنا، وإنهاءُ حيلةٍ علينا، وسخريةٌ بنا، وبعد فأنا صاحب سلطانٍ بعيدٍ عني، ولستُ مالكاً لأمري، ولا بُدَّ من مطالعته، واستدعاء إذنه فيما أفعل. وأغلظَ لهم فانصرفوا، وعاد رسولُهم ابنُ وَرَّام وقرَّر ما أرادوه، فأفرج السلطان عن محمد بن منصور والجماعة المأسورين، واستقرَّ الأمر على مسير هزارسب إليهم؛ لاستخلافهم وإحضارهم إلى الخدمة، وقال: أنا رهينةٌ عندكم، فإن رأيتم ما تُحِبُّون وإلا فنفسي لأولادكم وأهليكم. فقالوا: نحن له طائعون، وإذا ردَّ علينا بلادَنا وانحدر إلى العراق نطأ بساطه بين يدي العتبة الشريفة، ويكون الخليفة هو المتوثق لنا منه. فقال هزارسب: إذا كنتم لهذا الأمر كارهين، فأنا أضمن عنه الإجابة إلى ما سألتم. فانتدبوا سبعين فارساً من أعيانهم ووجوه القبائل، وساروا مع هزارسب وابن وَرَّام، فركب عميد الملك لاستقبالهم، وأنزلهم هزارسب في خيمته، وبعث لهم السلطان خيمةً كبيرةً ينزلونها إكراماً لهم وتشريفاً، وجاء غلمانٌ من الترك في الليل، فضربوا خيل العرب بالنُّشَّاب، فقتلوا منها أربعةَ أفراس لها قيمة، وبلغ السلطان فأنكر ذلك، واعتقل الغلمان، وحضر القوم من الغد عند السلطان، فأكرمهم، واعتذروا إليه، فقَبِلَ عذرهم، وخاطبهم بالجميل والصفح، وأنه مُؤثِرٌ لخدمتهم، مختارٌ لقُربهم، وتوثَّق منهم، وطابت قلوبُهم، وتقدَّم بكَتْبِ أعمالهم لهم، وزاد في إقطاعهم، وخلع على أبي الفتح بن وَرَّام وأعيان القوم، وعادوا طائعين.

ولمَّا رأى العسكرُ الصلحَ قد تمَّ سألوا السلطان نَهْبَ بلاد ابن مروان، وقالوا: قد خرج عن الطاعة. وساعد البساسيري، فأذن لهم، فشفعت الجماعة الذين حضروا فيه وقالوا: قد أخطأ مثل ما أخطأنا، وقد وقع العفو عنا، فكذا هو. فقال السلطان: لا أدري هل هو مقيم على طغيانه أو رجع إلى الطاعة؟ فقالوا: نحن نسير إليه وننظر ما يكون منه. ثم ساروا نِصفَ جمادى الآخرة، وسار السلطان ثامن عشره، فنزل على ظاهر بَلَد[1]، واتفق أن أبا الفضل

(١) بَلَد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ. معجم البلدان ١/ ٤٨١.

ناصر ابن إسماعيل العلوي كان قد نفذه السلطانُ ـ لمَّا قدم بغداد ـ إلى ملك الروم في المهادنة، فجعل طريقه في رجوعه على ابن مروان، ومعه رسول ملك الروم بهدايا كثيرة، فلما اجتمع بهما ابنُ مروان أنزلهما وأكرمهما، وقال: أَقيما عندي، فإن الطريق مَخوفٌ، والعرب قد انتشرت في الجزيرة، وأخاف عليكما. فأقاما، وبعث إليه البساسيري وقريش ودُبَيس يطلبون النجدة، فأنجدهم، ووقع للعلويِّ إنما احتبسهما انتظاراً لما يكون من السلطان مع العرب، فإن كانت لهم عليه أخذ ما معهما وفاز به، فكتب العلويُّ إلى السلطان يُعرِّفه ذلك، فوقر في صدر السلطان، ولمَّا وقع الصلح، وتفرَّق العرب، وانفصل البساسيري عنهم، أرسل ابنُ مروان خادماً إلى خاتون زوجة السلطان، واستجار بها، وأهدى إليها هديةً، وقال: إنما فعلتُ ما فعلتُ خوفاً على بلادي، وأمَّا احتباس الرسولين فإنما كان شفقةً عليهما، وأنا شيخٌ قد نيَّفْتُ على السبعين، وما قصدي إلا حفظ هذه الثغور من النهب والخراب. فأعادت خاتون على السلطان ما قال، وسألَتْه فيه، فقال: قد تيقَّنتُ احتباسه للرسولين طمعاً فيما كان معهما ومعاونته لأعدائنا، وتربُّصه الدوائر بنا، وهذا ذنبٌ لا يُغفر، وكان الأمير قوني بن داود ـ نسيب السلطان ـ أغار على بلاده وسبى، ولمَّا كان رسول الروم بميَّافارقين كتب إلى خاتون كتاباً عنوانه: عبدُ مولاتنا الملكة الجليلة والخاتون الكريمة البطريقُ غلامُ الملكِ القدِّيسِ المنفردِ بممالك الروم، وذكر فيه أن الأمير قوني بن داود قد شنَّ الغارات، ونهب أعمال الملكية، وأتى عليها بالكلية، ولولا تعويل الملك القِدِّيس صاحبي على ما بينه وبين الحضرة السلطانية من العهود والمواثيق لكانت عساكره قد خرجت إلى الأطراف، وأمرهم بالانصراف عنها، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العرب فتفرقوا في البلاد[1]، وسار بعضهم إلى البساسيري، وبعضهم إلى الجزيرة[2].

وفي جمادى الآخرة ورد كتابٌ من بخارى [من وراء النهر] أنه وقع عندهم وباءٌ لم يُعهَدُ مثلُه ولا سُمِعَ به، حتى إنه خرج من هذا الإقليم في يوم واحد ثماني عشرة آلاف جنازة، وحُصِر من مات منه، فكانوا ألف ألف وست مئة وخمسين ألفاً إلى تاريخ الكتاب، ومن بقي من الناس يمرُّون في هذه البلاد فلا يرَون إلا أسواقاً خاليةً، وأبواباً

(١) في (خ): البادية، والمثبت من (ف).

(٢) بعدها في (م) و(م١) زيادة: وفي ربيع الأول توفي أبو العلاء المعري. قال ابن الصابئ.

مغلقة، وتعدَّى الوباءُ إلى أذربيجان، ثم إلى الأهواز والبصرة وواسط وتلك الأعمال، حتى كانت تُحفر زُبية[١] فيُلقى فيها عشرون وثلاثون من الناس، وسببه قلة القوت والجوع، ومن مات قريباً من دجلة سحبوه برجله وألقوه فيها، وكان الضعفاء ينبِشون الموتى ويشوونهم ويأكلونهم [وكذا الكلاب كانت تنبِش الموتى وتأكلهم] وكان لرجل أرض يسأل في بيعها بعشرة دنانير فلم يفعل، فباعها بخمسة أرطال خبز، فأكلها ومات من وقته. ووصل إلى بغداد نسخة كتابٍ كُتِبَ من سمرقند إلى بلخ مضمونه أنه يُدفن في كلِّ يوم من صالحي المسلمين خمسة آلاف وستة آلاف وأكثر، وغُلِّقت الأسواق، واشتغل الناس ليلاً ونهاراً بدفن موتاهم وغسلهم وتكفينهم، وكلُّ دار يدخلها الموت يأتي على الجميع، وكان المريض ينشقُّ قلبه عن دم المُهجة، فتخرج من فمه قطرة فيموت، أو دودةٌ لا يدري ما هي فيموت.

وغُلِّق من البلد من دور المُقدَّمين وأعيانهم أكثرُ من ألفي دار، ولم يبقَ فيها كبير ولا صغير ولا [حرٌّ ولا عبدٌ ولا] وارث، وتاب الناس [كلهم]، وتصدَّقوا بمعظم أموالهم، وأراقوا الخمور، وكسروا المعازف، ولزموا المساجد وقراءة القرآن، والنساءُ في البيوت يفعلن كذلك، وكلُّ دار فيها خمر يموت أهلها في ليلة واحدة، ومن كانت معه امرأة حرام ماتا معاً، ومات قيِّمُ مسجد وله خمسون ألف درهم، فلم يقبَلْها أحد، ووُضعت في المسجد تسعةَ أيام بحالها، فدخلت أربعة أنفُس من الخُلْجِ[٢] ليلاً، فأخذوها فماتوا عليها.

وكلُّ من أوصى إلى إنسان مات الموصى [له] قبل الموصي، وكلُّ مسلِمَين كان بينهما هجران فلم يصطلحا ماتا، وكان عند الفقيه عبد الجبار بن أحمد سبع مئة فقيه، فمات عبد الجبار والفقهاء بأسرهم، وكان في دار رجل من الأغنياء من الأولاد والأهل والغلمان ما يوفي على الخمسين، فماتوا كلُّهم في ثلاثة أيام، وخلفوا أكثر من ألفي ألف دينار، ولم يبقَ منهم إلا طفل صغير ابنُ خمس سنين، والمال جميعه في الدار لا يجسر أحدٌ أن يدخلها، ونزل تركيٌّ على مريض من السطح وعليه لحاف ديباج، فأخذه التركي، فمات ويده في طرف اللحاف، وباقيه على صاحبه.

---

(١) الزُّبية: الحفرة التي تُحفر لصيد السباع. اللسان (زبي).

(٢) الخُلْج: المُتعَبون والمرتعدو الأبدان. اللسان (خلج).

قال: ودخلنا على مريض قد طال نزعه سبعةَ أيام، فأشار بإصبعه إلى بيت في الدار، فدخلناه وفتَّشناه وإذا بخابية خمر، فأقلبناها، فخلَّصه الله تعالى من الموت. [قال: ولم يكن مثل هذه الواقعة منذ مات آدم وإلى الآن] ولا يعلم من مات في أرض المشرق، بل قيل: إن سمرقند من غُرَّة شوال وإلى سلخ ذي القعدة أُحصي مَنْ خَرَجَ من أبوابها من الجنائز، فكانوا مئتي ألف وستة وثلاثين ألفاً.

قال: وأصل هذا الوباء من تركستان بلاد الكفار، ثم خرج منها إلى بلاد ساغون وكاشغر والشاش وفَرغانة وتلك النواحي، ووصل إلى سمرقند في سابع عشرين رمضان في هذه السنة، ولم يعبر النهر، حتى إن جماعة من أهل بخارى عبروا إلى بَلْخ، فنزلوا في رباط منها، فماتوا بأجمعهم دون أهل بَلْخ، وكان الموت في الشباب والكهول والصبيان والنساء من العوام، فأما الملوك والعساكر والمشايخ والعجائز فلم يَمُتْ منهم إلا القليل، ثم انفجرت فوهة بما وراء النهر من مكان تجتمع فيه المياه من الأمطار والثلوج، فغرقت الجبال والقلاع والبلاد والضياع وعامة الناس، فلم يبقَ إلا القليل.

ورَدَّ عميد الملك على دُبيس ضياعَه فوجدها خراباً لا أكَّار[١] فيها ولا حيوان، فبعث رسولاً إلى بعض النواحي ليجمع له الرجال، فلقيه جماعةٌ فقتلوه وأكلوه.

ووقع حريقٌ ببغداد لم يُعهَدْ مثلُه قبلَه[٢].

قال ابن الصابىء: عبرتُ إلى الجانب الغربي يوم الأربعاء لسبعٍ بَقِينَ من جمادى الآخرة وقد احترقت قطيعة عيسى وسوق الطعام والكنيس وأصحاب السقط وباب الشعير و[سوق] العطارين وسوق العروس وغير ذلك، فرأيت أمراً موحشاً يدلُّ على خراب البلد وانقراضه، ورأيت المساكن قد علاها التراب وعليها دلائل السخط والانتقام[٣].

ولم تقع عيني على من عليه ثوب صحيح ولا نظيف، ورأيت في قطيعة عيسى خمسةَ أنفُس، وبطلت الصلاة في جوامع بغداد إلا جامع الخليفة ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص: ٥٨].

(١) الأكَّار: الحرَّاث. المعجم الوسيط (أكر).

(٢) العبارة في (ف) و(م) و(م١): لم يحترق قبله مثله.

(٣) بعدها في (م) و(م١) زيادة: والإدبار. وما بين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ١٨، والبداية والنهاية ١٢/ ٧١.

[وفي هذا الشهر لمَّا سار طُغْرُلْبَك إلى مرج باغيدا من بَلَد، وقرُب من حلل العرب، أجفلوا منه إلى العين الباردة، وظفِرَ قوم من العسكر بأعقاب رحالهم فنهبوها، وكتب قريش وابنُ مزيد إلى هزارسب: أنت كنت الواسطة بيننا وبين السلطان، وضمنتَ لنا انصرافه عن جزيرتنا، وقد نهبَنا قوم من أصحابه. وبلغنا أن إبراهيم ينَّال ورد هَمَذان سائراً نحونا، فعرض الكتاب على عميد الملك، فقال: ما نحن إلا على ما بذلناه، ولا كان مسيرنا لقُبح رأي تجدَّد لنا، وإنما قصدنا بلاد ابن مروان، وما أقدر أن أقول للسلطان: ارجِعْ عن بلادك، ولكن إذا تنجَّز أمر ابن مروان سألته أن يخفف الوطأة عن هذه الديار ـ واتَّفق أن ابن مروان سرَّح الرسولين ومعهما هدية فيها خمس مئة ثوب ديباج، وخيل، وغيرها ـ وسأل هزارسب للسلطان فيه شفاعة، ولا قبِلَ له هدية، وردَّها، وفي هذا الوقت أُخذ جاسوس في بغداد وعُوقب، فأقرَّ أنه من الرَّحبة، وأن البساسيري على عزم قصد بغداد، فانزعج الناس، وجمع عميد العراق أصحابه من البلد إلى دار المملكة، وأصعد إلى سورها الحجارة والنفط، وعمل الدَّبَّابات والعرادات والمجانيق، ووقع التشاغل بالتحصين، فصارت الدارُ مثل القلعة، فبينا هم على هذا ورد كتاب من عسكر السلطان يقول: وصل سيف الدولة إبراهيم ينَّال من همَذان في عشرين ألف رجل، فخرج الناس للقائه، ولم يتخلَّف إلا السلطان، ولمَّا وقعت عينه على عميد الملك قال له بالتركية: صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلاً لذلك، وإنما يكون الصلح بين النُّظراء، ومَنْ هؤلاء الكلاب حتى لا يُقلَعَ أصلُهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما اقتضته الحال، فإن جموعهم كانت كثيرة، وكان الصلح الذي التمسوه سبباً لتشتُّتهم، فبلغت منهم من غير أن يُسفك دمٌ، والآن فأتِ نائب السلطان ونحن تبعٌ لك، فافعل ما تراه. وقال له: انزِلْ في خيمتك اليوم، وأرِحْ واسترِحْ، وغداً تُجمع بالسلطان. فنزل، وقُدِّمت إليه الهدايا وهو يفرِّقها في الغُزِّ الذين على رأسه، إلا عقد جوهر قدَّمه عميد الملك، فتركه في قَبائه، ولمَّا كان من الغد دخل على السلطان، فقام له، ومشى إليه، وقبَّل إبراهيم يده، فأكبَّ السلطان على رقبته فقبَّلها، وتحادثا ساعة، وعاد إلى خيمته، وأجفلت العرب من العين الباردة][1].

(١) هذه الزيادة من (ف).

وفيها دخل الأمير أبو منصور بن الملك أبي كاليجار على الوزير هبة الله بن أحمد النسوي إلى داره بشيراز ومعه الديلم، فقتله في دَسْته، وقتل أصحابه، ونهب ماله وأسبابه، وكان هذا الوزير جلداً شهماً، واسع الصدر، عزوف النفس، وهو كان السبب في تملُّك هذا القاتل شيراز وردِّه إليها بعد خروجه منها دفعات، وتكفَّل به وبأخيه أبي سعد تكفلاً أخلص ونصح فيه، ولم يعرف سبب قتله.

وسار السلطان إلى الجزيرة وحاصرها، فلاذَ أهلُها بالعفو، وقرَّروا على نفوسهم مالاً، فقُبِلَ منهم، وتقدَّم بعضُ العساكر إلى ميَّافارقين وقد خرج ابن مروان منها إلى آمِد، فنهبوها ودخلوها، وقتلوا وسبَوا، وبعث ابن مروان إلى إبراهيم ينَّال، واستجار به، فوعده أن يشفع فيه إلى السلطان.

و[في هذه السنة] صَعِد عشرون غلاماً[١] من الغُزِّ إلى دير النصارى في بلد ميَّافارقين فيها أربع مئة راهب، فذبحوا منهم مئة وعشرين، واشترى الباقون نفوسَهم بستِّ مكاكيك ذهباً وفضة.

وفي شعبان نادى عميد الملك: لا يبقى غداً أحدٌ إلا ويحضر إلى دار المملكة، فلم يتخلَّف أحد، وشرعوا في تتمة السور الجديد، وعمل فيه القضاة والشهود والطالبيون والعباسيون والتجار وغيرهم، [وكان القضاة يعملون والطيالس عليهم ينقلون فيها الآجرَّ والتراب].

وفي شعبان ورد دُبيس إلى هِيت قاصداً بلاده، متسلماً لها، وعاد قريش إلى الرَّحبة يريد البساسيري، وكان قد قال لدُبيس: أنت تنحدر إلى بلادك، وقد خَلَتْ من العساكر، فيمكنك المُقام بها وعمارتها، وأما أنا فبلادي خراب، والسلطان فيها، وما أرى من نِيَّتِهِ ما تطيب به نفسي، وأنا قاصد الرَّحبة، وأدبِّر أمري مع أبي الحارث.

وفي هذا الوقت نظر عميد الدولة[٢] في المارستان العضُدي، وكان قد خلا من دواء وطبيب وشراب، وكان المرضى على وجه الأرض، وعند رأس المريض بصلة يشمُّها، وعطش أحدهم فقام بنفسه إلى جُبِّ الماء فوجده حمأة ودوداً، وكان أبو الحسين بن

(١) في (م) و(م١): رجلاً.

(٢) في (م) و(م١): عميد الملك.

المهتدي [ويُعرف بابن الغريق] قد ردَّ أمره إلى يهودي [يُعرف بالهاردين]، فاستولى عليه، وأكل أوقافه، وبلغ عميد الملك، فصرف العنايةَ إليه، فأول ما فعل انتزع أوقافه من أيدي الطامعين فيها والمتغلبين عليها، وضمنها بما وفر به ارتفاعها توفيراً لم يعهد مثله.

وشرع في العمارة، فقال: إنه طبق المارستان بخمسة آلاف طابق. وقيل: بعشرة آلاف، وكان على بابه سوق فيه مئة دكان قد دثرت، فأعادها وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعزُّ وجودها شيئاً كثيراً.

وأقام الفُرش واللُّحف للمرضى، والأرانيج الطيبة، والأشربة والثلج، والمستخدمين والأطباء والفراشين، فكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً، ونساء طبَّاخات، وبَوَّابون، وحُرَّاس، والحمام والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول، والسفن على بابه تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرةً وعشياً، ويناموَن عندهم بالنوبة.

وكان فيه عدة جباب فيها السكر الطَّبَرزَذ والأُبلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب، والبراني الصيني، وفيها العقاقير، وأربع قواصر فيها الإهليلج الأصفر والكابلي والهندي، وأربع قواصر تمر هندي وزنجبيلٌ وعودٌ ونَدٌّ[1] ومسكٌ وعنبر، والراوند الصيني في البراني، والترياق [و] الفاروق وجميع العقاقير، وصناديق فيها ثياب جُدُد للمرضى، ومناديل، وصناديق فيها أكفان، وقدور صغار وكبار، وآلات، وأربعة وعشرون فراشاً، و[ذكر ابن الصابىء] أشياء ما توجد في دور الخلفاء والملوك، وكذا فعل في مارستان باب محول، [وقد دُثِر، فلا عين ولا أثر، أما المارستان العضدي فقائم، ولكن على هذا الوجه فلا].

وخُتِن فيه في هذه السنة ثلاث مئة وأحد وثمانون صبياً، وكان راتب المقيمين فيه من المستخدمين في كل يوم ألفاً وثمان مئة وسبعين رطلاً من الخبز، [ولعلَّ ما فيه اليوم عشرون رطلاً، وكان المتولي لهذه الأشياء الشيخ الأجلُّ ابنُ يوسف].

وفي هذا الوقت أصعد البساسيري من الرحبة إلى بالِس وهي بلد عطية بن الزَّوقلية صاحب حلب، وأخذ الرقَّةَ ـ من أصحاب ثِمال بن صالح بن الزَّوقلية ـ أميرُ حلب، وردَّها

(١) النَّدُّ: ضرب من النبات يتبخَّر به. المعجم الوسيط (ندد).

على منيع بن وثَّاب صاحب حَرَّان، وفي هذا الوقت صالحَ ابنُ مروان السلطانَ بعد جهد ومشقة على مئة ألف دينار، وسار إلى سنجار، فصعد أهلها على الأسوار وشتموه، وقالوا: قد غزونا أول في قُتُلْمِش لمَّا هزمه البساسيري، واليوم يغزو فيكم، وأخرجوا قلانِسَ الغُزِّ وجماجِمَهم ومَنْ قتلوه عام أول على القصب، وعرَّف قُتُلْمِش السلطانَ ما فعلوا به لمَّا انهزم، فزاد ذلك في حَنَقه، وكان أميرها مجلي بن جرجي، ففتحها السلطانُ عنوةً، وسبى نساءَها وأطفالها، ونهب أموالَها، وأحرق جامعَها، ونُقِضت أخشابُها، ودَرَسَتْ آثارُها ـ على[١] أن القتل أتى على أربعة آلاف نفس وأكثر ـ وخاف المنزل، فارتحل السلطان نحو فرسخ، ثم عاد إلى تل أعفر، وعزم على أن يُلحِقَها بسنجار، فراسلوا إبراهيم [ينَّال][٢] فسفر لهم عند أخيه، فقال: أمَّنتُهم على أنهم لا يقيمون بالبلد، فأجابوه، فأوقف العسكر صفَّين، وقال: من تعرَّضَ لأحد قتلتُه. فخرج الناس بأموالهم وذخائرهم ونسائهم وأولادهم، وجاء إلى السلطان رجلٌ فقال: لي ذخيرة في بيتي قدرها ثلاثة آلاف دينار، فابعَثْ معي من يستخرجها. فبعث معه، وعاد الرجل بالدنانير إلى السلطان، فقال له إبراهيم ينَّال: هذا المال لي. فقال: هذا لصاحبه خُذْه والحَقْ بأهلك.

ورتب أبا علي الخازن بتل أعفر، وعاد إلى الموصل، وطالبه أخوه إبراهيم بإقطاع يُصْرَف وارتفاعه في إقامته، فقال: ما أُعطيك إلا ما تفتحه أنت، وإذا سِرْتَ إلى الرحبة فهي لك. فثقُل عليه، وسرَّح جماعةً ممَّن كان معه إلى خراسان؛ لعدم الأقوات، وتجدَّد للسلطان رأيٌ في العود إلى بغداد، فسلَّم إلى إبراهيم ينَّال الموصل وأعمالَها، وخلع عليه، وأعطاه عشرين ألف دينار، وانحدر السلطان إلى بغداد، فنصب إبراهيم خشباً في العسكر، وقال: من تعرَّض لنهبٍ قتلتُه. فقامت الهيبة، ورجع الناس إلى أوطانهم، وعدل بهم فأحبُّوه.

وجاءه رجل فقال: أنا أحمل إلى الخزانة كلَّ يومٍ مئةَ دينار من ضرائب البلد، فأحضر القاضي وأعيان البلد وقال: هذا من بلدكم، وقد قال كذا وكذا، فهل أنتم راضون بفعله؟ فقالوا: إذا أعفيتَنا من العجم رضينا. فقال: إن الله قد وهب لكم ذاك،

---

(١) في (ف): قيل.

(٢) هذه الزيادة من (ف).

وقد اقتصرنا منكم على الخراجات عند إدراك الغلَّات. فدَعَوا له وشكروه، ونادى بذلك في البلد، وأظهر من حُسن السيرة ما سكنت إليه النفوس.

وفي [يوم السبت] سادس شوال وهو سادس كانون الأول طار بعُكْبَرا جراد أسود [يسمى الكيلون وكان كثيراً] جاء من المشرق، وعبر الفرات [ولم يُسمع جراد طار في كانون إلا هذا] وعاش أهل العراق به، فإنهم كانوا يأكلونه نيئاً ومطبوخاً.

ونزل السلطان على باب تِكريت سادس عشر شوال، وسبق العسكر إلى بغداد، فنزلوا دور الناس، وأقام السلطان بقلعة تكريت إنساناً يقال له: النسائي، وتسلَّم الحصن الذي بكرخ سامراء.

وفي نصف الشهر قدم بغدادَ بدرانُ بن دُبيس وأبو الفتح بن وَرَّام، فتلقَّاهما عميد العراق، وحمل إليهما الإقامة، واستدعاهما من الغد رئيسُ الرؤساء، وعَتَبَ على ابن وَرَّام بميله إلى البساسيري، فقال: أنتم أحوجتمونا إلى ذلك، فإن السلطان لمَّا ورد هذه البلاد أبعدتُم الناس كلَّهم بنهب عساكره الأموال والأولاد والأهل، فلم يبقَ لنا مكانٌ نأويه، فأصعدنا خوفاً على جوعنا وأموالنا. فخاطبه بالجميل، ووعده عن الخليفة بكل خير، ووصل السلطان إلى القُفْص[١] لستٍّ بقِينَ من الشهر، وخرج رئيس الرؤساء لاستقباله ومعه بدران وابن وَرَّام والخدمُ الخاصُّ، وبين يديه الأعيان والأمراء والجنائب والعَمَارية، وعلى رأسه مِطْرَد[٢]، وأصحبه الخليفةُ للسلطان فَرَجية ديباج مشجَّرة بالذهب، وعمامة قصب مُذهبة، وفرساً أدهم بمركب ذهب، وتلقَّاه عميد الملك، ودخلوا إلى السلطان وهو جالس في خَرْكاة[٣] على سرير وعليه قَباءٌ أسود وقَلنسوة سمُّور، فلمَّا قَرُبَ منه جثا السلطان على ركبتيه، وتطاول له، وعانقه بيديه، ثم طرح كرسياً من ذهب مُرصَّعاً بالجواهر، فجلس عليه، ثم قام وأدَّى رسالة الخليفة، وهي تشتمل على الأُنس بقُربه، والسرورِ بسلامته، والإحماد لسعيه، فأومأ إلى تقبيل الأرض [وقال: أنا خادم هذه الدار العزيزة، ومتشرِّفٌ بخدمتها، ومبتهجٌ بقربي منها.

---

(١) القُفْص: قرية مشهورة بين بغداد وعُكبَرا. معجم البلدان ٤/ ٣٨٢ .

(٢) المِطْرَد: الراية والعلم. تكملة المعاجم ٧/ ٣٧ .

(٣) الخَرْكاة: الخيمة الكبيرة، وقد تقدمت مراراً.

ولبس الفَرَجية، ووضع العمامة على المخدَّة، وأحضر الفرس، وأوى إلى تقبيل الأرض] وقال: قد تتابع الإنعام عليَّ من غير استحقاق، فقال له رئيس الرؤساء: موضِعُك من أمير المؤمنين الكبير، ومَحلُّك الخطير، وأنت النائب عنه في رعيته، وقد حصل - بحمد الله - من الثقة ما لم يبقَ معه احتشام، وسيتواصل إنعام أمير المؤمنين على ما يوجبه حُسنُ رأيه، وجميلُ اعتقاده، فقال: قد زاد شوقي إلى مشاهدة تلك الطلعة الكريمة، وكثُر ارتياحي إلى رؤية تلك الغرة الشريفة. فقال: لن يتأخر ذلك. ثم التفت السلطان إلى ابن وَرَّام وبدران وقال: كيف نور الدولة؟ فقاما وخدما، وذكر قريشاً فقال: ذاك الغدَّار الكذَّاب الخوَّان. فشكر رئيس الرؤساء دبيساً وقال: ما فعل الذي فعل مع البساسيري الملعون إلا رعايةً لنزوله عليه، وانضوائه إليه، وإلا فنور الدولة الموثوق بعهده المرغوب في مثله.

وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة وصل السلطان إلى الخليفة، وكانت الرسائل منه قد تكرَّرت بطلب الاجتماع، وكان جلوس الخليفة جلوساً عاماً مشهوداً، جلس رئيس الرؤساء في صحن السلام، واستدعى النقباءَ والقضاةَ والشهودَ والأعيانَ وبدرانَ وابنَ وَرَّام وعميدَ العراق وحواشي السلطان، وبعث إلى السلطان ابنَي المأمون الهاشميين وخادمين وحاجبين، واستدعاه إلى دار الخلافة، فنزل في طيار الخليفة، وكان قد زيَّن وأرسل إليه، وانحدر خواصُّه في الزبازب وعلى الظهر فِيلان يسيران بإزاء الطيار والعساكر، والناس من جانبي بغداد، ثم قُدِّم له مركبٌ من مراكب الخليفة، فنفر من الفيلين، فقُدِّم له من خيله فرسٌ أشهبُ، فركبه وعليه قَباءُ ديباج أسود، وعمامة مثلَّثة مذهبة، ودخل الدار وبين يديه أولاد الملوك أبو علي وأبو طالب كامروا ابنا أبي كاليجار بن بُوَيه، وقُتُلْمِش ابنُ عمه، وأشراف القُوَّاد والديلم، ونحوٌ من خمس مئة غلام من الترك، والكلُّ بغير سلاح، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلاً على فرسه إلى أن فتح له الباب، فنزل ودخل ماشياً، وتلقَّاه رئيس الرؤساء، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو، وعلى بابه ستور ديباج، فرُفِعت، وإذا بالخليفة جالسٌ على سرير ارتفاعُه من الأرض سبعةُ أذرع في دَسْتِ ديباج منقوشاً وعليه العمامة والقميص المُصْمَتان، وعلى منكبه بردة رسول الله ﷺ وبيده القضيب، فلمَّا رآه

السلطان قبَّلَ الأرض دفعاتٍ كثيرة، ونُصِبَ له كرسيٌّ دون السرير لطيفٌ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: أصعِدْ ركن الدولة إليه، وأصعِدْ معه محمد بن منصور الكُنْدُري مفسِّراً له ومعبِّراً عنه. فصَعِدا، وقال الخليفة لرئيس الرؤساء: قُلْ لركن الدين: أمير المؤمنين حامدٌ لسعيك، شاكرٌ لفضلك، زائدُ الشغف بك، وقد ولَّاك جميعَ ما ولَّاه الله من بلاده، وردَّ إليك مراعاةَ عباده، فاتَّقِ الله فيما ولَّاك، واعرِفْ نعمته في ذلك، واجتهِدْ في عمارة البلاد، وصلاح العباد، ويسِّر العدل، وكُفَّ الظلم. ففسَّر له عميدُ الملك القول، فقام وقبَّل الأرض، وقال: أنا خادم أمير المؤمنين وعبدُه ومتصرِّفٌ على أمره ونهيه، ومتشرِّفٌ بما أهَّلني به واستخدمني فيه، ومن الله أستمدُّ المعونة والتوفيق.

ثم أذن أمير المؤمنين أن تُفاض[1] عليه الخِلعُ، فنزل إلى بيتٍ في جانب البهو، وخلع عليه الخلع المعهودة، وعاد فجلس بين يدي الخليفة، ومنعه التاج أن يُقبِّل الأرض، وقلَّده الخليفةُ سيفاً، وخاطبه بملك المشرق والمغرب، وزاده لواءً ثالثاً عقده بيده، وأحضر العهدَ وقال: ليُسلَّمْ إليه. وقُرِىء صدرٌ منه، وقال له: اعمَلْ بموجبه. ثم قال: آمرك بما أمرك الله به، وأنهاك عما نهى الله عنه، وهذا منصور بن محمد نائبُنا لديك، وخليفتُنا عندك، فاحتفِظْ به، وارْعَه فإنه الثقة الأمين، انهض ـ على اسم الله تعالى ـ مصاحَباً محروساً. فسأله مصافحته، فأعطاه يده فقبَّلها ووضعها على وجهه دفعتين، وخرج والأكابر بين يديه، ورُفعت الألويةُ من سطح صحن السلام، وخطب من الرَّواشن لئلا يكسر في الأبواب، وجلس للهناء، وبعث في اليوم الثالث للخليفة خمسين غلاماً أتراكاً على الخيول بالسيوف والمناطق، وعشرين رأساً من الخيل، وخمسين ألف دينار، وخمس مئة ثوب أنواعاً، ولرئيس الرؤساء خمسة آلاف دينار وخمسين ثوباً.

وفي ذي الحجَّة قبض صاحبُ مصر على وزيره أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وعلى ثمانين من أصحابه، وقُرِّرت عليهم أموالٌ عظيمة، وكتب خطة بثلاثة آلاف ألف دينار، وأصله من يازور؛ قريةٍ بالساحل من أعمال الرملة، وترامت به الحال إلى أن صار قاضيها، وله بها أملاك نفيسة، فاتَّفق أنه لحقها أمرٌ عجز به عن ارتفاعها، ولم يوفِ للسلطان ما يجب له عليها، وأدى البعض، وبقي البعض، فطالبه مُعِزُّ الدولة

---

(١) العبارة في (ف): ثم إن أمير المؤمنين أفاض.

والي الرملة، فقال: ليس لي طاقة. فكتب إلى مصر، فأمر بحمله إليها، فأقام على باب الديوان مطالباً، وخرج الناس إلى الحجِّ، فسأل السيدةَ والدة المستنصر بالله أن تفسح له في الحج، فأذِنَتْ له في الإشراف على خزانتها الخارجة إلى مكة، فحجَّ وعاد إلى المدينة، فزار قبرَ رسول الله ﷺ، وجلس يدعو، فسقطت على كتفه من حائط حجرة النبي ﷺ قطعةٌ من الخَلوق[1] الذي عليه، ورأى ذلك أحد الخُدَّام، فجاء إليه وقال له: يُهنيك ولايةٌ كبيرة جليلةٌ، تملك بها أمور المسلمين. قال: ومن أين لك هذا؟ فقال: هذه عادة هذا الحائط إذا وقع منه قطعة على أحد، فعاهِدْني على ما تفعله معي إذا صحَّ ذلك. فقال: مهما شئتَ. وعاد إلى مصر فلم يَحُلِ الحولُ عليه حتى تقلَّد الوزارة، ووفَّى للخادم بما ضمن له، وصارت له بالمسجد وساكنيه عنايةٌ عظيمةٌ، ومراعاةٌ شديدة.

وقال ابن الصابئ: وفي العشر الآخر من ذي الحجة قُبِضَ بمصر على الوزير أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن البازوري وعلى ثمانين نفساً من أصحابه، وقُرِّر عليه ثلاثةُ آلاف ألف دينار، وعلى ابن زكريا القاضي - وكان خِصِّيصاً به - مئةٌ وخمسون ألف دينار، ومن أبي الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي مثلُه، ومن قرابته خمسون ألف دينار، واختلفت الروايات في سبب ذلك، وكانت فيه سماحةٌ وكرمٌ وجودٌ وسَعةُ صدر، وله ألقاب كثيرة: الناصر لدين الله، غياثُ المسلمين، الأوحد، الأجَلُّ، سيد الوزراء، وتاج الأصفياء، وقاضي القضاة، وداعي الدُّعاة، وعلم المجد، خليل أمير المؤمنين وخاصته، أبو الفرج البابلي، صاحب الديوان لتنفيذ الأمور. وكان البازوري حنفيَّ المذهب.

وقال أبو يوسف القزويني: التقاني يوماً وهو متوجِّهٌ إلى الديوان، فلمَّا رآني وقف، فوقف الناس لأجله، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: إليكَ. قال: في أيِّ شيء؟ قلت: قصدني الناس في حوائج التزمتُ قضاءها. فقال: لا أبرحُ من مكاني حتى تذكرها. فجعلتُ أذكر له حاجةً حاجةً وهو يقول: نعم وكرامة، حتى قال في الحاجة الأخيرة: السمع والطاعة. ومضى، فانفرد أميرٌ كان معه إليَّ وقال لي: أيُّ شيء أنت؟ قلت: لا شيء. قال: لا شيء، يقول له الوزير: السمع والطاعة، عرِّفني ما أنت؟ قلت: من أهل العلم. فقال: استكثِرْ مما معك، فإنه إذا كان في شخص أطاعَتْه الملوك.

---

(١) الخَلوق: ضربٌ من الطِّيب يُتخذ من الزعفران. تاج العروس (خلق).

وفيها تُوفِّي

أحمد بن عبد الله[١]

ابن سليمان بن محمد بن سليمان بن داود بن المُطهِّر بن زياد بن ربيعة بن الحارث ابن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن عبد بن غطفان بن عمرو بن بَريح بن جَذيمة بن تيم الله بن أسد بن وَبْرة بن تَغْلِب بن حُلوان بن عمران [بن الحافِ][٢] بن قُضاعة، أبو العلاء، التنوخي، المعرِّي، وتنوخ: قبيلةٌ من اليمن، توفي يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول بمعرة النعمان من الشام، ومولده يوم الجمعة لثلاثٍ بَقِينَ من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاث مئة، وأصابه جُدريٌّ في سنة سبع أواخر سنة ست وستين وثلاث مئة، فغشي حدقتيه بياضٌ فعمي، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، أو اثنتي عشرة، وسمع اللغة وأملى فيها كتباً، وله بها معرفة تامة، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنةً وسبعة أشهر، ثم عاد إلى منزله، فلزم منزله، وسمَّى نفسه: رَهينَ المحبِسَين ـ يعني منزلَه وبصرَه ـ وأقام خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن، ويُحرِّم إيلام الحيوان، ويقتصر على ما تنبت الأرض، ويلبس خشن الثياب، وأقواله تدلُّ على اختلاط عقيدته.

وقال الخطيب التبريزي: قال لي المعرِّي: ما الذي تعتقد؟ فقلت في نفسي: اليومَ أعرف اعتقاده، فقلتُ: ما أنا إلا شاكٌّ. فقال: وكذا شيخك. وكان ظاهرُ أمره الميل إلى مذهب البراهمة؛ لأنهم لا يرون ذبح الحيوان، ويجحدون الرسل.

وقد رماه جماعة بالزندقة والإلحاد، وذلك أمر ظاهر في كلامه وأشعاره، وأنه يردُّ على الرسل، ويَعيب الشرائع، ويجحد البعث.

وقال أبو الوفاء بن عقيل: ومن العجائب أنَّ المعرِّي أظهر ما أظهره من كفره البارد الذي ما بلغ فيه مبلغ شبهات الملحدين، بل قصَّر فيه كلَّ التقصير، وسقط من عيون

---

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٤٠-٢٤١، والمنتظم ١٦/ ٢٢-٢٧، ومعجم الأدباء ٣/ ١٠٧-٢١٨. وينظر السير ١٨/ ٢٣.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عدد من مصادر الترجمة.

الناس، ثم اعتذر بأنَّ لقوله باطناً، وأنه مسلمٌ في الباطن، فلا عقلَ ولا دين؛ لأنه يظاهر بالكفر، وزعم أنه مسلم في الباطن، وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة، فإنهم تظاهروا بالإسلام، وأبطنوا الكفر، فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى هذا، فلا أسخفَ عقلاً ممن سلك هذه الطريقة التي هي من طريقة الكفار والمنافقين والزنادقة، وهو مثل ابن الرِّيْوَندي وأبي حيان، فإنهم انكشف كلامُهم عن مثل هذا، يتكلمون في التوحيد والتحميد والتقديس، ويدسُّون في أثناء ذلك المحن.

قال ابن الصابىء: وله شعر كثير، وفيه أدب غزير، ويرمى بالإلحاد، وأشعاره دالَّةٌ على ذلك، ولم يَكُ يأكل لحوم الحيوان ولا البيض ولا اللبن، ويقتصر على ما تُنبته الأرض، ويُحرِّم إيلام الحيوان، ويظهر الصوم في زمانه جميعه، ونذكر طرفاً مما بلغَنا من شعره الدالِّ على إلحاده، فمنه: [من الكامل]

صَرْفُ الزمانِ مُفرِّقُ الإلفَينِ ... فاحكُمْ إلهي بينَ ذاكَ وبيني
أنهيتَ عن قتلِ النفوس تعمُّداً ... وبعثْتَ تقبضُها مع الملَكَينِ
وزعمتَ أنَّ لها مَعاداً ثانياً ... ما كان أغناها عن الحالينِ(١)

ومنه: [من البسيط]

تناقضٌ ما لنا إلا السكوتُ لَهُ ... وأن نعوذَ بمولانا من النارِ
يدٌ بخمسِ مِئينِ عسجدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعَتْ في ربعِ دينارِ(٢)

ومنه: [من الوافر]

قِرانُ المشتري زُحلاً يُرجَّى ... لإيقاظِ النواظرِ من كراها
وهيهاتَ البريةُ في ضلالٍ ... وقد فَطِنَ اللبيبُ لما اعتراها
تقضَّى الناسُ جيلاً بعد جيلٍ ... وخُلِّفَتِ النجومُ كما تراها
تقدَّمَ صاحبُ التوراة موسى ... وأوقَعَ بالخسارِ من اقتراها
فقالَ رجالُهُ وحيٌ أتاهُ ... وقالَ الناظرونَ بلِ افتراها
وما حجِّي إلى أحجارِ بيتٍ ... كؤوسُ الخمرِ تُشرَبُ في ذُراها

(١) معجم الأدباء ٣/ ١٧٠ و١٧٤.
(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٧٣٧، ومعجم الأدباء ٣/ ١٦٩.

إذا رجع الحكيمُ[1] إلى حِجاه ... تهاونَ بالمذاهبِ وازْدَراها

ومنه: [من الوافر أيضاً]

عقولٌ يستخِفُّ بها حليمٌ ... ولا يدري الفتى لمن الثُّبورُ

كتابُ محمدٍ وكتابُ موسى ... وإنجيلُ ابنِ مريمَ والزَّبورُ[2]

ومنه: [من الطويل]

إذا كانَ لا يحظى برزقِكَ عاقلٌ ... وترزقُ مجنوناً وتُعطي أحمقا

فلا ذنبَ يا ربَّ السماءِ على امرئٍ ... رأى منكَ ما لا يشتهي فتزندقا

ومنه: [من الطويل أيضاً]

ضَحِكنا وكان الضِّحكُ منا سفاهةً ... وحُقَّ لسُكَّانِ البسيطةِ أن يبكوا

تُحطِّمُنا الأيامُ حتى كأنَّنا ... زجاجٌ ولكن لا يُعادُ لهُ سَبْكُ[3]

ومنه: [من الكامل]

خبرُ المقابرِ في القبورِ ومَنْ لهُمْ ... بمبشِّرٍ يأتي بصدقِ المحشرِ

هيهاتَ يُرجى ميتٌ في قبرِهِ ... لو صحَّ ذاكَ لكانَ عينَ المتجرِ

خسِرَتْ تجارتُهم فهَلْ من ميِّتٍ ... يرجو التجارةَ من ضريح المحفرِ

ومنه: [من البسيط]

في كلِّ أمرِكَ تقليدٌ تدينُ بِهِ ... حتى مقالُكَ ربي واحدٌ أحدُ

وقد أُمِرْنا بفكرٍ في بدائعهِ ... فإنْ تَفَكَّرَ فيه معشرٌ لَحدوا

لولا التنافسُ في الدنيا لما وُضِعَتْ ... كتبُ التناظرِ لا المغني ولا العمَدُ[4]

ومنه: [من البسيط أيضاً]

أستغفرُ اللهَ في أمني وأوجالي ... مِنْ غفلتي وتوالي سوءِ أعمالي

قالوا هَرِمْتَ ولم تطرُقْ تِهامةَ في ... مُشاةِ وفدٍ ولا ركبانِ أجمالِ

---

(١) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٦٨٩ ـ والأبيات فيه ـ: الحصيف، وفي معجم الأدباء ٣/ ١٦٧ : الحليم.

(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٥٩٥ ، ومعجم الأدباء ٣/ ١٧٠ .

(٣) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١١٥٤ ، ومعجم الأدباء ٣/ ١٢٧ و١٦٩ .

(٤) معجم الأدباء ٣/ ١٧١ .

فقلتُ إني ضريرٌ والذينَ لهمْ … رأيٌ رأَوا غير فرضِ الحجِّ أمثالي
ما حجَّ جدِّي ولم يحجُجْ أبي وأخي … ولا ابنُ عمي ولم يعرِفْ منًى خالي
وحجَّ عنهم قضاءً بعدما ارتحلوا … قومٌ سيقضون عني بعد ترحالي
فإن يفوزوا بغفرانٍ أفُزْ معهُمْ … أو لا فإني بنارٍ مثلُهمْ صالِ
ولا أرومُ نعيماً لا يكونُ لهمْ … فيه نصيبٌ وهم رهطي وأشكالي
فهَلْ أُسَرُّ إذا حُمَّتْ محاسبتي … أم يقتضي الحكمُ تَعْتابي وتَسْآلي
مَنْ لي برضوانَ أدعوهُ فيرحمُني … ولا أُنادي مع الكفارِ أمثالي
باتوا وحتفي أمانيٌّ لباكيهم … وبِتُّ لم يخطروا منِّي على بالِ
قالوا وهم لقبولٍ في كنافهمُ … ولا نجاحَ لأفيالٍ كأفيالِ
لمَّا هتفتُ بنصرِ اللهِ أيَّدني … كأنْ نُصِرْتُ بجبريلٍ وميكالِ
وجاءني ذاك عزرائيل يغضب لي … فيقبض الروحَ مغتاظاً بإعجالِ
فما ظنونُكَ إذْ جندي ملائكةٌ … وجندهُمْ بين طوَّافٍ وبقَّالِ
تباركَ اللهُ لا أرجو مثوبَتَهُ … لكن تعبُّدَ إعظامٍ وإجلالِ

ومنه: [من الكامل]

هَفَتِ الحَنيفَةُ وَالنصَارى ما اهتَدَتْ … ويَهودُ حارَتْ وَالمَجوسُ مُضَلَّلَهْ
إثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عَقلٍ بِلا … دينٍ وَآخَرُ دَيِّنٌ لا عَقلَ لَهْ[1]

ومنه: [من الوافر]

كَأَنَّ مُنَجِّمَ الأقوامِ أعمى … لَدَيهِ الصُحْفُ يَقرَؤُها بِلَمْسِ
لَقَد طالَ العَناءُ فَكَم يُعاني … سُطوراً عادَ كاتِبُها بِطَمْسِ
أتى عيسى فعطَّلَ دينَ موسى … وجاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ
وقيلَ يَجيءُ دينٌ بعد هَذا … وأودى الناسُ بَينَ غَدٍ وَأَمْسِ
ومَن لي أن يَعودَ الدينُ غَضًّا … فيقنعَ مَنْ تنسَّكَ بالتأسِّي
ومَهما كانَ من دُنياكَ أمرٌ … فَما تُخليكَ مِن قَمَرٍ وشَمْسِ

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٦٩، ومعجم الأدباء ٣/ ١٦٨.

لَـحـا الـرحـمـنُ داراً لا تُـدارى ... بـمِـثـلِ الـمَـيـنِ فـي لُـجَـجٍ وقَـمْـسِ
قُـدومُ أَصـاغِـرٍ ورَحـيـلُ شـيـبٍ ... وهِـجـرَةُ مَـنـزِلٍ وحُـلـولُ رَمْـسِ
إذا قُـلـتُ الـمُـحـالَ رَفَـعـتُ صَـوتـي ... وإن قُـلتُ الـيَـقـيـنَ أطـلْـتُ[1] هَـمْـسي

ومنه: [من مخلع البسيط]

قـلـتُـمْ لـنـا خـالِـقٌ قـديـمٌ ... صـدقـتـمُ هـكـذا نـقـولُ
زعـمـتـمـوهُ بـلا زمـانٍ ... ولا مـكـانٍ ألا فـقـولـوا
هـذا كـلامٌ لـه خـبـيءٌ ... مـعـنـاهُ لـيـسـتْ لـكـم[2] عـقـولُ

ومنه: [ومن البسيط]

ديـنٌ وكُـفـرٌ[3] وأنـبـاءٌ تُـقـال وفُـرْ ... قـانٌ يـنُـصُّ وتـوراةٌ وإنـجـيـلُ
فـي كـلِّ جـيـلٍ أبـاطـيـلٌ يُـدانُ بـهـا ... فـهـلْ تـفـرَّدَ يـومـاً بـالـهـدى جـيـلُ

ومن ذلك أيضاً: [من البسيط]

الـحـمـدُ لـلـهِ قَـدْ أصـبـحـتُ فـي لُـجَـجٍ ... مُـكـابِـداً مـن هـمـومِ الـدهـرِ قـامـوسا[4]
قـالـت مـعـاشـرُ لـم يَـبـعَـثْ إلـهـكُـمُ ... إلـى الـبـريَّـةِ عـيـسـاهـا ولا مـوسـى
وإنـمـا جـعـلـوا الـرحـمـن مـأكـلـةً ... وصـيَّـروا ديـنـهـم لـلـمـلـك[5] نـامـوسـا
ولـو قـدَرْتُ لـعـاقـبـتُ الـذيـن طـغَـوا ... حـتـى يـعـودَ حـلـيـفُ الـغـيِّ مـغـمـوسـا[6]

ومنه: [من الوافر]

ولا تـحـسَـبْ مـقـالَ الـرُّسْـلِ حـقًّـا ... ولـكِـنْ قـولُ زورٍ سـطَّـروهُ

---

(١) في (خ): ظلمت، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في لزوم ما لا يلزم ٢/ ٩٢٠، ومعجم الأدباء ٣/ ١٦٤، وتاريخ الإسلام ٩/ ٧٢٦.

(٢) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٢٧، ومعجم الأدباء ٣/ ١٧٢: لنا، والأبيات فيهما.

(٣) في النسختين (خ) و(ف): بيض، وهو تحريف ظاهر، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٢٥، ومعجم الأدباء ٣/ ١٧٢، وتاريخ الإسلام ٩/ ٧٢٥.

(٤) في النسختين (خ) و(ف): ناموسا، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٩٢، ومعجم الأدباء ٣/ ١٧٢.

(٥) في اللزوم وتاريخ الإسلام: وصيَّروا لجميع الناس.

(٦) في اللزوم: مرموسا.

وكَـانَ الـنـاسُ فـي عـيـشٍ رخـيٍّ[1] فـجـاؤوا بـالـمِـحـالِ فـكـدَّروهُ

ومنه: [من البسيط]

والـروحُ أرضِـيَّـةٌ فـي رَأيِ طـائِـفَـةٍ وعِـنـدَ قَـومٍ تَـرقَّـى في الـسـمـاواتِ

تَمضي عَلى هَيئَةِ الشَّخصِ الَّذي سَكَنَتْ فـيـه إلـى دارِ نُـعـمـى أو شَـقـاواتِ

وكَونُها في صفيحِ[2] الجِسمِ أَحوَجَها إلـى مَـلابِـسَ عَـنَّـتـهـا وَأَقـواتِ

وإنَّـمـا حَـمَّـلَ الـتَّـوراةَ قـارِئَـهـا كَـسـبُ الـفـوائِـدِ لا حُـبُّ الـتـلاواتِ

إنَّ الـشَّـرائِـعَ أَلـقَـت بَـيـنَـنـا إِحَـنـاً وأورثَـتْـنـا أفـانـيـنَ الـعَـداواتِ

وهَلْ أُبيحَتْ نساءُ الرومِ عن عُرُضٍ لـلـعُـربِ إلا بـأحـكـام الـنـبـوَّاتِ

ومنه: [من المتقارب]

لـعـمـري لـقـدْ طـالَ هـذا الـسَّـفَـرْ عـلـيَّ وأصـبـحـتُ إحـدى الـنُّـكَـرْ[3]

أأخـرجُ مـن تـحـتِ هـذي الـسـمـاءِ فـكـيـفَ الإبـاقُ وأيـنَ الـمـفـرّ

لـحـا الـلـهُ قـومـاً إذا جـئـتَـهُـمْ بـصـدقِ الأحـاديـثِ قـالـوا كـفَـرْ

وإنْ غُـفِـرَتْ مـوبـقـاتُ الـذُّنـوبِ فـكـلُّ مـعـايـبـهـمْ تُـغـتَـفَـرْ

هـنـيـئـاً لـجـسـمـي إذا مـا اسـتـقَـرّ وصـارَ لـعـنـصـرِهِ فـي الـعـفَـرْ[4]

ومنه: [من الطويل]

أفـيـقـوا أفـيـقـوا يـا غـواةُ فـإنَّـمـا ديـانـتُـكُـمْ مـكـرٌ مـن الـقُـدمـاءِ[5]

ومنه: [من السريع]

لا يـكـذبِ الـنـاسُ عـلـى ربِّـهـمْ مـا حُـرِّكَ الـعـرشُ ولا زُلْـزِلا[6]

---

(١) في معجم الأدباء ٣/ ١٧٣: رغيد.

(٢) في لزوم ما لا يلزم ١/ ٢٨٢: طريح.

(٣) في لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٢٣: وأصبحتُ أحدو النَّفَر.

(٤) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٢٣، والعَفَر: التراب.

(٥) لزوم ما لا يلزم ١/ ٦٠.

(٦) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٧٥.

ومنه: [من البسيط]

كونٌ يُرى وفسادٌ جاء يتبعُهُ تباركَ اللهُ ما في خلقهِ عبَثُ
وإنْ يُؤذِّنْ بلالٌ لابنِ آمنةٍ فبعدَه لسَجاحٍ قد دعا شَبَثُ[1]

وله كتاب عارض به السور والآيات، سمَّاه «الفصول والغايات» وغير ذلك، [وشعره فيه إلحادٌ ما اشتهيتُ أذكرُه.

قال ابن الصابىء: وحدثني الوزير فخر الدولة أبو نصر بن خميس قال: حدثني] المنادي الشاعر [قال]: اجتمعتُ بأبي العلاء بمعرة النعمان، فقلت له: ما هذا الذي يُحكى عنك؟ فقال: حسدني قوم، فكذبوا عليَّ. فقلتُ: علامَ حسدوك، وقد تركتَ لهم الدنيا والآخرة؟ فقال: والآخرة؟! قلت: إي والله. ثم قلتُ: فلِمَ تمتنِعُ من أكل الحيوان، وتلوم من يأكله؟ فقال: رحمةً مني له، وإنهم يأكلون ما تأكلون. قلت: لا، بل تقول: إنه من شرِّ الناس، فلَعمري إنهم يجدون ما يأكلون، وعن اللُّحمانِ يتعوَّضون. [قلت]: فما تقول في السباع والجوارح التي خُلِقَتْ لا غذاءَ لها غير لحوم الناس والبهائم، ولا طعامَ تعتاضُ به عنها، وما أنت بأرأفَ من الخالق بخلقه، ولا أحكمَ منه في تدبيره وإن كانتِ الطبائع المحدثة لذاك على مذهبك، فما أنتَ بأحذقَ منها، ولا أتقنَ صنعاً له، ولا أحكمَ عملاً حتى تعطِّلها ويكون رأيُكَ وعقلُكَ أرجحَ منها؟ فسكت.

وقال محمد بن الصابىء: أذكر عند ورود الخبر بموته، وقد تذاكرنا أمرَه وكفرَه ومعنا غلام يُعرف بأبي غالب بن نبهان من أهل الخير والسلامة والعفة[2] والديانة، فلمَّا كان من غد ذلك اليوم قال: رأيتُ البارحةَ في منامي رجلاً شيخاً ضريراً وعلى كتفيه أفعيان قد تدلَّيا إلى فخذيه، وكلٌّ منهما يرفع فمه إلى وجهه، فيقطع منه قطعةَ لحم فيزدردها وهو يصيح ويستغيث، فقلت: مَنْ هذا؟ وقد أفزعني ما رأيتُه، وروَّعني ما

(١) شَبَث: هو ابن رِبْعي، كان مؤذِّن سَجاح ـ زوج مسيلمة ـ ثم أسلم، ثم كان ممَّن أعان على عثمان، ثم صحب علياً، ثم صار من الخوارج عليه، ثم تاب. تقريب التهذيب (ترجمة شبث بن ربعي).

(٢) في (م) و(م١): والفقه.

شاهدتُه، فقيل لي: هذا المعرِّي الملحد. قال: فعجِبْنا من ذلك، فاستظرفناه حيث وقع عقيب ما تفاوضناه من كفره[١].

وقال الشيخ أبو الفرج [ابن][٢] الجوزي: مات المعرِّي بمعرة النعمان عن ستٍّ وثمانين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً، في ربيع الأول، وذُكِرَ لنا أنه أُنشِد على قبره ثمانون مرثيةً رثاه بها أصحابُه ومَنْ قرأ عليه ومال إليه، حتى قال بعضهم: [من الكامل]

إنْ كنتَ لم تُرِقِ الدماءَ زهادةً فلقَدْ أرَقْتَ اليومَ من عيني دما[٣]

وهؤلاء بين أمرين، إمَّا جُهَّالٌ بما كان عليه، وإمَّا قليلو الدِّين، ومن سبر خفيات الأمور بانت له، فكيفَ بهذا الكفر الصريح في هذه الأشعار؟!

[قلت: وقد ذكره الغزالي في كتاب له سمَّاه «سر العالمين وكشف ما في الدارين» وقال:][٤] حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار قال: دخلتُ معرة النعمان وقد وشى وزيرُ محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأنَّ المعرِّي زنديق لا يرى إفساد الصور[٥]، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل، فأمر محمود بحمله إليه من المعرَّة إلى حلب، وبعث خمسين فارساً [إليه] ليحملوه، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة، فدخل عليه عمُّه مسلم بن سليمان وقال له: يا ابن أخي، قد نزلَتْ بنا هذه الحادثة، الملك محمود يطلبك، فإن منعناك عجزنا، وإن أسلمناك[٦] كان عاراً علينا عند ذوي الذمام، ويركب تنوخاً العارُ والذِّلةُ. فقال له: هَوِّنْ عليك يا عم، فلا بأس علينا، فلي سلطانٌ يذُبُّ عني. ثم قام فاغتسل وصلَّى إلى نصف الليل، ثم قال لغلامه: انظُرْ أين[٧] المريخ. فقال: في منزلة كذا وكذا. فقال: زِنْه واضرِبْ تحته وتداً، وشُدَّ في رجلي خيطاً واربُطْه إلى الوتد. ففعل غلامُه ذلك، فسمعناه وهو يقول: يا قديمَ الأزل، يا علةَ العِلَل، يا صانعَ

---

(١) في (م) و(م١): أمره.

(٢) هذه الزيادة من (ف).

(٣) قائله علي بن الهمام، وهو في معجم الأدباء ٣/ ١٢٦، وفيه: جفني، بدل: عيني.

(٤) في (خ) و(ف) بدلاً منها: وقال الغزالي.

(٥) تحرفت في (م) إلى: الصوم.

(٦) في (م) وحدها: أرسلناك.

(٧) في (ف) وحدها: إلى.

المخلوقات، وموجدَ الموجودات، أنا في عزِّكَ الذي لا يُرام، وكنفك[١] الذي لا يُضام، الضيوفَ الضيوفَ، الوزيرَ الوزير، ثم ذكر كلمات لا تُفهم، وإذا بهدَّةٍ عظيمة، فسأل عنها، فقيل: وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها، فقتلت الخمسين.

وعند طلوع الشمس وقعَتْ بطاقةٌ من حلب على جناح طائر، فيها: لا تُزعجوا الشيخ، فقد وقع الحِمامُ على الوزير. قال يوسف بن علي: فلمَّا[٢] شاهدتُ ذلك دخلتُ على المعرِّي، فقال: من أين أنت؟ قلت: من أرض الهركار. فقال: زعموا أني زنديق. ثم قال: اكتُبْ. وأملى عليَّ [أبياتاً من شعره] وقال: [من البسيط]

باتوا وحَتْفي أمانيهم مصوَّرةٌ[٣] ... وبِتُّ لم يخطروا منِّي على بالِ
وفوَّقوا لي سهاماً من سهامهمُ ... فأصبحَتْ وقَّعاً عنِّي بأميالِ
فما ظنونُكَ إذْ جندي ملائكةٌ ... وجندهُمْ بين طوَّافٍ وبقَّالِ
لقيتُهم بعصا موسى التي منعَتْ ... فرعونَ مِلكاً ونَجَّتْ آلَ إسرالِ
أُقيمُ خمسي وصومُ الدَّهرِ آلَفُهُ ... وأُدمِنُ الذِّكرَ[٤] أبكاراً بآصالِ
عيدَينِ أُفطرُ في عامي إذا حضرا ... عيدُ الأضاحيِّ يقفو عيدَ شوَّالِ
إذا تنافستِ الجُهَّالُ في حُلَلٍ ... رأيتني من خشين القطن سربالي
لا آكلُ الحيوانَ الدَّهرَ مأثُرةً ... أخافُ من سوءِ أعمالي وآمالي
وأعبدُ اللهَ لا أرجو مثوبتَهُ ... لكنْ تعبُّدَ إكرامٍ وإجلالِ
أصونُ دينيَ عن جُعْلٍ أُؤمِّلُهُ ... إذا تعبَّدَ أقوامٌ بأجعالِ

قال المصنف رحمه الله: ولا خلاف في سَعةِ علم الرجل، وغزارةِ فضله، وصحةِ نسبه، وأنه أوحد زمانه، وله المصنفات الحِسان، [التي فاق بها على أبناء الزمان] منها: «لزوم ما لا يلزم» في عدة مجلدات، و«استغفِرْ واستغفري» في ست مجلدات، و«رسالة الغفران» و«رسالة الملائكة» و«زجر النابح» و«بحر الرجز» و«سَقط الزَّنْد»

(١) في (م) و(م١): سلطانك.
(٢) في (م) و(م١): وأنا.
(٣) في (خ): وحتفي أماني أمانيهم، وفي (ف): وحتفي أماني بصورةٍ، والمثبت من الوافي بالوفيات ٧/ ١٠٩.
(٤) في (خ): الدهر، والمثبت من (ف)، والوافي بالوفيات.

و«اللامع العزيزي في شرح المتنبي» و«السجع السلطاني» و«الأيك والغصون» وغير ذلك.

وقال التبريزي: كان لأبي العلاء عشرة من الكُتَّاب يملي على كلٍّ واحدٍ فنوناً غيرَ ما يملي على الآخر، وهم يكتبون له النثر البليغ، فمنه:

القولُ ذهبَ في الهواء، والقومُ غرقوا في الأهواء.

و: إذا حانَ القضاء ضاق الفضاء.

و: نِعْمَ النساءُ المُغتَزِلات، وأبعدَ الله المُتغزِّلات؛ الأول من الغَزْل، والثاني من الغَزَل.

وقال: قبضَ ما شاء وبسط، وأقسطَ وما قسط.

وقال: الْقَ مقاديرَ الله ولا تَلِقْ[1]، وخَلِّقْ لفظَكَ ولا تختلِقْ، وأضِىء بالمعروف وأتلِقْ[2]، وأطلِقْ يمينك فغداً تنطلِق.

وقال: أين النَّثْرةُ من العَثْرة، والفَرْقَدُ من الغَرْقَد.

وقال: الساعي في أثره فارس عصا بصير، لا فارس عصا قصير.

وقال: سَعْفُ النخيل خيرٌ من إسعاف النحيل.

وقال: وأين موضع السَّيل من مطلع سُهيل.

وقال: إذا لقيتَ جارك فحَيِّه، وإن نزح بك الزمنُ عن حَيِّه.

وكان يقول: أورَدني أبي مورداً لابُدَّ أن أرِدَهُ، وواللهِ لا أوردتُه أحداً بعدي.

ولمَّا احتضر قال: [من مجزوء الكامل]

هـــذا جـــنـــاه أبـــي عـــلـــيَّ وما جـنـيـتُ عـلـى أحـد

---

(١) من الوَلْق: وهو الإسراع بالشيء في إثر الشيء. المعجم الوسيط (ولق).

(٢) العبارة في النسختين (خ) و(ف): وارض بالمعروف وأقلق، والتصويب من الفصول والغايات لأبي العلاء المعري ص ٩٣ ، وتألَّقَ البرقُ وأتْلَقَ: لمع. الصحاح (ألق).

[وذكر ابنُ الهَبَّاريَّة في «فلك المعاني» وقال]: بلغَ أبا نصر بن أبي عمران داعي الدُّعاة لصاحب مصر حديثُه، فاستدعاه إلى حلب وكان بها، فسمَّ أبو العلاء نفسه فمات. [قلت] ولم يوافق ابنَ الهبارية على هذا أحد، وقد أجمعوا على أنه مات على فراشه الموت الطبيعي، ومن شعره: [من الخفيف]

يا مريضاً أحلَّ بي كلَّ داءِ إنَّ نفسي تفديكَ كلَّ الفداءِ
حلَّ ما بي فليس يُرجى شفائي كيفَ يَشفى المريضُ من ألفِ داءِ

وقال: [من الطويل]

إذا ما خَبَتْ نارُ الشَّبيبةِ ساءَني ولو نُصَّ لي بينَ النُّجومِ خِباءُ

[وقال: من البسيط]

يأتي على الناسِ إمساءٌ وإصباحُ وكلُّهمْ لصُروفِ الدَّهر نَسَّاءُ
وكم مضى من قبيلٍ أو يماثِلُهُ من المَقاولِ سرُّوا الناس أم ساؤوا
تتوى[1] الملوكُ ومصرُ في تغيُّرِهِمْ مصرٌ على العهدِ والأحساءُ أحساءُ
خَسِسْتِ يا أُمَّنا الدنيا فأُفٍّ لنا بني الخسيسةِ أوباشٌ أخِسَّاءُ
وقد نطقتِ بأصنافِ العِظاتِ لنا وأنتِ فيما يظنُّ القومُ خَرْساءُ
يموجُ بحرُكِ والأهواءُ غالبةٌ لِراكِبيهِ فهلْ للسُّفْنِ إرساءُ
إذا تعطَّفْتِ يوماً كنتِ قاسيةً وإنْ نظرتِ بعينٍ فهي شَوساءُ
نالوا قليلاً من اللَّذاتِ وارتحلوا برَغْمِهم فإذا النَّعماءُ بأساءُ

وقال: [من الكامل]

البابليَّةُ بابُ كلِّ بليَّةٍ فَتَوقَّيَنَّ هجومَ ذاكَ البابِ
جَرَّتْ مُلاحاةَ الصديقِ وهجْرَهُ وأذى النديمِ وفُرقةَ الأحبابِ[2]

قال المصنف رحمه الله: من ها هنا أخذ جدي رحمه الله فقال في «المدهش»[3]: محبة الدنيا مِحنة، عيونها بابلية، كم فتحت باب بلية؟ ولا حيلة كحيلة، من عين كحيلة.

---

(١) تتوى: تذهب. المعجم الوسيط (توي).
(٢) لزوم ما لا يلزم ١/ ٢٠٤ .
(٣) المدهش ص ١٥٥ .

وقال: [من المتقارب]

تـجـيءُ يـهـودُ بـتـوراتـهـا ... وفـيـهـا مـواعـيـدُ عـرقـوبِـهـا
وإسـحـاقُـهـا جـرَّ إسـحـاقَـهـا ... وقـائـبـةُ الـطـيـر مـن قُـوبِـهـا(١)
ورَقُّـوا لأمـلاكـهـم عـنـوةً ... وقـالـوا أحـاديـث رَقُّـوا بِـهـا

إسحاقُها الأول النبي عليه السلام، والثاني إبعادُها.

وقال: [من الخفيف]

سلـكَ الـنَّجْـدُ فـي قِـطـار الـمـنـايـا ... قَـطَـرِيٌّ ونَـجـدةٌ وشَـبـيـبُ(٢)
شبَّ فِـكـرُ الـحـصـيـفِ نـاراً فـمـا يَـحْـ ... ـسُـنُ يـومـاً بـعـاقـلٍ تـشـبـيـبُ(٣)

وقال: [من الخفيف أيضاً]

زارَه حـتـفُـهُ فـقـطَّـبَ لـلـمـو ... تِ وألـقـى مـن بـعـدهـا الـتَّـقـطـيـبـا
زوَّدوه طِـيـبـاً لـيـلـحـقَ بـالـنَّـا ... سِ وحَـسْـبُ الـدَّفـيـنِ بـالـتُّـربِ طـيـبـا
بـاتَ فـي قـبـرهِ وَوُسِّـدَ يُـمـنـا ... هُ فـخِـلـنـاهُ قـامَ فـيـنـا خـطـيـبـا
لـلـمـنـايـا حـواطِـبٌ لا تـبـالـي ... أهـشـيـمـاً جَـرَّتْ لـهـا أم رطـيـبـا
صـرفَـتْ كـأسَـهـا فـلـم تَـسْـقِ شَـرْبـاً ... مـرةً خـالـصـاً وأخـرى قـطـيـبـا(٤)

وقال: [من الخفيف]

أسـطـرٌ لابَ حـولَـهـنَّ جـهـولُ ... فـهـو يـرجـو هـدًى بـأسْـطُـرْلابِ
والـبـرايـا لـفـظُ الـزمـانِ ولا بُـدَّ ... لـه مـن تـغـيُّـرٍ وانـقـلابِ(٥)

وقال: [من البسيط]

الـحـمـدُ لـلـه قـد أصـبـحـتُ فـي دعـةٍ ... أرضـى الـقـلـيـلَ ولا أهـتـمُّ بـالـقـوتِ
وشـاهِـدٌ خـالـقـي أنَّ الـصـلاةَ لـهُ ... أجَـلُّ عـنـديَ مـن دُرٍّ ويـاقـوتِ

---

(١) القُوب: البَيض. المعجم الوسيط (قوب).

(٢) هؤلاء الثلاثة هم: قَطري بن فجاءة، ونجدة بن عويمر، وشبيب بن يزيد، وهم من زعماء الخوارج.

(٣) لزوم ما لا يلزم ١/ ١١٩، والتشبيب: الغَزَل.

(٤) لزوم ما لا يلزم ١/ ١٥٠، والقَطيب: الممزوج.

(٥) لزوم ما لا يلزم ١/ ٢١٠.

ولا أعاشِرُ أهلَ العصرِ إنَّهمُ إنْ عُوشِروا بين محبوبٍ وممقوتِ
يسيرُ بي وبغيري الوقتُ مبتدراً إلى محلٍّ من الآجالِ موقوتِ[١]

وقال: [من المخلع البسيط]

الصَّونُ[٢] في جملةِ العوافي لا الكونُ في جُملة العُفاةِ[٣]
قد خَفَتَ القومُ واستراحوا آهٍ من الصَّمتِ والخُفاتِ
أرى انكفائي إلى المنايا أغنى عن الأسْرةِ الكُفاةِ[٤]
ومن صِفاتِ النِّساءِ قِدْماً أنْ لَسْنَ في الوُدِّ مُنصفاتِ
وما يَبينُ الوفاءُ إلَّا في زَمَنِ الفَقدِ والوفاةِ

وقال: [من البسيط]

خلَصتُ من سَبَرات في السّباريتِ وربَّ يوم كَريتٍ دونَ تكريتِ[٥]
كم بالسَّماوةِ من صِلٍّ ومن أسدٍ كلاهما خُصَّ في شِدْقٍ بتهْريتِ[٦]
ما زُرْتُ داركَ حتى شفَّني تعبي وخارَتِ العِيسُ في آثار خِرِّيتِ[٧]
والخيرُ في الأرض كالأترجِّ مَنبِتُهُ شاكٍ وأُلزمَ تدخيناً بكبريتِ[٨]

وقال: [من الطويل]

ثيابيَ أكفاني ورمسيَ منزلي وعَيْشِي حِمامي والمنيةُ لي بَعْثُ
تحلَّي بأسنى الحَلْيِ واحتلبي الغنى فأفضَلُ من أمثالكِ النُّفَرُ الشُّعْثُ
يسيرونَ بالأقدامِ في سُبُلِ الهدى إلى الله حَزْنٌ ما تَوَطَّأْنَ أو وَعْثُ[٩]

(١) لزوم ما لا يلزم ١/ ٢٧٨ .
(٢) في (خ) و(ف): الكون، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ١/ ٢٩٥ والأبيات فيه.
(٣) العوافي: الدوارس. والعُفاة: الفقراء.
(٤) الكفاة: الكافلون.
(٥) السَّبَرات؛ جمع سَبْرة: وهي الغداة الباردة. والسَّباريت؛ جمع سبروت: وهي الأرض لا نبات فيها. وكَريت: تام. وتِكريت: موضع بالعراق.
(٦) السَّماوة: بادية الشام. والصِّلّ: الحيَّة. وتِهْريت الشِّدق: اتساعه.
(٧) شفَّه التعب: أنحله وأهزله. وخارت العيس: تعبت. والخِرِّيت: الدليل الحاذق.
(٨) لزوم ما لا يلزم ١/ ٢٧٧ .
(٩) لزوم ما لا يلزم ١/ ٣٠٤ .

وقال: [من الوافر]

تـجـمَّـعَ أهـلُـهُ زُمـراً إلـيـهِ وصـاحَـتْ عِـرْسُـهُ أَودى فـصـاحـوا
تُـخـاطِـبُـنـا بـأفـواهِ الـمـنـايـا مـن الأيـامِ ألـسـنـةٌ فِـصـاحُ[١]

وقال يرثي أبا حمزة الفقيه الحنفي: [من الخفيف]

غـيـرُ مُـجْـدٍ فـي مِـلَّـتـي واعـتـقـادي نَـوْحُ بـاكٍ ولا تـرنُّـمُ شـادِ
وشـبـيـهٌ صـوتُ الـنَّـعـيِ إذا قـيـ سَ بـصـوتِ الـبـشـيـرِ فـي كـلِّ نـادِ
أَبَـكَـتْ تـلـكُـمُ الـحـمـامـةُ أم غـنَّـت عـلـى فَـرْعِ غُـصـنِـهـا الـمـيَّـادِ
صـاحِ هـذي قـبـورُنـا تـمـلأُ الأرْ ضَ فـأيـنَ الـقـبـورُ مـن عـهـدِ عـادِ
خَـفِّـفِ الـوطءَ مـا أظـنُّ أديـمَ الْـ أرضِ إلَّا مـن هـذه الأجـسـادِ
سِـرْ إنِ اسـطـعـتَ فـي الـهـواءِ رُويـداً لا اخـتـيـالاً عـلـى رُفـاتِ الـعـبـادِ
فـقـبـيـحٌ بِـنـا وإنْ بَـعُـدَ الـعَـهْـ ـدُ تـنـاسـي الآبـاءِ والأجـدادِ
رُبَّ لـحـدٍ قـد صـار لـحـداً مـراراً ضـاحـكٍ مـن تـزاحُـمِ الأضـدادِ
ودَفـيـنٍ عـلـى بـقـايـا دَفـيـنٍ مـن قـديـمِ الأزمـانِ والآبـادِ
فـسَـلِ الـفـرقـدَيـنِ عـن مـا أحـسَّـا مـن قَـبـيـلٍ وآنَـسـا مـن بـلادِ
كـم أقـامـا عـلـى الـبـيـاض نـهـاراً وأنـارا لـمُـدْلـجٍ فـي سـوادِ
تـعـبٌ كـلُّـهـا الـحـيـاة فـمـا أعْـ ـجَـبُ إلَّا مـن راغـبٍ فـي ازديـادِ
إنَّ حُـزنـاً[٢] فـي سـاعـةِ الـمـوتِ أضـعـا فُ سـرورٍ فـي سـاعـةِ الـمـيـلادِ
خُـلِـقَ الـنـاسُ لـلـبـقـاءِ فـضَـلَّـتْ أمـةٌ يـحـسـبـونَـهُـم لِـلـنَّـفـادِ
إنَّـمـا يُـنـقَـلـون مـن دارِ أعـمـا لٍ إلـى دارِ شِـقْـوةٍ أو رشـادِ
ضـجـعـةُ الـمـوتِ رقـدةٌ يـسـتـريـحُ الْـ ـجِـسْـمُ فـيـهـا والـعـيـشُ مـثـلُ الـسُّـهـادِ
أبَـنـاتِ الـهـديـلِ أسْـعِـدْنَ أوْ عِـدْ نَ قـلـيـلَ الـعـزاءِ بـالإسـعـادِ
إيـهِ لـلـهِ دَرُّكُـنَّ فـأنـتـنَّ الـ ـلَـواتـي تُـحْـسِـنَّ حِـفْـظَ الـودادِ

---

(١) لزوم ما لا يلزم ١/ ٣٦٤.

(٢) بعدها في النسختين (خ) و(ف) زيادة: يكون، ولا يستقيم الوزن بها، والبيت على الصواب في تاريخ بغداد ٤/ ١٤٠، ومعاهد التنصيص ١/ ١٣٦، والحماسة المغربية ٢/ ٨٨١، وغيرها من المصادر.

ما نسيتُنَّ هالكاً في الأوانِ الـ ... خالِ أودى من قَبْلِ هُلْكِ إيادِ
بَيْدَ أنِّي لا أرتضي ما فعلتُنَّ وأطواقُكُنَّ في الأجيادِ
فتَسَلَّبنَ واستَعِرْنَ جميعاً ... مِنْ قميصِ الدُّجى ثيابَ حِدادِ
ثُمَّ غَرِّدْنَ في المآتمِ واندُبْـ ... نَ بشَجْوٍ مع الغواني الخِرادِ[1]
قَصدَ الدهر من أبي حمزة الأوّ ابِ مولى حِجًى ومولى اقتصادِ
وفقيهاً أفكارُه شِدْنَ للنُّعـ ... ـمانِ ما لم يَشِدْهُ شِعرُ زيادِ
راوياً للحديث لم يُحْوِجِ الـ ... ـراوي من صدقِهِ إلى الإسنادِ
أنفق العمرَ[2] دائباً يطلب العِلْـ ... ـمَ بكَشْفٍ عن أصلهِ وانتقادِ
[وَدِّعا أيُّها الحَفِيّانِ ذاكَ الـ ... ـشَخْصَ إنَّ الوداعَ أَيْسَرُ زادِ[3]]
فاغسِلاه بالدَّمعِ إنْ كان طُهْراً ... وادفِناه بين الحشا والفؤادِ
واتْلُوا النَّعْشَ بالقراءةِ والتَّـ سبيحِ لا بالنَّحيب والتَّعدادِ
رُبما أخرجَ الحزينُ جوى الثُّكْـ ... ـلِ إلى غيرِ لائقٍ بالسَّدادِ
مِثْلَ ما فاتَتِ الصلاةُ سُليما ... نَ فأحنى على رقابِ الجيادِ
وهو من سُخِّرت له الإنس والجِنُّ بما صحَّ من شهادةِ صادِ
كيفَ أصبحتَ في محلِّكَ بعدي ... يا جديراً منِّي بحُسْنِ افتقادِ
قد أقرَّ الطبيبُ منهُ بعجْزٍ ... فتقضَّى تردُّدُ العُوَّادِ
والذي حارتِ البريَّةُ فيهِ ... حيوانٌ مستَخرَجٌ من جمادِ
واللبيبُ الأريبُ مَنْ ليس يغترُّ بِكَوْنٍ مصيرُه لفسادِ

وقال: [من المنسرح]

سِرْتُ ثمانينَ طالباً أجَلي ... والحَينُ إثري كأنَّهُ حادي
ما أنا بالمُلْحدِ الكفورِ ولا ... أسألُ مولايَ غيرَ إلحادي
ناديتُ أينَ الذين كان بهم ... يشرُفُ هذا الفناءُ والنَّادي

---

(١) الخِراد؛ جمع خرود: وهي البكر التي لم تُمَسّ. المعجم الوسيط (خرد).

(٢) في (ف): العلم.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (خ) و(ف) وهو في بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/ ٤٥٣ .

مـــزادتـــي الآنَ لا بِـــلالَ بـــهـــا ... ومِـــزْوَدي مُـــنْـــفِـــضٌ مـــن الـــزَّادِ
والـسـفـرُ الـدائـمُ الـمـواصَـلُ يَـحْـ ... تـــاجُ إلـــى عُـــدَّةٍ وعـــتـــادِ

وقال: [من الطويل]

ألا إنَّ أخـلاقَ الـفـتـى كـزمـانـهِ ... فـمـنـهـنَّ بِيضٌ في الـعـيـونِ وسُودُ
وتـأكُـلُـنـا أيـامُـنـا فـكـأنَّـمـا ... تـمـرُّ بـنـا الـسـاعـاتُ وهْـيَ أسـودُ
وقَدْ يـخـمـلُ الإنسانُ في عُنْفوانِهِ ... ويَـنْـبُـهُ مـن بـعـد الـنُّـهـى ويـسـودُ
فلا تحسُدَنْ قوماً على فضلِ نعمةٍ ... فـحـسـبُـكَ عـاراً أن يُـقـالَ حـسـودُ
عـرفـتُ سـجـايـا الـدَّهـرِ أمَّا شرورُهُ ... فـنـقـدٌ وأمَّـا خـيـرُهُ فـوعـودُ
إذا كـانـتِ الـدُّنـيـا لـذاكَ مـحـلُّـهـا ... ولـو أنَّ كـلَّ الـطـالـعـاتِ سُـعـودُ
رقَـدْنـا ولـم نـمـلِـكْ رُقـاداً عـن الأذى ... وقـامـت بـمـا[1] خِفْنا ونحن قُعودُ
وكَـمْ أنـذَرَتْـنـا بـالـسـيـولِ صـواعـقٌ ... وكَـمْ خـبَّـرَتْـنـا بـالـغـمـامِ رُعـودُ
حـيـاتـيَ بـعـد الأربـعـيـنَ مـنـيـةٌ ... ووجـدانُـهـا فـي الأربـعـيـنَ فُـقـودُ
فـمـا لـي وقـد أدركـتُ خـمـسـةَ أعقُدٍ ... أبـيـنـي وبـيـنَ الـحـادثـاتِ عُـقـودُ
كـأنَّـا مـن الأيـامِ فـوقَ ركـائـبٍ ... إذا قِـيْـدَتِ الأنـضـاءُ فـهْـيَ تَـقـودُ
ألا إنَّـمـا الـدنـيـا نُـحـوسٌ لأهـلـهـا ... فـمـا فـي زمـانٍ أنـتَ فـيـه سُـعـودُ
ويـوصـي الـفـتـى عـنـدَ الـحِـمـامِ كـأنَّـهُ ... يـمـرُّ فـيـقـضـي حـاجـةً ويـعـودُ
وما يـئـسَـتْ مـن رَجْـعَـةٍ نـفـسُ ظـاعـنٍ ... مـضَـتْ ولـهـا عـنـد الـقـضـاءِ وُعـودُ
تـسـيـرُ بـنـا الأيـامُ وهْـيَ حـثـيـثـةٌ ... ونـحـنُ قـيـامٌ فـوقَـهـا وقُـعـودُ

وقال: [من البسيط]

جـاءَتْ أحـاديـثُ إنْ صـحَّـتْ فـإنَّ لـهـا ... شـأنـاً ولـكـنَّ فـيـهـا ضـعـفَ إسـنـادِ
فـشـاورِ الـعـقـلَ واتـرُكْ غـيـرَهُ هـدَراً ... فـالـعـقـلُ خـيـرُ مُـشـيـرٍ ضـمَّـهُ الـنـادي
وعـظـتُ قـومـاً فـلـم يُـرْعُـوا لـمـوعـظـتي ... مثلَ امرئِ القيسِ ناجى طائرَ الوادي
والـعـفـوَ[2] آمُـلُ مـن ربـي إذا حُـضِـرَتْ ... نـفـسـي وفـارقْـتُ عُـوَّادي لأعـوادي

(١) في النسختين (خ) و(ف): وما، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ١/ ٤٠٦، والأبيات فيه.
(٢) في (خ): والعقل، والمثبت من (ف) كما في لزوم ما لا يلزم ١/ ٤٩٩، والأبيات فيه.

وقال: [من الوافر]

تلفَّعَ بالعَبا إخوانُ صِدْقٍ ... وأُوسِعَ غيرُهم سَرَقاً ولاذا
فلا تعجب لأحكام[1] الليالي ... فإنَّ صروفَها بُنِيَتْ على ذا

وقال: [من الخفيف]

ما مُقامي إلا مُقامةُ عانٍ ... كيف أسري وفي يدِ الدَّهرِ أسري
إنَّ جَسْراً[2] على المنيةِ حَزْمٌ ... والبرايا من فوقِهِ فوق جَسْرِ
تبِعَتْ تُبَّعاً وفي القصرِ غالَتْ ... قيصراً وانتحَتْ لكسرى بكَسْرِ
وطَوَتْ طَيِّئاً وآدَتْ[3] إياداً ... وأصابَتْ ملوكَ قَسْرٍ بقَسْرِ
ولقابوسَ[4] كان قيسٌ وفنَّا ... خُسْرُ[5] أروَتْهُ من فناءٍ وخُسْرِ
سوفَ ألقى من الزمانِ كما لا ... قَوا بعنفٍ لا باستقالٍ ودَسْرِ[6]
ولوَ انِّي السُّها أو النَّسرُ قد شا ... هَدْتُ عصرينِ من يَغوثٍ ونَسْرِ

وقال في بني شيبة: [من الوافر]

وفي بطحاءِ مكةَ شرُّ قومٍ ... وليسوا بالحُماةِ ولا الغَيارى
وإنَّ رجالَ شيبةَ سادِنيها ... إذا راحَتْ لكعبتِها الجُمارى[7]
قيامٌ يدفعون الناس شفعاً ... إلى البيتِ الحرامِ وهم سُكارى
إذا أخذوا الزوائفَ أولجوهُم ... وإن كانوا اليهودَ أو النصارى
لعلَّ قِرانَ هذا النَّجمِ يهدي ... إلى طُرقِ الهدى أمماً حيارى
فقد أودى بِهِمْ نصبٌ وَظِمءٌ ... وأيْنُقُهُم بمَهلكةٍ نفارى
أَتَتهُم دَولَةٌ قَهَرَت وعَزَّتْ ... فَباتوا في ضلالَتِها أسارى

---

(١) في النسختين: لأيام، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ١/ ٥٣٨، والبيتان فيه.

(٢) الجَسْر: الإقدام.

(٣) في (خ) و(ف): وأردت، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٠٤. وآدَتْ: دَهَتْ.

(٤) قابوس هذا: هو ابن النعمان.

(٥) فنَّاخَسر: هو عضد الدولة البُويهي.

(٦) الدَّسْر: الطعن.

(٧) الجُمارى: الجميع.

وظَنُّوا الطُّهرَ مُتَّصلاً بِقَومٍ وأحلِفُ أَنَّهُم غَيرُ الطَّهارى
لَهُم كَلِمٌ تُخالِفُ ما أَجَنُّوا صُدورُهُم بِصِحَّتِهِ تَمارى

وقال: [من المتقارب]

أرى الشُّهدَ[1] يَرجِعُ مِثلَ الصَّبِرْ فَما لابنِ آدَمَ لا يَعتَبِرْ
وخَبَّرَهُ صادِقٌ في الحَديثِ فإنْ شَكَّ في ذاكَ فَليَختَبِرْ
وجَبرٌ وكَسرٌ لَهُ في الزَّمانِ ويُكسَرُ يَوماً فلا يَنجَبِرْ
ولَكِنَّني أَستَخيرُ المليكَ وإن يَأتِني حادِثٌ أَصطَبِرْ
ودُنيايَ أَلقى بِطولِ الهَوانِ فهَل هِيَ إلّا كَجِسرٍ عُبِرْ

وقال: [من الكامل]

يا ظالماً عقَدَ اليدين مُصلِّياً من دونِ ظُلمك يُعقَدُ الزُّنّارُ
أتظُنُّ أنَّكَ للمحاسنِ كاسِبٌ هيهاتَ هذا العارُ ثم النّارُ[2]

وقال: [من البسيط]

نادَتْ على الدِّينِ في الآفاقِ طائفةٌ يا قومُ مَنْ يشتري ديناً بدينارِ
جَنَوا كبائِرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائرَ تجني الخُلْدَ في النّارِ[3]

وقال: [من الوافر]

تَمرُّ حوادثٌ ويطولُ دهرٌ ويفتقرُ المجيزُ إلى المُجازي
وليس على الحقائقِ كلُّ قولي ولكن فيه أصنافُ المَجازِ[4]

وقال: [من الطويل]

تُشادُ المغاني والقبورُ دوارِسُ ولا يمنعُ المطروقَ بابٌ وحارسُ

---

(١) في (خ): الشعر، وهو تحريف، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٢٩، والأبيات فيه. والشُّهد: العسل بشمعه.
(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٦٣٠، لكن عجز البيت الثاني فيه:
وخَبِيُّ أمرِكَ شِرَّةٌ وشَنارُ
(٣) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٧٣٦.
(٤) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٤٤.

يقولون إنَّ الدِّين يُنسَخُ مِثْلَ ما ... تولَّتْ بإقبالِ الحنيفةِ فارسُ
وما لم يكُنْ فاللهُ ليسَ بزائلٍ ... ويجني الفتى من بعدُ ما هو غارسُ

وقال: [من الطويل أيضاً]

جزى اللهُ عنِّي مُؤْنِسي بصدودِهِ ... جميلاً ففي الإيحاشِ ما هُوَ إيناسُ
يخافون شيطاناً من الجنِّ ماردأ ... وعنديَ شيطانٌ من الإنسِ خنَّاسُ[(١)]

وقال: [من المديد]

المَشيداتُ الَّتي رُفِعَتْ ... أربُعٌ مِن أهلِها دُرُسُ[(٢)]
قامَ لِلأيَّامِ في أُذُني ... واعِظٌ مِن شأنِهِ الخَرَسُ
كَم أبَنَّ الغابُ مِن أسَدٍ ... أيُّ لَيثٍ ليسَ يفترسُ
مُهجَتي ضِدٌّ يُحارِبُني ... أنا مِنِّي كيفَ أحتَرِسُ
إنَّما دُنياكَ غانِيَةٌ ... لم يُهَنِّىءِ زَوجَها العُرُسُ
فالقَها بالزُّهدِ مُدَّرِعاً ... في يدَيكَ السَّيفُ والتُّرُسُ
إنَّ من حانَتْ مَنيَّتُهُ ... لم يُدافِعْ دونَهُ حَرَسُ
ليسَ يبقى فَرعُ نابِتَةٍ ... أصلُها في الموت مُنغرِسُ[(٣)]

وقال: [من البسيط]

قد يُخطِىءُ الموتُ سارٍ في تَنوفتِهِ[(٤)] ... ويَهلِكُ المرءُ في قصرٍ له حَرَسُ
ظنَّ الحياةَ عروساً خَلْقُها حسنٌ ... وإنَّما هي غُولٌ خُلْقُها شَرِسُ
ونحنُ في غيرِ شيءٍ والبقاءُ جرى ... مجرى الرَّدى ونظيرُ المأتمِ العُرُسُ[(٥)]

وقال: [من البسيط أيضاً]

هل يغسِلُ الناسَ عن وجهِ الثَّرى مطرٌ ... فما بَقُوا لم يفارِقْ وجهَها الدَّنَسُ

(١) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٥٨.
(٢) أربُعٌ دُرُس: منازل خالية طامسة.
(٣) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٦٨-٨٦٩.
(٤) التنوفة: الصحراء.
(٥) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٧٥-٨٧٦.

تناسلوا فنمى شرٌّ بنسلِهمُ وكم فُجورٍ إذا شُبَّانُهمْ عَنَسوا[١]

وقال: [من الوافر]

تعالى اللهُ أينَ ملوكُ لَخْمٍ لقد خَمدوا فما لهمُ حَسيسُ
تُحدِّثُ هذه الأيامُ جهراً وتحسبُ أنَّ ما نطقَتْ هَميسُ
وزوجُكِ أيُّها الدنيا تمنَّى طلاقَكِ قبلَ أن يقعَ المَسيسُ[٢]

وقال: [من الرجز]

يا ربِّ أخرِجْني إلى دارِ الرِّضا عَجِلاً فهذا عالمٌ منكوسُ
ظلُّوا كدائرةٍ تحوَّلَ بعضُها من بعضِها فجميعُها معكوسُ
وأرى ملوكاً لا تحوطُ[٣] رعيةً فعلامَ تؤخذ جزيةٌ ومكوسُ

وقال: [من الطويل]

خصاؤُكَ خيرٌ من زواجِكَ حُرَّةً فكيفَ إذا أصبحتَ زوجاً لمومسِ
وإنَّ كتابَ المهرِ فيما التمسْتَهُ نظيرُ كتابِ الشاعرِ المتَلَمِّسِ[٤]
ولُبْسُكَ ثوبَ السُّقمِ أحسَنُ منظراً وأبهَجُ من ثوب الغَوِيِّ[٥] المُنَمِّسِ[٦]

وقال: [من الطويل أيضاً]

إذا قصَّ آثاري الغواةُ ليحتذوا عليها فوُدِّي أن أكون قَصيصا
وكَمْ مَلِكٍ في الأرضِ لاقى خَصاصةً وكانَ بإكرامِ العُفاةِ خَصيصا[٧]

وقال: [من المتقارب]

أرى جوهراً حَلَّ فيه عَرَضْ تبارَكَ خالِقُنا ما الغَرَضْ
يُداوي العليلَ لِكَيما يصحَّ وهَلْ صِحَّةُ الجسمِ إلَّا مَرَضْ

(١) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٧٠.
(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٨٣.
(٣) في (خ): تحيط، والمثبت من (ف)، ولزوم ما لا يلزم ٢/ ٨٨٨، والأبيات فيه.
(٤) المتلمِّس: اسمه جرير بن عبد العُزَّى، وهو خال طرفة بن العبد.
(٥) في (خ) و(ف): العري، والمثبت من لزوم ما لا يلزم، والأبيات فيه.
(٦) المنَمِّس: القذر المنتن.
(٧) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٩٦٠.

فلا تتركَنْ ورَعاً في الحياةِ … وأدِّ إلى ربِّك المُفترَضْ
فكَمْ ملكٍ شيَّدَ المَكرُماتِ … ونالَ بها الصِّيتَ ثم انقرَضْ[١]

وقال: [من الطويل]

ظمئتُ إلى ماءِ الشَّبابِ ولم يزَلْ … يغورُ على طولِ المدى ويَغيضُ
تراهُ مع الإخوانِ حِبًّا مُكرَّماً … فإن زال عنه الماء فهو بغيضُ[٢]

وقال: [من الكامل]

أمَّا اليقينُ فإنَّنا سَكَنُ البِلى … ولنا هناكَ جماعةٌ فُرَّاطُ[٣]
ولكلِّ دهرٍ حليةٌ من أهلِهِ … ما فيهمُ حَيْفٌ ولا إفراطُ
كم لاحتِ الأشراطُ في جُنْحِ الدُّجى … فمتى تَبينُ لِبَعْثِنا أشراطُ
وكأنَّ هذا الخلقَ أهلُ قيامةٍ[٤] … ولهم من الموتِ الزُّؤامِ[٥] سِراطُ
لوْ لم تكُنْ مثلَ الجماعَةِ زائفاً … لم يَشْجُكَ الدِّينارُ والقيراطُ

وقال: [من الخفيف]

يَسبُكُ الصائغُ الزُّجاجَ ولا يَسْـ … ـتطيعُ سَبْكاً للدُرِّ إن يَتَشَظّى
لِيَخفْ صاحِبُ الديانةِ والصَّو … نِ مَقالاً مِن جاهِلٍ يَتَحَظّى
كيفَ لي أن أكونَ في رأسِ شمَّا … ءَ وأَرعى آساً وبُطْماً ومَظّا[٦]

وقال: [من البسيط]

مَنْ رامَ أن يُلزِمَ الأشياءَ واجِبَها … فإنَّهُ بحياةٍ ليسَ ينتَفِعُ
أُرْضِي انتباهي بِما لَمْ يَرضَهُ حُلُمي … قِدْماً وأدفَعُ أوقاتي فتَندَفِعُ
وَخَفَّ بِالجَهلِ أقوامٌ فَبَلَّغَهُمْ … منازِلاً بِسَناءِ العِزِّ تَلتَفِعُ

(١) لزوم ما لا يلزم ٢/ ٩٧٩.
(٢) في لزوم ما لا يلزم ٢/ ٩٦٩:
تراه مع الإخوان لا تستطيعُهُ … حبيبٌ متى تبعُدْ فأنت بغيضُ
(٣) الفُرَّاط: المتقدمون.
(٤) في لزوم ما لا يلزم ٢/ ٩٩١: جهنَّم.
(٥) الزُّؤام: العاجل.
(٦) في لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠٠٩: وأرعى في الوحشِ آساً ومظًّا.

أمـا رَأَيـتَ جِبـالَ الأرضِ لازِمَـةً قَـرارَهـا وغُبـارُ الـرَّكْضِ يَـرتَـفِعُ[(١)]

وقال: [من الطويل]

إذا خَطَبَ الحسناءَ كَهلٌ وناشِىءٌ فإنَّ الصِّبا فيها شَفيعٌ مُشَفَّعُ
وَلا يُزْهِدَنْها عُدْمُهُ إنَّ مُدَّهُ لأَبرَكُ مِن صاعِ الكَبيرِ وَأنفَعُ[(٢)]

وقال: [من المتقارب]

أخو سَفَرٍ قَصْدُهُ لَحْدُهُ تَمادى بِهِ السَّيرُ حَتَّى بَلَغْ
ودُنياكَ مِثلُ الإناءِ الخَبيثِ وصاحِبُها مِثلُ كَلبٍ وَلَغْ[(٣)]

وقال:

الفِكرُ حَبلٌ متى يُمْسَكْ على طَرفٍ مِنهُ يُنَط بالثُّرَيّا ذلكَ الطَّرَفُ
والعقلُ كالبحرِ ما غيضَتْ غَوارِبُهُ شيئاً ومنهُ بَنو الأيّام تَغتَرِفُ
أبني بجهليَ داراً لَستُ أسكُنُها أُقيمُ فيها قليلاً ثُمَّ أنصَرِفُ
أأُنكِرُ اللهَ ذَنباً خَطَّهُ مَلَكٌ وبالَّذي خَطَّهُ الإنسانُ أعتَرِفُ
سَرِفْتُ واللهَ أرجو أن يُسامِحَنا وفي القديمِ خَلا مِن أهلِها سَرِفُ
تَرومُ رِزقاً بأن سَمَّوكَ مُتَّكِلاً وأَدْيَنُ الناسِ من يَسعى ويحتَرِفُ
إذا افتكَرنا عَلِمنا أنَّ ذا ضَعَةٍ أعلى النُّجومِ ولِلهِ انتَهى الشَّرَفُ[(٤)]

وقال: [من البسيط]

لا تَشرُفَنَّ بدنيا عنكَ معرِضَةً فما التشرُّفُ بالدنيا هو الشَّرفُ
واصرِفْ فؤادَكَ عنها مثلَما انصرفَتْ فكُلُّنا عن مغانيها سينصرِفُ
يا أُمَّ دَفرٍ لحاكِ اللهُ والِدةً فيكِ العناءُ وفيكِ الهمُّ والسَّرَفُ
لَوْ أنَّكِ العِرْسُ أوقعتُ الطلاقَ بها لكنَّكِ الأمُّ ما لي عنكِ مُنصَرَفُ

وقال: [من الوافر]

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠٢٤ ، وفيه: الأرض، بدل: الركض.
(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠١٦ .
(٣) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠٥٦ .
(٤) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠٦٥ .

رددتُ إلى مليكِ الخلقِ أمري ... فلمْ أسألْ متى يقعُ الكسوفُ
وكم سَلِمَ الجَهولُ من المنايا ... وعُوجِلَ بالحِمامِ الفيلسوفُ(١)

وقال: [من الطويل]

فؤادُكَ خَفَّاقٌ وبرقُكَ خافِقٌ ... وأعياكَ في الدنيا خليلٌ موافقُ
أرَدْتَ رفيقاً أن ينالَكَ رِفْقُهُ ... فدَعْهُ إذا لم تأتِ منه المرافقُ(٢)

وقال: [من الطويل أيضاً]

مَنْ مُبلِغٌ عنِّي الممالِكَ معشراً ... علياً ومحموداً وخاناً وآلِكا(٣)
فما أتمنَّى أنَّني كأقلِّهم(٤) ... ولكِنْ أُضاهي المُقتِرين الصعالِكا(٥)
فما فيهمُ من ناهضٍ يُدَّعَى بهِ ... يُفَرِّجُ عنِّي بالمضيقِ المسالِكا
وينفر عقلي مغضباً إنْ تركْتُهُ ... سُدًى واتَّبعْتُ الشافعيَّ ومالكا

وقال: [من السريع]

يا خالقَ البدرِ وشمسِ الضُّحى ... مُعَوَّلي في كلِّ أمرٍ عليكْ
وكُلُّ مَلْكٍ لَكَ عَبدٌ وما ... يبقى لهُ مُلكٌ فَيُدعى مُلَيكْ
قد رامَتِ النَّفسُ لها مَوئلاً ... فقلتُ مَهلاً ليسَ هذا إلَيكْ
إنَّ الَّذي صاغَكِ يقضي بما ... شاءَ ويمضي فازْجُري عاذلَيكْ
البحرُ(٦) في قُدرَتِهِ نُغبَةٌ(٧) ... والفَلَكُ الأعظَمُ فيها فُلَيكْ

وقال: [من الطويل]

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١٠٧٣ .

(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/ ١١٠٠ .

(٣) في (خ) و(ف): وخانكا، والمثبت من لزوم ما لا يلزم ٣/ ١١٧٠ ، والأبيات فيه، وآلك: هو أيلك خان، وعلي: هو فخر الدولة أخو عضد الدولة، ومحمود: هو ابن سُبُكتِكين، وخان: هو لقب لأيِّ ملك من ملوك الأتراك.

(٤) في اللزوم: كأجلِّهم.

(٥) المقترين والصعالك: الفقراء.

(٦) في (خ): البدر، والمثبت من (ف)، ولزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٠٢ ، والأبيات فيه.

(٧) النُّغبة: الجرعة.

ذَرِ[1] الناسَ واصحَبْ وَحْشَ بَيداءَ قَفرةٍ فـإنَّ رِضـاهُـم غـايَـةٌ لـيـس تُـدرَكُ
إذا ذكـروا الـمـخلـوقَ عـابـوا وأطـنَـبـوا وإن ذكـروا الـخَـلَّاق حـابـوا وأشـرَكـوا
كَـلِـفْـتَ بِـدُنـيـاكَ الَّـتـي هـي خُـدعَـةٌ وهـلْ خُـلَّـةٌ مـنـهـا أغَـرُّ وأفـرَكُ
إذا فـاتَـكَ الإثـراءُ مـن غـيـرِ وَجـهِـهِ فـإنَّ قـلـيـلَ الـخَـلِّ خـيـرٌ[2] وأبـرَكُ

وقال: [من الطويل أيضاً]

تـسـمَّـى رجـالٌ بـالـمـلـوكِ سـفـاهـةً ولا مُـلْـكَ إلَّا لـلَّـذي خـلـقَ الـمُـلْـكـا
أرى فـلـكـاً مـا دارَ إلَّا لـحـكـمـةٍ فلا تنسَ مَنْ أجرى لحاجَتِك الفُلْكا

وقال: [من البسيط]

في الوحدةِ الراحةُ العظمى فأحيِ بها قلباً وفي الكونِ بين الناس أثقالُ
إنَّ الـطـبـائـعَ لـمَّـا أُلِّـفَـتْ جَـلَـبَـتْ شـرًّا تـولَّـدَ مـنـه الـقـيـلُ والـقـالُ[3]

وقال: [من السريع]

كـم تـنـصـحُ الـدنـيـا ولا نـقـبَـلُ وفـائـزٌ مَـنْ جَـدُّهُ مُـقـبِـلُ
إنَّ أذاهـا مـثـلُ أفـعـالِـنـا مـاضٍ وفـي الـحـالِ ومُـسـتـقـبَـلُ
أجـبَـلَـتِ الأبـحـرُ فـي عـصـرِنـا هـذا كـمـا أبـحَـرَتِ الأجـبُـلُ
فـاتْـرُكْ لأهـلِ الـمُـلـكِ لـذّاتِـهـم فـحـسـبُـنـا الـكـمـأةُ والأحـبُـلُ[4]
ونـشـربُ الـمـاءَ بـراحـتِـنـا إنْ لـم يـكُـنْ فـي بـيـنـنـا جُـنْـبُـلُ[5]
لا تـأمـنُ الأغـفـارُ فـي الـنِّـيـقِ أنْ تُـصـبِـحَ مـوصـولاً بـهـا الأحـبُـلُ[6]
لـو نـطـقَ الـدَّهـرُ هـجـا أهـلَـهُ كـأنَّـه الـرُّومـيُّ أو دِعْـبِـلُ[7]

---

(١) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١١٥٥: دع، والأبيات فيه.
(٢) في اللزوم: أولى.
(٣) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٢٣.
(٤) الأحبُل: نبات اللوبياء.
(٥) الجُنْبُل: القدح الضخم من الخشب.
(٦) الأغفار؛ جمع غُفْر: الذكر من أولاد تيوس الجبل. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل.
(٧) الرومي: هو الشاعر العباسي علي بن العباس المعروف بابن الرومي. ودِعبِل: هو ابن علي الخزاعي، وهو معاصرٌ لابن الرومي.

وَهْـو لَـعـمـري شـاعـرٌ مُـفْـلِـقٌ[١] بـالـفـعـلِ لـكـنْ لـفـظُـهُ مـجـبِـلُ[٢]
يـذبُـلُ غـصـنُ الـعـيـشِ حـقًّـا ولَـوْ أضـحـى ومِـنْ أوراقِـهِ يـذبُـلُ
فـلـيـتَ حـوّاءَ عـقـيـمـاً غَـدَتْ لا تـلِـدُ الـنـاسَ ولا تـحـبَـلُ
تـفـكّـروا بـالـلـهِ واسـتـيـقـظـوا فـإنّـهـا داهـيـةٌ ضِـئْـبِـلُ[٣]
فـي حـبَّـةٍ تُـخـلَـقُ مـن سُـنـبُـلٍ[٤] ثَـمَّـتَ مـنـهـا يُـخـلَـقُ الـسـنـبُـلُ
يـكْـرَهُ عـولَ الـشـيـخِ أبـنـاؤه وهَـلْ تَـعـولُ الأُسْـدَ الأشـبُـلُ
نـنـزل مـن دارٍ لـنـا رحـبـةٍ تُـطَـلُّ بـالآفـاتِ أو تُـوبَـلُ[٥]
وكـلُّ مَـنْ حَـلَّ بـهـا يـكـره الـ ـنـقـلـةَ عـنـهـا وهـي تـسْـتَـوبِـلُ

وقال: [من الطويل]

أَسَكْنُ الثَّرى هل تبعثون رسالةً إلينا ولستُمْ سامعي كلِمِ الرُّسْلِ
ولم تَسْلُ نفسي عنكمُ باختيارِها ولكنَّ طولَ الدهرِ يُذهِلُ أو يُسلي
وما بردَتْ أعضاءُ مَيْتٍ مُكَرَّمٍ وإنْ عَزَّ حتى أُغليَ الماءُ للغَسْلِ[٦]

وقال: [من الوافر]

إذا ما شئتَ موعظةً فعرِّجْ بيثربَ سائلاً عن آلِ قيلَهْ
وقِفْ بالحيرةِ البيضاءِ وانظُرْ منازلَ منذرٍ وبني بقيلَهْ[٧]

وقال: [من السريع]

لو تعلَمُ النَّحلُ بمُشْتارِها[٨] لم ترَها في جبلٍ تعسِلُ

---

(١) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٤٠ : مُغْزِرٌ. والشاعر المُفلِق: هو الذي يأتي بالشعر الذي يُعجب الناس.
(٢) المُجْبِل: هو الذي حفر ليجد ماءً فانتهى إلى الصخر.
(٣) الضِّئبِل: الداهية.
(٤) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٤١ : في سنبل يخلق من حبةٍ، والأبيات فيه.
(٥) الطَّلّ: المطر الخفيف. والوابل: المطر الغزير.
(٦) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٨٥ .
(٧) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٦٨ .
(٨) المُشتار: الذي يجني العسل.

والـخـيـرُ مـحـبـوبٌ ولـكـنَّـهُ يـعـجـزُ عـنـه الـفَـسْـلُ[١] أو يـكـسَـلُ
والأرضُ لـلـطُّـوفـانِ مـشـتـاقـةٌ لـعـلَّـهـا مـن دَرَنٍ تُـغْـسَـلُ
قـد كـثُـرَ الـشـرُّ عـلـى ظـهـرهـا وأُتْـهِـمَ الـمُـرْسِـلُ والـمُـرْسَـلُ

وقال: [من الكامل]

كم تـوعـظـون[٢] ولا تـلـيـنُ قـلـوبُـكُـمْ فـتـبـاركَ الـخـلَّاقُ مـا أغـنـاكُـمُ
إنَّ الـغـوايـةَ كـالـغـريـزة فـيـكُـمُ يـأوي إلـيـهـا كـهـلُـكُـمْ وفـتـاكُـمُ

وقال: [من الوافر]

دمـوعـي لا تُـجـيـب عـلـى الـرَّزايـا ولـولا ذاكَ مـا فَـتِـئَـتْ سُـجـومـا[٣]
رِضًـا بـقـضـاءِ ربِّـكَ فَـهْـوَ حَـتْـمٌ ولا تُـظِـهـرْ لـحـادثـةٍ وُجـومـا[٤]

وقال: [من الطويل]

ومـولِـدُ هـذي الـشـمـسِ أعـيـاكَ حَـدُّهُ وخَـبَّـرَ لُـبٌّ أنَّـهُ مُـتـقـادِمُ
ومـا آدمٌ فـي مـذهـبِ الـعـقـلِ واحـداً ولـكـنَّـهُ عـنـدَ الـقـيـاسِ أوادِمُ
تـخـالـفَـتِ الأغـراضُ نـاسٍ وذاكـرٌ وسـاقٍ وسـبَّـاقٌ وبـانٍ وهـادِمُ[٥]

وقال: [من الوافر]

ومـا دنـيـاكَ إلَّا دارُ سَـوْءٍ ولـسـتَ عـلـى إسـاءتِـهـا مُـقـيـمـا
أرى ولـد الـغـنـى عِـبْـئـاً عـلـيـهِ لـقـد سَـعِـدَ الـذي أمـسـى عـقـيـمـا
أمـا شـاهـدتَ كـلَّ أبـي ولـيـدٍ يـؤمُّ طـريـقَ حـتـفٍ مـسـتـقـيـمـا
فـإمَّـا أن يُـربِّـيـهِ عـدوّاً وإمَّـا أن يُـخـلِّـفَـهُ يـتـيـمـا[٦]

وقال: [من الخفيف]

---

(١) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٢٤٢ : الحيُّ، والأبيات فيه. والفَسْل: الذي لا مُروءة له ولا جَلَد.
(٢) في (ف): تعظون.
(٣) سجوماً: منهمرة.
(٤) الوُجوم: الكآبة.
(٥) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٣٨٨ .
(٦) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٤٤٥ .

كـلُّ ذِكْـرٍ مـن بـعـدِه نـسـيـانُ ... وتَـغـيـبُ الآثـارُ والأعـيـانُ
إنَّـمـا هـذهِ الـحـيـاةُ مـتـاعٌ ... فـلْـتُـخَـبِّـرْكَ عـن أذاهـا الـعِـيـانُ
نَـفَـسٌ بـعـدَ مِـثْـلِـهِ يـتـقـضَّـى ... فـتـمـرُّ الـدُّهـورُ والأحـيـانُ
قـد تـرامَـتْ إلـى الـفـسـادِ الـبـرايـا ... واسـتـوَتْ فـي الـضـلالـة الأديـانُ(١)
أنـا أعـمـى فـكـيـفَ أُهـدي إلـى الـمَنْـ ... ـهـجِ والـنـاسُ كُـلُّـهـم عُـمـيـانُ
والـعـصـا لـلـضـريـرِ خـيـرٌ مـن الـقـا ... ئـدِ فـيـه الـفُـجـورُ والـعِـصـيـانُ
لـيـس فـي هـذه الـمـجـرَّةِ مـاءٌ ... فـيُـرَجِّـي وُرودَه الـصَّـدْيـانُ(٢)

وقال: [من الخفيف أيضاً]

الـمُـجـبـرون يـنـاظـرونَ بـبـاطـلٍ ... فـاسـمَـعْ مـقـالَـهُـم بـغـيـرِ بـيـانِ
كـلٌّ يـقـولُ أرى الإلـهَ أضـلَّـنـي ... وأرادنـي مـا كـانَ عـنـه نـهـانـي
إنْ صَـحَّ ذا فـتـعـوَّذوا مـن ربـكـم ... ودَعـوا تـعَـوُّذَكُـمْ مـن الـشـيـطـانِ

وقال: [من الطويل]

أرى الحِيرةَ البيضاءَ حارَتْ قُصورُها ... خَلاءً ولم تثبُتْ لكسرى المدائِنُ
وهَـجَّـنَ(٣) لَـذَّاتِ الـمـلـوكِ زوالُـهـا ... كما غدَرَتْ بالمُنذِرَينِ(٤) الهجائِنُ(٥)
ركِبْنا على الأعمارِ والدَّهرُ لُجَّةٌ ... فما صَبَرَتْ للموجِ تِلكَ السَّفائِنُ
تـجـيءُ الـرَّزايـا بـالـمـنـايـا كـأنَّـمـا ... نـفـوسُ الـبـرايـا لـلـحِـمـام رهـائِـنُ
لَعمري لقدْ خادعتُ نفسيَ بُرهَةً ... وصدَّقْتُ في أشياءَ مَنْ هو خائِنُ(٦)
وخـانَـتْـنـيَ الـدُّنـيـا مـراراً وإنَّـمـا ... يُـجَـهِّـزُ بـالـذَّمِّ الـغـوانـي الـخـوائِـنُ
أُعـلِّـلُ بـالآمـالِ قـلـبـاً مُـضَـلَّـلاً ... كـأنِّـيَ لـم أشـعُـرْ بـأنِّـيَ خـائِـنُ
يصونُ الكريمُ العِرْضَ بالمالِ جاهداً ... وذو اللؤمِ للأموالِ بالعرضِ صائِنُ

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: الإتيان.

(٢) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٤٦، والصَّدْيان: شديد العطش.

(٣) في (خ): ويعجز، والمثبت من (ف)، ولزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٢٥، والأبيات فيه.

(٤) المنذِران هما: المنذر بن ماء السماء، وهو الأكبر، والثاني: ابنه المنذر بن المنذر، وهو الأصغر.

(٥) الهجائن: الإبل ذات البياض الخالص.

(٦) في اللزوم: مائن، والمائن: الكاذب.

وقال: [من الطويل]

لَعمرُكَ ما الدُّنيا بدارِ إقامةٍ ... ولا الحيُّ في حالِ السلامةِ آمِنُ
وإنَّ وليداً حَلَّها لَمُعذَّبٌ ... جَرَتْ لِسواهُ بالسعودِ أيامِنُ
عجبتُ لكهلٍ قاعدٍ بينَ نِسْوَةٍ ... يُقاتُ بما جَرَّتْ عليه الرَّوادِنُ(١)
تُحارِبُنا أيامُنا ولنا رضًا ... بذلك لو أنَّ المنايا تُهادِنُ
إذا كانَ جِسمي لِلرَّغام أكيلَةً ... فكيفَ يَسُرُّ النَّفسَ أنِّيَ بادِنُ
ومِنْ شَرِّ أخدانِ الفتى أُمُّ زَنْبَقٍ ... وتِلكَ عَجوزٌ أهلَكَتْ مَنْ تُخادِنُ
تُخَبِّرُ عن أسرارِهِ قُرَناءَهُ ... ومِنْ دونِها قُفْلٌ مَنيعٌ وَسادِنُ(٢)

وقال: [من الطويل]

أيا أنفُساً ما صومُها وصلاتُها ... بدينٍ لها بل تَرْكُها الظُّلمَ دينُها
يؤثِّرُ في حرِّ الجباه سجودُها ... ويشكو أذاها جارُها وخَدينُها

وقال: [من الطويل]

رأيتُ سوادَ الرأسِ يسلُبُ لونَهُ ... من الدَّهرِ بِيضٌ يختلِفْنَ وجُونُ(٣)
فلا يغْترِرْ بالمُلْكِ صاحبُ دولةٍ ... فكَمْ من مليكٍ غيَّبَتْهُ دُجونُ(٤)
وإنِّي أرى أنصارَ إبليس جَمَّةً ... ولا مِثْلَ ما أوفى به الزَّرَجونُ(٥)
وإنْ كانتِ الأرواحُ بعد فراقِها ... تنالُ رخاءً فالجسومُ شُجونُ(٦)

وقال: [من الطويل]

كأنَّ نجومَ الليلِ زُرْقٌ أسِنَّةٌ ... بها كلُّ مَنْ فوقَ الترابِ طَعينُ

---

(١) الرَّوادن: النساء اللواتي يعملن بالمِرْدَن، يعني المِغْزَل.
(٢) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٢٨ .
(٣) البيض والجُون: الأيام والليالي.
(٤) الدُّجون: الغيوم.
(٥) الزَّرجون: الخمرة والمطر الصافي المستنقع في الصخرة، ومعناه بالفارسية لون الذهب. معجم الألفاظ الفارسية ص ٧٧ .
(٦) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٢٩ .

ولائحُ هذا الفجرِ سيفٌ مُجرَّدٌ أعانَ به صَرْفَ الزَّمانِ لَعينُ(١)

وقال: [من الطويل]

حياتيَ تعذيبٌ وموتيَ راحةٌ وكلُّ ابنِ أُنثى في التراب سجينُ
توهَّمتَ يا مغرورُ أنَّكَ دَيِّنٌ عليَّ يمينُ اللهِ مالكَ دِينُ
تسيرُ إلى البيتِ الحرامِ تنسُّكاً ويشكوكَ جارٌ بائسٌ وخَدينُ(٢)

وقال: [من الخفيف]

بئستِ الأُمُّ للأنامِ هيَ الدُّنيا وبئسَ البَنونَ لِلأُمِّ نَحنُ
فَسَدَ الأَمرُ كُلُّهُ فاتركوا الإعـ ـرابَ إنَّ الفَصاحَةَ اليومَ لَحنُ(٣)

وقال: [من البسيط]

لقدْ أتَوا بِحَديثٍ لا يُثَبِّتُهُ عَقلٌ فَقُلنا عنَ ايِّ النَّاسِ تَحكونَهْ
فَأخبَروا بِأسانيدٍ لَهُم كَذِبٍ لم تَخْلُ مِن ذكر شَيخٍ لا يُزكُّونَهْ
عَجِبتُ لِلأُمِّ لَمَّا فاتَ واحِدُها بَكَتْ وَساعَدَها ناسٌ يُبَكُّونَهْ
هُمُ أسارى مَناياهُم فَما لَهُمُ إذا أتاهُم أَسيرٌ لا يَفُكُّونَهْ
فَلَو تَكَلَّمَ دَهرٌ كانَ ساكِنُهُمْ كَما تَراهُم على الإحسانِ يَشكونَهْ
أما تَرَونَ دِيارَ القَومِ خالِيَةً بَعدَ الجماعاتِ والأَجداثَ مَسكونَهْ
يصومُ ناسٌ عن الزَّادِ المباحِ لهُمْ ويغتذون بلحمٍ لا يُزكُّونَهْ(٤)

وقال: [من الوافر]

إذا ما شئتُمُ دَعَةً وخفضاً فعيشوا في البريَّةِ خامِلينا
ولا يُعقَدْ لكم أملٌ لخلقٍ وبيتوا للمهيمنِ آمِلينا(٥)

وقال: [من المتقارب]

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٣٠ .
(٢) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٣١ ، والخدين: الصديق.
(٣) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٤٤ .
(٤) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٥٩_١٥٦٠ .
(٥) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٥٧١ .

إذا جـاءكَ الـمـوتُ فـافـرَحْ بِـهِ لِـتَـخْـلُـصَ مـن عـالـم قـد لُـعِـنْ
هُـمُ ضـربـوا حـيـدراً سـاجـداً وحـسـبُـكَ مـن عُـمَـرٍ إذْ طُـعِـنْ[١]

وقال: [من الطويل]

إذا مـا ذكَـرْنـا آدمـاً وفِـعـالَـهُ وتـزويـجَ إبْـنـيهِ لـبـنـتَـيهِ فـي الـدُّنـا[٢]
عـلِمْـنـا بـأنَّ الـخـلـق مـن أصل زِنْـيـةٍ وأنَّ جـمـيـعَ الـنـاسِ مـن عـنـصـرِ الـزِّنـا

فأجابه القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عُقامة من اليمن ـ وكان فاضلاً ـ فقال:

لَـعـمـرُكَ أمَّـا فـيـكَ فـالـقـولُ صـادقٌ وتـكـذِبُ فـي الـبـاقـيـنَ مَـنْ شَـطَّ أو دنـا
كـذلِـكَ إقـرارُ الـفـتـى لازمٌ لَـهُ وفـي غـيـرِهِ لـغـوٌ كـذا جـاءَ شَـرْعُـنـا

وقال أبو العلاء: [من الوافر]

[عـلـيـك الـسـابـغـاتِ فـإنَّـهُـنَّـهْ يُـدافِـعْـنَ الـصَّـوارِمَ والأسِـنَّـهْ[٣]]
ومَـنْ شَـهِـدَ الـوغـى وعـلـيـه درعٌ يُـلَـقَّـاهـا بـنـفـسٍ مُـطـمـئِـنَّـهْ
وحـبَّـاتُ الـقـلـوبِ يَـكُـنَّ حَـبّـاً إذا دارَتْ رحـاهـا الـمُـرْجَـحِـنَّـهْ
عـلـى أنَّ الـحـوادثَ كـائـنـاتٌ ومـا تُـغـنـي الـدروعُ ولا الأكِـنَّـهْ

وقال: [من المنسرح]

تَـسَـوَّقـوا بـالـغِـنـى لِـرَبِّـهـمُ وأظـهَـروا خِـيـفَـةً لَـهُ وَدَعَـوا
سـعَـوا لِـدُنـيـاهُـم بـآخِـرَةٍ فَـبِـئـسَ مـا حـاوَلـوا غَـداةَ سَـعـوا
ولَـمْ يَـعـوا مـا يَـقـولُ واعِـظُـهُـم لَـكِـنَّ قَـولَ الـمُـخَـرِّصـيـنَ وَعَـوا[٤]

وقال: [من السريع]

بِـخِـيـفَـةِ الـلـهِ تَـعَـبَّـدْتَـنـا وأنـتَ عَـيـنُ الـظَّـالِـم الـلَّاهـي
تـأمُـرُنـا بـالـزُّهـدِ فـي هَـذِهِ الـدُّنـيـا ومـا هَـمُّـكَ إلّا هـي[٥]

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٦٥٠.
(٢) هكذا في النسخ، وفي معظم المصادر: الخَنا.
(٣) هذا البيت من (ف).
(٤) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٧١٠.
(٥) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٧٠٣.

وقال: [من مخلع البسيط]

يـا أمـةً مـا لـهـا عـقـولٌ وقُـبْـحُ ألـبـابِـهـا[1] دهـاهـا
بـأيِّ جُـرْمٍ وأيِّ حُـكْـمٍ سُـلِّـطَ لـيـثٌ عـلـى مـهـاهـا
[فـحـدِّثـونـي بـغـيـرِ مَـيْـنٍ عـن الـثُّـريـا وعـن سُـهـاهـا][2]
وعُـذِّرَتْ حـاجَـةٌ بِـعُـسـرٍ عـلـى لـبـيـبٍ قَـدِ اشـتَـهـاهـا
وظـالِـمٌ عِـنـدَهُ كُـنـوزٌ مـن أُمِّ دَفـرٍ ومِـن لُـهـاهـا[3]
كـانَ إذا مـا دجـى ظَـلامٌ صـاحَ بِـأَجـمـالِـهِ وَهـاهـا[4]

وقال: [من الوافر]

وجـدتُ غـنـائِـمَ الإسـلام نَـهـبـاً لأربـابِ الـمـعـازِفِ والـمـلاهـي
تُـنـازِعُـنـي إلـى الـشَّـهـواتِ نـفـسـي فـلا أنـا مُـنـجِـحٌ أبَـداً وَلا هـي
وكـيـف يـصِـحُّ إجـمـاعُ الـبَـرايـا وَهُـمْ لا يـجـمِـعـونَ عـلـى الإلـهِ[5]

وقال: [من الخفيف]

لا تُـهـادِ الـقـضـاةَ كي تـظـلـمَ الـخَـصْـ ـم ولا تَـذْكُـرَنَّ مـا تُـهـديـهِ
[إنَّ مـن أقـبـحِ الـمـعـايـب عـاراً أن يَـمُـنَّ الـفـتـى بـمـا يُـسـديـهِ][6]

وقال: [من السريع]

نُـمـسـي ونُـصـبِـحُ فـي ضـلالاتـنـا[7] ومـا عـلـى الـغـبـراء إلَّا سـفـيـهْ
فـنـسـألُ الـواحـدَ[8] إنـقـاذنـا مـن عـالـم الـسـوءِ الـذي نـحـنُ فـيـه

وقال : [من البسيط]

(١) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٦٨٦ : وفقد ألهابها، وفي (خ): وفتح أبوابها، والمثبت من (ف).
(٢) هذا البيت من (ف).
(٣) اللُّهى: العطايا.
(٤) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٦٨٦ ، ووهاها: زجرها.
(٥) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٧٠١ .
(٦) هذا البيت من (ف)، والبيتان في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٧٠٤ .
(٧) في لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٧٠٤ : نُضحي ونُمسي كبني آدمٍ.
(٨) في اللزوم: العالم.

لـو كـان جـسـمـك مـتـروكـاً بـهـيـئـتِـهِ بـعـد الـتَّـلافِ طـمِـعْـنـا فـي تـلافـيـهِ
كـالـدَّنِّ عُـطِّـلَ مـن راحٍ تـكـونُ بـهِ ولـم يُـحـطَّـمْ فـعـادَتْ مـرَّةً فـيـهِ
لـكـنَّـهُ صـارَ أجـزاءً مُـقـسَّـمـةً ثـم اسـتـمـرَّ هـبـاءً فـي سـوافـيـهِ[1]
وذاكَ فـي هـذه الـدنـيـا ويـبـعـثُـهُ يـومَ الـقـيـامـةِ مُـخـفـيـهِ وخـافـيـهِ

[وفيها توفِّي]

إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد[2]

أبو عثمان، الصابوني، النيسابوري، الحافظ، الواعظ، المفسِّر، طاف الدنيا في طلب الحديث، وسمع بهَرَاة وخراسان ونيسابور وما وراء النهر والعراق والشام والحجاز [واليمن] والهند وطبرستان وغزنة وغيرها، ووعظ بنيسابور وله سبع سنين، ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاث مئة، [وله الكلام المليح. قال: وقدم الشام حاجّاً في سنة اثنين وثلاثين وأربع مئة، وحدَّث بدمشق ووعظ بها]، ومن شعره: [من الطويل]

إذا لـم أُصِبْ [أمـوالَـكُـمْ][3] ونـوالَـكُـمْ ولـم آمُـلِ الـمـعـروفَ مـنـكُـمْ ولا الـبِـرَّا
وكـنـتُـمْ عـبـيـداً لـلـذي أنـا عـبـدُهُ فـمِـنْ أجـلِ مـاذا أُتْـعِـبُ الـبـدَنَ الـحُـرَّا

وقال أيضاً: [من البسيط]

مـالـي أرى الـدَّهـرَ لا يـسخـو بـذي كَـرَمٍ ولا يـجـودُ بـمـعـوانٍ ومِـفْـضـالِ
ولا أرى أحـداً فـي الـنـاس مـشـتـريـاً حـسـنَ الـثـنـاءِ بـإنـعـامٍ وإفـضـالِ
صـاروا سـواسـيـةً فـي لـومِـهِـمْ شـرعـاً كـأنَّـمـا نـسـجـوا فـيـه بـمـنـوالِ

ذكر سبب وفاته:

[حكى أبو الحسين الفاسي قال]: وقع وباء عظيم بنيسابور، فصعد المنبر، واجتمع الناس، ودعا، فورد كتاب من بخارى يذكر فيه أن رجلاً تقدَّم إلى خباز يشتري منه خبزاً، فدفع إليه درهماً والخباز يخبز، فمات الخبازُ، وصاحبُ الدكان والمشتري في ساعة واحدة، فلمَّا قرأ الكتاب هاله ذلك، ثم أمر القارىء فقرأ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٦٩٧ دون البيت الأخير، والسَّوافي: الرياح تسفي الغبار.
(٢) تاريخ بغداد ٨/ ١٠٨ ، وتاريخ دمشق ٩/ ٥ ، والمنتظم ١٦/ ٢٧-٢٨ .
(٣) ما بين حاصرتين من (ف) وتاريخ دمشق ٩/ ٥.

ٱلْأَرْضَ﴾ [النحل: ٤٥] ثم بالغ في الوعظ والتخويف، وتغيَّر في الحال، وأُنزل من المنبر وهو يصيح من وجع بطنه، وحُمِلَ إلى الحمام ثم إلى بيته فأقام سبعة أيام ومات، وصلَّى عليه خلق عظيم، وقيل: مات سنة خمسين وأربع مئة، وقيل: إنه تكلم على المنبر، فغرق في علم المشاهدة، وغلب فوقع، فأقام سبعة أيام لا يفيق، وتوفي فلم يبْقَ بنيسابور بِكْرٌ ولا عانس إلا وحضَرْنَ جنازته، وكان يوماً مشهوداً في المُحرَّم.

حدَّث عن الحاكم أبي عبد الله وغيرِه، وروى عنه الخطيب وغيرُه، وكان يحضر مجالسه الأئمة، وجلس مكان أبيه وكان عمره سبع سنين، وكان أبوه عبد الرحمن من كبار العلماء الزُّهَّاد، وكان يعظ بنيسابور، ففتكوا به؛ لأجل التعصُّب في المذهب، فجلس أبو عثمان مكانَه، واتَّفقوا على فضله وزهده وورعه وصدقه وثقته.

الحسين بن أحمد(١)

ابن القاسم بن علي بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن طَباطَبا بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، النسَّابة، وُلِدَ في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة، وتوفي في صفر، وكان مميزاً من بين أهله بعلم النسب ومعرفة أيام الناس.

سعد بن أبي الفرج(٢)

محمد بن جعفر، أبو الغنائم، علاء الدين بن فسانْجِس، وزَر للملك أبي نصر بن أبي كاليجار، ونظر بواسط أول قدوم طُغْرُلْبَك إلى بغداد، ثم عصى وخطب للمصريين بواسط، وقد ذكرنا مقتله وكان يوم قُتِلَ ابنَ سبع وثلاثين سنة.

عدنان بن الشريف(٢)

الرضي، الموسوي، ولي نقابة الطالبيين بعد عمه المرتضى، وكان فاضلاً، وتوفي في رجب، روى عن أبيه وعمه.

---

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٠٨، ـ وفيه: الحسين بن محمد ـ والمنتظم ١٦/ ٢٧ـ٢٨.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٨.

علي بن هندي[١]

أبو الحسن، قاضي حمص، ولد سنة أربع مئة، وكان فاضلاً [نزهاً عفيفاً فصيحاً]، وتوفي بدمشق ودفن بالباب الصغير، ومن شعره: [من البسيط]

تَخلُّقٌ حسنٌ إنْ لم يكُنْ خُلُقٌ تورُّعٌ حسنٌ إنْ لم يكُنْ ورَعُ
فما أرى قيمة الدنيا وإن عظُمَتْ أنْ تأتيَ الحرَّ ما من نفسِه يضَعُ

السنة الخمسون والأربع مئة

فيها استولى البساسيري على بغداد، وأخرج منها القائم بأمر الله، ودرس آثارها [والمعالم]، وجرى على الخليفة وداره وأهله منه ما لم يَجْرِ من الكفار، ثم إن الله تعالى أخذ [له] منه بالثأر [وكان مآلُه إلى الاستئصال والبوار]، وردَّ [اللهُ] الخليفةَ إلى مقرِّه، وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفي المحرَّم صرف أبو علوان ثِمالَ بن صالح بن الزَّوقلية أمير حلب منها، وأقطعه عكَّا وقيسارية وصيدا والبلاد الساحلية عوضاً عنها، وولَّاها صاحبُ مصر لأبي علم بن ملهم الخويلدي، وخرج صحبتَه القاضي ابن أبي عقيل قاضي صور حتى تسلَّم ابنُ ملهم حلبَ، وعاد القاضي إلى صور، وكان بقلعة حلب أبو نصر بن أبي عمران الداعي، فرتباه بحلب، وعاد الداعي إلى مصر، وفي المحرَّم بعث السلطان بِتارْتِكِين إلى الخادم الخاص ومعه فَرَجيَّة ديباج مطمومةٌ بالذهب، وعمامةٌ مكبة مذهبة، وفرس بمركب ذهب إلى أخيه إبراهيم ينَّال، وأحبَّ أن يزُفَّه بملابس الخليفة، وكان إبراهيم بالموصل، وأمره السلطان بالمسير إليه عاجلاً.

وفي صفر ورد الخبرُ بأن البساسيري أقطعَ الرحبة لخاصَّته، وارتفاعها ثمانون ألف دينار، ووعد بإنفاذ ستين ألف دينار من مصر في كلِّ سنة، مضافةً إلى ذلك تنصرف في إقامة العسكر البغداديين الذين معه، وكتب إليه من مصر أن لا يعبر الفرات، ولا يتعرَّض لأعمال العراق إلى أن يرى صاحب مصر رأيه في المسالمة أو المنافرة.

---

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٢٦_٤٣٣.

وقدم إبراهيم ينَّال بغداد سلخ المُحرَّم، وقيل: في صفر.

وفي صفر قصد الوزيرُ رئيسُ الرؤساء دارَ المملكة، واجتمع بالسلطان، وخاطبه في معنى أخيه إبراهيم ينَّال، وقال عن الخليفة: قد راسلتُك أيها السلطان عند وقوع الإرجاف عليه بعصيانه عليك، بأن لا تقبلَ فيه قولَ قائل، ولا تعجَلَ عليه، فللناس أغراض يبلغونها بك، ويتشوَّفون بها عندك، وقد قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] وما يبلغني عنه إلا الطاعة الخالصة، والمحبة الصادقة، والموالاة المؤكدة، بحيث إنني قد اشتهيت أن أراه، وقد شوَّقني ما أسمع عنه إلى مشاهدته. فقال السلطان: إذا أمرَ أميرُ المؤمنين سيَّرتُه إلى خدمته. ثم شرع يشكوه فقال: لمَّا سلَّمتُ إليه الحبل وعوَّلتُ عليه عصى عليَّ وجاهرني، فسِرْتُ إليه، فظفِرتُ به، وعملتُ معه الجميل، ولو كان ما ذُكِرَ عنه الآن من العصيان حقًّا لسرتُ إليه بنفسي، وأخذتُه برقبته، وما أخاف إلَّا من شغلي به، فتبْقَون أنتم ها هنا بحيث يتمكَّن العدوُّ من انتهاز الفرصة فيكم. فقال له رئيس الرؤساء: بعد قَصْدِه بابَك، ووَطْئِه بساطَك، وتشرُّفه بالحضرة الإمامية المقدسة ما يكون منه ما يتوزَّع الخاطرُ لأجله، أو يقع الاهتمام بأمره. ثم شكا إليه رئيسُ الرؤساء فسادَ الجند، فقال: الأمر إليك في هذا، افعَلْ ما تراه، وقد كنتُ الساعةَ قبل حضورك تقدَّمت إلى عميد الملك بأن يتقدَّم إلى الحواشي والحُجَّاب ويقول لهم: مَنْ أرجفَ بأنِّي عائدٌ إلى خراسان أدَّبتُه وعذَّبتُه، وقد كنتُ أجوبُ الأرض حتى أصِلَ إلى هذه الرتبة من خدمة الدار العزيزة، وقد بلغتُ منها نهاية الأمنية، ولم يبقَ بخراسان مَنْ أخاف منه على بلادي، كلُّهم لبسوا خِلَعي، ودخلوا تحت طاعتي، ولا بُدَّ لي من نطحةِ الشام بعد تقضِّي الصيف، وحضورِ المهرجان.

ثم خرج رئيس الرؤساء من عنده، واجتمع بإبراهيم ينَّال، وقال له: أمير المؤمنين قد أنِسَ بقربك، وسكن إلى سلامتك، وسُرَّ بما يبلغه من طاعتك. فقام وقبَّلَ الأرض وقال: أنا خادمُ الدار العزيزة، وباذلٌ مهجتي في نصرتها، وحيث ورد كتابُكَ وأمرُكَ إليَّ بالحضور سارعتُ متشرفاً بهذا المحلِّ الشريف، ومتجمِّلاً بهذا الاستدعاء الكريم، وأنا واقفٌ على الأوامر والمراسيم. فشكره الوزير، ودعا له.

وفي هذا الشهر أنفذ أهل شفاثا وقلعة العين التي لمحمود بن الأخرم أمير بني خفاجة ـ وهي معقل الخفاجيين ـ إلى السلطان، فسلَّموها إليه، فأعطاها أنوشروان زوجتَه، فتسلَّمها أصحابُه.

وفيه أُخرِجَ خُمارتاش الحاجب في جماعة من العسكر إلى الأنبار، وباتِكين ويارختِكين الحاجبان إلى الموصل، وسببه أنه ورد الخبر أن البساسيري وقريش بن بدران ومَنْ معهما من الغلمان البغدادية والأكراد، قطعوا الفرات، ومدُّوا أيديَهم في أعمال الجزيرة.

وفيه ورد الخبر بأن الغلمان البغدادية شغبت على البساسيري، وقالوا: قد أقطعت الرَّحبة، وليس لنا ما يقوم بنا. وانفصل عنه جماعة إلى دمشق.

وفيها أتوا نصر بن أبي عمران الداعية، وشكوا إليه، وطلبوا أن يذهبوا إلى مصر، فنهاهم عن مصر، ووقَّع لهم بما سألوا وأرضاهم، وأعادهم إلى البساسيري، فعادوا كارهين له، فقطع عليهم الطريق بنو كلاب، فقاتلوهم، فنُصِرَ الغلمان عليهم، فقتلوا منهم، ونهبوا خيولهم، وجاؤوا إلى حلب وبها أبو علي بن ملهم، فشكوا إليه حالَهم، وعرف منهم أنهم يكرهون العود إلى البساسيري، فارتبطهم عنده، وقرَّر لهم ما يرضيهم، ودخلوا إلى حلب فأقاموا بها.

وفي مستهلِّ ربيع الآخر ورد البساسيري وقريش إلى تل أعفر، وخرج عنها نائب السلطان إلى الموصل، وجاءا فنازلا الموصل، وكان غلمان السلطان يخرجون فيقاتلونهم، واستظهروا على العرب، وبلغ السلطان، فأنفذ إلى الجبال بطلب الحلباشية، وجهَّز إليهم سبع مئة غلام مع الحُجَّاب، وورد بغداد سلطان بن دُبَيس في عسكره نجدةً للسلطان، فتلقَّاه عميد الملك، وقبَّل الأرض بين يدي السلطان.

[وفيها في ربيع الآخرة توفِّي الملك الرحيم بن نوبة في قلعة الريِّ، ودُفِنَ بقيده].

وفي جمادى الأولى برز إبراهيم ينَّال من بغداد متوجهاً إلى الموصل، وكان بقلعتها ابنانجيل الذي خلفه السلطان بقلعة تل أعفر، جاء منهزماً من البساسيري، وكانت كتبه متواترة إلى السلطان تطلب النجدة، وأنهم في ضيق، فأراد السلطان يسير بنفسه، فمنعه الخليفة، وأشار بتسيير إبراهيم يَنَّال، وأشار على السلطان بمداراته وإزالة علله، فامتثل

وطيَّبَ قلبه، وخلع عليه خلعةً نفيسةً من ثيابه، وأعطاه مالاً، وبعث إليه الخليفة خِلَعاً وثياباً وفرساً من مراكبه، وراسله بألطف الرسائل، وسار نحو الموصل.

وفي جمادى الآخرة ولَّى الخليفةُ نقابة الطالبيين لأبي عبد الله بن أبي طالب نقيب الكوفة والمظالم والحج، وخلع عليه، ولقَّبه بالمرتضى ذي العِزَّين، وحضر قاضي القضاة أبو عبد الله الدامَغاني والأعيان عند رئيس الرؤساء ببيت النوبة، وخلع عليه فيه، وقرأ رئيس الرؤساء عهده، وخرج القاضي معه والحُجَّاب، وعبر إلى الجانب الغربي إلى الدار التي كان ينزلها المرتضى أبو القاسم الموسوي عند بركة زلزل، فلما كان يوم الأربعاء لخمس بَقِين من جمادى الآخرة عبر الأعيان ليهنِّؤوه، وفيهم أبو منصور بن يوسف، والشريف أبو الحسين بن المهتدي الخطيب، وأبو محمد التميمي، وجماعة، فأخذت عمائمهم في الطريق من قِلَّة الناس ببغداد وكثرة اللصوص، ومضى أبو نصر بن الصباغ إلى الجامع يوم الجمعة، فأُخِذَتْ عمامته، وكان العجم من أصحاب السلطان يفتحون الدكاكين نهاراً ويأخذون الأموال، ولا يتجاسر أحدٌ أن ينطق، وخاف الناس خوفاً عظيماً، وعزم السلطان على نهب الجانب الغربي، وقتل من فيه من كثرة إرجافهم عليه، فمنعه عميد الملك وقال: هذا يُفضي إلى خراب البلد واندراسه.

ولمَّا سار إبراهيم يَنَّال من بغداد إلى واسط أجفل بين يديه أهل تلك البلاد، وكان قد مضى إلى أزبك آل بن موسك، وعاد وهو مريض والعسكر مرضى من الوباء وجماعة المقدَّمين، فأُنزلوا في سفينة إلى بغداد، فلمَّا وصلوا إليها ماتوا، ولحق عميد الملك على خُمارتاش حزنٌ عظيمٌ، وقعد على التراب، وامتنع من الطعام والشراب، وكان يحبُّه ويعتمد عليه، ثم نقله في تابوت إلى خراسان.

وفي يوم الاثنين مستهل رجب برز السلطان خيمة نحو الموصل، فخرج إليه رئيس الرؤساء، وحمل معه خِلْعةً من خِلَع الخليفة وفرساً، وقال: قد رسم أنَّ السلطان يسير يوم الأربعاء عاشر الشهر، فإنه اختبر من طريق النجوم، وكان الخليفةُ قد أشار على السلطان أن لا يخرج بنفسه وقال: أصحابي محصورون بالموصل، وقد قلَّ زادُهم، والبساسيريُّ قريبٌ منهم، وكنتُ قد قلت في أول الأمر: إنني أخرجُ، فمُنِعتُ، فجرى

على عسكري ما جرى، ولا بُدَّ من الخروج، فخرج وطلب من الخليفة مالاً ينفقه في الغلمان، فبعث إليه بمال سراً لا يدري ما مَبْلَغُه، ولمَّا خرج السلطان رأى في عسكره قلَّةً، فشقَّ عليه، وقال لعميد الملك: هلَّا أخبرتني لأتوقف حتى تجتمع العساكر. وكان عدة من معه نحوٌ من ألفي غلام.

وفي رابع رجب هرب جماعةٌ من أصحاب السلطان من قلعة الموصل، فسَلِمَ البعضُ، وغَرِقَ البعض، وبقي منهم جماعةٌ في القلعة، وكانت العامة عليهم تقاتل، ثم جاء البساسيري فنزل دار الإمارة، وكان يقيم فيها نهاره، ويخرج منها إلى عسكره ليلاً، ووصل أصحاب السلطان من الجبل، وجاءته العساكر، وسار يوم الجمعة لأربعٍ بَقِينَ من رجب، ولمَّا قَرُبَ من الموصل هرب البساسيريُّ وقريش بن بدران وأهل الموصل، فهدم السلطان قلعة الموصل، ونزل العسكر في دور أهل الموصل، ولم يكن بقي منهم بها أحد، وكان شتاء، فنقض العسكر أخشابها وأوقدوها، وخرب أكثرها، وإنما هرب أهل البلد لأنهم قاتلوا أصحاب السلطان الذين كانوا في القلعة، ولم يَطُلْ مقامُ السلطان بها، وسار إلى نَصِيبين، فلمَّا قَرُبَ منها ولم يَبْقَ بينها وبينه إلا ليلة واحدة خرج إليه شيوخها، وبذلوا عن البلد ثلاثين ألف دينار تُدفع إلى العسكر، فالتمس منهم مئة ألف دينار، وقال: ما يكفي العسكر أقلُّ منها. وبات أهل البلد على أسوأ حال، فأصبحوا فلم يروا للسلطان والعساكر أثراً، وذلك يوم الأربعاء ثالث عشر رمضان، والسبب فيه أنَّ إبراهيم يَنَّال استشعر من السلطان ومازال إبراهيم عنه نافراً، وقيل: إنه كان يكاتب البساسيري باطناً، وأشار عليه البساسيري بالعصيان لأخيه، وأطمعه أن ينفرد بالملك ويساعده على ذلك، وكان رئيس الرؤساء قد ظفر بكتاب المصري والبساسيري إلى إبراهيم يَنَّال بذلك، فأخذ الوزير الكتب من الجاسوس وأطلقه، ولم يُسِيءْ إليه ليتألَّف قلب إبراهيم، فعاد فِعْلُه بالوبال وسوء الحال، فإن الجاسوس مضى من فوره إلى إبراهيم يَنَّال، والتقاه في تلك الليلة وأخبره، فانزعج وسار في الليل في قطعة عظيمة من الجيش إلى هَمَذان، ولم يشعر السلطان لأنه كان بعيداً عنه، ولمَّا علم سار فعدا خلفه خوفاً أن يسبقه إلى هَمَذان وبها حلل التركمان فيملكها، ويأخذ من هَمَذان ما بها من خزائن السلطان وأمواله وذخائره وسلاحه، وتقدَّم إلى خاتون وعميد

الملك وأنوشروان بن خاتون وجميع الحاشية حتى طبيبه ومنجمه الذين لم يخلوا قط من صحبته بالانحدار سرعة إلى بغداد، ليمضي هو جريدة بنفسه خلف إبراهيم، ثم يكاتبهم من هناك بما تقتضيه الحال، فانحدروا مُجِدِّين، فدخلوا بغداد يوم الاثنين رابع شوال، وأمَّا السلطان فإنه وصل إلى هَمَذان ليلة الخميس الحادي والعشرين منه، ثم وصل إبراهيم يَنَّال بعده إلى حلل التركمان، فحلَّفهم واستوثق منهم أن لا يصالح أخاه، ولا يُكلِّفهم المسير إلى العراق من بلادهم ولا إلى غيرها، ولا يستوزر وزيراً إلا برأيهم، فحلف لهم، وتحصَّن السلطان بهَمَذان، وقاتل أهلُها بين يديه، ووردت كتبه إلى عميد الملك وخاتون بالإسراع إليه والعسكر الذين معهم ليتقوَّى به، فعزمت خاتون على المسير، فمنعها الخليفة خوفاً من انصراف الجند وخلوِّ البلد، وقال لها عميد الملك: مَنْ يوصلنا إلى هَمَذان والعساكر مُحيطةٌ بها، ومتى ظفر بنا إبراهيم كان وهناً عليكِ وعلى السلطان؟! ودفعها رئيس الرؤساء عن ذلك، وشرع عميد الملك باطناً في ترتيب أنوشروان ابنها من خُوارَزم شاه في الإمارة، وطالبه العسكر بالمال، فأنفق فيه عميد الملك قطعةً من ماله ومال خاتون ومال أنوشروان، وساعدهم الخليفة بالغِلال، ومن الناس أيضاً، وأعلم عميد الملك لرؤساء الترك بما عزم عليه، وأطلع ابنانجيل وعمر على شيء منه، فلم يَرَيا أنوشروان أهلاً، فنقضا عليه ما دبَّره، وبلغ عميد الملك ذلك، فأحفظه، فلمَّا كان يوم السبت الخامس والعشرين من شوال حضروا في دار المملكة، فقال عميد الملك لعمر: ما تدع الفساد على السلطان، ولا تصفي نيَّتك له، وقد بلغني أنك تفسد العسكر لإبراهيم، وتحملهم على مفارقة باب الخليفة، ونحن بإزاء هذا العدو ـ يعني البساسيري ـ فقال له عمر: أنت تعلم من هو ذا يسعى في الفساد ـ يشير إليه ـ ولكن قد كرهتَ كوني معك، وأنا ألحقُ بالسلطان، وأدَعُكَ، فنفر من ذلك، ونهض عازماً على القبض عليه، وأحسَّ عمرُ، فخرج وجرَّد سيفه، وركب فرسه، ومضى إلى داره، واعترضه جماعة من أصحاب عميد الملك، فلم يقدروا عليه، واتَّبعه ابنانجيل مائتاً لعميد الملك، خائفاً منه، ووصل عمر من ساعته في غلمانه وخاصَّته بالأسلحة والسيوف المسلَّلة إلى الجبل، وجاءت رسالة خاتون إلى رئيس الرؤساء بإصلاح ما بين ابنانجيل وبين عميد الملك؛ لئلَّا يلحق بعمر فيتضاعف

الضرر، فأحضره رئيسُ الرؤساء، واستحلفه على الطاعة للخليفة والسلطان وعميد الملك، وأخرج له من حضرة الخليفة دست ثياب تشريفاً له وتطييباً لقلبه، فخرج من دار رئيس الرؤساء وقت العتمة، فسار متبعاً لعمر من غير التفات إلى ما حلف عليه في الديوان، ودخل عميد العراق إلى بغداد لمَّا مضى السلطان إلى الجبل واختلَّت الأمور عليه، وكان مقيماً بواسط لجباية الأموال، فأصعد إلى بغداد، ودخلها في شوال.

وفي ليلة السبت ثامن شوال نقب جامع المنصور، وأخذ منه المطرز الذي ينصب عليه المنبر والستر والسجادة وثياب المكبرين.

وفي ليلة الثلاثاء ثامن عشره كانت بين المغرب والعشاء زلزلةٌ عظيمةٌ، ولحق الناس منها خيفةٌ شديدة، ووصلت الأخبار بأنها اتصلت من هَمَذان إلى بغداد وواسط وسَقي الفرات وعانة وتكريت، وكان ببغداد رَحًى تدور فبطلت، وبعد هذه الزلزلة بشهر أخرج القائم من داره وجرى ما جرى، ولمَّا خرج ابنانجيل وعمر اتبعهما جميع من كان ببغداد من التركمان والأتراك، ولم يرضَ أحدٌ منهم بتأمير أنوشروان عليه، وقد كان عميد الملك خاطب الخليفة على أنوشروان وإظهاره في الملك، فقال الخليفة: هذا أمرٌ ينبغي [أن] يُستر، فقد تحدَّث الناس(١) بوفاة ركن الدين، فإن فعلنا ذلك صحَّ ما أرجفوا به، وطمع فينا العدو، والمصلحة الآن تدبير العساكر؛ لئلا يخلو البلد منهم، وهذا الأمر لا يفوت. وبعث رئيس الرؤساء إلى أبي الأغر دُبيس يستحِثُّه في القدوم إلى بغداد خوفاً من البساسيري، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مئة فارس، فنزل النجميَّ مقابل دار الخليفة، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلاة، فأذن له في بعضها، فلمَّا كان يوم الأربعاء إذا بعميد الملك وأنوشروان قد عبرا دجلة وهجما على دُبيس الخيمة في مئة غلام، فاستشعر وظنَّ السوء، فخرج إليهما وعرَّفاه أنهما هربا من خاتون، وأنها أرادت القبض عليهما، فضرب لهما خيمةً وأنزلهما فيها. وقيل: إن خاتون كانت على اللحاق بالسلطان خوفاً من أن ينحدر البساسيري إلى بغداد، وأيضاً فبلغها أن السلطان قد دخل ببنت الملك أبي كاليجار بن بويه، وأنه قد مال إليها، وخافت أيضاً أن يعلم السلطان بما عزم عليه أنوشروان وعميد

(١) في (ف): جرت الأخبار.

الملك، فربما أنه يحيد عن رأيهما، فعزمت على القبض عليهما. وقيل: إن كتاب السلطان ورد عليها بالقبض عليهما؛ لأن الخبر وصله بما شرعوا فيه، فأطلعَتْهُما على الكتاب، وأشارت عليهما بالانصراف، فلمَّا عبرا دجلة ونهبَتْ دورَهما، واستدعَتْ الحلباشية والتركمان وحاشية السلطان، وأخبرتهم بذلك، وأطلقت لسانها في عميد الملك وأنوشروان، وأنهما منعاها من اللحاق بالسلطان لسوء نيتهما، وأظهرت الندم على إفلاتها لهم(١)، وتقدَّمت إلى الجماعة بالمسير، ورحلت بكرة يوم الأربعاء خامس ذي القعدة، فبعث إليها الخليفة بالتوقف، فزبرت الرسول وسارت، وخاف الحريم من عبث العرقية يعني حريم دار الخلافة، فرمى الناس أقمشتهم في الآبار، وأقام الوزير على أبواب الدروب من يحفظها وباتوا على وجل، وسار الغُزُّ مع خاتون ونهب من تخلَّف منهم دارَ المملكة وما فيها من السلاح والرجال، وكان شيئاً كثيراً، وعبر عميد الملك من خيم ابن مَزْيد وقت العصر إلى بيت النُّوبة، واجتمع رئيس الرؤساء، واستقرَّ الرأي مع الخليفة عبور ابن مَزْيد إلى الجانب الشرقي لتهمتهم إيَّاه بالبساسيري، وجرَتْ بينهم وبينه مراسلاتٌ إلى أن عبر يوم الخميس سادس ذي القعدة، وتواترت الأخبار بانحدار البساسيري وقريش ونزولهما على هِيت منتهزين الفرصة في بغداد، ولم يبقَ مع عميد الملك غير غلمانه، فانحدر إلى دير العاقول يوم الخميس طالباً خُوزستان، فلقي في طريقه أبا كاليجار هزارسب، وكان قد استُدعِيَ إلى بغداد، فعرَّفه مسير خاتون بالعساكر، فرجع معه ومضيا جميعاً إلى الأهواز، وأما أنوشروان فسار لاحقاً بوالدته، وكثُرت الأخبار بقرب البساسيري، وضعُفَتْ نفس الخليفة ووزيرِه، ورجع الناس وخصوصاً حاشيةُ الخليفة وخدمُه، وقال الخليفة: مَنْ أراد الانصراف فلينصرِفْ فإني خارج من البلد. فأخرج الناسُ أموالَهم وأولادَهم إلى شاطىء دجلة، وضجَّ النساء والأطفال، وأنزل الحاشيةُ والعجمُ أموالَهم إلى السفن. وفي وقت هذه الثورة صاح على دار الخليفة نحو عشر بومات صياحاً مزعجاً، وكرَّرت تكريراً موحشاً. [قلت: وأهل العراق يتطيَّرون من صياح البوم ويتشاءمون بهنَّ، وليس في صياحهنَّ بؤسٌ ولا شؤم، وقد يوافق صياحهنَّ جريان القدر في بعض الصور، وفي الخبر الذي اشتهر: «لا

(١) في (ف): منها، والمثبت من (ف).

عدوى ولا طِيرة ولا هامة ولا صفر»[1]]. ولمَّا تحقَّق أبو الأغر دُبيس وصولَ البساسيري قال لرئيس الرؤساء: مَنْ بقي من ها هنا من هؤلاء العجم يدافع، والرأي عندي خروجي وخروجك عن البلد وانحداركما ومَنْ يتعلَّق بكما في دجلة إلى البلاد السفلية، بحيث تأمنا عدوَّكما، ويجتمع هزارسب معي في خدمتكما، ويجتمع إليكما مَنْ نقوى به. فوافق على هذا الرأي، وخاطب الخليفةَ مراتٍ، فأجابه إليه، ثم صعب عليه مفارقةُ داره وماله، وسمع من والدته ما قوَّى قلبه وعزمه في المقام، فاجتهد به رئيس الرؤساء في الانحدار، فأبى، فقال دُبيس: قد محَّصتُ الرأي، وأنا أتقدم إلى ديالى، فإن قبلتُم انحدرتُ في خدمتكم، وإن تكن الأخرى فالله يقيكم ويدافع عنكم وانصرف إلى ديالى، وأقام متوقعاً خروج الخليفة، ولم يُقبل، وانحدر معه قوم من الحواشي، وخاف الغُزُّ من غدره فتوقَّفوا، وأقام الخليفة على كُرْهٍ وضرورةٍ لا عن رأيٍ وإرادة، وجمع إليه من بقي، وأمر بإصعاد العجم من السفن التي كانوا يبحرون فيها، وخرج عميد العراق أبو نصر أحمد المستوفي لينحدر، فخرج الخليفة بنفسه إليه فردَّه، واجتمع مع الخليفة نحو مئة فارس وألف راجل، وأمر أهلَ الجانب الغربي أن يعبروا إلى الجانب الشرقي، وأمر الزُّهيري وابن اليدن الحنان وابن المُذْهِب ـ وهم رؤوس الفتن ـ أن يعبروا إلى الجانب الشرقي إلى الحريم، ومضى رئيس الرؤساء وعميد العراق إلى دار المملكة، وأخذ من الساج الذي فيها ما صلح، وضربا الباقي بالنار، واحترق بيتٌ كبير يقال له: السُّبُكْتِكيني، بناه سُبُكْتِكين حاجب مُعِزِّ الدولة، كان فيه السلاح، ولمَّا بنى عضد الدولة دار المملكة وغيرها لم يتعرَّض لهذا البيت، وقال: هذا فخر بني بويه، يشاهده الناس في دار المملكة. ودخل يوم الجمعة سابع ذي القعدة أو سادس عشره غلمان من البغدادية الذين مع البساسيري إلى بغداد إلى الجانب الغربي، واجتازوا بالكَرْخ، فوثب إليهم أهل الكَرْخ، وخلفوا دوابهم، ودَعَوا لهم وللبساسيري ولصاحب مصر، وسبوا رئيس الرؤساء، وكان أبو طالب كامرو بن الملك أبي كاليجار محبوساً في دارٍ في الجانب الغربي، فأخرجوه وشدُّوا له علماً أحمر، وأقاموه بإزاء دار المملكة، وبعثوا إلى البساسيري يخبرونه بدخولهم بغداد وما فعلوا،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ويستحثونه على لحاقهم، وأقاموا مع كامرو إلى وقت المساء، ثم حمله إلى قرية عَقْرَقُوف[١]، فباتوا بها، ووافاهم البساسيري، وقيل: لم يُصلِّ الناسُ الجمعة بجامع المنصور، وإنما صلُّوا الظهر بغير خطبة، ونزل البساسيري يوم السبت بعَقْرَقُوف، ولقيه كامرو فلم يَرَ عنده ما قدَّره، وجهده بما يكره، وحصل في جملته غيرَ مُهتَمٍّ بأمره، ولا مُراعٍ لحقِّه، فلما كان يوم الأحد ثامن ذي القعدة دخل بغداد، فخرج إليه أهل الكَرْخ، وتضرَّعوا في أن يجتاز عندهم، فعدلَ معهم، ودخل الكَرْخ، فنثروا عليه الدنانير والدراهم، وعليه جبة عتابي، وعمامة خَزٍّ، وكان دائماً ينتخب الملابس الفاخرة، وعن يمينه أبو الحسن بن عبد الرحيم، وعن يساره من الغلمان البغدادية العددُ القليلُ، وعلى رأسه نحو من عشرين قصبة من القنا، منها عشرة ملبَّسة بالفضة مشدودة، عليها تسعة مطارد سقلاطون، مكتوب عليها بالذهب والفضة: الإمام المستنصر بالله أبو تميم مُعِدٌّ أمير المؤمنين، ومنها عشرة ملبَّسة بالحرير الأحمر، على واحدة منها راية بيضاء، منسوجٌ فيها بالذهب اسم المستنصر أيضاً، فنزل بمشرعة الزوايا، ونزل قريش في نحو من مئتي فارس في مشرعة لباب البصرة في بني عقيل، ولمَّا استقرَّ بالقوم المنزل ركب عميد العراق من الجانب الشرقي في العسكر وحواشي الدار والخدم والهاشميين والعلويين والعوام، وقد ألبسهم السلاح، فكانوا عدداً كثيراً، ومعهم فيلٌ صغيرٌ حمله السلطان إلى الخليفة لمَّا زفَّ إليه ابنةَ أخيه، وضربوا الدَّبادب والبوقات، وصاحوا عليهم إلى آخر النهار، ثم انصرفوا ولم يجاوَبوا بكلمة من عسكر البساسيري بكلمة ولا فعل، ونُهِبَتْ دارُ قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، وكانت بالجانب الغربي، وتلف أكثرُ السجِلَّات والكتب الحكمية، ونُهِبَتْ دور المتعلقين على الخليفة والعجم، إلا من كان في داره فإنهم لم يتعرضوا له ولا لداره، وأوصى البساسيريُّ الغلمان أن لا ينهبوا ويُحسِنوا العشرة مع الناس، وطرحت النار في باب البصرة، وكان أكثرُ أهلها قد عبروا[٢] إلى دار الخليفة، فنُهِبَتْ وأُحرِقَتْ، واجتهد البساسيري في منع ذلك فلم يقدر؛ لأن أهلَ الكَرْخ أظهروا ما كان في قلوبهم، وخرج مَنْ بقي من أهل باب البصرة

---

(١) عَقْرَقُوف: قرية من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ. معجم البلدان ٤/ ١٣٧ .

(٢) في (ف): دخلوا.

عراةً ومعهم النساء والأطفال، وقعدوا على الطرق والدكاكين، وكان الزمانُ شتاءً، والبرد شديد، فمات أكثرُهم، وأعاد أهل الكَرْخ الأذان بحيَّ على خير العمل، وأظهروا الفرح والسرور والتشفي بإزاء ما قاسوه من الخوف والذُّلِّ، وعملوا راية بيضاء وكتبوا عليها اسم المستنصر، ونصبوها في وسط الكَرْخ، وعقد البساسيري الجسر عند باب الطاق ليضيِّق رجله، وجرى بينه وبين عميد العراق حربٌ على عقده، وجمع إليه البساسيري العوامَّ وأهلَ الكَرْخ، وأطمعهم في نهب دار الخليفة، واجتمع إليه العيَّارون، وكان كلُّ مَنْ عبر إليه إلى الجانب الغربي خلع عليه وزفَّه بالبوقات والدبادب، وخطب بجامع المنصور للمستنصر، وألبس الخطيب والمؤذنين الثياب البيض، وزيد في الأذان: حيَّ على خير العمل، وركب عميد العراق إلى جامع الرُّصافة، وأقام الخطبة للقائم على العادة، ولمَّا تكامل الجسر والقتالُ يُعمَلُ عليه سيَّر جماعةً يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة، فوافاهم عميد العراق عند الزاهر، واقتتلوا، فانهزم عميد العراق ومَنْ كان معه، وقُتِلَ من الدَّيلم نحوٌ من ثلاثين رجلاً، وعبر البساسيري بعسكره، وخرج إليه عميد العراق وبنو هاشم وغيرهم، وقاتلوه من نهر مُعلَّى إلى باب أبْرَز، وكان القتالُ يُعمل كلَّ يوم، وخُطِبَ يومَ الجمعة بجامع الرُّصافة للمستنصر أيضاً، وكان الخطيب في جامع المنصور والرُّصافة يقال له: ابن شعيب الأَرَّجاني، وكان شريراً مبغضاً، وكان البساسيري يعرفه بالشر، فنال من الخليفة ومن رئيس الرؤساء [على المنبرين، وكان عميد العراق ورئيس الرؤساء][1] والخدم والزهيري وابن اليدن وابن المذهب القاص يقفون بباب النُّوبي، ويقاتلون ويجمعون العوامَّ ورئيسُ الرؤساء يحرِّضهم ويقول: اقتلوهم حيث ثقفتموهم، وكان النساء يقاتِلْنَ وبأيديهنَّ الدفوف، وحُفِرَتِ الخنادق والآبار حول دار الخلافة، وخلا جانب الحلبة من المقاتلين، واشتغلوا بحفظ باب النُّوبي، فلما كان يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة قصد البساسيريُّ دارَ الخلافة من ناحية باب النُّوبي، وعرف العوامُّ خلوَّ باب الأزج والحلبة، فجاؤوا إلى ناحية باب الأزج، وهدموا حائطاً، وأحرقوا أماكِنَ، وعلم البساسيري، فساق إليهم، فوجدهم قد اشتغلوا بالنهب من باب الأزج، ولمَّا

---

(١) هذه الزيادة من (ف).

رآهم أصحابُه ينهبون شرعوا في النهب، فبقي في عسكر قليل، وحمل أصحاب عميد العراق إليه، وقتلوا أحدَ مماليكه، فانصرف وقد غاظه ما جرى، ونادى في أصحابه: من نهبَ حلَّ دمه، وباكر القتال من غدٍ عند الحلبة، وكان عميد العراق واقفاً بباب أَبْرَز في أصحابه وهو مستظهرٌ عليهم، ولو قبل رئيس الرؤساء رأيه لطال الأمرُ، ولكنه عدل إلى رأي نفسه، وجاء إلى باب الحلبة فشجَّعه القاضي أبو الفضل الهَمَذاني، وقال: افتَحْ لي الباب لأخرُجَ إلى هذا الكلب وآخذ به برقبته، ولم يكن رئيس الرؤساء يقيم الحرب، ولا له به خبرة، ففتح الباب، فخرج أبو الفضل فيمَنْ يخلف عن عميد العراق من العجم، ومعه الخدم والخواصُّ والهاشميون والعوام إلى الحلبة، وانتشروا فيها، وعميد العراق في باب أبْرَز، ووقف رئيس الرؤساء بالباب يُفرِّق النُّشَّاب، فاستجرَّهم البساسيري إلى آخر الحلبة، ثم أكَبَّ عليهم فانهزموا، وقُتِلَ من الخدم والخواصِّ جماعةٌ، وكذا من الهاشميين، منهم: أبو علي بن أبي تمام نقيب الهاشميين، وجماعةٌ كبيرة، واستأمن بعضُهم، وازدحم في باب الحلبة خلقٌ فمات منهم جماعةٌ، منهم القاضي أبو الفضل الهَمَذاني وجماعةٌ من العوام حتى امتلأ العقد بهم، وصَعِد الناس على القتلى، وازدحموا فوقهم، وهرب رئيس الرؤساء إلى دار الخلافة، ورجع البساسيري إلى معسكره، وعبر العوام وغيرهم من دار الخلافة إلى الجانب الغربي، وأخذوا نساءهم وأموالهم، ونهبوا حريمَ الخلافة، وخرج رئيس الرؤساء إلى باب النُّوبي، واستدعى عميدَ العراق وقال له: احفَظْ باب العامة، وكُنْ على سور دار الخلافة. ودخل إلى القائم وقد أطاف بالقائم خدَمُه وخواصُّه، فقال له: ما الرأيُ يا علي؟ فقال: تحفظ الدار، ويكون القتال على السور، ونسألُ الله حُسنَ المقدور. فقال له بعض الهاشميين: يا رئيس الرؤساء، قامرتَ في الدولة العباسية فقمرتَها، وبينا هم على ذلك إذ سمعوا صراخاً في الدار، فقال: انظروا ما هذا؟ قالوا: العوامُّ والعسكر دخلوا الدار، ونهبوا ديوان الخاص، ودواب الخدم والخواص، وأشاروا على الخليفة بالركوب ليشاهده الناس، فإمَّا يرجعوا، وإمَّا استُذِمَّ قريشٌ، فركب وعليه السواد، وعلى كتفه البردة، وبيده سيفٌ مُجرَّد، وعلى رأسه اللواء[1]، والهاشميون حولَه

(١) في (ف): اللؤلؤ.

والجَواري حاسراتُ [ناشراتُ][1] الشعورَ، معهنَّ المصاحف على رؤوس القصب، وبين يديه الخدم بالسيوف المسلَّلة، فوجدوا جماعةً من النَّهابة قد وصلوا باب الفردوس[2]، فقتلوهم ورجع إلى باب العامة يريد عميد العراق، فوجده قد استأمن إلى قريش بن بدران، ورمى أكثرُ أصحابه سلاحهم، واستأمنوا معه، فعاد إلى الحلبة الصغيرة، وعرف أن البساسيري وقريشاً في الحلبة الكبيرة، فصعد إلى منظرة له، واطَّلع رئيس الرؤساء وصاح بقريش: يا علم الدين، أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا إلى تحت المنظرة، فقال: قد آتاك الله رتبةً لم ينَلْها أمثالُك، وأحلَّكَ منزلةً لم يُحِلَّها أشكالَك، فإن أمير المؤمنين يستذمُّ منك على نفسه وأهله وماله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله ﷺ وذمام العرب. فقال قريش: قد أذمَّ الله له. قال: ولي ولمن معه؟ قال: نعم. وخلع قَلنسوةً من تحت عِمامته، وأعطاها ذماماً للخليفة، وأعطى مِخْصَرته لرئيس الرؤساء ذماماً، ففتح الباب، ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء إلى قريش، وحصلا معه، فقبَّل قريش الأرضَ دفعاتٍ، وكان ابنُ المسلمة قد تسرَّح من الحائط فنزل، وبلغ البساسيري، فأرسل إليه يقول: أتذمُّ لهما وقد استقرَّ بيني وبينك ما اسْتَحلفتُكَ عليه؟! وكانا عند انحدارهما قد تحالفا أن لا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء، ويكون العراق بينهما نصفين. فقال قريش: ما عدلتَ عن ما استقرَّ بيننا عدول ابن المسلمة ـ يعني رئيس الرؤساء ـ فخُذْه وأنا آخذ الخليفة. فرضي بذلك، وبعث رئيسُ الرؤساء إليه مع منصور بن مَزْيَد، فحين رآه البساسيري قال: مرحباً بمدمِّرِ الدولة، ومُهلِكِ الأمم، ومُخرِّبِ البلاد، ومُبيدِ العباد. فقال له: أيها الأجلُّ، العفو عند المقدرة. فقال: قد قدرتَ فما عفوتَ، وأنتَ تاجرٌ صاحبُ طيلسان، ولم تُبْقِ على الحريم والأطفال والأموال، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف، وقد أخذتَ أموالي، وعاقبتَ حرمي، ونفيتَهم إلى البلاد والقلاع، واعتقلتَهم فيها، وقتلتَ أصحابي، ودرسْتَ دوري، وسبيتني وأبعدتني، وفعلتَ تلك الأفاعيل، ولكن هذا من تصوُّرك الفاسد، وعقلك الناقص. واجتمع العامة على ابن المسلمة، ولعنوه وسبُّوه

(١) هذه الزيادة من (ف).

(٢) في (خ): الفراديس، والمثبت من (ف).

وهمُّوا به، فأخذ البساسيري بيده، وسيَّره إلى جنبه؛ خوفاً عليه من العامة، ولم يزَلْ يوبِّخه ويُعنِّفه ـ وهو يعتذر إليه ـ ويستعطفه، وحلَّ الركابية حزامَ البِرْذَون الذي كان تحته ليسقط ويتمكن منه العامة، فسقط، فوقف البساسيري حتى أركبه، ومضى به إلى خيمته، وانتزع أحدُ الأتراك ما كان عليه، وألبسه قميصَ خَزٍّ وعمامةً لطيفةً بيضاءَ، وقيَّده بقيدٍ، ووكَلَ به، وحصل في يده جميعُ مَنْ كان يطلبه، مثل: ابن المردوسي، وأبي عبد الله بن الدامغاني قاضي القضاة، وهبة الله بن المأمون، وأبي علي بن السيرواني، وأبي عبد الله بن عبد الملك، وكان من التجار الكبار، وبينه وبين البساسيري عداوةٌ، وكان قد سكن دار الخليفة خوفاً منه على ماله ونعمته، وظفر بالسيدة خاتون بنت الأمير داود زوجة الخليفة، فأحسن معاملتها، ولم يتعرَّض لها، وسلَّمها إلى أبي عبد الله بن جردة البيع، وأما قريش فحصل في يده الخليفة، وعميد العراق، وأبو منصور بن يوسف وولده، فحُمِلَ الخليفةُ إلى معسكره راكباً، عليه الثياب السُّود، وعلى كتفه البُردةُ، وبيده سيفٌ مسلول، وعلى رأسه اللواء، فمال، فأنزله قريش خيمةً لطيفةً، ومعه من خواصِّ خدمه ريحانُ وموفق وعفيف، ووكل بالخيمة قوماً من أصحابه، ولحق الخليفةَ ذَرَبٌ عظيم، فامتنع من الطعام والشراب، فسأله قريش وألحَّ عليه حتى أكل وشرب، ثم إن قريشاً أذمَّ لأبي عبد الله بن جردة، وكان تاجراً، لم يُدخِلْ نفسَه في غير التجارة، وأخذ أبا منصور بن يوسف وابنيه إلى حُلَّته وأكرمَه، وأصلح حالَه مع البساسيري، وكان ابن جردة قد ضمن لقريش عشرةَ آلاف دينار إن حمى له داره وما فيها من أموال التجارة، فحماها، وعبر العوامُّ من الكَرْخ وغيرِه يوم الثلاثاء، فأحرقوا رباط أبي سعيد الصوفي بباب المدرسة النظامية، ثم صعدوا إلى دار الخليفة وفتحوا أبوابها ونهبوها، وأُخذ منها من الأموال والجواهر والثياب والأواني والياقوت والمصاغ وجميع الأشياء ما لا تُحصر قيمتُه، واستغنى أهلُ الكَرْخ والعرب والغلمان، فلما كان يوم الأربعاء رفع البساسيريُّ النَّهبَ عن دار الخليفة، واستُخرجَتِ الأموالُ منها، واقتسمها البساسيريُّ وقريشٌ على ما اتَّفقا عليه، وقُتِلَ ابنُ المُذْهِب القاص بباب النُّوبي، وأفلت الزُّهيري وابنُ اليدن الحيَّان، وكان هؤلاء الثلاثة القائمين القاعدين المتهدِّدين والمتوعِّدين، وكان في قلوب الناس منهم ما فيها، وعبر

البساسيريُّ بابن المسلمة إلى حريم ابن طاهر، واعتقله فيه، وثقَّله بالحديد، وضربه بيده ضرباً مُبرِّحاً حتى انتفخت قدماه، فَفُكَّ قيدُه حتى سكنت، ثم أُعيد القيد، واعتُقل أيضاً القاضي ومَنْ سَمَّينا، وواصل العقوبة عليهم، وأقام بالحريم، وجعله داره، وشدَّ الفِيلَة على بابه، وطلب الخليفةَ من قريش فلم يفعل، فاتَّفقا على أن أيديهما متساوية في حفظه، وأن لا يكون في يد أحدهما إلى أن يتقرَّر لهما عزمٌ في بابه، وأن يبعثا به إلى مهارش صاحب الحديثة، وأن يكون معتقلاً عنده، وعرف الخليفة ذلك، فخاف أن تكون مكيدة، فراسل قريشاً في المجيء إليه، فامتنع، فقام الخليفة ومشى إلى خيمة قريش، ودخل عليه، وعلق بذيله، وقال: قد عرفتَ ما استقرَّ من إبعادي عنك، وإخراجي من يدك[1]، وما سلمتُ نفسي إليك، إلَّا لمَّا أعطيتني ذمامك الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلتُ عليك بذمام آخر، فاللهَ اللهَ في نفسي، فإنك إن أسلمتني أهلكتني وضيَّعتني، وما ذاك معروف في العرب. فقال له: ما ينالُكَ سوءٌ، ولا يلحقُكَ ضيمٌ، غير أن هذه الخيمة ليست لك بدار مقام، وأبو الحارث لا يُؤْثِر مقامك معه في هذا البلد، وقد جرى ما جرى في أمرك، وأنا أنقلك إلى الحديثة وأُسلِّمك إلى ابن عمي مهارش، وفيه دين وتألُّه، فلا تخَفْ، واسكُنْ إلى مراعاتي لك، وعُدْ إلى مكانك. فلمَّا يئس منه قام عنه وهو يقول: لله أمرٌ هو بالِغُه. واسترجع، وعبر قريش ليلة الأربعاء تاسع ذي الحجة إلى الجانب الغربي، فضرب خيمةً بقرب جامع المنصور، وحُمِلَ الخليفةُ إلى المشهد بمقابر قريش، وقيل له: تبات الليلة فيه. فامتنع وقال: هؤلاء العلويُّون الذين به أعدائي ويشنؤوني، وربما جرى منهم قولٌ قبيح. فلم يلتفت إليه، وأُلزم الدخول، وبات في بعض البيوت، وكان القصد في إدخاله المشهد لما جرى على المشهد من الحريق والهوان، وفِعْلُ الزُّهيري وابن اليدن إنما كان عن أمره وإيثاره، فأرادوا الموافقة له على ذلك، وأنه عوقب بدخوله إليه، فأصبح أصحاب البساسيري وأصحاب قريش فتسلموه وأقعدوه في هودج على جمل وحده، وساروا به إلى الحديثة، فلمَّا بلغ الأنبار شكا وصولَ البرد إلى جسمه، وطلب شيئاً يلبسه، فلم يجد، وعرف شيخ من مشايخ الأنبار ـ يقال له: ابن مهدويه ـ ذلك، فأنفذ إليه جُبَّةَ بُرْدٍ

(١) في (خ): وإخراجي عنك، والمثبت من (ف).

فيها قطنٌ، وبقياراً[١] ولحافاً، وكتب الخليفة رقعةً من هناك إلى بغداد يتلطَّف فيها بالبساسيري وقريش، ويسألهما إعادتَه إلى بغداد، وإحسانَ العشرة، وحلف بالأيمان المؤكِّدة على براءة ساحته من جميع ما نُسِب إليه، فلم يقع التفاتٌ إليها، ولا رَدَّ جواباً عنها، وركب البساسيريُّ يوم الخميس العاشر من ذي الحجة إلى المُصلَّى في الجانب الشرقي، وعلى رأسه الألوية المضربة، وأكثرُ مَنْ في موكبه من العجم، وكانوا سبع مئة، فدنا منهم ولم يتعرَّضْ لهم، وعبر في طيار الخليفة، وعلى الطيار أعلام المصريين، فصلَّى العيد ونحن بين يديه، وأبو منصور بن بكران حاجب الخليفة على رأسه في النحر، وعليه ثياب بياض، وضرب البساسيري دنانير سمَّاها المستنصرية، وكان على جانبه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليٌّ وليُّ الله. وعلى الجانب الآخر: عبد الله، ووليُّه الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين، وأما دُبَيس فإنه كان مقيماً بديالى، ولمَّا بلغه ما جرى رحلَ منها، ودخل بغداد يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة، والتقاه البساسيري وقريش، وفي جملتهم أبو عبد الله المردوسي وجماعة من الحاشية؛ طمعاً أن يُصلحَ حالَهم مع البساسيري، وضرب خيمةً على الصراة، وكان البساسيريُّ يقبض في الليل على جماعةٍ ويُفرِّقهم، وقدم عليه مَنْ كان بواسط من الغلمان والعجم، فاستخدمهم وطيَّب قلوبهم، وأقفر حريم دار الخلافة، ولم يبقَ فيه إلا عددٌ يسير، وخربتِ الدُّور والمساكن والأسواق، وكان بتكريت أصحابُ السلطان طُغْرُلْبَك، رتبهم عند عوده من الموصل، فندب البساسيريُّ رجلاً ـ يقال له: حيدر ـ من العجم، كان قد خدم البساسيريَّ، وقال: تمضي مع قريش لحصار تكريت.

وفي ذي الحجة غرَّق البساسيريُّ قوماً من العجم همُّوا بالفتك به، وغرَّق معهم جماعةً من العيَّارين ظفر بهم، فيهم الزُّهيري، وكان الزُّهيري لمَّا أُنزل في السفينة ليُغرَّق سأل بعض الملَّاحين ـ وكان من أهل السنة ـ أن يَحُلَّ كِتافَه[٢] ففعل، وسبح،

(١) بقيار: كلمة فارسية، تعني العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والقضاة والكُتَّاب. تكملة المعاجم لدروزي ١/ ٤٠٧ .

(٢) الكِتاف: ما شُدَّ به من حبل ونحوه. المعجم الوسيط (كتف).

وانحدر إلى مشرعة القصب، وصعد إلى زورق، فاستكَنَّ فيه من البرد، وأنكره ملّاحوه، فضمن لهم خمسة دنانير، [على أن يحملوه إلى مربعة القطانين، فحملوه، فدخل دار العُكْبَري معلِّم أولاد ابن المسلمة، وأخذ من أحد أقاربه خمسة دنانير] فدفعها إليهم، وخاف العسكر أن يشيع ذلك فيُغَرِّمَه البساسيري عوضه، فبعث إلى البساسيري وأخبره، فأخذ الزُّهيري فقتله، وطُرِح في دجلة، وأمَّا ابن اليدن فإنه هرب إلى النهروان، فبعث به ناظر النهروان إلى البساسيري، فجاء به فارسان إلى الزاهر ليلاً، فناما، وهرب في الليل، وسبح[(١)] إلى باب البصرة، واختبأ عند امرأةٍ فسَلِم.

وفي يوم الاثنين لليلتين بقِيتا من ذي الحجة قُتل رئيس الرؤساء، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذا اليوم ورد ركابيٌّ إلى بغداد ومعه كتابٌ إلى دور أحد حُجَّاب السلطان يخبر فيه أن السلطان كان محاصراً بهَمَذان، وورد الخبر إلى أخيه إبراهيم يَنَّال أن زوجة السلطان واصلةٌ بالعساكر والخزائن، فحرص على أخذها، وبعث بقطعة كبيرة من العسكر وراءها، وتبعها أكثر التركمان طمعاً في نهب ما معها، ففلَّ عسكر إبراهيم يَنَّال منهزماً، وسار السلطان إلى الريِّ، ولحقت به خاتون، وفاتت التركمان، وعادوا فوجدوا أموالهم قد نُهبت، ووصلت خاتون بالسلطان وسلمت، وكان ابنُها أنوشروان معها مقيَّداً، وقد كان لحقها بحلوان، فقيَّدَتْه واستصحبَتْه معها، فلمَّا رآه السلطان على تلك الصورة رَقَّ له، وفَكَّ قيدَه، وأفرج عنه. وكان البساسيريُّ لمَّا دخل بغداد أسر يارَخْتِكين حاجب السلطان، وكانت زوجتُه مع خاتون، فسألت السلطان أن يفدي زوجَها بنساء البساسيري وأولادَه، فأجابها، وبعث كتاباً إلى بدر بن المهلهل الكردي ليتسلَّم يارَخْتِكين، ويُسَلِّمَ أولاد البساسيري.

وفيه أفرج البساسيريُّ عن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني بعد أن قرَّر عليه ثلاثة آلاف دينار، وضمنه حموه ابن السِّمناني عليها، وأدَّى سبع مئة دينار، وسكت البساسيريُّ عن الباقي، ووصل الخليفة إلى الحديثة، والتقاه مهارش البدري، وكان حسنَ الطريقة، يخدم الخليفة بنفسه.

---

(١) في (خ): وسلم، والمثبت من (ف).

وفيها قدم الحسن بن الحسين[1] بن حمدان ـ الملقب بناصر الدولة ذي المجدين ـ من مصر أميراً على دمشق، فأقام بها والياً إلى سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، وندب إلى حلب لقتال بني كلاب، فتوجَّه إليهم، وجرت له معهم وقعات، منها وقعة الفنيدق، فكُسِرَ ابنُ حمدان كسرةً عظيمةً قُتِلَ أكثرُ عسكره، وأُسِرَ الباقون، ومضى إلى مصر جريحاً. وقيل: كانت في شعبان.

وقال الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي: وفي سنة خمسين وأربع مئة وصل الأمير ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن حمدان إلى دمشق والياً عليها دفعةً ثانيةً بعد أن ولي[2] يوم الاثنين النصف من رجب، فأقام يجمع أموالها، ويسوس أحوالها، إلى أن ورد عليه الأمر من مصر بالمسير إلى حلب، فتوجَّه إليها في ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، واتفقت الوقعة المشهورة عند الفنيدق بظاهر حلب يوم الاثنين مستهلَّ شعبان، فانهزم ناصر الدولة مفلولاً جريحاً، واستولت العرب على ما كان معه. قال المصنف رحمه الله: ومعنى قوله: ورد دمشق دفعة ثانية؛ أن ناصر الدولة كان قد ولي دمشق سنة ثلاث وثلاثين بعد أمير الجيوش أنوشْتِكين، وورد في صحبة ناصر الدولة إلى دمشق الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسن بن العباس بن الحسن بن الحسين أبي الحسن نقيب الطالبيين، فأقام ناصر الدولة إلى سنة أربعين، فعُزِلَ في رجب، وحُمِلَ مقبوضاً عليه إلى مصر.

[وفيها] تُوفِّي

داود جُغْري بك[3]

أخو السلطان طُغْرُلْبَك، وهو الأكبر، ولم يقدم بغداد، وكان مقيماً بخراسان بإزاء أولاد محمود بن سُبُكْتِكين وداود حمو القائم، وكان عاقلاً شجاعاً مدبِّراً حليماً جواداً، رضي بخراسان، وكانت وفاته ببَلْخ، ومضى ولداه ياقوتي وقاوَرْت بك من

---

(١) في الأصلين (خ) و(ف): الحسين بن الحسن، والصواب: الحسن بن الحسين، كما سيأتي قريباً، وكما في معظم المصادر.

(٢) في (ف): بعد أولى.

(٣) ما بين حاصرتين من (ف).

حضرة السلطان؛ جهَّزهما إلى أخيهما المتملِّك الأمر بعد أبيهما، واسمه أَلْب أرسلان، وقرَّر[١] السلطان أمورهم، وكان بأصبهان، وقد عزم على قصد العراق.

[وفيها تُوفِّي]

طاهر بن عبد الله بن طاهر[٢]

أبو الطيب، الطبري، القاضي، الشافعي، ولد سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة بآمُل، وتفقَّه بخراسان والعراق، وابتدأ بدرس الفقه والعلم وله أربعة عشر سنة، فلم يُخِلَّ به يوماً واحداً حتى مات، وولي القضاء بربع الكَرْخ [بعد موت الصَّيمري. وذكره أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء»[٣] وأثنى عليه، وقال]: وكان حسن الخُلق، دفع إلى خفَّافٍ خُفّاً ليصلحه، فكان يمرُّ عليه فيتقاضاه، فإذا رآه الخفَّاف أخذ الخُفَّ وغمسه في الماء وقال: الساعةَ أُصلحه. فلمَّا طال عليه ذلك مرَّ به يوماً، فأخذ الخُفَّ وغمسه في الماء على العادة، فقال له [أبو الطيب]: يا هذا، إنما دفعتُه إليك لتُصلِحه لا لتُعلِّمه السباحة.

[قال الخطيب]: وتُوفِّي يوم السبت لعشر بَقِين من ربيع الأول، وصلَّى [عليه] أبو الحسين بن المهتدي بجامع المنصور، [وحضرتُ الصلاة عليه]، ودفن بباب حرب، وقد بلغ [من السنِّ] مئة سنة وستين سنة، وهو صحيح العقل، ثابت الفهم، سليم الأعضاء والسمع والبصر، على رسمه في الجدال والنظر يقضي، ويفتي إلى حين وفاته، وكان يقول: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: يا فقيه. وكان يفرح بذلك، ويقول: سمَّاني رسول الله ﷺ الفقيه.

وقال الخطيب: أنشدني أبو الطيب لنفسه: [من البسيط]

ما زلتُ أطلبُ علمَ الفقهِ مُصطبراً ... على الشدائدِ حتى أُعقَبَ الظَّفَرا
فكان ما كان من درسٍ ومن سهرٍ ... في عُظْمِ ما نِلْتُ في عُقباهُ مُغتَفَرا

---

(١) في (خ): وقرأ، والمثبت من (ف).

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٥٨-٣٦٠، والمنتظم ١٦/ ٣٩-٤٠، وصفة الصفوة ٢/ ٤٩٢-٤٩٤. وينظر السير ٧/ ٦٦٨.

(٣) لم أقف على الكلام الآتي في طبقات الفقهاء، وإنما نقله المصنف عن جده من المنتظم، عن أبي إسحاق الشيرازي، والله أعلم.

حفظتُ مأثورَهُ حفظاً وثِقْتُ بهِ وما يُقاسُ على المأثورِ مُعتَبَرا
صنَّفتُ في كلِّ نوعٍ من مسائلِهِ غرائبَ الكُتْبِ مبسوطاً ومختصَرا
إذا انتضيتُ بياني عن غوامضِهِ حَسَرتُ عنها قناعَ اللَّبْسِ فانحَسرا
وإنْ تحرَّيتُ طُرْقَ الحقِّ مجتهداً وصلتُ منها إلى ما أعجزَ الفِكَرا
وكنتُ ذا ثروةٍ لمَّا عُنيتُ بهِ فلم أدَعْ ظاهراً منها ومُدَّخَرا
أقولُ بالأثرِ المرويِّ متَّبِعاً وبالقياسِ إذا لم أعرفِ الأثَرا
وما أُبالي إذا ما العلمُ صاحبَني ثم التقى فيه أنْ لا أصحبَ البَشَرا
ثَنَتْ عناني عنه هِمَّةٌ طمِحَتْ إلى الهوى فاستطابَتْ عندهُ الصَّبرا
إذا أضقتُ سألتُ اللهَ مقتنِعاً كفايتي فأطابَ الوِرْدَ والصَّدَرا

وقال أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي: حكى لي بعض أهل العلم أن أبا الطيب الطبري صعد من سُمَّارية وقد تمَّ له عَشر المئة، فقفز منها إلى الشطِّ أمداً بعيداً، فقال له بعض مَنْ حَضَر: يا سيدنا، لا تفعَلْ هذا، فإن أعضاءك تضعف عنه، وربما أورثَتْ هذه الطفرةُ فتقاً. فقال له: يا هذا، إن هذه أعضاءُ حفظناها من معاصي الله في الصِّغَر، فحفِظَها علينا في الكِبَر.

عبد الله بن علي بن عياض[1]

أبو محمد، الصُّوري، ويُلقَّب بعين الدولة، كان جليلاً نبيلاً، ولي القضاء بصور، وسمع الكثير، وخرَّج له الخطيب فوائد في أربعة أجزاء، وقرأها عليه بصور، وكانت وفاته فجأةً في الزِّيْب قريةٍ بين عكا وصور، في شوال، وكان فاضلاً صدوقاً ثقةً. ويقال: إن الخطيب قطعه من تصانيفه وادَّعاها لنفسه.

علي بن الحسن[2]

ابن أحمد بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبيد بن عمرو بن خالد بن الرُّفَيل، أبو القاسم، الوزير، [ابن المُسْلِمَة][3]، والرُّفَيل من أولاد كسرى أبرويز، أسلم في

(١) تاريخ دمشق ٣١/ ٧١ـ٧٤.
(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٣٩١ـ٣٩٢، والمنتظم ١٦/ ٤١ـ٤٣. وينظر الكامل ٩/ ٦٤٤.
(٣) زيادة من مصادر الترجمة.

زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهم أهل بيت رئاسة ومكانة، وتقدُّمٍ وعدالةٍ وفضائل، والمُسلمة جدَّتُهم من قِبَل الأم، واسمُها حميدة بنت عمرو، أسلمت سنة ثلاث وستين وثلاث مئة، وتزوَّجت يزيد بن منصور الكاتب، فأولدها ابنَه أبا جعفر محمد بن يزيد، وأولدها أبو جعفر أمَّ كلثوم واسمها قُرَّةُ العين، وهي ابنةُ المُسلمة، فتزوَّجها أبو القاسم الحسن بن عبيد بن عمر بن خالد، وبنوه بها يُعرفون ببني المُسلمة، وكان الوزير أحدَ الشهود العدول المبدئين ببغداد، ثم استكتبه القائم بأمر الله، واستوزره ولقَّبه رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الوزراء، ومولده في شعبان سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، وكان مضطلعاً بعلوم كثيرة، مع سداد رأي، ووفور عقل.

قال: رأيتُ في منامي كأنَّني وَطِئت على نَبْقةٍ كبيرةٍ، فأخذتُها فملأَتْ كفي، وأُلقي في رُوعي أنها من الجنة، فعضضتُ منها عضةً، ثم نويتُ بذلك حفظ القرآن، وعضضتُ أخرى ونويت درس [الأصول، وعضضتُ أخرى ونويتُ درس] الفرائض، وأخرى ونويتُ النحو والعربية، فما عِلْمٌ من هذه إلا وقد رزقني الله منه.

وقال لأبي إسحاق الشيرازي في قول القائل لزوجته: إن دخلتِ أو خرجتِ إلَّا بإذني فأنتِ طالق، هل يُكتفى بإذنه فيه مرةً واحدة؟ قال: لا. قال الوزير: أليس قولُه: إن دخلتِ شرطٌ، وهو لا يقتضي التكرار، فلا حاجة إلى اعتبار الإذن في كل مرة؟ فقال أبو إسحاق: عَوِّلوا على هذا الدليل في المسألة.

ذِكْرُ مقتله:

[حكى الخطيب وقال]: لمَّا كان يوم الاثنين لليلتين بَقِيتا من ذي الحجة، أُخرِجَ [الوزيرُ أبو القاسم ابن المُسلمة] من حبس البساسيري بالحريم الطاهري مقيَّداً، وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لُبدٍ أحمر، وفي رقبته مخنقةٌ فيها جلود مثل التعاويذ، على جمل، ووراءه إنسان يضربه بقطعة من جلود، وابن المُسلِمة يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، وشُهِّرَ ببغداد، ومرُّوا به في الكَرْخ، فنثروا عليه خُلْقان المداسات، ولعنوه وسبُّوه، وأُوقف بإزاء دار الخلافة ساعةً، ثم أُعيد إلى العسكر عند سوق المارستان، وقد نُصِبت له خشبةٌ بباب خراسان بإزاء تربة الحال، فحُطَّ من الجمل، وخيَّطوا عليه جلد ثور قد سُلِخَ في الحال، وجُعِلَتْ قرونُه على رأسه، وعُلِّق

بكُلّابين من حديد في فكّيه[١]، ولمَّا أصعدوه الخشبة قال: قولوا للأجلِّ: قد بلغتَ أغراضَك مني، فاصطنعني لتنظر خدمتي، وإن قتلتني فغداً يأتي سلطان خراسان فيُهلك العباد والبلاد. فسبُّوه واستقوه[٢]، وكان البساسيريُّ قد أمر أن يُتْرَكَ الكُلّابان في تَرقوته ليبقى حياً أياماً، يُعذَّب ويُطعم في كلِّ يوم رغيف لحفظ نفسه، فخاف متولِّي أمره أن يعفو البساسيري عنه، فضرب الكُلّابين في مقتله، فقال عند موته: الحمد لله الذي أحياني سعيداً، وأماتني شهيداً. ولم يزل يضطرب عامة نهار الاثنين، ومات في آخره[٣].

[وذكر محمد بن عبد الملك الهَمَذَاني في تاريخه وقال]: ومن أعجب الاتفاقات أنَّه لمَّا ولي [الوزير أبو القاسم] الوزارة ركب إلى جامع المنصور بعدما خلع عليه، فأتى إلى تلٍّ وهو في موكبه، فقال: هذا مكانٌ مباركٌ، وفيه صُلِبَ الحلَّاج، وكان بيتَ عبادة قديماً. ثم نزل فصلَّى ركعتين، وأخذَتْه رعدةٌ شديدةٌ، فقال الناس: هو حلَّاجيُّ المذهب. فأقام في الوزارة اثنتي عشرة سنة، ثم صلب في ذلك المكان بعينه، فعلم الناس[٤] أنَّ رعدته كانت لذلك، وبلغ من العمر اثنين وخمسين سنة.

[وقال الخطيب: سمع أبا أحمد الفرضي وغيره]، وكان بين مقتله ومقتل البساسيري سنة. [قيل: في السنة الآتية في ذي الحجة أيضاً، وطيف برأسه ببغداد، في الجانبين، وسنذكره.

وفيها تُوفِّي]

علي بن محمد بن حبيب[٥]

أبو الحسن [القاضي]، الماوردي، البصري، الإمام، الفاضل، الشافعي [كان أحد الأئمة الفضلاء]، له تصانيفُ حِسانٌ، منها: التفسير، وسمَّاه: «النكت»، وكتاب

---

(١) في (ف): كفيه، وفي (م): مقتله.

(٢) هكذا في (خ) و(ب) ـ والخبر فيهما ـ وفي المنتظم، ولعلها: وشتموه، والله أعلم.

(٣) لم أقف على القصة في تاريخ بغداد.

(٤) في (خ) و(ف): فقال الناس وعلموا، والمثبت من (م).

(٥) تاريخ بغداد ١٢/ ١٠٢ـ١٠٣ ، والمنتظم ١٦/ ٤١ ، ومعجم الأدباء ١٥/ ٥٢ـ٥٥ . وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٦٤ .

«الحاوي»، و«الأحكام السلطانية»، و«قوانين الوزارة»، وكتاب «الأمثال والحكم»، وكتاب «الإقناع»، وولي القضاء ببلدان كثيرة، وكان محترماً عند الخلفاء والملوك [وقد ذكرنا قصته مع جلال الدولة، وامتناعه من الفتوى في قولهم: شاهنشاه، وأرسله القائم إلى طُغْرُلْبَك، فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وقد ذكرناه]، وكان زاهداً عابداً ورعاً مَهيباً، ما رأى أصحابُه شيئاً من بدنه قط، [وكان يقول: بسطتُ الفقه في أربعة آلاف ورقة.

وقال محمد بن الصابىء وغيره]: تُوفِّي بعِلَّة الفالج يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول، ودُفن بمقابر باب حرب، وقد بلغ ستاً وثمانين سنة [وبينه وبين أبي الطيب عشرون يوماً]، وكان ثقةً صالحاً، سيِّدَ أهل زمانه.

السنة الحادية والخمسون وأربع مئة

فيها في يوم الخميس ثاني المُحرَّم انصرف أبو الأغر دُبيس بن صدقة عن بغداد على غضب ومنافرة، وخيَّم على صرصر، فركب البساسيريُّ إليه، فردَّه وحدَه بغير مُخيَّمه، وبلغ له بعض غرضه، وانصرف يوم الأحد رابع المُحرَّم إلى بلده غير راضٍ، وسببه أنه كان قد احتجم عن المجيء إلى بغداد لمعاونة البساسيري؛ لعلمه ما اتَّفق عليه البساسيريُّ وقريش، ووقع فتحُها، فخاف من التأخُّر، واضطُرَّ إلى المجيء، وعرف ما أُخِذ من دار الخلافة وما أخذ قريش من الأموال الجليلة والأعمال المقسومة على تأخُّره، ونقم البساسيريُّ عليه بسبب ذلك، وخاطب البساسيريَّ في أمر أبي عبد الله بن المردوسي وحاشية الخليفة، وأن يُؤمنهم على نفوسهم، ويردَّهم إلى منازلهم، فلم تقع إجابة، ونسب البساسيريُّ أبا عبد الله المردوسي أنه منع زهرة جاريته وولديها المعتقلين بالجبل من الهرب حتى التجؤوا إلى داره، وسلَّمهم إلى ابن المُسلمة، فاعتذر المردوسي وأنكر، وقال: غُلِبتُ عليهم. فلم يقبَلْ عذره، ثم طالبه دُبيس بإقطاعه من السلطان، فما ردَّه، فرحل إلى بلاده وفي نفسه ما فيها.

وفي هذا الشهر تصالح أبو منصور بن يوسف مع البساسيري بواسطة قريش، وركب البساسيري وقريش إليه، وكان قد ضمن على نفسه مالاً يحمله إليهما.

وفي هذا الشهر كتبت والدة القائم إلى البساسيري ـ من مكان كانت فيه مستترةً ـ رقعةً تشكو إليه ما لَحِقَها من الأذى والضرر، وهي جارية أرمنية قد ناهزت التسعين، فأفرد لها داراً في الحريم، وأعطاها من جواريها جاريتين تخدمانها، وأجرى عليها في كل يوم اثني عشر رطلاً من الخبز، وأربعة أرطال لحم[١].

وفي يوم الثلاثاء لليلتين بقِيَتا من المُحرَّم أصعد قريشٌ إلى تكريت ومعه خاتون بنت أخي السلطان زوجة القائم، وعميد العراق مقيداً، وكان قد راسل[٢] البساسيريُّ قريشاً في معناه، وقال: ما يجيءُ منه خير، وما في أصحاب طُغْرُلْبَك أشرُّ منه، فدعني أصلُبْه إلى جانب ابن المُسلمة، وأُعطيك من مالي خمسة آلاف دينار. فلانَ قريشٌ ـ وكان شحيحاً ـ وعلم عميدُ العراق، فراسل قريشاً وقال: أنا أفتَحُ لك قلعة تكريت، فإنَّ فيها من لا يخالفني، ثم أعطيك مالاً كثيراً، وأُنفِذُ زوجتي إلى خراسان تُحضره. فبعث إليه البساسيريُّ بسببه، فقال قريش: أنا ما أستبقيه، وقد استقرَّ أنه يدفع إليَّ القلعة [ومالاً، فابعَثْ معي صاحبك، فإذا فُتحتِ القلعةُ][٣] سلَّمتُه إليكَ فتقتله، فبعث معه سُخْتِكين أحدَ غلمانه الأتراك، ولم يعلم العميد بذلك، ولمَّا وصل قريشٌ إلى تكريت لم تكن له على فتح القلعة قدرةٌ ولا حيلة، فقال لعميد العراق: قد حفظتُ مُهجتَكَ من أبي الحارث مع علمِكَ بما تردَّد منه فيك، فراسلِ القومَ بتسليم القلعة كما وعدتني. فاستدعى قوماً من العجم، وراسلَ مَنْ في القلعة بالتسليم، فلمَّا حصلوا في القلعة اجتمع من فيها ووقفوا على سورها، وسبُّوا قريشاً ولعنوه، وقالوا: يا ملعون، أين ذِمامك للخليفة ورئيس الرؤساء وأعهُدِكَ وقد جرى عليهما ما جرى؟ وبالغوا في لعنته، وظنَّ قريش أن العميد وطن إليهم بذلك، فرحل عن البلد يوم الاثنين ثاني عشر صفر طلباً للموصل بعد أن سلَّم عميد العراق إلى سُخْتِكين، وأنفذ معه صاحباً له، فحطُّوه في سُمَّارية، وكتَّفوه وغرَّقوه.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر صفر جمع البساسيريُّ قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني وأبا منصور بن يوسف وأبا الحسين بن الغريق الهاشمي الخطيب وجماعةً من

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٤٤.

(٢) في (خ): أرسل، والمثبت من (ف).

(٣) هذه الزيادة من (ف).

وجوه العباسيين والعلويين، وأخذ عليهم البيعة للمستنصر، واستحلفهم له، وكان ذلك في دار الخليفة، وهو معهم جالس في مجلس الخليفة(١).

وفي صفر أصعدَ ابنُ البساسيري الأصغر إلى الرَّحبة للمُقام فيها، ومجيءِ أخيه الأكبر فيها، وكتب البساسيريُّ كتاباً إلى مصر مع ختِكين، وبعث أبا طالب كافور بن الملك أبي كاليجار بن بُوَيه والفِيلة الصغيرة فقط، ولم يبعث مالاً ولا غيره، وكان البساسيريُّ مستوحشاً من أبي الفرج بن المغربي وزير مصر؛ لقبيحٍ كان يبدو منه في حقِّه، وإهمالٍ لمراسلته، واطراحِ جانبه، وإزراءٍ على رسله، وصوَّر ابنُ المغربي في نفس صاحب مصر أنَّ هذا قد أخذ الأموال، واستولى على البلاد، وهو بين أمرين؛ إمَّا أن يقوى علينا فيفعلَ بنا كما فعل بالغير، أو يكون طريقاً إلى مجيء العساكر الخراسانية إلى بغداد ثم إلى الشام، وأنَّ الذي فعله ما كان برجاله ولا باجتهاده، وإنما كان بسعادتنا ومالنا، وكان في الكتاب إلى مصر: سلامُ الله على سيدنا ومولانا الإمام المستنصرِ بالله أميرِ المؤمنين ـ وصلاتُه وتحيَّاتُه ـ المُنتجبِ من العنصر الطاهر، والشيخِ ذي المفخر الباهر، والكوكب الطالع الزاهر، المستخلَص لحفظ الدين ورعاية الأمم أجمعين، أصدرَ مملوكُ المواقف المقدسة ـ زاد الله في أنوارها، وأعَرَّ(٢) كافر(٣) أنصارها ـ وأطال الدعاء، إلى أن قال: وأمكنتِ الفرصةُ في بلوغ الغرض؛ من قصد العراق، والانتقام من أهل الشقاق، وإقامة الدعوة الشريفة في الآفاق، فحينئذ سار في خَفارة(٤) أدعية المواقف الشريفة، والبركاتُ عليه غاديةٌ ورائحة، وأيدي الرشيد ليمينه معاهدةٌ مصافِحة، فكان دخولُه بغداد في يوم الأحد ثاني ذي القعدة في طالعٍ توفَّرَتْ سعودُه، وعظُمَتْ جدودُه، وانتظمَتْ عقودُه، فألفى مدينة السلام متهدِّمةَ البنيان، ساقطةَ الجدران، قائمةً على عروشها، مَرْتعاً لِبُومِها ووُحوشِها، ووجد أهلَها كما [لو] نُبِشوا من القبور؛ لما قاسوه من تصاريف الأمور، فوقع دخولُه عندهم موقعَ الشفاء من

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٤٤.

(٢) من المعَرَّة، وهي الأمر القبيح والأذى والإساءة. تاج العروس (عرر).

(٣) في (ف): كافور!

(٤) الخَفارة ـ بفتح الخاء ـ: الذمة والعهد. اللسان (خفر).

الألَم، والبرء من السَّقَم، وتلقَّوه مُتنسِّمين نسيمَ السلامة، راجين افتتاح تلك الغمامة، مُتمسِّكين به تمسُّكَ الولد بالوالد، والطالب للواجد، فتعطَّفَ عليهم بقلبٍ خاشع، وطَرْفٍ دامع، ثم إنه أقام الدعوة في الجانب الغربي، وعقد الجسر وأقامها في الجانب الشرقي، وخيَّم بمكان يقال له: الزاهر، وهو على دجلةَ في وسط البلد قريب من الدار، التي احتقنَتْ فيها الآثامُ والأوزار، فآذَنَتْ بالخِذْلان والبوار، وكان أعداءُ الله الطاغون قد جمعوا ما يزيد على أحد عشر ألف نفْسٍ من التُّرك والعجم والهاشميين والخَوَل، ظنًّا منهم أنهم يُثبِتون المقارعة والمساجلة والمنازعة، إلى أن تأتيهم من خراسان نجدةٌ تُخلِّصهم من الحصار، ويكون بعدوِّهم سبباً إلى الرجوع والانكسار، وكانوا في مضايقَ لا تجول فيها الخيول ولا تتمكن، وإن كثُرَ فهو مقهور إلى يوم الاثنين سلخ ذي القعدة، فإنهم فتحوا باباً من الأبواب، ورشقوا بالنُّشَّاب، فأكبَّ عليهم الشجعان، وركبتهم الفرسان، فما كانت إلا ساعة من ساعات الزَّحْف، حتى حلَّ بهم الخَسْف، وصاروا تحت أيدي الخيول كالسحيق، ودماؤهم تنزل كالرحيق، فأجلَتِ الوقعةُ عن القتلى، وهم ثمان مئة نفس، فيهم نقيب الهاشميين والقاضي النائب عن عميد العراق، وابن المأمون، وغيرهم، فاستأمن منهم جَمٌّ غفيرٌ، منهم: العميد، وخلقٌ كثير، وملك العباسي ـ يعني الخليفة ـ وقاضي القضاة، والحُجَّاب، والأعيانُ، والأصحاب، ووقعوا كالسمك تحت الشبك، ونُهِبَتِ الدار، وأُخِذَ منها من الأموال والجواهر واليواقيت والخيل والثياب ما يكثر عددُه، ولا يُحصى أمدُه، وحُمِلَ العباسيُّ إلى حديثة عانة محتاطاً عليه إلى أن يخرج الإذن الشريف في معناه، وأمَّا ابن المُسلمة فإنه عذَّبه بأنواع العذاب، وصلبه على أقبح الوجوه، وجعله عبرةً لمعتَبِر، وموعظةً لمفتَكِر، وذكر كلاماً طويلاً، وكتب إلى العزيز كتاباً من هذا الجنس، وصادر البساسيريُّ كتابَ الخليفة والوزير وغيرهم على ألوف كثيرة.

وفي ربيع الأول خرج البساسيري إلى زيارة المشهدين، وكان دُبيس بمُطيراباذ، فراسله بأن يجعل طريقه عليه، فجاء إليه، فخرج واستقبله وأضافه، وسأله في معنى أبي عبد الله المردوسي، فاستعفاه من الخطاب في أمره، وعدَّد أشياء كانت في نفسه، ثم استقرَّ بينهما الانحدار إلى واسط، وتدبَّر أمر أبي كاليجار هزارسب ـ وكان بالبصرة ـ

إما صلحاً وإما حرباً، وعاد البساسيري إلى المدائن، وأقام ينتظر الغلمان، وأنفذ مَن ابتدأ بنقض تاج [قصر] الخليفة، فنقضت شرافاته، فقيل له: هذا ممَّا لا معنى له، والقباحة فيه أكثر من الفائدة. فأمسَكَ عنه، وجاءته كتب الوزير ابن المغربي، وكان كاتَبَ صاحبَ مصر أبي نصر بن أبي عمران بصفات[١] ما تأثَّل له من الحرمات بهذا الفتح، ولم يكتب إليه صاحب [مصر][٢] جواباً.

وفي يوم السبت سلخ ربيع الأول عاد البساسيري إلى بغداد، وتلقى ابنَه الواصلَ من الرَّحبة في ثاني ربيع الآخر، وقَدِم صُحْبتَه يارَخْتِكِين الحاجب المأسور بالموصل مُقيَّداً في عَمَّارية، وضُرِبَتِ القبابُ بالجانب الغربي لابن البساسيري، وطيَّبَ ابنُه قلوبَ الناس ومحالَّ أهل السنة، وحمل الناس على شرع واحد. وفي هذا اليوم وصل غلام ليارَخْتِكِين يخبره بحصول حرم البساسيري بشَهرزُور عند بدر بن المهلهل، وذكر أن السلطان ظفر بإبراهيم ينَّال ومحمد وأحمد ولدي أرباش أخوي إبراهيم ينَّال وقتلهما، وخَنَقَ إبراهيمَ بوتر قوسه، وقَتل ألوفاً من التركمان، وهربوا، وجاء السلطان بعد أن كسرَ إبراهيمَ والتركمانَ إلى الري، واجتمع بخاتون.

قال محمد بن الصابىء: لمَّا انهزم إبراهيم عن هَمَذان كاتبَ إخوته محمداً وأحمدَ، واستعان بهما، فسار إليه في نحو ثلاثين ألفاً، ونزل بقزوين وبينها وبين الري عشرون فرسخاً، وخرج السلطان من الريِّ إليه وواقعه، فظهر عليه إبراهيم، فعاد إلى الريِّ، فاستولى إبراهيم، وقوي، فورد على السلطان الأمراءُ قاروت بك صاحب كرمان وياقوتي وألب أرسلان أولاد أخيه داود، وقوي بهما، فخرج إلى إبراهيم، فانهزم إبراهيم من بين يديه، وقُتِلَ من أصحابه مقتلةٌ كبيرةٌ، وأُسِرَ إبراهيمُ فانهزم، وأُسِرَ أحمد[٣] ومحمد أخواه، وحُملوا إلى السلطان، فأمر بقتلهم، فسُئِلَ فيهم، فتوقَّف وفي قلبه النار ممَّا تمَّ على الخليفة وهم ينصُّون أن إبراهيم فعل ذلك، ثم أحضرَ إبراهيمَ بين يديه وخنقَه بوتر قوسه، وقتل أخويه محمداً وأحمد، وبعث إلى هزارسب بقَباء

---

(١) في الأصلين (خ) و(ف): أبي نصر بن أبي عمرو بن بصفان.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، والخبر ذُكر مختصراً في المنتظم ١٦/ ٤٥ .

(٣) جاء في الأصلين (خ) و(ف): إبراهيم، وهو سبق قلم من أحد النُّسَّاخ.

إبراهيم؛ ليتحقَّق الحال، وكان هزارسب مقيماً بالأهواز، وعنده الكُنْدُري عميد الملك، فأخذ منه دنانيرَ وثياباً وخيلاً، وسار نحو السلطان على أصبهان.

وفي ربيع الآخر انحدر البساسيري إلى واسط متيمماً غَزْنة في أمر هزارسب، بعد أن أنفذ أنوشْتِكين أحدَ حُجَّابه إلى قريش يشير عليه بأن يُنفِذَ أرسلان خاتون إلى السلطان، وكان السلطان قد أرسل قريشاً يلتمسها، ويخلط بذاك ذكر الخليفة، ورَدِّهِ إلى مكانه، ويكون البساسيري وأصحاب الأطراف على عادتهم بالعراق بعد أن ينقشوا السِّكَّة باسم السلطان، وبعث لها البساسيري ثلاثَ مئة دينار تنفقها في سفرها، فردَّتها على الحاجب استقلالاً لها، وقالت: هذه نفقة يوم، وقد وهبتُها لك. وشرع قريش في تجهيزها، وهيَّأ لها عَمَّاريةً، وجلَّلها بالديباج، وبعث لها دنانير وثياباً وخيلاً وبغالاً، ولم يبْقَ إلا مسيرُها، وكان عميد الملك قد كتب إلى السلطان يقول: ما كان سبب ما جرى ببغداد إلا من ابنابجيل وعمر، فإنهما فسخا التدبير، وفلَّا الجموع، فخافا من السلطان، واستوحشا منه، وتحصَّنا بقلعتين.

وفي جمادى الأولى عاد أنوشْتِكين الحاجب من الموصل، وذُكِرَ أنه ورد إلى قريش خادمٌ من جهة السلطان يقال له: زيرك، ومعه ثيابٌ، ومالُ أرسلان خاتون، وكتابٌ إلى قريش يتضمَّن شُكره على ما فعله، من استصحاب خاتون، والإرهاب فيما يتعلَّق بالخليفة، والإشارة إلى إعادته إلى داره وإعادة الخطبة والدعوة له، وأن يكون للبساسيري على باب الخليفة، ويقيم السلطان في بلده إلى حين ما يرى من مسيره إلى العراق، وكتب قريش في الجواب: إنني العبد الخادم، وما جرى كان عن قضاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقَدَرِه، وفِعْلِ ابنِ المُسلمة ـ ذلك الغالط ـ وقلَّةِ تدبيره، وقد جرى على البلاد ما أخربَها ودرسَها، وليس ها هنا ما نُثابر عليه، وتطمح العينُ إليه، ومتى وقع تسرع في المسير إلى العراق، فلستُ آمَنُ أن يتِمَّ على الخليفة أمرٌ يفوت، وسببٌ يسوء، ولسنا بحيث نقِفُ لكَ ولا نُحارِبُكَ، بل نَبعُدُ عنكَ، وأمَّا هذا الرجل ـ يعني البساسيري ـ فأنا أتوصَّل إلى كلِّ ما يُراد منه، والسلام.

وراسل قريشٌ البساسيريَّ مع أنوشْتِكِين، وقال له: إن السلطان قد التمس كذا وكذا، فإيَّاك والمخالفَةَ، ونحن قد خدمنا سلطاناً بيننا وبينه ستُّ مئة فرسخ، وفعلنا معه

ما لم يظُنَّه، وقد مضى لنا منذ ستة أشهر منذ فتحنا العراق ما كتب إلينا حرفاً، ولا التفت إلينا، وقد [عادت][(١)] رسلنا بعد سنة منه صِفْراً، ولم يُنفِذْ لنا رسالةً فضلاً عن مال ورجال، ومتى تجدَّد أمرٌ فما يشقى به إلا أنا وأنت، وما المطلوب سواي وسواكَ، والصواب المهادنة، وردُّ الخليفة إلى أمره، وتستكتبُ له مَنْ تأمنُه، وتحقنُ الدماء، وتحفظ الأموال، ونعيش باقي العمر في سكون وطمأنينة، والسلام.

وكان البساسيريُّ قد انحدر إلى واسط، فلمَّا كان يوم الاثنين لتسعٍ بَقِين من جمادى الأولى سار من واسط يُريد الأهواز، وابتدأ بالبصرة، فرتب أصحابَه فيها ولم يدخلها، وكان معه دُبيس وصدقة بن منصور وأبو الفتح بن وَرَّام، واجتمع إليه جماعةٌ كثيرةٌ من الدَّيلم والأكراد والتُّرك والعرب، وكتب هزارسب إلى دُبيس يقول: ما أُخالف أبا الحارث في شيء، وإنما بيني وبين السلطان متاخمةٌ في الأعمال، ومجاورةٌ في البلاد، ومتى انحرفتُ عن طاعته لم آمَنْه، وجاءني من قِبَلِه ما لا طاقة لي به، وكذا أمري معكم، لا أقاتلكم، ولا أواجهكم، بل أبعُدُ عنكم، والمصلحة مصالحةُ السلطان، وأن يُجاب إلى ما أمر به، من رَدِّ الخليفة إلى داره، وهو مع ذلك يكاتب السلطان ويستنجده، ويُهوِّن عليه أمرَ البساسيري.

وفي جمادى الأولى سيَّر قريشٌ أرسلان خاتون إلى السلطان، ومضى معها جماعةٌ من العجم الذين سَلِموا من القتل، وكانوا قد أصعدوا مع قريش إلى الموصل، وبعث أيضاً بأولاد عميد العراق وزوجتِه، وهي مظهرةُ الشكر لقريش، مُبطنةُ الشكوى منه.

وفي جمادى الآخر ورد رسولُ البساسيري من مصر، وكان قد أنفذه من الرَّحبة قبل فتوح بغداد يطلب الأموال، فأقام سنة وعاد بغير شيء، وذكر أنَّ بعض أصحاب المستنصر خلا به وقال [له] لمَّا وصل الخبر بفتوح بغداد: لم يصِلْ من صاحبك كتابٌ بصورة الحال على الفور، وإنما سمعناه من نُوَّابنا بالشام. وليست العادةُ جاريةً بهذا، وهذا الرجل قد التجأ إلينا فآويناه، ونصرناه وأمددناه وأعطيناه، وكان العسكرُ منه شاكين، والرعيةُ في الأعمال عنه نافرين؛ لما استعمله معهم في طريق العراقيين من الظلم والعسف، واستبدَّ برأيه فيما يفعله، وكنا نكاتبه ولا يفعل إلا ما يريد، ولا يجيب عن شيء، ومضى إلى

---

(١) هذه الزيادة هنا وفي الموضعين الآتيين من (ف).

الموصل بغير أمرنا، وقلنا له: سالِمْ أهل العراق إلى أن نأمرك، فما التفتَ، وسار إلى العراق بغير إذن، ثم فتح دار العباسي التي هي قلعة أموال العباسيين والناسِ، وذخيرةُ أهل الدنيا من سائر الأقطار، وأخذَ أموالَهم، ونهبَ الرعية وصادرهم، وفعل ما لا يحِلُّ ولا يسوغُ ولا يُحمَلُ عليه، واحتجز الأموال لنفسه، وأخذ منها ما عَظُم خطرُه، وأخذ العباسيَّ واعتقلَه، بحيثُ لا يدَ لنا عليه، ولا أمرَ ينفُذُ لنا فيه، وقتلَ أصحابَه وصلبَهم من غير استئمار ولا استئذان، ولا رأى على نفسه أن يُعيد بعض الأموال [التي حُمِلت إليه، ونحن إنَّما نُطلق الأموال] لنفتح بها البلاد، ثم نستعيدَها وأضعافَها، وكلُّ هذا جميعُه داخلٌ في حكم العصيان، خارجٌ عمَّا ألِفْناه من أوليائنا، وقد بَلَغَنا أنَّ حاجبه ابن خِتِكين واصلٌ إلينا، وإذا وصل أنفذنا صحبتَه الجواب، وأنتَ مُخيَّرٌ في المُقام والمسير. قال: فقلتُ: المسيرُ إلى أهلي وولدي أحبُّ إليَّ، وانفصلتُ عنهم.

وورد الخبرُ بأنَّ السلطان عاد من هَمَذان إلى أصفهان؛ إطماعاً للبساسيري، وتسكيناً إليه، وإظهاراً للبُعد عن العراق؛ ليكون ذلك داعيةً إلى خلاص الخليفة، وردِّه إلى وطنه، وحراسة مُهجته.

وفي تاسع عشر جمادى الآخرة وصلت زوجةُ البساسيري بنت الحازم وزهرة جاريته وولداها منه، فأفرج ابنُ البساسيري أبو البركات عن يارَخْتِكِين الحاجب، وخلع عليه، وحمله على عدة دواب، وسار يوم الجمعة لسِتٍّ بَقِين من الشهر، وخرج معه مَنْ بقي ببغداد من العجم، وحكَتْ زوجةُ البساسيري وزهرةُ بما قاسيا من القلعة بعد المصادرة والضرب العظيم من الجوع، فإن والي القلعة كان يُعطيهم كلَّ يوم من الخبز الشعير ما لا يكفيهم، وكانوا يغزلون الصوف ويبيعونه ويتقوَّتون به، وكان مع زوجة البساسيري صبيٌّ من أهل بغداد، وكان يحتطب ويبيع الحطب وينفق عليهم من ثمنه، وعاد البساسيريُّ إلى واسط بعد أن دخل قريباً من الأهواز.

ذكر السبب:

لمَّا قرب البساسيري من المأمونية ونزل بها، جاء وليُّ الدولة أبو العلاء بن هزارسب في رسالة إلى البساسيري تتضمَّن: بذل المال والمصالحة عن خُوزستان، وعَود العساكر عنها؛ لئلا يشعثها، فأجاب البساسيريُّ واقترح الخطبة لصاحب مصر،

ونقش السِّكَّة باسمه، فامتنع هزارسب من ذلك، ونزل أبو العلاء على دُبيس، وبعث فأخذ أمواله وأسبابه من الأهواز ولم يعُدْ إليها، وكان صديقَ البساسيري قديماً، وكان هزارسب في ثلاث مئة ألف وخمس مئة فارس وألف راجل، والبساسيريُّ كذلك وأكثر، وكانوا قد وصلوا إلى المأمونية جياعاً عطاشاً قد ضاقت بهم العلوفات، وسبق هزارسب حتى نزل على قنطرة دون الأهواز، ونزل البساسيريُّ في مقابلته وبينهم نهران، أحدهما الذي هم عليه نزول، والآخر يلي عسكر البساسيري، ثم وقعت المراسلة على هدنة مقدارها ستة أشهر، آخرها سلخ ذي الحجة، ولا يتعرَّض أحد إلى بلد أحد، وأن تكون الخطبة للمستنصر بعد هذه المدة أول المُحرَّم، وأشاع هزارسب كراهيته لعسكر السلطان، وكان قصده المغالطة، ووقعت الأيمان عن المصافاة، وكان بين العسكرين نهر مقداره رمية سهم، ولم يُسمَعْ بعسكرين بينهما مقدار هذا، فقاتلوا أسبوعاً، ثم ورد أنوشروان إلى هزارسب من عند السلطان بالنجدة، فعاد البساسيريُّ مسرعاً إلى واسط، وكان قد عبر من رجالة البساسيري خلقٌ كثيرٌ إلى الأهواز بسبب النهب، فقتلهم أهلُها، وأقام البساسيري بواسط يجمع العساكر على نية العود إلى حرب هزارسب، وأصعد الأمراءُ الذي كانوا معه إلى بلادهم؛ دُبيس وأبو الفتح بن وَرَّام وأبو منصور وغيرهم، وكتب البساسيريُّ إلى قريش، وبعث الرسول يشكو من دُبيس والجماعة، ويسأله الانحدار إلى واسط [ليُدبِّر][1] على هزارسب تدبيراً، وشكا إليه تقاعد دُبيس وابن وَرَّام وكونَهما تخلَّيا عنه، وقال: مهما فتحتَ من خُوزستان فهو بيننا نصفان. وبعث إلى حلب يطلب الغلمان البغدادية، وكانوا قد انصرفوا عنه لمَّا كان بالرحبة كراهيةً له، ولِما كان يعاملهم به، وكانوا جمرةً قوية، ولمَّا فتح بغداد قال له قريش: رُدَّهم فما نستغني عنهم. فامتنع، فلمَّا كان في هذا الوقت راسلهم بكاتبه أبي علي بن فضلان، فلم يلتفتوا، وقالوا: قد فتح بغداد، ونهب أموالنا، فلمَّا لم يبقَ إلا الخوف من طُغْرُلْبَك والقتال طلبنا ما لنا عنده حاجة، ووردت كتب ابن خُتِكين رسولِه الذي سار بكتابه بفتوح بغداد يقول بأنَّ ابن المغربي الوزير توقَّف في أمورك كلِّها، وقد كان أبو الفتوح بن المغربي هذا هرب من البساسيري إلى مصر [ووَزَرَ لصاحبها وفي

(١) هذه الزيادة من (ف).

قلبه ما فيه، فظنَّ عليه عند صاحب مصر] وقال له: ما قدَّمناه ـ وذكر ابن خُتِكين ـ في كتابه أنَّ الوزير أحضره وقال: صاحبُك فعل وفعل، وافتاتَ على أمير المؤمنين بكذا وكذا، وذكر بمعنى ما ذكرناه، وقال: قد أخذ الأموالَ العظيمة، وما هان عليه أن يُقدِّم للخزانة شيئاً، ثمَّ أَخْذُه العباسيَّ واعتقالُه بالحديثة ولا سيَّره إلى ثابتة، واتفاقه مع قريش على مقاسمة البلاد كأنها كانت مِلْكَه، وصَلبُه لابن المُسلمة من غير استئمارٍ وإذنٍ منا، ثم يكاتبنا بعد الفراغ من الأمور، ولَعمري إنَّ هذه لَعادةُ تلك البلاد في العصيان، واطِّراح أمر السلطان، وكان الوزير قد قال لصاحب مصر: إن الذي جرى ببغداد من أمر العباسي غير مأمون العاقبة، وربما يتأتَّى من عسكر خراسان على الشام ما لا يُمكِنُ استدراكُه، ويجب أن تدع العراق وما فيه، ولم يُجاوب البساسيري عن كتابه بحرف، وكلُّ غيظ المستنصر منه، حيث لم يبعث بالخليفة إليه، وقد كان عَزْمُه أن يبعث به إليه، لولا ذمام قريش إليه واتفاقهما، ثم أظهر السلطان التجهز إلى العراق، فكتب بدر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي إلى البساسيري يقول: السلطان قد قرُبَ، وقد كان التمس منك أن تُعيد الخليفة إلى مكانه، وتكون على بابه، ولا تطأ العراق، فلم تفعل، وأنا أدخل في القضية، وأُعطيك ولدي رهينةً، فلم يُجِبْه عن كتابه.

وفي شوال لاح في الليل في السماء ضوءٌ عظيمٌ كالبرق يلمع في موضعين؛ أحدهما أبيض، والآخر أحمر، وأقام إلى ثلث الليل، وكبَّر الناس وهلَّلوا.

وفي شوال عاد صاحب قريش إليه، وكان قد بعثه مع أرسلان خاتون، وورد معه أبو بكر بن أحمد بن أيوب المعروف بابن فُوْرَك وزَيْرَك الخادم صاحب السلطان بكتاب إلى قريش، عنوانه: للأمير الأجَلِّ علمِ الدين عزِّ الدولة أبي المعالي قريش بن بدران، مولى أمير المؤمنين، من شاهنشاه المُعظَّم ملكِ المشرق والمغرب، ركنِ الدين، غياثِ المسلمين، سلطانِ بلاد الله، مُغيثِ عباد الله، طُغْرُلْبَك أبي طالب، محمد بن ميكائيل بن سلجوق، يمين خليفة الله أمير المؤمنين، وعلى رأسه بخطِّ السلطان: حسبي الله، ومضمونه: كتابنا: أطال الله بقاء الأمير علم الدين، أدام الله عِزَّه وتأييده وتمكينه وتمهيده، إنَّ نِعم الله علينا متظاهرة، وآلاؤه متوالية، ورَدَ كتابُه ووقفنا عليه، واعتدَدْنا

بصنع الله له، وسابغ إحسانه إليه، فأمَّا ما بلغه الرسل من حُسنِ اعتقاده في خدمتنا، وسلامةِ صدره في طاعتنا فقد علمناه، ولمَّا ورَدْنا العراقَ كان في عزمنا تسليمُ الأمر إلى علم الدين في تلك الولايات، استقلَّ بالخدمة الشريفة، والمواقف المقدسة، وحدثَتْ حوادثُ، وعرضت عوارض، ولم يحدُثْ منها ـ بحمدِ الله ـ في حقِّه ما يقدح في الاعتقاد السليم، وإزالةِ الحقِّ عن السنن المستقيم، وقد ظهرت نيَّتُه الجميلة، وهِمَّتُه العالية الجليلة في خدمة سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، أطالَ اللهُ بقاءه، وأعزَّ أنصاره وأولياءه، حتى لم يظفرِ الأعداءُ منه بما حاولوه، ولم يدركوا فيه ما أمَّلوه، وهذه مِنَّةٌ عظيمة على الإسلام وأهله، وأثرٌ جميلٌ في الدين، لم يوفَّق أحدٌ لمثله، ثم الذي وُفِّقَ له من المحافظة على سَنن العرب ـ من رعاية حُسن العهد ـ ما عظُمَتْ علينا وعلى المسلمين مِنَّتُه، وزادَتْ عندنا مكرُمَتُه، فلو أعطيناه جميعَ ما حويناه ولا استقللناه، واحتقرناه واستصغرناه، وقد أقبلنا بخيول المشرق إلى خدمة سيدنا ومولانا الإمام، ولا فُسحةَ لنا في التأخير عنه ساعةً من الزمان، بعد أن أهلَكْنا أعداءَنا، وذلَّلنا حُسَّادنا، والمقصودُ أحدُ أمرين؛ إمَّا أن يُقبِلَ الأميرُ سيدنا ومولانا إلى مقرِّ خلافته وسرير عظمته، وينتدب الأمير بين يديه متولياً حكمه، ممتثلاً رسمه، فذلك هو المراد، وهو خليفتُنا في تلك الخدمة المفروضة، وتولية العراق بأسرها، وتصفية مشاريع بَرِّها وبحرِها، وإمَّا أن يحفظ علينا شخصَ مولانا العالي بتحويله من القلعة إلى حين لحاقنا بخدمته، ويكون الأميرُ مُخيَّراً بين أن يكتفي بنا، وبين أن يُقيم حيث شاء، فنولِّيه العراق، ونستخدمه في الباب الشريف، ونصرف أعيننا إلى الممالك الشرقية، وعشائره كلُّهم إخوانُنا، وهم في أماننا، فلا يدخُلُ قلوبَهم رهبةٌ منا، وكذا جميع العساكر المنسوبين إلى خدمته، ولكلِّ مُذنبٍ عندنا في العراق عفوُنا وأمانُنا، إلا الفاجرَ الكافرَ البساسيريَّ عدوَّ اللهِ ورسولِه، فإنه لا عهدَ له ولا أمانَ عندنا، فلقد ارتكب في دين الله عظيماً، وخطباً جسيماً، وهو إن شاء الله مأخوذٌ حيث وُجِد، ودلَّتْ أفعالُه على سوء عقيدته، وخُبْثِ طويَّته، فإن سرِبَ في الأرض لحِقَه المكتوبُ على جبهته، وإن وقف فالقضاءُ سابقٌ إلى مُهجَتِه، وقد حَمَّلنا الأستاذَ العالم أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب ـ أدامَ الله عِزَّه ـ والشيخَ معتمِدَنا أبا الوفاء

زَيْرَك ما يؤدِّيانه من الرسالات، ويُبلِّغانه من التحملات، وهو يصغي إليهما، ويعتمد عليهما، ويُسرِّحهما إلى القلعة ليخدما مجلس سيدنا ومولانا الإمام عنا، ويأتيا ببشارة عالي شخصه المحفوف بالبركات، والبلاد كلُّها والقلاع للأمير مبذولة، في جنب مساعيه والثقة به، وكان مع رسولَي الخليفة أربعون ثوباً أنواعاً، وعشرُ دُسوت ثياباً مخيطةً، وخمسة آلاف دينار، وخمس دسوت مخيطةً من خاتون زوجة الخليفة، وحكى الرسولُ كثرةَ العساكر مع السلطان، فخاف قريش وانزعج، وبعث إلى الجِفار[1] من أصلح المياه، وعزم على دخول البرية، وبعث بالكتاب إلى البساسيري والرسالة، وحذَّر من الرسول ليعود الجواب بسرعة، وكان قريش يكاتب السلطان سرًّا، ويطيعه في البلاد حسداً للبساسيري وتغيُّراً عليه، فإذا صحَّ من السلطان عزمٌ أجفَلَ[2] من قرية ولم يجتمع به، وبعث البساسيريُّ إلى بغداد، فأخذ دوابَّه ومالَه وسلاحَه إلى واسط، وتقدَّم بأن يسلخ جلد ثور ويكسى به رِمَّة ابن مُسلمة، ويجعل قرنيه على رأسه، وفوقهما طرطور أحمر، وكان السلطان قد اقترح فيهما أن يحطَّ رِمَّة ابن مُسلمة، وورد رسول قريش من عند البساسيري، وقال: قد أجاب بحيث لا يذكر السلطان ببغداد في الخطبة، وقَويتِ الأراجيفُ بقرب السلطان من بغداد، وأُقيمت له الإقامات بِحُلوان، وكتب أبو البركات بن البساسيري إلى أبيه يسأله ما يصنع، فكتب إليه يأمره بالمقام والثبات، ووصلت مقدمات السلطان إلى قصر شيرين، وانحدر حرم البساسيري وأولاده وأصحابه وجميع من يتعلق به إلى واسط، وذلك يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة، وتبعهم أهل الكَرْخ، ووصلوا إلى صرصر، وهلك منهم في[3] عبورهم خلقٌ كثير، ولحقهم العيَّارون ونهبوهم، ومَنْ بقي منهم نهبهم بنو شيبان، وقتلوا أكثرهم، وسَبَوا نساءهم وغرقوهم.

واتَّفق دخولُ البساسيري بغداد يوم الأربعاء سادس ذي القعدة، وخروجُ أصحابه منها سادس ذي القعدة، فكان يملكها سنةً كاملة.

---

(١) الجِفار؛ جمع جَفْرة: وهي البئر الواسعة التي لم تُطو. اللسان (جفر).

(٢) أجفل: مضى وأسرع. اللسان (جفل).

(٣) في (ف): على.

وثار الهاشميون وأهل باب البصرة إلى الكَرْخ فنهبوه، وطرحوا النار في أسواقه ودُوره ودُروبه، فاحترق منه ألفٌ ومئتا دار، وكلُّ دار تساوي ثلاث آلاف دينار، وفيها دور تساوي كلُّ دار ثلاثين ألف دينار.

ذكر أحوال الخليفة:

كان قد استخلف مهارش العقيلي وتوثَّق منه في حراسة نفسه، وأن لا يُسلِمَه إلى عدوِّه، وكان مهارش قد تغيَّر على البساسيري لبذول بُذِلَتْ له، ولم يقع الوفاءُ بشيء منها، وبعث قريش أبا الحسن بن المُفرِّج إلى مهارش يقول: قد كنَّا أودعنا الخليفة عندك ثقةً بأمانتك، وسكوناً إلى ديانتك، ولِنَكُفَّ به عاديةَ الغزو عن بلادنا ونفوسنا وعشائرنا، وقد عادوا الآن وأطلُّوا علينا، وربما قصدوك وحاصروك وأخذوه منك، فخُذْه وارحَلْ به وبأهلك وولدك إليَّ، فإنهم إذا علموا حصولَه في أيدينا لم يقدَموا علينا خوفاً على نفسه، فإذا طلبوه منا اشترطنا عليهم أن لا يتعرَّضوا لبلادنا ولا لعشائرنا، ونقترح عليهم ما شئنا من المال والبلاد، وما أرومُ تسليمه إليَّ، بل يكون على حاله في يدك، بحيث لا يُؤخَذُ قهراً من أيدينا. فقال مهارش لرسوله: قُلْ له: البساسيريُّ غدر بي، ولم يَفِ بما ضمن، ما بقي لكم في رقبتي أيمان، وقد قلتُ: أرسِلْ خُذْ صاحبَكم الذي عندي، فلم يفعل، وعرف الخليفةُ خلاصَ رقبتي من اليمين، فاستحلفني لنفسه، فعاد ابن المُفرِّج بغير شيء. وقال مهارش للخليفة: الرأيُ أن نخرج ونقصد بلد ابن مهلهل، ونكون في موضع نأمن به على نفوسنا، فلا نأمن أن يأتي البساسيري فيحاصرنا ولا نقدر أن ندفعه عنا. فقال: افعَلْ ما تراه. فخرجا من الحديثة يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة، وسارا حتى قطعا دجلة، وحصلا بقلعة تل عُكْبَرا.

قال ابن فورك: عُدْتُ من عند قريش إلى حُلَّةٍ لبدر بن مهلهل وأنا على وجَلٍ من أمر الخليفة لِما سمعتُه من قريش في معناه، وحذراً أن يقصد الحديثةَ فيأخذه معه، ويصير بحكمه، فبينا أنا مفكر في ذلك وعودي إلى السلطان بميله، إذ جاءتني رسالة بدر بن مهلهل، فحضروا عنده، وإذا بسواديٍّ قد حضر[1] إليه، فقال: أعِدْ ما حكيتَه. فقال:

(١) جاء فوقها في (خ): ورد، وأشير على أنها نسخة.

رأيتُ البارحةَ عسكراً يقصد تل عُكْبَرا، فسألتُ عنه، فقيل: هذا الخليفة مع مهارش قد جاء من الحديثة. قال: فاستبعدتُه، فلم أبرَحْ من مكاني حتى ورد رسولٌ من قلعة تلِّ عُكْبَرا يقول: قد نزلوا تلَّ عُكْبَرا، فحققت الحال، وطِرْتُ فرحاً، وقمنا إلى القلعة، وضرب له بدرٌ خيماً ونزل إليها، وسلَّمتُ إليه ما كان معي من المال والثياب، وجاء السلطان فدخل بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي، ونزل بالنَّجمي، وكتبتُ إليه وعرَّفتُه صورةَ الحال، وطلبتُ للخليفة خيماً وسرادقاً وفرشاً، ولمَّا وقف على كتابي طار فرحاً، وجاءه ما لم يكن في حسابه ولم يخطُرْ بباله، وأنفذ أنوشروان في ثلاث مئة غلام ومن استعقله من الحُجَّاب، ومعهم البَخاتي، عليها السرادق الكثيرة، وعدة خيم وخركاوات وآلات، وفرشاً كثيرة، وبغالاً عليها الأواني والثياب، وغير ذلك، وبغلاً عليه مهدٌ مُسَجَّفٌ[1] بالديباج الأسود، وثلاثة أفراس بمراكب الذهب، وبعث بالجميع مع عميد الملك، وعرفتُ خبرهم، فركبتُ واستقبلتُهم، فسألني عميد الملك عمَّا جرى من ذلك، فشرحتُه له، فقال: تقدَّمْ واضرِب السُّرادقَ والخِيمَ، وانقُل أمير المؤمنين إليها لتلقاه فيها، وإذا حضرنا فلتؤخِّرِ الإذن لنا ساعةً كبيرةً، فسبقتُ وطالعتُ الخليفةَ بذلك، فأجاب إليه، وضُربَتِ السُّرادِقُ والخِيمُ، وانتقل إليها، وجاء عميد الملك والأمير أنوشروان، فنزلوا عليَّ في خيمة لهم ساعةً، ثم أذن لهم فدخلوا، وقبَّلوا الأرض، وذكر عميد الملك رسالةً عن السلطان وسرورِه بخلاصِ الخليفة، وشكر مهارشاً على فعله، وقال: نُسَمِّ اللهَ ونسير. فقال: قد تعِبْنا ونستريح يومين. ثم ترجَّل، فكتب عميد الملك إلى السلطان كتاباً يخبره بصورة الحال، وأحبَّ أن يأخذ خطَّ الخليفة عليه تصديقاً لما تضمَّنه، ولم يكن عند الخليفة دَواةٌ، فأحضر عميد الملك من خيمته دواةً على مرقع فيها ألف وسبع مئة مثقال من الذهب، فتركها بين يديه، وأضاف إليها سيفاً مُحلًّى، وقال: هذه خدمة منصور بن محمد ـ يعني نفسه ـ خدم بها، وقد جمع بين السيف والقلم، فشكره الخليفة، وكتب من الدَّواة، وسِرْنا بعد يومين إلى النَّهروان، فوصلنا إليه يوم الأحد رابع عشرين ذي الحجة، وجاء السلطان للقاء الخليفة، فلمَّا وقعت عينُه على السُّرادق ترجَّل ومشى إلى أن وصل، فلمَّا دخل قبَّل

(١) مُسجَّف: مستور. اللسان (سجف).

الأرضَ سبع مرات، فقال الخليفة: يا ركن الدين، ماذا لقينا بعدَك؟ وأخذ مخدَّةً من دَسْتِه فطرحها بين يديه، وقال: اجلِسْ عليها. فأخذ المِخَدَّة وقبَّلها وجلس عليها، وأخرج من بند قَبائه الحبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بويه، فقبَّله وطرحَه بين يديه، ثم أخرج اثنتي عشرة لؤلؤة كباراً مثمنةً، وقال: هذه تقدمة أرسلان خاتون ـ يعني زوجة الخليفة ـ أنفذَتْها معي، وسألت أن يُسبِّح بها أمير المؤمنين، وكان السلطان يكلِّم عميد الملك وهو يفسره للخليفة، واعتذر من تأخُّره بعصيان أخيه إبراهيم ينَّال، وقال: قد عصى غيرَ مرة، وعفوتُ عنه، فلمَّا دخل الضررُ على أمير المؤمنين بسببه كان جوابُه: إنني خنقتُه بوتر قوسي، وقتلتُ ولدَي أخيه الذين استنجد بهما، ثم شفع ذلك وفاة الأخ الأكبر داود، فاحتجتُ إلى المقام حتى رتَّبتُ أولادَه مكانه، وكنتُ على نية المسير إلى الخدمة لأُخلِّص المُهجة الشريفة، فوصلني الخبر بما كان ـ بفضل الله تعالى ـ بخلاصها، وخدمةِ هذا الرجل ـ يعني مهارشاً ـ في معناها، بما أبان من صحيحِ ديانته، وصادقِ عقيدته، وأنا إن شاء الله أمضي وراء هذا الكلب ـ يعني البساسيري ـ وأقتنصه، وأُيمِّم إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما يكونُ جزاءً لفعل البساسيري. فدعا له الخليفة، وشكره وقلَّده بسيفٍ كان إلى جنبه، وقال: لم يسلَم معي وقتَ خروجي من الدار غيرُه، وقد تبرَّكتُ به، فقبَّل الأرض وقام، فاستأذن في دخول العسكر إلى الخدمة ليشاهدوا الخليفة، فأذِنَ، فكشف السُّرادق والخليفة في خَرْكاة، فدخلوا وشاهدوه، وقبَّلوا الأرضَ وانصرفوا، وقال الخليفة: اضربوا خيمتي عند خيم السلطان، فإني أريد أن أكون معه حتى يقضي الله في هذا اللعين ـ يعني البساسيري ـ فقال السلطان: هذا ممَّا لا يجوز فِعْلُه، ونحن الذين نصلح للحرب والسفر والتهجم والخطر دون أمير المؤمنين، فإذا خرج بنفسه فأيُّ حكمٍ لنا؟ وأيُّ خدمةٍ تقع منا؟ والمصلحة دخول أمير المؤمنين إلى داره، فأجاب على كُرهٍ، وكان يقول: أخاف من غائلة اللعين. وجرَتْ لمهارش خطوبٌ في اقتراحاته أدَّتْ إلى أن أطلق له السلطان عشرة آلاف دينار أُحيلَ منها بسبعة آلاف على مال الأهواز، وسَلَّمت إليه هَيْت بالثلاثة آلاف الباقية، ولم يَكُ راضياً بما فَعَلَ معه، ولا طيِّبَ النفس بما جعل له[1].

---

(١) ينظر المنتظم ١٦/ ٢٤٦ـ٢٥٢.

ولمَّا كان لخمسٍ بَقِينَ من ذي الحجة ركب القائم وعساكر السلطان بين يديه والجنائب والملوك الأسفهسلارية، والمهد بين يديه، والأعلام على رأسه، وعليه السَّواد وأُبَّهة الخلافة، وبيده سيف مسلول، والعجم مُحدِقون به، ولم يبقَ مَنْ يستقبله من أهل بغداد سوى القاضي وثلاثةُ أنفسٍ من الشهود؛ لهرب الناس من مصادرات البساسيري والضرب والعقوبات.

وسبقَ السلطانَ وجلس على دَكَّة الباب النُّوبي مكان الحاجب، وكان قد سأل الخليفةَ أن يمشي بين يديه من النهروان فامتنع، فلمَّا ورد الخليفةُ باب النُّوبي قام السلطان وقبَّل الأرض، وأخذ بلجام دابَّته، ودخل يمشي إلى باب حجرة الخاص، فدخل الخليفة بالبغلة إلى أماكن قد فُرِشَتْ بفُرشٍ عظيمة من عند السلطان، واعتذر من قِلَّتها، ثم قبَّل الأرض واستأذنه في المسير وراء البساسيري، فأذِنَ له، فعَبرَ من وقته إلى النَّجمي، وتجهَّز للمسير خلفَه، وقال أبو علي الحسن بن جعفر الضرير البندنيجي ـ ويُعرف بابن الهَمَذاني ـ من أبيات: [من الوافر]

ولـمَّـا أن طـغَـتْ عُـصَـبٌ وطـاشَـتْ ... حُـلـومٌ أورثَـتْ لـهـمُ ضِـرامـا
وقـادهـمُ الـقـضـاءُ إلـى عُـتُـلٍّ ... زنـيـمٍ قـاد لـلـفـتـن الـسُّـوامـا
أتـاحَ الـلـهُ ركـنَ الـديـن لـطـفـاً ... وتـأيـيـداً فـأخـزى مَـنْ ألامـا
وأردى الـعـبـدَ لا جـادَتْ يـداهُ ... سـوى الـنِّـيـرانِ تـضـطـرمُ اضـطـرامـا
وأتـعـسَ جَـدَّهُ فـأدالَ مـنـهُ ... وأقـعـصَـهُ وقـد جَـدَّ انـهـزامـا
أقـام ثـقـافـه الإسـلام لـمَّـا ... تـأَوَّدَ إذ بـأمـرِ الـلـه قـامـا
أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنِ رضًـا وعـفـواً ... لـعـارضِ نَـبْـوةٍ طـرقَـتْ لِـمـامـا
فـإنَّ الـلـهَ أبـلاكَ امـتـحـانـاً ... كـمـا أبـلـى الـنـبـيـيـنَ الـكِـرامـا
لـقـد قَـرَّتْ بـأوبـتـهِ عـيـونٌ ... [تـجـافَـتْ](١) مـنـذ زايـل أن تـنـامـا
وأسـفـرتِ الـخـلافـةُ بـعـد يـأسٍ ... وحـالَ قـطـوبُ دولـتِـهـا ابـتـسـامـا

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصلين (خ) و(ف)، وأثبت من خريدة القصر ١/ ١٧٦ .

ذكر مقام الخليفة بالحديثة:

أقام عند مهارش البدري هذه المدة يخدمه بنفسه، وقال الخليفة: لمَّا كنت بحديثة عانة قمتُ في بعض الليالي إلى الصلاة، فوجدتُ في قلبي حلاوة المناجاة، فدعوتُ الله تعالى بما سنح لي، ثم قلتُ: اللهمَّ أعِذْني إلى وطني، واجمَعْ بيني وبين أهلي وولدي، ويسِّر اجتماعنا، وأعِدْ روض الأنس زاهراً، ورَبْعَ القرب عامراً، فقد قلَّ العزاء، ونزح الجفاء، فسمعتُ قائلاً يقول على شاطىء الفرات بأعلى صوته: نعم نعم. فقلتُ: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذتُ في السؤال والابتهال، فسمعتُ ذلك الصائح بعينه يقول: إلى الحول. فعلمتُ أنه ناطقٌ أنطقه الله تعالى بما جرى عليه الأمر.

وكتب القائم في السجن دعاءً وسلَّمه إلى بدويٍّ، وقال: اذهب إلى الكعبة وعلِّقه عليها، وكان في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الله العظيم، من عبده المسكين، اللهمَّ إنك العالم بالسرائر، المحيط بمكنونات الضمائر، اللهمَّ إنك غنيٌّ بعلمك واطِّلاعك على أمور خلقك، عن إعلامي بما أنا فيه عبدٌ من عبادك، قد كفر نعمتك وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حِلْمُك، واغترَّ بأناتك، حتى تعدَّى علينا، وأساء إلينا عتواً وعدواناً، اللهمَّ قَلَّ الناصر، وأُعِزَّ الظالم، وأنت المُطَّلع العالِم، والمنصف الحاكم، بك نُعَزُّ عليه، وإليك نهرب من بين يديه، فقد تعزَّز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتزُّ بك يا رب العالمين، اللهمَّ إنَّا حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعتُ ظُلامتي إلى حرمك، ووَثِقتُ في كشفها بكرمك، فاحكُمْ بيني وبينه وأنت أحكم الحاكمين، اللهمَّ أظهِرْ قدرتَك فيه، وأرِنا ما نرتجيه، فقد أخذته العِزَّة بالإثم، اللهمَّ فاسلُبْه عِزَّه، ومَلِّكْنا ناصيتَه، يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم وكرَّم. فحملها البدويُّ وعلَّقها على الكعبة، فحسب ذلك اليوم، فوجد البساسيريَّ قُتِلَ وجيء برأسه بعد سبعة أيام من التاريخ، ومن شعر القائم قاله في الحديثة: [من البسيط]

خابَتْ ظنوني ممَّنْ كنتُ آمُلهُ ... ولم يَجُلْ [ذِكْرُ][1] من واليت في خَلَدي
تعلَّموا من صروف الدهر كُلِّهمُ ... فما أرى أحداً يحنو على أحدِ

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصلين (خ) و(ف)، وأثبت من البداية والنهاية ١٢/ ٧٨ .

وقال أيضاً: [من الرجز]

مالي من الأيام إلَّا موعدٌ فمتى أرى ظفراً بذاك الموعدِ
يومي يمرُّ وكلَّما قضَّيتُهُ علَّلتُ نفسي بالحديثِ إلى غدِ
أحيا بنفسٍ تستريحُ إلى المنى وعلى مطامعِها تروح وتغتدي

وأقام القائم مدةَ مقامه يتوقَّع البساسيريَّ وحصارَه القلعة ساعةً بعد ساعة، ويحسب أنه يبعث به إلى مصر، فكان ذلك أشدَّ عليه من الحبس، ويتمنى الموتَ على عدد الأنفاس، إلى أن أتاه الفرج.

ذكر مسير السلطان خلف البساسيري ومقتله:

لمَّا عبر الخليفةُ دارَه عبر السلطانُ دجلة، ونزل بالنَّجمي قاصداً للبساسيري، فجاءه سراً من باب منيع مُقدَّمه من خفاجة، وقال له: أيها السلطان، الرأيُ أن تُنفِذَ معي ألفي غلام من العسكر لأمضي على طريق الكوفة، وأُشغِلَ البساسيريَّ عن الإصعاد إلى الشام، وتنحدر أنت وراءه فتأخذه من غير فوتٍ، فلم يُعجبِ السلطانَ ذاك، إلا أنه قد خلع عليه وأعطاه سبع مئة دينار، فلمَّا انتصف الليل انتبه السلطان واستدعى خُمارتِكين الطغرائي، وقال له: رأيتُ الساعةَ في منامي كأني قد ظفرت بالبساسيريِّ وقتلتُه، فالواجب أن تُسيِّر إليه عسكراً من طريق الكوفة ـ كما قال ـ سرايا، فخُذْ معكَ ألفَي غلام وسِرْ. فقال: سمعاً وطاعةً. واشتغل بتجريد الغلمان، فدخل أنوشروان على السلطان، واستأذنه في المسير إليه مع الغلمان، وانضاف إليهما يارختِكين، وسارتِكين الحاجب، وجماعة من العرب محمد بن منصور العقيلي، وساروا إلى طريق الكوفة، وسار السلطان بنفسه إلى واسط يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة منحدراً على دجلة، ولمَّا فارق بغدادَ شرع أصحابُه في خراب البلد، فأحرقوا الأسواق والدروب، وأخذوا الناس فعاقبوهم، واستخرجوا الدفائن، ودام النهب والحريق والقتل حتى خربت بغداد ودُثِرَتْ من الجانبين، ولم يبقَ غيرُ حريم دار الخلافة، وما فيه إلا آحادُ الناس، ومات بالجوع والبرد كثيرٌ من الناس، وأمَّا البساسيريُّ فإنه أقام بواسط مستهيناً بالسلطان، متشاغلاً بجمع الغلَّات والتمور يصعد بها إلى بغداد، فبلغه دخول الخليفة والسلطان إلى بغداد، فعزم على الهرب، وتحيَّر في أمر الغلَّات والتمر ماذا يفعل فيها،

فوقعت نار في زورق كبير فاحترق فتطيَّر، وكان فارسطغان الحاجب لمَّا عصى على جلال الدولة سنة ثمان وعشرين وأربع مئة ونزل بدير العاقول جمع الزواريق، فاحترق زورق كذا، فقُتِلَ بعد سبعة أيام، وكذا البساسيري، فاحتاج أن ينزل على دُبيس ويستجير به، وقد كان شاكًّا فيه؛ لما يعرفه من انحرافه عنه، وما فعل معه لمَّا فتح بغداد، وإنما ألجأتْه الضرورةُ إليه، وكان دُبيس خائفاً من السلطان ولم يحضر إليه، فنزل البساسيري عليه، وطرح نفسه بين يديه، واستجار به، واجتمعت العرب عند دُبيس وهو بين الحِلَّة وواسط على الفرات، وحدر دُبيس مالَه ورجالَه إلى البَطيحة، وصاحبها أبو نصر بن الهيثم، وانحدر معهم جماعةٌ من أهل بغداد، منهم أبو عبد الله المردوسي وغيره، ولمَّا وصلت السرية التي بعثها السلطان إلى حِلل دُبيس نزلوا قريباً منهم، فأرسل البساسيريُّ إليه، وقال: المصلحة تواقعهم الليلة، فإنهم كالُّون، وخيلُهم قد تعبت. فامتنع عليه، وقال: نُباكرهم غداً، وأصبحوا، فراسل أنوشروان بن مَزْيَد، والتمس به الاجتماع، فمضى إليه، واجتمعا، فقال له: عميد الملك يُسلِّم عليك ويقول: قد مكَّنْتُ في نفس السلطان منكَ ما جعلْتُ لك منه المحلَّ اللطيف، والموقعَ المنيف، وشرحْتُ له ما أنت عليه من طاعته، ويجب أن تُسلِّم هذا الرجل، وتَسْلَم أنت ومَنْ في صحبتك، فما المطلوب سواه لما اقترفه من عظيم ذنبه، وارتكبه من كبير جُرْمه، وإن امتنعتَ واحتجبتَ بالعربية وذمامها وحرمة نزوله عليك والتزامها فانصرِفْ عنه ودَعْنا وإيَّاه. فقال: ما أنا إلا خادم السلطان، سامعٌ مطيع لأوامره ومراسيمه، إلَّا أنَّ البدرية حلمها وذمامها، وقد نزل هذا الرجل عليَّ نزولاً ما آثرتُه ولا اخترتُه، بل كرهتُه وأبيته، وقد عرفتَ ما فعلتُ معك ومع عميد الملك ببغداد لمَّا التجأتما إليَّ ونزلتُما عليَّ، وكيف خدمتُكما وسَيَّرتُكما، والصواب أن تُسرع في صلاح حال البساسيري مع السلطان وتصطنعه وتستخدمه، فما يُستغنى عن مثله وقد فات ما ذبح، وعفا الله عما سلف. فقال له أنوشروان: هذا هو الرأيُ، ونحن نبعد [عنكم من حِلَّة، وتبعدون عنا مثلها؛ لئلا يتطرَّق البعض إلى البعض][١] بوقوع العين في العين، والسلطان قد وصل إلى النعمانية، وأنا أراسله في هذا وما نخالفك، وما فيهما إلا من

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

قصد خديعة صاحبه، أمَّا دُبَيس فإنه قصد مدافعة السلطان لمَّا تحقَّق وصولُه، حتى يبعد عنه السرية، فإنه يصعد في البرية إلى حيث يأمن على نفسه وحِلَّته وعشيرته، ويدبِّر أمر البساسيري في مُضيِّه عنه، وأما أنوشروان فإنه قصد أن يبعد عن القوم، ويفسح لهم في البرية، فإذا رحلوا تبعهم وأكبَّ عليهم؛ لأنهم حينئذ يكونون قد اشتغلوا برحيلهم وأهلهم عن الحرب، فكان ما قصد صحيحاً، وفعله الله تعالى، وعاد دُبيس إلى البساسيري وأخبره، فقال: الأمر إليك، قد أشرتُ بما أشرتُ وما قُبِلَ مني، افعَلْ ما تراه. وأصبح دُبيس يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة هو والبساسيري، فرحلا ورحل أنوشروان بمقابلتهم قُذًّا[1] كمن يراصدهم، فلمَّا أخذوا في الرحيل أكبُّوا عليهم، فثبت البساسيري، وتبيَّن لدُبيس غلطُه، فسارع إلى أوائل الظعن ليردَّه فلم يقبلوا منه ولا التفتوا إليه، وصار الواحدُ يُردف ولدَه خلفه وامرأتَه، وتشاغلوا بنفوسهم، وألقى الله في قلوبهم الرعب، فانهزم دُبيس بن مَزْيَد، ووقف البساسيري فقاتل، وكثروا عليه وأسروا أبا الفتح بن وَرَّام أميرَ الأكراد بالحِلَّة، فأفرج عنه أنوشروان واصطنعه، وثقُلَ ذلك على السلطان لمَّا بلغه، وأسر منصوراً وبدرانَ وحماداً أولادَ مَزْيَد، وانهزم البساسيري بعد أن تورَّط فيهم على فرس بتجافيف، فلم يتَّجِه، وضربه بنُشَّابة، واجتهد في قطع التجافيف فلم ينقطع، وأدركه بعض الغلمان فضربه في وجهه بالسيف ولم يعرِفْه، ورآه بعض العرب المجروحين وأسره كُمُشْتِكين، فنازعه عليه أردم الخادم، فنزل إليه، وحزَّ رأسه، وجاء به إلى السلطان.

وقال محمد بن هلال الصابىء: اعتبرتُ دخولَ أصحاب البساسيري بغداد، فكان اليوم السادس من ذي القعدة سنة خمسين، وخرج أهلُه وأولادُه منها في مثل ذلك من السنة الآتية، وانتزع الخليفةُ من داره يوم الثلاثاء ثامن عشر كانون الثاني في سنة خمسين، وقُتِلَ البساسيريُّ يوم الثلاثاء الثامن عشر منه في السنة الآتية، وهذا من الاتفاقات الغريبة، ودخل الأتراك في الظعن جميعه فساقوه، وكان فيه أموالُ بغداد جميعُها مع الأكابر، وأموالُ العرب بأسرها مع نسائها وأولادها، وكان في السبي نساءُ البساسيري وأولادُه وبناتُه وزهرة وزوجتُه وأختان لابن مَزْيَد وابنتان له، وارتكب من

---

(١) من قوله: حَذو القُذَّة بالقُذَّة، وهو مثل يضرب للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. المعجم الوسيط (قذذ).

النساء المحظور، ونجا من نجا على فرسه دون ماله وحرمه، وبقيت الثياب والأموال مطروحةً في البرية لكثرتها، وعجز الغلمان عن حملها، وهلك مِن الناس العددُ الكثيرُ، والجمُّ الغفير.

وكان الفتكُ من العرب، فإنهم أفسدوا، والتُّرك لم يفسدوا، وإنما أخذوا الأموال، وأحضر السلطانُ جماعةً، فعرفوا رأس البساسيري، فوجدوا في جيبه خمسة دنانير، فدفعها السلطان إلى من قوَّر رأسَه، وأخرج مخَّه، ثم بعث به إلى بغداد، فوصل يوم السبت منتصف ذي الحجة، فتُرِك على قفاه، وطِيفَ به، وضُربت بين يديه الدبادب والبوقات، وعُلِّقَ مدةً، ثم حُمِلَ إلى خزانة الرؤوس، فيقال: إنه باقٍ إلى هلُمَّ جرًّا.

وهرب ابن مَزْيَد إلى البَطيحة، ومعه أبو البركات بن البساسيري وأخواه الصغيران ـ وقيل: زهرة والدتهما وأخته ـ ووصل السلطان إلى واسط، فرأى أصحابه قد نهبوها، فعزَّ عليه، ولام أريسغى، وكان قد تقدَّم إليها، وعبر السلطان إلى الجانب الشرقي قريبٍ من البطائح، وجاءه هزارسب، وتوسَّط خالُ ابن مَزْيَد معه، وحضر باب السلطان، وداس بساطه، ثم أصعد في خدمته إلى بغداد، وكذا صدقة بن منصور، وردَّ السلطانُ على ابن مَزْيَد وأولاده وإخوته الأسرى، وقَبْلَ إصعادِ السلطان أنفذَ من واسط والدةَ الخليفة ووالدةَ الأمير أبي القاسم علاء الدين بن ذخيرة الدين وصلف ـ وقيل: اسمها وصال القهرمانة ـ وتبعهم خلقٌ كثيرٌ من أهل بغداد، وكانوا في أسر البساسيري ومعه في الوقعة فأُخِذوا.

ذكر ما جرى لابن البساسيري الصغير:

كان نائباً عن أبيه في الرحبة، فوصله الخبر في يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة، فارتاع وخاف المقام، وبلغه أن مهارشاً قد خرج من بغداد في ثلاث مئة غلام من الأتراك يريد الرحبة، فأراد أن يقصد بالِس، وكانت لعطية بن الزَّوقلية الكلابي، وكان بينه وبين أبيه مودةٌ وصداقة، وأغارت بنو شيبان على سواد الرحبة وأحرقوا، فخاف الصبيُّ أن يخرج لقبيح فعل بني شيبان وغَدْرِهم، فاستدعى وجوههم وقال: تسيرون معي إلى بالِس، وجعل لهم على ذلك خمس مئة دينار، واستحلفهم وتوثَّق منهم، وأودع الذهب عند مَنْ رضوا به، فإذا قاربوا بالِس رجعوا، واستدعى جماعةً من

العجم ممن استأمن إلى أبيه، فأعطاهم ثلاثة آلاف درهم وسلاحاً، فأظهروا طاعتَه، وأبطنوا مخالفتَه، والتجؤوا إلى محلة في الرحبة يُقال لها: القصر، وعليها سور، واجتمع القاضي وابن محكان وأبو الكرم كاتب الديوان على الخطبة للسلطان طُغْرُلْبَك والقائم، ولم يتحقَّقوا حقيقة الحال، إلا أن مهارشاً البدري قصد الرحبة في سرية، وخرج ابن البساسيري في خامس عشرين ذي الحجة مبرزاً، فأغلقوا وراءه الأبواب، ورماه العجم الذين أعطاهم الأموال والسلاح والنُّشَّاب، وسبُّوه وشتموه، وخرج معه خلقٌ كثير من أهل البلد كانوا مع أبيه، وسار طالباً بالِس، ولم يقنع بنو شيبان بما قرَّره لهم، فتخطَّفوا[1] الناسَ ونهبوهم، ولو لم يكن في جماعة كثيرة لنهبوه، ووصل إلى بالِس واجتمع بعطية ولم يتعرَّض له، كلُّ هذا وما عند أحدٍ خبرُ ما جرى للبساسيري، إلا أنهم على انتظاره، وابنُه يُمنِّيهم رجوعَه، ثم سار يطوي المنازل إلى حلب، فأقام على بابها.

وفي هذا الشهر عزل القائمُ أبا الحسن محمد بن أحمد بن المهتدي عن خطابة جامع المنصور؛ لأجل خطبته لصاحب مصر، وولَّى مكانه أبا علي الحسن بن عبد الودود بن المهتدي، وخلع عليه خِلْعةً سوداء، وبرز له توقيع، فيه خرجت الأوامرُ الشريفة، والمراسيمُ العالية المتقنة[2] أنفذها الله شرقاً وغرباً، وبُعداً وقُرباً، بترتيب الشريف الجليل بهاء الشرف ـ أدام الله تأييده ـ في الخدمة وإقامة الدعوة الشريفة على المنبر بالمسجد جامع المنصور ـ صلواتُ الله على الآمر ببنائه ـ وأن يعتمد على المداومة في الخدمة وإيصالها، فليُتمثَّلِ المأمور، وليُعتمَدِ المرسوم إن شاء الله تعالى.

ذكر ما اعتمده الخليفة بعد رجوعه:

لمَّا عاد إلى بغداد من الحديثة لم ينَمْ على وطاء، ولم يدَعْ أحداً يحمل إليه فطوره؛ لأنه نذر أن يتولى ذلك بنفسه، وعقد مع الله العفوَ عمَّن أساء إليه، والصفحَ عن جميع من تعدَّى عليه، فوفى بذلك، وأشرف في بعض الأيام على البنَّائين في داره، فأمر الخادم بإخراج واحد منهم، ثم رآه في الدار، فقال للخادم: أعطِه ديناراً وأخرِجْه،

---

(١) أي: قتلوهم وسلبوهم. وتحرفت لفظة فتخطفوا في الأصل (خ) إلى: فتحفظوا.

(٢) في (ف): المتقة!

وتهدَّده إن عاد ثانياً. فأتاه الخادم وأعطاه ديناراً، وقال: إن عُدْنا رأيناك ها هنا قتلناك. فسأل الخليفةَ عن السبب، فقال: إنَّ هذا أسمعني يومَ خروجي من الدار الكلامَ الشنيع، وما كفاه حتى تبِعَني إلى المكان الذي بِتُّ فيه في المشهد، وجعل يشتمني، وما كفاه حتى تبِعَني إلى عَقَرْقُوف يُسمِعني ما أكره، فأمسكت عن معاقبته رجاءَ ثواب الله تعالى، وما عاقبتُ مَنْ عصى الله فيَّ بأكثرَ مِنْ أن نُطيعَ الله تعالى فيه.

وفيها كان بمكة رُخصٌ لم يُعهَدْ مثلُه، بلغ البُرُّ والتمرُ مئتي رطل بدينار، وهذا غريب في ذلك المكان.

وفيها قُتِلَ أرسلان التركي أبو الحارث البساسيري، وكان يُلقَّب بالمظفَّر، وكان مُقدَّماً على الأتراك، لا يقطع القائم أمراً دونه، فتجبَّر وطغى، وأراد نقل الدولة؛ لفسادِ نيَّتِه وخُبثِ طويَّتِه، فقبِلَها وفعل ما فعل، فقُتِلَ أقبحَ قتلة، ويقال: إنهم أحرقوا جسده، وأطعموا بعضَه الكلاب.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: لم تَزلِ الأخبارُ متواترةً من ناحية العراق بظهور المظفَّر أبي الحارث أرسلان البساسيري، وقوَّةِ شوكته، وغلَبَةِ أمره على الإمام القائم بأمر الله، وقَهْرِ نُوَّابِه، وامتهانِ خواصِّه وأصحابه، وخوفِهم من شرِّه، حتى أفضى أمرُه بأخذ الجائي من حريم الخلافة لأدافع عنه، وهو واحد من الغلمان الأتراك، عَظُم أمرُه، واستفحلَ شأنُه؛ لعدم نُظرائه من الغلمان الأتراك والمُقدَّمين، فاستولى على العباد والأعمال[1]، ومدَّ يده في جباية الأموال، وشاع بالهيبة أمرُه، وانتشر ذِكرُه وتهيبته العرب والعجم، ودُعي له على كثير من منابر العراق والأهواز، وقد ذكرنا سيرته مفصَّلة.

[وفيها تُوفِّي]

الحسن بن أبي الفضل[2]

أبو علي الشَّرْمَقاني، ـ وشَرْمَقان: قريةٌ من قرى نيسابور ـ وقدم بغداد، وكان حافظاً للقرآن ووجوه القراءات، زاهداً، عابداً، ورعاً، سليم الصدر، طاهر البدن[3]، كان يخرج إلى دجلة فيقعد عند أقوام يغسلون الخسَّ فيأخذُ من الورق ما يحدره الماء [قال

(١) في (ف): والأموال.
(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٤٠٢ ، والمنتظم ١٦/ ٥٧-٥٨ .
(٣) في (م١): البطن.

الخطيب: وكان الشَّرمقاني] يقرأ على ابن العلَّاف، و[كان] يأوي إلى مسجد بدرب الزعفران غربي بغداد، فاتَّفق أنَّ ابن العلَّاف خرج يوماً يتوضأ على دجلة، وكان زمان مجاعة، فرأى الشَّرْمَقانيَّ يأخذ ما يرمي به أصحابُ الخسِّ من الورق فيأكلُه، فشقَّ عليه، وكان ابن العلَّاف ينبسط إلى [أبي القاسم] رئيس الرؤساء الوزير، فأخبره بحاله، فقال: نبعث له شيئاً. قال: ما يقبل. فقال: نتحيَّل فيه. فقال لغلام له: اذهَبْ إلى مسجد الشَّرْمَقاني، واعمل لغَلَقِه مفتاحاً من حيث لا يشعر. ففعل الغلام، فقال له: احمِلْ في كل يوم ثلاثةَ أرطال خبز ودجاجةً مشوية وقطعةَ حلوى بسُكَّر. فكان الغلام يرصده، فإذا خرج من المسجد فتح الباب وترك ذلك في القبلة، وكان الشَّرْمَقاني يتعجَّب ويقول: المفتاح معي، وما هذا إلا من الجنة. فسكتَ ولم يُخبِرْ أحداً خوفاً أن ينقطع، فأخصب جسمُه وسمِنَ، فقال له ابن العلَّاف: قد سَمِنْتَ [وحَسُنَ حالك] فأيش تأكل؟ فأنشده يقول: [من البسيط]

مَنْ أطلعوه على سرٍّ فباحَ به لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأخذ يُورِّي ولم يُصرِّح، [ويُكني ولا يُفصح]، فلم يزَلْ به حتى أخبره وقال: هذه كرامة لي، يبعثها اللهُ لي كلَّ يوم من الجنة، كذا وكذا. قال: من أين لك ذلك؟ قال: لأنَّ الباب مغلق، والمفتاح معي. فقال: ينبغي أن تدعو للوزير [ابن المُسلمة] ففهم، وانكسر قلبُه، وتنغَّص عيشُه، وتوفِّي عقيب ذلك اليوم السابع [سمع ابن شاهين وغيره، وكتب عنه الخطيب وغيرُه.

وفيها تُوفِّي]

أبو البركات، عَقيل بن العباس[1]

ابن الحسن بن أبي الجِنّ الحسين بن علي، وُلِدَ بدمشق سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، وولي نقابة العلويين بها، وكان جواداً سمحاً، توفي بطرابلس، وحُمِلَ إلى دمشق ودُفِنَ بها، رحمه الله تعالى. [قال ابن عساكر: حدَّث عن عبد الله بن أبي كامل وغيرِه، وروى عنه أبو القاسم النسيب شيخ الحافظ ابن عساكر].

---

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٥-٢٦.

علي بن الحسين بن هندي(1)

قاضي حمص، [ذكره الحافظ ابن عساكر، وقال]: ولد سنة أربع مئة، وبرع في علم الأدب والشعر، وتوفي بدمشق، ودُفِنَ بباب الفراديس، ومن شعره: [من الكامل]

يا ضاحكاً بمن استقلَّ غُبارهُ ... سيثورُ عن قدميكَ ذاكَ العِثْيَرُ(2)
لا فارسٌ بجنودها منعَتْ حمى ... كسرى ولا للرُّوم خلَّدَ قيصرُ
جددٌ مضَتْ عادٌ عليه وجُرْهُمٌ ... وتلاه كهلانٌ وعقَّبَ حِمْيَرُ
وسطا بغسَّانَ الملوكُ وكِنْدةٌ ... فلها دماءٌ عندهُ لا تثأرُ
لعبَتْ بهم فكأنَّهم لم يُخلَقوا ... ونُسوا بها فكأنَّهم لم يُذكَروا

علي بن محمود بن إبراهيم(3)

أبو الحسن، الزَّوزَني، المنسوب إليه الرباط المقابل لجامع المنصور، والرباط إنما بُني للحصري، والزَّوزَني صاحب الحصري، فنُسِبَ إليه، ولد عليٌّ سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، وصحب الحصري، وكان يقول: صحبتُ ألف شيخ، وأحفظ من كل شيخ حكاية. وكانت وفاتُه في رمضان، ودفن بباب الرباط.

قريش بن بدران

أبو المعالي، ويُلقَّب بعلم الدين، أمير بني عقيل، كان داهيةً، بخيلاً، سفَّاكاً للدماء، بعيدَ الغور، غداراً، حمله شحُّه وقلَّةُ دينه على موافقة البساسيري على تغيير الدولة العباسية، شرهاً إلى ما كان في دار الخلافة، وطمعاً في الزيادة من صاحب مصر، وفعل تلك الأفاعيل، وذمَّ الوزير رئيس الرؤساء وغدر به، وسلَّمه إلى البساسيري، حتى فعل به ما فعل، ولم يمنعه، ولو منعه ما خالفه، وكان قد احتال على مهارش، وقال له: خُذِ الخليفة، وتعال إلينا، وكان قصدُه أن يُدخل الخليفةَ إلى الجِفار ويُسلِمَه إلى صاحب مصر، فبعثه السلطان، وخلص الخليفة، ولم يستصحِبْه البساسيري

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٢٧_٤٣٣ .

(٢) العِثْيَر: التراب. تاج العروس (عثر).

(٣) المنتظم ١٦/ ٥٩ ، وتاريخ بغداد ١٢/ ١١٥ .

لأجل عسكره، فإنه كان شحيحاً والعرب ذامةٌ له، متفلِّلةٌ عنه لأجل اسمِه وذِكْره، فبذل له أن يُقطِعه أملاكَ الخليفة وإقطاعَه، وأن يكون ما عدا ذلك بينهما نصفين من البلاد والغنائم، وأن لا يكون لقريش ذمامٌ ولا إجارةٌ عليه، وتحالفا على ذلك وتكاتبا وتعاهدا، فلمَّا دخلا بغداد تسلَّم قريش الأملاك والإقطاعات التي للخليفة، وخرج أصحابه إلى الضياع، فصادروا أهلها، وأخذوا ما قدروا عليه، ولمَّا استوليا على دار الخليفة اقتسما ما كان فيها من مال وجوهر وقماش وثياب وخيل، وطلب قريشٌ أن يُسلِّم إليه نصف الإقطاعات المنحلَّة عن الغلمان البغدادية وغيرهم، فامتنع البساسيري من ذلك، ثم اتَّفقا على الثلث، إلى أن وصل السلطان البلاد، فزال ذلك كلُّه، ودخل الخليفةُ إلى داره، وقُتِلَ البساسيري، ومات قريشٌ بالموصل خائفاً من السلطان، وقام بعده ولده مسلم، وكنيتُه أبو البركات. وقيل: إن قريشاً مات في السنة الآتية، وكان السلطان قد أباح دَمَه، وقال: لا عهدَ له عندي ذاك الكَذَّاب الغَدَّار المستبيحُ أموالَ الخليفة وبُلَغَه، فمات في صفر.

السنة الثانية والخمسون والأربع مئة

فيها في صفر نزل عطية صاحب بالِس إلى الرحبة وحصرها وفتحها، فلمَّا دخلها أحسن معاملة أهلها، وخطب للمستنصر بعد أن كان قد خطبوا فيها للقائم والسلطان.

وفي يوم الخميس سابع عشره دخل السلطانُ بغداد مصعداً من واسط، وفي خدمته أبو كاليجار هزارسب، وأبو الأغر بن مَزْيَد، وأبو الفتح بن وَرَّام، وصدقة بن منصور بن الحسين، وجلس الخليفة للسلطان، ووصل إليه يوم الاثنين الحادي والعشرين منه، وخلع عليه عمامةَ قصب مُذْهَبة مينا، وفَرَجية ديباج مُذْهَبة، وعمل الخليفةُ سِماطاً عظيماً في رُواقِ رَوْشَن المكتفي المشرف على دجلة بعد أن أُعيدت شرافاته التي قلعها البساسيري، وحضر السلطانُ ومَنْ سمَّينا، واستحلفوا على طاعة السلطان والخليفة وخلع على الأمراء.

وفي ثاني ربيع الأول توجَّه السلطان إلى الجبل، وتأخَّر عميد الملك بعده ليدبر الأمور، ثم لحق بالسلطان بعد أن دخل على الخليفة وخدمه، فشكره وخاطبه بالجميل الذي شرح صدره، ولقَّبه سيِّدَ الوزراء مضافاً إلى عميد الملك.

وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة ورد الأمير عُدَّةُ الدين أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين وجدته وعمته مع أبي الغنائم بن المحلبان وسِنُّه أربع سنين، واستقبله أبو الفتح المظفَّر بن الحسين عميد بغداد، ولَّاه السلطان في هذه السنة، والتقاه أيضاً الخدم والحُجَّاب والأعيان في الماء وعلى الظهر، وجلس الأمير في الزبزب وعلى رأسه أبو الغنائم بن المحلبان والخدم والخواصُّ، وصعد بباب الغربة، وقُدِّم له فرسٌ فأركبه ابنُ المحلبان، ودخل به إلى حضرة الخليفة، وكان الخليفة قد أعدَّ لابن المحلبان مالاً وخِلَعاً، فامتنع مِنْ أخْذِه، وقال: ما أُريد إلَّا أن أُسلِّم الأمير من يدي إلى يد أمير المؤمنين. فأذن له، فدخل عليه، وقبَّل الأرض ويدَه، وسلَّم الأميرَ إليه، فشكره القائم، وأثنى عليه، ورفع منزلته.

ذكر السبب في سلامة الأمير وما جرى لهم:

قال أبو الغنائم بن المحلبان: لمَّا فُتحت دارُ الخليفة دخلتُ إلى داري بباب المراتب، فوجدتُ بها زوجةَ رئيس الرؤساء ابنِ المُسلمة وأولاده، والبساسيري[١] يطلبهم أشدَّ الطلب، فقلتُ: من أنتم؟ قالت: أنا زوجة الوزير، وقد تحيَّرنا وما ندري ما نصنع ولا أين نهرب؟ وكنا قد استشرنا صاحِبَنا ـ يعني ابن المُسلمة ـ فقلنا: إلى من نقصد؟ فقال: ما لكم غير أبي الغنائم بن المحلبان، فإن كان لكم خلاصٌ فما أرجوه إلا منه[٢] وعلى يده، فاقصدوه فإنه يتعصَّب لكم، ويتوصَّل إلى حفظكم. فقلتُ: طيِّبوا قلوبَكم، نفسي دون نفوسكم، وخلطتُهم بأهلي عند سكون الثائرة، وأنزلتُهم بدار الخليفة، فلمَّا صُلِبَ الوزير أخرجتُهم إلى من أثِقُ به إلى ميَّافارقين، وقلت: هؤلاء أهلي أخاف عليهم، وخرجوا في محمل، فاتَّفق خروجُ البساسيري يودِّعُ قريشَ بن بدران ومحملَهم إلى جانب البساسيري، وسلَّمَ اللهُ، ومضَوا سالمين، ثم جاءني محمد الوكيل فقال: قد عرفتَ [أنَّ][٣] ابنَ الذخيرة وبنتَ الخليفة وأمَّها يبيتون في المساجد

(١) في (خ): وأولاد البساسيري، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في المنتظم.
(٢) في (خ): منكم، والمثبت من (ف).
(٣) ما بين حاصرتين من (ف).

مع المُكْدين[١]، وينتقلون من مكان إلى مكان وما يشبعون بالخبز وهم عُراة، ولمَّا علموا بما فعلتَ مع أهل الوزير واختلاطي بك سكنوا إليكَ وإليَّ، وأطلعوني على أمرهم، وسألوا في خطابك في معناهم وتدبير أمرهم، وقد ذكروا أنَّ أبا منصور بن يوسف أرشدهم إليك، فما رأيُكَ؟ وكان البساسيري قد أذكى[٢] عليهم العيون، فشدَّد في طلبهم، وقد عميت عليه أخبارُهم، واستعجبت آثارُهم، فقلت له: واعِدْهم المسجدَ الفلانيَّ حتى أُنفذ زوجتي إليهم. ففعل، وحصلوا في داري، فحملتُ إليهم ثياباً سنيَّةً وكسوةً، وقلتُ: سَلْهم كم كانت مشاهرتُهم على الخليفة؟ فقالوا: كذا وكذا. فأضعفتُ ذلك، وأقاموا عندي ثمانية أشهر على أحسن حال، فلمَّا تواترتِ الأخبار بمجيء السلطان وعسكره[٣] خافوا وراسلوني، وقالوا: لا نُقيمُ في هذا البلد مع دخول العسكر، فإنَّ خوفَنا منهم مثلُ خوفِنا من البساسيري، من أجلِ هذا الصبي، فإنَّ أرسلان خاتون ضرة جدته، وهي كارهة لسلامته، ونريد أن تخرجنا مع ثقة لك بحيث نأمنُ على نفوسنا، وننصرفُ على حسب اختيارنا، فانتدبتُ لهم صاحباً لي ولم أُعلِمْه بهم، بل قلتُ: هؤلاء أهلي، وأُريد أن أُخرجهم خوفاً من البساسيري، واشتريتُ لهم الجمال، وجهَّزتُهم إلى قرية من قرى سِنْجار تُعرف بالحِيال، وجاء الغُزُّ فدخلوا بغداد، فخرجتُ نحوهم، وحملتُهم إلى حَرَّان، فلمَّا دخل الخليفةُ بغداد حملتُهم إليه[٤].

قال المصنف رحمه الله: وقفتُ على تاريخ ميَّافارقين، وفيه أن أبا نصر بن مروان الكردي ـ صاحب ديار بكر ـ أنزلهم في قصر بآمد، وأجرى عليهم الجرايات، فقال له القاضي أبو علي بن البغل: أُحِبُّ أن تكون ضيافتُهم عليَّ. فقال مروان: كيف يُسمَعُ عني أنَّ ابنَ الخليفة أقام عندي ولم يكن في ضيافتي. فقال: يسمع الناسُ أنَّ بعضَ خدمك أقام بابن الخليفة فلم يُجِبْه.

---

(١) المُكْدي من الرجال: السائل المُلحُّ في المسألة وحرفته الكُدْيَة. تاج العروس (كدا).

(٢) أذكى: أرسل. المعجم الوسيط (ذكي).

(٣) في (ف): بمجيء عسكر السلطان.

(٤) تنظر هذه الأخبار بنحوها في المنتظم ١٦/ ٦٠-٦١.

وفي رجب وُقِفَتْ دارُ الكتب، فسارع ابنُ أبي عوف من غربي بغداد ونقل إليها ألف كتاب، وذلك لأن الدار التي وقفها سابور الوزير ـ بين السُّورَين في الكَرْخ، سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة ـ احترقَتْ لمَّا دخل طُغْرُلْبَك بغداد، وتمزَّقت الكتب، ونُهِبَ الباقي، وحُمِلَ [أكثرها إلى خراسان، ودَرَس العلم، والمكان الذي كانت فيه][1] من حساب الكَرْخ ورواصعه[2].

وفي رجب ملَكَ محمود بن شبل الدولة بن الزَّوقلية ومنيعٌ ابنُ عمه حلبَ والقلعة، وأخرجا منها أبا علي بن ملهم النائب من قِبَل مصر، بعد أن أذمَّا له، وسببُه: لمَّا حصل عطية بن الزَّوقلية بالرحبة، ورأى أهلها قد أنفذوا إلى بغداد بالطاعة، وأقاموا الخطبة والسلطان، خاف من سرية من العساكر السلطانية، فأحدر صاحباً له إلى بغداد في الطاعة والخدمة، فطلب من الخليفة خِلَعاً ولقباً ليخطب له، وعرف أبو علي بن ملهم بذلك، فكتب إلى مصر، فانزعجوا وعملوا على من يقصد الرحبة ويُخرِجُ منها عطية، وكاتبوا إلى الرحبة، وأنفذوا جلال الدولة ـ مُقدَّم كتابه ـ والقاضي العلوي الزيدي ـ قاضي دمشق ـ إلى حلب شداً من ابن ملهم، وعرفت بنو كلاب بمسير بني كلب إلى أرضهم، فخافوا وقصدوا ابن ملهم وجلال الدولة والقاضي، وقالوا: قد بلَغَنا مجيءُ بني كلاب إلى ها هنا لأجل عطية والرحبة، ونحن نعطيكم رهائن، ونكفيكم أمرَ عطية الرحبة، من غير أن تطأ بنو كلاب ديارنا، ومتى فعلتم ذلك أخرجتمونا إلى العصيان. فقالوا: هذا أمر جاء من مصر، ليس لنا فيه رأيٌ. فأيسوا منهم، وكتبوا إلى عطية بما جرى، واستدعوه ليؤمروه ويدفعوا بني كلب، فأصعد من الرحبة إليهم، واستحلفهم وتوثَّق منهم، واتفق أن خاتون يئست وقطعت من بني عقيل وبني سنان، وخَفاجةُ كانوا نازلين على بني كلاب، فساروا بأجمعهم مع عطية إلى حمص وحماة، فأخذوهما وهما من أعمال بني كلب، وأخربوا سور حمص، ونهبوا الغلَّات، وجاء أبو تغلب بن حمدان في جماعةٍ من أصحابه وبني كلب إلى فامية، ووصلتِ الكتب إلى عطية من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

(٢) ينظر المنتظم ١٦/ ٦١ـ٦٢ .

مصر باستعطافه، فرجع عن ذلك، وانصلحت نيَّتُه، وقد كانت علوية بنت وثاب أم محمود بن شبل الدولة ـ عند هذا الاختلاط ـ قد أفسدت جماعةً من أحداث حلب واستمالَتْهم، وكتبت إلى محمود ولدها ومنيعٍ ابن عمِّه ـ وكانا بالقرب من البلد ـ فقَرُبا، وفتح الأحداثُ الأبوابَ لهما، ونادَوا بشعارهما، فدخلا في جماعة من بني كلاب، وظفروا بجلال الدولة الكناني والعلوي القاضي قبل أن يصعدوا إلى القلعة، وقتلوا جماعةً من المغاربة والمصريين، وصعد قومٌ من الغلمان البغدادية إلى القلعة، وحصلوا مع المغاربة ومع أبي علي بن ملهم، وصارت الحربُ بينهم، ووثق محمود ومنيع بمن معهما من الأحداث واطَّرحا بني كلاب ولم يوصلا إليهم ما كان وعداهم به، فانحرفوا وقصدوا أبا تَغْلِب بن حمدان، وحصلوا معه، وثقُلَ على عطية تملُّكُها البلد، فانصلح لصاحب مصر، وحلف له، فسار أبو تَغْلِب بن حمدان حينئذ إلى حلب، وعرف محمودٌ ووالدتُه ومنيعٌ ذلك، فلم يقدروا على ذلك، فخرجوا ومعهم الكناني والقاضي مقيَّدَين، ونزل ابن ملهم من القلعة، وفتح الباب لأبي تَغْلِب، فدخل فقتل الأحداث وصلبهم، وأحرق أكثر البلد، وجاء عطية إلى أبي تَغْلِب فقيَّده بقيد من ذهب كان حُمِلَ معه من مصر، ثم فكَّ عنه، وأُفيضت عليه الخِلَعُ، وأُعطي مالاً كان ضُمِنَ له، وعزم أبو تَغْلِب على الخروج إلى بني كلاب الذين نزل عليهم محمودٌ ومنيع، فأُشير عليه أن لا يفعل، فلم يقبَلْ، وانعزل عطية عنهم بأهله، ومعه قطعةٌ من الغلمان البغدادية والنفيس[1] بن البساسيري الأصغر، وقد كان سلم من الحرب التي قُتِلَ أبوه فيها، ولمَّا أصعد إلى حلب أكثر ابنُ حمدان القتل والنهب، وقرَّر عليهم مئتي ألف دينار التي أنفقها على العساكر المجردة، فرضُوا بذلك، ثم سار في عشرة آلاف من المغاربة والكلبيين وخفاجة وبني عقيل وبني شيبان إلى بني كلاب ليثبتهم، فثبتوا له، وقاتلوه يومهم، فلمَّا كان من الغد نُصروا عليه، فهزموه وأسروه وأخاه، ووقع القتلُ في أصحابه بقيةَ يومه وليلتهم، فكان القتلى من المغاربةِ وغيرِهم سبعةَ آلاف رجل وخمس مئة، وقُتِلَ نبهان القرمطي أمير بني كلب، وأفلتَ ابنُ البساسيري، وأُخِذَ منه جميعُ ما كان معه من مال أبيه، ورجع محمودٌ ومنيعٌ وعلوية إلى حلب، وأمنوا ابنَ ملهم، وحلفوا له، فنزل

(١) لم يتبين لي اسمه، ولكن هكذا جاء رسمه في الأصلين (خ) و(ف).

وسلَّم إليهم القلعة بما فيها، وسار إلى فامية، واعتقلوا الكناني والقاضي في القلعة، وعاد عطية وابن البساسيري إلى الرحبة، وبلغ صاحبَ مصر، فأعاد أبا علوان وثِمال ابن صالح بن الزَّوقلية إلى إمارة حلب، وأنفذه إليها بعدما عزله [عنها][1]، فدخلها وفكَّ ابنَ حمدان وأخاه من الأسر، وأفرج عن جلال الدولة والقاضي، وأطاعته العشيرة واحتشمَته، وكان محمود لمَّا صعد القلعة أنشده ابن أبي حصين: [من الطويل]

صبرْتَ على الأهوالِ صَبْرَ ابنِ حُرَّةٍ ... فأعطاكَ حُسنُ الصبرِ حُسنَ العواقبِ
وأتعبتَ نفساً يا ابن نصرٍ نفيسةً ... إلى أن أتاك النصرُ من كلِّ جانبِ
وأنتَ امرؤٌ تبني العلا غيرَ عاجزٍ ... وتسعى إلى طَرْقِ الرَّدى غير هائبِ
تطوَّلَ محمود بنُ نصرٍ وفِعْلَهُ ... كلابٌ كما طالَتْ تميمٌ بحاجبِ

وفي شعبان انحرف السلطان عن حصار توريز، وكان مقيماً عليها من حين خرج من بغداد، وخربت تلك الأماكن من النهب، ومات أهلُها جوعاً، وتقدم فنزل بسامراء، وأمر العساكر بالمقام بها إلى حين يعبر الشتاء والثلج ويُعادوا إلى حصار توريز، فتعذَّرتْ على العساكر الأقواتُ والعلوفاتُ، فاجتمع الأعيانُ، ونزلوا على فرسخ من العسكر، وراسلوه بأنك قد فعلتَ ما فيه هلاكُنا وبلوغُ غرض العدو منا، فإن هذا المكان لا يحملنا، ولا نجد ما نأكل نحن وخيلُنا، ومتى أقمنا سقط الثلج علينا ومِتْنا، والرأيُ أن ننصرف إلى الريِّ ونشتوا بها، وإذا جاء النَّوروز سِرْنا حيث نشاء، فلمَّا سمع ذلك صَعُبَ عليه وتهدَّدهم، فنفروا وقالوا: ما نخرجُ عليك ولا نُغضِبُك، ولكن نمضي إلى بغداد ونستولي على أموالها، ونتفرَّق في أعمالها، ونستريحُ من هذه الأسفار المتَّصلة والتعب العظيم، ونَدَعُكَ ورأيَكَ، ومتى منعْتَنا حاربناك، وكان الخليفةُ معنا. فلمَّا سمع ذلك صَعُبَ عليه وتهدَّدهم، وبان له منهم هذه المكاشفة، أعاد الجواب بأنكم أولادي، وما قلتُ ما قلتُ إلا بحكم الدالة، وإذا اخترتم الري فبعد خمسة أيام أتوجَّه إليها، وتقدَّم بضرب السرادق إلى ناحية الري، وحلف لهم وحلفوا له، ورتب أنوشروان وابنابجيل في تلك الأعمال، وسار نحو الري، وكان الذي أصلح هذه الأحوال خُمارتِكين الطُّغْرُلْبي، وهو المهتمُّ بوضع العساكر على السلطان، فأظهر له

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

السلطان جميلاً، وخلع عليه، واستخلفه عميدُ الملك، وكان بينهما عداوةٌ متقدمة، وكان السلطان قد قلَّد أمر بغداد إلى أبي الفتح المظفَّر بن الحسين العميد، فشرع في عمارتها من الجانبين، وأحسن إلى الناس، وأقام الهيبة، ونهى أهلَ الكَرْخ عن العبور إلى الحريم والجانب الشرقي، فما كان إلَّا القليل حتى عمرت الأسواق، وكان قد ضمن بغداد في هذه السنة بمئة ألف دينار، وفيما بعدها بثلاث مئة ألف.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن عبد الله بن فَضالة

أبو الفتح، الموازيني، الحلبي، الشاعر، ويُعرف بالماهر، [قال ابن عساكر: وقد روى عنه أبو عبد الله الصوري شيخ الخطيب وغيره، وقال ابن الأكفاني: كان من أهل حلب فسكن دمشق، ومات بها في صفر، ودُفِنَ في داره، ثم نُقِلَ إلى الباب الصغير، وكان ينظم الدرة ورأسَ الحرة، ويقول الجيدَ والرديء [ولا يُفرِّق بينهما]، ومن شعره: [من الكامل]

من صحَّ قبلَكَ في الهوى ميثاقُهُ ... حتى يصِحَّ ومَنْ وفى حتى تفي
عرفَ الهوى في الخلقِ مُذْ خُلِقَ الهوى[1] ... بمذلَّةِ الأقوى وعِزِّ الأضعفِ
يا مَنْ توقَّدُ في الحشا بصدودِهِ ... نارٌ بغيرِ وصالِهِ لا تنطفي
وظننتُ جسمي أنْ سيخفى بالضَّنا ... عن عاذِليَّ فقد ضَنيتُ وما خفي

وقال أيضاً: [من الوافر]

أرى نفسي تجِدُّ بها الظُّنونُ ... بأنَّ البَيْنَ بعدَ غدٍ يكونُ
وما تركَ الفراقُ عليَّ دمعاً ... يسِحُّ ولا تسِحُّ به الجفونُ
وفرضُ البينِ[2] منهزمٌ فقُلْ لي ... عليكَ بأيِّ دمعٍ أستعينُ
كأنِّي من حديثِ النفسِ عندي ... جهينةُ عندها الخبرُ اليقينُ

وقال أيضاً: [من المنسرح]

---

(١) هكذا في الأصلين (خ) و(ف)، وفي فوات الوفيات ١/ ١٥٢، والوافي بالوفيات ٧/ ١٧٤: الورى.

(٢) في المصدرين السابقين: وجيش الصبر.

الـشِّـعـرُ كـالـبـحـرِ فـي تـلاطُـمِـهِ مـا بـيـنَ مـلـفـوظِـهِ وسـائـغِـهِ
فـمـنـهُ كـالـمِـسْـكِ فـي لـطـائـمِـهِ ومـنـهُ كـالـمَـسْـكِ[١] فـي مـدابـغِـهِ

الترنجان

زوجة السلطان طُغْرُلْبَك، أمّ أنوشروان، زوجة خُوارَزْم شاه، كانت أم ولد، وفيها دينٌ وافر، ولها معروف ظاهر، وكانت تتصدق كثيراً، وتفعل أفعال البرِّ، صاحبةَ رأيٍ وحزمٍ [وعزم][٢]، وكان السلطانُ سامعاً لها مطيعاً، والأمور مردودةٌ إلى عقلها ودينها، وكانت وفاتُها بجُرْجان بعلة الاستسقاء، فحزن السلطان عليها حزناً شديداً، وحمل تابوتها معه إلى الري، فدفنها بها، ولمَّا احتضرت قالت للسلطان: اجتهِدْ في الوصلة بابنة الخليفة لتنال شرف الدنيا والآخرة، وأوصَتْ بجميع مالها بأن يكون لبنت القائم.

[وفيها تُوفِّي]

الحسن بن أبي الفضل[٣]

أبو محمد، النَّسَوي، صاحب شرطة بغداد، [و] كان صارماً فاتكاً، يقتل الناس، ويأخذ أموالهم، وشهد عليه الشهود عند القاضي أبي الطيب، فحكم بقتله، فصانع بمال فسَلِم، وعُزِلَ من الشرطة، ثم بذل مالاً فرُدَّ، فاتَّفق أهل [باب][٤] البصرة والكَرْخ ومَحالِّ السنة والشيعة أنهم متى ظفروا به قتلوه [واصطلحوا على ذلك، وقد ذكرناه فيما تقدم].

وكانت فيه فطنة، [وله واقعاتٌ عجيبة، منها أنه] سمع في ليالي الشتاء صوتَ برادة تحطُّ، فأمر بكبس الدار، فوجدوا رجلاً مع امرأة، فقيل له: من أين علمت؟ فقال: برادة لا تكون في الشتاء، فعلمتُ أنها إشارة بين اثنين.

[ومنها أنه] أُتيَ بجماعة من المُتَّهمين فأقامهم بين يديه، واستدعى بكوز من ماء، فشرب، ثم رمى بالكوز من يده، فانزعجوا إلا واحداً منهم، فإنه ما تغيَّر، فقال:

---

(١) المَسْك: الجلد. المعجم الوسيط (مسك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ف)، والنجوم الزاهرة ٥/ ٦٧ .

(٣) المنتظم ١٦/ ٦٣ .

(٤) ما بين حاصرتين من (ف) و(م).

العملة مع هذا. فقرَّروه فاعترف، فقيل له: من أين علمت؟ فقال: اللصُّ يكون قويَّ القلب. [ومن هذا شيء كثير]

و[كان قد] سمع الحديث [من ابن شاهين وغيره]، وكان أصحاب الحديث إذا جاؤوا للسماع عليه يقول: ويحكم، هذا سمعناه على أن يكون فينا خير.

أم القائم بأمر الله[(١)]

واسمها قطر الندى، وقيل: بدر الدجى، وقيل: علم، وهي التي حبسها البساسيري، ولمَّا انحدرت إلى واسط وأخذها معه فكانت في أسره، فلما وصل السلطان إلى واسط حُمِلَتْ إليه، كانت في الوقعة مع البساسيري، فبعث بها إلى الخليفة، وكانت قد أسنَّت وجاوزت التسعين سنة، وكانت أرمينيةً، وتوفيت يوم السبت الحادي والعشرين من رجب، وصلَّى عليها القائم في صحن السلام المغرب بمن حضر للخدمة، وكبَّر عليها أربعاً والتابوت بين يديه، ثم حُمِل إلى الرُّصافة ودُفِنت عند القادر بالله، وجلس للعزاء عليها ببيت النُّوبة.

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن عبيد الله بن أحمد[(٢)]

أبو الفضل، المالكي، المعروف بابن عُمْروس، ولد سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة [واشتغل بالفقه على مذهب مالك وبرع فيه حتى] انتهت إليه رئاسة المالكية ببغداد، وكان من القُرَّاء المجوِّدين، وتُوفِّي في المُحرَّم [سمع أبا القاسم بن حَبابة والمخلِّص ابن شاهين وغيرهم، وقال الخطيب: كتبتُ عنه] وكان ثقةً ديِّناً، وأخرج له الخطيب حديثاً عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عيَّر أخاه بذنبٍ لم يمُتْ حتى يعمَلَه»[(٣)].

---

(١) المنتظم ١٦/ ٦٣ـ٦٤.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٣٩، وفي المنتظم ١٦/ ٦٤.

(٣) في (خ) و(ف): يفعله، والمثبت من (م) و(م١)، وهو الموافق لما في تاريخ بغداد، ومصادر التخريج. والحديث أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) وحسنه! لكن في إسناده انقطاع، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو متروك.

السنة الثالثة والخمسون والأربع مئة

فيها في يوم الجمعة غُرَّة المُحرَّم تُوفِّي السلطان ابن أبي الأغر دُبيس بن مَزْيَد، وكان أبوه قد أهَّله أن يكون موضعه، وكان المميز لذلك من بين إخوته، وكان الخليفة في السنة الماضية قد طلب ردَّ خاتون زوجته إلى دار الخليفة، وكان قريش قد بعث بها إلى السلطان بالري، فتأخَّرت عن الوصول، حتى ورد في هذا الشهر أبو يحيى سعد بن صاعد قاضي الري، مع صلف قهرمانة الخليفة [وموفق خادم الخليفة الخاص، وكان الخليفة] قد بعث بهما ليحملا إليه أرسلان خاتون زوجته، فعادا بغير شيء، وكان مع القاضي رسالةٌ من السلطان إلى الخليفة تتضمن خطبة السيدة بنت الخليفة، فثَقُل ذلك عليه. وقيل: إن صلفاً عرضت للسلطان بذلك وأطمعته فيه، وتكلَّم قاضي الري في بيت النُّوبة كلاماً يشبه التهدُّد، فأجاب الخليفة إلى ذلك إجابةً خلطها بالاقتراحات التي ظنَّ أنَّها تبطل الأمر، وقال: ما جَرَتْ بهذا عادة لأحد من الخلفاء، وركنُ الدين عضدُ الدولة وركنُها، والمحامي عنها، والماحي لكلِّ أذى منها، وما هذا ممَّا يجوز؛ سومُنا إيَّاه، ومطالبتُنا به. وتردَّد في ذلك ما انتهى إلى إجابته، ثم اقترح عن ذلك تسليمَ واسط وما كان لخاتون زوجة السلطان من الأملاك والرسوم في سائر الأصقاع، وثلاث مئة ألف دينار قهراً، وأن يكون مقام السلطان ببغداد ولا يرحل عنها. فقال العميد أبو الفتح ـ وكان المُخاطَب مع ابن صاعد يُحكم نظره ببغداد ـ أمَّا الملتَمَس من المهر وغيرِه فمُجابٌ إليه من جهتي عن السلطان، ولو أنه أضعافُه، فإن أمضيتم الأمر، وعقدتُم العقد، سَلِمَ جميعُه، وأما مجيء السلطان إلى بغداد ومقامه فيها فهذا أمر لا بُدَّ من عرضه عليه. وندب في جواب هذه الرسالة للخروج إلى الري أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي القاضي، وأصحبه بذكره، ورسم له الخطاب بالاستعفاء من ذلك، فإن تمَّ فهو المراد، وإلا سلَّم ليذكره إليه على مضض وكُره، ورسم[1] له أن يستعين بعميد الملك على ذلك، وأنفذ معه الكامل أبا الفوارس طراد بن أبي تمام نقيب

(١) في (ف): وسلم.

الهاشميين وأبا نصر غانم صاحب قريش بن بدران في رسالة من الخليفة في العفو عن قريش، وإظهار رضا السلطان عنه، والتقدُّم بردِّ أعماله المأخوذة عنه، وكان قد بذل للخليفة عشرة آلاف دينار، وقدَّم منها ثلاثة آلاف، وحلف له الخليفة على صفاء النية والتجاوز عما مضى والعفو عنه، وبعث الخليفة للسلطان خلعاً وهدايا[١].

وفي ربيع الأول قَبِلَ قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني شهادةَ أبي جعفر بن أبي موسى الهاشمي وأبي يعلى يعقوب بن إبراهيم الحنبلي وأبي الحسن المبارك بن عمر الخرقي[٢].

وفيه ورد الأمير أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست من شيراز للنظر في أمور الخليفة، فاستدعى له، وشرح القصة أن الخليفة لمَّا عاد من الحديثة استَخْدَمَ أبا تراب ابن الأثيري في الإنهاء وحضور المواكب، ولقَّبه حاجبَ الحُجَّاب عِزَّ الأمة، وجلس على باب الغربة، وقد كان خرج مع الخليفة إلى الحديثة وخدمه، وقام بكبير أمره وصغيره، وجميع خدمه وأغراضه، وصلح له، وقيل للخليفة: إن عميد الملك يؤثر هذا المنصب. فكَرِه أن يعلم إيثار عميد الملك له فلا يرشِّحه، فراسله بالجميل، وقال: ما بقي بعد أبي القاسم مَنْ يصلُح لهذا إلا أنت، ويجب أن يُقرَّر مع ركن الدولة[٣] ذلك، فأظهر عميد الملك الامتناع إظهاراً أراد في جوابه إلزاماً، فأمسك الخليفة عن الخطاب، وكان عميد الملك إذا دخل دار الخليفة تجنَّب المكان الذي فيه أبو تراب، وخرج عميد الملك من بغداد وهو غير طيب القلب بهذا السبب، واتفق أن أبا منصور ابن يوسف عاد إلى بغداد من أسر البساسيري، فآذاه[٤] أبو تراب، فاستوحش منه، ثم وقع الخوض فيمن يصلح لخدمة الخليفة، فذكر ابنُ يوسف أبا الفتح بن دارست، وقال: رجل غني، واسع الحال، مأمون الأفعال، وكان على خزائن الملك أبي كاليجار بن بُويه، مع سلامة صدره وثقته. فكتب الخليفةُ إليه يستدعيه [فوصل فاستكتبه

(١) الخبر بمعناه في المنتظم ١٦/ ٦٥ـ٦٦ .

(٢) الخبر في المنتظم ١٦/ ٦٧ .

(٣) في (ف): ركن الدين.

(٤) في (خ): فإذا هو، والمثبت من (ف).

وخلع عليه، وعزَّ على عميد الملك، فكتب إلى الخليفة][1] عن لسان السلطان كراهيته له، ويشير بأن لا يُستخدم، فقال الخليفة: لو ورد هذا الكتاب قبل أن نَسْتَدعيه لكان، أمَّا بعد ما فارق بلدَه وأهلَه وعرف الناس خبرَه فلا يمكن. ولزم أبو تراب دارَه، واستقلَّ ابنُ دارست في الخدمة، وأوصله الخليفة إليه، وكانت خِلعتُه قميصَ قصب، وجُبَّةَ سِقْلاطون[2]، ودُرَّاعةً سوداء، وعِمامةً سوداء مُشبكةً مُذهَبةً بذؤابة، وبغلةً بمركب ذهب، ودَواةً مُحلَّاةً، وسيفاً تحت ركابه، وكتب عهده.

وفيه عَزَلَ السلطانُ أبا الفتح عميد العراق، وولَّى أبا أحمد بن عبد الواحد بن الخضر النهاوندي، ولقَّبه رئيسَ العراقَيْن، وأذِنَ له في القبض على أبي الفتح عميد العراق، وبلَغَه، فالتجأ إلى دار الخليفة، فلم يقدروا عليه.

وفي ربيع الآخر جهَّز السلطانُ العساكر إلى قلعة كُردكوه، وكان بها ابنُ عمه قُتُلْمِش، قد تحصَّن بها، وانضمَّ إليه التركمان والأتراك، فكسرَ عسكرَ السلطان، وأوقع بهم.

وفيه دخل رئيس العراقَيْن بغداد، واجتاز بدار الخليفة، ولم يدخل إليها، ونزل في خيم تحت دار المملكة، ومنع أصحابه من العبور إلى الجانب الغربي، وأذِنَه الناس، ومدَّ يده إلى إقطاع الخليفة وغيره، وصرف أناسٌ من الهاشميين غلامين له، فبعث غلمانه في السفن، فرموا التاج بنُشَّابَتِين، وأخذوا زورق الخليفة فيه شعير، وانزعج الخليفة والناس، وجرت منه أسباب ثقُلَت على الخليفة، ثم عُوتب، فلم يُفِدْ معه عتاب.

وفي ربيع الآخر قَدِمت أرسلان خاتون إلى دار الخلافة ومعها عميد الملك وجماعة من الحُجَّاب، ومعهم المهر والجهاز؛ لتحرير أمر الوصلة ببنت الخليفة.

ذكر القصة:

قد ذكرنا وصية خاتون للسلطان وإرساله لابن صاعد مع الكامل أبي الفوارس التميمي وغانم صاحب قريش وابن المعوج، ورَدَّ بكُتب ابن وثَّاب تتضمن خدمتَه، وأن يقطع خطبة صاحب مصر من حَرَّان والرقة، ويقيم الخطبة للخليفة والسلطان، فلمَّا

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من (ف).

(٢) سِقلاطون: نوع من الحرير المزركش بالذهب، والذي يُنسج منه في بغداد، ذو شهرة عظيمة. تكملة المعاجم لدوزي ٦/ ٩٦ .

وصلنا إلى هَمَذان ـ وكان السلطان بها ـ اجتمعوا به، وأعطوه الكتب، وقدَّم التميمي هدية الخليفة وهي جُبَّةُ ديباج مُذْهبة مفرجة، وفَرَجيةَ نسيج بالذهب، وعمامةً مُشبكةً مُذْهبةً، وطرح الفَرَجية على كتفيه، وقاموا وحضروا من الغد في دار المملكة. وقيل: هذه الجُبَّة الكريمة الملتمَسة جهاز أُعِدَّ لها، وخدمةٌ عُجِّلَ بها، وكان فيها صدر بيت مُوزَر مفروش فيه سِماط ذهب، فيه تماثيل.

قال عميد الملك: يوفي وزنه على أربع مئة ألف مثقال، وبيت مثله من السنجاب، قيل: قيمته مئة ألف دينار، وبيت سِمَّور مثله، وبيت أبو قَلَمُون[1]، وعدة بيوت من ذلك الجنس، وشيئاً كثيراً من الجواهر واليواقيت، وانصرفوا، وبقي أبو محمد التميمي، فإنه خلا بعميد الملك، وفاوضه فيما ورد فيه، وعرض عليه التذكرة بعد المشافهة بالاستعفاء، فقال له: هذه الرسالة والتذكرة لا يَحسُنُ عرضُها، فإن الامتناع لا يَحسُنُ بعد السؤال والضراعة، ولا المطالبة بالبلاد والأموال، بإزاء الرغبة في الافتخار والجمال، ومتى طَرَقَ هذا سمعَ السلطان علم أن الرغبة في الشيء لا فيه، فربما تغيَّرت نيَّتُه، وكان منه ما لا يؤثره، وهو يفعل في جواب الإجابة أكثرَ مما يُطلَبُ منه. فقال له التميمي: الأمر إليك، والتعويل عليك، فافعَلْ ما تراه. والآن له القول، فسكن عميد الملك إلى ذلك، وبنى عليه، وطالع السلطان بأنَّ الإجابة قد حصلت، فسُرَّ بذلك، وجمع الوجوه والأكابر وعرَّفهم، وذكر عميد الملك لهم في هذا فصلاً مضمونه: أن السلطان يذكر نعمة الله عنده، وبلوغَه ما لم يبلغه أحد من قبله، بسبب هذه الوصلة بأمير المؤمنين، فأظهرت الجماعةُ السرورَ، ثم تقدَّم السلطان إلى عميد الملك بالمسير مع خاتون إلى بغداد متولي العقد، وبعث معها فرُّوخاً الخادمَ الخاص، وأصحبها مئةَ ألف دينار من مهر بنت الخليفة، وآلاتِ ذهب وفضة، وقال: إن لم يُنعمِ الخليفةُ ويُجِبْ إلى تسليمها. فأخذ فروخ[2] برسم خدمتها، والقيام على باب حجرتها، وجهَّز معها جماعةً من الأكابر، فأُشير على عميد الملك بأن يأخذ خَطَّ التميمي بذلك، فراسله وقال: السلطانُ شاكرٌ لِما عرفته من خدمتك، وأُريد أن تكتب

(١) أبو قَلَمون: ضرب من ثياب الروم يتلوَّن للعيون ألواناً. مختار الصحاح (قلم).

(٢) في (ف): فأقعد فروخاً.

خطَّك بذلك لنقف عليه، فنتحقَّق خدمتك، ونختصَّ مجازاتك، وأكون أنا على بينةٍ من أمري. فلم يقدم على ذلك، وقال: الذي وردَتْ فيه ما تضمَّنَتْه التذكرة إن لم تقع الإجابة إلى الإعفاء من هذا الأمر الذي لم تَجْرِ به عادة. وكتب خطَّه بهذا، فثَقُل على عميد الملك ما فعله، وقد كان وقع تقصيرٌ في تفقُّده والجماعةَ الذين في صُحبته، وسببُه عميدُ الملك؛ بأن كان متغيِّظاً على الخليفة، وعَلِم أنه لا شيء في يده منه، وأنه لم يتمَّ مُرادُه حيث لم يكتب [خطَّه][1] ليجعله حجة على الخليفة، وخاف في إتمام العزم في المضيِّ إلى بغداد، فيكون بصورة عاجز، ولم يتمَّ الأمر على يده، فدافع بالمسير، وأمره السلطان فقال: قد كتبتُ إلى هزارسب حتى يحضر مئة ألف دينار، ولا يُخرج من الخزانة شيئاً [وإنَّا على انتظاره. فقال له السلطان: لا تفعَلْ، وخذ من الخزانة]، فإنا يقبُح بنا أن لا يكون في خزانتنا ما نصرفه في هذا الأمر. فلمَّا بطل ذلك وضع الأمراء والحُجَّاب الذين أمرهم بالمسير إلى بغداد، فراسل السلطان وقال: هوذا يُنفِذُنا إلى الخليفة في هذه الوصلة، فما الثقة بأنه يفعلها ويُسلِّم ابنته إلينا، وربما لم يفعل فَعُدْنا وما قضينا حاجتَه، وصار من ذلك قباحةً وسُبَّةً. فقال: إنْ فعلَ فذاك، وإن لم يفعل فعودوا. وقد كان قال في أثناء ذلك: يجب أن تضرب عن هذا الأمر صفحاً، فإنما أردنا أن نعلم رأيَ الخليفة فينا، وموضِعَنا عنده، وتُقدِّمَ بتسريح الرسل. ثم عدل عن ذلك، ورجع فتمَّم العزم الأول، وأطلق للرسل ما لم يكن على قدر أملهم، ولا افتقدهم ولا رآهم إلا يوماً واحداً وهو الأول، وأما قريش فذكره عند الملك بالقبيح، ونسبه إلى الغدر الصريح، ونهبِ دار الخلافة، ولا بُدَّ من مقابلته على فعلِه وطردِه عن أعماله، ثم جاءه خبرُ وفاته في أثناء ذلك، وأما ابنُ وثَّاب فأجابه إلى ما التمسه، وسار عميد الملك والأمراء والحُجَّاب وأرسلان خاتون والقضاة والشهود فوصلوا بغداد يوم الخميس، وخرج أمين الدولة ابن دارست إلى النهروان، والتقى عميدَ الملك وخدَمَه، وجاء عميد الملك فجلس على باب الري إلى أن جاءت خاتون، ودخل معها دارها، وانصرف إلى دار المملكة، فنزل بها، ولم يَعْلَم بالديوان، وأنفذ من وقته إلى العميد أبي الفتح وهو بدار

(١) ما بين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ف).

الخليفة، وبعث إليه بخاتمه، فجاء فعاتبه وقال: أكلتَ ضمان بغداد سنة ولم توفِ ديناراً وتعتصم بدار الخليفة؟ ثم وكَّلَ به، فشفع الخليفةُ فيه وخاتون، فأزال عنه التوكيل أياماً، ثم قبض عليه وقيَّده ثم ضربه، وبقي في الاعتقال إلى خدمةٍ بألف دينار، وضمِنَه سُرْخاب، وحمله إلى باب السلطان، فلمَّا كان يوم الاثنين لأربع بَقِين من جمادى الأولى حضر إلى بيت النُّوبة وفيه أبو الفتح بن دارست، وأنهى إلى الخليفة حضورَه وحضورَ الجماعة الذين معه، فقيل: النهار قد انصرف، والوقت قد أزف، ويكون يوماً آخر. فنهض عميد الملك ولم يعُدْ، وظهر من ابن دارست في حقه تقصيرٌ، وبعث عميدُ الملك إلى أرسلان خاتون في خطاب الخليفة في معنى الوصلة، فخاطَبتْه، وبان له أنَّ الشروط التي شرطها مع التميمي، والاقتراحات لم يكن فيها جوابٌ مُحرَّر، وجرى كلام طويلٌ حاصلُه أنَّ الخليفة قال: إن أُعفيتَ من هذا الأمر، وإلَّا خرجتَ من البلد. وأطلق عميدُ الملك لسانَه، وأرعدَ وأبرق، فقال: قد كان يجب أن يقع الامتناع الكُلِّي من الأول، ولا يكون اقتراح، وهذا الامتناع سعى في دمي مع السلطان. ثم أظهر عميدُ الملك الغضبَ، وبعثَ خيمةً ضربها بالنهروان، وعزم على الخروج، فسأله أبو منصور بن يوسف وقاضي القضاة التوقُّفَ ويُكاتبا الخليفة، وخوَّفاه وأرهباه، وساق الأمرَ إلى العقد على أن يشهد عميد الملك وقاضي قضاة الري على نفوسهما أن لا يطلُبا الجهة إلى أربع سنين، وأفتى الحنفيُّون بأن العقد صحيحٌ والشرط باطل، وأفتى الشافعيون بأن العقد باطلٌ إذا دخله شرط، فرجع عن الإجابة.

ووصل عميد الملك إلى الخليفة، فوعظه ومنعه ممَّا قد لجَّ فيه، وقال: أنا أردُّ هذا الأمر إلى رأيك وديانتك، وقد علمتَ ما فيه من الوهم على بني العباس، ولم تجْرِ لهم به عادة، واتفق أن كتاب السلطان وصل إلى عميد الملك يأمره بالرفق بالخليفة، وأن لا يكون خطابُه إلا على الوجه الجميل، بسبب أنَّ كتاباً كُتب من الديوان إلى خُمارتِكين الطُّغْرُلْبي يشكو ـ فيما يبدو ـ من عميد الملك، واطِّلاع السلطان عليه، وكتب الطُّغْرُلْبي إلى عميد الملك أنَّ السلطان غيرُ مؤثرٍ لشيء مما جرى، ولا يلزم الخليفةَ هذا الحال، فسكن الخليفةُ واطمأنَّ، وكتب عميد الملك إلى السلطان يستأذنه فيما يفعل، وأقام يرعد ويبرق، والخليفةُ يحتمله، واجتاز يوماً ومعه ابن دارست على مسجد وعلى بابه

مكتوب: معاوية خال علي، فأنكر ذلك، وأمر بعضَ الغلمان بمَحْوِه، وقال: أما تستحيون؟ تكتبون على مساجدكم هذا؟! ونال من معاوية وبني أمية، وعمل له ابن دارست دعوةً في الديوان، فشرع يأكل وغلمانه يتصافعون بمخادِّ الديوان حتى تقطَّعت.

وحضر الديوان يوماً وعليه ثيابٌ بيض، وتحته بغلة بيضاء، فعُوتب، فقال: هذا هو السنة. وكان آخرُ الأمر أن الخليفة جلس في جمادى الآخرة، وحضر عميد الملك والقضاة وغيرهم، فشرع عميد الملك يستطعم الخليفة الكلام، ويقول: أسأل مولانا أمير المؤمنين الدخولَ بذِكْرِ ما شَرُفَ به ركن الدين الخادم الناصح العبد المخلص فيما رغب عنه[1]، وسمَتْ نفسه إليه؛ ليسمع الجماعة. فقال: نحن بنو العباس، خير الناس، فينا الإمامة والزعامة إلى يوم القيامة، من تمسَّك بنا أرشد واهتدى، ومن ناوأنا ضلَّ وغوى. وقد سطر في هذا المعنى ما فيه كفاية، وأسبلت الستارة، وانصرف عميد الملك مُغضَباً، وسار عشية الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة طالباً هَمَذان، ومعه المال والجواهر، وبقي الناس وَجِلين خائفين.

قال محمد بن الصابئ: وقفتُ على ثَبْتِ ما حُمل إلى بغداد، وهو مئة ألف دينار، وألف ثوب من أجناس مختلفة، وألفان ومئتان وخمسون قطعة جوهر، ومئة وعشرون لؤلؤة، وزْنُ كلٍّ واحدة من مثقال إلى ثلاثة، ومن الياقوت الأحمر والبلخش ست مئة قطعة وأربعين قطعة، ومن الفيروزج ثمان مئة وخمسون قطعة، ومن الزُّمرُّد القصب الكبار ثمانية وعشرون قطعة، ومن المينا اثنتا عشرة قطعة، ومن الحُليِّ أربعة عشر قطعة، منها تاج مُرصَّع، وأسوِرةٌ وحلق وخواتيم وفصوص ياقوت وخلاخلة مُرصَّعة وسروج ومراكب وأواني وأخاوين وخوانجات وزبادي ذهب، كلُّها مرصَّعة، وطسوتٌ وأباريق ونحوها، ومن الفُرش واللُّحف والمخادِّ والزلاول الروميات والطنافس الإبريسم وما أشبهها، ومن الجواري خمس وثلاثون جارية، كلُّ جارية على فرس بدَسْت ثياب وأطواق الذهب، وعشرون وصيفة، وثمانون من الخيل والبغال، ومئة

(١) في (خ): فيما يرغب، والمثبت من (ف).

حمارة، ومن الخِيم والخَرْكاوات شيء كثير، وكلُّ هذا جهاز خاتون زوجة السلطان ما زاد فيه السلطان إلا مئة ألف دينار.

و[فيها] كَسفت الشمس في هذا الوقت على ساعتين من يوم الأربعاء جميعها، وظهرت الكواكب بأسرها بالنهار، وسقطت الطيور من طيرانها، وكان المنجمون قد حكموا أنه يبقى سدسُها، فلم يبقَ منها شيء، وكان انجلاؤها على أربع ساعات وكسر، ولم يكن الكسوف في غير بغداد وأقطارها(١).

وفيه ضمن ابنُ فضلان ضياع الخليفة بثمانين ألف دينار، وكان ظالماً، فجاء أهل الضياع يتظلمون، ومنعوا الخطيب من الخطبة وشعثوا(٢) واستغاثوا، فلم يُجابوا بشيء، وثار العوام على ابن فضلان، وأرادوا قتله، فانهزم، فحمله الخدم إلى باب المراتب، [ونظم القاضي في القائم شعراً يُذكر في ترجمته، وأوله: ولَّيتَ أمرَ المسلمين عدوَّهم].

وفي هذا الشهر برز السلطان من باب هَمَذان إلى الري، وأنفذ خُمارتِكين الطُّغْرُلْبي على مقدمته إلى الري، وحفظها من ابن عمه قُتُلْمِش، وعزم على المسير إليه بنفسه يحاصره في كُردكوه ونواحيها.

وفي رجب ورد رسول عميد الملك إلى أبي نصر يذكر أن كتاب السلطان ورد عليه أن الخليفة إذا لم يُجِبْ إلى الوصلة التي سألناها فطالِبْه بتسليم أرسلان خاتون إليك، ورُدَّها إليَّ لأسير بنفسي إلى قتال قُتُلْمِش، وبعد انفصالي عنه أسيرُ بنفسي وأتولَّى الخطاب في هذا الباب، وأمر بترك المال والجهاز ببغداد، وأنه أراد العَوْدَ من الطريق، فخاف أن لا ينضبط له العسكر إذا عاد إلى بغداد للنُّفْرة الواقعة بين الخليفة والسلطان، ويقول: وقد أعدتُ هذا الرسول لنقل خاتون إلى دار المملكة إلى حين اجتماعي بالسلطان وإصلاح هذه القضية، وكاتب أرسلان خاتون بمثل ذلك، فازداد الانزعاجُ، ودافع الخليفةُ عن الجواب، وشرع رئيس العراقَين في خرق الهيبة والحشمة، وهجم

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٦٨-٦٩.

(٢) في (م١): وشفعوا. ولعلها: وشغبوا، من الشغب.

دار الخليفة مراراً، وأخذ من التجأ إليها، وقبض على ابن مهدويه مُقدَّم الأنبار الذي بعثه الخليفة، والعمامة واللحاف من تحت تاج الخليفة، والخليفة يشاهده، فاستغاث بالخدم الذين كانوا على الرَّوشن، فلم يُغنوا عنه، وعاقبه وأخذ خطَّه بمال، فأنفذ الخليفة منصور بن يوسف إليه، واستعظم ما جرى، ولطف به، ورفق حتى خلصه من يده، وأدخل يده في الإقطاعات للخليفة والحاشية والخدم، وطالبهم بما أخذ منهم، فجاء السوادية إلى تحت التاج، واستغاثوا وقالوا: إمَّا أن تدفعَ عنا المطالبة أو ترُدَّ ما أخذتَ.

وسار[1] رئيس العراقَين بالناس السيرة الجميلة، وجلس للمظالم بنفسه، وأباد المفسدين، واطَّرح كلَّ لذة وراحة، حتى أمنت الطرق في البلد وجميع السواد، وصار الرجال والنساء يمشون في الليل والنهار كيف ما شاؤوا، وكفَّ[2] أذى العجم عن الناس، وأقام الطرق للخُفراء، فدرَّت القوافل[3]، وكثُرت واتسعت الأرزاق، وماتت بعض المغنيات فحُمِلَتْ تركتُها إلى داره، فقال: ما هذه؟ فأخبروه، فقال: ردُّوها على أهلها. ونادى أن السلطان قد ردَّ المواريث الحشرية إلى ذوي الأرحام، واتفق أنه مات إنسان وله بنت وخلف ثلاثة آلاف دينار، فقيل له: إن السلطان يستحقُّ النصف. فقال: بالأمس نادينا بأمر، واليوم ننقضُه، ردُّوا عليها مال أبيها. واتَّفق في هذا اليوم أنَّ امرأةً ماتت بالحريم الخليفي، وخلفت بنتاً وخزانةً فارغةً، فاعترضها ابن العطار الناظر في المواريث من قِبل ديوان الخليفة، فباع الخزانة بدينار ونصف، فأعطى البنت خمس عشرة قيراطاً، وأخذ الباقي، فقال الناس: ياللهِ العجب من التفاوت بين الفعلين. وأرَّخوا ذلك، وضُرب الدراهم، ورُفع التعاملُ بالقراضة، وكان ذلك قد أعيى الوزير قبلَه ولم يراقب خليلاً في حقٍّ يتوجَّه عليه، ولم يُغْضِ عن صديق في رخصة تقع منه، ورفع عدة مكوس، فاتصلت الألسن بالدعاء له، وكانت سيرته وسياسته شبيهةً بسيرة

---

(١) قبلها في (م) و(م١) زيادة: وفيها توفي رئيس العراقيين أبو أحمد النهاوندي.

(٢) في (م) و(م١): وأوكف.

(٣) في (م) و(م١): وأقام الخفراء بدرب القوافل.

عميد الجيوش، ومخالفةً لما عهد وعرف، وعمرت بغداد من الجانبين، وكان ميله إلى عمارة الجانب الغربي أكثرَ؛ لخرابه، وكانت أيامُه نعمةً من الله؛ لأنه ورد بعد الحرب والفتن والخوف والحريق والنهب.

وقد حكى[(١)] محمد بن هلال [الصابىء في «تاريخه» قضايا عجيبة، منها أنه قال]: حضرتُ يوماً عنده وهو على رَوْشن داره في قصر عيسى ينظر إلى دجلة، ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله [العلي العظيم]. فقلت: مالَكَ؟ فقال: تعالَ وانظُرْ. فجئتُ، فإذا المقتولُ تحت داره غريقٌ يدور ولا يبرح. فقال: هذا يستغيث بي على من قتله، ولا أدري ما أصنع في أمره. فقلت: سعادتُكَ زائدةٌ، ونيَّتُكَ جميلةٌ، وطويَّتُكَ سليمةٌ، وما أظنُّ الأمر يخفى عليك. فتقدم بإخراج المقتول وتجهيزه ودفنه، وانصرفتُ، فلمَّا كان بعد أيام حضرتُ عنده زائراً على عادتي، فقال لي: وجدتُ قاتله. قلتُ: وأين هو؟ قال: هم ثلاثة في الاعتقال. فأحضرهم وهم أكراد، فاستنطقهم، فأقرُّوا بقتله، فقال: إنما أخَّرتُ قتلهم حتى تسمع إقرارهم، ثم أمر بقتلهم فقُتِلوا، فقلت: كيف وقعوا لك وهذا أمر لا يمكن البحث عنه ولا الاطِّلاع عليه؟ قال: بعثتُ إلى جميع النواحي العليا [إلى تكريت] أسأل، فلم أقِفْ له على خبر، فأحضرتُ أهلَه، وقلت لهم: حدِّثوني عنه. قالوا: خرج في اليوم الفلاني لبعض حوائجه ولم يَعُدْ. قلت: هل تعرفون له عدواً [أو تتَّهمون به أحداً؟] قالوا: قد كان بينه وبين قوم من الأكراد ينزلون بقُرْبنا سَواءٌ[(٢)]، فإن كان دُهِيَ[(٣)] فالظاهر أنه منهم. فأنفذتُ إلى الأكراد المذكورين، فسألتهم عنه، فتغيَّروا، فقرَّرتُهم، فأقرُّوا، وأنعم اللهُ عليَّ بإظهار ذلك على يدي.

ومنها أنه كان ببغداد رجلٌ أعجميٌّ يعرف بأميرك، كان يهجم دور الناس نهاراً، ويأخذ أموالهم، وكان يؤدي إلى عميد العراق كلَّ يوم ديناراً [وعميد العراق هو الذي غرقه البساسيري]، فدخل أميرك على صيرفي وأخذ كيسه وفيه ذهب، فلمَّا أصبح الصيرفي استغاث وضجَّ، وكانت دارُه إلى جانب دار قاضي القضاة ابن الدامغاني، فلم

---

(١) في (خ) و(ف): قال، والمثبت من (م) و(م١) وهو الأليق بالسياق.

(٢) السَّواء: الخَلَّة القبيحة. المعجم الوسيط (سوأ).

(٣) دُهي: أُصيب بداهية، والداهية هنا: الأمر المنكر العظيم. المعجم الوسيط (دهي).

يشعر بأميرك إلا وقد قبض على يده وقال: مالَكَ؟ أنا أخذتُ خرقتك وفيه بهرجٌ، وأريد [أن] أحملك إلى عميد العراق، وأضع الخرقة بين يديه، ويرى ضَرْبَكَ البُهرج. فخاف الصيرفيُّ، وقال: يا أخي، أنت في حِلٍّ من الخرقة. وهو يقول: لا واللهِ، وما أُفارقُكَ إلى عند العميد. فاستغاث بأصحاب القاضي، فسألوا أميرك فيه، حتى أخذ منه خمسة دنانير والخرقة ومضى، ولمَّا ولي رئيسُ العراقيين بلغه خبر العجمي أميرك، فأخذه [ليلاً] [فغرقه] ولم يُطلِعْ أحداً على خبره، فأمن الناس.

وفي يوم الخميس لأربعٍ بَقِينَ من رجب خلع الخليفة على طراد الزينبي، وردَّ إليه نقابة العباسيين، فانحدر إلى البصرة، واستخلف ببغداد أخاه أبا طالب، وخلع بعد ذلك، فأقام على أبي الفتح أسامة بن أبي عبد الله أحمد بن أبي طالب العلوي، وولّاه نقابة الطالبيين[١].

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان هرب خُمارتِكِين الطُّغْرُلْبي وهو على كُردكوه يحاصر قُتُلْمِش.

ذكر السبب:

كان السلطان مشغوفاً به حتى خَصاه، وكان يدخل معه على خاتون؛ لقلة صبره عنه، فاستفحل أمرُه، وصار الحُجَّاب والأمراء يَقِفون على رأسه، وكان عميد الملك يحسده لقربه من السلطان، ولمَّا شغب الحُجَّاب والغلمان على السلطان عند انصرافه من توريز، خرج إليهم، وأزال شغبهم، فأطاعوه وتفرَّقوا، وقيل للسلطان: إن الذي فعلوه بمواطأةٍ منهم، فخلع عليه، وزاد في إقطاعه قِرْمِيسين وقريةً زيادة على ما يُعهد منه، ثم اطَّلع على ما في طوية السلطان له، فاستشعر منه، وسار إلى قِرْمِيسين ـ وكان قريباً منها رجلٌ كرديٌّ يُقال له: سعدُ وحكان ـ في قِلاع[٢] وقد قطع الطُّرُق، وأخاف السُّبُل، وقتل من أصحاب السلطان جماعةً وفي قلب السلطان منه شيء عظيم، فاتَّفق لخُمارتِكِين من السعادة أنَّ سعدوحكان لمَّا بلغه قربُه منه نزل إليه مستهيناً به، مكشوفَ

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٦٩ـ٧٠.

(٢) القِلاع؛ جمع قِلْع: وهو شراع السفينة. المعجم الوسيط (قلع).

الرأس، بقميص رومي، فقاتله، فاستظهر عليه سعدوحكان، فجاءه سهم عائر فذبحه، واستولى خُمارتِكِين على أصحابه وقلاعه، وأنفذ رأسه إلى السلطان وأقام بمكانه مدافعاً مقاطعاً، وبعث السلطانُ عميدَ الملك إلى بغداد، فاجتاز به، وقال له: أنا ماضٍ إلى بغداد، قد خلا السلطان بمن يأنس به، ويجب أن تعود إليه وتكون في خدمته، فربما طال تأخُّري عنه. وتحالفا وتعاقدا، وسار عميد الملك إلى بغداد، وخُمارتِكِين إلى السلطان، ولمَّا ورد عميدُ الملك بغداد ظهر له أنَّ بين خُمارتِكِين وبين أبي تراب بن الأثيري صاحب الخليفة مكاتباتٍ، يقول فيها خُمارتِكِين: إنَّ السلطان ما يُؤثر أن ينقل على الخليفة، وإنما عميد الملك يفعل هذا ليتقرب إلى السلطان، ولمَّا عاد عميد العراق إلى السلطان عرَّفه ذلك، وأن مكاتباته إلى ابن الأثيري منعت الخليفة من الإجابة إلى الوصلة، واستشهد على ذلك بأشياء أثبتت في نفس السلطان ذلك، وبلغ الطُّغْرُلْبي ذلك وأنَّ السلطان قد تغيَّر عليه، وكان السلطان يحاصر القلعة التي فيها قُتُلْمِش، فهرب الطُّغْرُلْبي في شعبان في ستةٍ من غلمانه، ومعه من الجَمَّازات[1] والخيل ما استظهر به، فأرسل السلطان ابنابجيل خلفه، وكتب إلى البلاد بخبره والتحرُّز منه والتلطف في أخذه، وكوتب رئيس العراقيين [بذلك، ونسب عميد الملك هربه إلى أبي تراب بن الأثيري، وأن الخليفة علم به، وكان في كتاب السلطان إلى رئيس العراقيين]: وهذا جرى من الخليفة الذي قتلتُ أخي في خدمتِه، وأنفقتُ أموالي في نصرتِه، وأهلكتُ خواصي وحاشيتي وعسكري في محبَّتِه، أن يُخبِّب مملوكي، ويُفسد نظامي، ويفعل بي ما فعل، ثم تقدم إلى الرئيس بقبض ما في يد الخليفة ويد الحاشية من الإقطاعات، وبترك ما كان في أيام القادر، وأن يطالبه بتسليم أبي تراب المهتمِّ بخُمارتِكِين، فحضر الرئيس ببيت النُّوبة، وعرض ما أُنهي إليه، فقال الخليفة: أمَّا الإقطاعات فبين يديكم، وأما ابن الأثيري فليس لِما نُسِبَ إليه أصلٌ ولا حقيقة، ويحضر قاضي القضاة فنستحلفه بالأيمان التي تُبرىء ساحته، فأما المطالبة بتسليم

(١) الجمَّازات؛ جمع جمَّازة: وهي مركب سريع يتخذه الناس في المدن. المعجم الوسيط (جمز).

خواصنا وأصحابنا وثقاتنا ممَّا لا يفعله، وتقدم لكم. فانزعج الناس وخافوا، وتوقَّفَ الخليفةُ، وفعل الرئيس ما أمره به السلطان، وأما خُمارتِكِين فإن ابنابجيل تبعه، فسلك طريقاً أتلفت[1] جمَّازاته وخيله، وبقي مع خُمارتِكِين فرسٌ واحدٌ وغلامان، فقصر به فرسُه، ووصل إلى ناحية بِيَزْدَجَرد، وكان بها خادم كان قد ضربه قديماً وكسر يده وحنق عليه، فقال خُمارتِكِين الطُّغْرُلْبي للغلامين: ادخُلا فاشتريا لي فرساً غيرَ هذا. ونام على سطح، فدخلا، فرآهما الخادم، فعرفهما، فقال: ما الذي تصنعان ها هنا؟ فاختلف كلامُهما، فقتلَ أحدَهما. وقال للآخر: اصدُقْني وإلَّا ألحقتُكَ به. فقال: نحن مع الطُّغْرُلْبي. ودلَّه، فجاء وهو نائم فقيَّده، وقتل الغِلمان الذين كانوا معه، ووصل ابنابجيل في ذلك اليوم إلى يَزْدَجَرد، فتسلَّمه وعاد به إلى السلطان، فقام أولاد إبراهيم ينَّال وقالوا: هذا قتل أبانا، ونسأل تسليمه إلينا. فسلَّمه إليهم بإشارة عميد الملك، فقتلوه، وجاؤوا برأسه إلى السلطان [وسنُّه نيِّف وعشرون سنة.

وفي ذي القعدة كتب السلطان][2] إلى رئيس الرؤساء كتاباً يتضمن استعمال القبيح في حقِّ الخليفة، وخرقِ الهيبة، ورفعِ الحشمة، وإلى أرسلان خاتون بالانفصال عن دار الخليفة إلى دار المملكة إلى حين يَرِدُ من يسير معها إلى السلطان، وشرع رئيس العراقَين في أخذ أصحاب الخليفة من داره ومصادراتهم، ومدَّ يده إلى الجوالي، وكان مغلُّها في كل سنة ألفاً وخمسَ مئة دينار، وكانت داخلةً في إقطاع الخليفة، فصعُبَ عليه ذلك، فراسل رئيس العراقَين بأبي منصور بن يوسف وقال: إن ركن الدين ما جعل هذه لنا فيأخذها منا، وهذا أصل من أصول الشريعة تتعلَّق بنا فلا يجوز صرفُه عنا. فقال الرئيس: فهو ذا أُخاطر بنفسي مع سلطاني في خدمة الخليفة، وخلفي أعداء ينقلون إلى السلطان عني أنني مقصِّرٌ فيما أعتمده في حقِّ الخليفة، وقد كنتُ أرجو أن الأمر ينصلح، وما أراه إلا قد تفاقم، وتزايدت الوحشة، والكتب واردةٌ بكل ما يزيد الوحشة والنُّفرة. فقال له ابن يوسف: أفرِجْ عنا، فنحن في تدبير أمر الوصلة، ونريد أن نراسل السلطان فيها. فرفع يده.

---

(١) في (خ): قلعت، والمثبت من (ف).

(٢) ما بين حاصرتين من (ف).

وفيها تُوفِّي

الأمير أحمد بن مروان

أبو نصر، الكردي، أمير ميَّافارقين وديار بكر.

ذِكْرُ طرف من أخباره:

قد ذكرنا بداية أمرهم ومقتل أخاه ممهد الدولة في سنة إحدى وأربع مئة، وإقامة أحمد مَقامه، ولقَّبه القادرُ نصرَ الدولة، واستولى على ديار بكر وميَّافارقين وله اثنتان وعشرون سنة، فأقام والياً ثلاثاً وخمسين سنة، وأحسن السيرة، وعمر الثغور وحصَّنها، وأمنت[1] الرعية في زمانه، ووَزَر له أبو القاسم المغربي مرتين، وعنده مات، ووَزَر له فخر الدولة محمد بن جَهير، وكان عنده الحبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بُويه، اشتراه من ورثة الملك أبي منصور بن أبي طاهر، وأنفذَه إلى طُغْرُلْبك مع هدايا كثيرة تساوي ثلاث مئة ألف دينار، ومعها مئةُ ألف دينار عيناً، وهذا الحبل الياقوت هو الذي قدَّمه السلطان للخليفة لمَّا نزل من الحديثة واجتمع به في البهو، وكان أبو نصر مُدارياً للملوك، إذا قصده عدوٌّ يقول: كم مقدار ما تنفق لردِّه؟ فإذا قيل له: مئة ألف دينار مثلاً، بعث بها إلى العدو ليدفع شرَّه عنه، وأمِنَ على عسكره من المخاطرة. وكان جواداً سخياً، والرعية معه آمنون على أموالهم وحريمهم، وتزوَّج عدةً من بنات الملوك، ولم يتنعَّم أحدٌ من الملوك مثل تنعُّمه، كان في قصره ثلاثةُ آلاف جارية عمالات، يبلغ شِرى الواحدة من ألف دينار إلى خمسة عشر ألف دينار، وملَكَ خمسَ مئة سُرِّية سوى توابعهنَّ، وخمسَ مئة خادم، وكان في مجلسه من الأواني والآلات والجواهر ما تزيد قيمته على مئتي ألف دينار، ورأى من الالتذاذ بالدنيا والراحة ما لم يرَه غيرُه، ورخُصتِ الأسعارُ في زمانه، وتظاهر الناس بالأموال، ووفد إليه الشعراء، وسكن عنده العلماء والزُّهَّاد، وبلغه أن الطيور تخرج من الجبال إلى القرى في الشتاء فتُصاد، فتقدَّم بفتح الأَهْراء[2]، وأن يُحمَلَ إليها من الحَبِّ ما يُشبِعُها، فكانت الطيور في ضيافته طول عمره، ولا يتجاسر أحدٌ أن يصيد طيراً.

---

(١) في (ف): وامتنعت.

(٢) الأهراء؛ جمع هُرْي: وهو البيت الكبير الضخم الذي يجمع فيه مال السلطان. اللسان (هرا).

وبعث له القائم بأمر الله الخِلَعَ السنيَّة، وفيها الطوق والسواران ما عدا التاج، وكان فيها فرش بمركب ذهب من مراكب الخليفة، وجاءه من مصر هدايا وتحف وخِلَعٌ، ولقَّبَه صاحبُ مصر عزَّ الدولة، وجاءه رسول ملك الروم بالهدايا والتُّحف، واجتمع الكلُّ عنده، فأحضرهم وجلس في قصره، وأجلس رُسُلَ الخليفة عن يمينه، ورُسُلَ صاحب مصر عن شماله، والروميَّ بين يديه، ولبس خلعةَ الخليفة، وأعطى الرسل عطاءً عظيماً، ومالاً كثيراً، وخِلَعاً سنيَّةً، فانصرفوا شاكرين.

وأوقف الأوقاف على أبواب البر والصدقات، وأدار رسوم ميَّافارقين، وقصده الشعراء، وامتدحه التِّهاميُّ بقصائد.

قال المصنف رحمه الله: ورأيتُ في «تاريخ ميَّافارقين» أنَّ الملك العزيز بن بُوَيه وفد عليه، وقدَّمَ له الحبل الأحمر الياقوت، ومصحفاً بخطِّ عليٍّ عليه السلام، وقال له: قد حملتُ إليك الدنيا والآخرة. فقبِلَ الجميع، وقدَّم له أموالاً كثيرة، وتُحفاً عظيمةً، وأنزله بأسعرد، فأقام بها إلى أن توفي مُكرَّماً، وحُمِلَ تابوتُه إلى الكوفة، فدفنه عند أهله، وكان أبو نصر مع لذَّاته واشتغاله بما كان فيه لم تفُتْه صلاة الفجر في وقتها طولَ عمره، ولا ظلَمَ أحداً من خلق الله تعالى، ولا تعدَّى على أحد، ولا مدَّ عينيه إلى حريم أحد، ولا خلا بامرأة ليست له بمحرم. وقيل لبعض أصحابه: قد قيل: إن أيام نصر الدولة كانت ثلاثاً وخمسين سنة. فقال: لا، بل مئة وستُّ سنين. قيل: وكيف؟ قال: لأن لياليه كانت أحسنَ من أيامها.

ومن واقعاته أنه قدم عليه مُنجِّمٌ من بلاد الهند، وكان حاذقاً، فأنزله وأكرمه، وقال له يوماً: أيها الأمير، يخرج على دولتك بعدك رجلٌ قد أحسنتَ إليه وأكرمتَه، فيأخذ الملك من ولدك، ويقلع البيتَ، ولا يلبَثُ إلا مدةً يسيرة ويؤخذُ منه. فأفكر ساعةً، وكان الوزيرُ ابنُ جَهير واقفاً على رأسه، فرفع رأسَه إلى الوزير وقال: إن كان هذا صحيحاً فهو هذا الشيخ. فقبَّل ابنُ جَهير الأرض، وقال: اللهَ اللهَ يا مولانا، ومن أنا؟ قال: بلى، إن ملكتَ فأحسِنْ إلى ولدي. وكان ابن جَهير قد اطَّلع على الخزائن والذخائر وارتفاع البلاد، فقال ابن جَهير لبعض أصحابه من يوم ما قال المنجِّم ما قال: وقع في قلبي صِحَّةُ كلامه، فكان كما قال. قال: فلمَّا مات الأمير في تاسع عشرين

شوال من هذه السنة عن سبع وسبعين سنة ـ وقيل: تجاوز الثمانين ـ ودُفِنَ بجامع المحدثة بميَّافارقين، ثم بنَتْ له ابنتُه ستُّ الملك[١] قبةً إلى جانب الجامع، ونُقِلَ إليها، وكان قد عهد إلى ولده نظام الدين أبي القاسم نصر بن أحمد، وكان أخوه أبو الحسن سعيد الكبير، وابنُ جَهير هو الوزير، فبايع ابنُ جَهير والناسُ أبا القاسم نصر بن أحمد، واستقرَّ الأمرُ له، ولم ينازعه أحدٌ من بني أعمامه وإخوته، ثم نازعه أخوه سعيد، فلم يقدِرْ عليه، فسار إلى باب السلطان طُغْرُلْبَك وشكا إليه، فأرسل معه جيشاً خمسة آلاف فارس، فنزلوا على باب ميَّافارقين، فخرج الوزير ابنُ جَهير إلى سعيد فأصلح أمره، وأعطاه مالاً، ووفَّقَ بينه وبين أخيه نظام الدين، وصرف عسكرَ السلطان، وأقام سعيدٌ عند أخيه مُكرَّماً، ثم بعث القائمُ إلى نظام الدين في سنة خمس وخمسين وأربع مئة ـ وقيل: سنة أربع وخمسين ـ يستدعي إليه الوزير ابن جَهير، فجهَّزه في أحسن زيٍّ وأجمل جهاز، وبعث معه بالتُّحف والهدايا والأموال، فاستوزَره الخليفة، فكان بنو مروان يفتخرون ويقولون: وَزَر لنا ابنُ المغربي وزيرُ الحاكم خليفةُ مصر، ووَزَر وزيرُنا للخليفة. ثم كان زوال أمر بني مروان على يد ابن جَهير سنة سبع وسبعين وأربع مئة، وسنذكره إن شاء الله تعالى. وانفصل سعيد عن أخيه نظام الدين، ومضى إلى ألب أرسلان، وكان طُغْرُلْبَك قد مات[٢].

[وفيها تُوفِّي]

علي بن محمد بن يحيى[٣]

أبو القاسم، السُّلمي، الدمشقي، صاحب دويرة الصوفية بدمشق، ويعرف بالسُّمَيساطي، وقفها على الصوفية، ووقف علوَّها على الجامع [قال الحافظ ابن عساكر]: ووقف أكثرَ أمواله على أبواب البر، وكانت وفاته عاشر ربيع الآخر، ودُفن بهذه الدار [قلت: وقد رأيت] قبره عند السقاية، [والواجب أن يكون عند المحراب؛ لأنه أجدر بتحصيل الأجر والثواب]، وزعم قومٌ أنه أوصى أن يُدفن هناك تواضعاً.

(١) في (خ): الملوك، والمثبت من (ف).
(٢) الترجمة مختصرة في المنتظم ١٦/ ٧٠ـ٧١.
(٣) تاريخ دمشق ١٢/ ٥٣٤ـ٥٣٥ (مخطوط ـ نشر دار البشير).

[قال الحافظ: حدَّث عن أبيه وجده، وقد روى الحديث عن عثمان بن علَّان الذهبي وغيره، وروى عن السُّميساطي جماعةٌ منهم الخطيب أبو بكر وأبو القاسم النسيب وغيرُهما]، وأثنى عليه ابن ماكولا وقال: كان متقدماً في علم الهيئة والهندسة، فاضلاً في فنون كثيرة.

السنة الرابعة والخمسون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد الخبر بأن صاحب مصر قبض على أبي الفرج بن المغربي وزيره، [واستوزر أبا الفرج البابلي، ثم ردَّ ابن المغربي]، إلى كتابة الجيش، وهي رتبته قبل الوزارة، ولم يكن قبله وزير يُعزَلُ فيعود إلى قديم تصرُّفه.

وفيه ولد صاحِبُ مصر الأمير مكين الدين.

وفي يوم الخميس تاسع عشر صفر خرج أبو الغنائم بن المحلبان إلى باب السلطان طُغْرُلْبَك بإجابة الخليفة إلى الوصلة.

ذكر السبب:

كانت الكتب قد وردت من السلطان إلى بغداد وواسط والبصرة بإدخال اليد في إقطاع الخليفة والحاشية، وكانت الأطراف بتعديد ما فعل من الجميل دفعة [بعد دفعة][1] وما كان من المقابلة من ردِّ عميد الملك وأعيان الدولة خائبين من الوصلة، وخرج الكلام إلى ما ينافي قانون الطاعة ومقتضى الخدمة وقطع المكاتبة إلى الخليفة، وكان من جملة ذلك كتاب إلى قاضي القضاة أبي عبد الله بن الدامغاني: من شاهنشاه المعظَّم ملك المشرق والمغرب، وذكر ما جرَتْ به العادة، وقال من جملته: وقاضي القضاة وإن كانت أوقاتُه مقصورةً على العلم وتدريس الفقه فهو مندوبٌ إلى ما يؤدِّي إلى حسم الخلاف، وتمهيد أسباب الأسلاف، ولمَّا عاد الشيخ الجليل عميد الملك إلى حضرتنا شرح من حُسنِ سَمْتِهِ وهَدْيه وتجرُّدِه في إدراك ما طلبناه وخطبناه ما ازددنا ثقةً به، وهو يعلم أن تلك الوصلة لم تكن عن جفوة حتى يستوجبَ بها قبيحَ المكافأة على جميع ما قدَّمناه من المآثر، ولا يخفى ما قدَّمناه من أنواع الاهتمام، وأوحيناه من

---

(١) هذه الزيادة من (ف)، والمنتظم ١٦/ ٧٢.

الإنعام، ثم ما أظهرناه من التذلُّل والخضوع الذي كنَّا نطلبه قُربةً إلى الله تعالى، فعاد ذلك وبالاً علينا في الدنيا والآخرة، ولكنَّا واثقين من الله أن الله لا يُضيع جميلَ أفعالنا، ويُرِي سوء المغبَّةِ لمن أضمر فينا سوءاً. وذكر كلاماً يقتضي التهديد والوعيد، فأُشير على الخليفة بتلافي هذا الأمر، وإلَّا بَعُدَ المرام، واتَّسع الخرق، فوقع التعيين على أبي الغنائم بن المحلبان، وأن يخرج إلى السلطان يستعطفه ويسترضيه، فقال: إن لم يحصل غرضُه من هذه الوصلة التي خطبها لم يكن قصدي له نافعاً، بل زائداً في غيظه. فتوقَّف عن الجواب، فتأخَّر الخروج، وطالت الأيام، وزاد من رئيس العراقيين الاستقصاء في قبح الأفعال، وأشار القاضي والأعيان على الخليفة باستدراك الفارط، فأجاب وكتب وكالةً لعميد الملك، وأذِنَ لقاضي القضاة أبي عبد الله ابن الدامَغاني وأبي منصور، وأوصلهما إليه، حتى شهدا عليه بما سمعاه، وخرج أبو الغنائم في التاريخ المذكور، وورد بعد خمسة أيام كتابٌ من السلطان مع ركابية بردِّ إقطاع الخليفة إليه، والاعتذار ممَّا جرى، وأن أبا نصر بن صاعد واصل بهدية ومشافهة، فطابت القلوب، ووقعت البشائر، وخلع على الركابية، وضُربت بين أيديهم الدبادب والبوقات، ورُفعت يد رئيس العِراقَين عن الإقطاع، وسُلِّم إلى وكلاء الخليفة، وكان في كتاب عميد الملك إلى رئيس العراقَيْن بأن الأمور عادت إلى أحسن ما كانت عليه، فبادرتُ بهذه الأحرف مبشراً بأن تلك اللَّوثة التي ظهرت فيما يتعلق بوكلاء الدار العزيزة النبوية المقدسة ـ عمَرَها اللهُ ببقاء سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ـ زالَتْ بأسرها من غير واسطة، إلا بآرائه التي رآها مولانا السلطان، جرياً على كريم عادتِه، وخُلقِه وسجيَّتِه، ومراعاةً لما فعل في الدولة العباسية، واحترازاً من شماتة عدو أو مقال حاسد، مع ما ظهر من خُمارتِكين الخائن من العصيان، واستجلاب الخذلان، وقد عجل الله بروحه إلى النيران، في دار الهوان، فكان يظهر أن ما يفعله بإشارة الدار العزيزة، وقد أراح الله منه. وذكر كلاماً طويلاً، وقال في آخره: وعليك بالخدمة والوصية والتقدم إلى سائر الزعماء بالعراق بمثل ذلك، وكتابي هذا من جرجان غُرَّة ذي الحجة، والرايات القاهرة متوجهة نحو العراق، وبعدَ هذا يصل رئيس نيسابور أبو نصر محمد بن صاعد ومعه رسالة تتضمن الخدم والقربة، والسلام. فكتب الخليفة

إلى ابن المحلبان بالتوقف إلى حين وصول ابن صاعد؛ ليسمع رسالته، وردَّ الجواب بمقتضاها، [ورسمَ له طَيَّ ذلك وسَتْرَهُ][1]، وورد عليه الأمر وهو بشهرزور، فأقام يتردَّد في أعمال بدر بن مهلهل، ويتلوَّم بكثرة المَدِّ[2] والثلوج، ثم ظهر في ساقه خرَّاجٌ، فأظهر أنَّ مادةً نزلت فيه فمنعته من الركوب.

وفي ربيع الأول السابع عشر من آذار ورد إلى بغداد سيلٌ عظيمٌ، ووقف الماء في الشوارع والدروب، ووقعت الحيطان، وجاءت ظلمات ورعود وبَرَدٌ كبار، في الواحدة نحو[3] الرطل فأكثر، فأُهلِكَتِ الغلَّات والثمارُ، ودام بقية آذار ونيسان، ووردت الأخبار أن بالجبال وفارس والشام والجزيرة وجميع الدنيا ما هو أعظم من ذلك، ومطرت سنجار والجزيرة ثمانين يوماً مطراً، ما رأوا شمساً، وجاء السيل إلى بلد بدر ابن مهلهل صاحب شَهْرزور، فأخذ حُلَّةً من الأكراد، فطرحها في تامَرَّا.

وزادت دجلة بطالع السرطان سلخ ربيع الأول إحدى وعشرين ذراعاً، وكذا بلغت سنة سبع وستين وثلاث مئة، وفي أيام عضد الدولة، وفي سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة وغيرها، والكل بطالع السرطان، وغرقت بغداد من الجانب الشرقي، ودخل دار الخلافة، وخرج الخليفة ليلاً، وغرس القضيب النبوي في الماء، فكان تارةً ينقص وتارةً يزيد، وكان قبل هذا منتهى الزيادة ثمانية عشر ذراعاً، ودار الماء في شرقي بغداد على حلولا وتامَرَّا على الوحوش، فحصرهم فلم يكن لهم مسلك، فكان أهل السواد يسبحون فيأخذونهم قبضاً، ويحصل للواحد في اليوم مئتا رطل من اللحم[4].

وفيها ورد الخبر بقبض [أبي][5] العباس فضلويه بن علويه ـ زعيم الرعاة الشوانكار بنواحي شيراز ـ على الأمير أبي منصور فولاستون[6] ـ ابن الملك أبي كاليجار بن بُويه،

---

(١) في (خ) و(ف): والمعاني طرفي مسيره، والمثبت من المنتظم.

(٢) المَدّ: السيل. المعجم الوسيط (مدد).

(٣) في (م) و(م١): نصف.

(٤) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ٧٤.

(٥) ما بين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ف).

(٦) تحرف في النسختين (خ) و(ف) إلى: فولاشيزر.

والدته حراسويه ـ بباب شيراز، وقبلهما إبعاده أسفنديار أخا أبي منصور بن [أبي] كاليجار مكانه، وكان أبو منصور سفَّاكاً للدماء، قتل جماعةً؛ أبا سعد وبُويه أخويه، والعادلَ أبا منصور القَسْري، مدبِّرَ دولته، وقتل ولَدَه برموزة، وعزم على قتل فضلويه، فعاجله فضلويه بتدبير الملك أبي كاليجار كالعادية.

وفيها كانت وقعةٌ بين أبي المكارم مسلمة بن قريش بن بدران وعمه مُقْبِل بن بدران، وقد كان مُقْبِل[1] قد طلب الأمر لنفسه، واجتمع إليه خلق من الأكراد وغيرهم، وبخل مسلمة بالمال، والتقيا على الخابور في مكان يُعرف بالكوكب، فانهزم مسلمة وملَكَ الجزيرةَ مُقبِل، فبذل مسلمة المال، وعاد إلى عمه فهزمه، ثم اتفقا على أن يكون لمُقْبِل ثلث مَغَلِّ الموصل، ثم اجتمعا واصطلحا.

وفي ربيع الآخر غلقت المواخِر ببغداد، ونادى رئيس العراقَين برفعها[2].

وفيه ورد الخبر بمسير السلطان من جرجان إلى قلعة الكرم بِسَميران، وهي من القلاع التي لا ترام، وكان صاحبها خشتان بن ليمر بن المَرْزُبان سيئَ الطريقة، قبيحَ السيرة، فاستوحشَتْ زوجتُه منه، وشكَتْه إلى ابنه مسافر، فوجدَتْ عنده أكثر مما عندها، فوافقَتْه على تسليم القلعة، وتحالفا على ذلك، وتوقَّعا خروج خشتان إلى الصيد، وكان مسافرٌ ساكناً في مكان آخر، فواعدَتْه عند خروج أبيه عن القلعة بقصدها، فخرج أبوه إلى الصيد، فأغلقتِ الباب، وجاء مسافر في الليل إلى مكان عيَّنَتْه، فاستقَتْه في زنبيل هي وجَواريها، فأصعدَتْه، فجلس مكان أبيه، وأخرجا مَنْ كان في الحبوس من الأسرى والرهائن، وكانوا عدداً كثيراً، وخلعا على جماعة منهم، وراسلهما خشتان في إعادته، فلم يلتفِتا، فلما يئس صَعِدَ طُغْرُلْبَك وعرَّفه ما تمَّ عليه، وأطمعه في القلاع، وقال: إذا قَرُبْتَ منها اقبِضْ مَنْ فيها على الزوجة ومسافر، فسار السلطان، فحصرها من نواحيها، وأخرب العسكرُ بلادَها، فلم يلتفتا إليه، وطال مقامُه، فتراسلوا، واتفقوا على مئة ألف دينار وألف ثوب يأخذها السلطان، فرضي ورحل، وأخرج مسافر زوجة أبيه وصرفها إلى أهلها، ثم قُتِلَ مسافرٌ من بعد.

---

(١) في النسخ هنا وفي الموضعين الآتيين: مقيبل، لكن اسمه مقبل كما في المصادر.

(٢) المواخر؛ جمع ماخور: وهو بيت الفسق. المعجم الوسيط (مخر).

وقال ناصر بن الحسين الأبهري العلوي: لمَّا أخذ مسافرٌ سَميران دار مملكة الروم، وهي على نصف من جبال الدَّيلم، وعليها يجري النهر المعروف بأسفيدروذ(١)، أنفذ خشتان لمَّا يئس من سَميران ابنَه نوحاً إلى حصن آخر كبير يُسمَّى القلعة من سَميران، على ثمانية فراسخ، ورسم له المقام فيه ليذهب هو إلى السلطان مستعيناً على ولده وزوجته، وجرى في ذلك ما قدَّمناه، ولم يبلغ خشتان غرضاً، ولحِقَه من الغمِّ والذُّلِّ ما أدَّاه إلى الموت في هذه السنة، وقصد مسافر القلعة وأخاه نوحاً في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأربع مئة، وحصره، وقاتله، فجاء مسافراً في بعض الأيام سهمٌ فأثخنه، ووقع الإياس منه، فراسلوا أخاه نوحاً، واستحلفوه وسلَّموه إليه، فاعتقله، ثم قتله، وكان سبب تسليم أصحابه له قبحُ سيرته، وسفكُ الدماء من أصحابه، وتملَّك سَميران ولدُ مسافر، ومات طُغْرُلْبَك، وقام بعدَه ولده ألب أرسلان، فأراد إنفاذ من ينتهز الفرصة في تلك الأعمال، فسأله سُرْخاب بن كامرو الديلمي أمير ساوة أن يجعل أعمال الطرم مردودةً إليه، وأن ينتزعها من أولاد خشتان، وأرسل إلى نوح يتهدَّده وقال له: انزل إلى السلطان بأمان. فنزل، فقبض عليه، وجاء به إلى قلاع الطرم، وقال: سلِّموها. فلم يلتفتوا إلى سُرْخاب، ورجع إلى ساوة، ولم يظفر بطائل.

وفي جمادى الأولى خرج رئيس العراقَين أبو أحمد النهاوندي إلى باب السلطان مستقيلاً من ولاية العراق، ولَحِقَ الناسَ عليه من الأسف والحزن ما لا حدَّ عليه، لما رأوا منه من الإحسان وحسن السيرة والهيبة، وبكوا عليه، ولقَّبه الخليفة ذو الكفايتين، واستحلف أصحابَه في البلد، وأكَّد الوصية عليهم بالرعية، وقد كان واصل المكاتبات إلى السلطان بالاستعفاء من النظر في العراق، وسأل أن يكون على الباب، فأجابه.

ولمَّا طالت أيام ابن المحلبان ببلد شَهْرُزور وعرف السلطان، حرَّك الخليفة، فأنفذ كتاباً إلى أرسلان خاتون بالخروج من دار الخليفة إلى دار المملكة، ويتجهز إلى الري، فإنه مشتاق إليها، فأرسلت إلى الخليفة، فمنعها، وقال: ما السبب؟ فقيل: تأخَّر ابنُ

(١) تحرفت في النسختين (خ) و(ف) إلى: بأسفيدرونة.

المحلبان. فقال: ما أخَّرناه إلا ليصل ابنُ صاعد، ويسمع رسالته، ويردَّ الجواب، ويكون نفوذُهما جميعاً، وأما إذا استشعرتم فنحن نأمر ابنَ المحلبان بالإتمام، وكتب إليه بالمسير إلى السلطان، فسار.

وفي هذا الشهر جرت وقعةٌ بين مُعِزِّ الدولة[١] ثِمال بن صالح صاحب حلب، وبين الروم، أجملت عن قتل الروم وهزيمتهم، وسبب هذه الوقعة أنه كان لثِمال رسم على ملك الروم كلَّ سنة، مالٌ وثياب وتُحف، فلمَّا بعُدَ ثِمال عن حلب إلى مصر طمع صاحب الروم وقطع ذلك، فلمَّا عاد إلى حلب بعث وطلب الرسم، فجهز صاحب الروم العساكر إلى الشام، وجمع ثِمال بني كلب وغيرَهم، والتقوا على مكان[٢] يقال له: أَرْتَاح[٣]، وبعث ثمال أخاه عطية في مقدمته، واجتمعت إليه القبائل وبنو خفاجة، والتقَوا، فنُصروا على الروم، وكان بينهم وبين حلب ستة فراسخ، فانهزمت الروم، وقُتل أكثرُهم، وغنمهم، وفتح عِمّ[٤] وأَرْتَاحَ، وانتهى إلى أنطاكية، وحصرها، وضاق بهم الشيء، فصالحوه، وأعطوه مالاً ورسمه، ورجع. ويقال: إن الجارية الحسناء من الروم بيعت بخمسة دنانير، وكذا الفرس الجواد.

وفي رجب ملك قاروت بك بن داود بن أخي السلطان طُغْرُلْبَك مدينة شيراز ونواحيها، وتحصَّن فضلويه ببعض القلاع، وكان الديلم والأتراك يكرهون فضلويه لِما فعل بأبي منصور بن أبي كاليجار ووالدته، وكان قد كاتبوا قاروت بك بالمسير إلى شيراز، وقالوا: لا بُدَّ ما نقاتِلُك أياماً فلا تخَفْ، فلما جاء وحَصَرَ البلد خرجوا إليه ثلاثة أيام، فقاتلوه، ثم سلَّموا إليه البلد، فأحسن إليهم، وخلع عليهم، وعدل في الناس، فأحبُّوه، وأطاعه أهل الأطراف وخطبوا له، وبعث بأسفنديار وأمه إلى كرمان، وأمَّا فضلويه فإنه لمَّا قرُبَ قاروت بك من شيراز مضى إلى موضع يُعرف[٥] بكُفَيرة على

(١) بعدها في (م) و(م١) زيادة: وبين، والصواب عدم إثباتها.

(٢) العبارة في (م) و(م١): والتقوا بمكان بحلب.

(٣) أرْتاح: قرية من أعمال حلب بالقرب من حارم. بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/ ١٠٢ ومعجم البلدان ١/ ٨٩ .

(٤) تحرفت في (خ) إلى: عمر، والمثبت من (ف) و(م١)، وعِمّ: قرية بين حلب وأنطاكية، ذات عيون وأشجار. معجم البلدان ٣/ ١٥٧ .

(٥) تحرفت في (خ) إلى: يكره.

خمس فراسخ من شيراز، ثم انتقل إلى جبال حصينة على خمسة عشر فرسخاً من شيراز، وسار خلفه قاروت بك، فحاربه، فهزمه قاروت بك، وقتل من أصحابه ست مئة رجل، وصعد إلى قلعة جَهْرَم، وهي في جبال منيعة ومضائق، وهي من أعمال قَسا على أربعين فرسخاً من شيراز، وعاد قاروت بك إلى شيراز، فأقام الخطبة للسلطان طُغْرُلْبَك، وبعث له هدايا، وكتب إليه بالفتح، وفي يوم الخميس الثالث عشر من شعبان كان العقد للسلطان على بنت الخليفة بظاهر تيزين.

قال محمد بن هلال بن المحسن الصابىء: سألت أبا منصور بن يوسف عن شرح ما جرى، فأوقفني على رقعة كتبها إلى الخليفة، مضمونها بعد البسملة الشريفة: صبَّحَ اللهُ المواقف المقدسة النبوية الإمامية بالنعم والسعادات، والإقبال والبركات، واستجاب من العبد الخادم صالحَ الأدعية منها، كان مع الغلام الوارد من ابن المحلبان كتابٌ إلى الخادم، في عطفه مدرجٌ شرحُ ما جرى عليه الأمر في المعنى الذي خرج لأجله[1]، وقد أنفذته، عُطف عليه هذه الخدمة لتقف المواقف عليه، ومن العادة أن يسطر في التاريخ، ما هذه سبيله بعد أن يذكر ما جرت الحال عليه أولاً من الامتناع وما بذل من المال، وأنَّ الحال أفضَتْ إلى فساد الدولة والدين، وإن أذن للخادم أن يجتمع بمحمد ابن الصابىء ويوقفه على المشروح،ويوافقه على ما ثَبَّتُه عنده في التاريخ فعل، والأمر أعلى إن شاء الله تعالى.

وعلى رأس المسطور توقيع نسخته: وقفتُ على ما عرضتَه واستأمرتَ فيه، ويجب أن تقول له أن يكتب، ولمَّا كان من فعل اللعين البساسيري ما كان وانتهازه الفرصة فيمن انضوى إليه من الأجناد المطرودة عن مدينة السلام، وعَوْدِ ركن الدين إلى بلاده، وتشاغُلِه بقتال أخيه إبراهيم ينَّال حين شرد عن الطاعة، وفارق الجماعة، وأصغى إلى أباطيل البساسيري وأطماعه في الدولة والولاية ومضادة دار الخلافة، واقتضى حكم الاستظهار انتقال الإمام إلى الحديثة والمقام بها إلى أن تستقر الأمور، وورد ركن الدين إلى مدينة السلام، وعادت الخدمة الشريفة إلى مستقر سُدَّتها، وقُتِلَ اللعينُ البساسيري، وحُمِلَ رأسُه إلى الخزانة الإمامية، واقترح ركن الدين الإنافة به، ومقابلةَ

(١) في (خ): لأهله، والمثبت من (ف).

خدمَتِه بما يبقى له فخرُه وجمالُه على الأعقاب، ويتخلَّد ذِكرُه مع الدهر والزمان، ورغب في الخدمة بتجميله بعقد على كريمتها، وعلم أن موضعه يقتضي كل إيجاب، وتردَّدت في ذلك أقوالٌ اختلفت، وبُذِلَ في مقابلة ذلك من الأموال والإقطاعات ما اشتمل مبلَغُه على ألف ألف دينار سوى الأواني المُرصَّعة، والمهد المُرصَّع، والمراكب المُرصَّعة بالجواهر الثمينة، وأُعيد جميعُه، ثم انساقتِ الحالُ إلى أن عقد العقد اسماً من غير أن يكون اجتماع على أربع مئة درهم ودينار، ثم يساق الشرح على ما جرى منه، ونسأل الله التوفيق في جميع الأمور.

قال ابن الصابىء: وأوقفني أبو منصور بن يوسف على المشروح، فكان مضمونه: بسم الله الرحمن الرحيم، لمَّا نزل العسكر بظاهر توريز اختير لإنجاز الأمر الرشيد الوقت المبارك السعيد، وهو بعد العصر من يوم الخميس ثالث عشر شعبان، ومُدَّ سِماطٌ عظيمٌ، واستدعيتُ عميدَ الملك جالسٌ[1] على باب السرادق السلطاني، وأكثر السِّماط تماثيلُ السُّكَّر، ومقدار ما يجوز منه نُشَّابه، فلمَّا رأى عميد الملك نهض وأظهر من إجلال الخدمة الشريفة ما يتجاوز الوصف، وأخذ بيدي وأجلسني في صدر السِّماط، والملوك والأمراء وُقوفٌ في الخدمة، والفيلةُ من جانِبَي السماط يحفظونه من النَّهب، ثم نُهِبَ بعد ذلك، وأُدخِلتُ أنا ومن معي على السلطان وهو جالسٌ على سرير، وعليه ما شَرُفَ به فَرَجيةٌ طَميم، وعِمامةٌ، وقَباءٌ تحت الفَرَجية، والأمراء والملوك حول السرير على مراتبهم، فجلستُ بعدما سلَّمتُ على السلطان، فأدناني عميدُ الملك ورحَّبَ بي، ثم قمتُ قائماً، وأخرجتُ كتاب الوكالة، وقام الجماعة بين يدي السرير وقرأتُها، فلمَّا بلغتُ إلى ذِكْرِ ما خرجَتْ به المراسيمُ العاليةُ سجدتُ وسجد الحاضرون وعميدُ الملك والسلطان، فلمَّا جرى ذِكْرُ المهر وأنه أربع مئة درهم ودينار ارتفعت الأصوات بالدعاء للخليفة، واستعظموا ذلك، وقام إنسان يُقال له: مسعود الخراساني، فخطب، ونثر عميدُ الملك بين يدي السرير عدَّة كفوف لؤلؤ ودنانير، وزنُ كلِّ دينار عشرة مثاقيل، ونثروا على باب السُّرادق الدراهم [والدنانير، وأدَّينا الرسالة، فشكر ودعا، ونهضنا، وكانوا قد قدَّموا بين يدي التتار جاما خسروانياً مُغطًّى، فلم أمدَّ

---

(١) هكذا في النسخ، والمعنى: وهو جالس.

يدي إليه، فحملوه إليَّ، وإذا فيه ألف دينار ومثلها دراهم، وأبرزوا إليَّ توقيعاً بتقرير معيشةٍ، في كل سنة عشرة آلاف دينار، وذكر كلاماً طويلاً.

قال المصنف رحمه الله: وذكر جدِّي في «المنتظم»[1] أن العقد وقع على أربع مئة ألف دينار، وأن السلطان قال: أنا المملوك القِنُّ الذي قد سلَّم رِقَّه. وما حَوَتْه يدُه، وما يكتسبه باقي عمره إلى الخدمة الشريفة.

وما ذكر ابن الصابىء أَلْيَقُ بالقصة؛ لأنَّ القائم اتَّبَعَ السنَّة الطاهرة في أربع مئة درهم ودينار.

قال ابن المحلبان: ولمَّا كان من الغد أخرج من الخزائن المعمورة من الجواهر واللؤلؤ والذهب والمصاغ والثياب والألطاف والعين والجواري الأتراك والغلمان وغير ذلك شيئاً كثيراً.

وقال في «تذكرته»: وأمَّا الأخبار فإنَّ الأمير أبا نصر محمد بن دهشودان المعروف بهملان الرازي ـ صاحب توريز ـ حضر إلى باب السلطان سليماً ومستسلماً، فقرَّر عليه مالاً، فأقام بأكثره، وسلَّم ولده رهينةً على باقيه، وانتقل السلطان إلى مدينة بحجون قريبةٍ من بلد الروم، فصاحِبُها يُعرَفُ بأبي دُلَف بن الصقر الشيباني، ففعل كما فعل صاحب تيزين، وكذا فعل ابنُ الجليل صاحبُ أرمينية، ونزل السلطانُ على خُوِيّ، وهي من أعمال ثغور المسلمين، وركنٌ قويٌّ من أركان الدين، والمستولي عليها شيخ من أهلها، فامتنعوا وقاتلوا، وذكر كلاماً طويلاً وكتاباً إلى الخليفة بصورة ما جرى، وذكر فيه أن العقد كان على أربع مئة درهم ودينار مهر سيدة النساء فاطمة البتول صلوات الله عليها، ليعلم الكافَّة والخاصَّة تنزُّه سيدنا ومولانا الإمام عن التلبُّس بحُطام الدنيا، وذكر معناه.

وفي شعبان تُوفِّي المُعِزُّ بن باديس صاحب القيروان.

وفي شوال عاد رئيس العراقَين إلى بغداد عند السلطان.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٧٥.

ذكر السبب:

كان مواصلاً للسلطان بالمكاتبة يطلب الحضور إلى بابه، فأذِنَ له، فلمَّا مضى حمل ما كان استصحبه من المال والخيل والثياب، فوقعت خدمتُه أحسن موقع، وتصوَّر السلطان فيه أنه كان السبب في انقياد الخليفة إلى الوصلة بما فعله من التضييق عليه وعلى أصحابه، واتَّفق أن الخليفة بعث مع ابن المحلبان يشكو منه ويبالغ، وقد كان ابن المحلبان حمَّله من أذاه في ضياعه وأوحشه، فلم ينفعه ذلك مع السلطان لِما وقر في نفسه، ولعناية عميد الملك به، وميله إليه لأجل ما كان من الشكاوى التي نفعته عنده، وجمَّلته في عين سلطانه، وخوطب في العود إلى بغداد فامتنع، وسأل الإعفاء منها، وشكا من خرابها وخراب سوادها ما أوضحه، فقيل: لابُدَّ من عودك إليها لترتب إقامة السلطان بها مدَّة مقامه فإنه قاصد إليها، فإذا خرج منها فاخرُجْ معه، وأصحِبْه حاجب السلطان ـ واسمه رسول ـ ومعه للخليفة ثلاثون غلاماً من الترك، وثلاثون جاريةً على الخيول، وخادمان، وفرس بمركب ذهب مُرصَّع بالجوهر الثمين، وعشرة آلاف دينار، وعشرة آلاف أخرى لكريمته، وتوقيع بإقطاعات وجميع ما كان لخاتون المتوفَّاة من الإقطاع بالعراق، وعِقدُ جوهر فيه نيِّفٌ وثلاثون حبةً، في كل حبَّةٍ وزن مثقال، وثلاثة آلاف دينار لوالدتها، وخمسة آلاف دينار لِعِدة الدين، وخرج الناس على طبقاتهم لتلقِّي رئيس العراقيين، ولمَّا وصل إلى باب النُّوبي نزل وقبَّل الأرض، ومضى فنزل في خيمة تحت دار المملكة، ولم يدخل الديوان، وركب بعد ثلاثة أيام مع رسول إلى دار الخلافة إلى باب خاتون، وسلَّم إليها ما كان معه لتسلِّمه إلى الخليفة.

وقال أبو الفضل نعمة الله بن أحمد خطيب تيزين: كان السلطان مُجِدًّا في التوجُّه إلى بغداد على طريق ميَّافارقين ليقَرر أمر أولاد مروان في بلادهم بعد وفاة أبيهم، وكذا أمر مسلم بن قريش، ويطالبهم بالأموال التي خلَّفها أبوهم، فاتَّفق أنه طالب أهل خُوِيٍّ بعشرة آلاف دينار، فقالوا: نحن قوم مجاهدون، ويجب عليك معونتنا بالمال والسلاح، وبذلوا له أربعة آلاف دينار، فأنفذ إليهم سريَّةً فقاتلوهم، فظاهر أهل خُوِيٍّ عليهم، فراسل السلطان رئيس البلد يوسف بن مكين بهزارسب وسارتكين الخادم الخاص فلم يمكنهما من الدخول، فرجعا، ونشبت الحرب في رمضان وبعض شوال

مدة أربعين يوماً، وقتل من الفريقين مقتلة كبيرة، فراسل مشايخُ البلد عميدَ الملك على يد أبي كاليجار هزارسب، يطلبون الأمان، فأعطاهم، وعاد به هزارسب وسارتكين، فدخلا البلد بعد ثلاثة أيام، وأخذ جماعةً ممَّن كان يحارب السلطان، فقطع أيديهم، وقتل آخرين، وقبض على يوسف وابن أخيه موسى، وردَّ رئاسة البلد إلى أبي سعيد بن حمُّويه أحد مشايخ خُوِيٍّ، وكان بذل عشرة آلاف][1] دينار، وشرط أن يسلم إليه يوسف؛ لعداوةٍ كانت بينهما، فسلَّمه إليه، فضربه وصفعه في الجامع، وبلغ عميدَ الملك فقبض عليه، ونزع يده، وردَّ الرئاسة إلى عمر بن سحتكان، وكان رئيسها قديماً، وأخرب عقار يوسف الذي في البلد، وبنى مكانه قلعة باسم السلطان، وانصرف السلطان إلى أرمية، وأطلق موسى ابن أخي يوسف، ومات يوسف في الاعتقال عند توجُّه السلطان إلى العراق بالطريق، ثم غلب موسى على خُوِيٍّ وقتل جماعةً من أصحاب السلطان، وأخرج الباقين بسوء أفعالهم، وصار رئيس البلد.

وفي يوم السبت رابع ذي القعدة عُزِلَ أبو الفتح محمد بن منصور بن دارست من ديوان الخليفة، وانتقل إلى داره بباب المراتب، وكان سيىء التدبير، كلَّما دبَّر عملاً لم يحصل من عُقباه حمدٌ، ومن ذلك تضمينُه ضياع الخليفة لابن علَّان اليهودي، وظلم الناس، وأقام الشناعات، ثم هرب إلى واسط، وذهب ارتفاع الضياع، ثم ولَّى على الكُتَّاب كاتباً يُعرف بابن الحُصين، بذل له ثلاثين ألف دينار، فأطلق يدَه، فضرب وحبس، ولم يحصل على شيء، فعمل أهل بغداد في ابن الحُصين القصائد منها: [من البسيط]

يا ابنَ الحُصينِ ولا فخراً بذي النَّسبِ ... لقد فُضِحْتَ أمامَ العُجْمِ والعربِ
وسوَّلَتْ لكَ نفسٌ منكَ ساقطةٌ ... ظُلمَ العبادِ لمحضِ الزُّورِ والكذبِ
تُراكَ تحسَبُ أنَّ الله يغفَلُ عن ... ما كان منك ولا يقتصُّ عن كثَبِ
تاللهِ تاللهِ إني خائفٌ وَجِلٌ ... من دعوةٍ نفذَتْ عن صدرِ ذي كَربِ
قُلْ لابنِ دارسْتَ عنِّي إن ظفِرْتَ بهِ ... انظُرْ لنفسِكَ واجنُبْها عن الرِّيَبِ
واذكُرْ معادَكَ والأعضاءُ شاهدةٌ ... واللهُ يحكمُ والمظلومُ في الطَّلبِ
لا المالُ يبقى ولا الأيامُ مُمهِلةٌ ... وليس ينفعُ إلَّا حُسْنُ منقَلَبِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

من أبيات.

وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي الحجة ورد الكافي أبو نصر محمد بن محمد ابن جَهير من ميَّافارقين للنظر في ديوان الخليفة، وكان قد وقع الاختيار عليه، وأخرج إليه الكامل أبو الفوارس طراد نقيبَ العباسيين، وركب رئيس العراقيين وجماعةُ الحاشيةِ والخدم، ونزل بالحريم الطاهري منتظراً لجواز الكسوف القمري، ودخل الديوان يوم الأحد التاسع عشر من الشهر منحدراً في الماء معه الناس على طبقاتهم، وخرج من الخليفة توقيعٌ يدلُّ على الابتهاج بمورده والتقريظ له، وحمل إليه أطعمةً وفواكه.

وفي ذي القَعدة ورد أبو علي شادل بن محمد التاجر متقدم بعض اليمن هارباً من مكة لدخول أصحاب الصُّليحي إليها، وقد قطع عليه الطريق، وكان لمَّا انهزم من اليمن دخل مكة وبها شَكَّر بن أبي الفتوح الحسني أميراً، فاستنجده، فوعد شَكَّر ومَنَّاه، وأعطاه وأخذ منه عشرين ألف دينار على أن يُفرِّقها فيمن يسير معه، ولم يُقدِمْ شَكَّر على ذلك؛ لعجزه عن معاونة الصُّليحي، وأقام أبو علي قانعاً بسلامته، ومات شَكَّر ليلة الخميس ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين، وطلب مكانَه ابنُ عمه يحيى بن عبد الله بن جعفر الحسني، واستولى على دور شَكَّر بالبرقة وبينها وبين مكة خمسة فراسخ، واستدعى جماعةً من بني عمه ليستوثق منهم، فتربَّصوا عليه، وبلغهم وفاةُ شَكَّر، فتصوَّروا أنه أراد قبضهم، وأرادوا أن يكون الأمرُ فيهم فاجتمعوا في خمسة وأربعين فارساً، وقصدوا بَرقة وبها يحيى، فانهزم وقُتل، فدخلوا مكة واستولوا عليها، وكان لشَكَّر عبد يقال له: محيا، فجمع العبيد، وفرَّق فيهم المال، وقصد مكة، فانهزم ابنُ أبي الطيب منها، وقصدوا أعمالَ الصُّلَيحي، فقوَّاهم بالمال والرجال، وساروا إلى مكة، وكان لمحيا منجِّمٌ، فقال له: لا تخرج اليوم ولا غداً. فخرج وقاتل، فهزموه، ومضى في جماعة قليلة، ودخل الأشرافُ مكة، ومعهم بنو هذيل، وكان لهم عند شَكَّر ثأر، فقتلوا من العبيد مَقتلةً كبيرة، ونهبوا، والتجأ ابن شادل إلى البيت الحرام، واجتمع ببني هذيل، وذمَّ منهم بين قوم منهم، وضمن لهم مالاً، وحملوه إلى داره، وكان الصُّلَيحي قد قرَّر مع الأشراف حملَه إليه، وعلم، فهرب مع قوم من العرب، فقطع عليه الطريق، فدخل الكوفة عرياناً، فكساه ابن كروشان الهاشمي، وأقرضه ما

استعان به على المسير إلى بغداد، ونزل إلى باب المراتب، ومعه ستة من أولاده، وعاد محيا إلى الينبع، وملك مكة والأشراف.

وفي يوم السبت تاسع عشر[١] ذي الحجة جلس الخليفة واستدعى ابنَ جَهير، ووصل إليه، وخلع عليه لحاف سقلاطون، ودَرَّاعة مُصْمَت، وعمامةَ قصب مُذْهَبة حراقية، وأُعطي دَواةً من الصندل مُحلَّاةً، وخاطبه بالجميل، واحتفل له في جلوسه مثلَ ما يحتفل الملوك، وحمل على بغلة بمركب مُحلًّى، وقُرىء عهدُه بالوزارة قائماً، وأول ما فتح الدَّواة [كتب][٢] بمئة دينار صدقة، وكان في عهده بعد حمد الله تعالى والصلاة على سيدنا محمد ﷺ: وبعد، فإن أمير المؤمنين حين عَدِمَ الكُفاة بحضرته، المُرْتضين لخدمته، وتحقَّق ما عليه ابنُ جَهير من صحة الدين، وخلوص المعتقد واليقين، وما يأوي إليه من الكفاية والعفاف، والتنزُّه عن كل ما يُذمّ من الخلال ويُعاف، وكملت فيه الأوصاف، والأدوات التي جمعت بين كل سجية رضية، وصفة مرضية استوجبت أناتَه، أفضل مراتب الخُلصاء، وأوجه منازل الأصفياء، فقلَّده الوزارة، وخصَّه من الطَّول ما يُعلي منارَه، وعوَّل عليه في الوساطة بينه وبين رعيته، وخاصته وعامته، وأمره بتقوى الله، وذكر ما يُذكر في العهود، ولُقِّب فخرَ الدولة شرفَ الوزراء.

وفي ذي الحجة كثرت الأراجيف بموت طُغْرُلْبَك بأرمية، واختلط الناس ببغداد، ثم ورد الخبر بأنه عُوفي، واستدعى السفن إلى تكريت؛ لتنزل في الماء إلى بغداد.

وفيها تُوفِّي

إبراهيم بن العباس[٣]

ابن الحسن بن العباس بن الحسن بن الحسين بن أبي الجِنّ، أبو الحسين، القاضي، الشريف، مستخص الدولة، ولي القضاء والخطابة بدمشق في أيام المستنصر نيابةً عن قاضي القضاة أبي محمد القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان.

(١) في (ف): تاسع.
(٢) ما بين حاصرتين من (ف).
(٣) تاريخ دمشق ٦/ ٢٥٢ .

ولد إبراهيم سنة أربع وتسعين وثلاث مئة في المُحرَّم، وتوفي يوم السبت تاسع عشرين شعبان[(١)] ودُفن بالباب الصغير، قرأ القرآن بحرف أبي عمرو بن العلاء، وسمع الحديث [من أبي عبد الله بن أبي كامل - قال الحافظ ابن عساكر: بالإجازة - وروى عنه ابنه أبو القاسم علي بن إبراهيم شيخ الحافظ ابن عساكر]، وكان فاضلاً جواداً عفيفاً نزهاً.

[وفيها تُوفِّي]

ثِمال بن صالح

أبو علوان، ولقبُه مُعِزّ الدولة [ويعرف بابن] صاحب حلب ابن الزَّوقلية الكلابي، كان شجاعاً جواداً حليماً، أغنى أهل حلب بماله، وعمَّهم بحلمه ونواله، وكان محسناً إلى القبائل وجميع الناس [وقد ذكرنا أن صاحب مصر عزله عن حلب وردَّه، فذكرنا أنه فتح أحد الحصنين إمَّا عِمَّ وإمَّا حصن أَرْتَاح].

وبلغ من حلمه أنَّ فَرَّاشاً كان يصبُّ عليه يوماً [ماءً] من إبريق في طست، فغفل الفرَّاش، فأصابت بلبلة الإبريق ثنيته، فوقعت في الطَّست، فلم يقُلْ شيئاً، وعفا عنه، وقد مدحه ابن أبي حصينة بقصائد فقال: [من الوافر]

وَسَنَّ العَدلَ في حَلَبٍ فأَخلَتْ ... بِحُسنِ العَدلِ بُقعَتُها البِقاعا
حليمٌ عن جرائِمِنا إليهِ ... وحَتّى عَن ثَنِيَّتِهِ انقِلاعا
مكارِمُ ما اهتدى فيها بِخَلقٍ ... ولَكِن رُكِّبَت فيهِ طِباعا
إذا فَعَلَ الكَريمُ [بلا قياسٍ][(٢)] ... فَعالاً كان ما فعلَ ابتِداعا

وكان ملجأً القُصَّاد والعلماء والفقراء.

وفي ذي القعدة ورد الخبر بوفاة أبي علوان ثِمال بن صالح أمير بني كلاب وأمير حلب]، وقام أخوه عطية مقامه.

---

(١) في (خ) و(ف): رمضان، والمثبت من (م) و(م١)، وهو الموافق لما في تاريخ دمشق ٦/ ٢٥٢.
(٢) المنتظم ١٦/ ٧٦.

[وفيها تُوفِّي

الحسن بن مشير

أبو علي، الكناني، الدمشقي، قال الحافظ ابن عساكر(١): أقام بجامع دمشق خمسين سنة يقرأ القرآن احتساباً، وتوفي في ذي القعدة، ودُفن بالباب الصغير، سمع أبا محمد بن أبي نصر وغيره، وروى عنه نجا بن أحمد العطار وغيره، وكان صالحاً ثقةً].

[وفيها تُوفِّي]

سُبُكْتِكين التركي

أبو منصور، ابن تمام الدولة، ولي دمشق من قِبَل المستنصر سنة اثنتين وخمسين، وتوفِّي بها في ربيع الأول، وكان صالحاً عفيفاً، سمع الحديث ورواه، وكان إذا قُرِىء عليه الحديث يقول القارىء: أنبأنا العادل الأمير الصالح أبو منصور التركي.

[وفيها تُوفِّي]

عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن(٢)

أبو الفضل، الرازي، المقرىء، العجلي، [ذكره الأئمة، فقال عبد الغفار الفارسي في «تاريخ نيسابور»]: كان إماماً في كلِّ فنٍّ، جوَّالاً في طلب العلم، زاهداً، عابداً، ورعاً، يأوي إلى المساجد الخراب في أطراف البلد ويطلب الخلوة، فإذا عُرِفَ في مسجد انتقل إلى آخر، وما كان يقبل بِرَّ أحد، وكانت وفاته بنيسابور ـ وقيل: بكرمان ـ وكان يقول: إن هذه الأوراق تحلُّ منا محلَّ الأولاد. ومن شعره [من السريع]:

يا موتُ ما أجفاكَ من زائرٍ ... تنزلُ بالمرءِ على رغمِهِ

وتأخذُ العذراءَ من خِدْرِها ... وتسلبُ الواحدَ من أمِّهِ

(١) لم أقف على هذه الترجمة في تاريخ دمشق ولا في غيره، وأثبتت من (م) و(م١).

(٢) تاريخ دمشق ٣٤/١١٦-١٢٠ .

وقال: [من الطويل]

أخي إنَّ صِرْفَ الحادثاتِ عجيبُ ... ومَنْ أيقَظَتْهُ الواعظاتُ لبيبُ
وإنَّ الليالي مُفنياتٌ نفوسَنا ... وكلٌّ عليه للفناءِ رقيبُ
وإنَّ مصيباتِ الزمانِ كثيرةٌ ... لكلِّ امرىءٍ منها أُخيَّ نصيبُ
طوى الدهرُ أترابي فبادوا وفارقوا ... وما أحدٌ منهم إليَّ يؤوبُ
ومَنْ رُزِقَ العمرَ الطَّويلَ تُصيبهُ ... مصائبُ في أشكالِهِ وتَنوبُ
إذا ما مضى القرنُ الذي أنتَ منهمُ ... وخُلِّفْتَ في قرنٍ فأنتَ غريبُ
وإنَّ امرأً قد سارَ تسعين حجَّةً ... إلى مَنْهلٍ من وِرْدِهِ لَقريبُ

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن سلامة(١)

ابن جعفر بن علي بن حكمون، أبو عبد الله، القاضي، القُضاعي، سمع الحديث، وولي القضاء بمصر، وصنَّف الكتب، منها كتاب «الشهاب»، وكتاب «دستور الحكم، ومأثور معاني الكلم»، وكتاب تاريخ، وغير ذلك، وكانت وفاته بمصر في ذي القعدة.

وقال فارس بن الحسين الذُّهلي يمدح كتاب «الشهاب»: [من البسيط]

إنَّ الشهابَ كتابٌ يُستضاءُ بهِ ... في العلمِ والحلمِ والآدابِ والحِكَمِ
سقى القضاعيَّ غيثٌ كلَّما لمعَتْ ... هذي المصابيح في الأوراقِ والكَلمِ

[وفيها تُوفِّي]

مَنيع بن وثَّاب

أبو الزِّمام، [النُّميري] أمير بني نمير، والي حَرَّان والرقة [وقد ذكرنا طرفاً من أخباره مفرَّقاً في الكتاب] كانت وفاته بعلَّة الصرع ليلة الخميس لخمسٍ خلَون من جمادى الآخرة، وكان جواداً سمحاً(٢).

---

(١) تاريخ دمشق ٥٣/١٦٧ـ١٧٠، والأنساب ١٠/ ١٨٠ـ١٨١. وينظر السير ١٨/ ٩٢.

(٢) في (م) و(م١): شجاعاً.

السنة الخامسة والخمسون وأربع مئة

فيها في يوم الجمعة سابع المُحرَّم وصل السلطان، وعزم الخليفة على لقائه، فاستعفى من ذلك، فأُعفي، فخرج إليه الوزير ابن جَهير من الغد، وتلقَّاه عميدُ الملك، وأوصله إلى السلطان، فخدمه وأدَّى إليه عن الخليفة رسالةً تتضمَّن السرورَ بسلامته وعافيته، والأُنسَ بقُربه، وحمل إليه فَرَجيَّةً وعمامةً وثياباً وفرساً من مراكبه، فعضد حتى قام، وقبَّل الأرض، وطرح العميد الفَرَجيَّة على كتفيه، ودخل من الغد دار المملكة في زَبْزَبٍ بعثه إليه الخليفة، وكان مرض بأرمية وثَقُل عليه، فشغب العسكر، فأُجلِسَ على مضض، وأدخلَ وجوههم إليه، وأوصى إن حدث به الموت أن يُنصِّبوا مكانه سليمان ابن أخيه داود، وهو حينئذ صغير بأصبهان، والسلطان متزوِّجٌ بوالدته، وأن يرجعوا إلى رأي عميد الملك من غير مخالفةٍ ولا عدولٍ عنه، وقرَّظه[1] ومدحه، فأجابوا بالسمع والطاعة، إلا أردم الحاجب، فإنه قال: ما أخدم[2] أحداً بعدك، وأمضي إلى ألب أرسلان ابن أخيك داود، وأنزل عليه، وسار من وقته إلى خراسان، وكان من رأي عميد الملك ومشورته ليتمَّ له الاستبداد بالأمور، ويستولي على الملك، وقالت الجماعة: قد نزل الثلج وما لنا طاقةٌ بالمسير إلى بغداد، ونريد أن نستقر في بيوتنا. فقال: اذهبوا. وجاء إلى بغداد ومعه عميد الملك، وبرشق الحاجب، والأمير علي بن الملك أبي كاليجار ـ وأبو كاليجار هزارسب ـ وبدر بن مهلهل، وغيرهم.

و[فيها] سار [السلطان طُغْرُلْبَك إلى بغداد] فصادفوا عقبةً عظيمة قد طمَّها الثلج، ولا بُدَّ من قَطْعِها، فحُمِلَ السلطانُ في مِحفَّة على أعناق الرجال، ومات معظم الناس والدواب، ولمَّا دخل السلطان[3] بغداد نزل العسكر في الجانب الغربي، وأخرجوا الناس من دورهم، وأوقدوا أخشاب السقوف للبرد العظيم، وتعرَّضوا لحريم الناس، وقطعوا الطرقات، وأخذوا عمائم الناس، وجاء قوم من الأتراك فصعدوا إلى أسطحة حمامات بنهر القراطيس ونهر طابق، فقلعوا الجامات، واطَّلعوا على النساء [منها]،

---

(١) أي: أثنى عليه.

(٢) في (خ): ما آخذ، والمثبت من (ف).

(٣) في (خ): الناس، والمثبت من باقي النسخ.

ثم نزلوا وهجموا عليهنَّ، وأخذوا مَنْ أرادوا منهنَّ، وخرج الباقون عُراةً إلى الطريق، واجتمع الناس وخلَّصوهنَّ من أيديهم، وجاء عميد الملك إلى دار الخلافة، وخدم عن السلطان، فأوصله [الخليفة] إليه، وخاطبه بالجميل ولاطفه، وأعطاه عِدَّة قطع ثياباً؛ تشريفاً له، وطلب الحمية، وحمل خاتم السلطان وكان ذهباً وفضةً وماساً، وزنُه درهمان وحبتان، وقال: هذه الجهة الكريمة. ولزم مطالباً لها، وبات في الديوان، وتردَّدت رسائلُ إلى الخليفة، فكان الجواب: إنك يا منصور بن محمد كنت تذكر أنَّ الغرضَ من الوصلة التشرُّفُ بها، والذكرُ الجميل لركن الدين فيها، وكُنَّا نقول: إننا ما نمتنع من ذلك إلا خوفاً من المطالبة بالتسليم، وجرى ما قد علمتَه، ثم أخرَجَنا ابنُ المحلبان، وقرَّر معكم قبل العقد ما أخذ به خطَّك، وأنه إن كان يوماً ما طالبه باجتماع كان ذلك في دار الخلافة، ولم يسمِّ لقراح الجهةَ منها، فقال عميد الملك: كلُّ هذا صحيح، والسلطان مقيمٌ عليه، وعازمٌ على الانتقال إلى هذه الدار العزيزة حيث ما استقرَّ، فليُفْرِدْ له ولِحُجَّابه وخواصِّه وغلمانه مواضعَ يسكنونها، فما يُمكِنُه بُعْدُهم عنه، وقطع بذلك الجهة، وجرت مراسلاتٌ استقرَّ انتقالُها إلى دار المملكة، وعلى أن لا يخرج من بغداد مع ركن الدين، ولا ينتقل معه في أسفاره، وأحضر قاضي القضاة حتى استحلفه على الاجتهاد في ذلك، وانصرف عميد الملك.

وفي المُحرَّم تُوفِّي سعيد بن مروان صاحب آمد، وكان أخوه نصر بميَّافارقين، ويقال: إنَّ نصراً أخاه اتفق مع أبي الفرج الخازن على أن يسقي سعيداً السُّمَّ، فسقاه، فلمَّا شربه أحسَّ [به]، فقال لأصحابه: اقتلوا هذا الكلب، فقد سقاني السُّمَّ. فقتلوه، ولم يظفر نصر من آمد بطائل، وكان السعيد له ولد صغير اسمه مسكويه، فأجلسوه مكان أبيه، وانحرف أهل البلاد على نصر وسَبُّوه، ونفروا منه.

وفي صفر حَملَ الخليفةُ إلى السلطان مئةَ ألف دينار ومئةً وخمسين ألف درهم وأربعة آلاف ثوب من أجناس مختلفة، وكلُّ ذلك منسوبٌ إلى المهر [مهر بنت الخليفة، ومحسوبٌ منه؛ لأن السلطان خطبها وتزوجها].

وفي ليلة الاثنين خامس عشر صفر زُفَّتِ السيدةُ ابنةُ الخليفة إلى السلطان، ونُصِبَ لها من دجلة إلى دار المملكة سُرادقُ، ودخلت فجلست على سريرٍ مُلبَّسٍ بالذهب،

ودخل السلطان فقبَّل الأرضَ بين يديها، وخدمها، ودعا للخليفة، وخرج من غير أن يجلس، وما قامت له، ولا كشفت البرقع عن وجهها ولا أبصرَتْه، وخرج السلطان إلى صحن الدار والحواشي يرقصون فرحاً، ويغنُّون بالتركية، وبعث إليها مع أرسلان خاتون عقدين فاخرين وخسروانيَّ ذهب، وقطعةَ ياقوت حمراء كبيرة، ودخل من الغد فقبَّل الأرضَ وخدمها، وجلس على سرير فضة مقابلها ساعةً، ثم خرج وأنفذ إليها جواهر مُثمَنةً، وفَرَجيةَ نسيج مكلَّلةً بالحبِّ، ومحبقةً منسوجة بالحَبِّ، ومازال كلَّ يوم يفعل ذلك يخدم ويبعث التحف، وظهر منه سرورٌ عظيم، ومن الخليفة تألمٌ كبير، وخلع السلطانُ في بكرة ذلك اليوم على عميد الملك في دار المملكة، وحمل على فرس بمركب ذهب، وأعطاه سيفاً مُحلًّى، وزاد في ألقابه حيث حصلت [له] الوصلة بسفارته، وخلع على جميع الأمراء والحاشية، وواصل عمل السِّماط أياماً.

وفيها دخل الصُّليحي إلى مكة، واستعمل الجميلَ مع أهلها، وأظهر العدل والإحسان والأمن، وطابت قلوبُ الناس، ورخصت الأسعار، وكثُرت له الأدعية، وكان شاباً أشقرَ اللحية، أزرقَ العينين، وليس باليمن أزرقَ أشقرَ [غيره][1]، وكان متواضعاً، إذا جاز على جَمْعٍ سلَّم عليهم بيده، وكان فَطِناً، قَلَّ أن يُخبِر بشيء إلا ويَصِحَّ، وكسا البيتَ ثيابَ بياض، وردع[2] بني شيبة عن قبيح أفعالهم، وردَّ إلى البيت من الحُليِّ ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون أخذوه لمَّا ملكوا بعد شَكَّر، وكانوا قد غيَّروا البيت والميزاب، ودخل البيت ومعه زوجته، ويقال لها: الحُرَّة، وكانت حُرَّةً كاسمها، مدبِّرةً مستوليةً عليه وعلى اليمن، وكان يُخطَبُ لها على المنابر، يُخطَبُ لها بعد المستنصر والصُّليحي، فيقال: اللهمَّ وأدِمْ أيام الحُرَّة الكاملةِ السديدة، كافلةِ أمير المؤمنين. وكانت لها صدقاتٌ كثيرة، وكرَمٌ فائض، وعدلٌ وافر.

وأقام الصُّليحي إلى يوم عاشوراء، وراسله الحسنيُّون، وكانوا قد بَعُدوا عن مكة: اخرُجْ من بلدنا ورتِّبْ منا من نختاره. فرتَّب محمد بن أبي هاشم في الإمارة، ورجع إلى اليمن، ومحمد [بن أبي هاشم] صهر شَكَّر على ابنته، وأمَّره على الجماعة، وأصلح

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف) و(م) و(م١).

(٢) في (م) و(م١): وردَّ.

بين العشائر[١]، واستخدم له العساكر، وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً، وكان الصُّليحي يركب على فرس [له] يُسمى الملك، قيمته ألف دينار، وعلى رأسه مئة وعشرون قصبة ملبَّسة بالذهب والفضة، وإذا ركبت الحرة ركبت في مئتي جاريةٍ مزيَّناتٍ بالحُليِّ والجواهر، وبين يديها الجنائب، بمراكب الذهب المُرصَّعة.

وقيل: إنه أقام بمكة إلى ربيع الأول، فوقع في أصحابه الوباء، فمات منهم سبعُ مئة رجل، ثم عاد إلى اليمن؛ لأن العلويين تجمَّعوا عليه، ولم يبقَ معه[٢] إلا نفر يسير، فسار إلى اليمن، وأقام محمد بن أبي هاشم [بمكة] نائباً عنه، فقصده بنو سليمان الحسنيُّون مع حمزة بن أبي وهَّاس[٣]، فلم يكن لهم به طاقة، فحاربهم، وخرج من مكة، فتبعوه، [فرجع] فضرب واحداً منهم ضربةً بالسيف، فقطع ذراعه وفرسه وجسده، ووصل إلى الأرض، فدُهشوا، ورجعوا عنه، وكان تحته فرس يُسمَّى دنانير، لا يَكِلُّ [ولا يَمَلّ]، وليس له [في] الدنيا نظير[٤]، ومضى إلى وادي الينبع[٥]، وقطع الطريق عن مكة والقافلة، ونهب بنو سليمان مكة، ومنع الصُّليحي الحجَّ من اليمن، فغَلَتِ الأسعار، وزادت البلية.

وفيها ورد الخبر بمسير الأمير ألب أرسلان بن داود من بلخ إلى نيسابور لمَّا كثُرَ الإرجاف بموت السلطان.

وفي يوم الخميس تاسع ربيع الأول حضر عميد الملك إلى ديوان الخليفة، واستأذن للسلطان ولابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة بالمسير إلى الري يستزيرها مدة ستة أشهر، فأذن للسلطان، ولم يأذن لخاتون، وكانت شاكِيةً اطِّراحَهُ لها، فإنه لم يقربها منذ اتصل بها، وخرج السلطان من الغد، وهو عليلٌ ثقيل مأيوس من سلامته، واستصحب معه السيدة ابنة الخليفة بعد امتناعٍ شديد، فغلظ عليها، وألزمها ولم يتبعها

(١) في (خ) و(ف): العساكر، والمثبت من (م) و(م١)، وهو الموافق لما في شفاء الغرام ٢/ ١٩٦.
(٢) في (ف): منهم.
(٣) في (خ) و(ف): هواش، والمثبت من (م) و(م١)، وشفاء الغرام ٢/ ١٩٦.
(٤) في (م) و(م١) وشفاء الغرام: شبيه.
(٥) في (م) و(م١): وادي البقيع، والمثبت موافق لما في شفاء الغرام.

من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة برسم خدمتها، ولحق الخليفةَ ووالدتَها من ذلك أمرٌ عظيم، وأظهر الحزن الكثير، وكان من فعل عميد الملك ووضعه، ومضى هزارسب إلى الأهواز بعد أن أقام على باب السلطان سنتين.

و[فيها] وقع بمصر وباء عظيم كان يخرج [منها] في كل يوم ألف جنازة، وتوفي فيه ابنُ المُدَبَّر الوزير، وكان [ابن المُدَبَّر] قد نظر في وزارة مصر في ربيع الأول.

وفي يوم الأحد عاشر [شهر] ربيع الآخر خُتِنَ الأميرُ عُدَّةُ الدين أبو القاسم.

وفي ليلة الاثنين لخمسٍ بَقِين منه انقضَّ ببغداد كوكبٌ عظيمٌ كبير، وفي صبيحته كان ريحٌ وسحابٌ ورعدٌ وبرق، فلحق قافلةً عظيمةً عند قبر الإمام أحمد ﷺ منه صاعقةٌ أحرقت واحداً منها، ولم يتغيَّر لونُ جلده، وإنما نزعوا قميص المحترق، فوجدوه قد صار هباءً منثوراً.

وفي ربيع الآخر قدم أمير الجيوش بدر إلى دمشق والياً عليها، ونزل بالمِزَّة ومعه القاضي الشريف أبو الحسين بن يحيى بن زيد الحسني الزيدي ناظراً في أعمالها، فأقام بها بدر فلم يستقِمْ له مع أهلها حالٌ، وحاربهم وحاربوه، فهرب منها في رجب سنة سبع وخمسين [وأربع مئة].

وفيها عصى أنوشروان على السلطان وانهزم، فلحقه أيتكين، فأخذه أسيراً، وحمله إلى الري، فقال له: دعني أزور قبر والدتي. فأذِنَ له، فلما دخل استجار بالقبر، وقال: لا أخرج. فلازمه أيتكين، وكتب إلى السلطان وهو بهَمَذان يخبره، فبعث مَنْ قيَّده وأخرجه من التربة، وحمله إلى بعض القلاع، وبينها وبين الري بضعة عشر فرسخاً، فحبسه.

وفيه ورد الأمير أبو القاسم سليمان بن أخي السلطان ووالدته من أصبهان إلى الري، وكان السلطان قد جعل إليه ولاية العهد وأوصى إلى عسكره.

وفيها كانت بين قاروت بك بن داود وبين فضلويه الشونكاري [وقعة][1] على فرسخين من شيراز، وانهزم فضلويه إلى فسا، وكان قد مال إليه طائفةٌ من الديلم، فقتلهم، وغنم أموال فضلويه.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

وكان فضلويه في عشرين ألفاً من الديلم وغيرهم، وكان قاروت بك في أربعة آلاف تركي، وكان الديلم قد حلفوا لقاروت بك وغدروا به، فأسر منهم جماعةً، وسأل القضاةَ والفقهاءَ، وقال: هؤلاء حلفوا لي وغدروا وقصدوا قتلي. فأفتَوه بقتلهم، فضرب رقابهم على نهر يسمى العمري، فكانت دماؤهم فيه مثل الماء تجري. ويقال: كانوا سبع مئة رجل، ونظف البلاد من الديلم، ومضى فضلويه إلى فسا، ولمَّا بلغ الديلم ما فعل قاروت بك مالوا كلُّهم إلى فضلويه وأطاعوه، وكان قاروت بك عادلاً منصفاً جواداً، وكان يخطب للخليفة، وبعده لعمِّه طُغْرُلْبَك، ثم لنفسه.

وفي جمادى الآخرة ورد الخبر بدخول نصر بن مروان آمد وملكه إيَّاها، مضافاً إليها ميَّافارقين.

ذكر السبب:

لمَّا مات سعيد أخو نصر مسموماً أقام أهلُ آمد ابنَه مكانَه، وكان صغيراً، وقام بأمره أبو علي بن البغل القاضي، وخطب له، واستدنى أميراً من الغُزِّ ـ كان بتلك الديار ومعه جماعة ـ إلى آمد، وتقوَّى بهم خوفاً من نصر، فراسل نصر زوجةَ أخيه والدةَ الصبي المتآمر، وأطمعها في تزويجه بها، وبذل لها مالاً، فأجابته، وتوافقا على القبض على القاضي، فدخل القاضي يوماً على ولدها على عادته، فقبضت عليه، ووثب أهلُ البلد إلى دار القاضي ونهبوها، وكان فيها شيء كثير للتجار في الأمصار وودائع، وبعثت إلى نصر، فجاء وقَرُب من آمد، وعلم بَرَّجان أميرُ الغُزِّ، فهرب، فوقع به قوم من بني تميم، فأسروه، وجاء نصر إلى باب الهُوَّة ففُتحت له، وحصل في القصر، وأحضر وجوه البلد وطيَّب قلوبهم، وقرَّر على القاضي نيِّفاً وثلاثين ألف دينار، واعتقله على أدائها، وجاء بنو تميم ببرجان، فابتاعه منهم، وبعث به إلى ماردين فأُرمي من أعلى سورها فهلك.

وفي جمادى الآخرة ورد كتاب من الشرق بأن عميد الملك برز من الريِّ إلى قلعة كَرْدُكُوه يحاصر قُتُلْمِش ابن عم السلطان، وهو الآن مقيمٌ بحيِّها في عشرة آلاف مقاتل غير الحشو والرجَّالة، والقلعة ممتنعة جداً، لا يمكن الوصول إليها إلا بنفاد الزاد والماء، وليس فيها عينٌ، وإنما يشربون من ماء المطر يجتمع في الصهاريج، فإن نفد سلَّموا، وإلَّا فلا سبيل عليها، وكان قد شرع في الصلح وأجاب إلى النزول، غير أنه اقترح اقتراحاتٍ، منها أن السلطان يحلف له بالطلاق على الحفظ والحراسة، وأن لا

يُطالب بجريرة فعله، ومنها أن يتزوج بأخت الأمير سليمان، ومنها أن يُفرد بولاية جليلة، فقيل: أما التوثقة فمبذولة، لكن تشتمل على الأيمان المعهودة، وأما الولاية فيُجاب إليها، وأما التعيين على التزويج والحلف بالطلاق، فمن يتجاسر على السلطان بهذا؟ [فقال قُتُلْمِش: فإن لم تجسروا على السلطان بهذا][(١)] فكيف أُسلِّم أنا نفسي إليكم بغير توثقة يطيب بها قلبي. فتوقف الأمرُ بهذا السبب، ووردت الأخبار بأنَّ ألب أرسلان بن داود كان يجدد الأراجيف بالسلطان، قد جمع عسكره وجنده ومقدار عسكره الذين في صحبته عشرون ألفاً وعشرة آلاف راجل، وسار طالباً الري، فلمَّا تحقَّق عافيةَ السلطان ووصولَه إلى الري عاد إلى خراسان ولم يُحدِثْ حدَثاً، وكان قد سار في عساكر عظيمة، وهيبة جليلة، وعدل شامل.

وفي شعبان كانت بأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصور وعكا والشام وطرف من الروم زلازلُ عظيمةٌ هدمت الحصون والأسوار.

وفيه نزل محمود بن شبل الدولة بن صالح على حلب، وحَصَرَ عَمَّهُ عطية بها، وقُتِلَ ليلة النصف من شعبان عليها مَنيعٌ بن [مُقلّد بن][(٢)] كامل بحجر المنجنيق، ورحل محمود عنها ولم يظفر بطائل.

وفي رمضان قُتل محمود بن محمود بن ثِمال الأخرم أميرُ بني خفاجة في سرداب - بمكان يُقال له: الجامعين - غيلةً، والذي قتله رجب بن مَنيع، كان أميراً قبله، وسليمان ابن أخيه، وكان الأخرم مُطرحاً لأمر بني خفاجة، مُدِلًّا عليهم، مُعرِضاً عنهم، مُتهاوناً بهم، مانعاً لهم عن الغارات، مستقصياً عليهم في الإقطاعات، فلمَّا أدركت الغلات في هذه السنة أنفذ إلى بغداد، فاستدعى نجدةً من العجم استوفى بهم مالَ السلطان المقرَّر عليهم عن سقي الفرات، فأنفذ إليه نحواً من خمسين فارساً، وسار بهم إلى الجامعين، وقرَّر على بني خالد عن نواحيهم نحو ألفي دينار، وأخذ رهائنهم على الوفاء بها، وفعل بالباقين كذلك، فاجتمعوا إلى رجب بن منيع، وقد كان محمود صالَحه واستحلفه ومكّنه من النزول معه والقُرب، فشكَوا إليه ما يُلاقون، ووافق ذلك

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

(٢) ليس في النسخ وهو في زبدة الحلب في تاريخ حلب ١/ ٥٥ .

ما كان في قلبه، فاستحلف جماعةً منهم، ودخل سليمان ابن أخي رجب معهم، وضمن لهم اغتيالَه، ونزل محمود إلى سردابٍ يتبرَّد فيه، فجاء رجب وسليمان ابن أخيه، فدخل جابرٌ حاجبُ محمود، وكان وافقهم، فعرَّفه بحضورهم، فقال: هذا وقت القيلولة، تقعدون في الخيمة حتى أخرج. فهجموا عليه، فقام وقال: ويلَكم، إنه دمٌ لا يُضاع. ومسكه جابر حتى قتلوه، وقطع سليمانُ رأسَه، وتركه في كمِّه، ودخل على حظيَّة[1] محمود فافترشها قهراً، والرأس يَشْخُبُ دماً في كمِّه، وأخذها إلى قلعة سفانا، وكان يركب الفاحشة، فضجرت منه، وقالت: لا حياة بعد محمود، وألقت بنفسها من أعلى، فهلكت، وهرب بدر بن محمود إلى بغداد، وقُتِلَ صالحُ بن محمود مع أبيه.

وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان توفي السلطان طُغْرُلبك بالري، ووصل [الخبر] إلى بغداد من جهة السيدة ابنة الخليفة في الرابع والعشرين منه، وذكرت أن حاله ثقُلَت، فحُمِلَ من الموضع الذي كان فيه بقصران إلى الري، فلمَّا نزل الدارَ مات، وتولَّت زوجتُه أم سليمان التي كانت زوجة أخيه داود، وفروخ الخاتوني أمره في غسله ودفنه [وكتموا خبره، وسنذكره في ترجمته] فكان بين زفاف السيدة إليه وبين وفاته ستةَ أشهر وثلاثةً وعشرين يوماً.

وفيها كثرت غارات العرب على بغداد حتى أخذوا ثياب الناس من باب بغداد، وقدم رجب بن منيع أمير بني خفاجة فنزل بالنجمي واستُدعي إلى بيت النُّوبة خامس ذي القعدة، فخلع عليه طاق سقلاطون، وفَرَجيَّةَ ديباج مُذهَبة، وعمامةً بيضاءَ مُذْهَبة، وكتب عهده على ما وليه من سقي الفرات، وعاد إلى بلده، ولمَّا تُوفِّي السلطان كاتب الخليفةُ أصحاب الأطراف مسلم بن قريش أمير العقيليين ودُبيس بن مَزْيَد أمير الأسديين وأبا كاليجار هزارسب وأبا الفتح وأبا النجم ابني ورَّام وبدر بن مهلهل أمراء الأكراد كتباً تتضمن إعلامهم بما يتجدَّد، واستدعاءَهم إلى الباب فيشاوروا فيما يفعل، وخصَّ مسلماً بخُلعةٍ بعث بها إليه، وروسل العميد أبو سعيد القايني، وأشعر بالحال، واستدعى إبراهيم وأمر له ما يعتمده ويعول عليه في تسكين البلاد والخدمة، فرهَّب الحضورَ وقال: قد ظهر من الإشاعة لهذا الخبر وتسريح الركابية إلى أصحاب الأطراف

(١) الحظيَّة: المرأة المفضلة على غيرها في المحبَّة. المعجم الوسيط (حظي).

بالاستدعاء إلى ما أوحشني، وقد كان الرأيُ أن يكتم هذا الأمر حتى تَسْلَم البلادُ من الغارات، وتنحسمَ عنها مواد الأطماع، إلى أن يُحكَم تدبيرُها، وأنا فما أحضر إلى الدار العزيزة إلا بعد الأمان الذي أسكن إليه، ومع ذلك فما ورد إليَّ في هذا الأمر ما أُعوِّل عليه، وإذا صحَّ عندي فأنا غلامُ عميد الملك، وإذا ورد إليَّ كتابُه بأمر امتثلتُه، وجمع العجم إليه، وكان نازلاً بقصر عيسى، وابتدأ بعمل سورٍ على بابه يتحصَّن به، وأعدَّ فيه الغلَّات والسلاح، وعبَّأ على السطوح الحصا الذي حرزه في الزواريق من عُكْبَرا، وأطلق يده بالتواقيع للعرب بالنواحي، ولم يقطع ضرب الطبل من دار المملكة، وأظهر قلة الثقة بهذا الخبر، وجلس الوزير ابن جَهير للعزاء في صحن السلام يوم الثلاثاء السادس والعشرين من رمضان.

وفي مثل هذا اليوم كان دخول السلطان بغداد سنة سبع وأربعين وأربع مئة، فكانت مدة ملكه العراق سبعَ سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً، وثَقُلَ على الخليفة ما فعله أبو سعيد، وتقدَّم بأن يكتب له الأمان الذي التمسه، وعلَّم عليه بخطِّه، فحضَرَ بعد مخاطبةٍ طويلة، وصعد إلى باب العزبة، وخدم ودعا، وعاد من وقته، ولم يحضر موضع التعزية، وخدم، فطرح أصحابه الخلع على الملَّاحين سروراً بسلامته، وتقدَّم إلى الخطباء من الديوان بقطع خطبة السلطان، فقُطعت يوم الجمعة لليلةٍ بقيت من رمضان.

وفي شوال قتل سليمان قاتل الأخرم، وكان قد اعترض قافلةً شاميةً وطلب منها خفارةً، فمنعه ابن بطن الحق الكعبي، وقال: هذه خفارة أبي وجدِّي. وتنازعا، فضربه بحربة، وقتله، وهرب بنو كعب خوفاً من رجب بن منيع، فقال رجب: أنا ولي هذا الدم، وقد وهبتُه. وكان بين قتل محمود وسليمان أقلَّ من شهر.

وفيه ورد الخبر بوفاة السلطان، ولا بُدَّ من الاجتماع ليُقرِّر ما يفعل، فسار صدقةُ إلى الأهواز، فلمَّا حصل في دار هزارسب قبض عليه واعتقله، وكان الليث بن صدقة في بعض الطريق ومعه معظم خزانة أبيه، فهرب ودخل بغداد بعد أن نزل على دُبيس، ونزل الخرابة في الحِلَّة، وسأل الديوان، فكاتبه هزارسب في معنى أبيه والتلطُّفِ في خلاصه، فكُتِبَتْ له الكتب، وكُتب إلى أبي عبد الله المردوسي - وكان عند دُبيس - بالمُضيِّ إلى هزارسب في هذا المعنى، فعاد وقال: أولينا لنحقِّق الأمر.

وفي يوم السبت منتصف شوال وكل بالعميد القايني في دار الخلافة.

ذكر السبب:

كان مكاشفاً للخليفة، مُطَّرِحاً أمرَه، ولمَّا مات السلطان لم يُقلِعْ عن ذلك، وأدخل يده في الإقطاعات والأسباب الخليفتية، وتوقع منه الرجوع فلم يفعل، وطُولِعَ الخليفةُ بأنَّ عنده من الارتفاع جملة، ودخل رجل من بني عقيل، فاستجار بحريم الطاهري، فبعث وأخذه وكان معه مال، فأرسل إليه الخليفة: قد كنتَ تنظر في هذا البلد من قِبَلِ مَلِكٍ مضى لسبيله، فإما أن ترفع يدك وتسكن آمناً، وإلا فاخرج من هذا البلد. فدافعَ وغالطَ، وأقام في الديوان من ينظر في البلد، وهرب العجم إلى دار العميد، فأحضر الخليفةُ القضاةَ والفقهاءَ، وأرسل إليهم: ما تقولون فيمن عصى الإمام، ومرق عن طاعته، وأبدى صفحة مخالفته؟ فأفتَوا بقتاله وجهاده، وبلغه ذلك، وشاع انحلال أمر عميد الملك، فأرسل يعتذر، واستقرَّ أن يحضر بيت النُّوبة ليحلف عن ما حصل في يده من الارتفاع، ويرجع إلى داره بحريم الخلافة لعمل الحساب، وأحيط بالسور الذي عمله، وحفظوه من الهرب، فخاف، فعبر إلى بيت النُّوبة، واستحلفه قاضي القضاة، فأقرَّ بثلاثين ألف دينار وست مئة كُرٍّ غلَّةً، فقال القاضي: أين هذا المال؟ حاضرٌ أم مفرَّقٌ في السواد؟ ففطن، فقال: مُفرَّق. فقال: إذا أحضرتَه شهدنا عليك. وطالبَه أقوامٌ بأموال، فاعتُقل حتى تحرَّر أمرُه. وقيل: إنه قيل له: امْضِ إلى دارك بدرب الدواب، واعمل الحساب. فخاف، وقال: ما أخرج من هذه الدار العزيزة. وطُولِعَ الخليفةُ، فقال: يكون في الديوان، ومعه خادم وجماعة، ثم قُرِىء على المنابر توقيعٌ من الخليفة برفع الضرائب والمكوس، وكُتِبَ على أبواب الجوامع.

ذِكْرُ ما جرى في أصحاب الأطراف:

قد ذكرنا أنَّ الخليفة كاتبهم بالاستدعاء، وخَصَّ مسلمَ بنَ قريش بخِلعة، فوصل إلى تكريت، ورام أعذار العرب معه، فلم يفعلوا، وطلب كلٌّ منهم مُناه، وأطمع جماعةً منهم، فاتَّبعوه، وراسل أبا علي بن موسك وأبا الحسن بن عيسكان بن غيمي الأكرادَ بأرض إرْبِل وبلادها، وموَّه عليهما، وقال: إنني منحدرٌ إلى بغداد، وإنَّ الخليفة يُؤمِّرني على العراق، ويستنيبني في البلاد. ولبس الخلعة المنفذة إليه بالموصل، فعبر

إليه، وانحدر في جملته، واتَّفق أنَّ الوزير ابنَ جَهير وجد غلامين لمسلم من الغُزِّ، ومعهما ملطفات إلى الغُزِّ والعجم الذين ببغداد، وإلى الرمش الحاجب يعدهم بالمال والبلاد، فقبض عليهما، وكان مسلم قد بعث أخاه إبراهيم إلى أوانا يستخرج ارتفاعها، فجهَّز الوزير الرمشَ في مئتي غلام، ومحمد بن منصور ومهاوش بن مجلي في نحو خمسين فارساً إلى أوانا للإيقاع بأخي مسلم، وبلغه، فانهزم، وكوتب للأطراف بالمبادرة، فأمَّا ابنا ورَّام فقَدِما في عدةٍ قوية، ونزلا ظاهر الحريم، وتوقَّف دُبيس، ثم قدم، وراسل مسلمٌ والي تكريت بتسليم القلعة، فقال: حتى يخرج الشتاء؛ فإنَّ طريق خراسان لا ينسلك اليوم من الثلج. فحاصره، فكبسه في الليل، وقتل جماعةً من أصحابه، وأخذ خيلَهم، وأخذ فرساً لمسلم يُعرف ببيت العرجاء كان وُعِدَ به، وعاد إلى القلعة، وانتشرت البوادي في السواد، وأرجف بأن مسلماً يدخل بغداد ويجلس في دار المملكة، ويحاصر دار الخليفة وينهبها، فانزعج الخليفة والناس، وعبر الرمشُ الحاجبُ والغُزُّ والغلمانُ إلى الحاجب الغربي، وخلَعَ الخليفةُ على العرب والترك، وبذل المال، وورد كتاب هزارسب إلى الأهواز يذكر أنه يخدم الخليفة بمئة ألف دينار إن وُسِمَ بميسم الملك، فكتب إليه: هذا الأمر لا يمكن إلَّا في السلجوقية، ويجب أن تتشاغل بقاروت بك الذي هو بقُربك ـ وقد استولى على البلاد ـ حتى تدفعه، ويكون لك بعد ذلك حديث. وكان قاروت بك قد كتب إليه يأمره بالدخولِ في طاعته، وإقامةِ الخطبة والسِّكَّةِ له بخوزستان والبصرة، وتلك النواحي، ويتهدَّده إن لم يفعل، وجاءت رسل مسلم إلى الديوان برسالة مضمونها: ما أعلمُ سببَ هذه الجموع والعساكر والخِلَع وإنفاق الأموال، فإن كان لأجلي فما شققتُ عصاً، ولا خرجتُ عن طاعة، ولا انحدرتُ إلا بكتبك أيها الوزير واستدعائك وإنفاذك إليَّ الخلعة، وإني لبستُها بالموصل متشرفاً بها، فلما انحدرتُ وقربتُ من الخدمة ذمَّيتَ أفعالي، وقبَّحتَ أحوالي، وجمعتَ العساكر عليَّ، فإن كان قُربي قد كُرِه فأنتم استدعيتموني وما لي ذنبٌ في ورودي، وأما تصرُّفي في البلاد فما فعلتُ منكراً، هذه بنو أسد بلادُهم ما زالَتْ في أيديهم مدةَ أيام السلطان طُغْرُلْبَك، وقد استجدُّوا اليد في أعمال واسط، وكذا بدر بن مهلهل وهزارسب وابن ورَّام ـ وعدَّدَ أمراء الأطراف ـ وأما نحن جماعةَ بني عقيل فما

زِلْنا في أيام السلطان مدفوعين، عن[١] إقطاعاتنا خائفين، وغيرُنا يأكل بلادنا، من غير أن حدَّثْنا نفوسَنا باستضافة ما لم يكن لنا، فإن دفعتموني عمَّا كان لآبائي وأجدادي، فمن بُغِيَ عليه لينصُرنَّه الله، وإن أُجريتُ بجري غيري فليرجع كلٌّ واحدٍ من هؤلاء الأمراء إلى مكانه، وإني جارٍ في الطاعة مجراهم، وخادمُ الدار العزيزة. فثَقُلَ على دُبَيس والجماعة قولُه؛ لكونه تعرَّض لما مدُّوا أيديهم إليه، وطالعوا الخليفة، فكان الجواب: لو كان باطنُ ما أورده كظاهره ما أُنكِرَ عليه، ولكنه قد أبطن العصيان، وظهرت أماراتُ الفساد منه، ومالَهُ عندنا جوابٌ عن رسالة، ولا ها هنا غيرُ دفعه ومحاربته.

وتقدَّم إلى الجماعة بدفعه عن هذه البلاد والعبور إلى النجمي والنزول على الرملة، فأجابوا بالسمع والطاعة، وأرسلوا إلى أعمالهم يحشدون الرجال من العرب والديلم وغيرهم، وقال الوزير للمرسل: قد جئتم برسالة ظاهرها الطاعة، وأفعالُكم تنافيها، وما كُوتِبْتُم إلا كما كُوتِبَ غيرُكم، ولتكونوا في الخدمة طائعين، وقد ظهر منكم ضدُّ ذلك، فإن كنتم صادقين فابعثوا بعبس بن عيسى، فإنه وجهُ عشيرتكم، ومُقدَّمُ أمرائكم، لنقرِّر معه قاعدةً يجري الأمرُ عليها.

وبينما الناسُ على هذا وصل مسلم إلى أجمة الريادة، وهي على ثلاثة فراسخ من بغداد، فعبر الحاجب ودُبيس وبنو ورَّام وبدر بن مهلهل والغلمان إلى الجانب الغربي، ونزلوا بالنجمي وباب الشام وباب التبن، وجاء بعبس من عند مسلم، فأورد ما أورده الرسل أولاً، وقال: أنا على الطاعة إن أُعطيتُ... أماكن سمَّاها استوعبَتِ العراق، فأُعطي بعضَها، فلم يقنع، وعاد إليه رسولُه، واختلفت الأمراء على الخليفة، وتقدم إلى دُبَيس بتولِّي حربه، فامتنع وقال: أحتاج إلى صاحب [جيش][٢] يندبه الخليفة معي، تسيرُ الجماعةُ تحت رايته، ويكون معه من المال ما يعطيه لمن يبينُ بين يديه، وورد ولد دُبَيس من واسط، ومعه جماعةٌ من العرب الأسدية والديلم والأتراك الواسطية والبغدادية، وورد رجب بن مَنيع في جماعة من بني خفاجة ومن بلد بدر بن

(١) في (ف): في.
(٢) ما بين حاصرتين من (ف).

مهلهل، وأُقيمت له الإقامات، وأُعطوا المالَ والخِلَع، وطابت قلوبُهم، وندب لهم من خدم الخليفة موفق الخادم الخاص، وضُرِبَتْ له النُّوبة بالنجمي، وعقد له الخليفة لواء أبيض بيده، وفيه كتائب سود، ولقَّبه أمينَ الدولة، وسار في خدمة الأتراك والأمراء المذكورين والعساكر، فخيَّم بقطيعة الدقيق، وثار العوام، وطلب أهلُ كلِّ محلَّةٍ منجوقاً يقاتلون بين يديه، وغلقوا الأسواق، ولبسوا السلاح، ودقُّوا بالدبادب، وواصلوا الخروج إلى العسكر، وجاء جماعةٌ من العرب إلى بعض القرى، وعلم بهم العسكر، فخرج إليهم جماعةٌ فقتلوا منهم جماعة، وأخذوا خيلهم، وجاء رسول مسلم يعتذر ويقول: أنا العبد الجاني، ومهما أُمِرتُ به امتثلتُه من غير مخالفة ولا مراجعة، وجرى ما انتهى إلى من يخرج إليه، ويتوسَّط الحال، ويقرر القواعد التي يزول معها الخلاف.

وفيها وردت الأخبار من الري أن عميد الملك طالب السيدة بنت الخليفة بالجواهر التي كانت للسلطان عندها، وذكر لها قيمةً عظيمةً، فأنكرت أن يكون عندها شيء، فأدخل يدَه في إقطاعها هناك.

وفيها ثار أهل هَمَذان على العميد، فقتلوه وقتلوا معه جماعةً سبعَ مئة رجل من أصحاب السلطان والشِّحْنة[1]، وجلسوا يشربون الخمر على القتلى، ويضربون بالطبول مدةً، ويؤمِّرون من شاؤوا، وذلك لمَّا صحَّ عندهم أن السلطان مات.

وفيها قصد قُتُلْمِش الريَّ ومعه خمسون ألفاً من التركمان، فدفعه عميد الملك عنها.

وفيها تُوفِّي

السلطان طُغْرُلْبَك[2]

واسمه محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أبو طالب، [وقد ذكرنا طرفاً من أخباره]، قدم بغداد سنة سبع وأربعين، وخلع عليه القائم، وخاطبه بملك المشرق والمغرب، وهو أول ملوك السلجوقية، وهو الذي بنى لهم الدولة، وردَّ ملك بني العباس بعد أن

---

(١) الشِّحْنة: لفظٌ كان يطلق على رئيس الشرطة، ثم أصبح يطلق على قوة الشرطة في المدينة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: ٢٦٩.

(٢) ينظر السير ١٨/١٠٨.

استولى البساسيري على القائم وأخرجه إلى الحديثة، وكان شجاعاً جواداً حليماً، عصى[(١)] عليه جماعةٌ، فعفا عنهم ولم يؤاخذهم، وكتب بعضُ خواصِّه إلى أبي كاليجار ابن بويه كتاباً يذكر فيه سوء سيرته فوقَّع على الكتاب، ولم يقُلْ شيئاً، وكان عميد الملك قد استولى عليه، وتُوفِّي بالري يوم الجمعة ثامن رمضان، وكانت مدة ملكه خمساً وعشرين سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وعمره سبعون سنة، وقيل: جاوز الثمانين، [وقيل: في عشر الثمانين] والأول أصح.

قال عميد الملك: قال لي السلطان: رأيتُ في منامي كأني رُفِعتُ إلى السماء وأنا في ضباب، لا أدري ولا أبصر ساعةً، وإني أَشَمُّ رائحة الطيب، فنُوديتُ: أنتَ بقرب الباري عزَّ وجلَّ، فسَلْ حوائجك، فقلت في نفسي: ما من شيء أحبُّ إليَّ من طول العمر، فقيل لي: تعيش سبعين سنة، وانتبهتُ. قال عميد الملك: فجلستُ فحسبتُ عمره، وإذا به سبعون سنة. وكانت قد توالت عليه أمراض مختلفة، وواصلته حمى ملازمة، وأخرى مناوبة، وما كان يحتمي، ولا يشرب دواءً، فآل به الأمر إلى سقوط القوة، فكان يرعف دائماً، فحُمِلَ من المخيم إلى دار السلطنة في مِحفَّةٍ فمات بها [في التاريخ المذكور] فغسَّلَتْه زوجتُه أم سليمان، وفرُّوخ الخادم، وكفَّنته ودفنته.

وكان عميد الملك يحاصر قُتُلْمِش في قلعة كَرْدكوه، فأرسلوا إليه، وأقام الناس يوم السبت والأحد وهم يظنون أنه في عافية، والأمور على حالها، والطبل يُضرَبُ على رأسه[(٢)]، واستحلف ابنابجيل الحُجَّاب والخليفاتية ومن كان عنده لسليمان بن داود الذي نصَّ عليه السلطان، وكنيته أبو القاسم، ولقبه مشيد الدولة، وسار الرسول إلى عميد العراق آخر نهار الجمعة، ووصل إليه يوم الاثنين ضحوةً، والمسافة نيِّفٌ وستون فرسخاً، فجمع العساكر وغيرهم، وعرَّفهم الخبر، وقال: أنتم تعلمون أني وإياكم عند ذلك السلطان، وقد مضى لسبيله، وكان عهد إليَّ وإليكم في معنى ولد أخيه، وأنا قانعٌ بثوبٍ ألبسه، وفرسٍ أركبه، وأعيش فيما بينكم، فإن ساعدتموني فعلتُ معكم ما يوفي

---

(١) في (م) و(م١): بغى، والمثبت موافق لما في النجوم الزاهرة ٥/ ٧٣.

(٢) في (م) و(م١): عادته.

على أعمالكم وآمالكم. فقالوا: نحن عبيدك، وجميعُ ما تدبِّره فما نخرج عنه. فجمع ما في العسكرين من مال ودوابَّ وثيابٍ وغيره، فأعطاهم إيَّاه، حتى الدَّواة التي كانت بين يديه، ولم يُبْقِ له سوى فرسٍ يركبه، وسار إلى الري، وهم معه، فوصلها يوم السبت سادس عشر رمضان، ودخل دار السلطنة، وجاء إلى المكان الذي فيه تابوت السلطان، فبكى وحزن حزناً كبيراً، وأراد الأمراءُ والحُجَّاب تمزيقَ ثيابهم، فقال: قد فات وقتُه، والصواب التشاغلُ بغيره، وأجلس سليمانَ على التخت، وجدَّد له الأيمان، وحطَّ من القلعة سبع مئة ألف دينار وستة عشرة ألف ثوب من الأنواع، وسلاحاً يساوي مئتي ألف دينار، وفرَّق الكلَّ، فدعوا له وشكروه، وقال لهم: ما ثَمَّ مَنْ يُخاف من منازعته إلا ألب أرسلان صاحب خراسان، وأنا أراسله وأقول: قد عرفتَ ما كان من وصية السلطان في مُضيِّ الأمير سليمان، وهو منك وإليك، وبضعة من جسمك، فإن طمحت إلى البلاد، فقد انحلَّ من الأعمال ما يوازي هذه البلاد ـ مثل خُوارَزم ونيسابور وغيرها ـ فهو لك، وإن كنت تريد المال فنحن نبعث إليك من هذه القلعة ما ترضى به، ونقيم الدعوة لك بعد سليمان، وتجتمع الكلمة، وتكون الدعوتان واحدة، والبلادُ محروسة، والدماءُ محقونة، وإن أبيتَ وحاولتَ غيرَ ما رتبه السلطان فقد أعذرنا، ونحن نقصدك قبل أن تقصدنا، ويحكم الله بيننا وبينك.

وقيل: إن عميد الملك كتب كتاباً بخطِّه إلى ألب أرسلان أبرق فيه وأرعد، وخوَّف وهدَّد، فكان سبباً لمنيته، وكان السلطان قد اعتقل أنوشروان ابن امرأته في قلعة الري، فلمَّا قويَ مرضُ السلطان عاهده والي القلعة أن يُطلِقَه إن حدث بالسلطان حَدَث، فلما مات السلطان طالبه بما وعده به، فلم يفعل، وكتب إلى عميد الملك بسببه، فخاف عميدُ الملك منه، فلم يأذَنْ بإطلاقه، وكان في عقل أنوشروان لُوثةٌ، فاستدعى الموالي، وجلسا يلعبان بالشطرنج في الحجرة التي هو معتقَلٌ فيها، فوثب عليه فقتله، وثار أهل القلعة، وأحاطوا بالحجرة، فخاف على الجارية التي كانت له وكان يُحبُّها، فقال لها: اطَّلعي من هذه الرَّوزنة إلى الصحراء، وانظري من تحت القلعة. فاطَّلعت، فدفعها ورمى بها إلى الأرض لتهلك قبله، فدخل الريح في ثوبها، فحملها إلى ناحية

الجبل، فانكسرَتْ يدُها، وسلِمَتْ نفسُها، ثم رمى بنفسه بعدها فتقطَّع، وحُمِلَ في تابوت فدُفن عند أمه، وسار ألب أرسلان من خراسان يريد الري، وسار أخوه سليمان إلى شيراز، وأقام عميد الملك الخطبة لألب أرسلان في ذي القعدة، وبعث رسلاً إليه بالطاعة، وجاء قُتلْمِش فحاصر الريَّ وقاتلوه، وكان في خمسين ألفاً من التركمان، فنهبوا الضياع، وسبوا النساء وقتلوا، وجاءهم الخبر بأنَّ ألب أرسلان قد قَرُب من الري وتقدَّمت مُقدِّماته، فسار قُتُلْمِش يطلبها، وأدركه السلطان، فانهزم قُتُلْمِش، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

[وذكر محمد بن الصابىء أنه ظهر من أمر السلطان في نزول زُحَل بُرجَ الأسد، وانتفت وفاته في مثل ذلك، فكانت مدة ملكه ثلاثين سنة. قال: فأمَّا عمره فلم يكن محقَّقاً، إلا أني سمعت فيه أقوالاً كثيرةَ الاختلاف فيها، ووقع الإجماع من طريق الظنِّ والتقدير على أنه في عشر الثمانين. وحكى قصة المنام، وأنه لمَّا قيل له: أنت بقُرب الجبَّار فسل لحاجةٍ تُقضى. فقال: أتمنَّى طول العمر. فقيل له: تعيش سبعين سنة. فقلت: ما تكفيني. فقيل: سبعين سنة. وانتبهت، فقيل ذلك ثلاث دفعات. قال الوزير: فسألتُه عن مولده، فقال: في السنة التي خرج فيها الجانُّ الفلاني بما وراء النهر، فحسبتُها فكانت سبعين سنةً كاملة.

وفيها تُوفِّي]

مسلم بن إبراهيم(١)

أبو الفضل، السَّلْمي، البزاز، ويُعرف بالشويطر [ذكره الحافظ ابن عساكر، وقال: سمع الخطيب وغيره، وروى عنه أبو الوحش الضرير] ومن شعره: [من البسيط]

ما في زمانِكَ مَنْ ترجو مودَّتَهُ ... ولا صديقٌ إذا خان الزمانُ وفى
فعِشْ وحيداً ولا تركَنْ إلى أحدٍ ... فقد نصحتُكَ فيما قلتُهُ وكفى

(١) تاريخ دمشق ٥٨/ ٧٢.

السنة السادسة والخمسون والأربع مئة

فيها في مستهل المُحرَّم استقرَّ أمر مسلم بن قريش، وأُعطي من البلاد ما رضي به، وطلب أن يحضر إلى بيت النُّوبة ليخلع عليه، فأجاب ثم امتنع وتعلَّل، فبعثوا إليه بالخلَع، فلبسها وحلف، وزالت الوحشةُ، واطمأنَّ الناسُ، ورجعت العساكر إلى بلادها، ودخل أبو علي بن موسك وأبو الحسين بن عيسكان إلى الديوان، وخلع عليهما الفَرَجيَّات المُذهَبات والعمائم، وبعث لمسلم اللواء والمركب الذهب وغير ذلك، فلمَّا عاد عميد الملك من حصار قُتُلْمِش بكَرْدكوه نزل قُتُلْمِش من القلعة، وسار إلى التركمان، فنزل عليهم، واستجاش بهم، فنزل إليه أكبرهم، فقوي جأشُه، وانصرف إليه كلُّ مفسد، فسار إلى ساوة ومعه خمسون ألف فارس، وكاتب الأمراء بالاستمالة، فأجابه سُرْخاب بن كامرو، ورحل في الليل هارباً إليه، وبعث إليه أخاه فجسر على قصد الري، وكان أبو نصر الدِّهِسْتاني الملقب نظام الملك عند قُتُلْمِش معتقلاً، ولمَّا علم عميد الملك ما فعل قُتُلْمِش، وأنَّ ألب أرسلان قد توجَّه من نيسابور يريد الري، كاتبه واستمدَّه، واستخرج أمره فيما يفعل، وأقيمت له الخطبة بالري كما ذكرنا، وجاء قُتُلْمِش حادي عشرين ذي القعدة، فأشرف على الري، فخرج إليه عميد الملك والعسكر، فالتقوا، وقصدهم، وكان في المقدمة الأمير ابنابجيل، فأُسِرَ وأُسِرَ معه جماعةٌ خمسُ مئة غلام، وانهزم عميد الملك، ودخل البلد، وعاد العسكر إلى البلد فضبطوه، وجاء التركمان فحاصروه، وقطعوا الموادعة، وأشرف الناس على خِطَّة صعبة، وأنفد عميد الملك عدة جَمَّازات إلى ألب أرسلان، فجاء جوابه: لا تخرجوا من البلد، فأنا واصلٌ إليكم. وعمل التركمان كلَّ قبيح ومنكر، ووصلت مقدمات ألب أرسلان إلى الدامغان مع الحاجب أردم، فرحل قُتُلْمِش سلخ ذي القعدة بمن معه، وساروا يطلبون العسكر الوارد ليفرغوا منه ويعودوا إلى الري، فصادفوا أردم بمكان يقال له: قرية الملح، فقتلوا جماعةً من أصحابه، وتحصَّن بالقرية، وبعث إلى ألب أرسلان يخبره، وكان على فرسخين منه، فرحل إليه فلحقه، ووقع القتال، واشتدَّ الأمر، وكثرت القتلى، وأنزل الله نصره على ألب أرسلان، فانهزم قُتُلْمِش والتركمان، وركبهم السيف مسيرة أربعة فراسخ، وأُرسِلَ رسول تكين أخو قُتُلْمِش وابن قُتُلْمِش

الأكبر وعدةٌ من الأكابر، واستخلصوا نظام الدين والأمير ابنابجيل ومن أُسِرَ بباب الري، وغنموا أموالهم وجميع ما كان معهم، وسار ألب أرسلان يطلب الري، وبعث إلى عميد الملك بالخِلَع، ورسم بأن ينقل طُغْرُلْبَك من الدار إلى التربة وينظف الدار لينزل بها، فكان عميد الملك ينزل في دهليز الدار في حجرة، فاستأذن في الانتقال منها، فقال ألب أرسلان: سروري قربُكَ، فكيف تبعُد عنا؟ ولم يأذن له في الانتقال، وأما قُتُلْمِش فإنه أفلتَ من الوقعة، وترك الطريق المسلوك، وتعسَّف الجبال والمضائق، ومرَّ على بعض قلاع السلطان، فأرسل صاحبُ القلعة وراءه، فساق فرسه، فسقط به وداسه، فتقيَّأ الدم ومات، فحُمِل إلى الري يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة، وخرج عميد الملك للقائه، فأكرمه وقرَّبه وأدناه، ونزل إليه ألب أرسلان في دار المملكة، ولازم عميد الملك خدمته طول النهار على عادته مع السلطان، وثقُلَ ذلك على نظام الملك أبي علي الوزير، وشرع عميد الملك في قبض جماعة من حواشي طُغْرُلْبَك وخدَمِه، فجمع منهم خمس مئة ألف دينار، وسببه أن ألب أرسلان عتب عليه فيما أخرجه من مال القلعة، وأطلقه للعساكر، فقال: ما أمكنني غيرُ ما فعلتُه، وأنا أردُّ بمقدار ما أخرجتُ. فصادر الأعيانَ والخُدَّام.

وفي يوم الخميس خامس المُحرَّم من هذه السنة عمل السلطان بالري سِماطاً عظيماً في دار المملكة، ومَدَّ بين يديه السِّماط الذي كان لطُغْرُلْبَك ووزنه ألفا ألف مثقال، وجلس في مرتبة عظيمة، وخلع على جميع الأمراء والحُجَّاب، ولمَّا بلغ خبرُ عميد الملك واستقامةُ أحواله إلى بغداد سأل دُبيس في العميد أبي سعيد والإفراج عنه [فأفرج عنه][1] في المُحرَّم، فخلع عليه ابنُ جَهير جُبَّة ديباج وعمامةً بيضاء، وانصرف إلى داره، وكان يبدو منه تهدُّدٌ على ما عُومِل به.

وفي يوم السبت سابع عشر المُحرَّم قبض ألب أرسلان على عميدِ الملك آخر النهار، واستولى على أعماله وأمواله، وبعث به إلى مرو الرُّوذ فاعتقله بها، وخلع على وزيره نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي في هذا اليوم، وراسل السيدةَ بنت الخليفة بالإذن لها في المسير إلى بغداد، وقيل: إنَّ تعويقها كان من عميد الملك،

---

(١) هذه الزيادة من (ف).

فخرجت من وقتها إلى دار المرتضى نقيب العلويين بالري، ثم سارت من عنده إلى ساوة، وبعث إليها خمسة آلاف دينار للنفقة، فامتنعت من قبولها، فقيل لها: هذا قبيح فقبلتها، وقيل لها عن نظام الملك الوزير: إنما قبض على عميد الملك لما فعله في حقِّكِ ونقلكِ إلى الري. وسيَّر في خدمتها جماعةً من الأعيان إلى بغداد، وأنفذ أبا سهل محمد بن هبة الله ـ ويُعرف بابن الموفق ـ في صحبتها، والخطاب في إقامة الدعوة لألب أرسلان، وترتيب مَنْ يقوم بالنظر في الحضرة، فتوفي ابن الموفق بالموذقان، فعدل إلى رئيس العِراقَين[1] أبي أحمد النهاوندي، وتقدَّم إليه بالمسير معها، فامتنع، فأُلزِم، فسار مسيرَ مُكْرَهٍ على غير اختيار، وكتب معه كتاباً إلى الخليفة بإقامة الخطبة، ووصلت إلى بغداد في ثالث عشر ربيع الأول، ودخلت ليلاً إلى الدار، وخرج الخدم والحاشية لتلقِّيها، وكانت قد نزلت بالراوودية على نصف فرسخ من بغداد، فخرجت إليها والدتها والخدم والقَهْرمانة، ودخلت ليلاً، وسُرَّ القائمُ بدخولها، وكان قد وصل في خدمتها القاضي أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن وأسكين الحاجب، وحضرا بيت النُّوبة، وسأل قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني أن لا يقعد القاضي أبو عمرو فوقه، فقيل: هذا ضيف، وقد وصل بالجهة، فلا سبيل إلى ذلك. وقام أبو الحاجب وسلَّم إلى الوزير كتابين كانا معه، كتاب إلى الخليفة، وكتاب إلى الوزير، فخرج الجواب يتضمن الشكر للملك عضد الدولة ألب أرسلان، ويفيد بخدمته في شبيه السيدة، فإنه وقع في موقعه، وتقدَّم إلى الخطباء بالخطبة على المنابر، وأقيمت الدعوة يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر، وكانت الخطبة على المنابر: اللهمَّ وأصلِحِ السلطانَ المعظَّم شاهنشاه الأعظم ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياءَ الدين، غياثَ المسلمين، ظهيرَ الإمام، كهفَ الأنام، عضُدَ الدولة، وتاجَ المِلَّة، أبا شجاع الدين، رسلان محمد بن داود برهان أمير المؤمنين. وصحب هذا القاضي كتبٌ إلى الأطراف إلى: مسلم بن قريش، ودُبيس بن مَزْيَد وابن ورَّام وغيرهم، فأجابوه بالسمع والطاعة، وكان ورد قبل السيدة صاحبٌ لرئيس العِراقَين النهاوندي يُعرف بمظفر، فكتب إلى الديوان والوزير فخر الدولة متضمنةً للخدمة، وأنه قدِمَ مظفرٌ أمامه إلى حين وروده، فتقدم إليه الوزير بتسليم المعاملات وتمكينه من النظر والتصرف الذي يتعلَّق

---

(١) العِراقان: الكوفة والبصرة.

به، وتمادت الأيام بوصول رئيس العِراقَيْن، ثم ورد من أخبر أنه مقيم بهَمَذان، ولا رأيَ له في العراق.

وفي هذا الوقت وردت الكتب بأن السلطان ألب أرسلان دخل خلف الأكراد اللوذية، وكانوا يقطعون الطرق، فأوغل خلفهم في الجبال، فظفر بهم، وغنم العسكرُ أموالَهم، وأقام بمكانه، وكتب إليه من بغداد بإقامة الخطبة، فسُرَّ سروراً عظيماً، وسجد شكراً لله تعالى، وبعث العميدُ أبا الحسن علي بن عيسى، وأصحَبَه عشرة آلاف دينار ومئتي ثوب إبريسمية أنواعاً، وحوالةً على الناظر ببغداد بعشرة آلاف دينار أخرى وعشرة أفراس وعشر بغلات، ووصل العميد إلى بغداد تاسع جمادى الأولى، والتقاه عميد الدولة بن فخر الدولة بن جَهير، ووصل إلى باب النُّوبي، ونزل وقبَّل العتبة، ثم مضى إلى دار المملكة فنزل بها، وكان معه توقيعٌ لخاتون السفرية لألب أرسلان بما كان من الإقطاع لزوجة طُغْرُلْبَك التي صار إلى السيدة بنت الخليفة، فامتنع الخليفة من الإفراج عنها، وقال: في هذا غضاضة وقباحة، ولهذه في أموال ركن الدين الذي خلفها حقٌّ بحسب هذا القدر منه. فوقع الإمساك حينئذ عنها، وطلب القاضي النقش على السِّكَّة والخِلَع، فنقش اسم ألب أرسلان على السِّكَّة، وأمَّا الخِلَع فتوقَّف أمرُها، واحتجَّ بأن منها صناعاتٍ وآلاتٍ تحتاج إلى مدة طويلة، والخزائن خالية، فإن كان المراد التعجيل نفذنا فَرَجيَّةً وعمامةً ولواءً، وإن أردتم الخِلَعَ السلطانية فأقِمْ يا محمد ابن عبد الرحمن - يعني القاضي - حتى تستوي وتُكمل، وهذا أمرٌ مردودٌ إليك، ثم استقرَّ الأمر على ما يُذكر إن شاء الله تعالى.

وكان ألب أرسلان قد سأل أن يكاتبه الخليفة بالولد المؤيَّد، فنقشوا على السِّكَّة كما يدعون في الخطبة، ومن جانبٍ اسمَ القائم، وما جرت به العادة، ولقَّب الخليفةُ إلياسَ بن ألب أرسلان الأميرَ، شهابَ الدولة، قطبَ الملة. وملك شاه طريدَه[1] جلالَ الدولة وجمال الملة.

وبِيعَ بواسط دارٌ بدرهم ودانقين ونصف، فاستزاد البائع [المشتريَ] قيراطاً ليتمَّ ذلك درهماً ونصفاً، فلم يفعل، وسببه استيلاء[2] الخراب عليها [واتصال ما يقتضي من قبيح الأسباب].

---

(١) يعني طريد أخيه إلياس، والطَّريد: الرجل يولد بعد أخيه، فالثاني طريد الأول. معجم متن اللغة ٣/ ٥٩٦.

(٢) في (م) و(م١): اتصال.

وقد بيعت دارٌ من نهر طابق ببغداد سنة ثمان وأربعين وأربع مئة بثلاثة[١] قراريط.

وفي ربيع الأول شاع ببغداد أنَّ قوماً من الأكراد خرجوا متصيِّدين، فرأوا في البرية خِيماً سوداً سمعوا منها لطماً شديداً، وعويلاً كبيراً، وقائلاً يقول: قد مات سيدوك ملك الجن، وأيُّ بلدٍ لم يُلْطَمْ عليه فيه، ويُقام المأتم، قُلِعَ من أصله، وأُهلِكَ أهلُه. فخرج النساء العواهر إلى قرب الحَلْبة وباب أبرز يلطِمْنَ ويُمزِّقْنَ ثيابهنَّ وينشرن شعورهنَّ، ويخمِشْنَ وجوههنَّ، وأقمْنَ ثلاثة أيام على ذلك، [واجتمع إليهنَّ العدد الكثير][٢].

وقال القاضي ابن السماك أنه شاهد رجالاً قد شوَّشوا عمائمهم، وفتقوا جيوبهم لذلك، ثم وردت الأخبار بأن واسطاً وأعمالها وبلاد العراق جميعَها وخوزستان وغيرَها من البلاد على مثل ذلك، وتعدَّى إلى بغداد، وأصعد إلى الموصل وديار بكر وغيرها من الأقطار[٣].

ذِكْرُ إنفاذ الخلع إلى ألب أرسلان:

لمَّا وقع الفراغ من الخلع سأل العميد الخليفة الجلوسَ العامَّ والمشافهةَ بتقليد ألب أرسلان وتسليم الخلع إلى الرسول بمشهدٍ من الخاصِّ والعام، فجلس يوم الخميس في دار الخلافة في البيت المتصل بالتاج المشرف على دجلة، واستدعى الوزير والقاضي والعميد، وسلَّم إليهم الخلع والعهد على ما جرت به العادة، وشافههم بأنه قد فوَّض الأمور إلى عضد الدولة، وجهَّز معهم الكاملَ نقيبَ العباسيين وأبا محمد التميمي وموفق الخادم الخاص، وخرجوا بذلك، وكان في كتاب الخليفة بعد البسملة: من عبدالله أبي جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الوليد المؤيد شاهنشاه الأعظم، ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين، غياث المسلمين، ملك الإسلام، ظهر الإمام، كنف[٤] الأنام، عضد الدولة القاهرة، وتاج الملة الباهرة، ألب أرسلان، أبي شجاع، محمد بن داود بن ميكائيل، سلطان ديار

---

(١) في (م) و(م١): بأربعة، والمثبت موافق لما في المنتظم ١٦/ ٨٧.

(٢) الخبر بمعناه في المنتظم ١٦/ ٨٧.

(٣) المثبت من (م) و(م١)، وفي (ف): الأوطان، وفي (خ): الأبطال.

(٤) في (ف): كهف.

المسلمين، برهان أمير المؤمنين، سلام الله عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلِّيَ على محمد عبده ورسوله ويُسلِّمَ تسليماً، أما بعد، أطالَ اللهُ بقاءَك، وأدامَ عِزَّك وتأييدَك ونعمتك، وأحسنَ رعايتَك وكلاءتك، وأمتع أميرَ المؤمنين بك، ولا أخلاه منك، ثم ذكر بَعْثَ النبي ﷺ وما جرَتْ به العادة، وأنه وارِثُه وما أشبه ذلك، ثم قال: وإن أمير المؤمنين بما وكَلَه الله إليه من الأمور العامة للبلاد والعباد، وملَّكه من زمام الإصدار والإيراد، وناطَه به من حفظ النظام، وفرضه عليه من السعي في الصلاح الشامل العام، يرى استنفاذ الوُسع في اختيار مَنْ يستنيبه في الأراضي، ويلقي إليه مقاليدَ البسط والقبض، ويحبوه بالمرتبة التي طال ما امتدت نحوها الآمالُ فخابَتْ، وطمع في وفاء الأقدار في وعود المنى فحابَتْ، وإذا لاحت شواهدُ الكمال فيمن استدعى العزَّ فأجابه، ورمى الغرض فأصابه، وعضد ذلك بالإخلاص في الطاعة، وبلغ أقصى الثناء والحمد داخلاً في نظام الجماعة، غدا[1] التوفيق زائراً في اختصاصه بالمنزلة التي تعجز الأماني عن ارتقاء هضابها، ويقصر الباع عن الامتداد إلى التشبُّث بأهدابها، فأهَّلَته لما يجتني به ثمرةَ سوابقه ولواحقه، ويجتلي به العزُّ في أنضر رياضه وحدائقه إبداعاً للصنائع عند الأكفاء، وإبداء للمواضع بأعباء الإخلاص الناهضين والاستكفاء، ولمَّا احتويْتَ عليه هذه الخلالَ وأوفيْتَ، وحَمَيْتَ منهلَ الطاعة من القذى وأصفَيْتَ، وأعدْتَ في الهدى وأبديْتَ، وحُزْتَ قَصْبَ السَّبَق وانتهيت، فوَّض إليك أميرُ المؤمنين أزِمَّة الحلِّ والعقد، وأمطاك ذُرى العلا والمجد، وأوصلك إلى ما لم يُدَرَّ له به أمل، ولا فاز بثوابه عمل، واستنابك فيما وراء بابه شرقاً وغرباً، وحصل بما تملك به نواصي الأعداء سلماً وحرباً، وبعث إليك بالتشريف مبالغةً في الإكرام، ودلالة على فضل الشغف بك والغرام، والعهد الذي يضمن الولاية، وبلَّغك به منتهى العناية، فأسعدكَ اللهُ بهذه الموهبة التي لا توازيها نعمةٌ وإن جلَّتْ، والمنحة[2] التي بدَتْ في جلال الكمال وتجلَّتْ، وذكر كلاماً طويلاً، ثم لقَّب الخليفةُ للعميد أبا الحسن شيخ الدولة ثقة الحضرتين، ولقَّب نظامَ الملك قُوام

---

(١) في (خ): عدم، والمثبت من (ف).

(٢) في (خ): والمنجمة، والمثبت من (خ).

الدين والدولة، رضيِّ أمير المؤمنين، وهو يذكر في تلك الديار نحو آغابزرك، وكان مسيرهم ثاني عشر جمادى الآخرة، وخرج معهم أبو سعيد النائب في العراق، كان وجماعة من رسل الأطراف والأمراء من العرب وغيرهم.

وفي هذا الشهر قدم رئيس العِراقَين أبو أحمد النهاوندي وأيتكين السليماني إلى بغداد، وأخرج الخليفةُ لتلقيهما الخدمَ والحجَّابَ، ولمَّا وصل أبو أحمد إلى باب النُّوبي نزل وقبَّل العتبة، وانصرف إلى دار المملكة، واعترض كلَّ مصعد ومنحدر، وأدخل يده في الأعمال، فعزَّ على الخليفة، فاستدعاه إلى بيت النُّوبة، وخاطبه الوزيرُ ابنُ جَهير وأغلظ له، وكذلك فعل بأيتكين، وانصرفا على هذه الحال، وراسل رئيس العِراقَين الخليفةَ بالشكوى من ابن جَهير والاستعفاء من الحضور معه، وقال: إن هذا قد نقل الدولة التركية إلى العربية، واستدعى بني عقيل إلى العراق، وفعل في ذلك ما سار في الآفاق، والسلطان غيرُ مؤثرٍ له، فعزَّ على الخليفة، وخرج الجواب بالثناء على الوزير والشكر له، وقال: قد كان له في ذلك الأمر المقام المحمود، وإنما له أعداء يتخرَّصون عليه، وأدخل النهاونديُّ يدَه في إقطاع الوزير وأسبابه، وأوقع الهوانَ بأصحابه، ومدَّ يده إلى الضياع العليا والسفلى.

وفي هذا الوقت عاد محمود ابن أخي عطية إلى حلب، فانكسر عطية، وعاد إليها مفلولاً، وحاصره محمود حصاراً شديداً، وعدمت الأقوات.

وفي شعبان هجم قوم من أصحاب عبد الصمد الزاهد ببغداد على أبي علي بن الوليد المعتزلي، وسبُّوه وقالوا: هذا يقول: القرآن مخلوق، ويعتقد اعتقاد الفلاسفة، وأنَّ الإنسان قادرٌ على أفعاله، وأنَّ الله يُخلِّد في النار على الذنوب اليسيرة، ولا يَرى يوم القيامة، ولا يصلي في الجامع، ويدرس مذهب المعتزلة، واعتقلهم النهاوندي وقال: يقدمون على الفتن. وأجاب ابن الوليد عن ما قالوه عنه، وأنهى حالَه إلى الخليفة، فخرج الجواب بالإمساك عنه، وجلس في بيته وأغلق بابه، ووردت أخبار الرسل أنهم نزلوا توريز، وأن نظام الملك إلى نَخْشُوان[1] وهي آخر ثغور الإسلام، وأن أخبار

---

(١) هكذا في النسختين (خ) و(ف): نَخْشُوان ـ بالشين ـ وذكرها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢٧٦ : نَخْجُوان ـ بالجيم بدل الشين ـ ثم ذكرها ٥/ ٢٩٨ : نَقْجُوان ـ بالقاف بدل الخاء، وبعدها جيم ـ وهي بلد في أقصى أذربيجان.

السلطان مستعجمة، وأنه منذ دخل بلاد الأرمن قد مضى له شهران لم يوقَفْ له على خبر.

وفيها وقعت فتنةٌ عظيمةٌ بين عبيد مصر والترك [قال محمد بن هلال: وفي ثاني عشر جمادى الآخرة أو الأولى ورد كتاب من مصر من بعض التجار يقول: إن العبيد اجتمعوا بالجيزة منافرين للأتراك، عازمين على القتال، وغلبوا على الجزيرة التي في وسط النيل بين مصر والجيزة] واتصلت الحرب بين الفريقين، ووصل ناصر الدولة بن حمدان [من أعمال الإسكندرية ومعه عرب من بني سيس وقطعة من الأتراك البغدادية، واجتمع مع المشارقة][1]، والتقى بالعبيد يوم الخميس ثالث ربيع الأول في موضع يعرف بالكوم، فقتل من العبيد ألف رجل، وهزم الباقين، [ولولا أن الليل هجم ما أبقى من العبيد أحداً، وقد عادت مصر مثل ما كانت بغداد، عند دخول عسكر خراسان إليها من الخوف والنهب والقتل]، وتردَّدت الرسلُ في إصلاح ذات البين، فتمَّ.

وفي رمضان ورد كتاب نظام الملك، وأن السلطان أوغل في بلاد الخزر، وبلغ فيها مواضع لم تجرِ العادةُ ببلوغها، وفتح بلداً عظيماً، وقتل فيه نحو ثلاثين ألفاً، وسبى ما يُوفي على خمسين ألف مملوك، وغنم غنائم لا تُحصى، وقد عاد منصوراً، ونزل على آبى ـ وهي أول أعمال الروم ـ مُحاصراً لها، ولن يتأخَّر فتحُها له إن شاء الله تعالى، وأنه وصل إليه ما بدأ من أبي أحمد النهاوندي فيما يتعلَّق بالخليفة، وأنكره ورسم له بالتذلُّل أن لا يخرج عن مراسم الخليفة، ويكون طوعَ أمير المؤمنين، ولا يجري على العوائد السالفة، ثم بعد أيام وصل كتاب السلطان بالفتح، فجلس الوزير في بيت النُّوبة، وقُرِىء، وخرج من الخليفة ما دلَّ على الوزير، ولم يحضر رئيس العِراقَين، ثم حضر من بعدُ ببيت النُّوبة، وخرج الوزير إليه، فقام وخدمه، وزاد في التودُّد لما ورد من الإنكار عليه، وأنهى خبره، فخرج ما يدلُّ على تطييب قلبه، فقام وقبَّل الأرض، ثم واصل الخدمة، ورفع يده عما كان اعترضه، وفي كتاب الكامل نقيب النقباء أبي الفوارس، وكان قد شهد هذا الفتح، قال: شاهدتُ من هذا البلد المذكور منظراً هائلاً، وأنه لا يخطر بالبال فتْحُه، ولا يُذكر أنَّ أحداً من الملوك قصَدَه، فإنَّ ثلاثة

---

(١) في (خ) و(ف) بدلاً منها: إلى الإسكندرية.

أرباعه على نهر الترس الكبير، وربعه الآخر على خندق قد استخرج من الترس، والماء ينزل إليه من عُلوٍّ بعيد بدويٍّ شديد، وله جِريةٌ قويةٌ، بحيث لو طُرِحَتْ فيه الحجارة العظيمة لدحاها وقطعها، والطريق إلى بابه على قنطرة بإزائه وأسواره من الحجر الأصم الشديد، ومراميهِ بعيدة.

وقيل: إنه يشتمل على سبع مئة ألفِ دار، وألفِ بِيْعة ودير، وليس عليه محالٌّ ولا موضعُ قتال ولا فيه مطمعٌ حتى جاء من الله ما ليس له مَدْفَعٌ ممَّا خالف المعهود، ودلَّ على فعل المعبود، واستحرَّ القتلُ وكثُر، وملَّ العسكر وضجر، فأحجموا عن القتال؛ لأن الظفر لم يخطر لهم ببال، ولم يمضِ إلا ساعةً حتى انسلخ من السُّور قطعةٌ من غير مُوجِبٍ أوجبَه، ولا فِعْلٍ به أوهنَه، فدخل العسكر البلد، فقتلوا أهلَه، ونهبوه وأحرقوه وأخربوه، وأسروا من سلِمَ من السيف وتملَّكوه، وانسدَّت الطرقات بالقتلى، حتى لم يكن مسلكٌ إلا عليهم، ولم يخْلُ عددُ الأسارى عن خمس مئة ألف إنسان، وأحببتُ أن أدخلَ البلد وأشاهدَه، فاجتهدت أن يكون لي طريقاً على غير القتلى، فلم يكن، وحدَث أنه وُجِدَ في بعض البِيَع إجانةٌ بِلَّور تَسَعُ راويةً من الماء، فكسروها واقتسمها العسكر، ووُزِنَتْ قطعةٌ منها فكانت ثماني عشر رطلاً.

وفي رمضان لمَّا هرب بدر بن مهلهل أمير الجيوش من دمشق ولَّى المستنصر حيدرة ابن بروا، ثم صرفه عنها بدري المستنصري، ثم صُرِف عنها، فعاد إلى الرملة.

وفيها جرَتْ مراسلةٌ بين قاروت بك وأخيه ألب أرسلان، وذلك أنه لمَّا مَلَكَ ألب أرسلان الريَّ وبلاد عمه، واستولى على الخزائن والأموال، وكان قاروت بك على أصبهان رجع إلى كرمان، وخطب لألب أرسلان ولنفسه من بعده بشيراز: ولي فيها حصةٌ معلومةٌ، ويدي خاليةٌ من المال، وقاصرةٌ عمَّا أحتاج إليه ومن معي من الرجال، فإن أنصفتني فيما يقتضيه دينك ومروءتك فهو المعهود منك، وإن لم تفعل شكرتُك ووكلتُك إلى الله تعالى، ورضيتُ بجميل الرأي منك، وقد كان بينهما منافسةُ الأخوة، فندب ألب أرسلان أختهما كوهر خاتون زوجة الأمير أريسيغي، وكان يحبُّها حباً شديداً، فأراد إرسالها إليه في أمر لا يظهر خبرُه، فقيل له: قد مضى إلى كرمان لمَّا

حلَّتْ فارس لبُعد قاروت بك عنها، وكتب فضلويه إلى ألب أرسلان بالانتماء إليه، وخطب له، وطلب منه النجدة، وكان فضلويه مقيماً بِنَسا، وكتب إلى هزارسب وهو بالأهواز يطلب منه النجدة؛ ليستعين بها على أخذ شيراز، فأنفذ إليه النجدة من الديلم والأتراك، فنهب أعمالَ شيراز، فأعلم قاروت بك بعد أخيه إلى بلاد الروم ومسير فضلويه إلى شيراز، فسار نحوه وواقعه على بابها، فانهزم فضلويه بعد أن قُتِلَ معظمُ أصحابه، وعاد مفلولاً، ودخل قاروت بك إلى شيراز منصوراً، ووردت الكُتب بعقد بغداد على أبي سعيد الفاسي مدة ثلاث سنين بخمس مئة ألف دينار، وعزل رئيس العراقَين عنها، فراسل الخليفة بالتنصُّل مما فعله في الإقطاعات ومع الوزير والحاشية، فخرج الجواب: لم تزل نعمة الله عندنا في كلٍّ من مرق عن الطاعة، واطَّرح رسومَها، إن ردَّه الله إليها خاضعاً عابداً، وسائلاً العفو لائذاً، فليسكن روعه وليطيب قلبه مما يدرك غايةً فيما يعود عليه بصلاحه شأنُه، ووصل سلطانه، وأمر رئيس العراقَين بردِّ ضياع الوزير وإقطاعه وإقطاع الحاشية وما أخذ منها، فردَّ الجميع.

وفي رابع ذي القعدة ورد تابوت موفق الخادم، فخرج الخليفة، فصلَّى عليه، وحزن عليه، وحُمِل إلى الرُّصافة، وعُمِلَ له العزاء ثلاثة أيام، فأُعطي الأميرُ عُدَّةُ الدين ما خلَّفه.

وفي ذي القعدة ورد الكامل أبو الفوارس والتميمي وأبو سعيد الفاسي من عند السلطان، فتقدَّم الخليفة بالدخول إلى منازلهم ليلاً؛ استيحاشاً لموفق الخادم وغمًّا عليه، وكان تألَّم لأجله؛ لأنه كان دَيِّناً عفيفاً صالحاً ناصحاً، وأما أبو سعيد فرأى أن لا يُوحَش، فخرج الحجَّاب والخدم للقائه، فلمَّا وصل إلى باب النُّوبي نزل وقبَّل العتبة.

وفي سلخ ذي القعدة خلع الخليفةُ على الشريف أبي المعالم المعمر بن محمد بن عبيد الله العلوي في بيت النُّوبة العمامة والدرَّاعة المُذهَبتين، وردَّ إليه نقابةَ الطالبيين ورعايةَ الحاجِّ والمظالم، وقُرىء عهدُه، ولُقِّب بالطاهر ذي المناقب.

وفي هذا الوقت عاد السلطان من بلاد أرمينية، فلم يبلغه أهلُها على الوجه، وغلَّقوا دكاكينهم، ولم يُبايعوا الجند، فضاق عليهم الشيء، وشكوا إلى السلطان، وكانوا قد استطالوا وقتلوا عميد بن طُغْرُلْبَك على ما تقدَّم ذِكْرُه، فأمر السلطانُ العسكرَ بالنزول في

مساكنهم وإكرامهم، فدخلوا البلد واستأمنوا، واستباحوه ونقضوا أخشابه، وقتلوا جماعةً من الأشرار، وانهزم الباقون، وبعث السلطان من هَمَذان بُرْشُق الخادم إلى هزارسب يحمل ما عليه من الضمان، واستصحاب صدقة بن منصور المعتقل عنده، فإن فعلَ وإلَّا قصدَه السلطان، وكان مقلِّد أخو صدقة وولدُه ليث بن صدقة قد خرجا مع الخِلَع إلى ألب أرسلان، وسألا شفاعته في صدقة، فوعدهما بذلك، فلمَّا رجع الرسل إلى بغداد لم يرجعا، وأقاما على باب السلطان، وسار الحاجب إلى هزارسب وهو بخوزستان، فأجابه بالسمع والطاعة، وأن يُطلِقَ صدقة، وكان السلطان قد أخذ قُمْ وقاشان من الأمير أبي علي بن الملك أبي كاليجار بن بويه، وأقطعه في البصرة من جملتها بخمسين ألف ألف دينار، وبعث به إلى البصرة، وكانت البصرة في يد هزارسب، فلمَّا بلغَتْه الرسالة في ذلك اليوم لم يُفرِجْ عن البصرة، وقال: ما فعلتُ ما يُوجِبُ كسر جاهي. ولم يبقَ أحدٌ من الأطراف إلَّا وقد أجري على ما في يده، فلم أُحرم من دونهم، وأشار بأن الأمير أبا علي لا يمكن من المقام بالبصرة، فإنها بلدُ أبيه وبلدُه من بعده، وأهلُها له مُحِبُّون، وربما تمَّ منه ما يصعب تلافيه، وورد على السلطان بباب هَمَذان أبو العباس فضلويه بن علويه الشوابكاري لما اتصل عليه من قاروت بك من الغارات والهزائم وقتل أصحابه، وأخذ البلاد منه، فخلع السلطان عليه الخلع السنية، وأكرمه وقرَّر معه أنه يأخذ بلاد فارس، وينيب فضلويه فيها. وقيل: إنما ورد على السلطان في أول سنة سبع وخمسين، وفيها قصد مسلم بن قريش هَمَذان ودخل على نظام الملك، وتعلَّق بذيله، فأصلح حالَه مع السلطان، وأعطاه الأنبارَ وأماكنَ، ورجع إلى بغداد، فالتقاه الوزير، وقبَّل عتبة باب النُّوبي، وخلع عليه الخليفةُ، ورضي عنه، وسار إلى بلده.

وفيها تُوفِّي

الحسن بن عبد الله بن أحمد[1]

أبو الفتح، الحلبي، الشاعر، ابن أبي حصينة، كان فاضلاً شجاعاً فصيحاً، يخاطَبُ بالأمير، ومن شعره: [من الوافر]

أتـجـزَعُ كُـلَّـمـا خـفَّ الـقَـطِـيـنُ ... وشـطَّـتْ بـالـخَـلـيـطِ نَـوًى شَـطُـونُ

(١) تاريخ دمشق ١٣/ ١٢٠-١٢٢ .

وهُمْ صرموا حبالكَ يومَ سلْعٍ ... وخانكَ منهمُ الثقةُ الأمينُ
تسَلَّ عنِ الحِسانِ وكيفَ تسلُو ... وبينَ ضُلوعِكَ الداءُ الدفينُ
وفي الأظعانِ من جُشَمِ بن بكرٍ ... ظباءٌ حشوُ أعيُنِها فُتُونُ
عليهنَّ الهوادجُ مُطبقاتٌ ... كما انطبقتْ على الحَدقِ الجُفونُ
جلبن لنا برامَةَ كُلَّ حينٍ ... ألا إنَّ الحوائِنَ قد تحينُ
عشيَّةَ مِسْنَ غير مصَنَّعاتٍ ... كما ماسَتْ منَ الأيكِ الغُصونُ
ضنيناتٌ عليك وكيف يُرجى ... زوالُ يدٍ وصاحِبُها ضنينُ
جُنِنَّا بالحِسان البِيضِ دَهراً ... وإنَّ هَوى الحِسان هُوَ الجُنونُ
كأنَّ أُمامَةَ حلفت يَميناً ... لنا ألَّا يَصِحَّ لها يمينُ
أغِيٌّ بَعدَ ما ذهبَ التصابي ... وشابَتْ بعد حُلكَتِها القُرونُ
وعندكَ يا ابنَ وثَّابٍ جميلٌ ... فإن تُشكَرْ فَمَمحُوقٌ قَمِينُ
فتًى أولاكَ مكرُمةً وفَضلاً ... وعَزَّ به حماكَ فما يهونُ
أبا الصَّمصامِ صُنْتَ عليَّ جاهي ... ومثلُكَ من يَذُبُّ ومَن يَصونُ
ولولا أنت لاتَّسَعَتْ خُروقٌ ... على ما في يدي وجرَتْ شُجونُ
ولكن أنت لي وزرٌ[1] منيعٌ ... وحِصنٌ أستجِنُّ به حَصِينُ

وقال : [من الكامل]

ريمٌ بِرامَةَ لا يصيدُ بضعفِهِ ... إلَّا الرِّجال الصِّيد عند صُدودِهِ
أهوى الدُّجى من أجلِ أنَّ هِلالَهُ ... كسِوارِهِ ونُجومَهُ كعُقودِهِ

وقال : [من الطويل]

شرطتُ عليهنَّ الوفاء فمُذْ بَدا ... بياضُ عِذاري للعذارى مضى الشَّرطُ
فلا أبعدَ اللهُ المشيبَ فإنَّهُ ... مَطيّةُ حُكمٍ في الخطيئَةِ لا يخطُو

وكانت وفاته بحلب[2].

---

(١) الوِزْر: السلاح. المعجم الوسيط (وزر).

(٢) الترجمة دون الشعر الأخير في تاريخ دمشق ١٣/ ١٢٠ ـ ١٢٢ .

[وفيها تُوفِّي]

عبد الواحد بن علي بن بَرْهان[١]

أبو القاسم، النَّحْوي، كان عالماً فاضلاً بعلوم شتى، منها علم العربية والنحو، ولولا شراسة أخلاقه لكانت له آثارٌ باقية، وكتبٌ مرويَّة، ولم يلبس سراويلَ قطُّ، ولا يُغطِّي رأسَه، ولا يقبل لأحدٍ عطاءً، وهو القائل: من قال: إن [الباء][٢] للتبعيض، فقد جاء أهل اللغة بما لا يعرفونه. وتوفي ببغداد في جمادى الأولى وقد أناف على الثمانين، وقد طعن فيه [أبو الوفاء علي] بن عقيل [فقال: كان يختار مذهب المرجئة من المعتزلة].

وقال محمد بن عبد الملك الهَمَذاني: إنه كان يميل إلى المُرْدِ الصِّباح ويُقَبِّلهم عن غير ريبة.

[وفيها تُوفِّي

علي بن الحسن بن محمد

أبو الحسن، الصَّيداوي، من أهل صيدا، ذكره الحافظ ابن عساكر[٣] وقال: كان يتردَّد من صيدا إلى دمشق، فقُتل في وادٍ بأودية صيدا يُقال له: الحريق، فيه أُتْرُجٌّ وليمون، حدَّث عن أبيه الحسن وغيره، وروى عنه الخطيب، وهو روى إلى الأوزاعي أنه قال: خرجت من دمشق أريد البيت المقدس، فوافقتُ يهودياً، فلمَّا وصلنا إلى بحيرة طبرية استخرج منها ضفدعاً وشدَّ في عنقه خيطاً، فصار خنزيراً، فمضى إلى طبريَّة، وباعه من النصارى، وجاء بطعام، فسِرْنا غير بعيد، وإذا بالقوم أدركونا، فقال: أحسبه قد صار ضفدعاً، فحانت مني التفاتةٌ، وإذا ببدن اليهودي ناحيةً ورأسه ناحيةً أخرى، فلمَّا نظروا إليه عادوا خوفاً من السلطان، وجعل الرأسُ يقول لي:

---

(١) ينظر السير ١٨/ ١٢٤ .

(٢) يعني قولَه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المائدة: ٦ ، وما بين حاصرتين زيادة ضرورية من المغني لابن قدامة ١/ ١٢٦ ، والكافي له أيضاً ١/ ٦٤ ، وكشاف القناع ١/ ٢٢٥ ، وعمدة القاري ٣/ ٧١ .

(٣) تاريخ دمشق ٤١/ ٣٣٨ـ٣٣٩ .

رَجَعوا؟ رَجَعوا؟ قلت: نعم. فعاد الرأس إلى البدن، فقلتُ: واللهِ لا رافقتُكَ بعد اليوم. وقد ذكرنا الحكاية في ترجمة الأوزاعي.

وفيها تُوفِّي

محمد بن علي بن يوسف[1]

أبو عبد الله، الطَّرَسوسي، ويُعرف بابن السَّنَّاط، إمام جامع دمشق، كان قارئاً للقرآن، ملازماً على الصلاة، حافظاً، سمع الكثير، وتوفي بدمشق، حدَّث عن محمد ابن أبي نصر وغيره، وروى عنه الحسن بن أحمد الكرماني وغيره، وكان صدوقاً صالحاً].

السنة السابعة والخمسون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم حضر من عند ألب أرسلان مَنْ أخبر عنه أنه سار من هَمَذان إلى أصبهان في رابع عشر ذي الحجة، فكانت مدة إقامته بها أربعين يوماً، وأن فضلويه وصل إليه في هَمَذان فأكرمه وخلع عليه الخِلَع الجليلة وعلى كل من ورد من صحبته، وأعطاه الخيم والخركاوات والخيل بمراكب الذهب والصاغات وشيئاً كثيراً، وأمره أن يضرب الطبول على بابه في أوقات الصلوات، ورتب جماعة من العسكر للمسير معه إلى شيراز، وصرف من بها من أصحاب أخيه قاروت بك إلى أن يلحق بهم السلطان، وفي خامسه سار هزارسب مع بُرْشُق الحاجب مظهراً لما[2] قصد ألب أرسلان، وقد بلغه مسيرُه إلى شيراز، واستصحب معه حملاً.

وفي المُحرَّم وصل ألب أرسلان إلى شيراز، وكان أخوه قاروت بك بها، فعلم، فأنفذ ثقله وحرمه وأمواله نحو كرمان، وتحصَّن بقلعة على جانب البحر يقال لها: البئر، فثار به بعض عسكره، واستأمنوا إلى ألب أرسلان فأحسن إليهم، وبعث إلى طريق كرمان لأجل رحيل قاروت بك، فأخذه وكان على خمسة آلاف جمل وبغل،

---

(١) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٠١ـ٤٠٢ .

(٢) تحرفت في الأصلين (خ) و(ف) إلى: فلما.

وحمل إلى ألب أرسلان، فسُرَّ به سروراً عظيماً، وبعث خلف نظام الملك وكان بأصبهان، فخرج منها مُستهلَّ صفر، ومعه مسلم بن قريش في الخدمة، وورد كتابٌ من هَمَذان فيه أنَّ ألب أرسلان سقط من الفرس بين أصبهان وشيراز، فوقع في نفسه أن ذلك مقابلة فعله بأهل هَمَذان، فكتب إلى أبي محمد الدِّهِستاني الناظر فيها برفع الضرائب والمكوس، وأن يُحسن إلى أهل البلد، ويردَّ ما أخذه منهم، فأخفى الكتاب وقال: إذا بطلت المكوس، ورددتُ ما أخذتُ، فأيُّ ارتفاع يبقى في يدي أحمله إلى الخزانة وأصرفه في مصالح السلطان؟ فطرقته الخوانيق في حلقه فمات، ووجد الكتاب في تركته، فقال أهلُ هَمَذان: إنَّ هذا الذي لحقه عقوبةٌ له على سوء نيته فينا.

وورد الخبرُ أن عطية بن الزَّوقلية صاحب حلب استدنى بُرَّجان[1] التركماني ومن معه من الغُزِّ، وكانوا نحو خمس مئة غلام، وقرَّر لهم في كل شهر أحدَ عشر ألف دينار، وأنزلهم بالحاضر ظاهر حلب، وكانوا في الثغور متردِّدين، وبما يأخذونه من الروم عن كفِّ الأذية عن أعمالهم متقوتين، وفعل عطية ذلك لمَّا تواتر من قصد محمود ابن أخيه، ومظافرة بني كلاب لهم، ثم ثار أحداثُ حلب عليهم، وقتلوا منهم في البلد جماعةً بأمر عطية؛ لأنه خاف منهم، ومضى بُرَّجان ومَنْ سَلِمَ معهم إلى محمود بن شبل الدولة خصم عطية.

وفيها ورد كتاب ملك الروم إلى الوزير ابن جَهير، فكان منه: لقد كثُر تعجُّبُنا ـ أطالَ اللهُ بقاءَ الوزير الخطير والبشير، حسن الأثير ـ كيف رأى استعمال الصمت وإهمال المكاتبة طول هذا الزمان، وما تحرَّك لتجديد العهد بنا بالمناجاة والمخاطبة مع ما هو متجمِّلٌ به من الأدب الزائد، والعقل الراجح الفائض، والحِجا المستوثق الطائل، لكنا وإن كان الوزير ـ أدام اللهُ كفايتَه ـ لما قد احتفَتْه من المهمات، ونيطَ به من التدبُّرات، لم يتمكن ممَّا ذكرناه، فنحن لم نتمكَّن من الصبر هذه المدة عن مكاتبته، بل أصدرنا هذا الكتاب مستعلمين خبرَه وجريَ الأمور بساحته، وذكر كلاماً بمعناه، وبعث الوزيرُ بالكتاب وكتاب آخر إلى ألب أرسلان يسير بالهدية وتقريرها والجواب عنها.

---

(١) في (خ): أسند بارجان، والمثبت من (ف).

وفي يوم الخميس لسبعٍ بَقينَ من رجب حدَّث أبو يعلى بن الفراء في جامع المنصور بأحاديث لا أصل لها، وكان هناك قوم من المعتزلة، فأنكروا ذلك، واستبُّوا، وخرجوا إلى الضرب بالآجُرِّ، واجتمع من الغد الحنابلة إلى دار الخليفة، وشكوا المعتزلة، فخرج جواب الخليفة بالإنكار لمذهب المعتزلة.

وفي رمضان قدمت قافلة الحاجِّ من خراسان، وكان نظامُ الملك أحبَّ أن تنفتح طريقُ مكة، وشاور العميدَ أبا سعيد لمَّا ولَّاه بغداد، وفسح له في إطلاق ما يحتاج إليه الخفراء بالغاً ما بلغ، واجتمع العميد في بيت النُّوبة مع الوزير دفعاتٍ بهذا السبب، واستقرَّ أن يسير بالحاجِّ ابن حمزة الهاشمي، وورد مع الحاجِّ العلويُّ المرتضى، كان نقيب العلويين بالري في أيام طُغْرُلْبَك، وتبعه خلقٌ كثير، وتلاه علويٌّ آخرُ ممَّا وراء النهر ومعه عدد وافر، وأحضر ابنُ حمزة الهاشمي نيفاً وستين خفيراً من القبائل، فخلع عليهم العميدُ ثيابَ القطن المُصبَّغات، فكانوا لها كارهين، وحضر جماعةٌ من بني خفاجة، وأكْرَوا الجمل بأربعين ديناراً إلى مكة ذاهباً وراجعاً، وعلم المرتضى بأن الخفراءَ غيرُ راضين، فأحضر جماعةً من العرب، وقرَّر الخُفارة معهم، وأن يسير وحده، وعلم العميدُ فخاف على الحاجِّ، فحصل خمسة آلاف دينار وأنفقها فيهم، واستحلفهم على حفظ الحاجِّ، فحلفوا يميناً ظهر معها سوءُ نيَّاتهم، فشهد عليهم الشهود، فكتب الظاهر أبو الغنائم نقيبُ الطالبيين إلى الخليفة بأنَّ أمر الحجِّ مردودٌ إليَّ، ومتى تولَّاه غيري كان عزلاً لي، وأمراء مكة علويون، ومتى خرج ابن حمزة لم يُمكَّنوا من رعاية الحاج، فقال الخليفة: الأمرُ إليك في هذا. فندب أخاه أبا الحسين، وخرج الناسُ، وخرج الكامل نقيبُ العباسيين والسهيلية القَهْرمانة في دار الخليفة، وساروا، فغدر الخُفراء بهم، وأخذوا المالَ والجِمالَ والزادَ، واتفقوا على نهبهم، وكانوا قد ساروا عن الكوفة أربعَ مراحل، فعادوا إلى بغداد ثاني ذي القعدة، وبطل الحجُّ.

وفي يوم الخميس منتصف ذي الحجة عاد المرتضى العلويُّ والحاجُّ الذين كانوا معه من فَيْد، فإنَّ الخُفراء غدروا بهم، وجَبَوا منهم ضِعفَ ما كان العميد أعطاهم، واختلفت آراؤهم، فرجعوا وعاد العلويون إلى بلادهم.

وفيها بعث الخليفةُ خادمين وحاجباً إلى أصبهان يقبروا زوجته أرسلان خاتون.

وفي شوال عاد بدر بن مهلهل من نيسابور، وكان ألب أرسلان قد استدعاه ليحضر عرس ولده ملك شاه على ابنة ملك الترك طنغاج، وملَّكه من وراء النهر، وتزوَّج السلطان ببنت قدرخان التي كانت زوجة محمود بن مسعود بن سُبُكْتِكين بمرو، وأنفذها إلى بَلْخ، وكان قد تزوَّج عند دخوله الري زوجة طُغْرُلْبَك واسمها عكَّة.

وفيها نزل عطية من قلعة حلب وسلَّمها إلى محمود ابن أخيه من زيادة الغلاء والحصار، وأنَّ ابن خاقان والغُزَّ تولَّوا الحرب، فلم يثْبُتْ عطيةُ وأهلُ حلب لهم، وشرط أهلُ حلب على محمود ألَّا يُمكِّنَ الغُزَّ من الدخول إليهم، فأجابهم وأعطاهم المعرَّة، فنزلها خاقان والغُزُّ، ونزل عطية على بني كلاب. وقيل: إن ابن خاقان سار بعسكره إلى العراق إشفاقاً من أحداث حلب.

ووقع بين الكلبيين وبين قائد دمشق الأرمني خلافٌ، وأخرج معهم عسكراً لدفعهم، فاستظهر الكلبيُّون، وقتلوا جماعةً منهم، وأسروا سبعة عشر أميراً وقائداً باعوهم بعد أن نكَّلوا بهم وعذَّبوهم، وقرَّر عليهم البدويُّ الذي أسره عشرةَ آلاف دينار، أخذ خطَّه بها، فاستشار زوجتَه، فقالت: إن أطلقتَه أعطاك أضعافَ ما تَقرَّر، وفعلت الجميل وراءه، وإن أخذتَ المال شاطرَتْكَ العشيرةُ ولم تظفر بطائل، فأطلقه، وأعاد الخطَّ إليه، وحمله إلى منزله بدمشق، فخلع عليه وأكرمه، وأعطاه ألفي دينار، وقال: هذه لك عليَّ كلَّ سنة. فأخذها وانصرف، وزاد تبسُّطُ الكلبيين في السواد، وأخذوا الغَلَّات ونهبوا، فخرب الشام، ودخل حصن الدولة بن منزو قائد الرملة إلى طرابلس وملكها، وقبض على بني أبي الفتح المتغلبين عليها، ولمَّا خرج إليها قصد إليه ابن عمار وقاضيها، وكان في حيِّز السلطان، فأشار إلى بني أبي الفتح أن يخرج أحدُهم معه للقاء ابن منزو، ففعلوا، فأولى ابنُ منزو ابنَ أبي الفتح الجميل ليخدع بذلك أخوتَه، فبان له ذلك، وأنَّ القاضي خدعه حتى حصله عنده، وكتب إلى إخوته بذلك، وراسل أبو الفتح بما تطيبُ به نفوسُهم، وسامهم الخروج إليه، فامتنعوا، وجدُّوا في الحرب، وكان ابنُ عمار قد أصلح جماعةً من أحداث البلد ومقاتلته، فاستأمن منهم ثمانيةٌ وعشرون نفساً، فضعف أمر بني أبي الفتح، واختلف أهل البلد، ففتحوا الأبواب، ونادوا بشعار

المستنصر، فقيَّدَ ابنُ منزو بني أبي الفتح، وبعث بهم إلى صور، وعاملهم بالمكروه، وطلب المالَ الكثير، وقسط على أهل البلد مئة ألف دينار جزاءً عن طاعتهم لبني أبي الفتح، وكونهم خلعوا صاحب مصر، ومنع الذين استأمنوا إليه من سُكنى البلد، وأمرهم بالانفساح في الشام، فطلبوا منه العطايا والخِلَع، فوعدهم بالجميع، وقبض عليهم ليلاً وصلبهم، وهم الذين كانوا يعاونون بني أبي الفتح، فاستقام أمرُ طرابلس.

وفي هذا الوقت ورد الخبرُ أنَّ المستنصرَ صاحبَ مصر ضرب ابنَ أبي كُدينة أحدَ الوزراء المصريين والقضاة المستورين، وعاقبه ودهقه في المعصار حتى كاد يموت، فمنعَتْه والدتُه عنه، وأخذَتْه منه، وقالت: ما تريد من هذا الرجل؟ قال: المال. قالت: ما هذا طريقه، وربما هلك في تضاعيف ذلك، وأنا أقرِّر لك عليه ما تريده منه. فغضب وخرج من القصر ماشياً إلى الجامع الأنور، وهو أول جامع بُني في القاهرة، وعرف وجوهُ الدولة فانزعجوا، وجاؤوا إليه وقالوا: ما هذا الفعل الشنيع؟ فقال: أنا مغلوبٌ على أمري، ومدفوعٌ عن أغراضي، وقد تركتُ الأمر لمن غلبني عليه، وعزمتُ على المُقام بهذا المكان والانقطاع فيه إلى الله تعالى. فقالوا: يا مولانا، اللهَ اللهَ فينا وفيك، ومتى لم ترجعِ الساعةَ إلى القصر نُهِبَ ونُهِبَ البلدُ جميعُه، وتفاقم الأمر تفاقماً لا يمكن استدراكُه، ورفقوا به حتى عاد إلى القصر.

وفي يوم الأربعاء حادي عشر ذي الحجة اقترن زُحل والمريخ في برج السنبلة حادي عشر ذي الحجة، فحكم المنجِّمون بأن يكون يوم العيد فتنةً عظيمةً، فغلب ذلك على العقول، حتى صار كالحقِّ الذي لا شبهةَ فيه، وتأخَّر خلقٌ عن صلاة العيد، وأنَّ الفتنة تكون في يوم العيد وغدِه في دار الخلافة[(١)]، فخرج الخليفةُ ليلاً من داره إلى الحريم الطاهري على وجَلٍ[(٢)]، وامتنع العميد من التصرف [وانتظر الناس ذلك العيد وغدَه] ولم يجْرِ غيرُ الخير، وعاد الخليفة إلى داره في الليل.

وفي ذي الحجة بُدىء بعمل [مدرسة للشافعية على دجلة بنهر مُعلًّى، بأمر نظام الملك، وهي التي تُسمَّى] المدرسة النظامية، ونقض لبنائها في الدور التي كانت للناس

---

(١) في (م) و(م١): دار الخليفة.

(٢) في (خ): وجد، وفي (ف): وجه، والمثبت من (م) و(م١).

بمشرعة الزوايا والفُرْضَة وباب الشعير ودرب الزعفراني، وتوفي أبو منصور بن بكران حاجب الخليفة، وتولى الحجابة مكانَه أبو عبد الله المردوسي.

وفيها تُوفِّي

سعيد بن أحمد(١)

ابن محمد [بن نُعيم](٢) بن إشكاب [أبو عثمان] الصوفي [ويُعرف بالعيَّار؛ لأنه كان في أول أمره يسلك مسلك الشُّطَّار، ثم رجع إلى الطريق، وهو أحد الجواليق في طلب الحديث، ثم رجع إلى غزنة فمات بها](٣) واتفقوا على فضله وثقته(٤).

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن منصور(٥)

أبو نصر، عميد الملك الكُنْدُري(٦)، وزير السلطان طُغْرُلْبَك، وكُنْدُر: قرية من طُرَيثيث. [وبقزوين قريةٌ يقال لها: كُنْدُر، منها أبو غانم وأبو الحسين] كان فاضلاً مدبراً حازماً [وقد ذكرنا طرفاً من أخباره] وكان طُغْرُلْبَك قد بعثه ليخطب له امرأةً فتزوَّجها هو، فخصاه، ثم أقرَّه على خدمته، فاستولى عليه، وكان يَشْعُر، ومن شعره: [من البسيط]

المـوتُ مُـرٌّ ولـكـنِّـي إذا ظَـمِـئَـتْ نفسي إلى العزِّ تستحلي لمشربهِ
رياسةٌ باضَ في رأسي وساوِسُها تدورُ فيه وأخشى أن تدورَ بهِ

وقال عند قتله: [من البسيط]

إنْ كان بالناسِ ضِيقٌ عن مزاحمتي فالموتُ قد وسَّعَ الدنيا على الناسِ
قضيتُ والشامتُ المغرورُ يتبعُني إن المنيةَ كأسٌ كلُّنا حاسي

---

(١) تاريخ دمشق ٢١/ ٣.

(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ دمشق، ومن تاريخ الإسلام ١٠/ ٩٠.

(٣) جاء عوضاً عن هذه الزيادة في (خ) و(ف): مات بغزنة.

(٤) في (ف) و(م) و(م١): فضله وصدقه.

(٥) تنظر مصادر ترجمته في السير ١٨/ ١١٣.

(٦) تحرفت في (م) و(م١) إلى: الكثيري.

ذِكْرُ مقتله:

قد ذكرنا أنه لمَّا مات السلطان خطب لابن أخيه سليمان، وفرَّق الأموال في العساكر، وكتب إلى ألب أرسلان كتاباً أرعد فيه وأبرق، بناءً على أنَّ ألب أرسلان يقنع بخراسان، فلم يقنَع، وسار من نيسابور يريد الري، ولمَّا رأى عميد الملك الغلبة خطب لألب أرسلان، وجاء إلى الري وملكها، ولم يظهر لعميد الملك ما في قلبه، وكان ملازماً لخدمته.

وقال محمد بن هلال الصابىء: حدثني بعض أصحاب عميد الملك بخبره منذ يوم قبض عليه إلى حين قُتِل ـ وكان في خدمته ـ قال: لمَّا كان يوم السبت السابع عشر من المُحرَّم أمر ألب أرسلان بإخراجه من حضرته، وخلع على وزيره نظام الملك من ساعته، وجاء عميدُ الملك إلى داره، فسأله أبو البدر كاتِبُه عن حاله، فقال: كنت جالساً عنده على عادتي في مجلس الشرب، فخاطبه حاجبٌ في تركمانيٍّ ممَّن أُسِر من أصحاب قُتُلْمِش. قال: ومَنْ ذاك الكلب حتى تخاطبني فيه؟ امْضِ يا غلام فأتِني برأسه. فقمتُ وقبَّلتُ الأرضَ وقلت: ما يَحسُنُ في مقابلةِ الحاجبِ ذهابُ نفسِ مَنْ خاطب لأجله. فاغتاظ، وقال: أنت قد تعوَّدتَ أن يكون المِلْكُ من قِبَلِكَ، والأمرُ والنهيُ لك، وما عندي شيء من ذلك، فارجع عما عهِدْتَه، واعدِلْ عما ألِفْتَه، وتصوَّر أنني قصدتُ إيحاش الحاجب منه، وكان قبل ذلك قد خلع على سرخاب قَلنسوةَ ذهب وقَباءَ نسيج كانا للسلطان، فقلت: أنتَ أمرُكَ من أمر الباري سبحانه، لا يُسألُ عمَّا يفعل، وإلَّا فمَنْ سرخاب حتى تعطيه قَلنسوةَ السلطان وقَباءه. فازداد غيظاً، ودخل سرخاب وجلس وركبتُه على ركبتي، فضايقني، وقد كان من قبلُ يقف بين يديَّ ويُقبِّلُ الأرضَ، فعزَّ عليَّ ما فعل بي، ثم التفتَ السلطانُ إليَّ وقال: ضيَّعتَ المالَ عليَّ ومزَّقتَه. فقلت: يا سلطان، لا تفعَلْ هذا، فلولا ما فعلتُه من بذلِ المال وإعطاءِ الغلمان ما حصل لكَ مالٌ، ولا قلعةٌ ولا الري، ثم إنني قد أخلفتُ من حاشية السلطان عِوَضَه. فقال: كذبتَ وما قصدتَ هذا، وأنت بمنزلة البازي الذي يصيد، وعنده أنَّ الصيد له، فيجيء صاحبُه فيأخذُه منه، وأنت ضيَّعتَ المالَ طمعاً في الملك أن يصحَّ لك، ويجتمعَ الغلمان عليك، وكيف تصوَّرتَ وأنت تدَّعي الحكمةَ وفصل الخطاب، وقراءةَ الكتب ودراسةَ

الآداب، أن يموت عمِّي وأنا بنيسابور في مئة ألف فارس، وأخي قاروت بك بفارس في عساكره وقُتُلْمِش بإزائك في خمسين ألفاً، ويمكنك الخلاص منا، والاستبداد بالملك دوننا؟ ولكن هذا هو الجهل الصريح(١). ثم غضب، وكان منتظراً السلاحَ ليقتلني، وأنا أُجيبه بما أستوفيه، فأمر بإخراجي وإبعادي عنه، وأراد الفتك بي، ثم قام فدخل حجرته، وردَّ الأمورَ إلى نظام الملك، وتأخرتُ إلى بعض الأماكن في الدار، فخرج وقال: أين أبو نصر؟ فقمتُ وقبَّلتُ الأرضَ بين يديه، وتذللتُ وتضرَّعتُ إليه، فقال: ما لك قد خُدِشْتَ؟ أردتَ أن تكون ملكاً بهذا القلب! فقلت: وكيف لا أجزع من سلطان مثلك، ولئِنْ فزِعْتُ منك أن تعاقبني، فكذا أرجو أن تعفو عني وتسامحني. فقال: امضِ إلى دارك، واعلَمْ أنني لم أخرُجْ إليك بما في قلبي وعندي ما تخافه. فقبَّلتُ الأرض، وخرجتُ إلى داري، فقيل لي: باكِرْ خدمتَه ولا تُرِه انقباضاً، ولا أنك مستوحشٌ منه. فباكرتُ إلى الخدمة، فلمَّا وصلتُ إلى باب الحجرة لم يؤذَنْ لي، فقمتُ إلى نظام الملك فهنيتُه وخدمتُه بخمس مئة دينار، فوعدني بما طيَّب به قلبي. قال: وخرج من الدار، فتبعه أكثر العسكر، وبلغ السلطان فقيل له: إذا كانت طاعةُ العسكر له هذه الطاعةَ مع غضبك عليه وإهانتك له، فكيف إذا كان في حالة الرضا، وهو معك في البلد الذي قد ملك قلوب أهلِه بالمال وغيره؟ وفي داره ثلاث مئة غلام، وهو في دارك يشرب معك دائماً، وربما لاحَتْ له فرصةٌ فيك، فأرسل إليه يقول: هؤلاء الغلمان الذين عندك لا حاجة لك إليهم، فأرسِلْهم إلينا. فأرسلهم إلا أربعة، فإنه سأل أن يبقَوا عنده، ففرَّق الغلمان في الحُجَّاب، ولم يشعر إلا بعميد خراسان قد هجم عليه ومعه خمسون رجلاً، فتوكل به، وبعث عميدُ الملك إلى نظام الملك، وسأله الاجتماع به، فجاءه نظام الملك، فسأله أن يخاطب السلطانَ فيه، فوعده وطيَّب قلبه، ثم بعث إليه السلطان يقول: أثبِتْ جميع مالك ونفِّذه إلى الخزائن. فأخرجَ جميعَ ما كان في داره من الثياب والمصاغ، ولم يجد عنده سوى ألف دينار وسبعين ألف درهم ـ قيل: كان قدور المطبخ ـ وتقدَّم إليه بالمسير إلى مَروالرُّوذ إلى أن يمضيَ السلطانُ إلى الروم إلى الغزاة، ثم يعودَ فيُحضِرَه إلى خدمته. وكان له صبيٌّ تركيٌّ قد تبنَّاه، ويحبُّه محبةً عظيمةً، بحيث

---

(١) في (ف): الصراح.

إنه لا يفارقه، فاتّفق أنه مات، فانزعج وقال: قد ولَّتِ السعادةُ، وانقضتِ الدولةُ. وأنفذ إليه السلطانُ كتابه الذي دافعه فيه عن المجيءِ إلى الري، والمُقامِ بنيسابور، والتصريحِ بالمحاربة، ثم أتبعه بالكتاب الذي بخطِّه وهو يرعد فيه ويبرق، وقال: أما هذه مكاتبتُكَ إليَّ وهي خلافُ ما ادَّعيتَه من كونِكَ بذلْتَ المال في خدمتي. فقال: عفوُ السلطان أعظمُ من ذنبي. قال صاحبه: وخرج إلى مَروِالرُّوذ في يوم الثلاثاء خامس صفر، وخرجتُ معه، وحمل [معه][1] زوجته وابنته وجواريه والأربع غلمان، وكتب معه كتاباً إلى مَروِالرُّوذ، فيه: الشيخُ الجليلُ عميدُ الملك يخدُمُ خدمةً مرضية، ويُجري عليه في كل شهر مئة دينار، فخرج وهو طيِّب النفس بهذا الكتاب، منظورٌ أنه يعود إلى ما كان فيه، ووصل إلى نيسابور، ودخل إلى خاتون زوجة ألب أرسلان أم خفجاق ولدِه، وخدمه، وأخذ ولدَها فأجلسه في حُجرِه، وتعلَّق بذيله وذيلها، واستجار بها وسألها المكاتبة إلى السلطان في العفو عنه، وحمل إليه خمسَ مئة دينار وفرساً، فوعدته بالجميل، وكتبت له إلى مروِالرُّوذ وهي داخلة في إقطاعها بألف دينار، وكتبت له إلى السلطان كتاباً، وأنه قد استجار بها وبولدها، ومضى إلى مروِالرُّوذ فنزل بدار رئيسِها، ثم وصل إلينا الخبرُ بأن محمود بن أبي علي المَنيعي رئيس نيسابور ورد إلى مكانٍ بينه وبين مروِالرُّوذ سبعُ فراسخ، وجاء كتابُه إلى أخيه عبد الرزاق النائب عنه في البلد أنَّ السلطان كتب إليه مع غلام تركي يأمره بقتل عميد الملك[2]، وأنه أنفذ الكتابَ والغلامَ إليه ليقف عليه، ويُمكِّن الغلامَ مما جاء فيه، وأنه ما تأخَّر إلا حياءً من أن يجري ذلك على يده. قال: فانزعج عبد الرزاق ـ وكانت بين عميد الملك وبين المَنيعي مودةٌ مؤكَّدةٌ، وصداقةٌ شديدةٌ ـ وحضر الغلامُ عند عميد الملك، وأمره بالصعود إلى القلعة، وأنَّ السلطان إنما أنفذه لهذا، فصعد وحُرَمه إليها، وكان عبد الرزاق خطيبَ البلد متقدِّمَه، وكان ذلك في يوم جمعة، فصَعِد المنبر ولم يدْرِ ما يقول، فذكر الكلمتين ونزل، واطَّلعتُ أنا على الخبر، فصَعِدتُ إليه وعرَّفته وقلتُ: انظُرْ هل من حيلةٍ؟ فأبلس وجَفَّ لسانه، وقال: الحيلةُ أن تجمع بيني وبين عبد الرزاق. فنزلتُ إليه وقلتُ له: قد

(١) هذه الزيادة من (ف).

(٢) في (ف): عميد الدولة.

علمتُ ما بينكم وبينه، وقد علم بالخبر، ويسألك الاجتماع ليوصيَ إليك بأهله وحرمه. فقال: ما لي قلبٌ أشاهده. فلم أزَلْ به حتى أصعدتُه إليه، فتعلَّق بذيله وقال: ما أعرف خلاصي إلا منكَ. فقال: وأيُّ حيلةٍ لي؟ قال: تكتب إلى أخيك بأنني لا أُقدِمُ على هذا الأمر حتى تحضر، فإذا حضر قلتَ له: هذا أمر عظيم، ما ينبغي أن تُقدِمَ عليه بأول كتاب، ولعلَّ السلطان كان سكرانَ، والرجل مريض، وربما قضى نحْبَه، وكُفيَ السلطانُ إثمَه، وأكتب أنا ورقةً أُرقِّقه فيها. فقال: سمعاً وطاعة. ونزل من القلعة، وكتب إلى أخيه محمود كتاباً، فجاء إليه واجتمعا، وعرَّفه ما قال عميد الملك، وقال: علينا الحقوق. فقال: سمعاً وطاعة. وكتب إلى السلطان يبذل له الأموال العظيمة، ويخضع ويَذِلُّ، وبعث محمود بالكتابين، ووهب عميدُ العراق الغلامَ الوارد مالاً، فتوقَّف إلى حين يجيء الجواب، وسأل عميدُ الملك عبدَ الرزاق أن يوقفه على الكتاب، فبعث به إليه، ومضمونه بأننا أنفَذْنا الشيخَ أبا نصر إلى مجلسه[1]، وأبقينا على نفسه؛ تصوُّراً منا أنَّ فساده منحسم، وأذاه منقطع، وأنه يشغله خوفُه على مُهجتِهِ عن سوء فعله وطريقته، وما نراه إلا ازداد عتواً وفساداً، وأنَّ عقارِبَه تدِبُّ إلينا، وقد اجتمعت آراءُ محتشمي دار الخلافة وآراءُ دولتنا على أنَّ الصلاحَ في الراحة منه، فيُخنَقُ بسلسلة، ويُعلَّق على باب القلعة سبعةَ أيام، فلمَّا قرأه يئس من الحياة، وأقمنا مدةً، فجاء غلامان من غلمان السلطان ومعهما إلى محمود كتابٌ يُنكر عليه إقدامَه على المخالفة، ويؤمَرُ بقتله وحَمْلِ رأسِه إليه، وصَعِد الغلامان إليه، فقام إليهما، وسلَّم عليهما، وقال: في أيِّ شيء جئتما؟ فقالا: قُمْ وصَلِّ ركعتين، وتُبْ إلى الله تعالى مما أسلفتَ. فقال: أدخُلُ وأُودِّعُ أهلي. فقالا: ادخُلْ. فدخل، وارتفع الصُّراخُ من زوجته وابنتيه وجواريه، وكشَفْنَ رؤسهُنَّ، وحثَيْنَ التراب عليها، فدخلا عليه وقالا: اخرُجْ. فقال: خُذا بيدي فقد منعني هؤلاء النساء من الخروج. فأخْرَجاه وأغلَقا الباب، وخرج إلى مسجد هناك، ومشى حافياً، وخلع فَرَجية سَمُّورٍ[2] كانت عليه، فأعطاهما إيَّاها،

(١) في (ف): محبسه.

(٢) السَّمُّور: دابة معروفة تكون ببلاد الروس وراء بلاد الترك، تشبه النِّمس، ومنها أسود لامعٌ وأشقر، يُتَّخذ من جلدها فِراء مُثمنِة، أي: غالية الأثمان. تاج العروس (سمر).

ومزَّق قميصَه، وأخذوا عمامتَه، وجاؤوا بسارقة[١] قُطِعَتْ من سُرادق، فقال: ما أنا بعيَّارٍ ولا لِصٍّ فأُخنَق، والسيف أروَحُ لي، وهو أمحى للذنوب، ومن قُتِلَ به فهو شهيد. فشدُّوا عينيه بخرقة من طرف كمِّه وضربوا رأسه فطار، فأخذوا رأسه فتركوه في مِخْلاةٍ[٢]، وحملوه إلى السلطان، وسألت أختُه أن تُسلَّم إليها جُثَّته فسُلِّمتْ إليها، فحملتها إلى كُنْدُر، فدفنتها عند أهله وابنه، وأبوه مات مقتولاً، وكان ألب أرسلان بكرمان، فحمل إليه الرأس، وبعثت أختُه تستقصي عن الرأس، فقيل لها: أُلقي في بئر. و[قال ابن الصابئ]: لمَّا قُتِلَ صَعِد عبد الرزاق ليلاً فغسَّله وكفَّنه بقميص دبيقي كان القائم أعطاه إياه من ملابسه، مع قطعة من بُردة النبي ﷺ، ولفَّه فيها، وأنزله إلى مقبرة البلد فدفنه فيها، وكانت سنُّه نيفاً وأربعين سنة، وكان الذي وضع الحاشية على أن يسيروا بقتله نظامُ الملك، والعجبُ بأنَّ ألب أرسلان ونظام الملك ماتا مقتولَين[٣].

السنة الثامنة والخمسون والأربع مئة

فيها في يوم عاشوراء أغلق أهلُ الكَرْخ دكاكينهم، وعلَّقوا المسوح على ما كانت عادتُهم جاريةً به في القديم، فثار أهلُ تلك المحالِّ، وجاؤوا إلى دار الخليفة واستطالوا، فخرج الأمر[٤] إلى المُعمَّرِ نقيبِ النقباء بإنكار ذلك، فقال: ما علمتُ. وحبس جماعةً أياماً ثم أطلقهم، وقال القائم: هذا شيء قد كان فلا تُعاودوا إليه.

وفيه ورد الخبر أنَّ السلطان انفصل عن مرو إلى خُوارَزم، ومعه تاج الملوك أبو كاليجار هزارسب عاملُ الأهواز، وأنه طُولِبَ بالأموال التي عليه من ضمان البصرة وخوزستان وأَرَّجان منذ وفاة طُغْرُلْبَك مدة ثلاث سنين وهي ألف ألف دينار، فطلب العَوْدَ إلى بلاده ليجمع المال، فقيل: لو أسرعتَ في حمل المال لأسرعنا إلى إطلاقك، فلا بُدَّ من المقام على الباب حتى يُحمل المال، وكان السلطان مُبطناً سوءَ

(١) السارقة: الغُلّ. المعجم الوسيط (سرق).

(٢) من الخَلى: هو الحشيش الذي يُحتشُّ من بقول الربيع، وبه سُمِّيت المخلاةُ. اللسان (خلا).

(٣) تنظر مصادر ترجمة محمد بن منصور الكندري في السير ١٨/ ١١٣ .

(٤) في (خ): الأمراء، والمثبت من (ف) و(م) و(م١).

الرأي فيه، مُظهراً الجميل له، وحضر ليلةً عنده والسلطان سكران، فسمع صوتَ طبول بعد طبوله، فقال: ما هذه؟ قيل: طبول تاج الملوك. فقال: ومَنْ هو هزارسب حتى يفعل هذا من غير إذن؟ فانكسر هزارسب، ثم أصبح السلطان فخلع عليه واعتذر إليه، وبعث السلطان إلى العراق مَنْ يقبض على كتَّابه، فهرب أبو يعلى كاتبُه إلى حِلَّةٍ لأبي الأغر دُبَيس، ونَهَبتِ الديلمُ دُورَه ودُورَ المتعلّقين به بالأهواز، وكان السلطان قدم خُوارَزم، واستقبلَتْه الخِدَم[1] في جملتها سَبيخة دَبيقي[2] فيها دنانير قدَّمها نظام الملك، فأخذ السلطانُ منها كفاً، ومدَّ يدَه إلى ولده الأكبر إلياس، فسعى على ركبتيه، وقبَّل الأرض بين يديه، فأخذها وعاد إلى موضعه على ركبتيه، وكان هزارسب حاضراً، فأومأ إليه السلطان بكفٍّ آخر، فقام قائماً، وقبَّل الأرض ومشى إليه، وأخذها منه، فثَقُل على السلطان، حيثُ إنه لم يسْعَ على ركبتيه، وقال له: أنت قد طار في رأسك الملكُ ومكاتبةُ الخليفة بطلبه، وبذلِ المال والاشتغالِ بنيسابور على الأهواز للتحصُّن، فانزعج واعتذر، وقال: واللهِ ما أحللتُ بذلك، إلا لأنها عادةٌ لا نعرفها، والقيامُ على أرجُلِنا هو أقصى نهاية الخدمة. واندرج المجلسُ على هذا.

وركب السلطانُ من الغد، والتقاه أيتكين الحاجبُ حاجبُ أخيه سليمان، فلما رآه قال: أحسنت يا مؤاجر، تأخَّرتَ عني ولم تتبَعْني طلباً للسلامة وتوقُّعاً لسوء المنقلب. وأمر به، فنكس من فرسه، ونزل إليه فضربه، فقدَّه نصفين، وقال: هاتوا هزارسب ليبصره. فارتاع هزارسب، ومضى إلى نظام الملك، وطرح نفسه عليه، وقال: ما أعرف إصلاح حالي إلا منك. وحمل إليه مالاً، وإلى خاتون زوجة السلطان، فحمله نظام الملك إلى السلطان، فلمَّا دخل عليه قال: ما أعرفُ لي ذنباً أستوجب به هذا، وأما السُّور الذي أردتُه على الأهواز فركن الدين أمرني به، وأما ما حُكي عني من طلب الملك فإنما هو زورٌ اخْتَرَصَهُ أعدائي، حتى أفسدوا جميل رأي السلطان فيَّ. فقال

(١) الخِدَم: الهدايا. تكملة المعاجم لدوزي ٤/ ٣٢.

(٢) السَّبيخة: هي قطعة من القطن المنفوش المندوف. والدَّبيقي نسبةً إلى دَبيق: قرية بمصر. المعجم الوسيط (سبخ) و(دبق).

(٣) اخترصَ القولَ: افتَعله. المعجم الوسيط (خرص).

السلطان لنظام الملك: قُلْ له يقعدُ، ويُزيلُ روعَه، ويُطيِّبُ نفسه. ثم قال: ما أقول لك قولاً إلا وهو دليل على صفاء النية لك، ولو كان عن سوء رأيٍ لما أوحشتُكَ وداجيتُكَ[١]، ثم وعده بإطلاقه إلى بلاده.

وفي ربيع الأول ولدتِ امرأةٌ بباب الأزج صبيةً لها رأسان، ووجهان، ورقبتان مفترقتان، وأربع أيدي، على بدن كامل، وماتت البنت[٢].

وفيه حَصِبَ الأميرُ عُدَّةُ الدين أبو القاسم بن الذخيرة، وتعدَّى ذلك إلى جده القائم، وانزعج الناس، ولحقهم أمر عظيم؛ لأنه لم يبقَ من بني العباس من يصلح للخلافة غيرُهما، ثم منَّ الله تعالى عليهما بالعافية، فسُرَّ الناس.

وفي ربيع الآخر وصل خيلٌ ناشيءٌ من خُوارَزم إلى نظام الملك بكتاب من السلطان يُخبر بما فُعِلَ مِنْ وراء النهر وخُوارَزم من الفتوح، وقمع المفسدين، وتهديد تلك البلاد. قال: وكان التركمان قد اختلطوا بالكفار، وكانوا ينهبون التجار، وكانوا على طرف البحر عند القفجاق، ولمَّا سمعوا بنا عبروا إلى جزيرة في البحر، وتركوا أموالهم ونساءهم ومواشيهم، ولا نَقدر على إحصائها، فاستولينا على الجميع، وعاد إلى خراسان، فخرج الجماعة الذين تخلَّفوا عنه للقائه مع نظام الملك، وقيل: إنما كانوا تأخَّروا عنه بخُوارَزم.

وفي ربيع الآخر لأربعٍ بَقِينَ منه حدثت ببغداد فتنةٌ بين الشافعية والحنابلة واقتتلوا.

وفي العشر الأول من جمادى الأولى في نيسان ظهر في أواخر برج الحوت كوكبٌ كبيرٌ له في المشرق ذؤابة عرضها نحو ثلاثة أذرع [وطولها أذرع كثيرة][٣] إلى حدِّ المجَرَّة من وسط السماء مادَّةً إلى المغرب، ولبث إلى ليلة الأحد لستٍّ بَقِينَ منه، وكانت الشمس في برج الثور، ثم ظهر في برج السرطان عشيةَ يوم الثلاثاء عند غروب الشمس من المغرب [كوكب] قد استدارَ نورُه عليه كالقمر، فارتاع الناسُ وانزعجوا، ولمَّا أعتَمَ الليلُ رمى ذؤابةً نحو الجنوب، وكان مسيره كسرعة مسير القمر إلى أن انتهى

---

(١) من المداجاة: وهي المداراة. اللسان (دجي).

(٢) هذا الخبر والأخبار الثلاثة التي تليه ـ دون كلام ابن الصابئ ـ في المنتظم ١٦/ ٩٥ .

(٣) هذه الزيادة من (ف) و(م) و(م١).

إلى برج الأسد ومقارنة زُحَل مارًّا نحو القبلة، في مدة عشرة أيام، وثبت مكانَه إلى أن اضمحلَّ وذهب في أيامٍ مضَتْ من رجب.

وورد من بعض التجار كتبٌ من عُمان بأن ستة عشر مركباً خُطِفت من سواحل البحر طالبةً لعمان، وأنها غرقت ليلة طلوع هذا الكوكب الأخير، وهلك فيها ثمانية عشر ألف [إنسان، وجميعُ المتاع الذي حَوَتْه، وكان من جملته عشرة آلاف] طبلة كافور.

[وقال ابن الصابىء: ووجدتُ بخطِّ جعفر بن المكتفي ما يتضمَّن ذكر ما حدث من طلوع هذا الكوكب، وكان هذا الرجل مُبَرِّزاً في علم هذه الصناعة إلى أبعد غاية. قال: يذكرون خبراً يطول، وجملته أن كوكب الذنب طلع في وقت قتل قابيل هابيل، وفي وقت الطُّوفان، وفي وقت نار إبراهيم الخليل، وإحراق نمروذَ أباه، وعند هلاك قوم عاد وثمود وقوم صالح، وعند ظهور موسى وهلاك فرعون، وفي غزاة بدر، وعند قتل عثمان وعلي، وفي سنة سبع وعشرين وثلاث مئة في خلافة الراضي. قال: وقد ظهر أيضاً في خلافة المستعين، فقيل: وقُتل بعده المعتز والمهتدي والمقتدر، وذكر الأحداث عند ظهور هذا الكوكب. قال: وأدناها الزلازلُ والأهوال. قال: وقد ذكر الكندري من هذا الباب أشياء منها أن في سنة خمس وعشرين ومئتين في خلافة المعتصم ظهر في الشمس نكتةٌ سوداء قريبةٌ من وسطها، فأقامت في وجه الشمس أحد وتسعين يوماً، ومات المعتصم بعدها، وقد طلع هذا الكوكب عند موت الرشيد، وذكر الكُندري كلاماً طويلاً في تأثير هذا الكوكب، يدلُّ على حدوث شرٍّ عظيم، وزوال الممالك منذ آدم وإلى هلُمَّ جرًّا، وكذا سماع الأصوات الهائلة من السماء، ورمي الحجارة، وظهور الحمرة، وقد ظهر هذا الكوكب في هذه السنة في أشياء عُرف منها الكواكب التي ذكرنا، ومرض الخليفة وولد ولده].

وكانت زلازل بخراسان في هذه السنة تصدَّعت منها الجبال، ورمَت القلاع الشاهقة، وأخربت البلدان، وخسفت بعدة قرى، وأهلكت خلقاً عظيماً، ولم يسلَمْ إلا من خرج إلى البرية، وغار ماءُ البحر أياماً ثم عاد، ووقع حريقٌ ببغداد أتى على معظمها.

وورد الخبر بأنه قد ملكت جزيرة أُوال المسمَّاة بالبحرين، وهي من أعمال القرامطة، غلب عليها أهلها، وأمَّروا عليهم أبا البهلول عزام بن محمد بن يوسف بن الزجاج، فخطب بها للقائم، وكان يخطب بها لصاحب مصر، وبعث إليهم القرامطةُ جيشاً فهزموه، وكان أبو البهلول وأخوه أبو الوليد من أهل الدِّين، فأبْقَوا من القرامطة، واجتمع أهلُ الجزيرة عليهما، وبذلوا للقرامطة ثلاثةَ آلاف دينار حتى يُمكِّنوهم من بناء جامع يأوي إليه المجاورون والمسافرون والغرباء، ويُصلُّون فيه الجمعة، فأجابوهم، فلمَّا تكامل الجامع صَعِد أبو الوليد المنبر، فخطب للخليفة القائم، فقال من يهوى القرامطة: هذه بدعة، ويجب أن يُمنع بنو الزجاج من الخطبة، ويُصلُّون بغير خطبة، وتقدَّموا إليهم بذلك، فقالوا: ما بذَلْنا إلا ليجلب إلينا التجارَ والعجمَ والمسافرين، فإن كرهتم ذلك فادفعوا إلينا ما بذلناه، فمعيشتنا من هذا الباب. وكوتب القرامطة بذلك، فجاء الجواب بأن لا يعترض عليهم، فمال إليهم أهل تلك النواحي، فلمَّا أخرج الخليفةُ من بغداد نوبةَ البساسيري قال المخالفون لهم: الخليفةُ الذي كنتم تخطبون له زالت أيامه، والخطبة لصاحب مصر. فلم يمتنعوا من الخطبة للقائم، وبعثوا إلى القرامطة هديةً، وسألوهم أن لا يعترضوا عليهم، فجاء جوابُهم أن يجروا على عادتهم في الخطبة لمن أراد، وقويَ أمرُ أبي البهلول، ثم كتب القرامطةُ إلى نائبهم بأن يصادر أهلَ البلد، وكان عاقلاً، فامتنع، وعلم بنو الزجاج بذلك، فولَّوا عليهم أبا البهلول، وكانوا ثلاثين ألفاً، وقدم والٍ جديد، فعزم على القبض على أبي البهلول ومَنْ وافقه، فبادروه بالقتال، وكان بالجزيرة رجلٌ يقال له: ابن أبي العريان، كبير القدر، فوافقهم، وانحاز إلى أبي البهلول، وزحفوا إلى الوالي الجديد، فقتلوا من أصحابه جماعةً، وهرب، وكان الوالي العتيق الذي لم يُصادرهم يقال له: ابن عرهم، فجاء الجواب بأنَّا لا نردُّه والعساكر واصلةٌ. وبعث أبو عبد الله بن سَنْبَر ـ وزيرُ القرامطة ـ أحدَ أولاده إلى عمان لحمل مال وسلاح منها، وعَرَفَ أبو البهلول وابن أبي العريان ذلك، فكتما، وكمنا له في الطريق عند عوده، فقتلاه وأربعين رجلاً معه صبراً، وأخذ ما كان معه وهو خمسة آلاف دينار وثلاثة آلاف رمح، ففرَّق المالَ والسلاحَ على أصحابهما، وبلغ ابنَ

سَنْبَر، فمال إلى ابن أبي العريان، وكاتبه سرًّا، وبذل له الأموال، وأن يُولِّيه الجزيرة فمال إلى قوله، وأجابه إلى الفتك[١] بأبي البهلول، وأنه إذا بعث عسكراً في البحر إلى الجزيرة وقَرُب منها وثب على أبي البهلول فقتله وقتل أصحابه، ثم قال لأهله وعشيرته: هذا الذي نحن فيه أمرٌ لا يتمُّ، وما لنا بالقرامطة قُدرة، ويجب أن نُدبِّر أمرنا معهم. فقالوا: افعَلْ ما تراه، فنحن تبَعُكَ وبدأ في نقض ما اتَّفقوا عليه، وعرف أبو البهلول ذلك، فانزعج، وجمع أهلَه وعشيرتَه، وأطلَعهم على الحال، وقال: ما لنا قدرةٌ بابن أبي العريان، هو أقوى وأكثر رجالاً ومالاً، فاطلبوا قتله غيلةً بوجه لطيف، وإلا يتقرَّب بنا إلى القرامطة. فرصدوه حتى نزل إلى عين تسمى عين ثَور يغتسل، فنزل إليه رجل فقتله. وقيل: بل قاتله أحدُ بني أعمامه، وجاء أصحابه فرأوه قتيلاً، فجاؤوا إلى أبي البهلول واتَّهموه بقتله، فحلف لهم أنه ما قتله، فصدَّقوه، وجاء ابن سَنْبَر وزيرُ القرامطة بالعسكر على ما كان استقرَّ بينه وبين ابن أبي العريان في مئة وثمانين شذاة[٢]، وجاء على فرسه فوقع، فانكسرَتْ ساقُه، فأقسم عليه أخوه أبو الوليد أن يرجع فأبى، ونزل على حاله في شذاة، وأمره بضرب الدبادب والبوقات ونشر الأعلام، واتفق لابن سَنْبَر من السوء أنه كان معه في الشَّذاة خمسُ مئة غلام وفرسٌ لعامر وربيعة؛ تصوُّراً منه أنه يدخل البلد في غير حرب، ولم يشعر بقتل ابن أبي العريان، فلمَّا ضرب البوقات والطبول وسمعها الخيل ورأت المطارد[٣] نفرت، وغرق بعض الشذا، ووقعت الحرب في البحر، وهرب ابن سَنْبَر إلى الساحل، واستولى أبو البهلول على باقي[٤] الشَّذا، فأخذ منها نحو مئتي فرس وسلاحاً كثيراً، واستأمن إليه مَنْ كان فيها من أهل السواد، وحلفوا أن ابن سَنْبَر أخذهم قهراً، وظفر بأربعين رجلاً من القرامطة فقتلهم صبراً، وعاد وقد برئت ذمَّتُه، وقوي أمرُه، وانتظم حالُه، واستوزر أخاه أبا الوليد، وكتب إلى بغداد بالفتح، وشرح الحال إلى أبي منصور بن يوسف.

---

(١) في (ف): الفتح.

(٢) الشذاة؛ واحدة الشذا: وهي ضربٌ من السفن. الصحاح (شذا).

(٣) المطارد؛ جمع مِطْرَد: وهو اللواء والراية. تكملة المعاجم لدوزي ٧/ ٣٧ .

(٤) في (ف): باب.

وقال محمد بن هلال الصابىء: حدثني أبو حفص الريحاني أحدُ المتفقّهة حديثَ القرامطة، وكان قد اجتاز بهم [في بعض أسفاره]. قال: إن جزيرة أُوال ثلاثة عشر فرسخاً ضياعاً ومزارعَ ونخيلاً وأشجاراً، ونفَسُ البلد لطيف، وعددُ قُراه مئة وثلاثون قرية، منها قرية تشتمل على مئة وثلاثين مسجداً تُسمَّى تُسْتَر، وهم يخطبون قديماً لبني العباس والقرامطة من بعدهم في بلد يُعرف بالقَطيف على ساحل البحر، وجميع السواد، إلا الأحساء فلا يُخطَب فيها لأحد، ولا يُصلَّى فيها جمعةٌ ولا جماعةٌ إلا صلاة التراويح؛ تعظيماً لأبي سعيد الجَنَّابي المدفون بها، وفيها قوم يُعرَفون بالسَّادة من أولاد القرامطة، من ظهر أبي سعيد الجَنَّابي، كلَّما نقص من عددهم واحدٌ أقاموا واحداً مكانه، وهم على سَنَنٍ من العدل، يقيمون الحدود، ويحافظون على الصلوات، ويُبطلون المذاهب الفاسدة، ولهم ستة وزراء من سنين لا يستبدلون بهم؛ لأن أبا سعيد لمَّا ظهر عاهدوه وشرطوا عليه أن تكون الوزارةُ فيهم والرياسةُ فيه. ومن مذهبهم إسقاط الجزية عن أهل الذمة، ويُصلُّون على أبي سعيد ولا يُصلُّون على النبي ﷺ، وإن صلَّى عليه أحدٌ صفعوه وقالوا: لا تأكل رِزْقَنا ورِزْقَ أبي سعيد وتُصلِّي على أبي القاسم. واعتقادهم أن أبا سعيد يعود إليهم ويخرج من قبره عليهم إذا طار طائر من حصن معمول في رأس قبة على ضريحه من دارهم بالأحساء، وعند القبر فرس مشدود، وخلعة ثياب، ودَسْتُ سلاح مُعَدٌّ لخروجه.

وفي جمادى الآخرة حدثَتْ زلزلةٌ بنيسابور لبِثَتْ أياماً أهلكَتْ خلقاً عظيماً، وخَسفَتْ عِدَّة نواحٍ، وخرج الناس إلى الصحراء هرباً من البنيان.

[وورد من هناك إلى بغداد كتابٌ شرح الحال يقول فيه: كتابي ـ أطال اللهُ بقاء الشيخ ـ عن نفسٍ زاهقة، وأحشاءٍ راجفة، وعقلٍ ذاهِب، وقلبٍ ذاهل، وعينٍ ممطرة، ودموعٍ منسكبة، وغمومٍ في الصدر مقيمة، وهمومٍ على الفؤاد مُخيِّمة، ممَّا دُهينا به خصوصاً، أهل هذه البلدة عموماً، في زلزلةٍ شديدةٍ، وهدَّةٍ عظيمة، تصدَّعَتْ منها الجبال، وتشقَّقتْ منها التلال، وانقلبَتِ القرى بأهلها، واستُؤصلَتْ مواصِلُها، ولم يسلَمْ من ساكنيها إلا القليل، وهذا لَعمري الخطبُ الجليل، وخرب أكثر بنيان البلد، وهلك خلقٌ لا يأتي عليهم العدد، وقامَتِ القيامة قبل أوانها، وبدَتْ آثارُ الساعة قبل أيامها، وكثُرَ الويلُ

والعويل، ولم يحجَّ من الناس إلا القليل، والناس حيارى على المزابل، سكارى من الهول الهائل، والأرض تفرع وتميد، وليس عمَّا قضاه الله محيد].

وورد كتاب من خراسان بِعَوْد ألب أرسلان من خُوارَزم إلى نيسابور، وأنه أذِن لهزارسب في العود إلى خوزستان يحمل ما بقي عليه من المال إلى الخزانة، بعد أن أدَّى مئةَ ألف دينار.

وفي شعبان ورد أميرُ الجيوش بدر إلى دمشق والياً، وهذه ولايته الثالثة، فنزل في مرج باب الحديد أياماً، وبلغه قتلُ ولده بعسقلان، فدخل إلى القصر وأقام فيه، فوقعت الفتنة بين أهل دمشق وعسكره سنة ستين وأربع مئة، فخرج من القصر، فنزل عند مشهد القدم، فأحرق أحداثُ دمشق القصرَ.

وفيها خلع الخليفةُ على وزيره ابن جَهير خِلعةً نفيسةً، فطاب قلبُه، فكان الخليفة هو المباشر بنفسه الأمور، فأحبَّ ابنُ جَهير أن يستبدَّ بالأمور على جاري عادة الوزراء.

وفي رابع ذي القعدة خرج خادمٌ من عند الخليفة رسولاً إلى السلطان يهنيه بسلامته، ومعه خلع للسلطان، وأُضيف إليه أبو محمد التميمي الحنبلي، وأصحبهما يُذكِّره بِعَود خاتون زوجة الخليفة إليه، وشكايةً من النواب وما يتعرَّضون له في إقطاعه وإقطاع حاشيته، ولمَّا وصل هزارسب إلى الأهواز استأصل الدَّيلم، وأخذ أموالهم وإقطاعاتهم، وحصل له منهم مال عظيم.

وفي رمضان كُسي جامع المنصور بالبواري، فدخل فيه أربعة وعشرون ألف ذراع بواري، وثلاث مئة منًّا من الخيوط، وأخذ الصنَّاعُ أجرتَهم عشرين[1] ديناراً.

[قلت: وهذه بَوارٍ لو كانت حصر سامان[2] أُفرش في أرضه اللؤلؤ والمرجان لكان قليلاً في جنب من صلَّى فيه من العلماء والفضلاء والفقهاء والزُّهَّاد والعُبَّاد والأولياء].

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٩٦-٩٧.

(٢) سامان: نوع من الخيزران يوجد في جوار بيسان المدينة الصغيرة في فلسطين، تُعمل منه حصر جميلة. تكملة المعاجم لدوزي ٦/ ١٥.

وفيها توفِّي

أحمد بن الحسين[١]

ابن علي بن عبد الله، البيهقي، الحافظ، أبو بكر، ولد سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث والفقه والأصول، وله التصانيف الكثيرة، وجمع نصوص الإمام الشافعي رضي الله عنه في عشر مجلدات، وتوفي بنيسابور في جمادى الآخرة، ونُقِلَ تابوتُه إلى بيهق، وكان مُتعفِّفاً، زاهداً، ورعاً، صدوقاً، ثقةً.

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن الحسين[٢]

ابن محمد بن خلف بن أحمد، ابنُ الفرَّاء، أبو يعلى، القاضي، الحنبلي، ولد في المُحرَّم سنة ثمانين وثلاث مئة، سمع الحديث وتفقَّه على أبي فلان، وانتهت إليه رئاسة الحنابلة، وصنَّف الكتب، وشهد عند[٣] قاضي القضاة أبي عبد الله بن ماكولا وعبد الله بن الدامغاني، فقَبِلا شهادته، وتولَّى الحكم بحريم دار الخلافة، وتُوفِّي ليلةَ الاثنين، ودُفِنَ يوم الاثنين العشرين من رمضان وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وغسَّله الشريف أبو جعفر بوصية منه، وأوصى أن لا يدخل معه القبر غير ما عزله لنفسه من الأكفان، وعُطِّلت الأسواقُ لجنازته، ومشى فيها الأعيان: القاضي الدامَغاني، ونقيب الهاشميين أبو الفوارس طراد الزينبي، وأبو منصور بن يوسف، وأبو عبد الله بن جردة، والفقهاء، وصلَّى عليه ابنُه أبو القاسم عبيد الله، وهو يومئذٍ ابنُ خمس عشرة سنة، ودُفِنَ بباب حرب، وكان إماماً في الفقه، وأفتى سنين، وانتهى إليه المذهب، وانتشرت تصانيفُه وأصحابُه، وجمع بين الأمانة والصدق وحُسن الخلق والسمت والتعبُّد والتقشُّف والخشوع والصمت عن ما لا يعنيه، واتباع السلف، وخلَّفَ من الولد ثلاثةً: عبيد الله، وأبا حازم، وأبا الحسين.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٩٧ . وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ١٦٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٥٦ ، والمنتظم ١٦/ ٩٨-٩٩ ، وطبقات الحنابلة ٢/ ١٩٣-٢٣٠ ، والأنساب ٩/ ٢٤٦ ، وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٨٩ .

(٣) تحرفت في النسختين (خ) و(ف) إلى: عليه، والتصويب من مصادر الترجمة.

وقال أبو يعلى البَرَداني: رأيتُه في المنام فقلت له: ما فعلَ الله بك؟ فقال وهو يعدُّ بأصابعه: غَفَر لي، ورَحِمني، ورفع منزلتي. فقلت: بالعلم؟ فقال لي: بالصدق. وأفطر يوم جنازته خلقٌ كثيرٌ؛ لأنَّ الحرَّ كان شديداً.

ولمَّا غلب البساسيريُّ على بغداد ولَّاه القضاء، فاستأذن أبا عبد الله الدامغاني [ثم][1] دخل عليه وأخبره، واستأذنه فأذِنَ له، وكان في اعتقال البساسيري، وكان فيمن بايع المستنصر صاحب مصر.

قال الحافظ ابن عساكر[2]: سمعتُ أبا غالب بن أبي علي بن البناء الحنبلي يقول: لمَّا مات أبو يعلى ذهبتُ مع أبي إلى داره بباب المراتب، فلقِيَنا أبو محمد التميمي الفقيه الحنبلي، فقال: إلى أين؟ فقال أبي: مات القاضي أبو يعلى. فقال أبو محمد: لا رَحِمَه الله، فقد بالَ على الحنابلة ـ يعني البولةَ الكبيرة ـ لا تُغسل إلى يوم القيامة ـ يعني المقالة في التشبيه ـ.

السنة التاسعة والخمسون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد ألب أرسلان إلى الريِّ من نيسابور.

وفيه بعث صاحب مصر إلى محمود بن الزَّوقلية المتغلِّب على حلب يُطالبه بحملِ مالٍ إلى خزانته، وبغزوِ الروم الذين هم في مجاورتِه، وصرفِ سُرْخاب ومن معه من الغُزِّ إن كان على طاعته، فأجاب: يا بُنيَّ قد ألزمتُ على أخذ حلبَ من عمي أموالاً اقترضها، وأنا مطالَبٌ بها، وليس في يدي ما أقضيها، فضلاً عما أصرفه في غيره، فإذا قضيتُ ديوني، واستقام أمري، حملتُ وخدمتُ، وأما الرومُ فقد هادنتُهم مدةً، وأعطيتُهم ولدي رهينةً على مالٍ اقترضتُه منهم، فلا سبيل إلى محاربتهم حتى أوفيَهم المال، وأُخلِّصَ ولدي، وتنقضي الهدنة، وأما ابنُ خان[3] والغُزُّ الذين معه فيَدُهم فوق

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) لم أقف على هذه الترجمة في تاريخ دمشق ولا في أيٍّ من مصنفات ابن عساكر!.

(٣) في النجوم الزاهرة ٥/ ٧٩: خاقان.

يدي، وإنما استخدمتُهم مصانعةً لهم، وكفًّا لفسادهم، فإن رأيتَ صرْفَهم فلتُنفِذْ إليهم مَنْ هو أقوى عليهم مني، وأنا أُساعده، فلمَّا وصل الجواب كوتِبَ بدرٌ الجمالي أميرُ الجيوش المقيم بدمشق، بأن ابن الزَّوقلية قد خلع الطاعة، وأنه مال إلى الجهة العراقية، فنسيرُ إليه ونقاتِلُه، فكتب بدرٌ إلى عطية وهو بالرحبة أن يسير إلى حلب، ووعده المساعدة، فسار ومعه [من][1] بني كلاب عِدَّةٌ قويةٌ إلى حماة، وعلم محمود، فخرج من حلب، واستصحب معه الرجال والغُزَّ إلى بني كلاب، فنزل عليهم؛ لئلا يذهبَ الباقون إلى عطية ويُحِسَّ بهم، ولم يبقَ إلا الحرب، فدخل القاضي ابنُ عمار المقيم بطرابلس بينهم، وأصلح الحال، واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر، وحلف كلٌّ واحد منهما لصاحبه على أنَّ الرحبةَ وبالِس والرقة والبلاد الفراتية لعطية، وحلبَ لمحمود، وسار عطيةُ إلى دمشق، فأقام في خدمة صاحب مصر، وبلغ مسلمَ بنَ قريش، فسار إلى الرحبة فملكها بمواطأةٍ من أهلها؛ لقُبحِ ما عاملهم به عطيةُ، وأقام مسلمٌ الخطبةَ بها للخليفة، ثم للسلطان، ثم لنفسه.

وتُوفِّي ابنُ البساسيري يوم الأحد بدمشق، واتُّهِمَت به مغنيةٌ كانت له، وأولَدَها ولداً، وأنها وافقَتْ فَرَّاشه وطبَّاخه على سمِّه، فسمُّوه، فصلبهم أميرُ الجيوش ورماهم بالنُّشَّاب، واتَّفق موت أخيه في هذا الشهر، وكان مقيماً بمصر، فتنمَّر[2] عليه ناصر الدولة ابن حمدان، فهرب منه قاصداً دمشق، فواصل السير خوفاً من اتِّباعه، فلحقه من المشقة ما كان سبباً لموته بعد وصوله إلى دمشق بستة أيام.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر صفر ورد العميد أبو سعد المستوفي من باب السلطان ومعه هدية للخليفة؛ خيلٌ وثيابٌ ومصحفٌ وجوهرٌ وكتابٌ، ففرح أهل بغداد بقدومه؛ لأنه كان عفيفاً عن المال والحريم، أقام السياسة، وأمَّن الناس.

وفي صفر قصد أبو عبد الله بن أبي هاشم مكة، وقتل من بني سليمان جماعةً، وهرب حمزة بن وهاش أميرُها، وخطب ابنُ أبي هاشم لصاحب مصر والصُّليحي.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) تنمَّر: تنكَّر. الصحاح (نمر).

وفي ربيع الآخر ورد الخبرُ بمسير أرسلان خاتون زوجة الخليفة إلى بغداد ومعها تواقيع بجميع ما التمسه القائم من الإقطاعات وغيرها، وأنَّ ألب أرسلان توجَّه إلى أصبهان بنية المُضيِّ إلى كرمان.

وفي غُرَّة جمادى الأولى دخلت السيدة أرسلان خاتون إلى بغداد مع الخادم، وخرج الناسُ لتلقِّيها، ومعهم الوزير ابنُ جَهير على فرسخ من بغداد، ودعا لها وهو على ظهر فرسه، ودخلت دارها، وحضر العميد بيت النُّوبة، وقُرئت الكتبُ التي كانت معها، وتشتمل على الطاعة والتصرُّف على قوانين الخدمة والإجابة إلى جميع ما التمس الخليفة، فكان فيها كتابٌ إلى ابن جَهير، عنوانه: الوزيرُ الأجَلُّ، شرفُ الوزراء، فخرُ الدولة. وقبل هذا كان يكتب إليه: الرئيس الأجَلّ. وعزم العميد على العود إلى باب السلطان، فسار يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبنى في هذه المدة التي أقام بها ببغداد على قبر أبي حنيفة ﷺ قُبَّةً عاليةً عظيمةً، وأنفق عليها أموالاً كثيرةً، وعمل لها ملبناً وعلَّاه على مثال قبور آل أبي طالب في المشاهد، وعمل بين يديه رواقاً وصحناً، وجعله مشهداً كبيراً، وعمل بإزائه مدرسةً لأصحاب أبي حنيفة، ورتب لهم مدرساً، وأوقف عليهم ضيعةً يُصرف مغلُّها إليهم، وفعل في ذلك فِعْلةً حسنةً، ولُقِّب: العميد شرف الملك، ولمَّا انتهت دخل ابن البياضي الشاعر لزيارة المشهد، فقال ارتجالاً: [من الطويل]

أَلـم تـرَ أنَّ الـعـلـمَ كـان مُـبـدَّداً   فـجـمَّـعَـهُ هـذا الـموسَّـدُ في الـمـهـدِ(١)
كـذلِـكَ كـانـتْ هـذهِ الأرضُ مـيـتـةً   فـأنـشـرَهـا جـودُ الـعـمـيـدِ أبـي سـعـدِ

[قلت: وقد ذكر علي بن عقيل في كتابه المسمَّى بـ «الفنون» في هذا المعنى فصلاً، فقال: وُضِعَ أساسُ مسجدٍ بين ضريح أبي حنيفة في سنة ستٍّ وثلاثين وأربع مئة وأنا ابنُ خمس سنين، وكان المنفقُ عليه رجلٌ تركيٌّ قدم حاجًّا، ثم قدم أبو سعد المستوفي ـ وكان حنفياً متعصِّباً ـ وكان قبرُ أبي حنيفة تحت سقفٍ عَمِله بعضُ أُمراء التركمان،

---

(١) جاء البيت في المنتظم ١٦/ ١٠٠ ـ والخبر فيه بنحوه ـ وفي البداية والنهاية ١٢/ ٩٥ هكذا:

أَلـم تـرَ أنَّ الـعـلـمَ كـان مُـضـيَّـعـاً   فـجـمَّـعـهُ هـذا الـمُـغـيَّـبُ في الـلَّـحـدِ

وكان قبله خَرْبُشت[١]، فلمَّا دخل الغُزُّ بغداد وجاء شرفُ الملك إلى بغداد عزم على بناء القُبَّة، فهدم جميع أبنية المسجد وما يحيط بالقبر، وبنى هذا المشهد، وجاء بالقطَّاعين والمهندسين، وابتاع دُوراً من جوار المشهد وحفر أساس القُبَّة، وكانوا يطلبون الأرض الصلبة، فلم يبلغوا إليها حتى حفروا سبعة عشر ذراعاً، فخرج من هذا الحفر عظامُ الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان أربع مئة عين، ونُقِلت جميعُها إلى بقعةٍ كانت لقوم ملكاً، فحفروا فيها ودفنوها، وخرج في ذلك الحَفْر - يعني الأساس - شخصٌ منتظم العظام له ريحٌ كريح الكافور. وقال ابن عقيل: فقلت: وما يدريكم لعلَّ النعمان خرجت عظامه في هذه العظام وبقيت القبة فارغة، وبلغ شرفَ الملك، وكانت العمارة في سنة تسعٍ وخمسين وأربع مئة، وساجُه وأبوابُه غصبٌ من بعض بِيَع سامراء. قلت: قد كان ابنُ عقيل من أكبر المتعصِّبين على أبي حنيفة وأصحابه. وقوله: وأنا ابن خمس سنين، وهل يُدرك هذا الإدراكَ ابنُ عشرين سنة؟!. وذكر ابن العميد أنه جمع الصنَّاع والمهندسين وغرم على القُبَّة ألوفاً، وكيف يخفى عليهم موضع الضريح؟ ثم أوهم أن الشخص الذي فاحت منه رائحة الكافور هو الإمام. وما مقصودُه إلا الإبهام. وقوله: غصبوا الأبواب والساج من بعض البِيَع، فيحتمل أن أهل تلك البيع نقضوا العهد أو كانت خراباً، ولو صحَّت دعواه فإن الغاصب عند أبي حنيفة يملك الساحة؛ فإنه لا معتبر في الدنيا بالعظام، وإنما الاعتبار بالأرواح، وهي في دار السلام، والله سبحانه أعلم].

وفي شعبان وردت الأخبار أن ألب أرسلان لمَّا توسَّط بلادَ كرمان طلب أخاه الأمير قاروت بك، وكان قد تحصَّن ببلد حصين، وعليه سورٌ مكين، ويحيط به خندقٌ عميق، ويُسمى البلد بردشير، فبعث إليه أرسلان مقدِّمتَه، وسار خلفها، وخرج قاروت بك من البلد، فلقي المُقدِّمة، وفيها الحاجبان الطباش وجاولي، والتقَوا، فقُتِل بينهم عددٌ كبير، وجاءت رايات صاحب مصر على والدته وأخيه، فضمَّها إلى قصره، وكان في العسكر أميرٌ تركيٌّ يقال له: سلطان الجيوش، فاستمالوه بولاية تِنِّيس ودمياط وأعمالها، وولي سنان الدولة أماكن، وفرَّقوا البلاد في المقدَّمين خوفاً من ابن

---

(١) الخَرْبُشت: الخيمة. المعجم الذهبي ص ٢٣٥ .

حمدان، وحصل الشام في يد بدر الجمال، والصعيد في يد المغاربة، والإسكندرية في يد ابن حمدون، ودمياط وما والاها في يد سلطان الجيوش، ولم يبقَ لصاحب مصر إلَّا ما حول القاهرة وقَرُبَ منها.

وفي ذي القعدة لبس الوزير ابن جَهير خِلعةَ السلطان ألب أرسلان، وبعث بها إليه، وكانت فَرَجيةَ طميم وعمامةً مُذهَبة ومركبَ ذهب على فرس، وكتب إليه كتاباً يتضمن الشكرَ وحقدَ القائم عليه، حيث لبسها في داره، وجلس الوزيرُ ابنُ جَهير في بيت النُّوبة للهناء، وخرج إليه توقيع الخليفة، ومضمونه: لمَّا اتَّضح للسلطان الأعظم ـ وذكر ألقابه ـ لُطْفُ محلِّكَ يا فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير، وتأثُّلُ مكانِكَ، وتخصيصُكَ بشريف آراء أمير المؤمنين فيك بما تجاوزت به مراتب مَنْ تقدَّمك من أمثالك وألقابك، رأى أن يَحبوك بما يقصد به التقرب إلى الخدمة الشريفة، ومضايفة الآراء في اعتمادك بالآلاء الجسيمة، ويقابل مواقفك في الخدمة التي وضحت دلائلُها، وراقت من الأقذاء مناهلُها، ومقاصدك الرضية التي أنبَتْ عن حميد الجلال، وقطعت أطماعَ من يروم إدراك شأوِكَ من النظر أو الأمثال، مع ما في ظنٍّ ذلك مما يدلُّ على جميلِ رأيه فيك، واعتدادِه بمساعيك، وقد أذِنَ أميرُ المؤمنين في ادِّراع ما يحصل لك الشرف به والبروز فيه، ويلقى ذلك بما يلائم الصواب ويضاهيه، ويُبدي الكافةُ ما لا يزال الإمام يُظهِره من تضاعف حصونك بحضرة الخليفة المعظَّمة، ووجاهةِ منزلك من الإمامة المكرَّمة، والله تعالى يُمتع أمير المؤمنين بعضد دولته التي تفرد بها في الزمان، وطال بها مناكبَ الأقران.

وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة جمع أبو سعيد القايِني الناس على طبقاتهم إلى المدرسة النظامية، وكان نظام الملك بناها برسم أبي إسحاق الشيرازي، فلمَّا تكاملوا فيها تأخَّر مجيءُ أبي إسحاق، وطُلِبَ فلم يظهر، فوقع العدول إلى أبي نصر بن الصباغ الشاهد، وضمن له أبو منصور بن يوسف أن لا يعدل عنه، فركن إلى قوله، وذكر الدرس، وتفرَّق الناس، وخجل ابنُ الصباغ لتأخُّر أبي إسحاق، وأجرى المتفقِّهة لكلِّ واحد منهم أربعة أرطال خبز في كل يوم، وظهر أبو إسحاق في مسجده بباب المراتب، فدرَّس على عادته فيه، واجتمع إليه العوامُّ، ودعَوا له وأثنوا عليه، وكان قد بلغهم عنه أنه قال: إنني لم أطِبْ

نفساً بالجلوس في هذه المدرسة لما بلغني عن آلَتِها، وأنَّ أبا سعيد القايِني غصب أكثرها، ونقض قطعة من البلد لأجلها، ولحِقَ أصحابَ أبي إسحاق قصورٌ، وبان فيهم فتورٌ، وراسلوه بما عرضوا فيه بالانصراف عنهم، والمضيِّ إلى ابن الصباغ إن لم تُجِب وترجِعْ عن الأخلاق الشرسة، فأجابهم تطييباً لقلوبهم، وتسكيناً لنفورهم، وغيظاً من ابن الصباغ، حيث جلس في موضعه، وسعى هو وهم حتى صرَفَ ابن الصباغ، وكان نظام الملك لمَّا بلغه امتناعه من التدريس فيها أقام القيامة على عميد القايِني، وكتب يلومه ويوبِّخه ويتهدَّده، ويقول: لمن بنَيتَ هذه المدرسة إلا لأبي إسحاق؟! فجاء إليه أبو سعيد، وأراه الكتاب، فلم يُجِبْ، فمضى إلى بيت النُّوبة، وراسل الخليفةَ، فبعث إلى أبي إسحاق يقول: قد عرفتَ حالنا مع الأعاجم، وأخافُ أن يُنسَبَ ذلك إليَّ. فجاء أبو إسحاق وبيده آجُرَّةٌ كبيرةٌ كان يجلس عليها إذا قعد في المدرسة، وجلس بها يوم السبت غُرَّة ذي الحجة، وكان إذا حضر وقت صلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد، فكانت مدةُ مقام ابن الصباغ فيها عشرين يوماً.

وقال أبو علي المقدسي: رأيتُ أبا إسحاق الشيرازي بعد موته في النوم، فقلت له: ما فعل اللهُ بك؟ فقال: طُولِبتُ بهذه المبنية - يعني المدرسة النظامية - ولولا أني ما أدَّيتُ فيها الفرض لكنتُ من الهالكين[١].

وفي ذي القعدة قُتِلَ الصُّليحي أميرُ اليمن بالمَهْجَم، قتله سعيد ولد نجاح أحد أمرائها المتقدِّمين، وأُقيمت الدعوة العباسية باليمن، وقُطعت الخطبة المصرية، وورد بذلك كتاب من مكة - حرسها الله تعالى - معلماً لحضرة الوزارة، ومهنياً بالدولة الإمامية القائمية لِما فتح اللهُ من إقامة الدعوة على منابر اليمن فيما قَرُبَ وما بَعُدَ، وذلك لأنه لمَّا كان في رابع عشر ذي القعدة ورد إلى مكة مَنْ أخبر أن سعيد بن نجاح كان أبوه والياً على اليمن، وأنه خرج هذا الزمان في عصابة من الخيزُرانية[٢] بزَبيدٍ فاستولى عليها، وأنه سار إلى الصُّليحي في عدد يسير، وكان الصُّليحي قد عزم على الحجِّ فبلغه وهو بالمَهْجَم، فبعث بنعيم الصَّيمري في عسكر كبير، فحذَّرهم قتالَ

(١) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ١٠٢-١٠٣.

(٢) في (خ): الحيزانية، والمثبت من (ف).

الصُّليحي، وخوَّفهم بأسه، فخرجوا إليه في سبع مئة راجل وخمسة عشر فارساً، وسار بعدهم الصُّليحي فالتقوا، فكبا به فرسُه، فوقع وقُتِلَ رجالُه، وأُخذت أموالُه وحرمُه، وأصبح عِظةً للمعتبرين.

وفيها تُوفِّي

سعيد بن محمد بن الحسن(١)

أبو القاسم، إمام جامع صور، من رواياته عن الحسن البصري أنه قال: لا تشتروا مودَّة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

[وفيها تُوفِّي]

علي بن الخَضِر بن أبي الحسن(٢)

العثماني، الدمشقي، الحاسب، له تصانيف في علم الحساب، وكانت وفاته بدمشق في شوال، وكان أخوه قد مات بتِنِّيس، فقال يرثيه : [من الخفيف]

قُرَّة العينِ لم تدَعْ لي قرارا ... كنتَ جاري فصِرْتَ للتُّربِ جارا
كنتَ لي مؤنساً فأوحشني منْـ ... ـكَ زمانٌ مسترجِعٌ ما استعارا
في دمشقَ بعضي وبعضي بتِنِّيـ ... ـسٍ بَنَوا فوقَهُ من التُّربِ دارا
يا بعيدَ المزارِ ليتَ خيالاً ... منكَ في النَّومِ لو ألَمَّ فزارا
إن تكُنْ ذُقْتَ من غَصَّةِ الموْ ... تِ فقد ذُقْتُها عليكَ مرارا
جعلَ اللهُ ظلمةَ القبرِ نوراً ... لكَ والجنةَ الفسيحةَ دارا

السنة الستون والأربع مئة

فيها في ربيع الأول وردت الأخبار بنزولِ السلطان على حيرة، ودخولِ نظام الملك إلى فضلون بن أبي الأسوار صاحبها وإخراجِه، حتى داس بساط السلطان، وخلع عليه وعاد إلى بلده، وخدم السلطان بألف جمل، وخمسين فرساً، وخمس مئة ثوب من

(١) تاريخ دمشق ٢١/ ٢٨٧_٢٩٠ .
(٢) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٥٩-٤٦١ .

أجناس، وسُرُرٍ من ذهب وفضة مُلَبَّسين بهما، وبستانٍ أشجارُه من ذهب، وثمارُه اليواقيت والجواهر، ووزنه مئة ألف مثقال.

وقصد ألب أرسلان دخول اللّان، فوقع ثلجٌ عظيم، فأتلف العساكرَ والدوابَّ والخيامَ وغيرَها، فعزم على العود إلى حيرة، وجاء ابن جعفر أمير تِـفليس إلى الخدمة بمال وخيل، وبذل فضلون في تِفليس مالاً، فسلَّمها إليه السلطان، وبقي أميرُها على باب السلطان مقيماً، وكان السلطان قد تزوَّج ابنةَ أخت بُقراط ملك الأنجار، ودخل بها في هذه المرة بهَمَذان، وحملها معه، وطلَّقها وزوَّجها فضلون، وحملها إليه.

وفي ربيع الآخر وردَتْ كتب مسلم بن قريش بأنه كسر بني كلاب ونهبهم ودفعهم عن الرحبة، ومعها قصبة فضة مصريَّة عليها علم، عليه اسم صاحب مصر، مكسورة منكسة، فطِيفَ بها في بغداد، وبعث الخليفة إلى مسلم بالخلع والتشريفات.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى على ساعتين ونصف كانت زلزلةٌ بأرض فلسطين أهلكت بلد الرملة، وبلغ حِسُّها إلى الرحبة، ولم يسلَمْ من الرملة إلا دربان فقط، وهلك فيها خمس عشرة نسمة، وكان في مكتب الرملة نحو مئتي صبي، فوقع المكتب عليهم، فما سأل أحدٌ عنهم لموت أهاليهم، وانشقَّت صخرة بيت المقدس، ثم عادت. وقيل: ما انشقَّت، بل زالت من موضعها، ثم عادت، وغارَ البحر مسيرة يوم، ودخل الناس إلى أرضه يلتقطون، فرجع عليهم، فأهلك خلقاً عظيماً، وخربت بانياس، وسُمِعَ من السماء رعودٌ وأصواتٌ هائلةٌ غُشي على الناس منها، وشقَّت هذه الزلزلة الفرات، ورفعت الماء إلى جوانبها. وقال علويٌّ من الحجاز: كانت زلزلةٌ عندنا في الوقت المذكور، فرمت شُرَّافتين[1] من منارة مسجد النبي ﷺ، فانزعج أهلُ المدينة، وقالوا: هذا نذيرٌ بآيةٍ تُصيبنا، فتابوا وأقلعوا، وأراقوا الخمور، ونفوا الخواطىء من البلد، ولحقت الزلزلةُ وادي الصفراء ويَنْبُعَ وبدراً وخيبرَ ووادي القرى، وعمَّتِ الحجازَ، وانشقَّتِ الأرضُ عن كنوزٍ وجدوا فيها الذهب والفضة والمصاغ، ووزن الدينار مثقال ونصف، ونبعَتْ فيها عينٌ تستغل كلَّ سنة ألفي دينار، وظهر بتبوك ثلاثة عيون غير العين التي كانت بها، وأخذتِ الزلزلةُ في شرقي الحجاز

---

(١) الشُّرَّافة: زوائد توضع في أطراف الشيء تحليةً له. المعجم الوسيط (شرف).

جميعه، وأهلكت أيلة ومن فيها، إلا اثنا عشر رجلاً اتَّفق أنهم كانوا خرجوا إلى ساحل البحر يصيدون السمك.

وورد من بعض التجار كتابٌ في رجب يقول: وصلنا إلى دمشق وليس فيها سلطانٌ ولا بَيعٌ ولا شراء، وقد غلب أهلُها عليها، ولا يمكن أحدٌ الخروج منها ولا الدخول إليها، وانهزم أمير الجيوش صاحب دمشق إلى عسقلان، ونقض العامةُ قصرَه الذي كان ينزله، وجميعُ الساحل والشام محيط، والعجب أنهم اعتبروا حال هذه الزلزلة، فوجدوا السواحل والقدس والشام والمدينة وتبوك وتيماء والحجاز كلَّه والبلادَ الفراتية الجميع زلزلت في ليلة واحدة.

وفي نصف جمادى الأولى اجتمع الفقهاء والمُحدِّثون والفضلاء بديوان الخليفة، وسألوا إخراج الاعتقاد القادري وقراءته، فأُجيبوا، وقُرِىء هناك بمحضر من الجميع، وسببه أنَّ أبا منصور بن يوسف تُوفِّي في هذه السنة، فاجتمعت المعتزلة إلى ابن الوليد، وقالوا: ما بقيَ مَنْ ينصرهم، اجلِسْ ودرِّسْ. وعبر الشريف أبو جعفر إلى جامع المنصور وقرأه، فضجَّ الناسُ بالدعاء للخليفة، وانقطع رجاءُ ابن الوليد عن التدريس؛ لأنه قيل: [من][1] يُقِرُّ بهذا الاعتقاد، فليس بمسلم.

وفي يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة وليلة المهرجان خرج توقيعُ الخليفة إلى ابن جَهير بعزله، بمحضرٍ من قاضي القضاة الدامغاني، ويشتمل التوقيع على سبعة فصول؛ أولها: أنَّكَ عند رغبتك في الخدمة، كاتبتَ، وساولتَ، وبذلتَ المال وأشياءَ وُثِقَ بك فيها، فوفَّيتَ بالبعض، ودافعتَ بالبعض. والثاني: أنَّكَ لمَّا مات طُغْرُلْبَك كتبتَ إلى مسلم بن قريش استدعيتَه إلى الحضرة، فجرى من ذلك ما لا خفاء به من الخطر بالمهجة وخروج المال الكثير بسببه. والثالث: أنَّكَ تُسيء الأدب فيما يخرج إليك من الأوامر الشريفة، وفيما يُعرَض عليك من التوقيعات الكريمة، حتى ترمي بعضَها من يَدِك، وتخرق بعضَها بحَرَدِك[2]، وهذا لم يُقدِم عليه أحدٌ قبلك من أهل الخدمة.

(١) هذه الزيادة من (م).

(٢) الحَرَد: الغضب. المعجم الوسيط (حرد).

والرابع: أنَّكَ تحضر بابَ الحجرة من غير استئذان ولا استدعاء، وتقول: ما أُحِبُّ أن يدخل هذا المكان غيري، ورُمْتَ أن تصرف مَنْ جرَتْ عادتُه في هذا الموضع ومن يَقْرُبُ منه. والخامس: أنَّكَ كتبتَ إلى عضد الدولة ألب أرسلان تطلب خِلعةً من غير استئذان ولا اطِّلاع لنا عليها، وسألت لبسها في الدار العزيزة والتجمُّل بها، فقيل لك: هذا ما لا يجوز الإذن فيه؛ لأنه إنما يتجمَّل بما يلبس مما يخرج من الدار، لا بما يجيء إليها، فلم تفعل، وعزمت على مكاتبةِ ألب أرسلان وسؤالِه أن يشفع فيك في هذا المعنى، مخفياً أن يُحدِثَ ذلك وحشةً له؛ لأنه لا يعلم الغرض الذي قصدناه، فأذِنَّا لك على مضض، وجمعتَ الناس في بيت النُّوبة ولبستَها، وهُنِّيتَ بها. والسادس: الكتاب المُكتتب عن عفيف الخادم أجلِّ خادم في الدار وأخصِّهم بالخدمة الشريفة إلى المصريين - عليهم لعائنُ الله والناس والملائكة أجمعين - في الانحياز إليهم والالتحاق بهم، وإن كان من الهوَسِ الذي لا التفاتَ إليه، والهذيانِ الذي لا اعتمادَ عليه، وأجرى الله تعالى عليَّ جميلَ عوائدِه في الوقوع على هذه الفعلة الرديَّة، والفكرة المشتملة على كل بليةٍ ورزيَّة. والسابع: إخراجُك ولدَك إلى ألب أرسلان والتقوِّي والتعزُّز والاستظهار على الخدمة الشريفة بالالتجاء، وراسلناه فلم يفعل، ونهيناك فلم تقبل، والآن فانظر إلى أيِّ جهة تُحِبُّ أن تقصدها لِتوصَلَ إليها على أجمل حال وأكمل احتياط. فبكى الوزير وانزعج وقلق وأجاب: وأما ما بذلتُه وقلتُه فلو طُولِبتُ به وأُلزِمتُه لسمعتُ وأطعتُ وسارعتُ وامتثلتُ، ولَما أُهملتُ وأُغفلتُ، ظننتُ أني قد سُوهلتُ فيه وسُومِحتُ، فأما مسلم بن قريش فأنا أحلف بالأيمان المغلَّظة أنني ما استدعيتُه إلَّا خوفاً على الباب العزيز أن يطمع مُطامِع، وتَقْدُمَ بغدادَ في جمعٍ لا يسمع ولا يطيع، فإنَّ طُغْرُلْبك كان قد مات، واختلفت الآراء، فلما ظهر ما كان في نفس مسلم كامناً ولم أعلم به، رددتُه صاغراً، وأبعدتُه كارهاً، ثم أعدتُه إلى الديوان مِنْ بعدُ خادماً مستجيراً، ولائذاً بالعفو مستعيذاً، وأما التوقيعات فما قصدتُ إلَّا التخفيفَ عن الحاضر الشريف، والإشفاقَ على الخزانة لقلة المال، وحيثُ جهلتُ في فعلي، فقد كان يجبُ أن أُنبَّه على غلطي وأُرشَدَ إلى صلاحي، ولا أُتركَ على حالي، وأنتهي فيه

إلى ما يؤول إلى السخط والصَّرْف، ويتخمَّر ذلك في القلب والنفس، فأما قصدي باب الحجرة المعمورة وما قلتُه وسألتُه واقترحتُه فلم يكن لأمرٍ يعودُ عليَّ نفعُه، وإنما الأمرُ زاد ممَّن يحضر من أدوان الحواشي والأتباع، ويخرج فيتحدَّث بما يجري، ويصل إلى العامَّة، فيُتمِّم القباحة التامة، فأشرتُ بما أشرتُ حميةً للخدمة الشريفة لا لشيء آخر، وأما حديث الخِلعة فما ظننتُ أن ذلك القدر اليسير يصدر عن هذا الباطن الكبير، وأما ما يتعلَّق بالكتب فأنا أحلف بكلٍّ ما يحلف به المسلم أنني ما شعرتُ بها، ولا تقدَّمتُ فيها بشيء، وإن كان أقدمَ على ذلك من تعلَّق بي، فالأمر السامي نافذٌ فيه، وما ينبغي أن أُؤاخذ أنا به، وإن كان ولا بُدَّ من تسييري فإلى حِلَّة نور الدين بن مَزْيد. فخرج الجواب عن الفصل الأخير المتعلِّق بالمسير إلى حِلَّة نور الدين، واطَّرح جميعَ الأجوبة عن الفصول، وعيَّن الوزير على خروجه باليوم العاشر من الشهر، وخرج إليه من الخليفة توقيع نسخته: معلوم يا محمد بن جَهير أنه لم يظهر لك خيانة في دولة ولا مال، لكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩] ثم أذن له في بيع غَلَّاته والتصرُّف في ماله على إيثاره وإيثار أصحابه، فباعوا ما أرادوا من الرحل والقماش والدُّور والعقار، وطلَّقوا النساء، وأيتموا الأولاد، وظهر من الاغتمام عليهم من جميع مَنْ شَمِلَتْه الدار، من خدمٍ وأتباعٍ وخواصٍّ ورَعاعٍ شيءٌ كثير، وجاءه منهم العدد الكثير ليلاً، نساءً ورجالاً، باكين لمفارقته، محزونين لِبُعده، وهو يبكي معهم ويجزيهم خيراً، وخرج غلمانه وأصحابه يوم الخميس المذكور وقد اجتمع العوامُّ يدعون لهم، ويبكون عليهم، وقُدِّم له وقت العتمة عند باب الرقة جنكوليةٌ غاليةٌ من فراش، وجاء أولاده معه حتى وقف عند باب بيت النُّوبة وشُبَّاك المدورة، وظنَّ أن الخليفة في الشُّبَّاك، فقبَّل الأرض عدة دفعات، وبكى بكاء شديداً، وقال: اللهُ بيني وبين مَنْ غيَّر قلبك عليَّ يا أمير المؤمنين، فارحَمْ شيبتي وأولادي وذُلِّي وموقفي، وارْعَ حُرمتي وخدمتي، ولا ترتكب في مثلي هذا الفعل، فلما يئس نزل إلى دجلة معضَداً بين اثنين وهو يبكي، والعامة تبكي لبكائه وتدعو له، فيردُّ عليهم ويدعو لهم ويودِّعهم، وجلس في الجنكولية، وعبر إلى النجمي

وقد سبقه إليه صافي ومسعود من الخُدَّام الخواص، وجماعةٌ من الصغار، وحاجبان، وفيروز الكرماني، وخادم أرسلان خاتون، وجماعةٌ من الغلمان الدارية المسير في صحبته، فساروا إلى حِلَّة نور الدولة بن مَزْيَد بالفلُّوجة، فنزل فيها، وأقام بها، ثم أُعيد إلى الوزارة بعد ذلك في السنة الآتية، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها ولَّى المستنصرُ دمشقَ للأمير بازرطغان قطب الدولة، ووصل معه السيد الشريف أبو طاهر حيدرة بن مشخص الدولة، ونزل بدار العقيقي، وانهزم بدرٌ أميرُ الجيوش من دمشق، فنهب أهلُها خزائنَه ودوابَّه؛ لأنه كان مسيئاً إليهم، وأقام قطب الدولة إلى سنة إحدى وستين وأربع مئة، وخرج ومعه الشريف حيدرة، وكان بدر أمير الجيوش رصده، فظفر بالشريف، فسلخه، وسنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها جاء ناصر الدولة بالأتراك إلى باب المستنصر بالساحل، وزحف المذكورون إلى باب وزيره ابن كُدينة، فطالبوه بالمال، فقال: وأيُّ مال بقي بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاع؟ فقالوا: لا بُدَّ وأن تكتب إلى المستنصر رقعةً. فكتب إليه يذكر ما جرى، فكتب على الرقعة بخطه: [من السريع]

أصبحتُ لا أرجو ولا أتَّقي ... إلَّا إلهي وله الفضلُ
جدِّي نبيِّي وإمامي أبي ... وقوليَ التوحيدُ والعدلُ

المالُ مالُ الله، والعبدُ عبد الله، والإعطاءُ خيرٌ من المنع ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٧].

وفيها توفي

أحمد بن محمد[1]

ابن عقيل الشَّهرَزُوري بالبيت المقدَّس، كان فاضلاً شاعراً، ومن شعره: [من البسيط]

واحسرتا ماتَ حظِّي من قلوبكُمُ ... وللحظوظِ كما للناسِ آجالُ

(١) تاريخ دمشق ٥/ ٤٠٩ دون ذكر بيت الشعر.

[وفيها تُوفِّي]

الحسن بن أبي طاهر بن الحسن(١)

أبو علي، الخُتَّلي، سكن دمشق، وتُوفِّي بها، ومن رواياته عن الحسن، عن الحسن، عن الحسن، [عن الحسن](٢) عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أحسن الحسن الخلقُ الحسن» فالحسن الأول: ابن حسان السَّمتي(٣)، والثاني: ابن دينار، والثالث: البصري، والرابع: ابن علي عليهما السلام.

[وفيها تُوفِّيت]

خديجة بنت محمد

ابن علي بن عبد الله، الواعظة، الشاهجانية، وكانت عظيمةً، مشهورةً بالصدق والزهد والورع والعفاف، وُلدت سنة ست وسبعين وثلاث مئة، وكانت تسكن قطيعة الربيع، وصحبت ابن سمعون الواعظ، ولمَّا ماتت دُفِنت إلى جانبه(٤).

[وفيها تُوفِّي]

عبد الملك بن محمد بن يوسف

أبو منصور، البغدادي، لم يكن في زمانه من يُخاطَب بالشيخ الأجلِّ سواه، ولد سنة خمس وتسعين وثلاث مئة، وكان أوحدَ زمانه في فعل المعروف، والقيامِ بأمور العلماء وأهل الصلاح، وقمع أهل البدع، وافتقادِ المستورين، ودوامِ الصدقات، وكان يتصدَّق سِرًّا، ويكره أن يظهر عنه، فإذا ظهر قال: إنما أنا واسطة وليس مني. وكان مُحترماً عند الخلفاء والملوك والأمراء. وقال ابن عقيل في «الفنون»: كان عينَ زماننا،

---

(١) تاريخ دمشق ١٣/ ١١٧.

(٢) هذه الزيادة من (م) و(م١). وهي موافقة لما في تاريخ دمشق ١٣/ ١١٧ - والترجمة فيه - والحديث على الجادة أخرجه - أيضاً - القضاعي في مسنده الشهاب (٩٨٦).

(٣) في النسخ الخطية: التيمي، وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٨٢: التميمي، والتصويب من تاريخ دمشق وكتب التراجم.

(٤) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٤٧، والمنتظم ١٦/ ١٠٧.

ما قُهِرَ على رأيٍ، ولا كُسِرَ له غرض، وكان يتَّجِر وينفق على أشياخ الحنابلة الذين ليس لهم بالسلطان وصلة، واختصَّ بأصحاب عبد الصمد الزاهد، وهم أئمة المساجد والزُّهَّاد، واستبعد الوُعَّاظ، وأكرم بني هاشم والأشراف بالعطاء الجزيل، وأنعَمَ على العرب والعجم والتركمان والغلمان، واحتاج إلى جاهه الخلفاءُ والملوك، وما كان يُسمع منه كلمةٌ تدلُّ على فعل قبيحٍ فعلَه، ولا إنعامٍ أسداه، وصمد لحوائج الناس، وكان يُعظِّم من يقصِده في حاجةٍ أكثرَ من تعظيم مَنْ يقصِده في غير حاجة، ولمَّا استولى البساسيريُّ على بغداد وانحدر إلى واسط أخذ [ابنَ يوسف][1] معه فنزل على طحَّان، فلمَّا رحل عنه أعطاه شيئاً، وانقضت مدة وإذا بالطحان قد قدم بغداد هارباً من ديونٍ لَزِمَتْه، فدخل عليه فأكرمه وأنزله في حجرة وكساه، وأمر بعض أصحابه أن يسأله عن سبب مقدمه، فقال: هربتُ من ديون الناس عليَّ وليس لي قدرةٌ على وفائها. فأرسل عبد الملك سفينةً وحمل فيها من الفاكهة والكسوة والتُّحف شيئاً كثيراً، وأعطى لمن يُسفِّره بها مئتي دينار، وقال: سَلْ عن بيت فلانٍ الطحان، وأوصِلْ ما في هذه السفينة إلى أهله، وسَلْ عن غرمائه وصالحهم بهذه المئتي دينار، وخُذْ منهم الوثائق. فمضى الرجل، وفعل ما أمره، وعاد وظنَّ الطحَّان أنه قد نسيه، فأحضره وقال: ما سببُ قدومك؟ فأخبره، فقال: خُذْ هذه الوثائق. وأعطاه مئة دينار.

وكان الخليفة يُحِبُّه ويصدر عن رأيه، ويعتقد فيه اعتقاداً جميلاً، وماتت له ابنةٌ وكانت زوجةَ أبي عبد الله بن جرد، فتَبِعها الأكابر والقضاة والأشراف، ومشوا في جنازتها، وجاءت صلف القَهرمانة بطعام وشراب، وكان مارستان العَضُدي قد خرب ودثر، فأحياه، واستخدم فيه الأطباء، وأوقف عليه، وتُوفِّي يوم الثلاثاء بداره بباب المراتب، ودُفن يوم الأربعاء رابع عشر مُحرَّم عند أبيه وجدِّه مجاوراً لقبر الإمام أحمد رحمة الله عليه، وغسَّله القاضي حسين بن المهتدي، وصلَّى عليه ابنُه أبو محمد الحسن داخل مقصورة جامع الخليفة، وتبعه مئةُ ألف رجل أو يزيدون سوى النساء، وغُلِّقت أسواق بغداد، وضجَّ الناس بالبكاء عليه؛ لأنه كان يُحسِن إليهم، فكم كسا يتيماً؟ وكم زوَّج أرملةً؟ وكم بنى مسجداً وقنطرةً؟ وتولَّى المارستان وليس فيه طبيبٌ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)، والمنتظم ١٦/١٠٨ .

ولا شراب، والمرضى ينامون على البواري، فرتب فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وطبقه بخمسة وعشرين طابقة، ونقل إليه الأشربة والأدوية والعقاقير والفرش واللحف، ولمَّا اجتازوا بجنازته بجامع المنصور أرادوا الصلاة عليه بالجامع، فلم يسعِ[1] الناس، ولا قدروا يدخلون تابوته إلى الجامع من الزحام.

سمع أبا عمرو بن مهدي وغيرَه، وروى عنه الخطيب وغيرُه، وأجمعوا على فضله ودينه وصدقه وثقته.

وقال محمد بن الفضل: حدثني رجل من أهل النهروانات أنه كان يعطيه بكلِّ سنة عشرة دنانير، فأتى بعد وفاته إلى وكيله ابن رضوان فأذكره بها، فأعرض عنه صالح، فألحَّ عليه، فقال له: مُرَّ واطلُبْ ممَّن كان يُعطيك. فمضى إلى قبره، وجلس عنده، وترحَّم عليه، وقرأ عليه القرآن، فوجد عند قبره قرطاساً فيه عشرة دنانير، فأخذها وجاء إلى ابن رضوان وعرَّفه الحال، فتعجَّب وتفكَّر، فذكر أنه زار القبر ومعه كواغد فيها دنانير قد أعدَّها للصدقة، وإذا بالكاغد قد سقط منها، فقال له ابنُ رضوان: خُذْه، ولن أقطعَها عنك كلَّ سنةٍ مادمتُ حياً.

أبو جعفر الطُّوسي[2]

فقيه الإمامية، صاحب التفسير الكبير، هو عشرون مجلَّدة، وله تصانيف أُخر، تُوفِّي يوم الثلاثاء لسِتٍّ بَقِين من المُحرَّم بمشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، وكان مجاوراً عند ضريحه.

محمد بن إسماعيل

ابن قريش بن عبَّاد القاضي، الأندلسي، كان قد استولى على إشبيلية وأكثر مدن الأندلس، وكان شجاعاً جواداً، يُحبُّ العلماء والفُضلاء، ويجاهد بنفسه في سبيل الله، ويعدل في رعيته ويُحسِن إليهم، وكان هيوباً، ولمَّا مات قام بعده ولدُه أبو عمرو عبَّاد، ولُقِّب بالمعتضد وله ثلاثون سنة، وكان أديباً متواضعاً جواداً سمحاً، وكان

---

(١) في (خ) و(ف): يسمع، والمثبت من (م) و(م١).

(٢) المنتظم ١٦/ ١١٠، والكامل ١٠/ ٥٨، والسير ١٨/ ٣٣٤.

يحيى بن محمود بن جمهور وزير الدولة الأموية قد سلَّم طُلَيطِلة إلى ألفنش ملك الفرنج، وكان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين الملثَّمين قد بنى مراكش وأقام فيها، وشَنَّ ألفنش فيها الغارات على جزيرة الأندلس، فكتب عبَّاد بن محمد بن إسماعيل إلى يوسف بن تاشفين يستنجد على ألفنش، فعبر زقاق سبتة إلى الأندلس ومعه عساكره، واتَّفق [مع][1] عباد، وسار نحو ألفنش إلى موضع يقال له: الزلَّاقة، والتقوا، فكانت الدَّبَرةُ على الفرنج، فحصدوهم حصداً، ووقعةُ الزلَّاقة مشهورة، وكانت في سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وأقام عبَّاد بن محمد بالأندلس، فلم يَزلْ بها حتى قوِيَ عليه يوسف ابن تاشفين وأخرجه منها.

السنة الحادية والستون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم وردت الأخبار بأن ناصر الدولة بن حمدان خرج يوماً من عند الوزير أبي عبد الله الماسكي وزير مصر، فوثب عليه رجلٌ صيرفيٌّ وضربه بسكين فشقَّ بطنه وقُتِلَ في الحال، وحُمِلَ ابنُ حمدان إلى داره وقد خرج ثَرْبُه[2] ويئس منه، وعُولج فبَرِىء بعد مدة، وأشار أنَّ صاحب مصر ووالدته نَشَّآ الصيرفيَّ عليه، وبذلا له أموالاً، وحمل المشارقةَ على خلع الطاعة، وأنَّ صاحب مصر سخُف أمرُه واضمحلَّ، وتشاغل باللهو والطرب والشرب، وسار ابنُ حمدان مع مُقدَّمي المشارقة؛ سنان الدولة وسلطان الجيوش وغيرهما، فحصروا القاهرة، فتوصَّل صاحبُ مصر ووالدتُه وأخيه إلى أن أرسلوا إلى مصر من استنفر لهم العامَّة، واستصرخهم وأذكرهم حقوقَهم عليهم، وأوعدهم الإحسان إليهم، فثاروا إلى دور ابن حمدان فنهبوها وأحرقوها، وإلى دور المتعلِّقين عليه ففعلوا بهم كذلك ونقضوها، وأعلنوا بدعوة صاحب مصر، وعرف المشارقة ذلك، فخافوا على منازلهم وأهلهم وأموالهم، فعادوا إلى الطاعة، ورجعوا إلى مصر، وأظهر مُتقدِّمو المشارقة إنكارَ ما فعله ابنُ حمدان، وقالوا: أُكرِهْنا عليه، وخِفْنا منه، وكانوا لكثرة أموالهم يخافون من صاحب مصر، فأطاعوا ابنَ حمدان.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

(٢) الثَّرْب: شحم رقيق يُغشِّي الكرش والأمعاء. المعجم الوسيط (ثرب).

وفي المُحرَّم وصل ملك الروم إلى بلد حلب في مئين ألوف، فخرج إليه محمود بن الزَّوقلية وابنُ خان والغُزُّ وبنو كلاب، وأوقعوه دفعة، وانهزم المسلمون، وفتحت الروم حصني عِمّ وأَرْتَاح[1]، وكان الغُزُّ وبنو كلاب قد فتحوهما قبل ذلك، وانبسط الروم إلى منبج، وكان أكثرُ أهلها قد هربوا منها، وبلغ كراءُ الراحلة منها إلى حلب ثمانين ديناراً، وحصرها الروم، فاستأمن إليهم عددٌ ممَّن تخلَّف فيها وفتحوها لهم، فقتلوا مَنْ لم يستأمِنْ إليهم من المسلمين، ونقضوا من سورها ما بنوا بحجارته حصناً كان قديماً فيها، ورتبوا أصحابهم في الحصن وجعلوه معقلاً لهم، وفرَّقوا في المستأمَنة مالاً كبيراً عوضاً عما ذهب منهم، وأحسنوا إليه، وأفاضوا العدل فيه تقوياً بهم على حفظ البلد، ووقع الغلاء في عسكر الروم لكثرتهم وقِلَّة ميرتهم لما توالى عليهم من إحراق التركمان بلادهم ونهبها، وزاد الغلاء حتى بيع رطل خبز بدينار، وستُّ كُفوف شعيرٍ إلى[2] سبعة بدينار.

وبلغ صاحبَ الروم أن الإفشين فتح عمورية ونهبها، فعاد إلى القسطنطينية بعساكره، وبقيت منبج في يد أصحابه في الحصن والبلد على حالها، واسم هذا الملك أزدوخانس أقام ملكاً ثلاثين سنة.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشر صفر عاد الوزير فخر الدولة أبو نصر إلى بغداد، وسببه أنَّه لمَّا فارقها زادت الرغبات في خدمة الخليفة، واختلفت الآراء والأهواء، فوقع العزمُ على ابن عبد الرحيم، وكتب الخليفةُ إليه بالقُدوم من مستقرِّه في مطيرآباذ إلى الفلُّوجة حِلَّة دُبيس، فقَدِمها على إضاقةٍ شديدة، وبذلِ من أشار به عشرة آلاف دينار لم يكن لها وجهٌ، وورد أبو المعالي أخو الوزير أبو العلاء النازل على هزارسب بكتاب من ألب أرسلان شفاعةً بأن يستوزر أبا العلاء، وأظهر الخليفة أنَّ أمر ابن عباد قد تقرَّر، ولو سبق هذا لوقعت الإجابة إليه، وفي ليلةِ ردِّ الخليفة هذه الشفاعة رأى نجاحٌ الخادمُ الخاصُّ في منامه النبيَّ ﷺ وهو يدقُّ عليه بابه، فقال الخادم: من أنت؟ فقال: رسول الله. فقال له وقد ذهل: هل من حاجة؟ فقال: جئتُ أُبشِّرك بعود ابن جَهير إلى الوزارة.

---

(١) في النسخ: أرياح، والمثبت هو الصواب كما تقدم في الصفحة ١٣٣ .

(٢) في (ح): وستة إلى فوق سبعة بدينار، والمثبت من (م).

فلمَّا أصبح ذكر للخليفة ذلك، فقال: صدقَ رسولُ الله ﷺ، فلا تُشعِرَنَّ أحداً بما رأيتَ. فلمَّا ظهر ابنُ عبد الرحيم ثار العوامُّ، وألقَوا في الجامع الرِّقاعَ فيها اللعنة على من أشار به ومن سعى له؛ لأنه كان مع البساسيري، ونهب الدار والحريم، وأقام الدعوة للمصريين مضافاً إلى قديم فِعْلِه في المصادرات، وقالت الست أرسلان زوجةُ الخليفة: هذا ممَّن نهبني، وأخذ مالي، وسعى في قتل عساكر عمي، ومتى ورد قبضتُ عليه. فتوقَّفَ أمرُه، وكان فخر الدولة يواصل المكاتبة ويسأل في إعادته، وقامت بأمره صلف القَهرمانة وجماعةٌ من الخواص، وقالوا للخليفة: إذا استخدمتَ وزيراً جديداً غضب ألب أرسلان حيث ردُّوا شفاعته في أبي العلاء، فإذا أُعيد الوزير القديم انقطع الخطاب، وسقط العتاب، وبذلتَ عشرةَ آلاف دينار وخمسةَ عشر ألف دينار. فأجاب وكوتب بالرجوع، وأُعفي من المال، وبرز توقيع الخليفة: قد أعفيناه من المال، ورأينا إعادته؛ لعلمنا أنَّ مَنْ عوَّض علينا لا نقاربه ولا نوازيه، ولا نشبهه ولا نضاهيه. وبعث إليه من خواصِّ خدمه مسعود وصافي، بحاجب الحُجَّاب أبي عبد الله المردوسي، فمضوا إلى حِلَّة ابن مزيد، وعاد يوم الثلاثاء حادي عشر صفر ونزل بالنجمي، واستأذن في العبور، فأذن له، ولم يبقَ ببغداد أحد، وجاؤوا إليه، وأظهر الخاصُّ والعامُّ من السرور بعوده شيئاً مفرطاً، وعبر في الزبزب إلى مَشرعة دار دينار، وركب في الجمع العظيم إلى الحَلْبة ولمَّا وصل إلى المنظرة نزل تحتها وقبَّل الأرض ودعا، ثم ركب ودخل إلى الديوان، وتصدَّق قومٌ بعده، فدُوِّر فيها طعامٌ من أهل السوق، وصام آخرون، وذبح رجلٌ سقَّاءٌ بقرةً كان يعمل عليها ويتقوَّتُ منها، وتصدَّق بلحمها. قال الوزير: واجتهدتُ بكلِّ مَنْ فعل ذلك أن يقبل جزاءً فلم يفعل، ولمَّا جلس في الديوان أنهى حضوره، فخرج توقيعُ الخليفة بما طيَّبَ قلبَه، فلمَّا كان يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول جلس الخليفةُ في التاج، وأوصل إليه الوزيرَ وولديه عميدَ الدولة وزعيمَ الرؤساء، فلما وقعت عينُ الوزير على الخليفة خَذِم[1] وقال: الحمد لله جامع الشملَ

(١) خَذِم: أسرع. المعجم الوسيط (خذم).

بعد شتاته، وواصل الجميلَ بعد ثباته، ثم خاطب الخليفةُ الوزيرَ بما شرح به صدره، وأمر بإفاضة الخِلَع عليهم، فخلع على الوزير الفَرَجية والعمامة المُذْهَبة، وكذا على ولديه، وأُعطي بغلةً من مراكب الخليفة، وأعطي ولَدَاه فَرَسين، وأخرجوا بين يدي الوزير دَواةً مُفضَّضةً والخلائقُ بين يديه، وكَتب له توقيعاً يُشعر بالرضا عنه، ودخل عليه ابن الفضل الشاعر، وأنشده هذه الأبيات: [من الرجز]

قَدْ رجعَ الحقُّ إلى نصابِهِ ... وأنتَ من دونِ الورى أولى بِهِ
ما كنتَ إلا السيفَ هَزَّتْهُ يَدٌ ... ثمَّ أعادَتْهُ إلى قِرابِهِ
هزَّتْهُ حتى أبصرَتْهُ صارماً ... رونقُهُ يُغنيكَ عن ضِرابِهِ
أكرِمْ بها وزارةً ما سلَّمَتْ ... واستودَعَتْ إلَّا إلى أربابِهِ
مشوقةً إليكَ مُذْ فارقْتَها ... شوقَ أخي الشيبِ إلى شبابِهِ
يُدمي أبو الأشبال مَنْ زاحمَهُ ... في خِيْسِهِ[1] بظُفرِهِ ونابِهِ
إنَّ الهلال يُرتجى طلوعُهُ ... بعد السَّرارِ ليلةَ احتجابِهِ
والشمس لا يُوْءَسُ من طلوعِها ... وإنْ طواها الليلُ في جلبابِهِ
ما أطيبَ الأوطانَ إلَّا أنَّها ... للمرءِ أحلى[2] أثرَ اغترابِهِ
لو قرُبَ الدُّرُّ على طالبِهِ ... ما لجَّجَ الغائصُ في طِلابِهِ
ولو أقامَ لازماً أصدافَهُ ... لم تكُنِ التِّيجانُ في حسابِهِ
ما لؤلؤُ البحرِ ولا مرجانُهُ ... إلَّا وراءَ الهولِ من عُبابِهِ
مَنْ يعشقِ العلياءَ يلقَ عندها ... ما لقيَ المُحِبُّ من أحبابِهِ
طَوراً صدوداً ووصالاً مرةً ... ولذة الواثقِ في عتابِهِ
ذلَّ لفخرِ الدولة الصعبُ الذُّرى ... وعلَّم الأنامَ من آدابِهِ

فلمَّا كان يومُ الجمعة سادسُ ربيع الأول ركب الوزير في موكب عظيم، وعبر ليُصلِّي في جامع المنصور، وضجَّ الناس بالدعاء للخليفة سروراً به، واجتاز بالكَرْخ، فنثر عليه

(١) الخِيس: الشجر الكثير الملتف. المعجم الوسيط (خيس).

(٢) بعدها في (ف) وحدها زيادة: من.

أهله فيه الدنانير والدراهم والآس وشجر العود، ورشُّوا الطريق بالماورد، وخلَّقوا دوابَّه ودوابَّ أصحابه[١].

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي[٢]: وفي ربيع الآخر جرت فتنةٌ لأجل أبي الوفاء ابن عقيل، وكان أصحابنا ينقمون عليه لأجل تردُّده إلى أبي علي بن الوليد المعتزلي وفي أشياء كان يقولها، وكان فيه فطنةٌ وذكاء، فأحبَّ الاطلاع على كل مذهب، فقصد ابنَ الوليد وقرأ عليه شيئاً من الكلام في السرِّ، وكان ربما تأوَّل بعضَ أخبار الصفات، واتَّفق أنه مرض فأعطى رجلاً يلوذُ به ـ يقال له: معالي الحائك ـ بعضَ كتبه، وقال: إن متُّ احرقها. فنظر فيها، فرأى ما يدلُّ على تعظيم المعتزلة، والترحُّمِ على الحلَّاج، وكان قد صنَّف في مدح الحلَّاج جزءاً في زمان شبابه تأوَّل فيه أقوالَه، وفسَّر أشعارَه، واعتذر له، فمضى ذلك الحائك إلى الشريف أبي جعفر وغيره فأطلعهم عليه، فاشتدَّ ذلك عليهم، وراموا الإيقاع به، فاختفى، ثم التجأ إلى باب المراتب، ولم يزل الأمر في تخبيطٍ إلى خمس وستين وأربع مئة.

وفي شعبان ورد الخبر بأن نظام الملك أسر فضلويه بن علويه الشوانكاري.

ذكر السبب:

كان فضلويه قد عصى على السلطان وصالح قاروت بك عليه واتَّفقا، وتحصَّن فضلويه بقلاعه، وكانت حصينةً، واحتمى بقلعة يقال لها: خرشنة، وكان ألب أرسلان قد سار من أصبهان في أول المُحرَّم قاصداً فضلويه، وإذا فرغ منه سار إلى كرمان لقتال أخيه قاروت بك، ووصل إلى شيراز، وولَّى فيها العمال، وجاء حسنويه أخو فضلويه مستأمناً، وأظهر أنه قد انفصل عن أخيه لمَّا عصى على السلطان، وضمن فتح قلاعه وإثارة أمواله، فقبِلَ ظاهرَ قوله، ووعده الإحسان، وسار السلطان من شيراز طالباً كرمان، ونظامُ الملك يفتح قلعةً قلعة، تارةً بالتدبير، وتارةً بالقتال، و نزل على خرشنة، وضرب خيمةً بإزائها، وعلم السلطانُ أنَّ أخا فضلويه عينٌ عليه، فاستحضره

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ١١١ـ١١٣ . وخلَّقوا؛ أي: طيَّبوا.

(٢) المنتظم ١٦/ ١١٣ .

على سُكْرٍ وقال له: أين ما وعدْتَنا؟ لا مالاً أثرت ولا قلعةً فتحت. فقال: طمعتُ في فتح القلاع وأخذِ مال أخي منها، فتولَّاها غيري. فقال: كذبتَ، بل أنت عينٌ عليَّ لأخيك. ثم قال للأمير أبي علي بن كاليجار بن بويه: خُذْه فاقتله، فإنه وأخاه قتلا أخاك أبا منصور. فقال له ولده: أخي ها هنا، هو أحقُّ بأخذ الثأر مني. فسلَّمه إلى ابن أخيه فذبحه بسكين أعطاها السلطان له، وسار ألب أرسلان نحو بردشير التي فيها قاروت بك، وأقام نظام الملك محاصراً لخرشنة، فأقام عليها مدة طويلة، وفضلويه يبعث إليه الفواكه والرياحين كالمتنغِّص له، وأيِسَ نظامُ الملك منه، وعزم على الرحيل عنه، فاتَّفق أنَّ فضلويه أراد الخروج من القلعة ويمضي إلى قلعة أخرى ليجمع أصحابَه وعشيرتَه، ويلزم المضائق على نظام الملك، فخرج في الليل في ثلاثين رجلاً من أصحابه، ورآهم أكثرُ مَنْ كان يحاصر القلعة، فتبعوهم، فجاء فضلويه فاختبأ في مغارة، وأخذ التركُ صاحباً له فهدَّدوه بالقتل، وظنُّوهم قد نزلوا يأخذون ماءً، فقال: لا تقتلوني، أنا من أصحاب فضلويه، وقضيَّتُنا كذا وكذا، وهو في مغارة، وجاء بهم إليها، فدخلوا عليه، فأخذوه وحملوه إلى نظام الملك، فخاطبه بالجميل، ووعده أن يخاطب السلطان في حقِّه بعد أن يبذل مالاً فتتوقُ النفسُ إلى مثله، فبذل خمس مئة ألف دينار، وراسل مَنْ في القلعة ففُتحت وسُلِّمت بعد أن اشترط حراسة حُرَمِه الذين فيها، وقيَّده نظام الملك، وسار به إلى ألب أرسلان، وهو على حصار بردشير، فأحضر فضلويه وعدَّد عليه ما فعله من الجميل معه، وما عامله به من العصيان والغدر، وأمر بقتله، فقال له: يا سلطان، ما أخرجني من القلعة إلا خِلافي، لأنني لمَّا خدمتُكَ كان الإقبال معي والسعادة تخدُمني، فلمَّا خالفتُكَ ومِلْتُ إلى أخيك صارتِ النُّحوس مرافقي. فحين سمع ذِكْرَ أخيه ضحك وتقدم بفك القيود من رجليه، ثم أدناه إليه وأعطاه قَلَنسوةً أماناً، وقال: قد عفوتُ عنك وعن ذنوبك، فسلِّم [المالَ][1] الذي بذلتَه لأُطلِقَك وأستخدِمَك. فقال: سمعاً وطاعة. ثم وصل من قاروت بك كتابٌ إلى أخيه يستعطفه ويرقِّقه ويناشده اللهَ والرَّحِمَ، فرَقَّ له. وبينا السلطان على هذا جاءه بعضُ أصحابه وأخبره أن قاروت قد كتب إلى جماعة ووعدهم، واتفقوا على الفتك بك،

(١) هذه الزيادة من (ف).

وأوضح له الأحوال، فقتل أولئك الجماعة، وعلم أن هذا لم يُفعَلْ معهم، وإنما فُعِلَ مع الأكثر من عسكره، فرحل عائداً إلى شيراز، ورتب فيها ولده ملك شاه في قطعة من العسكر، وجعل معه العميد أبا سعد المستوفي، وسار إلى أصبهان فدخلها في العشر الآخر من ذي الحجة، وعزمه قصد الري.

وفي شعبان ورد الخبر من اليمن بأن عبد المستنصر الصُّليحي بعد قتل سعيد بن نجاح الصُّليحي وأسْرِه لزوجته والدة عبد المستنصر، جمع إليه عساكر أبيه، وقصد سعيد إلى زَبيد وحاربه، فقتله، وانتزع والدته الحرة، وكان سعيد منذ أخذها وإلى أن قُتل جعلها في قصر، وقطع درجته، وجعل السلَّم الذي يرتقي إليها عليه عندها لئلا يُتَّهم معها، وقَتلَ عبد المستنصر بزَبيد مقتلةً كبيرة، ونهبها؛ لأن أهلها عاونوا سعيد على أبيه، وسُرُّوا بقتله، وعاد عبد المستنصر إلى صنعاء، وخطب باليمن للمستنصر، وقام غياث أخو سعيد مقام أخيه، وجمع الرجال والعبيد، وانضاف إليه ابن عراف ابن عم الصُّليحي، واتَّفقا على عبد المستنصر، وخطبا للقائم، وكان ابن عراف هذا قد قدم بغداد، وحضر ديوان الخليفة، وأقام على الباب إلى أن قُتِلَ الصليحي، وعاد إلى اليمن.

وفيها ورد الخبر بأن الإفشين التركي ومَنْ معه من الغُزِّ، وكان من أصحاب السلطان مقيماً بأطراف الروم من ناحية الخزر، وأنهم وصلوا إلى عمورية، واتَّفق أنَّ ملك الروم قبض على بطريق كبير، فهرب أخوه لمَّا علم وصادف الإفشين في طريقه، وعرَّفه أن يحتال على عمورية ويُسلِّمها إليه، وبعث البطريق إلى عمورية يخبرهم بأن الملك أرسله إليهم ليعاونهم ويشدَّ منهم على الغُزِّ، ويقدم البطريق معه الأعلام عليها الصُّلبان، والإفشين خلفه، فلمَّا ملك البطريق الباب لحقه الإفشين، ودخل البلد، فقتل وسبى ونهب، وعاد ومعه من الأموال ما عَظُم قدرُه، وأسرى إلى خليج القسطنطينية، وأغار على حبشار الملك، فأخذ منه نحواً من ستة آلاف فرس، وعلم ملك الروم وكان على منبج، فسار إلى القسطنطينية، وجاء الإفشين إلى أنطاكية، فأخرب بلدها وحصرها، وقرَّر عليها عشرين ألف دينار.

وفيها تُوفِّي

عبد الرحيم بن أحمد بن نصر[١]

أبو زكريا، البخاري، التميمي، الحافظ، طاف الدنيا في طلب الحديث، فسمع بما وراء النهر وخراسان والعراق والشام ومصر والمغرب، وأثنى عليه الأئمة، وكانت وفاته في المُحرَّم، واتَّفقوا على صدقه وثقته وفضله، إلا محمد بن طاهر فإنه ضعَّفه.

[وقال الفقيه نصر بن إبراهيم: قال لي أبو زكريا ببخارى أربعة عشر ألف حديثاً[٢] قال: ومن رواياته عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، وتنظَّفوا واستاكوا، فإنَّ بني إسرائيل لم يكونوا يفعلوا ذلك فزنَتْ نساؤهم»][٣].

السنة الثانية والستون والأربع مئة

فيها اختلَّ أمر مصر، واستولى عليها ابنُ حمدان، وزاد [في] عطاء الجند والعطيات، حتى نفدت الخزائن، وقلَّت الارتفاعات، وغَلَتِ الأقوات، واتَّفق ابنُ حمدان مع الشريف أبي طاهر حيدرة بن الحسن بن العباس بن الحسن بن العباس بن أبي الحسين الحسيني، وكان قد نفاه بدر الجمالي من دمشق، وكان حسنَ الطريقة، كثيرَ النعمة، ويُلقِّبه العوام بأمير المؤمنين؛ لما يأخذ به نفسه من العفَّة[٤] والنزاهة والوفاء والصيانة، وكان وصل إلى مصر شاكياً [إلى][٥] ابن حمدان من بدر الجمالي، فاتَّفق ابنُ حمدان والشريف وخادم وحميد ابنا جراح، وهما من أمراء عرب الشام، وكان لهما في جيش صاحب مصر نيِّفٌ وعشرون سنة، فأخرجهما ابنُ حمدان، واتَّفقوا على الفتك ببدر الجمالي، وأعطاهم ابنُ حمدان أربعين ألف دينار ينفقونها في هذا الوجه، وتحدَّث بأنْ يُرتِّبَ الشريفُ ابن أبي الحسن إذا عاد من هذا الوجه في مكان

---

(١) تاريخ دمشق ٣٦/ ١٢٣-١٢٦ .

(٢) في تاريخ دمشق: لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء وحديث.

(٣) ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٢٥٩ ، وذكره - أيضاً - في تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥٨ وقال: لا يصحّ، وإسناده ظلمة.

(٤) في (خ): العفو، والمثبت من (ف).

(٥) هذه الزيادة من (ف).

لصاحب مصر؛ لأن آلات الخلافة مجتمعة من نسبٍ صحيح، وحسبٍ صريح، وطريقةٍ مستقيمة، وأفعالٍ جميلة، وانقسم عسكر مصر قسمين؛ قسمٌ مع ابن حمدان، وقسمٌ عليه، وزادت مطالبتُه بالأموال حتى استوعبها وأنفذها وأخرج جميع ما في القصر من ثياب وأثاث، حتى المُحقَّرات والمستعمَلات وثمَّنها على العسكر بالثَّمن النَّزر، وحالف أمراءَ الأتراك سرًّا على صاحب مصر، وعرف صاحب مصر ذاك مضافاً إلى ما سمع عنه من حديث الشريف ابن أبي الحسن، فقلق وراسل ابنَ حمدان بأنك قدِمْتَ علينا زائراً، وجئتنا ضيفاً فقبِلْناك وأكرمناك، وقابلتَنا بما لا نستحِقُّه منك، ونحن عليك صابرون، وعنك مُغضون، وقد انتهتْ بك الحالُ إلى مخالفة العسكر علينا، والسعي في تلافنا، وما ذاك مما يُهِمُّك ونصبر عليه[1]، ويجب أن تنصرف عنا موفوراً في نفسك ومالك، وإلّا قابلناك على قبيح أفعالك. فأغلظ ابنُ حمدان في الجواب، واستهزأ بالرسول، فبعث صاحب مصر إلى يلدكوز الملقب بأسد الدولة وهو شيخ الأتراك والمتقدِّم عليهم، وكان من المخالفين على ابن حمدان، فاستحضره واستحلفه، وتوثَّق منه ومن جماعة ممن يجري مجراه، وجمع الأتراك الذين معه والمغاربة وكُتَّابه إلى باب القصر، وعرف ابنُ حمدان، فبرَّز خيمةً إلى بركة الجيش، وأخرج صاحبُ مصر الخيمةَ الحمراء ـ وتُسمَّى خيمة الدم ـ فضربها بين القصرين، واجتمع الناس، وسار إلى حرب ابن حمدان، والتقَوا بمكان يُعرف بالباب الجديد، وورد أكثرُ مَنْ كان مع ابن حمدان بالأمان، وكان في جملتهم الأمير أبو علي بن الملك أبي طاهر بن بُوَيه، ثم قُتِلَ بعد ذلك، وانهزم ابنُ حمدان إلى الإسكندرية بنفسه، ونُهبت دورُه وأموالُه ودورُ أصحابه، ومضى إلى حيٍّ من العرب فنزل عليهم، وتزوَّج منهم، وصار يشنُّ الغارات على أعمال مصر، وبعث إليه المستنصر جيوشاً وهو يهزمها، وجمع خلقاً كثيراً، ونزل بالصالحية، واجتمع إليه مَنْ كان يهواه من المشارقة، وامتدَّ عسكرُه نحو عشرة فراسخ، وحاصر مصر من الظَّهر وفي الماء، وبلغتِ الراوية ثلاثةَ عشر قيراطاً، وكلُّ ثلاثة عشر رطلاً من الخبز بدينار، وعَدِمَتِ الأقواتُ، فضجَّ العوام، وخاف صاحبُ مصر أن يُسلِّموه إليه، فراسله وصالحه، واقترح عليه إبعاد يلدكوز ومن

(١) في (ف): ويُصبر عليك.

يُعاديه من المشارقة، وأن ينفرد ابنُ حمدان بالبلاد، وتدبير الأمور والعساكر، ورفْع الحصار عن مصر، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، وأما أخبار الشام فإنَّ بدراً الجمالي كان قد ورد دمشق والياً على الشام سنة ثمان وخمسين، ووصل عسقلان، وغزا بني سِنبس ونكأ[1] فيهم، وعاد إلى الأقحوانة، وجاءه أميران أخوان من قيس فقتلهما، لأجل غارات كانت لهم بالشام قبل وصوله إليه، ثم سار يشقُّ خلل العرب كلب وطيىء وغيرهما شقًّا، وفعل فعلاً لم يسبِقْه أحدٌ إليه، حتى وصل دمشق فنزل قصر السلطنة بظاهرها، وأقام سنةً وكُسِر، فأَمِنَ الناسُ لهيبته، ثم قبض على ابن أبي الرضا خليفة الشريف القاضي المكنى بأبي الفضل إسماعيل بن أبي الجن العلوي وعلى جماعة، وأخذ منهم عشرة آلاف دينار، ووهبها لخادم بن جراح المفرج عنه من مصر، وكان قد هرب إليه، فأعطاه المال استكفافاً له عن معاونة الشريف أبي طاهر بن أبي الجن المنفذ معه خادماً لإفساد أمر بدر بالشام وإثارة أهل دمشق عليه، ولمَّا فعل بدر بالمذكورين ما فعل ثار أهل دمشق عليه، وأغلقوا أبوابها وحاربوه، وساعدهم حصن الدولة ابن منزو، وراسلهم مسمار بن سنان الكلبي، وراسلوه وحالفوه، وجاء عرب مسمار، فأغارت على قصر السلطنة بدمشق بظاهرها، وعاد البدر الجمالي وراء وجوه، فأنفذ ثقله وأهله إلى صيدا، ومضى خلفهم إليها، وجمع ابن منزو عسكر دمشق لقصد بدر، فلمَّا عرف ذلك رحل إلى صور وحاصرها، ومتولِّيها القاضي الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن أبي عقيل، فحاصرها أياماً، وقَرُب منه ابن منزو، فسار إلى عكا، وأقام أياماً دخل فيها بزوجته بنت رقطاس التركي، ومضى إلى عسقلان، وجاء الشريف ابن أبي الجن من مصر إلى دمشق، وكان أهلُها هدموا قصر السلطنة ودرسوه، وكان عظيماً، يسع ألوفاً من الناس، وأقام على دمشق سبعة وعشرين يوماً، ومعه خادم وحميد ابنا جراح اللذان اتَّفقا مع الشريف على الفتك ببدر، وكان حميد قد طمع من بدر في مثل ما فعله من خادم، ولمَّا عجز بدر عن دمشق [عاد إلى عكا؛ لأن الشريف والعساكر والعوامَّ دفعوا عنها، ولما رحل عن دمشق] اختلف العسكر وأحداث البلد، فنهب العسكرُ بعض البلد، ونادَوا بشعار بدر

(١) نكأ العدوَّ: جرحهم وقتلهم. المعجم الوسيط (نكأ).

الجمالي، واستدعَوا منه صاحباً يكون عندهم، فأنفذ إليهم رجلاً يعرف بالقطنان في جماعة من أصحابه، فدخل دمشق، وهرب الشريف ابن أبي الجن وولدا ابن منزو، وكان أبوهما قد مات على صور في هذه السنة، فنزل ابنا منزو على الكلبيين، وسار الشريف طالباً مصر، فاجتاز بعمان البلقاء، وبها بدر بن حازم صاحبها، فقبض على الشريف وباعه من بدر الجمالي باثني عشر ألف دينار، فقتله أمير الجيوش بعكا خنقاً، وبعث بدر الجمالي إلى دمشق علوياً يُعرف بابن أبي سوية من أهل قيسارية، وأمر بمصادرة الشريف أبي الفضل بن أبي الجن أخي المقتول وجماعة من مقدَّمي دمشق، وعلم أهل دمشق، فثاروا على ابن أبي سوية، وأخرجوه ولعنوا أمير الجيوش، ووافقهم العسكر، وبعثوا إلى مسمار بن سنان وحازم بن نبهان بن القرمطي أمير بني كلب، وبذلوا لهما تسليم البلد، فبعث إليهم مسمار يقول: لا يمكنني الدخول إلى البلد وتمليكه والعسكر جميعه فيه والمغاربة والمشارقة، ويجب أن تخالفوا بينهم وتُخرجوا المشارقة، ففعلوا، وصاروا أحزاباً، وكان القتال في غربي الجامع، ورُمي المشارقة وأهلُ البلد بالنُّشَّاب من دار قريبة من الجامع، فضُربت الدارُ بالنار فاحترقت، وثارتِ النارُ منها إلى الجامع فأحرقَتْه ليلة نصف شعبان هذه السنة، ولمَّا رأى العوام ذلك تركوا القتال وقصدوا الجامع طمعاً في تلافيه ليداركوا ما حدث فيه، ففات الأمرُ، فرمَوا سلاحهم، ولطموا واستغاثوا إلى الله تعالى وتضرَّعوا وقالوا: كم نحلف ونكذب، ونغدر ونحنث، ونعاهد وننكث، والنار تعمل إلى الصباح، فأصبح الجامع ولم يبقَ منه إلا حيطانه الأربعة، وصاروا أيام الجمعات يُصلُّون فيه على التِّلال وهم يبكون، وانهزموا بعد ذلك، ونُهبت دورُهم وأموالُهم، وأنفذ مسمار والياً إلى دمشق من قِبَله يُعرف بفتيان، وراسل مسمار أهلَ البلد ثانياً بأن ينهبوا ويثِبوا على المغاربة ويخرجوهم، ويتَّفق هو وأهل البلد، فثاروا عليهم، وتأخَّر مسمار عنهم واقتتلوا[1]، فظهر عليهم المغاربة، وأحرقوا قطعةً من البلد، ونهبوا أكثرها، ونادوا بشعار [بدر][2] أمير الجيوش، ووصل مسمار بعد ذلك إلى باب البلد، وقد فات الأمرُ الذي ورد له،

---

(١) في (خ): واعتقلوا، والمثبت من (ف).

(٢) هذه الزيادة من (ف).

فراسله المغاربة على أن يُمكِّنهم في البلد من المُقام، ويعطونه بألف دينار، فرضيَ، وأقام أياماً في المكان وطالبهم بالمال، فلم يُعطوه شيئاً، ولم تكن له قدرةٌ عليهم، فسار إلى السواد، وكان ما نهب المغاربةُ من دمشق يساوي خمس مئة ألف دينار، وتتبعوا أحداث دمشق، فقتلوا منهم سبعين حدَثاً، ومضى سنان الدولة ولد ابن منزو إلى أمير الجيوش، وصالحه وصاهره على أخته، وعاد إلى دمشق والياً عليها من قِبَل أمير الجيوش، وأطاعته المغاربة، وسلَّموها إليه، فدخلها.

وقال أبو رافع مياس بن مهدي القُشيري أحد أمراء بني قُشير: وكان سبب الفتنة بين العبيد والترك أنَّ عادة صاحب مصر أن يجتمع في كل سنة على سبيل التنزُّه إلى مسجد التبن ظاهر القاهرة، فخرج سنة ست وخمسين وأربع مئة، وكان طرائف العبيد يمشون بالسلاح بين يديه ومن خلفه لا يخالطهم غيرُهم، فجاء تركيٌّ بيده سيف مشهور، فجرحوه، فوقعت الفتنة بين العبيد والأتراك، واتصلت إلى هذه السنة وبعدها.

وفي هذا الوقت وقع بين ناصر الدولة بن حمدان وبين الأتراك شرٌّ، فتفرقوا عنه إلا اليسير، وأجفل ناصر الدولة، فلمَّا أُبعِد إلى الريف جاء أبو علي إلى باب الذهب من قصر حاجب مصر، فقال له الوزير ابن الموفق: أيُّ وجهٍ لك عند السلطان وأنت من أصحاب ابن حمدان؟ فقال له: ما جئتُ إلا مستأمناً. فزبره وأمره بالانصراف، فانصرف، وأمر بعض المَصامِدة[1] فتبعه فقتله، ثم أغلق القاهرة، وكان بها تاج الملوك شادي، فرآه الوزير، فقال له: قد أمر السلطان أن تقتل كلَّ مَنْ كان ها هنا من أصحاب ابن حمدان وكان شادي من أصحاب ابن حمدان، فجرَّد سيفه وضرب الوزير على وجهه ضربةً صرعه، وقال: حزُّوا رأسه. فحزُّوه، وبعث به إلى ناصر الدولة، وخرج شادي على حميَّته، ولمَّا وصل الرأس إلى ابن حمدان رجع إلى مصر وانحاز إليه شادي وغيرُه، وانحاز إلى المستنصر أعيان الأتراك أسد الدولة يلدكوز وغيره والمَصامِدة والكتاميُّون[2]، ووقع القتال بين مصر والقاهرة، وقال رجل للمستنصر: ما قعودُكَ؟ قُمْ

---

(١) المَصامِدة: رجالٌ بأقصى المغرب، وهم قوم سود طِوال، حافظون لكتاب الله. الأنساب ١١/ ٣٣٨.

(٢) الكُتاميُّون: نسبة إلى كُتامة، وهي قبيلة من البربر، نزلت ناحية من بلاد المغرب الأنساب ١٠/ ٣٥١.

واركَبْ، وإلَّا نُهِبَ القصر. فركب وعلى رأسه البُنود[١] والأعلام. وخلفه الكوسات[٢] تخفق، والمَصامدة والكتاميُّون، ووقع القتال بين يديه، فجاء إلى موضع القتال، فلمَّا رآه ناصر الدولة ترجَّل وقبَّل الأرض وقال: إنما كنتُ أقاتلُ عسكراً مثلي، فأمَّا السلطان فلا. ثم ركب وولَّى فيما بقي من أصحابه، وانهزم الباقون، وسار إلى الإسكندرية وكانت معقله، وفيها أمواله وذخائره وإخوته وأهله، وجمع العرب والقبائل وعاد إلى حصار مصر، وقطع الميرة عنها، واشتدَّ الحصار عليها، فراسل صاحبُ مصر ابنَ حمدان في الموادعة، فقال: لا أفعل حتى ينفذ حكمي في كلٍّ من عاداني من الأتراك وغيرهم. فَأُجيب إلى ذلك، وانهزم طائفة من الترك إلى بدر الجمالي، فدخل ابنُ حمدان إلى مصر فملكها، وأقرَّ صاحبها في قصره ولا حُكمَ له، وسيَّر أخاه فخر العرب إلى الرملة، فأطاعته العرب التي حولها من سِنْبِس وغيرها، وملكها، وسار إليه حازم بن الجراح في طيىء كلِّها، ومضى بدر بن حازم مخالفاً لأبيه إلى بدر الجمالي؛ لِما فعله مع الشريف ابن أبي الجن.

وفيها استولى العفيف مختص الدولة بن أبي الجنِ ـ أخو حمزة المقتول ـ على دمشق، وطرد نواب أمير الجيوش، واستولى على صور ابنُ أبي عقيل، وعلى طرابلس قاضيها ابنُ عمار، وعلى الرملة والساحل ابنُ حمدان، ولم يبقَ لأمير الجيوش غير عكا وصيدا.

وفي ذي القعدة خلا من مصر خلق عظيم لِما حصل بها من الغلاء الزائد والجوع الذي لم يُعهد مثلُه في الدنيا، فإنه مات أكثرُ أهلها، وأكلَ بعضُهم بعضاً، وظهروا على أحد الطباخين أنه ذبح عدةً من الصبيان والنساء وأكل لحومهم بعد أن طبخها وباعها للناس أيضاً، وأُكِلَتِ الدوابُّ بأسرها، ولم يبقَ لصاحب مصر سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرةَ آلاف ما بين فرس وجمل ودابَّة، وبِيعَ الكلبُ بخمسة دنانير، والسِّنَّور بثلاثة، ونزل أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصر عن بغلته، وليس معه إلا غلام واحد؛ لقلة ما تطعم الغلمان، فجاء ثلاثة وأخذوا بغلة الوزير، ولم يقدر الغلام

(١) البُنود؛ جمع بند: وهي كلمة فارسية معناها: العلم الكبير. اللسان (بند).
(٢) الكوسات؛ جمع كُوس: وهو الطبل يُدقُّ به أثناء الحرب. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٤٠ .

على منعهم؛ لضعفه، فذبحوها وأكلوها، فأُخِذوا وصُلِبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلَّا عظامهم، أكلَ الناسُ لحومَهم.

ودخل رجل إلى الحمام، فقال له الحمَّامي: من تريد أن يخدُمَك سعدُ الدولة أو عزُّ الدولة أو فخرُ الدولة؟ فقال الرجل: أتستهزىء بي؟ فقال: لا واللّهِ، انظُرْ إليهم. فنظر فإذا أعيانُ الدولة قد صاروا يخدُمون الناس في الحمام.

وباع المستنصر جميعَ ما في قصره، حتى أخرج ثياباً كانت في القصر في زمن الطائع لمَّا نهب مُعِزُّ الدولة دارَه في سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة وأشياءَ أُخذت في نوبة البساسيري، وأخرج طَسْتاً وإبريق بلَّور، يسع الإبريق رطلين ماء، والطَّسْت أربعة أرطال، فبيعا باثني عشر درهماً، وبِيعَ من هذا الجنس ثمانون ألف قطعة، وأما الجواهر واليواقيت والدِّيباج وغيره والخُسْرواني فشيءٌ لا يُحصى، وأُحصي من الثياب التي أُبيعَتْ ثمانون ألف ثوب، وعشرون ألف ذراع، وعشرون ألف سيف محلًّى، وباع المستنصر ثياب جواريه وسُجوف المُهود[1]، وكان الجندُ يأخذون ذلك بأقلِّ ثمن، وباع رجلٌ داراً بالقاهرة كان اشتراها بسبع مئة دينار بعشرين رطل دقيق، وبِيعَتِ البيضةُ بدينار، وإرْدَبُّ القمح بمئة دينار في أول الأمر، ثم عَدِمَ أصلاً، وكان السودان يقفون في الأزِقَّة يشقُّون النساء بالكلاليب، يُشرِّحون لحومهنَّ وأفخاذهُنَّ وأعجازهُنَّ ويأكلونها، واجتازت امرأةٌ بزقاق القناديل بمصر ـ وكانت سمينةً ـ فعلَّقها السودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها، وغفلوا عنها، فخرجت من الدار واستغاثت، وجاء الوالي وكبس الدار، فأخرج منها ألوفاً من القتلى، وقتل السودان، [وسُمِّي زقاق القتلى؛ لكثرة ما قُتِل فيه] واحتاج المستنصر، فأرسل فأخذ قناديل الفضة والستور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وخرجت امرأةٌ من القاهرة ومعها[2] مدُّ جوهر، فقالت: مَنْ يأخذ هذا ويُعطيني عِوَضه مُدَّ بُرٍّ[3] فلم يلتفِتْ إليها أحدٌ، فألقته في

---

(١) السُّجوف؛ جمع سُجْف: وهو أحد السترين المقرونين بينهما فرجة. المهود؛ جمع مهد: وهو سرير الصبي. المعجم الوسيط (سجف) و (مهد).

(٢) في (م) و(م١): بيدها.

(٣) في (خ) و(ف): مُدَّين، والمثبت من (م) و(م١): وهو يوافق ما في تاريخ الإسلام ١٠/ ١٤١ .

الطريق، وقالت: هذا ما نفعني وقتَ حاجتي ما أُريده. فلم يلتفِتْ إليها أحدٌ، وكلُّ هذه الأشياء كان ابنُ حمدان سببَها، ووافق انقطاعَ النيل[1]، وضاقت يدُ ابن أبي هاشمٍ أميرِ مكة بانقطاع ما كان يأتيه من مصر، فأخذ قناديل الكعبة وستورَها وصفائحَ الباب والميزابَ، وصادر أهلَها، فهربوا، وكذا فعل أمير المدينة [أخذ قناديل المسجد وغيرَها].

وفيها أوقف نظام الملك الأوقاف على النظامية، وحضر الوزير والقضاة والعدول في بيت النُّوبة، وكتبوا الكتُب وأثبتت، ومما أوقفَ سوق المدرسة وضياعاً وأماكن، وشرط الشروط المعروفة.

وفيها قتلَ أصحابُ السلطان فضلويه بن علويه الشوانكاري، قد ذكرنا أن نظام الملك اصطنعه، وأخذه من خرشنة، وأنَّه ضمن على نفسه مالاً للسلطان، فمالت نفسُه إليه وعزم على إطلاقه إذا وافاه، ولمَّا رجع السلطان من كرمان أشار عليه نظام الملك باعتقاله في قلعة لأصبهان، فقال فضلويه: أحتاجُ أن أكون قريباً من أعمالي. فاعتُقِل بإصطخر، وحفروا له فيها بئراً واسعةً، وحُطَّ فيها، ووكل به، وأثبت نحو ستين نفساً من أصحابه وثقاته زعم أن عندهم أمواله، وكانوا على مذهبه في المكر، ووافقهم على مالٍ جحدوا بعضَه وأقرُّوا بالبعض، وسبُّوه ولعنوه، وذكروا أنه يكذب عليهم في أكثر ما يدَّعيه، وأظهروا التبرِّي منه، وكلُّ ذلك بمواطأةٍ منهم، ولم يقع في ذلك شكٌّ ولا ارتياب، وأمرهم بالمطاولة فيما يُحضِرونه من المال، إلى أن وقع من السكون إليهم، ثم اتفق معهم على قتل صاحب القلعة في بعض الليالي وإخراجه من البئر، فوثبوا على صاحب القلعة فقتلوه، وسمع الموكلون بفضلويه الصياح، فنزلوا وذبحوه، وجاء أصحابُه إلى رأس البئر فصاحوا به، فرمى الموكلون به رأسه إليهم، وقالوا: هذا فضلويه فخُذوه. فخُذِلوا، ولحقهم مَنْ في القلعة من الجند فقتلوهم، وكان نظام الملك قد أوصى الموكلين به: متى سمعتم صياحاً فاقتلوه، ولا تنتظروا ما يُسفر الحالُ عليه، فلستُ بآمنٍ هؤلاء الشوانكار أن يخرجوا علينا من بعض هذه الأودية فيأخذوه، فلمَّا سمعوا هذا القول، و تخمَّر في نفوسهم، وسمعوا الصياح في القلعة، قتلوه.

---

(١) في (م) و(م١): السبل.

وفيها خرج عميد الدولة أبو منصور بن فخر الدولة الوزير إلى الري قاصداً ألب أرسلان ليتعرف خبره ويستوحش له عن الخليفة، وأخذ معه هدايا كثيرةً للسلطان ولنظام الملك، فيها مهد أسود مُغشًّى بالديباج للسلطان.

وفيها كتب ألب أرسلان إلى الخليفة يخطب للأمير عِدَةِ الدين أن يزوِّجه بابنته من خاتون السفيرية، وكانت الرُّقعة بخطِّ السلطان، فأجابه إلى ذلك، وفي هذا الوقت سار نور الدولة بن مَزْيد إلى خدمة السلطان إلى أصبهان، فخرج نظام الملك ليلتقيه وأرباب الدولة، ودخل على السلطان فأكرمه وقرَّبه، وكان قد هيَّأ لهزارسب خِلعاً سلطانية، فتوفِّي، فخلعها على نور الدولة، وكان في الخِلَع الجُبَّة والفَرَجية والعمامة والخيل بمراكب الذهب والأعلام والكوسات، وكان هزارسب وعد فيه نور الدولة يؤديه ويقصده، وقد ملأ قلب السلطان عليه، فرضيَ عنه ألب أرسلان، وعلم مقاصدهم هزارسب فيه، وضمنه واسط التي قصد هزارسب إهلاكها لأجلها، ولمَّا عاد إلى بغداد خرج الوزير ليلتقيه، وخلع عليه ببيت النُّوبة الفَرَجية والعمامة، وحُمل على فرس بمركب فضة، فقال: قد أعطى هزارسب فرساً بمركب ذهب، فلِمَ قصَّر بي ورد الفرس؟ فثقُلَ على الخليفة، وخرج جوابُه. قال الشافعي: ما أعطيتُ أحداً فوق ما يستحِقُّه إلا نقصني مما أستحِقُّه. ثم إنَّ مسلم بن عقيل اقتدى به، وقصد باب السلطان فأكرمه، ودعا السلطانَ إلى خيمته، فجاءه ونادَمَه، وطلب من السلطان أن يزوِّجه أخته التي كان زوَّجها لهزارسب، فأجابه، وأمر نظام الملك بعقد العقد، وكان السلطان بهَمَذان، وأقطعه إقطاعاً في العراق منه المدائن.

وفي هذا الوقت كتب إسحاق الملقَّب بسلطان شاه بن الأمير قاروت بك إلى السلطان يطلب المسير إلى بابه، وأن يطأ بساطه، وكان ألب أرسلان يكتب إلى قاروت بك: ما يُفسِد بيني وبينك ويضرب إلا هذا الولد، فسلِّمْه إليَّ وقد زال ما بيننا. وقاروت بك يقول: لا أسلِّمه. وأخذ منه ألب أرسلان بلاد فارس وشيراز ومعظم كرمان بسببه، وكان آخرُ أمرِه أن خرج إلى أبيه، ولمَّا وصل إلى ألب أرسلان أكرمه إكراماً زائداً، وأعطاه من الخيل والثياب وغيره ما يساوي عشرة آلاف دينار، وقال: أنا أذهب فأُقاتل

أبي، وآخذُ منه كرمان. وسار إلى قتال أبيه، وبعث معه السلطان ألوفاً من الأتراك والتركمان، ووصل إلى كرمان، فخرج إليه قاروت بك، واقتتلوا، فانهزم إسحاق.

وفيها سار السلطان من هَمَذان قاصداً بلاد الروم، وكان أهل منبج في عسكره مستصرخين مما جرى عليهم من ملك الروم.

وفي ذي الحجة ورد رسول محمود بن الزَّوقلية صاحب حلب بكُتُبٍ تتضمن الإعلام بإقامة الخطبة بها للخليفة وللسلطان، وتلقَّاه الخدم والحُجَّاب، وقُرئت الكتب في دار الخلافة، وضُربت البشائر على باب بيت النُّوبة، ووردت الكتب بأنَّ بني كلاب خطبوا أيضاً بسواد دمشق للخليفة والسلطان، وكان الوزيرُ ابنُ جَهير قد كتب إلى ابن الزَّوقلية ومُقدَّمي دمشق والعرب يدعوهم إلى إقامة الدعوة، وَيعِدُهم بالجميل والأمان من التركمان وعساكر السلطان، فأجابوا، ولمَّا عزم محمود بن الزَّوقلية على ذلك جمع الأكابر وقال: قد علمتُم أنَّ الدولة التي كنَّا طائعين لها قد ذهبت، وهذه دولة جديدة وعساكر عظيمة، ونحن فقد ضَعُفنا، ونخاف أن يجيئنا مَنْ لا طاقة لنا به، وربما ألمَّ [بنا[1]] سلطاننا ونحن على ما نحن عليه من الوهن والتسيير إلى دولة غيرها مما تعرفون به من الاعتقاد والمذهب ما يستحِلُّون به دماءَكم وأموالكم، والرأيُ أن نقيم الخطبة لهم قبل أن يجيئَنا وقتٌ لا ينفعنا فيه قولٌ ولا بذل. فأجابوه وصوَّبوا رأيه، فلمَّا كان من الغد وهو يوم الجمعة خرج الخطيب والمؤذِّنون بالسواد، فلمَّا رآهم الناس ارتاعوا، فلمَّا ذُكِرَ الخليفةُ والسلطانُ نفروا وخرجوا من الجامع، فلمَّا كان الجمعة الأخرى رتب محمود بن خان والغُزُّ معه على باب الجامع وقال: مَنْ خرج ولم يُصَلِّ اقتلوه. وعرف مشايخُ البلد وأحداثُه فخافوا من النهب، فاجتمعوا بمحمود وقالوا: لا حاجة لنا إلى الغُزِّ، نحن نفعل هذا. ووقفوا على باب الجامع حتى خطب الخطيب وصلَّى الناس، وأخذت العامَّةُ الحُصرَ من الجامع، وقالوا: هذه حُصر علي بن أبي طالب، فيجب أن يُحضر أبو بكر حصراً يُصلِّي عليها. وأقام الناس مدةً يصلُّون على الأرض.

(١) هذه الزيادة والتي بعدها من (ف).

وفيها تُوفِّي

ابن خان

أمير الغُزِّ، كان شجاعاً فاتكاً، قد انضاف إليه قطعة من الغُزّ، فكانوا يغارون على الشام، فأضافه محمود إليه حذراً من شرِّه، وعامل غيره مرةً على حلب وأراد قتل محمود وعطية، فلم يتمكَّن من ذلك، فجاء إلى ابن أبي عقيل إلى صور، وأقام عنده، فأحسن إليه ووصلَه وأعطاه أصحابَه، وجاء بدر الجمالي يحاصر صور، فنافق ابنُ خان وخرج إلى بدر، فعسكر عنده، فدسَّ ابن أبي عقيل إلى غلمان ابن خان، وقال لهم: قد عرفتُم ما فعلتُ مع صاحبكم من الجميل، وما أنفقت عليه من الأموال، وما صلح لي ولا جازاني على إحساني إليه، ولكم عليَّ إن قتلتموه كذا وكذا من المال. فوثب عليه منهم اثنان فقتلاه وحملا رأسه إلى ابن أبي عقيل، فطِيفَ به في صور، وكان عند ابن أبي عقيل جماعة مِّن الغُزِّ، ففارقوه إلى بدر فقوي بهم.

[وفيها تُوفِّي]

الحسن بن علي بن محمد[1]

أبو الجوائز، الواسطي، الكاتب، ولد سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة، وسكن بغداد دهراً طويلاً، ومن شعره: [من الرجز]

واحَربا من قولها خان عهودي ولَها
وحقِّ مَنْ صيَّرني وقفاً عليها ولَهَا
ما خطرَتْ بخاطري إلَّا كسَتْني ولَهَا

وقال: [من الوافر]

رويتَ ومَنْ رويتَ من الروايهْ وكيفَ وما انتهيتَ إلى النهايهْ
وللأعمارِ غاياتٌ تناهَتْ وإن طالَتْ وما للعلم غايهْ

---

(١) المنتظم ١٦/ ١١٩ـ١٢٠، وتاريخ بغداد ٧/ ٣٩٣ـ٣٩٤، والكامل ١٠/ ٦٢.

وقال في كاتب: [من الخفيف]:

كـاتـبٌ كُـتْـبُـهُ كـتـائـبُ يـسـتـسْـ ... ـري وسـيَّـار شَـعْـرِه كـالـسَّـرايـا
وافرُ الـعـلـمِ ظـاهـرُ الـسِّـلـمِ وافي الـ ... حلمِ عَذْبُ الخلال حَسَنُ السَّجايا

وقال: [من السريع]

لا هـجـعَـتْ أجـفـانُ أجـفـانـا ... ولا رقـى إنـسـانُ إنـسـانـا
يـاجـافـيـاً يـزعُـمُ أنِّـي لَـهُ ... جـافٍ أمـا تـغـفِـرُ مـا كـانـا
والـلـهِ مـا أضـمـرتُ غـدراً كـمـا ... قـلـتَ ولا أضـمـرتُ سـلـوانـا
لـكِـنْ سـعـى الـواشـون مَـا بـيـنـنـا ... فـغـيَّـروا ألـوانَ ألـوانـا

حيدرة بن إبراهيم[1]

أبو الطاهر بن أبي الجِنّ، الشريف، كان عالماً فاضلاً ديِّناً، قرأ القرآن، وسمع الحديث، ولمَّا دخل عسكر بدر الجمالي دمشق هرب منها إلى عمان البلقاء، فغدر به بدر بن حازم، وكان الشريف قد أطلق أباه حازماً من خزانة البنود، وقد ذكرناه.

وقال محمد بن هلال الصابىء: لمَّا خرج الشريف وبازرطغان من دمشق يريدان مصر أشار عليه بازرطغان بأن لا يظهر بعمان البلقاء، لأن بها بدر بن حازم، وأن يسير في الليل، فلم يقبَلْ، وسار بازرطغان إلى حِلة بدر بن حازم، وقال: جئناك لتذمَّ لنا ولمن معنا. فقال: ومن معكم؟ قالوا: الشريف ابن أبي الجن. فقال: قد ذمَّ الله لكم إلا الشريف، فإنه لا بُدَّ من حمله إلى أمير المؤمنين. وسار إليه، وقبض عليه، ومضى به إلى عكا، فباعه بذهبٍ وخِلَعٍ وإقطاع، فأركبه أمير الجيوش جملاً، وقتله أقبحَ قتلة، ثم سلخ جلده. وقيل: سلخه حياً وصلبه، ولعن أهلُ الشام بدرَ بنَ حازم والعربَ، وقالوا: ما هذه عادتهم، ولقد كان الشريف من أهل الديانة والصيانة والعفة والأمانة، مُحِبًّا لأهل العلم واصطناع المعروف.

(١) تاريخ دمشق ١٥/ ٣٧٩.

وفيها تُوفِّي

محمد بن أحمد بن سهل[1]

أبو غالب بن بِشران، النَّحْوي، الواسطي، الحنفي، ويُعرَف بابن الخالة، وُلِد سنة ثلاثين وثلاث مئة، وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالأدب والنحو [شاعراً، وإليه انتهت الرحلة في علم الأدب] والنحو واللغة والحديث، [وسمع الكثير، ورُوي عنه، وذكره الخطيب وأثنى عليه] وكان[2] شيخ العراق يرحل إليه الناس إلى واسط ويسمعون منه، وابن بِشْران جدُّه لأمه، وكانت وفاته بواسط يوم الخميس منتصف رجب، [سمع ابنُ بِشْران خلقاً كثيراً منهم أبو الحسين علي بن محمد بن دينار الواسطي وغيره، وسمعتُ من شعره مقطعاتٍ، قال: أنشدنا ابن بِشْران في سنة خمسٍ وثلاثين وأربع مئة لنفسه: [من الطويل]

لسانيَ عن سؤالِ ما عِشْتُ صامتُ ... ويذهلُ واشٍ عن غرامي وصامتُ
وبي منكَ وجدٌ قد تجاوزَ حدَّهُ ... وزادَ فما يُحصيه بالنعت ناعِتُ
فديتُك لا تُشْمِتْ بما نالني العِدا ... فإنَّ لهم فيما يسُرُّكَ كابِتُ
إذا خالتِ الخالاتُ يوماً بذي الهوى ... فإن الهوى منِّي لك الدَّهرَ ثابتُ
منى النَّفْس لي طُرًّا إذا ما وصلتني ... وإنْ لم تصِلْني فالأماني فوائتُ

وغيره أيضاً من شعره: [من البسيط]

وقائِلٍ عينُ من تهواهُ قد رمِدَتْ ... فقلتُ كلَّا وحاشاهُ من الرَّمَدِ
لكنَّها أصبحتْ مُحمرّةً خجلاً ... ممَّا ترى من العُشَّاقِ بالرَّصَدِ
وطالما أخذَتْ بالنار رامِقَها ... فارتَدَّ عنها جريحَ القلب والكبدِ

ومن شعره: [من مخلع البسيط]

يا شائداً للقصور مهلاً ... أقصر فقصرُ الفتى المماتُ
لم يجتمِعْ شملُ أهل قَصرٍ ... إلَّا وقصراهمُ الشَّتاتُ

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٢٠-١٢١، ومعجم الأدباء ١٧/ ٢١٤ - ٢٢٤. وينظر السير ١٨/ ٢٣٥.
(٢) في (م) و(م١): وصار.

وإنَّمـا الـعـيـشُ مـثـلُ ظِـلٍّ ... مـنـتـقـلٍ مـالَـهُ ثـبـاتُ

وقال : [من الطويل]

ولـمَّـا رأوا عُـشَّـاقَـهُ ووُشَـاتَـهُ ... وقـد حـاولـوهُ مِنْ جـمـيـعِ جـهـاتِـهِ
رمـى كـلُّ قـلـبٍ مِنْ هـواهُ بِـلَـوعـةٍ ... فـغُـودِرَ مـطـويـاً عـلـى زفـراتِـهِ

وقال : [من الخفيف]

يـا مُـحِـبَّ الـدنـيـا الـغَـرورِ اغـتـرارا ... راكـبـاً فـي طِـلابـهـا الأخـطـارا
يـبـتـغـي وصْـلَـهـا فـتـأبـى عـلـيـه ... وتـرى أُنْـسَـه فـتُـبـدي نَـفـارا
خـان مَـن يـبـتـغـي الـوِصـالَ لـديـهـا ... جـارةٌ لـم تـزَلْ تُـسِـيءُ الـجـوارا
كـم مُـحِـبٍّ أرَتْـهُ أُنـسـاً فـلـمَّـا ... حـاول الـوصـلَ صـيَّـرتْـهُ ازورارا[1]
شِـيـبَ حـلـوُ الـلـذاتِ بـالْـمرِّ[2] مـنـهـا ... إنْ حَـلَـتْ مـرَّةً أمَـرَّتْ مِـرارا
فـي اكـتـسـاب الـحـلالِ مـنـهـا حـسـابٌ ... واجـتـنـابُ الـحـرامِ يُـصـلـي الـنَّـارا
ولـبـاغـي الأوطـارِ مـنـهـا عـنـاءٌ ... وسـيـقـضـي ومـا قـضـى الأوطـارا
كـلُّ لـذَّاتِـهـا مُـنـغَّـصـةُ الـعُـبِّ[3] ... وأربـاحُـهـا تـعـودُ خَـسـارا
ولـيـالـي الـهـمـوم فـيـهـا حِـوالٌ ... ولـيـالـي الـسـرور تـمـضـي قِـصـارا
وكـفـى أنـهـا تـضـنُّ فـإن جـا ... دتْ بـنـزرٍ أفـنَـتْ بـهِ الأعـمـارا
وإذا مـا سَـقَـتْ خـمـورَ الأمـانـي ... صـيَّـرَتْ بـعـدهـا الـمـنـايـا خِـمـارا
كـم مَـلـيـكٍ مُـسـلَّـطٍ ذَلَّـلـتْـهُ ... بـعـد عِـزٍّ فـمـا أطـاقَ انـتـصـارا
وغـنـيٍّ مـمـوَّلٍ أعـدمَـتْـهُ ... بـعـدَ وَجْـدٍ مُـخـالـفِ الإقـتـارا
ونـعـيـمٍ قـد أعـقَـبَـتْـهُ بـبـؤسٍ ... ومـغـانٍ قـد غـادرَتْـهـا قـفـارا
أيُّـهـا الـمـسـتـعـيـرُ مـنـهـا مـتـاعـاً ... عـن قـلـيـلٍ تـسـتـرجـع الـمـسـتـعـارا
عَـدِّ عـن وصـلِ مَـنْ يُـعـيـرُك مَـا يـفـ ... ـنـى ويُـبـقـي إثـمـاً ويُـكـسِـبُ عـارا
قـد أرَتْـكَ الأمـثـالَ فـي سـالـفِ الـ ... ـدَّهـرِ وهـا قـد أرَتْـكَ فـيـكَ اعـتـبـارا

---

(١) في الأصلين (خ) و (ف): زرارا ! والمثبت من المدهش ص ٢٧٨ .

(٢) في (خ) : باللهو، والمثبت من (ف) وينظر المدهش.

(٣) في المدهش وغيره : العيش، والمعنى متقارب.

وجـديـرٌ بـالـعُـذرِ مـن قَـدَّم الأعْـ ـذارَ فـيـمـا جـنـاهُ والأقـدارا
فـتـعـوَّضْ مـنـهـا بـخُـلَّـة صِـدْقٍ والـتـمِـسْ غـيـرَ هـذه الـدارِ دارا
وإلـيـك الـخـيـار فـاختـر إذا شِـئْـ ـتَ وإيَّـاك أن تُـسـيء اخـتـيـارا
والـبِـدارَ الـبِـدارَ بـالـعـمـل الـصَّـا لـحِ مـا دُمْـتَ تـسـتـطـيـعُ الـبِـدارا
فـسـيـلـقـى جـمـيـعَ مـا قـدَّم الـمـر ءُ عِـيـانـاً إذا إلـى الـلـه صـارا
قَـرَّ عـيـنـاً مَـنْ قَـرَّ فـي جـنـة الـخُـلْـ ـدِ فـلا تـبْـغِ فـي سـواهـا قـرارا

وقال : [من الكامل]

لولا تعرُّضُ ذِكْرِ مَنْ سكنَ الغضا ما كان قلبي للضَّنى مُتعرِّضا
لكن جفا جفني الكَرى بجفائِهم وحشا حشاي فراقُهم جمر الغَضا
لو أنَّ ما بِيَ بالرِّياحِ لَما جرَتْ والبرقُ لو يُمنى به ما أومضا
ما اعتَضْتُ من عِوَضٍ فأسلو عنهمُ هيهاتَ أن ألقى بهم مُتعوَّضا
يا راكباً يطوي المهامِهَ[1] عِيسُه فتُريه رضراضَ[2] الحصى مُتَرضْرِضا
بَلِّغْ رعاكَ اللهُ سُكَّان الحِمى منِّي التحيةَ إن عرضتَ مُعَرّضا
وقُلِ انقضَى زمنُ الوصالِ ووَجْدُنا[3] باقٍ على مددِ الليالي[4] ما انقضى
لو أنني أُفضي بأسرار الهوى يوماً إلى أحدٍ لضاق بها الفضا
فلئِنْ جرى قَدرٌ لنا بإيابِكُمْ داويتمُ مني عليلاً مُمْرَضا
أو كان قد حتمَ القضاءُ فراقَكُمْ صبراً وتسليماً لمحتومِ القضا
لهفي على غفلات أيامٍ مضَتْ عني وما لهفي براجعِ ما مضى
أيامَ أركُضُ في ميادين الصِّبا أيَّ الجهاتِ أُصيب فيه مَركَضا
حتى سقاني البينُ[5] كاساتِ الجوى[6] مَلأى وأشرقني بهنَّ وأحرضا

(١) في معجم الأدباء ١٧/ ١٦ ـ وبعض أبيات القصيدة فيه ـ: يطوي الدُّجُنَّة.

(٢) الرَّضراض: الحجارة الصغيرة في الماء. المعجم الوسيط (رضرض).

(٣) في معجم الأدباء: عصرُ الشباب وودُّنا.

(٤) في معجم الأدباء: مرُّ الليالي.

(٥) البَيْن: الفرقة. المعجم الوسيط (بين).

(٦) الجوى: اشتداد الوجد من عشق أو حزن. المعجم الوسيط (جوي).

ونضا الشبابُ قناعَهُ لمَّا رأى سيفَ المشيب على المفارقِ منتضى
قد كنتُ أُلفي الدهرَ أبيض ناضراً فاسودَّ لمَّا صارَ رأسي أبيضا
لولا اعترافي بالزمانِ وريبهِ ما كنتُ ممَّن يرتضي غيرَ الرضا
لكن بلوتُ الدَّهرَ في حالاتِهِ فوجدتُهُ مثلَ السَّرابِ تعرُّضا
وأراه يُقرضنا وليس بثابتٍ[1] حتى يعودَ فيقتضي ما أقرضا
عيشُ الفتى بينا تراه روضةً حتى يُصَوِّحَ منه ما قد روَّضا
لا البؤسُ دامَ ولا النعيمُ وإنَّما يحيى الفتى بالتُّرَّهات مُمرَّضا
من كان يتَّهم القضاء فإنني أرضى بما صنع المليكُ وما قضى

وقال أيضاً: [من المتقارب]

يقولُ الحبيبُ غَداةَ الوداعِ كأَنْ قَدْ رحَلْنا فما تصنَعُ
فقلتُ أُواصِلُ سحَّ الدُّموعِ وأهجرُ نومي فما أهجعُ

وقال أيضاً: [من الكامل]

يا مَنْ تناصفَ في المَلاحةِ خَلقُهُ لكنَّهُ في الحُكمِ ليس بمُنصفي
قِفْ حيثُ أنتَ من الصُّدودِ فإنني أخشى القصاص عليكَ يومَ الموقفِ
أخلفتُ فيكَ ظُنونَ صبٍّ لم يكُنْ أبداً يظنُّ الخِلَّ ليس بمُخلِفِ
سمعاً لسمعِ الدَّهرِ فيكَ وطاعةً إذ كان حتى مالَهُ من مصرفِي
فلأصرفنَّ النفسَ إمَّا طائعاً أو كارهاً وأقولُ لا تتأسَّفي
لو كان يوجَد مَنْ وفى لِمُحِبِّهِ لوَفى ولكِنْ أينَ يوجدُ مَنْ يفي

وقال: [من الطويل]

طلبتُ صديقاً في البريَّةِ كُلِّها فأعيا طِلابي أنْ أُصيبَ صديقا
بلى مَنْ تسمَّى بالصديقِ عبارةً[2] ولم يَكُ في معنى الوداد صديقا
وطلَّقْتُ وُدَّ العالمين صريمةً وأصبحتُ من أسرِ الحِفاظِ طليقا

---

(١) في (ف): بلابثٍ.
(٢) في المنتظم ١٦/ ١٢١: مجازة.

[وقال][1] : [من الكامل]

ما زلتُ أسمعُ بالصَّديقِ ولا أرى ... معناهُ يوجَدُ لاسمِه تصديقا[2]
فكأنَّه العنقاءُ يُعرَفُ إسْمُها ... والجسمُ لستَ ترى له تحقيقا

وقال أيضاً : [من البسيط]

وسائلٍ كيفَ حالي قلتُ غيَّرَها ... حَوْلٌ[3] [يحولُ][4] عليه لم يدُمْ حالُ
وحالَ أهلوهُ عن حين يظنُّ بهم ... فما أظنُّ بهم خيراً وقد حالوا
واستوطنَ الناسُ قلبي من رجائهِمُ ... وللمطامعِ بعدَ الموتِ تَرحالُ

وقال [من مجزوء الكامل]:

يا مَنْ يرومُ صديقَ صِدْ ... قٍ بعدَ ما فسدَ الأنامُ
ذهبَ الصديقُ فصارَ حِلْـ ... ـماً بعدما ذهبَ الكلامُ
فتعزَّ عن ما فاتَ مِنْـ ... ـهُ فليس يوجدُ والسلامُ

وقال : [من الطويل]

عليكَ بصَوْنِ النَّفسِ في كلِّ حالةٍ ... فلن يَعدَمَ الذكرَ الجميلَ مصونُ
ولا تَسْتكِنْ للحادثاتِ إذا عَرَتْ ... فَبعْدَ حَراكِ الحادثاتِ سكونُ
فكلُّ الذي قد قدَّرَ اللّهُ كائنٌ ... وما لَمْ يُقَدِّرْهُ فليسَ يكونُ

وقال : [من السريع]

يا مَنْ طِلابُ الرِّزقِ أعياهُ ... ففيهِ مَغْداهُ ومَسْراهُ
عَدِّ عن الحرصِ وكُنْ واثقاً ... أنَّ الذي يرزقُكَ اللّهُ
لا تخشَ تضييعَكَ من مُنعمٍ ... عمَّتْ جميعَ الخلقِ نُعْماهُ
لو لم يكُنْ رزقُ الفتى جارياً ... ما شقَّ ذو العرشِ له فاهُ
لكنَّهُ والعمرُ قد قُدِرا ... كلاهما لا يتعدَّاهُ

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، لأن البيتين الآتيين من البحر الكامل، وأما الأبيات الثلاثة السابقة فمن البحر الطويل.
(٢) في (خ) : صديقاً، والمثبت من (ف).
(٣) الحَوْل: القوة. الصحاح (حول).
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

وقال : [من البسيط]

لـمَّـا رأيـتُ سُـلُـوِّي غـيـرَ مُـتَّـجِـهٍ وأنَّ عَـزْمَ اصـطـبـاري عـاد مـفـلـولا
دخـلـتُ بـالـرَّغـمِ مـنِّـي تـحـتَ طـاعـتـكُـمْ لـيـقـضـيَ الـلـهُ أمـراً كـان مـفـعـولا

وفيها تُوفِّي

هزارسب بن تنكيز بن عياض

أبو كاليجار، تاج الملوك، الكردي، قد ذكرنا بعض أحواله.

وقال محمد بن الصابىء: في يوم الأربعاء حادي عشرين رمضان تُوفِّي في منصرفه عن الباب باب السلطان من أصبهان إلى خوزستان بموضع يعرف بفرندةَ[1]، وكان قد تجبَّر وتكبَّر وتسلَّط وتفرعن، وتزوَّج بأخت السلطان، وأخذها في وقته هذا، واستصحبها معه، ووقفتُ على كتاب منه في هذا المعنى إلى الوزير أبي العلاء يقول: كتابي هذا أطال الله بقاء سيدنا الوزير الأجل، فلك الدين ولي الدولة من العسكر المنصور من أعمال الري، يوم الثلاثاء سادس رجب، وقد تيسَّر لي من الوصول إلى الخدمة السلطانية ما استقامت به الأحوال، وتضاعف لي به زيادة الإقبال، وبلَّغني أقصى البغية والآمال، وكلُّ ذلك من بركات مشاركته، معدودٌ في ميامن صحبته ومخالصته، ولَعمري إنه ـ أدام الله عُلوَّه ـ الصديقُ الأصدقُ، والشفيقُ الأشفقُ الأوفقُ، ويتشوَّف إلى معرفة أخبارنا، ويتشوَّق إلى علم أحوالنا وآثارنا، وقد أوعزت في هذه المكاتبة بحالي، كأنه مشاهدٌ، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، لأنه شاهد.. وذكر كلاماً يدلُّ على الكبر والجبروت، وأنَّ أخت السلطان عادت إلى الريِّ وأنه مرض بعلة الذَّرَب، وقام في الليلة التي مات فيها ألفين وأربع مئة مجلس.

قال المصنف رحمه الله: وهذا بعيدٌ، وكأنه في مدة مرضه أقام هذه المجالس.

السنة الثالثة والستون وأربع مئة

فيها كانت الوقعة العظيمة بين ألب أرسلان وملك الروم، كان ألب أرسلان قد سار من هَمَذان في ذي القعدة سنة اثنتين وستين، فلمَّا قارب أرْجِيش ومنازكرد[2] من بلد

(١) في النجوم الزاهرة ٥/ ٨٦ : بخرندة.

(٢) هكذا يقول أهلها : منازكرد ـ بالكاف ـ وذكرها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢٠٢ : مَنازجِرْد، يعني بالجيم.

أخلاط فتحهما، وقتل وسبى، وبعث بين يديه الإفشين في سرية، وكان أريسغي زوج أخت السلطان معه جماعة من النَّاوكية، وكان السلطان يطلبهم، فساروا منحازين إلى البلاد التي للروم، خائفين من السلطان، ورحل السلطان إلى بلد ميَّافارقين، فخرج إلى خدمته نصر بن مروان وهو خائفٌ منه، وكان الوزير نظام الملك قد مضى إليه، وخرج به السلطان فقرَّبه، وخلع عليه، وقسط عليه مئة ألف دينار للجند، وأخرج للسلطان من الإقامات شيئاً كثيراً أخذه من الرعية قرَّره عليه، وقال: مالنا إلى أموال الفلاحين حاجة. فحمل الإقامات مِنْ خاصَّته، وفتح حصن السويداء وحصوناً كثيرة، وكان الغُزُّ يبقرون بطون النساء، ويقتلون من الأسارى من يضعف عن المشي معهم، وشرع جماعةٌ من الغلمان إلى حرَّان ونواحيها فنهبوها، وهرب الناس إلى حصن الرافقة، ونزل السلطان الرُّها وقاتله أهلُها، وطمَّ الخندق بالأشجار وغيرها، وكانوا قد بذلوا أول ما نزل خمسين ألف دينار وينصرف عنهم، فرضي، وفتر القتال عنهم، فقالوا: لا نُعطيك المال حتى تعدم آلات الحرب وتُحرقها، فأمر بكسرها وتحريقها، فلمَّا فعل ذلك رجعوا، وكان عنده رسول من الملك، وهو الواسطة بينهما، فاغتاظ السلطان، وتقدَّم بمسك الرسول وقتله، فقال نظام الملك: هذا لم تجْرِ به عادة، ولا أُحِبُّ أن تُسنَّ سنةٌ لا يُعرَفُ باطنُها ويَقْبُح ظاهرها. ولطف به حتى أفرج عن الرسول، وأعطاه جواب كتبه وصرفه، ورحل في الحادي عشر من ربيع الآخر طالباً للفرات، لحالين: أحدهما تأخُّر خبر الإفشين، والثاني تقاعد مَنْ بقي معه من العراقيين عسكر طُغْرُلْبَك عن القتال، وخبَثَتْ نفوسهم لتأخُّر أرزاقهم، ولمَّا انصرف عن الرُّها استخرج أهلُها القتلى وقطعوا رؤوسهم ليحملوها إلى ملك الروم، وأحرقوا جثثهم، وصالح أهلَ حران على مال، ونزل السلطان على الفرات رابع عشر ربيع الآخر، ولم يخرج إليه محمود صاحب حلب، فغاظه ذلك، وعبر الفرات، وأخربتِ العساكرُ بلد حلب ونهبوها، ووصلوا إلى القريتين من أعمال حمص، ونهبوا بني كلاب، وعادوا بغنائم عظيمة، وهربت العرب إلى البرية، وراسل محمودَ، وطلب منه الحضور، فامتنع، وحمل إليه الأموال التي قسطها على بلاده، فقال: ما أعرف لامتناعك من قصدِ خدمتي، مع إقامتك الخطبة لي، واتصال مكاتبتك وجهاً، وقد علمتَ إحساني إلى كلِّ

مَنْ حضر عندي من ملوك الأطراف، فأرسل محمودُ والدتَه وولدَه بخدمة قليلة، فزاد غيظُ السلطان، واتفق أن الخليفة بعث لمحمود الخِلَع التي طلبها لمَّا خطب للقائم مع نقيب النقباء، منها الفَرَجيةُ، والعمامةُ، وفرسٌ بمركب ثقيل، ولواءٌ. ولوالدته فرسين وثياباً، ولبني عمه خيلاً وثياباً. وخرج محمود والتقى النقيب، فسلَّم عليه عن الخليفة، فنزل وقبَّل الأرض، ولبس الخِلَع، وركب الفرس، ودخل إلى حلب، وأقام النقيب يومين لم يرَ من محمود فيهما ما ظنَّ، فركب إليه، قال محمود: أنا أُطيعكم، وهذا السلطان على بُعدٍ، وطلبتُ حراستي وحراسةَ بلادي، فأمَّا البلاد فقد شاهدتُ خرابَها ونهبَها، وأنا مطالَبٌ بالخروج إليه والأموال التي تُفقرني، ومهدَّدٌ بالحصار والبوار، وهذا كتاب السلطان عندي بالإعفاء من دَوْس البساط. فقال النقيب: هاتِ الكتاب لأمضيَ إليه. فأعطاه إيَّاه، فخرج إليه وكان نازلاً على الفندق، فلمَّا وصل بعث إليه السلطان بفرس النُّوبة، وأكرمه واستدعاه، وبلَّغه عن الخليفة ما حمله إليه، فقام وقَبَّل الأرض، وشكر ودعا، وقال له: ما الذي أخرجك؟ فقال: جئتُ لأُخرج محموداً إلى خدمتك، فأَخْرَجَ إليَّ هذا الكتاب. فقال: صحيح، أنا كتبتُه تطييباً لقلبه مع بُعدي عنه، فأمَّا إذا قرُبتُ منه فما أقنع بهذا، وأيُّ عذرٍ لنا إذا كان منتمياً إلينا وقد عصى علينا ونصب المجانيق ليستعدَّ للحصار! وأيُّ حرمةٍ تبقى لنا عند الملوك؟! ويجب أن ترجع إليه وتضمن له عني كلَّ ما نريد. قال النقيب: فقلت: سمعاً وطاعة. وثقُلَ عليه ما بعث له الخليفة، فقال بعض الحُجَّاب: ما فعل هذا إلَّا بأمرِك، فسكن، واجتمعتُ بنظام الملك، وقلت: محمود يخدم بعشرين ألف دينار للسلطان، وخمسةِ آلاف دينار لك، ويدفعُ باللقاء إلى حين عود السلطان من دمشق، وعدتُ إلى حلب، وأخبرتُ محموداً فقال: أمَّا المالُ فما عندي حَبَّة، وأما الخروج فلا سبيل إليه. ونزل السلطان على حلب يوم الأحد لليلةٍ بقيَتْ من جمادى الآخر، فقاتلهم، فذَلُّوا، فأرسل إليه محمود يطلب الموادعة، وخرج إليه في الليل، وسارت معه والدتُه، فأخذت بيده ودفعته إلى السلطان، وقالت: هذا ولدي قد سلَّمتُه إليك، فاحكم فيه بما ترى. فتلقَّاه بما أحبَّ وأكرمه، وقال: عُدْ إلى قلعتك، وترجع إلينا في غد لنُظْهِرَ من إكرامنا ما تستحِقُّه. فرجع إلى القلعة، وعاد من الغد، فتلقَّاه نظام الملك والحُجَّاب والخواصُّ، ولم يتخلف غير

السلطان، ودخل على السلطان، فخلع عليه الخِلَعَ الجليلة، وأعطاه الخيل بمراكب الذهب والفضة والكوسات والأعلام، وعتَبَه، فقال محمود: واللهِ ما كنتُ إلا على نية تَلَقِّيك حتى حَنقت منك، فعلم السلطانُ مَنْ فعل ذلك، فكاشر وأشار إلى ابن خان الذي قتل أخاه على صور، وعلم، فهرب إلى دمشق، ثم عاد إلى السلطان، فرضي عنه، وتقدَّم السلطان إلى محمود وأيتكين السليماني بالمضيِّ إلى دمشق وإقامة الخطبة للقائم، وبينما هم على ذلك إذ وردت رُسل ملك الروم بردٍّ مَنيح وأُرحبش ومنازكِرْد إليه، وبحمل الهدية، وجاءه خبرُ الإفشين وعَوْدُه سالماً، وضجر السلطان من المقام بحلب، فكرَّ راجعاً، فقطع الفرات، وهلك أكثر الدواب، وعاد رسول الروم مستبشراً إلى صاحبه، فقوَّى ذلك عزمَ ملكِ الروم على اتِّباعه وحربه.

وأمَّا حديث الإفشين فإنَّ أريسغي هرب من السلطان ومعه طائفة من الناوكية يريد القسطنطينية، وجاء إلى دربند وعليه قلعةٌ فيها امرأة يقال لها : مريم، فسألها أن تُمكِّنَه من العبور، فلم تفعل ذلك، وكان الملك لمَّا بلَغه خبرُ أريسغي بعث ميخائيل لقتاله ظناً منه أنه عدوٌّ، فلمَّا قَرُبَ منه ميخائيل أرسل إليه: ما جئت لأحاربكم، وإنما جئتُ ملتجئاً إليكم من السلطان. فقال: كذبتَ. فقال: لو كان هذا صحيحاً ما أخربتَ بلادنا ونهبتَ وقتلتَ. فحلف له، فلم يُصدِّقه، واقتتلوا، فنُصِرَ أريسغي على الروم، فقتل منهم خلقاً عظيماً، وأمر ميخائيل وقطع عليه سبعين قنطاراً ذهباً، وقَرُبَ الإفشين منهم، فقال لميخائيل: القصة كذا وكذا، وأنا أُطلِقُك ولا آخذُ منك شيئاً، وتجيروني من الإفشين. وعلم سِرَّه فأمَّنه، وسارا جميعاً إلى الملك، وقال : بيننا وبينك هدنةٌ، ولمَّا دخلتُ بلادك ما تعرَّضتُ لأحد، وهؤلاء اللاوكية أعداءُ السلطان، وقد نهبوا بلادَك وأخربوها، ويجب أن تُسلِّمهم إلينا، وإلَّا أخربتُ بلادكَ ولا هدنةَ بيننا. فقال الملك: كلُّ ما ذكرتَه صحيح، ولكن عادتُنا من لجأ إلينا أن لا نُسلِّمه. فرجع الإفشين فدرس الروم كأن لم يكن، فلم يَسْلَم منه إلَّا حصن منيع وبلد كبير، ووصل إلى درب مريم، ووقع الثلج، فأقام حتى ارتفع، وسار إلى خِلاط ومعه من الغنائم ما لم يغنَمْه أحد، وكتب إلى السلطان بذلك، وسار السلطان إلى الوزير، فجاءه خبرُ ملك الروم أنه قد

تجهَّز في العساكر الكثيرة، وأنه قاصد بلاد الإسلام، وكان السلطان في قليل من العسكر؛ لأنهم عادوا جافلين من الشام، وتلك الجَفلة استهلكت أموالهم ودوابَّهم، فطلبوا مَنْ ألزمهم، وبقي السلطان في أربعة آلاف غلام، ولم يرَ الرجوعَ لجميع العساكر فتكون هزيمة، فأنفذ بخاتون الشقيرية مع نظام الملك والأثقال إلى هَمَذان، وأمره بجمع العساكر وإنفاذها إليه، وقال لوجوه عسكره الذين بقوا معه: أنا صابرٌ صبرَ المحتسبين، وصائرٌ في هذه الغزاة مصير المخاطرين، فإن نصرني الله فذاك ظنّي في الله تعالى، وإن تكُنِ الأخرى فأنا أعهد إليكم لولدي ملك شاه أن تسمعوه وتطيعوه وتقيموه مقامي. فقالوا: سمعاً وطاعة. وبقي جريدةٌ[1] مع العسكر الذي ذكرنا، ومع كلِّ غلام فرسٌ يركبه، وآخر بجنبه، وسار قاصداً ملك الروم، وأرسل أحدَ الحُجَّاب الذين كانوا معه في جماعة من الغلمان مقدمةً له، فصادف عند خِلاط صليباً تحته مُقدَّم الروم في عشرة آلاف، فحاربهم، فنُصِرَ عليهم، وأسر المُقدَّم، وكان من الروس، وأخذ منه الصليب، وبعث إلى السلطان بذلك، فاستبشر وقال: هذا أمارة النصر. وأرسل بالصليب إلى هَمَذان، وجَدَع أنف المقدَّم، ثم أمر بأن يحمل إلى الخليفة، ووصل ملك الروم إلى منازِكِرد فأخذها بالأمان، وقصد ناحية السلطان في موضع يعرف بالرَّهوة بين خِلاط ومنازِكِرد لخمس بَقِينَ من ذي القعدة، فبعث إليه السلطان بأن يرجع إلى بلاده ويتمِّم الصلح الذي توسَّطه الخليفة، فقال: لا أرجع ـ وكان يوم الأربعاء ـ وأقام السلطان إلى نهار الجمعة، وجمع وقتَ الصلاة أصحابَه، وقال: إلى متى نحن في نقص وهم في زيادة؟ أريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي جميع المسلمين يدعون لنا على المنابر، فإن نُصِرْنا عليهم وإلّا مضينا شهداءَ إلى الجنة، فمن أحبَّ أن يتبعني فليتبَعْ، ومن أحبَّ أن ينصرف فلينصرِفْ مصاحباً، فما ها هنا اليوم سلطان، وإنما أنا واحد منكم، وقد فتحنا على المسلمين ما كانوا عنه في غناء. فقالوا: أيها السلطان، نحن عبيدك، ومهما فعلتَ تبعناك.

---

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها. المعجم الوسيط (رجل).

وكان قد اجتمع إليه عشرةُ آلاف من الأكراد، وإنما اعتماده بعد الله تعالى على الأربعة آلاف الذين كانوا معه، وملكُ الروم في مئة ألف مقاتل، ومئة ألف نَقَّاب، ومئة ألف روزجاري[(١)]، ومئة ألف صانع، وأربع مئة عجلة يجرُّها ثمان مئة جاموس عليها نعال ومسامير، وألفا عجلة عليها السلاح والمجانيق، وآلة الزحف، وكان في عسكره خمسة وثلاثون ألف بطريق، ومعه منجنيق يمدُّه ألف رجل ومئتا رجل، ووزن حجره عشرة قناطير، وكل حلقة منه مئتا رطل بالشامي، وكان في خزانته ألف ألف دينار ومئة ألف ثوب إبريسم، ومن السُّروج الذهب والمناطق والمصاغات مثلُ ذلك، وكان قد أقطع البطارقةَ البلاد، مصر والشام وخراسان والري والعراق، واستثنى بغداد، وقال: لا تتعرَّضوا لذلك الشيخ الصالح فإنه صديقُنا - يعني الخليفة - وكان عزمُه يُشتي بالعراق ويصيف بالعجم، واستناب في القسطنطينية من يقوم مَقامه، وعزم على خراب بلاد الإسلام، فلمَّا كان يوم الجمعة وقت الصلاة - وقد شاور السلطانُ أصحابَه - قام قائماً، ورمى القوس والنُّشَّاب من يده، وشدَّ ذنب فرسه بيده، وأخذ الدبوس، وفعل أصحابُه كذلك، وبغتوا الروم وصاحوا صيحةً واحدةً ارتجَّت لها الجبال، وكبَّروا، وصاروا في وسط الروم، فقاتلوهم، وما لَحِقَ الملكُ يركبُ فرسَه، وما ظنَّ أنهم يقدموا عليه، فنصر الله المسلمين عليهم فانهزموا، وتبعهم السلطانُ بقيةَ نهار الجمعة وليلةَ السبت يقتل ويأسر، فلم ينجُ منهم إلا القليل، وغنموا جميعَ ما كان معهم، ورجع السلطان إلى مكانه، فدخل عليه الكوهراني فقال: إنَّ أحد غلماني قد أسرَ ملك الروم، وكان هذا غلامي قد عُرِضَ على نظام الملك فاحتقره وأسقطه، فكلَّمتُه فيه، فقال مستهزئاً به: لعلَّه يجيئنا بملك الروم أسيراً. فأجرى الله تعالى أسر ملك الروم على يده، واستبعد السلطانُ ذلك وأرسل خادماً يقال له: شاذي كان قد أرسله له، فلمَّا رآه عرفه، فرجع وأخبر السلطان، فأمر بإنزاله في خيمة، ووكل به، واستدعى الغلامَ وسأله: كيف أسرْتَه؟ فقال: رأيتُ فارساً وعلى رأسه صلبان، وحولَه جماعةٌ من الخدم الصَّقالبة، فحملتُ عليه لأطعنه، فقال لي واحدٌ منهم: لا تفعَلْ، فهذا الملك. فأحسنَ السلطانُ إليه، وخلع عليه، وجعله من خواصِّه، فقال: أريد بشارة غزنة، فأعطاه إيَّاها.

(١) في (خ): جرجى! والمثبت من المنتظم ١٦/ ١٢٤، والبداية والنهاية ٢/ ١٠٠.

ثم إنَّ السلطان أحضر الملك ـ واسمه أرمانوس ـ وضربه ثلاث مقرعات، ورفسه برجله ووبَّخه، وقال: ألم أُرسِلْ إليك رُسُلَ الخليفة أطال الله بقاءه في إمضاء الهدنة، فأبيتَ؟ ألم أُرسِلْ إليك مع الإفشين أطلبْ أعدائي، فمنعتَهم؟ ألم تغدِرْ بي وقد حلفتَ لي؟ ألم أبعَثْ إليك بالأمس أسألْكَ الرجوع، فقلتَ: قد أنفقتُ الأموال، وجمعتُ العساكر الكثيرة حتى وصلتُ إلى ها هنا، وظفرتُ بما طلبتُ، فكيف أرجع إلى أن أفعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي؟ وكيف رأيتَ أثر البغي؟ ـ وكان قد جُعِلَ في رجليه قيدين وفي عنقه غِلًّا ـ فقال: أيها السلطان، قد جمعتُ العساكر من سائر الأجناس، وأنفقتُ الأموال لآخذ بلادك، ولم يكن النصرُ إلَّا لك، وبلادي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا، فدَعْني من التوبيخ والتعنيف، وافعَلْ ما تُريده. فقال له السلطان: فلو كان الظَّفرُ لك ما كنتَ تفعلُ بي؟ قال: القبيح. فقال: آهِ، صدق وَاللهِ، ولو قالَ غيرَ هذا لَكَذَب، هذا رجلٌ عاقلٌ جَلْدٌ، لا يجوز أن يُقتل. ثم قال له: وما تظنُّ الآنَ أن أفعلَ بك؟ قال: أحد ثلاثة أقسام، أما الأول فقتلي، والثاني: إشهاري في بلادك التي تحدَّثتُ بقصدها، وأما الثالث فلا فائدة في ذِكْرِه، فإنك لا تفعلُه. قال: وما هو؟ قال: العفو عني، وقبول الأموال والهدنة، واصطناعي وردِّي إلى ملكي مملوكاً لك وبعض أسفهسلاريتك، ونائبك في الروم، فإنَّ قتْلَكَ لي لا يُفيدك، هم يقيمونِ غيري. فقال له السلطان: ما نويتُ إلَّا العفوَ عنك، فاشترِ نفسك. فقال: يقول السلطان ما يشاء. فقال: عشرة آلاف ألف دينار. فقال: واللهِ إنك تستحقُّ ملك الروم إذ وهبتَ لي نفسي، ولكن قد أنفقتُ أموالَ الروم واستهلكتُها منذ وُلِّيتُ عليهم في تجريد العساكر والحروب، وأفقرتُ القوم. ولم يزلِ الخطابُ يتردَّد إلى أن استقرَّ الأمر على ألف ألف وخمس مئة ألف دينار، وفي الهدنة على ثلاث مئة ألف دينار وستين ألف دينار في كلِّ سنة، وأن يُنفذ من عساكر الروم ما تدعو الحاجة إليه، وذكر أشياء. فقال: إذا مننتَ عليَّ عَجِّلْ سراحي قبل أن يُنصِّبَ الرومُ ملكاً غيري، فيفوتُ المقصودُ، ولا أقدر على الوصول إليهم، فلا يحصل شيء مما شرطتَه عليَّ. فقال السلطان: أُريد أن تعود أنطاكية والرُّها ومنبج ومنازكِرْد، فإنها أُخذت من المسلمين عن قرب، وتُفرِّج عن أسارى المسلمين. فقال: أمَّا البلادُ فإن وصلتُ سالماً إلى بلادي أنفذتُ إليهم بالعساكر

وحاصرتُهم وأخذتُها منهم وسلَّمتُها إليك، فأما القوم فلا يسمعون مني، وأمَّا أسارى المسلمين فالسمع والطاعة، إذا وصلتُ سرَّحتهم وفعلتُ معهم الجميل. فأمر السلطان بفَكِّ قيوده وغلِّه، ثم قال: أعطوه قدحاً ليسقينيه، فظنَّه له، فأراد أن يشربه، فمُنع وأُمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح، فأومأ إلى تقبيل الأرض، وناول السلطانَ القدح فشربه، وجَزَّ شعرَه، وجَعلَ وجهَه على الأرض، وقال: إذا خدمتَ الملوكَ فافعل كذا.

وإنما فعل السلطان ذلك لسبب اقتضاه، وهو أنَّ السلطان لمَّا كان بالري وعزم على غزو الروم، فقال لفرامرز بن كاكويه: هو ذا، أَمْضي إلى قتال ملك الروم، وآخذه أسيراً، وأُوقِفُه على رأسي ساقياً. فحقَّقَ الله قولَه، واشترى جماعةً من البطارقة، واستوهبَ آخرين، فلمَّا كان من الغد أحضره السلطان وقد نصب له سريره ودَسْتَه الذي أُخذ منه، فأجلسه عليه، وخلع عليه قَباءَه وقَلَنْسوته، وألبسه إيَّاهما بيده، وقال له: قد اصطنعتُكَ، وقنعتُ بأمانتك، وأنا أسيِّرُك إلى بلادك، وأردُّك إلى ملكك. فقبَّل الأرضَ، وكان لمَّا بعث الخليفةُ ابنَ المحلبان إليه أمر بكشف رأسه، وشدِّ وسطه، وأن يُقبِّل الأرض بين يديه، فقال له السلطان: ألستَ الفاعلَ بابن المحلبان رسول الخليفة كذا وكذا؟ فقُمِ الآن واكشِفْ رأسَكَ، وشُدَّ وسطَكَ، وأومىء إلى ناحية الخليفة، وقَبِّلِ الأرض. ففعل، فقال السلطان: إذا كنتُ أنا وأنا أقلُّ الملوك الذين في طاعته فعلتُ بِكَ ما فعلتُ وأنا في شرذمةٍ من جندي وقد حشدتَ دين النصرانية، فكيف لو كتبَ الخليفةُ إلى ملوك الأرض يأمرهم فيكَ بأمر؟ وعقد له السلطان رايةً فيها مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وأنفذ معه حاجبين ومئة غلام، فوصلوا به إلى القسطنطينية، وركب معه وشيَّعه قَدْرَ فرسخ، فأراد أن يترجَّل، فمنعه السلطان وحلف عليه، وضمَّه إليه، وتعانقا، وعاد السلطان عنه(١).

ثم حكى ملك الروم وقال: العادة الجارية أن الملك الخارج من القسطنطينية إذا أراد الخروج إلى حرب دخل البِيْعة الكبرى، واستشفع بصليب ذهب بها مُرصَّع باليواقيت. قال: فدخلتُ البِيْعة لمَّا عزمتُ على هذه السَّفرة، واستشفعت إليه، وإذا بالصليب قد زال عن موضعه إلى القبلة الإسلامية، فعجبتُ من ذلك، وسوَّيتُه إلى

(١) ينظر هذا الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ١٢٣ـ١٢٨ .

المشرق، وأتيتُه من الغد، وإذا به قد مال إلى القبلة، وأمرتُ بشدِّه بالسلاسل، ثم دخلتُ إليه في اليوم الثالث، وإذا به قد مال إلى القبلة، فتطيرتُ وعلمتُ أني مغلوب، ثم غلبني الهوى والطمع، فسِرْتُ إلى بلاد الإسلام، فكان مني ما كان.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: إن عسكر صاحب الروم كان ستَّ مئة ألف من الروم وسائر الطوائف، وإنَّ عسكر السلطان كان أربعَ مئة ألف مقاتل من الأتراك وجميع الطوائف، والذي ذُكِرَ أنه كان مع السلطان أربعةُ آلاف مملوك هو الأصحُّ؛ لِما ذكرنا من أن العساكر تفرَّقت عنه، ثم كتب السلطان إلى الخليفة بشرح ما جرى، وبعث بعمامة ملك الروم والصليب وما أُخذ من الروم، وذلك في ثالث عشرين ذي الحجَّة، فقُرئت الكتب في بيت النوبة، وسُرَّ الخليفةُ والمسلمون، وزُيِّنت بغداد تزييناً لم تُزيَّن مثلُه، وعُملت القباب، وكان فتحاً عظيماً لم يكُنْ في الإسلام مثلُه، وعاد السلطان إلى الري وهَمَذان.

وفيها ملكت الفرنج جزيرة صقلية، وسببه أنه كان بها والٍ يقال له: ابن البعباع، فبعث إليه صاحب مصر يطلب منه المال، وكان عاجزاً عمَّا طلب منه، فبعث إلى الفرنج، ففتح لهم الباب ـ أي البلد ـ فدخلوا فقتلوا وملكوا الجزيرة.

وفي هذه السنة ظهر أتْسِز بن أوق مقدَّم الأتراك الغز، وفتح الرملة والبيت المقدس، وضايق دمشق، وواصل الغارات عليها، وأخرب الشام.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن علي[1]

ابن ثابت بن أحمد بن مهدي، أبو بكر، الخطيب، البغدادي، ولد يوم الخميس لِستٍّ بَقِين من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة ـ وقيل: سنة اثنتين وتسعين ـ بدَرْزيجان قريةٍ أسفل بغداد، وكان أبوه خطيبها، ونشأ ببغداد، وأول ما سمع الحديث سنة ثلاث وأربع مئة وله إحدى عشرة سنة، وقرأ القرآن، وتفقَّه على أبي

---

(١) المنتظم١٦/ ١٢٩-١٣٥ ، تاريخ دمشق ٥/ ٣١-٤١ ، وتبيين كذب المفتري ص٢٦٨-٢٧١ ، ومعجم الأدباء١٤/ ١٣-٤٥ . وينظرالسير ١٨/ ٢٧٠ .

الطيب الطبري، وأكثرَ من سماع الحديث ببغداد، ورحل إلى البصرة، ثم إلى نيسابور وأصبهان وهَمَذان والجبال، ثم عاد إلى بغداد، وخرج إلى الشام فسمع بدمشق وصور، ووصل إلى مكة، فسمع بها من القاضي القضاعي، وقرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزية في خمسة أيام، ورجع إلى بغداد، وتقرَّب إلى الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة، وكان قد أظهر بعضُ اليهود كتاباً، وادَّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة ﷺ، فقال الخطيب: هذا الكتاب مُزوَّر. فقال له الوزير: من أين هذا؟ قال: فيه شهادة سعد بن معاذ ومعاوية، وسعد مات يوم الخندق قبل خيبر، ومعاوية أسلم يوم الفتح سنة ثمان، وخيبر كانت سنة سبع. فأعجب الوزيرَ ذلك.

ولمَّا دخل البساسيري بغداد استتر الخطيب، وخرج إلى الشام، وأقام بدمشق وصور وحلب وطرابلس، ثم عاد إلى بغداد سنة اثنتين وستين، فأقام بها سنة، ثم تُوفِّي. وصنَّف الكتب في فنون. وقيل: إنه صنَّف ستة وخمسين كتاباً ليس فيها أكبر من التاريخ، فمن مصنفاته: «التاريخ» مئة وستة أجزاء، و«شرف أصحاب الحديث»، و«الجامع لأخلاق الراوي والسامع»، و«الكفاية في معرفة أصول الرواية»، و«المتَّفِق والمُفترِق»، و«السابق واللاحق»، و«تلخيص المتشابه في الرسم»، و«تالي التلخيص»، و«الفصل والوصل»، و«المكمل في بيان المهمل»، و«الفقيه والمتفقِّه»، و«غُنية المقتبس»، و«الأسماء المبهمة»، و«الصواب في التسمية بفاتحة الكتاب»، و«الجهر بالبسملة»، و«رفع الارتياب»، و«الفنون[١]» و«التبيين [لأسماء المدلِّسين[٢]]»، و«تمييز المزيد» و«من وافق اسمُه اسمَ أبيه»، و«من حدَّث فنسي»، و«رواية الآباء عن الأبناء» و«العلم بالكتابة، و«الحيل» و«الرحلة»، و«الرواة عن مالك»، و«الاحتجاج للشافعي» و«التفصيل لمبهم المراسيل»، و«اقتضاء العلم والعمل» ، و«القول في علوم النجوم»،

---

(١) هكذا وقع في الأصلين (خ) و(ف) تسمية الكتاب: الفنون، ولايوجد للخطيب البغدادي كتاب بهذا العنوان فيما بين أيدينا من المصادر التي ترجمت له، ولعلَّها تصحفت عن القنوت، لكن المصنف سيذكر هذا الكتاب في آخر ذِكر كتبه!.

(٢) هذه الزيادة من مصادر الترجمة.

و«روايات الصحابة عن التابعين»، [و«صلاة التسابيح»، و«روايات الستة من التابعين»[(١)]، و«مسند نُعيم بن همار[(٢)]»، و«النهي عن صوم يوم الشك»، و«الإجادة للمعدوم والمجهول»، و«البخلاء» و«الأسماء المتواطئة»، و«النكاح بغير ولي»، و«الوضوء من مسِّ الذَّكَر» و«الرواة عن شعبة» و«الجمع والتفريق»، و«أخبار الطفيليين»، و«الدلائل والشواهد»، و«القضاء باليمين والشاهد»، و«المُوضِح»، و«القنوت».

واتَّفقوا على أنه تُوفِّي يوم الاثنين سابع ذي الحجة في حجرةٍ كان يسكنها بدرب السلسلة جوار النظامية، وحمل تابوتَه أبو إسحاق الشيرازي من المدرسة النظامية إلى الجسر، وعبر به إلى الجانب الغربي، واجتاز به في الكَرْخ، وحمل إلى جامع المنصور، وحضر الأماثل والفقهاء والخلق الكثير، وصلَّى عليه أبو الحسين بن المهتدي، ودُفن إلى جانب بشر الحافي، وكان أحمد بن علي الطُّرَيْثيثي قد حفر هناك قبراً لنفسه، وكان يمضي إليه كلَّ يوم ويختم فيه القرآن عدة سنين، فلمَّا مات الخطيب أرادوا دفنه فيه، فمنعهم وقال: هذا قبرٌ أنا حفرتُه وختمتُ فيه القرآن عدة ختمات. وكان أبو سعد الصوفي حاضراً فقال: يا شيخ، لو كان بشر في الحياة دخلتَ أنت والخطيب عليه أيُّكما كان يقعد إلى جانبه؟ فقال: الخطيب. فقال: فكذا ينبغي أن يكون في حالة الموت. فسكت.

وقيل: إن الطُّرَيْثيثي كان غائباً، فلمَّا حضر أراد نبْشَه، فقيل له: لا يَحسُن. فتركه.

وكان الخطيب يقول: شربتُ من ماء زمزم على نية أن أدخل بغداد وأروي بها التاريخ، وأُدفن إلى جانب بشر الحافي، وقد رزقني الله تعالى دخولها وروايةَ التاريخ بها، وأنا أرجو الثالثة. فدُفنَ إلى جانب بشر، وأوصى أن يُتصدَّق بجميع ما كان عليه من الثياب.

---

(١) هذه الزيادة من (ف) ومصادر الترجمة.

(٢) تحرف اسمه في الأصلين (خ) و(ف) إلى: هشام، والصواب كما أثبتُّ: نعيم بن همَّار: وهو الغطفاني، كذا في إتحاف المهرة ١٣/٥٥٦، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٨١، وفي غيرهما من مصادر الترجمة، وكذا ذكره في كتابه موارد الخطيب ص٥٧.

سمع خلقاً كثيراً، وروى عنه جمٌّ غفير، وذكره أرباب السِّير، فقال ابن السمعاني في «الذيل»: هو إمامُ هذه الصنعة وعالمُها، ومن به ظهرت معالمُها، وأحيى رسومَها، ونشر علومَها.

وقال ابن عساكر: هو أحد الأئمة المشهورين والمصنِّفين المذكورين، والحفَّاظ المبرِّزين، ومَنْ به ختم ديوان المحدثين، وكان يذهب مذهب الأشعري، ولمَّا عاد من دمشق إلى بغداد وقع له جزءٌ فيه سماع القائم بأمر الله، فحمل الجزء، ومضى إلى باب الحجرة، وسأل أن يؤذَن له في قراءته، فقال الخليفة: هذا رجلٌ كبير السنِّ في الحديث، وليس له إلى السماع حاجة، ولعلَّ له حاجةً أراد أن يتوصل إليها، فسألوه فقال: حاجتي أن أُملي بجامع المنصور ـ وكانت الحنابلة قد منعته ـ فأذِن له، وحضر النقيب الكامل مجلسه، وأملى بالجامع.

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله: من نظر في مصنَّفاته عرف قَدْرَ الرجل وما هُيِّئ له مما لا يتهيَّأ لمن كان أحفَظَ منه كالدارقطني وغيره.

وقد روي عن أبي الحسين بن الطيوري أنه قال: أكثرُ كتب الخطيب مستفادةٌ من كتب الصوري ابتدأ بها.

قال الشيخ أبو الفرج: وقد يضع الإنسان طريقاً فيسلك، وما قصَّر الخطيب على كل حال، وكان حريصاً على علم الحديث، وكان يمشي في الطريق وفي يده جزء يطالعه، وكان حسنَ القراءة، فصيحَ اللهجة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر الحسن، وكان قديماً على مذهب الإمام أحمد رحمة الله عليه، فمال إليه أصحابه لمَّا رأوا ميله إلى المبتدعة وآذوه، فانتقل إلى مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وتعصَّب في تصانيفه عليهم، ورمز إلى ذمِّهم، وصرَّح بقدر ما أمكنه، فقال في ترجمة الإمام أحمد رحمة الله عليه: إمام المحدِّثين، ولم يذكره بالفقه، ونسبه إلى الصبوة، فقال في ترجمة حسين الكرابيسي: أيش نعمل بهذا الصبي إن قلنا: لفظنا بالقرآن مخلوق؟ قال: بدعة. وإن قلنا: غير مخلوق؟ قال: بدعة. ثم قدح في أصحابه مهما أمكن، ودسَّ في ذمِّهم دسائس عجيبة، من ذلك أنه ذكر مُهنًّا بن يحيى ـ وكان من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ـ فقال: قال الدارقطني: مُهنًّا ثقة نبيل. ثم حكى عن أبي الفتح الأزدي أنه قال: مُهنًّا منكر الحديث. وهو يعلم أن الأزديَّ مطعونٌ فيه عند

الكلِّ وأول من ضعَّفه هو. قال: حدثني أبو النجيب عبد الغفار الأرموي قال: رأيتُ أهل الموصل يوهنون أبا الفتح الأزدي ولا يعدُّونه شيئاً. قال الخطيب: وحدثني محمد بن صدقة الموصلي قال: قدم أبو الفتح الأزدي بغداد على ابن بُوَيه، فوضع له حديثاً: أنَّ جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صورنا، فأعطاه دراهم.

قال الشيخ أبو الفرج: أفلا يستحي الخطيب أن يقابل قولَ الدارقطني في مُهنَّا بهذا ثم لا يُبيِّن ضعفَ الأزدي؟ فما الذي وثَّقه في الطعن في مهنَّا وضعَّفه في غيره؟ وهذا يُنبئ عن عصبيَّةٍ وقلةِ دين.

ومال الخطيب على الحسن بن علي التميمي وأبي عبد الله بن بطة، وأبي علي بن المذهب، وكان في الخطيب شيئان؛ أحدهما الجريُ على عادة عوام المحدِّثين في الجرح والتعديل، فإنهم يجرحون بما ليس [يجرح][1] لقلة فهمهم. والثاني: التَّعَصُّبُ على مَذهبِ الإمام أحمد رضي الله عنه وعلى أصحابه، وذكر في كتاب «الجهر بالبسملة» أحاديثَ يعلم أنها لا تصحُّ، وكذا في كتاب «القنوت»، وذكر في مسألة صوم يوم الغيم وتحريمه حديثاً يعلم أنه موضوع، واحتجَّ به، ولم يذكر عِلَّته، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من روى حديثاً عني وهو يرى أنه كذب، فهو أحد الكذَّابين»[2].

وقال إسماعيل بن أبي الفضل القُومِسي وكان من كبار الحُفَّاظ، صدوقاً، له معرفة حسنة بالرجال والمتون، عزيز الديانة: ثلاثةٌ من الحُفَّاظ لا أُحِبُّهم لشدة تعصُّبهم وقلَّة إنصافهم: الحاكم أبو عبدالله النيسابوري، وأبو نُعيم الأصفهاني، وأبو بكر الخطيب.

ولقد صدق إسماعيل؛ فإن الحاكم كان متشيعاً، والآخران أشعريان متعصِّبان للأشاعرة والمتكلِّمين، وما يليق هذا بأصحاب الحديث؛ لأن الحديث جاء في ذمِّ الكلام، وقد أكَّد الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه في هذا حين قال: رأيي في أصحاب الكلام أن يُركبوا على البغال، ويُطاف بهم في القبائل.

---

(١) مابين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ١٣٣ .

(٢) أخرجه أحمد (١٨١٨٤)، والترمذي (٢٦٦٢)، وابن ماجه (٤١) من حديث المغيرة بن شعبة، وأحمد (٢٠١٦٣)، وابن ماجه (٣٩) من حديث سمرة بن جندب، وعبدالله بن أحمد في زوائده على المسند (٩٠٣)، وابن ماجه (٤٠) من حديث علي بن أبي طالب، وهو حديث صحيح.

وقد صنَّف الشيخ جمال الدين بن الجوزي رحمه الله كتاباً سمَّاه "السهم المصيب في بيان تعصيب أبي بكر الخطيب" بيَّن فيه أغراضَه ودقائقَه وتعصُّبَه وبوائقَه، وأنه صرح بذمِّ الإمام أحمد رحمة الله عليه، فقال: وهم أحمد في مواضع، وذكر ما يدلُّ على أن الخطيب هو الواهم، وقد بسط الخطيب القول في ذمِّ أصحاب الإمام أحمد رحمة الله عليه، وقد أُجيب عن جميع ما ذكره وردَّ عليه.

وقال محمد بن طاهر المقدسي: لمَّا هرب الخطيب من بغداد عند دخول البساسيري إليها قدم دمشق، فصحبه حدَثٌ صبيحُ الوجه، فكان يختلف إليه، فتكلَّم الناس فيه وأكثروا، وبلغ والي المدينة، وكان من قِبَل المصريين شيعياً، فهجم عليه، فرأى الصبيَّ عنده وهما في خلوة، فقال للخطيب: قد أمر الوالي بقتلك، وقد رحمتُكَ، ومالي فيك حيلة، إلا أنني إذا خرجتُ بك أمرُّ على دار الشريف بن أبي الجِنّ العلوي فادخل داره؛ فإني لا أقدر على الدخول خلفك. وخرج، فمرَّ به على دار الشريف، فوثب الخطيب فصار في الدهليز، وعلم الوالي، فأرسل إلى الشريف يطلبه منه، فقال الشريف: قد علمتَ اعتقادي فيه ومن أمثاله، وليس هو من أهل مذهبي، وقد استجار بي، وما في قتله مصلحة؛ فإن له بالعراق صيتاً وذكراً، فإن قتلتَه قتلوا من أصحابنا عدةً، وأخربوا مشاهدنا. قال: فيُخرَجُ من البلد. فأخرجوه، فمضى إلى صور، واشتدَّ غرامه بذلك الصبي، فقال فيه الأشعار، فمن شعره: [من البسيط]

تَغَيَّبَ الناسُ عن عيني سوى قمرٍ حسبي من الناس طُرًّا ذلِكَ القمرُ
محلُّه في فؤادي قد تملَّكَهُ وحازَ روحي فمالي عنهُ مُصْطَبرُ
أردتُ تقبيلَهُ يوماً مخالَسةً فصارَ في خاطري من خدِّهِ أَثَرُ
وكم حليم رآهُ ظنَّهُ ملَكاً وراجعَ الفِكْرَ فيه أنَّهُ بشَرُ

وقال فيه أيضاً: [من الكامل]

بات الحبيبُ وكم لهُ من ليلةٍ فيها أقامَ إلى الصَّباحِ مُعانِقي
ثمَّ الصباحُ أتى ففرَّقَ بيننا ولَقَلَّما يصفو سرورُ العاشِقِ

وقال فيه أيضاً: [من البسيط]

الخمرُ والوردُ حقٌّ ليسَ أجحدُهُ إذ ناسبا مَنْ بدا منه بلايايَ

فالخمرُ من طيبِ ريحِ الحُبِّ قد شَرُفَتْ والوردُ أضحى يُحاكي خدَّ مولايَ

وقال أيضاً: [من البسيط]

باللهِ أقسمُ أيماناً مُغلَّظةً ما مثلُ حبِّي مشى في سائرِ النَّاسِ
إذا بدا يتثنَّى خِلْتَهُ قمراً من فوق غصنٍ مديد الفَرْعِ ميَّاسِ
شربتُ من لَحْظهِ خمراً سكرتُ بها زادت على نعت خمرِ الكأسِ والطاسِ
فأورثَتْ مُهجتي من حُبِّه دنفاً وعظَّمَتْ حال أفكاري ووسواسي

ومن هذا قولُه وإخبارُه عن نفسه فكيف يُقبَلُ جرحُه وتعديلُه؟ وإنما العصبية ذهبت بالدين.

ومن شعره: [من الوافر]

لَعمرُكَ ما شجاني رسمُ دارٍ وقفتُ بها ولا ذِكْرُ المغاني
ولا أثرُ الخيامِ أراقَ دمعي لأجلِ تذكُّري عهدَ الغواني
ولا ملَكَ الهوى يوماً قيادي ولا عاصَيْتُهُ فثنى عِناني
عرفتُ فِعالَه بذَوي التَّصابي وما يَلْقَون من ذُلِّ الهَوانِ
فلم أُطْمِعْهُ فيَّ وكَمْ قتيلٍ لهُ في الناسِ ما يُحصى وعانٍ[1]
طلبتُ أخاً صحيحَ الودِّ محضاً سليمَ الغَيْبِ مأمونَ اللسانِ
فلم أعرِفْ من الإخوانِ إلَّا نفاقاً في التباعدِ والتَّداني
وعالَمُ دهرِنا لا خيرَ فيه ترى صُوراً تروقُ بلا معاني
ووصفُ جميعِهم هذا فما إنْ أقولُ سوى فلانٍ أو فلانِ
ولمَّا لم أجِدْ حرًّا يواتي على ما نابَ من نوبِ الزمانِ
صبرتُ تكرُّماً لِقِراعِ دهري ولم أجزَعْ لما منهُ دهاني
ولم أكُ في الشدائدِ مستكيناً أقولُ لها ألا كُفِّي كفاني
ولكنِّي صليبُ العُودِ عَوْدٌ ربيطُ الجأشِ مجتمعُ الجَنانِ
أبيُّ النَّفسِ لا أختارُ رزقاً يجيءُ بغيرِ سيفي أو سناني
لَعِزٌّ في لظى باغيهِ يشوي ألذُّ من المذلَّةِ في الجنانِ

(١) العاني: الأسير. المعجم الوسيط (عني).

ومَنْ طلبَ المعالي وابتغاها أدارَ لها رحى الحربِ العوانِ[١]

وكان للخطيب شيءٌ من المال، فكتب إلى القائم بالله: إذا مِتُّ كان مالي لبيت المال، وأنا أستأذن أن أُفرِّقه على من شئت، فأذِنَ له، وكان مئتي دينار، ففرَّقه في أصحاب الحديث، ووقف كتبه على المسلمين، وسلَّمها إلى أبي الفضل بن خيرون، فكان يُعيرها، ثم صارت إلى ابنه الفضل، فاحترقت في داره.

قال ابن طاهر: جاء جماعةٌ من الحنابلة يوم الجمعة إلى حلقة الخطيب بجامع المنصور، فناولوا حدَثاً صبيح الوجه ديناراً، وقالوا له: قِفْ بإزائه ساعةً وناوِلْه هذه الرُّقعة. فناوله الصبيُّ إيَّاها، وإذا فيها: بحقِّ الذي أعزَّ المعتزلة بابن أبي دؤاد، والجهمية بجهم بن صفوان، والكرامية بابن كرام، وأعزَّ بك الأشاعرة، قل لنا: أيش مذهبك؟ وكان الخطيب في أول أمره يتنسَّك ويتَّبع السنة ولا يتعرَّض لغير الحديث، وكان الحنابلة تعتقد فيه، فلمَّا خالط المتكلمينَ وأهلَ البدع مالوا عليه، وكانوا يعطون السَّقاءَ قطعة يوم الجمعة، فكان يقف من بعيد بإزائه، ويُميل نصفَ القِرْبة وبين يديه أجزاء، فيبلُّ الجميع فتتلف، وكانوا يُطيِّنون عليه باب داره في الليل، فربما احتاج إلى الغُسل لصلاة الفجر فتفوتُه، وقد قدح في جماعة من الأئمة، فقال: كان مالكٌ قليلَ الحفظ، والحسنُ البصريُّ وابنُ سيرين يقولان بالقدر، ومالك بن دينار ضعيف، ولم يثبت من لسانه إلا القليل.

[وفيها تُوفِّي]

حسان بن سعيد[٢]

ابن حسان بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن مَنيع بن خالد بن عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد، المخزومي، أبو علي، [المَنيعي] من أهل مرو الرُّوذ، كان في أول عمره يتشاغل بالدهقنة وخدمة الملوك، ثم عنَّ له فانقطع إلى الله تعالى والعبادة وسماع

---

(١) الحرب العَوان: التي قوتل فيها مرةً بعد مرة. المعجم الوسيط (عون).

(٢) المنتظم ١٦/ ١٣٥، وتحرف في (م) اسم سعيد إلى: حسان. قلت: وتنتهي النسخة (ف) بعد الكلمة التالية.

الحديث والتقلُّل من الدنيا، فكان يصوم النهار ويقوم الليل، وبنى المساجد والقناطر والجوامع، وكانت الملوك تزوره وتتبرَّك به.

ووقع في بلده غلاءٌ، فكان ينصب القدور فلا يُمنَع من طعامه أحدٌ، ويتصدَّق في السر، ويكسو كلَّ سنة خلقاً كثيراً، ويزوِّج الأرامل واليتامى، ويمشي من بيته إلى المسجد، وكان بعيداً عن بيته، ويلبس الغليظ من الثياب، ويصلي على قطعة لبد، ويقعد على التراب، وأغنى فقراء مرو ونيسابور وبلده، وأنفق أمواله في أبواب البر، ومازال به التقلُّل والمجاهدة حتى مرض بنيسابور مرضاً شديداً، فحُمِل إلى مرو الرُّوذ، فتوفي بها.

[وفيها تُوفِّي]

علي بن [يوسف بن] عبد الله(١)

أبو الحسن، الجُويني، ويُعرف بشيخ الحجاز، كان زاهداً، عابداً، وهو عمُّ أبي المعالي المتكلم.

[وفيها توفِّيت]

كريمة بنت أحمد(٢)

ابن محمد بن أبي حاتم المروزية، من أهل كُشْميهَن، قرية من قرى مرو، وكانت عالمةً، فاضلةً، صالحةً، زاهدةً، عابدةً، قدمت مكة، فأقامت بها حتى ماتت.

[وفيها توفِّي]

محمد بن علي(٣)

ابن محمد بن حُباب، أبو عبد الله، [ويُعرف بابن الدُّرزي]، الصُّوري، الشاعر، كان فصيحاً، تُوفِّي بطرابلس وقد نَيَّف على السبعين، ومن شعره: [من مجزوء الكامل]

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣/ ٢٩٢، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المنتظم ١٦/ ١٣٥-١٣٦.

(٣) تاريخ دمشق١٤/ ٣٩١-٣٩٢.

صَـبٌّ جـفـاهُ حَـبـيـبُـهُ ... فـحـلا لـه تـعـذيـبُـهُ
فـالـنـارُ تُـضـرَمُ فـي الـجـوا ... نـحِ والـسَّـقـام(١) يُـذيـبُـهُ
حـتـى بـكـاهُ لِـمـا دهـا ... ه(٢) بـعـيـدُهُ وقـريـبُـهُ
وتـآمـروا فـي طِـبِّـهِ ... كـيـمـا يـخِـفَّ لـهـيـبُـهُ
[فـأتـى الـطـبـيـبَ ومـا دَرَوا ... أن الـطـبـيـبَ حـبـيـبُـهُ](٣)

محمد بن علي

ابن الحسن بن الدجاجي، أبو الغنائم، القاضي، سمع الكثير، وكان له مالٌ فافتقر، فجمع له المُحدِّثون شيئاً وأتوا به إليه، فقال: وافضيحتاه، آخذُ على حديث رسول الله ﷺ أجرة؟ لا واللهِ. وبكى ولم يقبله(٤)، وتوفِّي في سلخ شعبان، ودُفن بمقابر الخيزران يوم الجمعة غُرَّة رمضان، [سمع أبا طاهر المخلص وغيره]، وكان صحيح السماع صدوقاً، [وروى عنه مشايخ مشايخنا].

محمد بن وِشاح بن عبدالله(٥)

أبو علي، ولد سنة تسع وسبعين وثلاث مئة، وكان كاتباً لنقيب النقباء الكامل، كان فاضلاً، تُوفِّي في رجب عن أربع وثمانين سنة، ودُفِنَ عند جامع المنصور، ومن شعره: [من الطويل]

حملتُ العصا لا الضعفُ أوجَبَ حَمْلَها ... عـلـيَّ ولا أنِّـي تـحـنَّـيـتُ مـن كِـبَـرْ
ولـكـنَّـني ألـزمـتُ نـفـسي بـحـمـلِـهـا ... لِأُعـلِـمَـهـا أنَّ الـمـقـيـمَ عـلـى الـسَّـفـرْ

انتهى تاريخ الخطيب أبي بكر في هذه السنة، ومن السنة الرابعة والستين وأربع مئة ذيَّل عليه أبو سعيد عبد الكريم بن منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد السمعاني.

---

(١) في (م) و(م١): الغرام.
(٢) في (م): هواه.
(٣) في تاريخ دمشق وفيه: أنَّ الحبيبَ طبيبُهُ.
(٤) في (خ) و(ف): فلم يقدر! والمثبت من (م).
(٥) تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٦، والمنتظم ١٦/ ١٣٦.

السنة الرابعة والستون وأربع مئة

فيها استولى الناوكية الذين هربوا من ألب أرسلان إلى الشام، وكان أمير الجيوش بدر قد استمالهم، فجاؤوا فنزلوا الشام، وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر، ونهبوا الشام، وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكًّا، فقال: ما عندي مال، وما سلَّطتُكم على العرب إلَّا أنكم تقنعون بنهبهم، وما أقطعتكم من الشام. فقالوا: نحن أخذنا البلاد بسيوفنا. ثم جاؤوا فنزلوا طبرية، واقتسموا البلاد، وأخذوا غلالها، فراسل بدرٌ العربَ بالرجوع إلى الشام، وأنه معهم بنفسه وماله، فاجتمع من العرب خلقٌ عظيم، وقربوا من طبرية، وعرف الناوكية كثرتهم، فكرهوا لقاءهم، فساروا إليهم، فكبسوهم، وأسروا وقتلوا ما شاؤوا، وعادوا إلى طبرية، ونزلوا من بعد طرابلس، فراسلهم محمود بن الزَّوقلية بأن يعودوا إليه، وبذل لهم العطاء، فجاؤوه، وكان عمه عطية قد استنجد بطريق أنطاكية وبني كلاب على محمود، وقصد حلبَ، فنهب ظاهرها، وجاء الخبر بأسر ملك الروم، فعاد عسكر أنطاكية، وارتبط محمود من التركمان نحو ألف غلام، وسار الباقون إلى الشام، فنزلوا على حصن نعمان بالبلقاء، وفيه ذخائر العرب وأموالهم، وهو معقلهم، ولم يكن عليه لأحد طاعة، وهو عزُّ العرب، فاحتالوا عليه وملكوه، وملك التركمانُ الشام بأسره، وجاؤوا إلى الرملة وهي خراب ليس بها أحد، ولا لسوقها أبواب، فجلبوا إليها الفلاحين وعمروها، وضمنوا أجر السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين ألف دينار، وقرَّروا قسم البلاد على النصف، فقيل: إنهم باعوا من الزيتون في هذه الرُّقعة بثلاث مئة ألف دينار، وأعطوا التركمان منها ثلاثين ألف دينار، وأخذوا الباقي.

ذكر ما يتعلق بمصر:

اجتمعَ مَنْ بقي من المشارقة إلى القاهرة، وتولَّى ابنُ المغربي مكاتبةَ الأمير والأصحاب وإفسادَهم على ابن حمدان، وجمع الجموع، وتفلَّت من ابن حمدان كلُّ من كان يستعين به، وقوي أمر المستنصر، وضعُفَ أمرُ ابن حمدان، وكان مُقدَّم المشارقة يلدكور، ومضى ابن حمدان إلى الإسكندرية، وأخذ أهله وأمواله، ومضى

هارباً إلى العرب، فنزل عليهم، ثم أخذ لواتة وسِنْبِس وغيرهم من العرب، وقصد العسكر المصري، وطرح نفسه عليهم وقاتلهم، فهزموه، وقتلوا ممَّن كان معه ألوفاً. وقيل: كان ذلك سنة ثلاث وستين في شوال، فلما أيقن بالهلاك نشر شعر أخته وزوجته بين يدي العرب، فعادوا على المشارقة فهزموهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

ذكر ما جرى لملك الروم أرمانوس:

لمَّا جرى عليه ما جرى سبق خبرُه إلى القسطنطينية، فوثب ميخائيل على المملكة، وقبض على والدته زوجة أرمانوس، ولها منه ابنٌ وبنتٌ، فحلق رأسها، وألبسها الصوف، وأدخلها الدير، ووصل أرمانوس إلى دوقية، وحصل في قلعتها، وعرف الخبر، فلبس الصوف، وأظهر الزهد في الملك، وراسل ميخائيل يقول: قد فعلتُ في جميع العساكر وإنفاق الأموال والإعزاز لدين النصرانية ما فعلتُ، ولم آلُ جهداً، ولا غُلِبتُ من قوةٍ، ولا من ضعفٍ لرأي، وقد كان من قضاء الله وقدره في نصر الإسلام وأهله ما لا قدرة لأحد فيه، ولا في ردِّه ودفعه، ولمَّا حصلتُ في يد هذا الرجل تكرَّم الكرمَ الذي لم أظُنَّه، وقرَّر عليَّ مال الهدنة، ومَنَّ عليَّ وأطلقني، وصَعِدْتُ إلى الحصن زاهداً في الملك، ولبستُ الصوف، وحمدتُ الله إذ حصلتَ في المكان الذي أنت أحقُّ به من غيرك، ويجب عليَّ أن أُعرفك حال هذا السلطان وما فيه من الفضل والإحسان، فإن قبلتَ قولي كنتُ الواسطةَ بينكما في حفظ دين النصرانية، وإن خالفتَ فأنت أعلم، وتؤدِّي المال الذي قرَّره عليَّ، وتُخلِّص رقبتي من أمانة فيها. فأجابه باستصواب رأيه، واعتذر بأن الحروب أنفدت الأموال، وهو يحمل ما قرَّر عليه من مال فكاكه مع مال الهدنة أولاً أولاً إلى أن تُوفِّيه، فأنفذ أرمانوس إلى السلطان بذلك، وأنفذ أموالاً كانت في حصن دوقيه نحو مئتي ألف دينار، من جملتها طَسْتٌ وإبريق وطبق من ذهب مُرصَّع بالجواهر، تبلغ قيمته سبعين ألف دينار، وحلف بالإنجيل أنه ما أمكنه حمل أكثر من هذا، ولا امتدَّت يدُه إلى غيره، وأعطى الحاجِبَين اللَّذين سارا في خدمته والغلمان ما جازاهم به، واعتذر إليهم، ووصل ذلك إلى السلطان، وأجابه بما سأل، ورضي بتأخير المال مع مال الهدنة، ثم بعث ميخائيل بعد انفصال الغلمان عن أرمانوس إليه يقول: إن كنتَ قد ترهَّبت عن حقيقة فيجب أن تنتقل إلى بعض البِيَع

وتُخلِّي عن الحصن لأرتب فيه من يحفظه. فتنكر أرمانوس وقال: كأنه ما قنع لي بزوال الملك وحصولي في الحصن حتى ينافسني فيه، فرمى فيه بالصوف، واقترض أموال التجار الذين كانوا في الحصن، وجمع إليه عسكراً من الأرمن، وقصد سنحاريبَ ملكَ الأرمن، فبعث إليه يقول: إن كنتَ جئتني ضيفاً خدمتُك، أما محاربة ميخائيل فلا قدرة لي عليها. فقال: ما جئتُكَ إلا ضيفاً. فخرج إليه وتلقَّاه، وقبض عليه، وأخذ أمواله، وكانت ثمانين قنطاراً، وتقدَّم بسَمْلِهِ وحبْسِه، وكان مع أرمانوس ألوفٌ من الروم والأرمن، فاستخدمهم سنحاريب، وسار إلى قُونية والبلاد فملكها، واستولى على معظم الروم، وسار إلى ملطية فنزل عليها، وصادر أهلَها وأخذ أموالهم، وراسل السلطانَ، فوعد أن يُنجده بنفسه.

وفي صفر ورد رسولُ صاحب مكة بإقامة الدعوة العباسية بمكة والمدينة.

بعث الخليفةُ إلى السلطان الخِلعَ والهدايا، وكان السلطانُ قد سأل الخليفةَ أن يُزوِّج الأمير عُدَّةُ الدين من ابنته خاتون الشقيرية، فأجابه الخليفة، وكتب وكالة لعميد الدولة عن الأمير عُدَّةِ الدين.

وفي ربيع الأول ورد الوزير أبو العلاء من عند السلطان وعليه خِلَعٌ سلطانية، ولُقِّب وزيرُ الوزراء، ومعه توقيعٌ بنصف إقطاع الوزير ابن جَهير تنكُّراً من السلطان عليه، وأن يكون أبو العلاء نائباً ببغداد عن السلطان، وكان ذلك بتدبير نظام الملك، وبلغ الخليفة، فثقل عليه، ولم يأمر بتلقِّيه، فدخل وحده، وقبَّل عتبة باب النُّوبي وانصرف، ووصل بعده بثلاثة أيام سعد الدولة الكوهراني برسالة من السلطان في معنى فخر الدولة والعتب عليه، ويسأل الميل إلى أبي العلاء الوزير، والتقاه حاشية الخليفة والوزير، ونزل بباب النُّوبي، وقبَّل العتبة، وسأل الحضور فأُذِنَ له، فدخل معه الوزيرُ ابنُ جَهير [وكان معه رسالة لا يحضرها ابن جَهير، فلم يفعل الخليفة][1]، ودفع كتاب السلطان إلى الخليفة، ولم يؤدِّ الرسالة، وكتبها في ورقة وأعطاها الخليفة، فوقف الخليفةُ على المُلَطّف وقال: كذب كاتبُه، لعنه الله. وقيل: إنه يضمن أن الوزير ذكر السلطان بقُبح، ثم انصرف سعد الدولة، خرج توقيع الخليفة إليه: قد عرفنا ضيق صدر عضد الدولة بتأخير رسلنا إليه، وانتظارهم بالري الانتظار الذي ثَقُل عليه،

(١) مابين حاصرتين من (ب).

ونُسِبَ ذلك إلى الوزير بقول الأعداء والحُسَّاد، وواللهِ العظيم إن الأمر لم يجرِ على ذلك، ولا كان التأخُّر إلا بسبب ثوب نسيج يصلح للتشريف أبطأ الصُّنَّاعُ[١] في عمله، ويجب أن يكتب إليه ويُعلِمه حقيقة الحال؛ ليزول من خاطره ما خامر نفسَه، ما أوقعه فيه أعداء الوزير قبَّحهم الله تعالى.

وفي جمادى الآخرة خرج ابنُ أبي عمامة الواعظ يوماً، فرأى مغنِّيةً خارجةً من دور بعض الأتراك ومعها عود، فقطع أوتارَه، فعادت إلى التركي وشكَتْه، فأرسل غلمانه إلى داره، فهرب إلى الحريم، ودخل على ابن أبي موسى الهاشمي مُتقدِّم الحنابلة وشكا إليه، فقام ابنُ أبي موسى وجمع الحنابلة، وأدخلوا معهم أبا إسحاق الشيرازي وأصحابه، ودخلوا جامع القصر، واستغاثوا وطالبو بإزالة المنكرات وخراب المواخير، فتقدم الخليفةُ بتتبع الفواسد وإراقة الأنبذة ونحو ذلك، وطلبوا [صرْفَ سعد النجمي عن الحسبة، فصُرف، وطلبوا][٢] ضَرْب دراهمَ يتعامل بها الناس، فأرسل الخليفة يقول: ارجعوا إلى منازلكم، ونحنُ نُكاتب عضد الدولة بما سألتم، فلطم ابنُ أبي موسى رأسه وصاح: ليَبْكِ على الإسلام من كان باكياً، زالَت الرِّبقة[٣]، وبطلت طاعتُنا لهذا الإمام. وقام قاصٌّ يُعرف بابن أبي عفانة، فقال: يا معشر المسلمين، هذا الشريف يلطم وينوح على الإسلام فبادروا إليه، واجتمعوا عليه، فمن قائل: ليس هذا الإمام بخير من عثمان بن عفان. وآخر يقول: هذه الأموال التي في يده لنا. وآخر يقول: ماله في رقابنا بيعة، وأكثر من ذلك. وأمروا المكديين والغَوغاء أن يتحدَّثوا على الطرق بذلك وشاع، وانخرقت هيبةُ الخلافة[٤]، وكان الوزير يرى قمعهم بالهيبة، والخليفةُ يجري في ذلك على عادته في الصبر والرفق، ثم استدعى أبا إسحاق الشيرازي إلى باب العزبة وعَتَبه، فانصرف إلى داره، وتفرَّق جمعُه، وأما ابنُ أبي موسى وأصحابُه فأقاموا بالجامع، وقالوا: ما نبرح حتى يتمَّ الفعل، وإلا فهذا دفع. فغاظ الوزيرَ ذلك، وأرسل إلى سعد الدولة الكوهراني وقال: اقبِضْ على هؤلاء المفتنين. فقبض على بعضهم ونكَّل بهم،

(١) في (ب): السلطان.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) الرِّبقة؛ واحدة الرِّبْق، والرِّبْق: حبلٌ ذو عُرى. المعجم الوسيط (ربق) ويقال: خلع الربقة عن عنقه: نقضَ عهده. المحكم ١/ ٤٥.

(٤) في (ب) الثلاثة، والمثبت من (خ).

وتفرَّق الباقون، وبعث الوزير إلى الجامع فضرب مَنْ فيه بالدبابيس وأخرجهم، وأغلق أبواب الجامع، ورفع كراسيَّ القُصَّاص، فهربوا، وهُدِّد أبو إسحاق فخاف وعزم على الخروج إلى باب السلطان بخراسان، فأعاده الوزير إلى داره، وسكَّنه الخليفةُ، وأقام ابنُ أبي موسى في منزله لا يخرج منه، فلمَّا طال عليه الأمر عاد إلى عادته في التدريس، وقامت الهيبة، وفي هذا الوقت وقع الموت[1] في الدواب والغنم، فلم يبقَ منها شيء، ونام راعٍ في طريق خراسان عند القطيع، ثم انتبه فوجد الغنم موتى بأسرها، وكانت خمس مئة رأس، فأخذه سعد الدولة الكوهراني فصلبه برجله، وأضرم فيه النار وهو حيٌّ، فاحترق، فسُمِّي[2] سعدُ الدولة الشَّوَّاءَ، وقامت له هيبةٌ لم تقُمْ لغيره.

وفي هذا الوقت قدمت فاخرة بنت نور الدولة بن مَزْيَد بغداد، فطرحَتْ نفسَها في دار الخلافة مستجيرةً من مسلم بن قريش، فإنه كان قبض على أخيه إبراهيم زوجِها، فبعث الخليفة إليه رسولاً في معناه، فقال: هذا الغلام سعى في دمي، وفعل ما يقتضي الاستظهار عليه، وأنا نازلٌ إلى الباب العزيز، وذاكرٌ أفعالَه معي، فإذا أمرتَ بعد ذلك بأمر امتثلته. وخرجت فاخِرةُ[3] إلى نور الدولة أبيها، ومطر العراق مطراً فيه برَدٌ وبندقُ طين، مثلُ بيض العصفور، له رائحة طيبة.

وفي شعبان أخذ أصحاب السلطان الأنبار من مسلم بن قريش؛ لأنَّ السلطان تنكَّر له وأخذ منه حربى فأعطاها لخاتون زوجة الخليفة، وكتب بإدخال اليد في هِيت وعانة والسن والبَوازيج[4] وأعمال الموصل ممَّا كان في يد مسلم، وأن يبقى في يده ما كان في زمن أبيه أيام ركن الدين طُغْرُلبَك.

وفيها عقد للأمير عدة الدين على ابنة السلطان ألب أرسلان بنيسابور، وجلس السلطان على سرير الملك ونظام الملك بين يديه قائم، وحضر عميد الدولة وكيلاً عن عُدَّةِ الدين، ووضع له كرسيَّ فضة فجلس عليه، وحضر الملوك والأمراء والرسل على

---

(١) في (م): الموتان.

(٢) بعدها في (م) زيادة كلمة: للصوص.

(٣) في (خ): إمارة.

(٤) البوازيج: بلدة قربَ تكريت من أعمال الموصل. معجم البلدان ١/ ٣٦٦ .

اختلاف طبقاتهم، وكان نظام الملك وكيلاً عن السلطان، وقال السلطان للقُضاة والعدول: اشهدوا أني قد وكلت الحسن الطوسي في هذه الوصلة. وقال عميد الدولة: وأعلموني بذلك. فقلت: الآن قد قبلتُ هذا النكاح، ورضيتُ به عن الأمير عدة الدين موكِّلي، لمَّا تواصلت رغبات[١] السلطان إلى أمير المؤمنين في هذا الأمر، فرأى أن يُشَرِّفَه بإيصال حبل النبوة بحبله، وأخذ السلطان من جانبه طبقاً فيه حبٌّ منظوم، ومن جانبه الآخر كذلك، فنثرهما على الناس، ثم أخرج من بَنْد قَبائه ثلاث سبانج[٢] فيها جواهر، فرمى بها إلى عميد الدولة، وقال: هذه برسمك لمَّا لم يمدَّ يدَه إلى الحب، فأقام عميد الملك فقبله وقال: قد قبلتُه، وأُحبُّ أن أُضيفه إلى هذا النثار فنثر. فقال عميد الدولة: وقُمْنا ويدي في يد نظام الملك، فلمَّا بَعُدْنا عن عين السلطان قبَّل رأسي وقال: لو جاز أن تستحيي يوماً من الأيام لاستحييتَ مني اليوم يا هذا، ألم أسألك أن تتحمل وتجعل الرغبة منك إلى السلطان في ابنته فلم تقبل؟ وكان قد قرَّر معي هذا فقلت: أنت الذي رغبت وطلبت. قال: ثم أحضرني السلطان وهو في حجرة وحده، ودخل معي نظام الملك، وإذا بين يديه أطباق ذهب فيها سُكَّر، وعلى كلِّ طبق قرطاس كبير فيه جوهر ـ على عادتهم ـ ودنانير، وقال: احملوها معه، فما أمكن مخالفته. فلمَّا خرجتُ وقفتُ على باب الحجرة فرَّقتُها على الحاضرين، ونثرتُ من عندي ذهباً وثياباً تبلغ قيمتُه ألف دينار وسبع مئة دينار.

وفي هذا الوقت عاد التركمان الناوكية من الرملة إلى دمشق وحصروها، وأخربوا الضياع، وكان بها ابن منزو الكتامي ضامنُها، فصالحهم على خمسين ألف دينار، وأعطاهم ثلاثة وعشرين ألفاً، وسلَّم أخاه رهينةً على باقيها، ورحلوا إلى عكا، فنهبت التركمان وبها بدر الجمالي، فحصروه، وكان متقدِّمُهم يقال له: قزلي، فسكن إليه جماعةٌ من بني كلب وأمرائهم من بني القرمطي، وخالطوه وقاربوه، واتفق أن قزلي مات على حصار عكا، فنهبت التركمان مَنْ قرُبَ منهم من العرب، وأجفل الباقون، وسار قريب لقزلي من الرملة إلى عكا وحصرها، وأخرب سوادَها وسوادَ صور

(١) في (خ): رعايات، والمثبت من (ب).

(٢) سبانج، جمع سبنجونة: وهي فروة من جلد الثعالب. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٨٤ .

وغيرها، وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر، فما كان يبالي في الحصار، فلمَّا يئسوا منه ساروا إلى مصر، ووصلوا بِلْبيس، وشنُّوا الغارات على أعمال مصر، فلم يجدوا ما يأكلون ولا ما تأكل خيلُهم، فعادوا. وقيل: إن جماعة منهم وصلوا إلى وادي القرى وتيماء، ووصل منهم سبعة عشر غلاماً إلى المدينة، وزاروا[١] قبرَ النبي ﷺ.

وفي ذي الحجة ورد رجلٌ من مصر ذُكِرَ أنه خرج منها في شعبان، وصاحبُها قد قبع بالقاهرة ومعه يلدكور في نحو خمس مئة غلام من المشارقة، وألفي رجل من السودان، وهو منهمك على الشرب، فإذا قيل له: ذهبت البلاد والدولة والأموال، يقول: أمسِكوا عن هذا، فإن عندي كتب ملاحم بجميع ما يجري، وإنَّ كلَّ ما خرج عن يدي يرجع إليها.

وقصد ابنُ حمدان مصر، واستقرَّ أن يكون هو الناظر في البلاد من غير تعرُّض للدولة ولا معارضة، فأقام أياماً على ذلك، ثم ارتاب بأسد الدولة يلدكور وحذَّره، فخرج من القاهرة كالمُجفل، ومضى عسكرُه إلى مصر فنهبوها.

وفيها بعث الخليفةُ أبا طالب الحسن بن محمد أخا طرَّاد الزينبي إلى محمد بن أبي هاشم أمير مكة بمال وخِلَع، وقال له: غَيِّر في الأذان "حيَّ على خير العمل" فامتنع، فناظره مناظرة طويلة، فقال له ابن أبي هاشم: قد أذَّن [عليٌّ] أميرُ المؤمنين بهذا؟ فقال أخو النقيب: ما صحَّ عنه، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب رُويَ عنه أنه أذَّن به في بعض أسفاره، وما أنت وابن عمر، فأُسقِطَ من الأذان.

وفيها تُوفِّي

سعيد بن نصر الدولة

ابن مروان، كان بآمِد، ولمَّا اجتاز نظام الملك بها خرج إليه فقيَّده وبعث به إلى الهياج، وكان أخوه نظام الملك قد أعطى نظام الدين[٢] مالاً حتى نصره عليه، فكتب سعيد إلى أخيه يستعطفه ويُرقِّقه ويحلف له، فاستدعاه إلى ميَّافارقين، وأحسنَ إليه

(١) في (خ): ورأوا، والمثبت من (ب).

(٢) في (ب): نظام الملك، والمثبت من (خ).

وأطلقه، وكان ينادمه ويشربان وينامان[١]، فجاء خادم له في بعض الليالي فقال: قد أمكنتكَ الفرصةُ من أخيك نظام الدين، هو نائمٌ سكران، قُمْ فاقْتُلْه، وخُذِ البلاد، واسم الخادم فرُّوخ، فقال له: ويلكَ يكون أخي ابن عجب، وأنا ابن الفضلونية [وأغدر به، لا واللهِ لا كان ذلك أبداً، والفضلونية][٢] بنت فضلون بن منوجهر صاحب أرَّان وأرمينية، وعجب جارية، ثم انتبه نظام الدين وتحادثا، وأقطعه آمِد، فأُخرجَ وأقام بها، وندم نظام الدين على تسليم آمِد إليه، فاستدعى جاريةً وواعدها على قتله لِما يُذكر إن شاء الله تعالى.

وذُكِرَ في «تاريخ ميَّافارقين» أن السلطان لمَّا اجتاز بديار بكر يريد منازكَرد لقتال ملك الروم خرج إليه أبو الحسن سعيد بن مروان وخدمه، وكان مستوحشاً من أخيه نظام الدين، فلمَّا وصل السلطان إلى ميَّافارقين خاف منه نظام الدين، فدخل إليه نظام الملك إلى القصر، فسأله عن أخيه سعيد، فأخبره أنه قد التجأ إلى السلطان، وفي نفس السلطان أن ينصره، وقدَّم لنظام الملك من الجواهر والأموال والتُّحف شيئاً كثيراً، وخرج أخواتُ نظام الدين وبناتُه وزوجتُه، فمسكوا بذيل نظام الملك وقالوا: قد استجرنا بالله وبك. فقال: واللهِ لأُخرجَنَّه من عندكم أميراً، ولأُعيدنَّه سلطاناً. ثم خرج نظام الدين مع نظام الملك إلى السلطان، وقدَّم له من الأموال والجواهر ما ملأ عينه، فقال له نظام الملك: إن الحريم قد تمسكن بي في عوده إليهم كما تريد، فقال السلطان: قد حلفتُ لأخيه سعيد، فقال: دعني وإيَّاه. وركب السلطان إلى الصيد، وبعث نظام الملك إلى سعيد فقيَّده وحمله على بغل إلى الهياج، فاعتقل فيه، وعاد السلطان من الصيد، فخلع على نظام الدين خلع السلطنة، وردَّه إلى ميَّافارقين، وقال له نظام الملك: ضمنتُ لأهلك أني أُعيدك إليهم سلطاناً، وما لنا غير سلطان واحد، ولكن أنت سلطان الأمراء. ولقَّبه بذلك، وعاد إلى ميَّافارقين، ومضى السلطان، وطالت مدة سعيد في الحبس، فكتب إلى أخيه نظام الدين يستعطفه، فأطلقه كما

(١) في (خ): ويناد‌مان، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

ذكرنا، وأعطاه آمِد، ثم ندم، فاستدعى جاريةً حسناء ودفع إليها منديلاً وقال: إذا كان أخي معك في ذلك الوقت فادفعي إليه هذا المنديل، ووعدها أن يتزوجها، وبعث بها إلى سعيد، فشغف بها شغفاً عظيماً، فلمَّا كان معها في بعض الليالي ناولَتْه المنديل، فمسح به مذاكيره، فسقطت ومات، وعادت آمِدُ إلى نظام الدين، ولم يبقَ له منازع، وحصل أخوتُه وبنو عمه تحت حكمه.

عبد الله بن محمد

ابن عثمان بن الحسين بن قندس، أبو طالب، القاضي، أمين الدولة، الحاكم على طرابلس والمتولِّي عليها، كان عظيمَ الصدقة، كثيرَ المراعاة للعلويين، تفرَّد بذلك في زمانه، ولم يُدانيه أحدٌ من أقرانه، توفي في النصف من رجب، وتولَّى مكانه أبو الحسن ابن أحمد الملقب بجلال الملك، ورمَّ البلد أحسن رَمّ.

وبلغه عن قوم من العلويين وابن الماسكي أحد وزراء المصريين، وكان قد هرب إلى طرابلس [أنهم][1] قد حالفوا أبا الفتح عمَّه عليه، فنفاهم ونفى عمه، وقد مدحه أبو الفتيان القاضي بن عثمان، ورثاه وعزَّى جلال الملك فقال: [من الكامل]

ذُدْ بالعَزاءِ الهَمَّ في طَلِباتِهِ ... لا تُسخِطَنَّ اللهَ في مَرضاتِهِ
لكَ مِن سَدادِكَ مُخبِرٌ بَلْ مُذكِرٌ ... أنَّ الزَمانَ جَرى على عاداتِهِ
صَدَعَ القُلوبَ بما أتى مُستَيقناً ... أن لا يُذَمَّ وَأنتَ مِنْ حَسَناتِهِ
فَبَكاهُ ثَغرٌ كانَ عِصمَةَ أهلِهِ ... ومَعاذَ قاصِدِهِ وعِزَّ وُلاتِهِ
أجناهُ رَبُّ العَرشِ غَرسَ فَعالِهِ ... وقضى لهُ بالخُلدِ في جَنَّاتِهِ
صبراً جلالَ الملكِ تحمَدُ غِبَّ ما ... خُوِّلتَهُ فالصبرُ من آلاتِهِ
لا تُشعِرَنَّ الدهرَ أنَّكَ جازِعٌ ... من فِعلِهِ فيَلَجَّ في غَدراتِهِ
فلأنتَ مَجدُ مُلوكِ دهرِكَ فَليَعُدْ ... عن قولِهِ من قالَ مَجدُ قضاتِهِ
ولقَد عَلِمنا أنَّ بَينَكُمُ الَّذي ... لا تَرحَلُ العَلياءُ عن حُجُراتِهِ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

وافـاكَ مِـنّـي ذا الـكـلامُ مُـعَـزِّيـاً ... بـل راغـبـاً فـي الـصَّـفـحِ عـن زلّاتِـهِ
قـولٌ أتـى عـن عِـلَّـةٍ وفـجـيـعـةٍ ... فـاقـبَـلْـهُ مـسـتـوراً عـلـى عِـلَّاتِـهِ

من أبيات

وكان أمين الدولة سخياً، شجاعاً، [حكيماً][(١)] حليماً.

عَتيق بن علي بن داود[(٢)]

أبو بكر، الصِّقِلِّي، الزاهد، صنَّف كتاباً في الزهد سمَّاه «دليل القاصدين» في اثني عشر مجلداً، وكان سيداً فاضلاً ثقة.

محمد بن أحمد[(٣)]

ابن محمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، أبو الحسين، الهاشمي، خطيب جامع المنصور ببغداد، ولد سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، وقرأ القرآن، وسمع الحديث الكثير، وشهد عند القضاة فقبلوا شهادته، وكان يلبس القلانس الطِّوال، وتسمى الدنيات، وتُوفِّي يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى، وصلَّى عليه النقيب أبو الفوارس في جامع المنصور، ودُفِنَ قريباً من بشر الحافي، وكان صالحاً صدوقاً ثقةً.

السنة الخامسة والستون وأربع مئة

في المُحرَّم قتلَ مسلم بن قريش أبا جابر بن صقلاب كاتِبَه خنقاً بين يديه وشروين الحاجب، ورمى بهما في بئر، وكان قد اطَّلع لهما على مكاتبات إلى السلطان في حقِّه، وأنه يقبض عليه، ويقيم شروين وشحنة من أصحاب السلطان مقامه؛ وأنه يجمع المال، ويطرد العرب عن العراق.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) تحرَّف في (خ) اسمُ صاحب الترجمة من: عتيق، إلى: ميسور، وفي (ب) والنجوم الزاهرة ٥/ ٩٠ إلى: عيسون، والتصويب من تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٩٧ ـ والترجمة فيه ـ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩٤، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٢٠٩.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٥٦، والمنتظم ١٦/ ١٤١-١٤٢.

وقيل: إنما كتب إلى السلطان بجهل مسلم وحُمقه، وفساد عقله، وسوء تدبيره، وإيحاشه العشيرة والحواشي وإبعادهم، ولمَّا قبض مسلم على أخيه إبراهيم واعتقله في قلعة سنجار، وأراد التوجُّه إلى باب السلطان، استحضر المستحفظ بإبراهيم ووصَّاه، فترك ابنُ صقلاب يدَه على فَخذِ مسلم، وقال للمستحفظ: إن جاءك رأس هذا الأمير فلا تُفرِجْ عن إبراهيم حتى تراني. ولمَّا انقضى المجلس دخل المستحفظ على مسلم وقال: أيها الأمير، قد سمعتَ ما قال فلان، فأيُّ شيءٍ ترسم أنت؟ فقال: هذا رجل أحمق جاهل لا تلتفِتْ إلى قوله، واحفظ إبراهيم إلى أن أعود من خراسان، فإن هلكتُ أو اعتُقِلتُ فالأمير بعدي إبراهيم، وأطلِقْه ولا تنتظِرْ به شيئاً.

وفيها كانت تَوبَةُ أبي الوفاء بن عقيل، وكان قد قرأ على ابن الفراء وبرع، وكان فيه ذكاء وحِدَّة وجرأة، فقصد ابن الوليد المعتزلي سرًّا، وقرأ عليه الكلام ومذهب الاعتزال ومذهب الأوائل، واعتلَّ، فأودع كتبه وقال: إن أنا مِتُّ فأحرِقوها بعدي. فوقف المُودع فرأى فيها تعظيمَ المعتزلة والترحُّم على الحلَّاج، وأشياءَ تخالف الدين، وأنه يجوز أن يكون لله ولد على وجه التحنُّن والتعطُّف والشفقة والتربية، وما أشبه ذلك، فحمل الكتب إلى ابن أبي موسى إمام الحنابلة، فطلبوه ليقتلوه، فهرب إلى الحريم الخليفتي، وشرع في استِسْلالِ سخائم الحنابلة، فاستتبَّ له ذلك واستتيب، وأخذ خطُّه، وأشهد عليه، وأقرَّ في الديوان بما كتبه على نفسه، وانصلحت الحال، ولم يحضر ابنُ أبي موسى الديوان لأجل التكبُّر عليه للأمر الذي جرى منه لأجل المواخير، وانصرف ابنُ عقيل من الديوان إلى ابن أبي موسى بدرب الدوابِّ فصالحه، وتقدَّم ابنُ أبي موسى إلى معالي الذي أودعه ابنُ عقيل كُتبَه بأن يُسلِّمها إليه، فسلَّمها إليه، فغسلها، وقيل: إنه لم يغسلها، وطهرت بعد موته، وكان الوزير ابنُ جَهير يتعصَّب له، ولولا ذلك لقُتِل، ونسخة ما كتب به خطه:

بسم الله الرحمن الرحيم، يقول علي بن عقيل بن محمد: إنَّني أبرأُ إلى الله من مذهب المبتدعة للاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه وتعظيم أصحابه، والترحُّم على أسلافهم، والتكثُّر بأخلاقهم، وما كُتِبَ علَّقتُه ووُجد بخطي من مذاهبهم وضلالاتهم،

فأنا بريءٌ منه، تائبٌ إلى الله تعالى ممَّا كتبتُه، وإنَّه لا يحِلُّ كتابتُه، ولا قراءتُه، ولا اعتقادُه، وإنني علقتُ مسألة الليل في جملة ذلك، وإن قوماً قالوا: هو أجسام سود، وقلت: الصحائح ما سمعته من الشيخ أبي علي - يعني ابن الوليد - وأنه قال: هو عدم، ولا يُسمَّى جسماً ولا شيئاً أصلاً، واعتقدتُ أنا ذلك، وأنا تائبٌ إلى الله تعالى منه، واعتقدتُ في الحلَّاج أنه من أهل الدين والزهد والكرامات، وصنَّفتُ في ذلك جزءاً نصرتُه فيه، وأنا تائبٌ إلى الله منه، وأنه قُتِلَ بإجماع فقهاء عصره، وأصابوا في ذلك، وأخطأ هو، ومع ذلك فإنني أستغفر الله تعالى منه وأتوب إليه من مخالطة المبتدعة ومكاثرتهم والتعظيم لهم؛ فإن ذلك كُلَّه حرام، ولا يحِلُّ لمسلم فِعْلُه؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عظَّم صاحبَ بدعةٍ فقد أعان على هدمِ الإسلام»[١].

وقد كان الشريف أبو جعفر ومن معه من الشيوخ والأتباع سادتي وإخواني - حرسهم الله تعالى - مصيبين في الإنكار عليَّ لما شاهدوه في الكتب التي أبرأُ إلى الله منها وهي بخطي، وإنَّني مخطئٌ غيرُ مصيب، ومتى حفظ علي ما ينافي هذا الخط وهذا الإقرار فلإمام المسلمين مكافأتي على ذلك بما يوجبه الشرع من ردعٍ ونكالٍ وإبعادٍ وغيرِ ذلك، وأشهدتُ اللهَ تعالى وملائكته وأولو العلم على ذلك، غير مُجبَر ولا مُكْرَه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] وكتب في يوم الأربعاء عاشر المُحرَّم سنة خمس وستين وأربع مئة[٢].

وفيها قُتِلَ السلطان ألب أرسلان، وأُقيم ولدُه ملك شاه مَقامَه، وكانت وفاته في ربيع الأول، واشتغل ولده بما طرأ عليه من الحوادث، فلما كان يوم الخميس ثامن رجب وردت كتبه إلى الخليفة في إقامة الخطبة له، فأُقيمت على المنابر.

وفي سلخ رجب خرجت خاتون زوجة الخليفة إلى الري، وشيَّعها عميد الدولة ابن الوزير والخدم إلى النهروان.

---

(١) أخرجه الآجُري في الشريعة (١٩٦٩) من حديث عائشة ﵂، والشاشي في مسنده (١٣٢٦) من حديث معاذ بن جبل ﵁.
(٢) الخبر في المنتظم ١٦/ ١٤٣-١٤٤ .

وفي شعبان ورد كتاب [نظام الملك إلى الوزير ابن جَهير بوقعةٍ كانت بين][١] السلطان ملك شاه وعمه أبي الحارث قاروت بك بأعمال هَمَذان يوم الأربعاء سادس شعبان، وأُسِرَ قاروت بك وأولادُه سلطان شاه وغيرهُ.

ذكر السبب:

لمَّا توفي السلطان كان أخوه قاروت بك بكرمان سار إليها من عمان، فحمل على نفسه وخاطر بها، وركب في البحر في الشتاء، وخاف [من أن يسبقه إلى الري] وظَنَّ أنَّ العسكر تستأمن إليه، وعزم على نزوله على التركمان، وكانوا بين الري وهَمَذان، وكان معه عسكر يسير ألفا فارس وأربعة آلاف راجل، وبلغ السلطان ونظام الملك فأخذا من قلعة الري خمس مئة ألف دينار وخمسة آلاف ثوب وسلاحاً، وخرجا من الريِّ، فسبقاه إلى التركمان، وفرَّقا الأموال فيهم، ووصل قاروت بك بعدها بيومين، وقد فاته ما حسبه في التركمان، وكان مع ملك شاه عسكر كبير من التركمان والعرب والأكراد والغلمان، واقتتلوا، فحمل قاروت بك على الميمنة فطحنها، واستأمن أكثرُ أهلها إليه، ثم حمل على المسيرة فكسرها والسلطان والنظام في القلب، فحملا عليه، فاندقَّ هارباً، وأسر سلطان شاه إسحاق وأخويه وأولاد قاروت بك، فلمَّا كان من الغد جاء سواديٌّ فقال للسلطان: عمُّكَ في القرية الفلانية مع ولدٍ له، فابعث معي من يأخذه. فسار السلطان بنفسه، وقدَّم بين يديه جماعةً من خواصِّه، فأخذه ساوتكين، وحُمِلَ إلى خيمة وقُيِّد.

وقيل: إنهم لمَّا جاؤوا به ركب السلطان ووقف، وجيء به إليه ماشياً، فأومأ إلى الأرض، وقبَّل يد السلطان، فقال له: يا عم، كيف أنتَ من بَغْيِك؟! أما تستحيي من هذا الفعل؟ أنت ما قعدت لأخيك في عزاء، ولم تنفذ إلى قبره ثوباً تطرحه عليه، والغرباء قد حزنوا عليه، وأنت أخوه اطَّرحتَ وصيتَه، وأظهرتَ الشماتةَ [به] ، والسرورَ بموته، لكن لقَّاكَ اللهُ سوءَ فعلك. فقال: واللهِ ما أردتُ قصدَك، ولكنَّ عسكرك[٢] كاتبوني ليلاً ونهاراً بالتعجيل، فجئتُ لأمرٍ قضاهُ الله تعالى وأرادهُ فيَّ.

---

(١) مابين حاصرتين هنا وفي المواضع الثلاثة الآتية من (ب).

(٢) في (خ): عشيرتك، والمثبت من (ب).

وحُمِلَ إلى هَمَذان مُقيَّداً؛ خوفاً لا يتمُّ في العسكر بسببه أمر، فلمَّا كان يوم الأربعاء ثالث شعبان قُتِلَ، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم إن العسكر بسطوا ألسنتهم في نظام الملك، ومدُّوا أيديهم إلى الأعمال، فقال للسلطان: قد فسد الأمر، فإمَّا [أن] تُدبِّره أنت أو أنا. فقال: لا، بل أنت من غير أن أعترض(١) عليك. وحلف له، وخلع عليه خِلَع الملك، وأعطاه الخيل بمراكب الذهب، ودَواةً فيها ألف دينار، وعلماً على رأسه طلعةٌ فيها ألف دينار، ووقع له ببلدة طوس، ولقَّبه أتابك، ومعناه: الأمير الوالد، فشرع في تقرُّر الأمور، وظهر منه من الشجاعة والشهامة والصبر والمداراة والاحتمال ما لم يظنَّ به، حتى إنَّ المرأةَ الضعيفةَ كانت تقف له فيقف لها ويخاطبها، وجاءت امرأةٌ يوماً إلى حاجب له برقعة فلم يرفعها إليه، فقال له: إنما استخدمتُكَ لأجل الشيخ الضعيف، والمرأة الضعيفة اللَّذين لم يصِلا إليَّ، فإذا كنتَ لا توصلُ إليَّ أمرَهما فلا حاجة لي إليك.

وكان إذا خرج العسكر نادى مناديه: من أخذ علاقةَ تبنٍ أو بيضةً بغير ثمنها كان دمُه في مقابلها.

وفي يوم الجمعة مستهلَّ شعبان قتل أسدُ الدولة يلدِكز ناصرُ الدولة ابنَ حمدان وأخوتَه؛ فخر العرب، وتاج المعالي، ومحمود بن ذبيان أمير بني سِنْبس، والأمير شاور ابن أخي ابن المدبر كاتب ابن حمدان، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي شعبان خلع السلطان على نظام الملك فَرَجيةً طميم، وعمامةً بُنيةً مُذْهَبة، وأعطاه علماً، ودَواةً، وعشرين ألف دينار، ومئةَ ثوب ديباج أطلس، وخيمةً كبيرةً، وقلعةً من قلاع خراسان مضافاً إلى طوس.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن الحسن

ابن عبد الودود بن المهتدي بالله، سمع الحديث، وكان فاضلاً صدوقاً ثقة، تُوفِّي ببغداد يوم الأربعاء رابع عشر شوال(٢).

---

(١) في (خ): أتعرَّض، والمثبت من (ب).

(٢) المنتظم ١٦/ ١٤٧.

[وفيها توفِّي

الحسن بن الحسين بن حمدان[١]

أبو محمد، الثعالبي، الأمير، ناصر الدولة، ذو المجدين، قد ذُكِرَ تنقُّلُ الزمانِ به، وآل أمره إلى أن اتفق مع يلدِكز التركي، وزوَّجَه يلدِكز ابنته، ولقَّبَ ابنُ حمدان نفسَه سلطان الجيوش، واتَّفقا اتفاقاً كلياً، وتحالفا، وأمِنَ أحدُهما إلى الآخر، ودخل ناصر الدولة إلى مصر، وكانا يتزاوران، فاتَّفق أنَّ ابنَ حمدان خرج يوماً إلى أعمال مصر على طمأنينة مرتباً للمراكب والعساكر، فركب يلدِكز يوم الجمعة مُستهلَّ رمضان في خمسين فارساً، وكان له غلام يقال له: أبو منصور كُمْشتِكين، ويلقب حسام الدولة، وكان يثِقُ به، فقال له: أريد أن أُطلعك على أمر لم أرَ له أهلاً غيرك. قال: وما هو؟ قال: قد علمتَ ما فعل ابنُ حمدان بالمسلمين من سفك الدماء والغلاء والجلاء، وقد عزمتُ على قتله، فهل فيك موافقة ومشاركة وأريح الإسلام منه؟ فقال: نعم، ولكن أخاف أن يفلت فتتبرَّأ مني. قال: لا. وقصدوا ابنَ حمدان قبل أن يلحقه أصحابه، واستأذنوا عليه فأذِنَ لهم، فدخلوا والفرَّاشون ينفضون البسط ليقعد عليها وهو يتمشَّى في صحن الدار، ومشى يلدكز معه، ثم تأخَّر عنه وضربه بيافروت[٢] كان معه في خاصرته، وضربه كُمُشْتِكين فقطع رجليه، فصاح: فعلتموها. فحزُّوا رأسَه، وكان محمود بن ذبيان أمير بني سِنْبِس في خزانة الشراب، فدخلوا فقتلوه، ثم خرجوا[٣] إلى دار فيها فخر العرب بن حمدان قد شرب دواءً وعنده الأمير شاور، فقتلوهما وخرجوا إلى خيمة تاج المعالي بن حمدان أخي ناصر الدولة، وكان على عزم المسير إلى الصعيد، فهرب إلى خراب مقارب بخيمته فكمَن فيه، فرآه بعض العبيد فأعطاه معضدة فيها مئة دينار، وقال: اكتم عليَّ، فأخذها وجاء إلى يلدكْز فنَمَّ عليه، فدخل فقتله، وانهزم ابنُ أخي [ابن][٤] المدبر في زي المكديين، فأخذ وكان قد تزوَّج إحدى بنات

---

(١) المنتظم ١٦/٢٤٩ .

(٢) اليافروت: سكين مغربي. النجوم الزاهرة ٥/ ٢١ .

(٣) في (ب): عرجوا.

(٤) مابين حاصرتين من (ب).

نزار ولد صاحب مصر، فقطع ذكره وتركه في فمه، ثم قتل وقطَّع ابنَ حمدان قِطَعاً، وأنفذ كلَّ قطعة إلى بلد من بلاد الشام وغيرها، وجاؤوا إلى القصر ومعهم الرؤوس، وراسلوا الخليفة، وقالوا: قد قتلنا عدوَّك وعدوَّنا، من أخرب البلاد، وقتل العباد، وهدم مجدك، ونريد الأموال. فقال: أما المال فما ترك ابنُ حمدان عندي مالاً، وأما ابنُ حمدان فما كان عدوِّي، وإنما كانت الشحناء بينك وبينه يا يلدكز، فملكت الدنيا بينكما، وإني ما اخترتُ ما فعلته من قتله ولا رضيتُه، وستعلم غِبَّ الغدر ونقض العهد.

ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر قطع مرجان وعروضاً، وحمل إليهم مالاً، ولم ينتطِحْ في ذلك غزالان[1]، وزالت أيامُ ابن حمدان، وانقضَتْ كأن لم تكن، وكان جواداً ممدَّحاً، مدحه أبو الفتيان محمد بن حيُّوس بقصائد منها: [من الكامل]

محضُ الإباء وسؤددُ الآباءِ ... جَعَلاكَ منفرداً عن الأكفاءِ
ولقد جمعتَ حميةً وتقيةً ... ثَنَتا إليك عِنانَ كلِّ ثناءِ
الدهرُ في أيام عزِّكَ لا انقضَتْ ... متعوِّذٌ[2] من ظلمةٍ بضياءِ
حُطْتَ الرعيةَ بالرعايةِ رأفةً ... فاضَتْ على القُرباءِ والبُعداءِ
وشَمَلْتَها بالعدلِ إحساناً بها ... فجزاكَ عنها اللهُ خيرَ جزاءِ
وإذا مَرَرْتَ على مكانٍ مُجدبٍ ... نابَتْ يداك لهُ عنِ الأنواءِ
كَم أزمَةٍ سوداءَ عزَّتْ إذ عَرَتْ ... جلَّيتَها بِنَدى يدٍ بيضاءِ
وكتيبةٍ شَهباءَ مِن ماذِيِّها ... لاقيتَها بمَنيَّةٍ دَهماءِ
تلقى الفوارسُ مِنكَ في رَهجِ الوغى ... زيدَ الفوارِسِ أو أبا الصهباءِ
إنَّ الأئمَّةَ باصطفائِكَ أُيِّدوا ... بموائدِ الراياتِ والآراءِ
وَجَدوكَ في حفظِ التُّراث وَجمعهِ ... أقوى الحُماةِ وأوثَقَ الأُمَناءِ
مازلتَ إذ علَّوا مَكانَكَ مازِجاً ... صِدقَ الولاءِ لَهُم بِحُسنِ وَفاءِ
لو كُنتَ قِدْماً سيفَهم لم يَسْتَثِرْ ... أبناءُ هندٍ من بني الزَّهراءِ
أو كنتَ ناصِرَ حَقِّهم فيما مضى ... ما حازَهُ ظُلماً بنو الطُّلقاءِ

(١) في (ب): عنزان.

(٢) في (خ): متعوِّض، والمثبت من (ب).

ولآل حمدانَ الفخارُ بأسرِهِ وأجلُّهُ لبني أبي الهيجاءِ
الفائضينَ على العُفاةِ نوالَهُمْ والناهضينَ بناهضِ الأعباءِ
وعَلَوتُمُ حتَّى لَقالَ عدوُّكمْ أَمُلوكُ أرضٍ أم نجومُ سماءِ
فلتفتخِرْ بكمُ ربيعةُ بل بنو عدنانَ طُرًّا بل بنو حوَّاءِ
إنَّ المحامدَ في المحافلِ رتبةٌ ما حُرِّمَتْ إلَّا على البخلاءِ
فتمَلَّ من وشيِ القريضِ مَلابِساً طرَّزْتَها بجلالةٍ وعلاءِ
لو كان للعربِ القديمةِ مثلُها لم تحمدِ المصنوعَ في صنعاءِ
إنِّي عقلتُ ركائبي ووسائلي في حضرةٍ مسكونةِ الأفناءِ
مأهولةِ الأرجاءِ بالنِّعَمِ التي ما كُدِّرَتْ بالمنِّ والإرجاءِ
شُفِعَتْ مواهبُها الجِسامُ بعزَّةٍ كَفَلَتْ بإعدائي على أعدائي

عبد الصمد بن علي(١)

ابن محمد [ابن الحسن بن](٢) الفضل بن المأمون، أبو الغنائم، الهاشمي، وُلِدَ ببغداد في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وثلاث مئة، وتُوفِّي في سابع عشر شوال، ودُفن بباب حرب، وكان صالحاً ثقة.

عبد الكريم بن هَوازِن(٣)

ابن عبد الملك بن طلحة بن محمد، أبو القاسم، القُشيري، وأمه سُلَمية، ولد سنة ست وسبعين وثلاث مئة في ربيع الأول، ومات أبوه وهو طفل، فنشأ وقرأ الأدب والعربية، وكان يميل على أبناء الدنيا، فدخل على أبي علي الدقاق، فأعجبه حالُه، فصحبه، فجذبه عن ذلك، وتفقَّه على بكر بن محمد الطُّوسي، وأخذ علم الكلام عن ابن فُورك، وصنف «التفسير الكبير» و«الرسالة»، وكان يحبُّ الصوفية وأهل الدين

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٤٩.
(٢) ما بين حاصرتين من المنتظم، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٢١٦ وغيرهما.
(٣) تاريخ بغداد ١١/ ٨٣، ودمية القصر ٢/ ٩٩٣-٩٩٨، وتبيين كذب المفتري ص٢٧١-٢٧٢، والمنتظم ١٦/ ١٤٨-١٤٩. وينظر السير ١٨/ ٢٢٧. قلت: وتحرف اسم جده في (خ) إلى: عبد الصمد.

والطريقة، عظيماً عند أهل نيسابور، يعِظُ ويتكلَّم بكلام الصوفية، وخرج إلى الحج، وقدم بغداد، وكانت وفاته في رجب - وقيل: في ربيع الآخر - بنيسابور، ودُفن بالمدرسة إلى جانب شيخه أبي علي الدقاق، وصلَّى عليه أكبر أولاده عبدالله، ولم يقرب أحدٌ من أولادِه وأهلِه الزاويةَ التي كان يجلس عليها ويصنِّف ويتعبَّد بعد موته؛ احتراماً وتعظيماً له، وكان قد أهدى له بعضُ أصحابه فرساً فركبه عشرين سنة لم يركب غيره، فلمَّا مات أقام الفرسُ أسبوعاً لا يأكل ولا يشرب حتى مات، فكان بينه وبين وفاته ستة أيام، ومن شعره: [من البسيط]

الدهرُ ساومني عمري فقلتُ لهُ لا يعب عمري بالدنيا وما فيها
ثم اشتراه تفاريقاً بلا ثمنٍ تَبَّتْ يدا صفقةٍ قد خاب شاريها

وكان ثقةً، حسنَ الوعظ، مليحَ الإشارة، يعرف الأصولَ على مذهب الأشعري، والفروعَ على مذهب الشافعي رضي الله عنه.

ولمَّا قدم بغداد عقد مجلس التذكير، فروى عن النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»[1] الحديث. فقام إليه سائلٌ فقال: لِمَ سمَّاه النبيُّ ﷺ قطعةً من العذاب؟ فأجاب بديهاً: لأنه سببٌ لفراق الأحباب. فصاح الناس وماجوا، ولم يقدر على إتمام المجلس، فنزل.

وجلس بنيسابور ليلةَ نصف شعبان، فقرأ القارئ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] فقال: نعم، وعندنا مفاتح الغيب.

ومن شعره: [من البسيط]

قالوا تَهنَّ بيومِ العيدِ قلتُ لَهُمْ لي كلَّ يومٍ بِلُقيا سيِّدي عيدُ
الوقتُ روحٌ وعيدٌ إن شهدْتُهُمُ وإن فقدْتُهُمُ نَوْحٌ وتعديدُ

وقال أيضاً: [من السريع]

إنْ نابَكَ الدهرُ بمكروهِهِ فقُل بتهوينِ تخاويفِهِ
فعَنْ قريبٍ ينجلي غمُّهُ وتنقضي كلُّ تصاريفِهِ

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان للقشيريِّ[١] من الولد: عبد الله، وعبد الواحد، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم، وعبيد الله، وعبد المنعم، أثنى عليهم ابنُ السمعاني[٢]، ووصفهم بالعلم والحديث وصحبة المشايخ.

علي بن الحسين[٣]

ابن علي بن الفضل، أبو منصور، الكاتب، الشاعر، فمن شعره: [من المتقارب]

تُفيضُ نفوسٌ بأوصابِها ... وتكتُمُ عُوَّادَها ما بها
[وما أنْصَفَتْ مهجةٌ تشتكي ... هواها إلى غير أحبابِها][٤]
وكم ناحلٍ بين تلك الخيا ... م تحسِبُه بعضَ أطنابِها

وقال: [من الخفيف]

النَّجاءَ النَّجاءَ من أرضِ نجدِ ... قبلَ أن يعلقَ الغرامُ بوجدِ
كم خليٍّ غدا إليها وأمسى ... وهو يهوى بعلوةٍ وبهندِ

وقال: [من البسيط]

أُكلِّفُ القلبَ أن يهوى وأُلزِمُهُ ... صبراً وذلك جمعٌ بين أضدادِ
وأكتمُ الرَّكبَ أوطاري وأسألُهُ ... حاجاتِ نفسي لقد أتعبتُ رُوَّادي
هل مدلجٌ عندهُ من مُبكرٍ خبرٌ ... وكيفَ يعلمُ حالَ الرائحِ الغادي
فإن رويتُ أحاديثَ الذين مضَوا ... فعن نسيمِ الصَّبا والبرقِ إسنادي

وقال أيضاً: [من البسيط]

إيهٍ أحاديثُ نعمانٍ وساكِنُهُ ... إنَّ الحديثَ عن الأحبابِ أسمارُ
أُفتِّشُ الريحَ عنكمْ كُلَّما نفحَتْ ... من نحو أرضكم نكباءُ معطارُ

وقال: [من الكامل]

---

(١) تحرفت في النسخ إلى: المعبري.
(٢) الأنساب ١٠/١٥٦ .
(٣) المنتظم ١٦/ ١٤٩-١٥١ .
(٤) مابين حاصرتين من (ب).

ما مرَّ ذو شجَنٍ يُكتِّمهُ إلَّا أقول متيَّمٌ مثلي
وعهودُهُم بالرَّملِ قد نُقِضَتْ وكذاك ما يُبنى على الرَّملِ
مَنْ يطَّلِعْ شرفاً فيُطلعُني هل روَّحَ الرُّعيانُ بالإبلِ
أم قعقعت عَمَدُ الخيامِ أمِ ارْ تَفَعَتْ قِبابُهمُ على البُزْلِ[(١)]
أم غرَّد الحادي بقافيةٍ منها غرابُ البَيْنِ يستملي

وكانت وفاته في صفر، ركب دابته فتردَّى في بئر فمات هو والدابة، وكان عاقلاً ثقة.

قاروت بك بن داود

ابن ميكائيل أخو ألب أرسلان.

قد ذكرنا أخباره مفرَّقةً، فإن ملك شاه أسره وحمله إلى هَمَذان.

قال محمد بن الصابئ: لمَّا حُمِلَ إلى هَمَذان جُعِلَ في خركاه، ودخل عليه الحداد وهو يصلِّي، ففرغ من صلاته، ومدَّ رجليه، فقيَّده، فقال بعض الحاضرين: سبحان الله، لقد ملك هذا الرجل ملكاً عظيماً؛ كرمان ثم عمان ثم فارس، وكان يتمنَّى هلاكَ أخيه، ويتصوَّر ملك الدنيا بعدَه، وكان هلاكُه مقروناً بهلاكه، وكذاك قُتُلْمِش مع عمه طُغْرُلْبَك فإنه كان ينظر في النجوم، ويُحقِّق القطع الذي مات عمُّه فيه في الوقت، وتصوَّر أنه يملك من بعدِه، فكان هلاكُه مقروناً بهلاكه، وركب السلطان يوم الأربعاء ثالث شعبان إلى هَمَذان، وتقدَّم إلى سعد الدولة الكوهراني بالإشراف على قتله، وتولَّى خَنْقَه رجلٌ أعورُ أرمنيٌّ من أصاغر الحواشي بوتر القوس، بعد أن بذل التوبة من النظر في ملك، وتسليم أموالِه وبلادِه وقلاعِه، والرضا بالمقام في مسجد، والاعتقال والإبقاء على نفسه، ثم جمع ملك شاه أولاده وصهره ابن إبراهيم ينَّال، ثم كحلوا بين يدي ملك شاه، وقدم ولدُه سلطان شاه إسحاق أولاً وهو أكبرهم وأنجبُهم، وهو حين بَقَل وجهُه[(٢)]، فأخذ أخوتَه الصغار واحداً واحداً، وجعل يضمُّه إليه ويُقبِّله ويقول: هذا قضاءُ الله تعالى، فلا تجزعوا، فإنَّ الموتَ يأتي على جميع الناس. وكحل

---

(١) البُزْل: الجمال والنُّوق. المعجم الوسيط (بزل).

(٢) بقَلَ وجهُه: نبتت لحيتُه. اللسان (بقل).

وكحلوا، وملك شاه حاضر، ومات منهم اثنان، وبقي سلطان شاه [وابن كازشاه][1] ثم تتبع الباقين فكحلهم.

وقد ذُكِرَ في مقتله وجهٌ آخر: قيل: لمَّا عرف ملك شاه مكان عمه قاروت بك سار يطلبه، وبعث في طلبه مَنْ يحضره، فلمَّا لاح القوم نزل ملك شاه على تلٍّ واستدعى مَأكولاً، وأحضر مسلمَ بن قريش وابنَ مَزْيَد وابن وَرَّام وأكلوا، وركب ملك شاه، وجاؤوا بعمِّه فأُنزِلَ عن الفرس، وأُخذت قَلنسوة من رأسه، وقيل له: قَبِّلِ الأرض، فلم يفعل، وتقدَّم السلطانُ إليه وعانقه من ظهر الفرس، وقال له: يا عمّ، قد سِرْتَ من مكان بعيد، فاركَبْ وسِرْ معنا. وسار ملك شاه وسلَّمه إلى ساوتكين، وجاء به فأنزله في خيمته، وبعث قاروت بك إلى ملك شاه يقول: لا تقلع هذا البيت بقتلي، وتسمع من الكتاب في أمري. يعني نظام الملك، وافعل معي ما يليق بالأتراك، وأنا أُعطيك مثل ما خرج عن يدك منذ مات أبوك، وأنا أمضي إلى الشام أو الحجاز وأسلم إليك جميعَ بلادي. فلم يلتفِتْ، وحُمِلَ في الليل إلى هَمَذان يوم الخميس المذكور على حمل تبن، واعتُقِلَ في دار أبي هاشم الجعفري، وبعد أيام جاء ملك شاه إلى الدار فجلس وبعث إليه أحد القفجاقية ـ ويُعرف ببغرسلان ـ فلمَّا رآه عرف ما جاء به، فسأله التوقُّف، ثم قام فصلَّى أربع ركعات، وتقدَّم إليه ليطرح وتر القوس في حلقه ويخنقه، فدافعه ساعةً، ثم قوي عليه فخنقه، وحُمِلَ في الليل فدُفن عند إبراهيم ينَّال، وكحل أولاده ـ وكانوا خمسة ـ وكلُّ ذلك بتدبير نظام الملك وإشارته، ولمَّا علمتِ العساكرُ بذلك شغبوا ولعنوا نظام الملك في وجهه، ولعنوا ملك شاه، وانعزلوا عنه ناحيةً وقالوا: ما هكذا أوصى ألب أرسلان، وكان قد أوصى لقاروت بك بكرمان وفارس، وعيَّن له مالاً، وأن يُزوَّج بخاتون الشقيرية، وكان أكثر العساكر مائلاً إلى قاروت بك، ومدُّوا أيديهم إلى البلاد، ونزعوا الطاعة، وخاف ملك شاه فانعزل عنهم، فقال له نظام الملك: إمَّا أن تدبِّر الأحوال أنت أو أنا؟ فقال: بل أنت. فاستمالهم بالمال والإقطاع، فسكنوا وفي القلوب ما فيها.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

محمد بن أحمد(١)

ابن محمد بن عمر بن الحسن بن عبيد بن عمرو بن خالد بن الرُّفَيل، أبو جعفر، ابن المُسْلِمة، القرشي، ولد سنة خمس وسبعين وثلاث مئة، وسمع الكثير، وكانت وفاته ليلة السبت سابع جمادى الأولى، وصُلِّي عليه بجامع الرُّصافة، ودفن بمقابر الخيزران، وكان يوماً مشهوداً.

وقال محمد بن طاهر: جاءه بعض طلبة الحديث وهو محموم ومعه جزء ليقرأه عليه، قال: اذهب، فإذا عُوفيتَ فتعالَ واقرأ. فقال: أيها الشيخ إذاً أموتُ ولا أسمعه عليك. فقال له الشيخ: بل يُخشى أن يتطاول بك المرض، فإذا بَرِئتَ كنتُ أنا قد متُّ. فكان كما قال، وأسمعه الجزء.

وكان صحيحَ السماع، واسعَ الرواية، نبيلاً ثقةً صالحاً.

محمد بن أحمد(٢)

ابن محمد، أبو البركات، البغدادي، ويُعرف بابن قَفَرْجَل، البزاز، كان كثيرَ الصدقات والعطايا، واسعَ المال، خلَّف عشرين ألف دينار، وكانت وفاته يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة، ودُفن قريباً من معروف الكَرْخي رحمة الله عليه، وكان ثقة.

محمد بن داود

ابن ميكائيل بن سلجوق، ألب أرسلان لقبٌ له. قد ذكرنا سيرته، ونذكر الآن سبب قتله؛ قال أرباب السير: في ربيع الأول أرجف بقتل السلطان، فنودي في حريم دار الخلافة بالتوعُّد لمن يُرجف بذلك، ثم قويت الأخبار بصحته، وكان شمس الملك تِكين بن طغان صاحب سمرقند وبخارى وما وراء النهر قد تزوَّج أخت السلطان، ثم قيل: إنه قتلها؛ لأنها أطمعَتْ أخاها في البلاد، ثم إن السلطان تزوَّج أخت شمس

---

(١) تاريخ بغداد ١/ ٣٨٦، والمنتظم ١٦/ ١٥١-١٥٢ .

(٢) تاريخ دمشق ٥١/ ١٤٦- ١٤٧ .

الملك، وكان إلياس وملك شاه قد عبرا إلى تِكين ليقاتلوه، فنُصر عليهم ونهبهم، وكان في جملة النهب طَستٌ من ذهب مُرصَّع، ولما عاد إلياس وملك شاه وقطعا جيحون إلى ناحية خراسان وقال تِكين لأخت السلطان: أنتِ أطمعتيهم في العبور، فيقال: إنه رفسها فماتت، وبلغ ألب أرسلان فقصده وبعث وحلف أنه ما فعل، ثم زوَّجه تِكين أختَه، ولمَّا عاد من كسرة ملك الروم دخل بها ومال إليها ووجد ذلك الطَّست الذهب نهب من ملك شاه في الجهاز، فقال في نفسه: ما أنفذ هذا الطَّست إلا تقريعاً لي، وإذكاراً بكسرة ولدي، ثم عزم على العبور إليه، فجمع العساكر العظيمة، ويقال: إنه عبر في مئتي ألف فارس وراجل، وعمل جسراً عظيماً في الزوارق، وعبر في أربعة وعشرين يوماً، وذلك في صفر، واستباح عسكرُه الحريم، ونَهبت مُقدَّمته سواد بخارى، ومرَّت مُقدَّمتُه بقلعة يقال لها: نيرون، وبها رجلٌ خُوارَزمي ـ اسمه يوسف ـ فحاصروه، ثم استنزلوه، وحُمِلَ بين غلامين تركيين، كلٌّ واحد منهما قد أخذ بيده إلى بين يدي السلطان، فلمَّا رآه شتمه ووافقه على أفعال قبيحة كانت منه، وتقدم إلى باب يضرب له أربعةُ أوتاد وتُشدُّ أطرافُه إليها قِتلةً يعرفونها، فقال له يوسف: مُخنَّثٌ مثلي يُقتل هذه القِتْلة. فاحتدَّ السلطان، وأخذ القوس والنُّشَّاب، وقال للغلامين: خَلِّيا عنه. فخلَّياه، ورماه بسهم فأخطأه، ولم يُخطئ له سهم قبلَه، وعدا يوسف عليه فضربه بسكين كانت معه في خاصرته، ووقع سعد الدولة الكوهراني على وجهه، وبرك يوسف عليه فضربه بسكين كانت معه. وقيل: إنه كان واقفاً، فجرحه يوسف جراحاتٍ ما أثَّرت فيه، ونهض السلطان إلى خيمة أخرى، ولَحِقَ يوسفَ فرَّاشٌ أرمنيٌّ، فضرب رأسَه بالمَرْزُبة فقتله، وقُطِّعَ قِطَعاً، وتقدم بإحضار قلبه ومرارته، فأُحضِرا، فكانا عظيمين، وشُدَّت الجراحة، وعاد إلى جيحون، فتُوفِّي يوم السبت عاشر ربيع الأول بعد أن أوصى في العسكر بملك شاه وبنظام الملك وطاعته، وأن يعطي إلياس ولدَه ما كان لداود والده وخمس مئة ألف دينار، وللأمير قاروت بك أعمال فارس وشيراز ومالاً عيَّنه، وأن يزوَّج بخاتون الشقيرية زوجته، وتكون القلعة وما فيها والأعمال الجبلية والفراتية وما كان بيد طُغْرُلْبَك عمه لملك شاه، فمن رضي أقرَّ على ذلك، وإلا قوتل.

وقال ابن القلانسي: في هذه السنة وردت الأخبار باستشهاد السلطان ألب أرسلان بنهر جيحون بيد من اغتاله من الباطنية المتزيين بزي الزُّهَّاد والمتصوفة، وليس كما ذكر ابن القلانسي، والمشهور ما ذكرنا، وكُتمت وفاتُه حتى عبروا جيحون في ثلاثة أيام، ثم جلس ملك شاه على السرير، وخلع عليه الخِلَع التي بعث بها إليه الخليفة مع عميد الدولة ابن جَهير إلى أصفهان، فقال له نظام الملك: أيها السلطان، تكلَّم - وعلى رأسه الأمراء - فقال: الأكبرُ منكم أبي، والأوسطُ أخي، والأصغرُ ولدي. ووعدهم الجميل، فدَعَوا له وأطاعوه، وأنفق فيهم سبع مئة ألف دينار برأي نظام الملك، وساروا إلى مرو، ودفن السلطان بها إلى جانب والده، وأقام ابنه إلياس ببَلْخ ولم يجتمع بهم.

وقال نظام الملك: لمَّا قطعنا النهر رأى السلطان في المنام كأنَّ إنساناً جرحه في خاصرته وضربه بسكين، فأصبح يتألَّم من المكان، فكانت الجراحة فيه من الغد.

وقال سعد الدولة الكوهراني: لمَّا أَيِس السلطانُ من نفسه قال: ما من وجهٍ قصدْتُه أو عدوٍّ أردْتُه إلا كنتُ مستعيناً عليه بالله، قويَّ النفس بنصره وعونه، إلَّا هذا الوجه، فإني شُغِلتُ بجمع العساكر، وشاهدتُ منها ما قَوِيَتْ به نفسي، ووقع تعويلي عليه، ولا أتصوَّر أنَّ أحداً يقف بين يديَّ، ولقد ركبتُ أولَ أمس، ووقعتُ على تلٍّ، فأحسستُ بالأرض ترتجُّ من تحتي لعِظَم العسكر، وقلت في نفسي: مافي الدنيا سلطانٌ مثلي، ولا اجتمع لأحد ما اجتمع لي، وتخيَّلتُ أني آخذٌ ابنَ طبغاج وبلادَه وجميعَ ما وراء النهر، ولم يخطر لي ربي ببال، فلحقني ما لحقني من الجواب.

وقال ابن الصابئ: وكان لمَّا عبر النهر وبَلَغَ أهلَ بخارى عبورُه، وتقدَّمت سراياه، فاجتاحت الأعمال، ونهبت الأموال، واستباحت الحريم، وهربوا إلى سمرقند، واجتمع الصالحون والزُّهَّاد والعلماء والوُعَّاظ في الجامع وخلقٌ كثير، وصاموا وصلُّوا أياماً، وفيهم من لم يفطر ليلاً، وأخذوا في الابتهال إلى الله تعالى، والشكوى من السلطان والدعاء عليه، والتعجيل لدفعه عنهم، فكان من أمره ما كان، فكان ملكه ثمان

عشرة سنة، منها بعد موت عمِّه طُغْرُلْبَك إحدى عشرة سنة، ولم يقدم بغداد، وجلس الوزير فخر الدولة ابن جَهير للعزاء في صحن السلام يوم الأحد ثامن جمادى الأولى، وخرج في يوم الثلاثاء الثالث توقيعُ الخليفة يتضمَّن الجزع على ألب أرسلان، ويشكره على خدمتِه وسعيِه في مصالح المسلمين، وجهادِه في سبيل الله، وكسرِه الروم، وأمنِه الطرقات، وضبطِه العساكر، وعدَّد أفعالَه الجميلة، وغُلِّقت أسواق بغداد، وأقامت خاتون العزاء في دار الخليفة، وجزَّت شعورَ جواريها وأرادت حينئذ جزَّ شعورِها، فمنعها الخليفة، وجلست على التراب، ثم أقامها الخليفة من العزاء بعد سبعة أيام.

محمد بن علي(١)

ابن محمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، أبو الحسين، الهاشمي، ويُعرف بابن الغَريق، ولد يوم الثلاثاء غرة ذي القعدة سنة سبعين وثلاث مئة، وسمع الحديث، وقرأ القرآن، وكان حسنَ الصوت به، وخطب الناس، وله من العمر ست عشرة سنة، وولي القضاء سنة تسع وأربع مئة، وأقام يخطب بجامعي المنصور والمهتدي ستاً وسبعين سنة، وشهد ستين سنة وقضى ستاً وخمسين سنة، وتُوفِّي يوم الأربعاء سلخ ذي القعدة، ودُفِنَ يوم الخميس غرَّة ذي الحجة عند جامع المنصور ناحية القبة الخضراء، وقد جاوز التسعين، وشهده خلق عظيم.

وقال أبو بكر ابن الحاضنة: رأيتُ في المنام كأنَّ القيامة قد قامت، وقد أُدخلتُ الجنة، وإذا ببغلة مُسرجةٍ ملجمةٍ في يد غلام، فقلت: لمن هذه؟ قال: للشريف أبي الحسين بن الغريق. فلمَّا أصبحنا، وإذا به قد مات في تلك الليلة.

ورؤي الشريف في المنام فقيل له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: غفر لي بطول تهجُّدي. وكان ثقةً، صالحاً، صائماً، قائماً، عابداً، مجتهداً، خاشعاً، كثيرَ البكاء عند الذِّكر، رقيقَ القلب، عزيزَ العقل والفضل، زاهداً، وكان يُسمى زاهد بني هاشم، ورحل الناس إليه لعلوِّ إسناده، فكانوا يقصدونه من البلاد، وكان قد أصابه صممٌ في آخر عمره، فكان هو يقرأ على الناس، وذهبت إحدى عينيه رحمه الله.

---

(١) تاريخ بغداد ٣/١٠٨-١٠٩، والمنتظم ١٦/ ١٥٢-١٥٣. وينظر السير ١٨/ ٢٤١.

السنة السادسة والستون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد الخبر إلى بغداد بأن عساكر غَزنة خرجوا وتعرَّضوا لبلاد ملك شاه، وخرج إليهم إلياس بن ألب أرسلان أخو ملك شاه، فقاتلهم، واستأمن إليه سبعُ مئةٍ منهم، وانهزموا إلى غَزنة، وأوغل خلفهم، وكان سلطان غَزنة إبراهيم بن مسعود ابن محمود بن سُبُكْتِكين، وعاد إلياس من الوقعة إلى بَلْخ، فمات بعدها بثلاثة أيام، وكفي ملكَ شاه أمرَ الغزنوية، وأمرَ أخيه إلياس، وسُرَّ بوفاته؛ لأنه كان منحرفاً على ملك شاه، وفي نيته الخلاف عليه، فقال له نظام الملك: لا تظهر الشماتة به، واقعُدْ في العزاء. ففعل، وأظهر الحزن عليه.

وفي ثاني صفر جلس الخليفةُ، وولدُ ولدِه عدةُ الدين قائمٌ على رأسه وله ثماني عشرة سنة، وأوصل إليه سعدَ الدولة الكوهراني والجماعةَ الحاضرين وأعطاه عهد ملك شاه بالسلطنة، وندب عميدُ الدولة ابنَ جَهير إلى الخروج بالخِلَع إلى ملك شاه إلى الري، وندب معه مسعوداً الخادم، وسار يوم الثلاثاء سابع عشر صفر، وتقدَّم سعد الدولة الكوهراني.

وفيها سار بدر الجمالي أمير الجيوش من عكا إلى مصر ومعه عبدالله ابن صاحب مصر باستدعاء المستنصر بعد قتل ابن حمدان، وتغلُّب يلدكز التركي، ووصل إلى دمياط وبها ابن المُدبِّر، وكان قد هرب منه فقتله وصلبه، ودخل إلى مصر بعد أن اتَّفق مع يلدكز، وتحالفا وتعاهدا، ثم قبض على يلدكز وأهانه وعذَّبه، وطالبه بالمال فلم يظفر بسوى اثني عشر ألف دينار، وكان له من الأموال والجواهر شيءٌ عظيم، إلَّا أنه لم يقرَبْه، فقتله أمير الجيوش، وهرب يلدكز إلى الشام، وانتزع أمير الجيوش الشرقية من أيدي لواتة، وقتل منهم مقتلةً عظيمةً، وأسر أمراءهم، وأخذ منهم أموالاً جمةً، وعمر الريف، فرخصت الأسعار، ورجعت إلى عاداتها القديمة، وأخذ الإسكندرية وسلَّمها إلى القاضي ابن المحترق، وأصلح سودان الصعيد واستدعاهم(١) إليه، وجاءه منهم الكثير، وصلحت الحال لهلاك الأضداد، ورُفعت الفتن، وانفرد أمير الجيوش بالأمر.

---

(١) في (ب): واستدناهم.

وفيها تغيَّرت نية نظام الملك على الخليفة فأقطع بعض ضياعه للغُزِّ، وكان الأعداء قد سعوا بينه وبين الوزير ابن جَهير، فلمَّا اجتمع ولدُه عميدُ الدولة بنظام الملك اعتذر إليه مما نقل عن أبيه، وحلف له فصدَّقه، وصلح الحال، وأعطى الخليفة للغُزِّ مالاً أرضاهم به، ولم يتعرَّضوا لضياعه، وتوفِّيت خاتون الشقيرية بأصفهان، وكانت زوجة ألب أرسلان، وخلَّفَت أموالاً لا تُحصى.

وفيها في صفر هرب سلطان شاه إسحاق بن قاروت بك وأخذ أَخَويهِ المسمولين من هَمَذان، ومَضَيا إلى كرمان وقد سَلِمَ عليهما قطعةٌ صالحةٌ من نَظَرَيْهِما، وكان السلطان قد سار إلى خراسان بعد موت أخيه إلياس ليرتب أمورها، وكانت قد خلصت له، وكان سلطان شاه قد التمس جاريةً تتولَّى خدمته، وأخرى لأخيه الذي تنصَّر معه، واستأذن السلطانَ في ذلك، فأذن له، وسُلِّمت الجاريتان إليهما، فتركاهما في الحجرة التي كانا فيها، وقصدا أن يخلو المكان ولا يدخل عليهما أحد من الموكلين إلا بإذن؛ احتشاماً للجاريتين، وأخذا في التدبير مع بعض الموكَلين للهرب، فأجابوا، وبعث إلى كرمان يستدعي خيلاً وثياباً، وجاءته الخيل، وكمن في خراب البلد، وجاء إليه الموكَلون به، وأعلموه بوصول الخيل في مكان عيَّنوه، فكتَّف الجاريتين، وجعلهما في بيت مظلم، وأغلق عليهما الباب، وفتح الموكلون سقفاً من البيت، واستاقوه وأخاه ونزلا وركبا الخيل، ولم يظهر خبرهما حتى تعالى النهار، ولم يتبَعْهما أحدٌ، ومضيا إلى كرمان، فحصلا في قلعة لأبيهما، وسُرَّ الناسُ بهما.

وفيها وردت كتب أَتْسِز التركماني [مقدَّم الناوكية بفتوح البيت المقدس سنة خمس وستين وإقامة الخطبة العباسية، وأن أَتْسِز أحسن إليهم وببلد المصرية ولم يقاتلهم وقال: حرم الله، لا أقاتله، وإنما أريد إقامة الدعوة الإمامية العباسية والسلطانية. فأجابوه، وكانت الغرارة عندهم قد بلغت سبعين ديناراً، وكان به نائب المصري وكان تركياً، فراسل أَتْسِز التركماني][(١)] وقال: أنا منكم، وما أقمتُ على الامتناع إلا وفاءً لمن كنتُ خادماً له وعبداً، وقد فعلتُ ما يجب عليَّ، فإن أمَّنتني على نفسي ومالي

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

سلَّمتُ إليكَ البلد، ونزلتُ إليكَ، وأقمتُ معك. فأمَّنه، وحلف له، وأقطعه ضياعاً اقترحها، وفتح الباب ودخل، ونودي في البلد بالأمان، وكانت فيه أموالٌ عظيمةٌ فلم يتعرَّض لها، وأقام من يحفظ الناس، فجاءهم مالم يكونوا يظنُّونه، وأقام الدعوة للقائم والسلطان، وفتح الحصون المتعلقة به.

وفي جمادى الأولى ورد الخبر بحصول سلطان شاه بن قاروت بك وأخيه بكرمان بردشير حصن أبيه وأقام مقام أبيه، واجتمعت الكلمة عليه، وشغَب الجند على نظام الملك، وطالبوه بالأموال، حتى فرغت الخزائن.

وفي جمادى الأولى قَدِمَ الحاجب أتكين السليماني إلى بغداد، وقد طاب قلبُ الخليفة عليه، فأمره بالخروج إلى الفورح ليصلحه.

ذكر زيادة الماء في دجلة:

في جمادى الأولى زادت دجلةُ زيادةً عظيمةً لم يُعهَد مثلُها، وأمر الخليفة العوام بالخروج مع الحاجب أيتكين إلى عمل الفورح، فخرجوا وإذا بالماء قد أقبل مثل الجبال، فرجع أيتكين والناس، وجمع الزواريق، وجعل رحله فيها ورحل أصحابه، وأراد العبور إلى الجانب الغربي ليهرب، فجاءت في الليل ريحٌ شديدةٌ وسيلٌ عظيم، وطفح الماء في البرية على الحريم، وأخرب أسوار المحال، ونبع الماء من أسفل، وجاء من فوق، وقلع الطوابيق من دار الخليفة ودور الناس، ونبعت الآبار والبلاليع، ووقع بعض الدور على بعض، فصارت تلالاً عاليةً، وآثاراً عافية، وصبَّح الماء دار الخليفة ففعل بها مثل ذلك، وأهلك من الأموال تحت الهدم والسكان الكثير، وهرب الناس إلى [الجانب الغربي و] التلال العالية، وافتضح الناس[1].

وكانت قبائل العرب نازلة بين الزَّابَين فغشيهم الماء من الزاب الأعلى، فاجتمعت الجمال، وعجَّت واشتبكت حتى صارت كالجبل، وتلقَّت الماء بصدورها، وصَعِدَ عليها مَنْ لَحِق من الرجال والنساء، وهربت العرب على خيولها في البرية يطلبون

(١) في (ب) و(م): النساء.

الروابي [والتلول]، وأخذ الماءُ الحِلَل ومَنْ فيها، وبقيت الجمال ومَنْ عليها يوماً وليلةً على حالها، فسَلِمَ البعضُ، وأخذ الماءُ البعضَ [، وهلكت الأموال والنفوس وحِللُ بني شيبان والأكراد وغيرهم، وجاء الماء من نواحي أمثال الجبال]، واجتمع ماء الزَّابَين وتامِرًّا، وانكسر الفورح، وعلا على دار الخليفة، وصار كالبحر، ثم جاء من ناحية الجانب الغربي من الفرات [والتقى الماءان، ووصل الخبر أنَّ الماء ورد](١) من البرية إلى سنجار فهدم سورها(٢)، وكان من حجارة، وأخذ باب البلد، فَدَحَى به نحواً من أربعة فراسخ، ووصل في البرية إلى تكريت، و[إنَّهم] مُطِروا في سنجار والموصل ثمانين يوماً لم يروا فيها شمساً، [وغرقت ضياعُ بغداد]، وزاد الماء حتى بلغ ثلاثاً وعشرين ذراعاً. وقيل: [إنه بلغ] ثلاثين [ذراعاً]، وجاء على وجه(٣) الماء من الأبواب والأخشاب والحشرات(٤) شيءٌ كثير، وجاء [تلٌّ] من التراب على وجه الماء [وعليه سبعٌ ونُمورٌ واقفين]، وغرق الجانب الغربي [وقبر أحمد]، وخرج الموتى من القبور في التوابيت على رأس الماء من عند قبر الإمام أحمد رحمة الله عليه والمشهد وباب أبرز، ووقعت الخانات والمنازل، وخرج النساء حاسرات، وجاء المطر من فوق، والنبع من أسفل، [فكان كما قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾] [القمر: ١١-١٢].

وأصبحت دار الخليفة وبغداد تلالاً، وخرج الماء من تحت سرير الخليفة، فنهض إلى الباب فلم يجد طريقاً، فحملته الخُدَّام على ظهورهم إلى روشن التاج ومعه عُدَّةُ [الدين](٥)، وخرج جواريُّ الخليفة مُبرِّزات [مهتَّكات، وعَبَرْنَ إلى الجانب الغربي، والخدم أيضاً]، ولم يبقَ عند الخليفة إلا نفرٌ يسير.

---

(١) في (خ) بدل من هذه الزيادة: وورد الماء.

(٢) العبارة في (م): فصدم سورها فهدمه.

(٣) في (خ): رأس، والمثبت من (ب).

(٤) بعدها في (م): والحيَّات.

(٥) مابين حاصرتين من (ب).

وأقيمت السفن تحت التاج، وحُطَّ فيها ما خفَّ حَمْلُه، والباقي تلف، ولبس الخليفةُ البردة، وأخذ بيده القضيب، ووقف بين يدي الله تعالى يبكي ويصلِّي ويتضرَّع، ولم يأكل طعاماً أياماً ولياليَ، وأما الوزير فخر الدولة فدخل عليه الماء إلى داره بباب عمورية، فركب فرساً، وخاض الماء إلى أن وصل إلى حجرة الخليفة واستأذن فيما يفعل، فقيل له: اطلب النجاة لنفسك قبل أن لا تقدر عليها. فمضى إلى الطيار على باب الغرفة فنزل فيه، وجاء إنسان [إلى الوزير] ومعه ولد ولد الوزير(١)، فقال [له]: يا مولانا، معي ولد ولدك. فقال: أيش أعمل به، احتفِظْ به إن أمكنك حِفْظُه. [وبعث بأهله إلى الجانب الغربي].

وقال الوزير: كنت صائماً يوم الاثنين، وجاء وقتُ الإفطار وأنا وحدي، وقد هرب الغلمان والحاشية والأهل، فبِتُّ وما أفطرتُ، وأصبحتُ يوم الثلاثاء فرميتُ نفسي في الطيار، فلما كان [آخر النهار] وقت المغرب أحضر لي بعضُ الملَّاحين ثلاثةَ أرغفة يابسة وسُكُرُّجَة(٢) فيها خَلٌّ، فأكلتُ منها، واستلقيتُ على بارية في الطيار لم تسعني، وقعد مَنْ بقي من الناس في السفن.

ووقعت جميع الدور والمنازل التي من جانب بغداد الشرقي، وانهدمت مئة ألف دار وأكثر، وبقيت بغداد مَلَقَةً(٣) واحدة، وانهدم سورُها، [فكان الإنسان يقف في الصحراء فيرى التاج]، وأقبل إنسان يخوض في الماء وعلى كتفه ولدان له صغيران، [فما زال يخوض بهما]، فلمَّا أعيى رمى بهما ونجا بنفسه. [وقال ابن الصابئ]: وخصَّ [هذا] الغرق أماكن الفساد(٤) والخمور والقمار والخواطي [مثل درب القيّار ونحوه] وتشقَّقت الأرض [فصارت مثل الخنادق]، ونبع منها الماء الأسود، وكان ماءَ سخطٍ وعقوبة، ونُهبت خزائنُ الخليفة وما كان في الخانات، ولم يؤاخذ أحد، وأقيمت

(١) العبارة في (م): ومعه ولده وولد ولده.
(٢) السُّكُرُّجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم. المعجم الوسيط (سكرج).
(٣) المَلَقة: الصفاة الملساء. المعجم الوسيط (ملق).
(٤) في (م): الفُسَّاق.

الجمعة دفعتين في الطيَّار، ودخل الماء من شبابيك المارستان العضدي فهدمه، ووقعت الجوامع والمساجد، وكان الماء في الجامع قامة، ولمَّا نقص الماء ضرب الوزير والناسُ الخِيم، وعمل الخدم أكواخاً من القصب وأقاموا فيها، وبلغت أجرة الرُّوزجاري في اليوم خمسة قراريط، وأُخرج الناسُ من تحت الهدم، وعلا الناس ببغداد الذل والصغار، وكانوا يمشون على التِّلال كالنمل، ثم فسد الهواء، ونتن البلد، وعفنت الغلال، فمات مَنْ بقي إلا القليل، [وصارت بغداد عبرةً للمعتبرين، وفكرةً للمتفكِّرين]، واستكثر الناس من زرع البطيخ والخيار والقِثَّاء، ففسد جميعُه ودوَّد، فكان الناس إذا مرَّ على القراح سدَّ أنفه، [وحصر الناس ما غرموه، فعُلم أنه ماء سخط وعذاب كالطوفان] والعجبُ أنَّ المواضع التي أسفل [من] بغداد [مثل واسط والبصرة] كانت تغرق بدون هذه الزيادة، فما وصل إليها الغرق ولم يتجاوز بغداد، فاستدلُّوا على أنه ماء سخط، وفاض جيحون حتى طفح على وجه الأرض أربعة فراسخ ـ وقيل: عشرة ـ وتعذَّر الصُّنَّاعُ ببغداد، حتى إن النساء كُنَّ يضرِبْنَ اللَّبِن، وهبَّتْ عقب ذلك ريحٌ سوداءُ فرمت النخل، وكان الماء قد غطى رؤوس النخل.

وفي رجب ورد مؤيد الملك أبو بكر بن نظام الملك إلى بغداد، فلم يخرج أحدٌ لتلقِّيه من كثرة الطين، فشقَّ عليه ذلك، وظنَّ أنه تهاون به، فنزل بباب المراتب، وكان قد تزوَّج بابنة أبي القاسم بن رضوان البيِّع، وأغلق بابَه ولم يُعطِ أحداً طريقاً، وبلغ الخليفةَ، فاستُدعي إلى بيت النُّوبة وخُلِعَ عليه، وقيل له: قد علمتَ العذر في ترك تلقِّيك من كثرة الطين والخراب ولم تعرفنا، واعتذر إليه الوزير، وأصبح الوزير فقصده إلى النظامية وعاد.

وفي شوال ورد رسول نظام الدين بن مروان من ميَّافارقين ومعه رسول ملك الروم، ومعه كتابان إلى الخليفة والوزير مكتوبان بالذهب بالسرياني، وتحت كل سطر تفسيره بالعربي يتضمَّن المسألة لهما في الوساطة بينه وبين ملك شاه في الهدنة.

وفيها بنى حسان بن مسمار الكلبي قلعة صرخد، وكتب على بابها: وأمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأميرُ الأجلُّ مُقدَّم أمر العرب عز الدين فخر الدولة عُدَّةُ أمير المؤمنين، يعني المستنصر؛ لأنه كان في خدمته، وذكر اسمه ونسبه.

قال محمد بن [هلال] الصابئ: ورد إلى مكة إنسانٌ أعجميٌّ يعرف بسلا[١] من جهة السلطان جلال الدولة ملك شاه، ودخلها وهو على بغلة بمركب ذهب، وعلى رأسه عمامةٌ سوداء، وبين يديه الطبول والبوقات، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر، عليها اسم محمود بن سُبُكْتِكين وهي من استعماله، وكانت مودعةً في نيسابور مثل ذلك العهد عند إنسان يُعرف بأبي القاسم الدهقان البيع[٢]، فأخذها الوزير نظام الملك، وأنفذها[٣] مع المذكور، وكان قد ورد قبله إنسان من فارس يُعرف بأبي النضير الإِسْتراباذي، وصادف في المسجد الحرام مواضع قد تهدَّمت، فأطلق ثلاثين ألف دينار أنفق بعضها [فيها]، وأخذَ الباقي ابنُ أبي هاشم، وأجرى الماء من عرفات إلى مكة في قني كانت عملتها زُبيدة غابت وخربت، ووجد البيت عُرياناً منذ سنين، فكساه ثياباً بِيضاً من عمل الهند كانت معه لذلك، وفضض الميزاب وقال: لو علمتُ أني إذا عملتُه ذهباً يسلم لَعَمِلتُه. وتصدَّق في الحرمين بمال جزيل، وأعطى فقراء مكة والمدينة جرايةً لمدة سنة. وقيل: كان ذلك من سلطان شاه بن قاروت بك المفلت من هَمَذان نذراً لله أن يفعل ذلك في مقابلة سلامة نظره بعد الكحل[٤] وإفلاته من الحبس وسلامة أَخَوَيهِ من الكحل، وجعلت الكسوة التي جاءت من خراسان فوقها، وحمل السلارُ إلى ابن أبي هاشم المالَ المقرَّرَ له ولأصحابه على السلطان [فملأ قلبه وعينه]، وفرَّق في العبيد مالاً، وأخذ من الحاجِّ الذين تبعوه دنانير دفعها إلى ابن أبي هاشم والعبيد تطيبةً لقلوبهم[٥]؛ لأن السلار أكرمهم وحملهم وأُلزِمَ كلفتَهم [ومؤنتهم].

وورد رسولان من مصر فقبَّحا على ابن أبي هاشم خطبته للخليفة والسلطان، فصادفاه وقد ملأ السلار عينَه وقلبَه مما حمل إليه [من خراسان]، فلم يلتفت إليهما [وأقصاهما].

---

(١) بعدها في (خ) و(م) زيادة كلمة غير واضحة، والظاهرة أنها مقحمة. فالخبر في النجوم الزاهرة ٥/ ٩٥ من دون تلك الكلمة.

(٢) في (م): المنبع، وهي ليست في النجوم الزاهرة.

(٣) في (م): وأهداها.

(٤) في (ب): الكفر.

(٥) العبارة في (م): بطيبةٍ من نفوسهم.

وفيها تُوفِّي

إبراهيم بن محمد[(١)]

ابن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن حمزة بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ أجمعين، أبو علي، الكوفي، سمع الحديث، وقرأ اللغة والأدب، وقدم دمشق ومعه أولاده عدنان وعمار وعمر ومعد، فأقاموا بدمشق مدة، ثم ساروا إلى مصر فأقاموا بها، وأكرمه المستنصر ووصله، فلمَّا أراد العَوْدَ إلى الشام وصله بخمسة آلاف دينار، ثم عاد إلى دمشق فمرض مدة ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أشتهي أن أموت بالكوفة. فقيل له: الشام مبارك. فقال: ما مقصودي بموتي في الكوفة إلا حتى إذا نُشرت يوم القيامة وأُخرجَتْ رأسي من القبر أن أرى أولاد عمي وأهلي ووجوهاً أعرفها فعوفي، وعاد إلى الكوفة، فتُوفِّي بها في شوال.

وكان شاعراً، فمن شعره: [من الرجز]

راخِ لها زمامَها والأنْسُعا[(٢)] وَرُمْ بها من العُلى ما شسعا[(٣)]
وارحَلْ بها مُغترباً عن العِدا تُوطِئْكَ من أرض العِدا مُتَّسَعا
ياراندَ الظَّعنِ بأكنافِ الحمى بلِّغ سلامي إن وصلْتَ لعلعا[(٤)]
وحَيِّ حيًّا[(٥)] بأثيلات[(٦)] النَّقا[(٧)] عهدتُ فيهِ قمراً مُبَرْقَعا
كانَ وقوعي في يديهِ وَلَعا وأولُ العِشْقِ يكون وَلَعا
مَنْ بمنًى وأين جيرانُ مِنى كانت ثلاثاً لا تكونُ أربعا

---

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٢١٣-٢١٤، ومعجم الأدباء١/ ١٠-١٤، والمنتظم ١٦/ ١٥٨.

(٢) النِّسع: سير عريض طويل تُشدُّ به الحقائب أو الرحال ونحوها. المعجم الوسيط (نسع).

(٣) شَسَع: بَعُد. المعجم الوسيط (شسع).

(٤) لَعْلَع: اسم موضع، ذُكر أنه ماء في البادية، ومنزل بين البصرة والكوفة وغير ذلك.

(٥) في مصادر الترجمة: خدراً.

(٦) الأثيلة تصغير أَثْلَة، وهي من الأَثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يعمَّر، جيد الخشب، كثير الأغصان، دقيق الورق. المعجم الوسيط (أثل).

(٧) في المصادر سوى المنتظم: الغضا، وفي المنتظم: الحمى.

سلبتموني كَبِداً صحيحةً أمسِ فردُّوها عليَّ قِطَعا
ارتجِعوا لي ليلةً بحاجرٍ[1] إنْ ثمَّ في الفائتِ أن يُرتَجعا
وغفلةً سرقتُها من زمني بلعلعٍ سقى الغمامُ لَعْلَعا[2]
أنا ابنُ ساداتِ قُريشٍ وابنُ مَنْ لم يُبْقِ في قوس الفخار مَنْزَعا
وابنُ عليٍّ والحسينِ وهما أبرُّ من طاف ولبَّى وسعى
نحن بنو زيدٍ وما زاحَمَنا في المجد إلَّا مَنْ غدا مُدَفَّعا
طابَتْ أصولُ مجدِنا في هاشمٍ وطالَ فيها عُودُنا وفَرَّعا

أحمد بن محمد بن عقيل[3]

الشَّهرَزوري، أبو العباس، سمع الحديث [الكثير][4]، وكان أديباً فصيحاً شاعراً، وتُوفِّي ببيت المقدس في ذي القعدة، ومن شعره: [من البسيط]

وما ثناكَ عن الزَّوراتِ لي ملَلٌ ولا نبا بِكَ إكثارٌ وإقلالُ
لكن سمعتَ من الواشين فيَّ ولمْ تدرِ الهوى والهوى أدناه قتَّالُ
سألتُ طَيْفَكَ عن تلفيقِ إفكهِمُ فقالَ معتذراً لا كان ما قالوا
سعى الوُشاةُ لقطع الودِّ بينكُما وللمودَّاتِ بين الناسِ آجالُ

عبد الله بن محمد[5]

ابن سعيد بن سنان، أبو محمد، الخَفاجي، الشاعر، الحلبي، الفصيح، الفاضل، قرأ الأدب على أبي العلاء المعري وغيرِه، وسمع الحديث وبرع في فنِّه، ومدح الأكابر، وتُوفِّي بقلعة أعزاز من أعمال حلب، فمن شعره: [من الطويل]

أيا راكباً مالَتْ به نشوة الكرى كما اهتزَّ من مَرِّ الرياحِ لواءُ
تحمَّلْ إلى الحيِّ المقيمِ رسالةً من الغيبِ ما فيها عليكَ عناءُ

(١) الحاجر: ما يُمسك الماء من شفة الوادي. الصحاح (حجز).
(٢) لَعْلَع: منزل بين البصرةِ والكوفة.
(٣) تاريخ دمشق ٧/ ١٥٣ .
(٤) ما بين حاصرتين من (ب).
(٥) الوافي بالوفيات ٥/ ٤٧٧ .

تحيةَ مَنْ لا يملكُ الصبرَ عنهمُ ... ولا تنقضي أنفاسُهُ الصُّعداءُ
عَهِدْتُكمُ مأوى الغريبِ وأهلَهُ ... فما بينكمْ لولا التقى الغُرباءُ
تؤمُّكمُ آمالُ قومٍ صوادياً[1] ... فما تَنثني إلَّا وهُنَّ رِواءُ
فما لكمُ لا أوحشَ اللهُ منكمُ ... مواطنَ فيها بالذِّمامِ وفاءُ

وقال أيضاً: [من الطويل]

أناخَ عليَّ الهمُّ من كلِّ جانبِ ... بياضَ عِذاري[2] في سوادِ المطالبِ
وما ساءني فَقْدُ الشبابِ وإنَّما ... بكيتُ على شطرٍ من العُمرِ ذاهبِ
وما راعني شيبُ الذَّوائبِ بعدَهُ ... وعندي همومٌ قبل شيبِ الذَّوائبِ
ولكنَّهُ وافى وما أطلقَ الصِّبا ... عِناني ولا قَضَّى الشَّبابُ مآربي
وما كنتُ من أصحابِهِ غيرَ أنَّهُ ... وَفَى لِيَ لَمَّا خانَني كُلُّ صاحِبِ
بكَى النَّاسُ أطلالَ الدِّيارِ ولَيتَني ... وجَدتُ دياراً للدُّموعِ السَّواكِبِ
أَأَحبابَنا هَل تسمعونَ على النَّوى ... تحيَّةَ عانٍ أو شَكيَّةَ عائبِ
وما أنا بالمُشتاقِ إذ قلتُ بيننا ... صدورُ العوالي أو طِوالُ السَّباسبِ[3]
فما لِقلوبِ العاشقينَ مَزِيَّةٌ ... إذا نَظَرَتْ أفكارُها في العواقِبِ

وقال: [من الطويل]

سقى بانة الجَرْعاءَ من بطنِ تُوضحٍ ... وللناسِ في سُقيا الدِّيارِ مذاهبُ
نسيمٌ كأنفاسِ الخُزامى صقيلةٌ ... بريحِ النَّعامى[4] قبَّلَتْها السحائبُ

[وقال: من الطويل]

رمَتْ بالحمى أبصارَها مطمئنةً ... فلمَّا بَدَتْ نجدٌ وهبَّت جَنوبُها
بخِلْنا عليها بالبُرى[5] فتقطَّعَتْ ... وقَلَّ لنجدٍ أن تقرَّ قلوبُها

---

(١) الصوادي، من الصَّدى: وهو العطش الشديد. المعجم الوسيط (صدي).
(٢) العِذار: جانب اللحية. المعجم الوسيط (عذر).
(٣) السَّباسب؛ جمع سَبْسب: وهي المفازة. المعجم الوسيط (سبسب).
(٤) النُّعامى: هي ريح الجنوب. المعجم الوسيط (نعم).
(٥) البُرى؛ جمع بُرَة: وهي حلقة من نحاس تكون في أنف البعير للتذليل. القاموس المحيط (برى).

وقال: [من الكامل]

يا إخوتي وإذا صَدَقتُ فأنتمُ ... من إخوةِ الأيامِ لا مِنْ إخوتي
بُعداً لآمالي التي علَّقتُها ... بكمُ فحارَت في السَّبيلِ وَضَلَّتِ
أأغيبُ عن حلبٍ ثلاثةَ أشهرٍ ... لم تكتبوا فيها إليَّ بلفظةِ
حتَّى كأنِّي قدْ جَنيتُ عليكُمُ ... ما أستَحِقُّ به عظيمَ الجفوةِ

وقال: [من الكامل]

ومُهَوِّنٍ للوَجْدِ يَحسَبُ أنَّها ... يوم العُذَيبِ مَدامعٌ وخُدودُ
سَلْ بانةَ الوادي فليسَ يفوتُها ... خبرٌ يطول به الجوى(١) ويزيدُ
وانشُدْ معي ضوءَ الصَّباحِ وقُلْ لهُ ... كمْ تستَطيلُ بكَ اللَّيالي السُّودُ
وإذا هبَطتَ الواديينِ وفيهما ... دِمَنٌ(٢) حُبِسنَ على البِلى وعُهودُ
فاخدَعْ فُؤادي في الخَليطِ لَعَلَّهُ ... يَهفو على آثارِهِمْ ويَعودُ
أصَبابةٌ بالجزعِ بعدَ سويقَةٍ ... شُغلٌ لعَمرُكَ يا أُمَيمُ جديدُ
وعلى الثَّنيَّةِ مِن تَبالةَ موعدٌ ... عقَمَتْ به الآمالُ وهي وَلودُ
قومٌ يَلوحُ لَهُم على علمائِهِم ... قبلَ اللِّقاءِ دَلائلٌ وشُهودُ
فاللامِعاتُ أسنَّةٌ وأسِرَّةٌ ... والمائِساتُ ذوابِلٌ وَقُدودُ
هَبُّوا إلى المجد الرَّفيعِ فأحرَزوا ... قصَباتِهِ وبَنو الزَّمانِ رُقودُ
إن لَمْ يَكُنْ بيني وبينَكَ نسبةٌ ... قَرُبَتْ فإنِّي منكُمُ معدودُ

وقال يمدح أهل البيت الشريف عليهم الصلاة والسلام: [من الكامل]

يا أُمَّةً كفرَتْ(٣) وفي أفواهِها الـ ... ـقُرآنُ فيه ضلالُها ورشادُها
أعَلَى المنابرِ تلعنون نسيبَهُ(٤) ... وبسيفِهِ نُصِبَتْ لكم أعوادُها
تلكَ الضغائنُ بينكم بدريَّةٌ ... قُتِلَ الحسينُ وما خَبَتْ أحقادُها

---

(١) الجوى: اشتداد الوجد من عشق أو حزن. المعجم الوسيط (جوي).

(٢) الدِّمَن؛ جمع دِمنة: وهي آثار الناس وما سوَّدوا. المعجم الوسيط (دمن).

(٣) في (خ) ـ والترجمة فيها وحدها ـ: صلَّت، والمثبت من الديوان.

(٤) في (خ): تغلبون بسنة، والمثبت من الديوان.

ضُرِبَتْ لهم يوم الظُّنونِ صوارمٌ   يومَ السقيفةِ كُسِّرَتْ أغمادُها

وقال: [من الرمل]

أتُرى طيفُكُمُ لمَّا سرى   أخذَ النَّومَ وأعطى السهرا
يا عيوناً بالغضا راقدةً   حرَّم اللهُ عليكُنَّ الكَرى
لو عدلتُنَّ تساهَمْنا جَوًى   مِثْلَما كُنَّا اشتركنا نظرا
سَلْ فروعَ البانِ عن قلبي فقَد   وهِمَ البارقُ فيما ذَكَرا
قال في الرَّبْعِ وما أحسَبُهُ   فارقَ الأظعانَ حتى انفطَرا
ما على البارق مِن سُقيا الحمى   أحرَامٌ عِندَهُ أن يُمطَرا
وإذا ما فاتَهُ ريُّكُمُ   لا سَقَى(١) الله الغَضَا والسَّمُرا
حبَّذا فيكَ حديثٌ باطنٌ   فطِنَ الدَّمعُ به فانتشرا
دونَ نَيلِ الضَّيمِ نفسٌ حُرَّةٌ   والمطايا والفَيافي والسُّرى
أيُّها القاعدُ عن زهرتِهِ   ما يَروعُ السَّيفُ حتَّى يُشهَرا
شُنَّها فهْيَ على عِلَّاتِها   تُلبِسُ الحيَّ عجاجاً(٢) أكدَرا
قد رَجَوناك فشَمِّرْ جاهِداً   إنَّما يُدرِكُها مَن شَمَّرا

وقال يرثي أهله وأصدقاءه: [من الخفيف]

طَلَبُ الأمنِ في الزَّمانِ عَسيرُ   وَحَديثُ المُنى خِداعٌ وَزُورُ
تبدَهُ الحازِمَ الخُطوبُ فإن قُدِّر أبدَتْ ما أغفَلَ التَّقديرُ
وإذا قتَّرَ البَخيلُ فللأيَّام في طَيِّ عُمرِهِ تبذيرُ
لا تَظُنَّ الفَقيدَ أفرَدَهُ البَيْـ   ـنُ فَقَدْ أعجَلَ المُقيمَ المسيرُ
سَلْ بغَمدانَ أينَ ساكنُهُ سَيْـ   ـفٌ وَقُل لِلنُّعمانِ أينَ السَّديرُ
عَدَلَ الدَّهرُ فيهمُ قِسمةَ الْـ   ـجورِ فَلا عامِرٌ ولا مَعمورُ
إنَّ في جانِبِ المُقطَّمِ مَهجو   راً ومِنْ أجلِهِ تُزارُ القُبورُ
ومُقيماً على المَعَرَّةِ تَطويـ   ـهِ اللَّيالي وَذِكرُهُ مَنشورُ

---

(١) في الديوان: وإذا أغضبه ريكم... فسقى.
(٢) العَجاج: الغبار والدخان. المعجم الوسيط (عجج).

عُصبةٌ كُنتُ أدَّعي لهم الودَّ فصبري لُؤمٌ عليهِمْ كثيرُ

وَحياتي عُذرٌ فهل لوِقائي أجلٌ عاجِلٌ وَعُمرٌ قصيرُ
يا أيُّها الظَّاعِنونَ لا زالَ لِلْغَيْـ ـثِ رَواحٌ علَيكُمُ وبُكورُ
لستُ أرضى بالدَّمع فيكُم فهل يملِكُ ريَّ البُحورِ إلَّا البُحورُ
قد رأينا ديارَكُمْ وعليها أثَرٌ من عُفاتِكُم مَهجورُ
وسَألنا أطلالَها فأجابَتْ ومِنَ الصَّمتِ واعظٌ ونَذيرُ
عَرَصاتٌ كأنَّهنَّ ليالٍ فارَقتْها عِندَ الكَمال البُدورُ
بانَ ذُلُّ الأسى عليها فلِلغَيـ ـثِ بُكاءٌ ولِلنَّسيمِ زَفيرُ
ذَكَّرتنا عُهودَكُم بَعدَما طا لَتْ لَيالٍ من بعدها وشهورُ
عجباً كيف لم نَمُتْ في مَغانيـ ـها أسًى ما القلوبُ إلَّا صخورُ
يا دِيارَ الأحبابِ غَيَّرَكِ الدَّهـ ـرُ فكانَت بَعدَ الأمورِ أُمورُ
أينَ أيَّامُنا بِظِلِّكِ والشَّمـ ـلُ جَميعٌ والعيشُ غَضٌّ نضيرُ

نشوَةٌ أعقبَتْ خُماراً مِنَ الهَمِّ ولَكن قد يفرقُ المَخمورُ
وزَمانٌ مضى فَما عُرِفَ الأوَّ لُ إلَّا بما جَناهُ الأخيرُ

يا نُجومَ العُلى وما في الـ ـلَيلِ مِن بَعدكُم نُجومٌ تَغورُ
وَعَفا الجودُ والكَريمُ بَخيلٌ في المُلِمَّاتِ والغَنيُّ الفَقيرُ
وتَساوى الوَرى فَلَم يبقَ مَشكو رٌ على مِنَّةٍ ولا مَعذورُ
لا يُجاوِركُمُ الصَّعيدُ بسوءٍ فَهوَ لِلنَّازلينَ بِئسَ المجيرُ
وسَقاكُم من السَّحابِ صَناعُ الـ ـكَفِّ يُسدي في رَوضةٍ ويُنيرُ
كُلُّ غَنَّاءَ يقلعُ الغَيثُ عنها وَلَها أعينٌ مِن النُّورِ حُورُ
عارِضٌ مُغضِبٌ على المَحلِ لا يَخـ ـطُرُ إلَّا وَسَيفُه مَشهورُ
أشرَقَت فيه للشَّقيقِ خُدودٌ وأضاءَتْ مِنَ الأقاحي(١) ثُغورُ
عَمَّ مَعروفُهُ ففي كُلِّ وادٍ مِن أياديهِ رَوضَةٌ وَغديرُ
وعلى الرَّغمِ أن يَجودَ عليكُمْ واهِبٌ بالنَّوالِ منكُم جَديرُ

---

(١) الأقاحي؛ جمع أُقحوان: وهو نوع من النباتات، فيها البابونج الأبيض. المعجم الوسيط (قحي).

مـا أرى الـشِّـعـرَ كـافـيـاً فـي مـراثـيــ ... كُـمْ ولـكـنْ قـد يَـنـفُـثُ الـمَـصـدورُ
وإذا مـا أَطَـلْـتُ فـيـه ولـم يُـشْــ ... فِ غـلـيـلاً فـكـلُّـهُ تـقـصـيـرُ

وقال: [من الطويل]

خَلِيلَيَّ بُثَّا ما أَملَّتْ علَيكُما ... دُموعي فإنِّي ما أُريدُ الهوى سِرّا
سَقى اللهُ أياماً من الدَّهرِ لم تَشِبْ ... بِهِم كأنَّا ما عرفنا بها الدَّهرا
ويا طَرفُ قد حذَّرتُكَ النَّظرَةَ التي ... خَلَستَ فَما راعيتَ نهياً ولا أمرا
ويا قلبُ قد أَردَاكَ من قَبلُ مَرَّةً ... فَوَيحَكَ لِمْ طاوَعْتَهُ مرَّةً أخرى

وقال أيضاً: [من الرجز]

أمَّا الزَّمانُ فمُوجِزٌ في وَعْظِهِ ... متعمِّد الإسهابِ في إيجازِهِ
لا تُخدَعَنَّ فَما حقيقةُ أمرِهِ ... عِندَ النُّهى إلَّا كَمِثلِ مَجازِهِ
كم مَوعِدٍ منهُ تَعَلَّقَ طامِعٌ ... سَفَهاً فَحالَ الموتُ دون نجازِهِ
مَن كانَ مُقتَنِعاً فقد وَجَدَ الغِنى ... في شامِهِ وعراقِهِ وحجازِهِ

وقال أيضاً: [من الكامل]

استغفِرِ الملكَ القَديمَ وعُذْ بِهِ ... مِن شَرِّ غاوٍ(١) في الحُطامِ مُنافِسِ
واصنَعْ جَميلاً لا يَضيعُ صَنيعُهُ ... واسمحْ بقُوتِكَ للضَّعيفِ البائسِ
لا تركَنَنَّ إلى المِراءِ فإنَّهُ ... سَبَبٌ لِكُلِّ تنافُرٍ وتشاوسِ
واقنَعْ فَفي عَيشِ القناعةِ نعمَةٌ ... لا تبتغي كَفَّ الزَّمانِ الخالِسِ
ضلَّتْ بنو غَطْفانَ فيه فقُتِّلَتْ ... ساداتُها غَضَباً لِلَطمةِ داحسِ
والحارثُ البَكرِيُّ قامَ إلى الوَغى ... مِنْ بَعدِ ما أمضى عَزيمةَ جالِسِ
أَلِفَ البَخيلُ مَكاسَهُ في مالِهِ ... والعمرُ أُنفِقَ مِنهُ غيرُ مُماكِسِ
عاذَتْ بَنو حوَّاءَ مِن إبليسَ في الدُّنيا وَكَم فيها فُنونُ أبالِسِ
دَرَسوا العُلومَ لِيَملِكوا بِجدالِهِمْ ... فيها صُدورَ مَراتِبٍ وَمَجالِسِ
وتزَهَّدوا حتَّى أصابوا فُرصةً ... في أخذِ مالِ مَساجِدٍ وَمدارسِ(٢)

---

(١) في الديوان: عافٍ.

(٢) في الديوان: وكنائسِ

إيـوانُ كـسـرى صـارَ مـرتَـعَ ثُـلَّـةٍ ... وديـارُهُ أضـحَـتْ مُـنـاخَ عـرائِـسِ
والـحِـيـرةُ الـبَـيـضـاءُ بُـدِّلَ أُنـسُـهـا ... قَـدَرٌ أطـاعَـتْـهُ مـدائـنُ فـارِسِ
يـا عَـقلُ مثلُكَ في اللَّطائفِ مَنهَجٌ ... فـإذا عَـثَـرْتَ فـلا لَـعـاً لـلـتَّـاعِـسِ
أمَّـا الـنُّـجومُ فـقَـد تـضـمَّـن شـأنَـهـا ... جَـهلُ الـلَّـبيـبِ وبُـعـدُ نَـيـلِ الـلَّامِـسِ
عـمـري لـقَـد ذَهَـبَ الَّـذيـن تَـفـكَّـروا ... فـيـهـا وَمـا ظَـفِـروا بِـغَـيـرِ وسـاوِسِ
مـا قَـولُ بَـطـلـيـمـوسَ فـيـهـا حُـجَّـةٌ ... عـنـدي ولا الـمَـرويُّ عـن رُسـطـالِـسِ
حـارَ الأنـامُ فـلا دَلالَـةُ نـاظِـرٍ ... تَـشـفـي الـعُـقـولَ ولا إمـارَةُ قـابِـسِ
لا تَـحـفَـلَـنَّ بـمـا حَـوَتْـهُ صَـحـائِـفٌ ... لَـهُـمُ وإن وُجِـدَتْ بـخَـطٍّ دارِسِ
فـالـمَـيـنُ رُكِّـبَ فـي طـبـائـعَ أربَـعٍ ... والـصِّـدقُ عُـدَّ مِـنَ الـقَـبـيـلِ الـخـامِـسِ
هَـيـهـاتَ مـا شَـرَفُ الأُصـولِ بـنـافـعٍ ... حـتَّـى تـكـونَ ذَوائِـبٌ كـمـغـارِسِ
لا تَـفـخـرنَّ وإن فَـخَـرْتَ فـبِـالـتُّـقـى ... نـاضِـلْ وفـي بَـذلِ الـمـكـارِمِ نـافِـسِ
سُـبـحـانَ مـن نـظَـمَ الـنُّـجـومَ قـلائـداً ... فـي جُـنـحِ داجـيـة الـظـلامِ الـدامـسِ

وقال أيضاً: [من الكامل]

يـا نـاقُ إن أثـرى الـعُـذَيـبُ ورَوَّضـا ... فـلـنـا ديـونٌ بـالأسِـنَّـةِ تـقـتـضـى
قـد مـاطـلَ الـقـدرُ الـجـمـوحُ بـوَعْـدِهِ ... فـيـهـا وآنَ لُـمْـغـمَـدٍ أن يـنـتـضـى

وقال أيضاً: [من الكامل]

وبِـجـانِـبِ الـعَـلَـمَـيـنِ شـاكٍ سِـرَّهُ ... أنَّـى رَعَـيـتُ لـهُ الـنُّـجـومَ وغَـمَّـضـا
ومُـرَنَّـحٍ فَـطِـنَ الـنَّـسـيـمُ بِـوَجْـدِهِ ... فَـرَوى لـهُ خـبـرَ الـعُـذَيـبِ مُـعـرِّضـا
وسَـلِ الـبـريـق وقَـدْ أقـامَ بـحـاجِـرٍ ... إن كـان أضـمَـرَ أن يَـمُـرَّ عـلـى الـغـضـا

وقال أيضاً: [من المتقارب]

دَعـوهـا تُـنـاضِـلُ بـالأذرُعِ ... فـأيـنَ الـعـواصـمُ مـن لَـعـلَـعِ
ومـدُّوا أزِمَّـتَـهـا بـالـحَـنـيـنِ ... فـلـولا الـصَّـبـابَـةُ لـم تَـتـبَـعِ
ويـا سَـعـدُ هَـلْ لَـكَ فـي وَقـفَـةٍ ... عـلـى الـدَّارِ تَـسْـعَـدُ فـيـمـا تـعـي
كـتَـمـتُ الـغَـرامَ ولـكـنْ أتـيـتُ ... بـحُـكـمِ الـصَّـبـابَـة مِـن مَـدمَـعـي
وأُقـسِـمُ أنّـيَ أهـواكُـمُ ... ولـيـسَ الـيَـمـيـنُ عـلـى الـمُـدَّعـي

وقال: [من الكامل]

فـي كـلِّ يـوم نَـشْـطَـةٌ ووَثـاقُ فَـمَـتـى يَـكـونُ لـدائِـهـا إفـراقُ
تَـشـكـو صَـداهـا والـدُّمـوعُ مَـنـاهِـلٌ ووَجـى الـمَـنـاسِـمُ والـخُـدودُ طِـراقُ

وقال يعاتب محمود صاحب حلب: [من الخفيف]

قَـدْ قَـنِـعْـنـا مـن وصـلِـكُـمْ بـالـخـيـالِ ورضـيـنـا مـن وعـدِكُـمْ بـالـمِـطـالِ
وصَـبَـرْنـا عـلـى مِـلالِـكُـم الـزا ئـدِ عـن كـلِّ مـذهـبٍ فـي الـمِـلالِ
ورأيـنـا ديـارَكُـمْ فـلـقـيـنـا كـلَّ رسـمٍ بـالٍ بـجـسـمٍ بـالـي
دارسـاتٍ ونـاحـلـيـن كـمـا يُـفْـ رَقُ بـيـنَ الـعُـشَّـاقِ والأطـلالِ
خَـبِّـرونـا عـن الـكـرى واسـمـعـوا مِـنَّـا حـديـثَ الـغـرامِ والـبَـلـبـالِ
حـفـظَ الـلـهُ معـشـراً ضـيَّـعوا الـعَـهْـ ـدَ وحـالـوا فـي سـائـر الأحـوالِ
ثَـقَّـلَ الـنـاسُ فـي الـطِّـلابِ وخـفَّـفْـ تُ بـجُـهـدي عـلـيـكَ مـن أثـقـالـي
وأرانـي كـلَّ يـومٍ إلـى خَـلْـ ـفٍ كـأنـي خـرجـتُ فـي الـخـيـالِ
مـا اتَّـفَـقْـنـا إلَّا عـلـى صـحـبـةِ الـدَّهْـ ـرِ ولـكـن بـدا لـكـم وبـدا لـي

وقال أيضاً: [من البسيط]

نـشـدتُـكَ الـلـهَ هـلْ أُنـسـيـتَ لـيـلَـتـنـا عـلـى الـثـنـيَّـةِ دونَ الـسَّـفـحِ والـعـلـمِ
لـولا عَـقـابـيـلُ وَجـدٍ قـلـتُ وُدُّهـمُ كـخُـلَّـبِ الـبَـرقِ لـم يُـمطِـرْ ولـم يَـدُمِ
وبـانَـةُ الـسَّـفـحِ تُـغـريـنـي بـذِكـرِهـمُ وجـداً فـيـالَـيـتَـهـا بـانَـتْ كَـعَـهـدِهِـمِ
آهـاً لِـقـلـبِـكَ مِـن نـجـدٍ وسـاكِـنِـهِ لـقـد عَـلِـقـتَ بِـشِـعْـبٍ غـيـرِ مُـلـتَـئِـمِ
يـا طـالـبَ الـعِـزِّ من خـفـضٍ ومـن دَعَـةٍ مـا يُـدرَكُ الـمَـجـدُ بـيـن الـشَّـاءِ والـنَّـعَـمِ

قال أيضاً: [من الخفيف]

مـا عـلـى أحـسـنِـكُـم لـو أحـسَـنـا إنَّـمـا نـطـلـب شـيـئـاً هَـيِّـنـا
قـد شَـجـانـا الـيـأسُ مِـن بُـعـدكـمُ فَـغَـدونـا بـأحـاديـثِ الـمُـنـى
لا وَسِـحـرٌ بـيـنَ أجـفـانِـكُـمُ فـتَـنَ الـحُـبُّ بـهِ مـن فـتَـنـا
وحَـديـثٍ مـن مـواعـيـدِكُـمُ تـحـسُـدُ الـعَـيـنُ عـلـيـهِ الأذُنـا
مـا رَحَـلـتُ الـعـيـسَ عـنْ أرضِـكُـمُ فـرأَتْ عـيـنـايَ شَـيـئـاً حَـسَـنـاً

هـل لـنـا نـحـوَكُـم مِـن عـودَةٍ ... ومِـنَ الـتَّـعـلـيـلِ قـولـي هَـلْ لـنـا
ولَـعـمـري لـو وجـدنـا راحـةً ... مـن هـواكـم مـا طـلـبـنـا[1] شَـجَـنـا
يـا نـديـمـيَّ عـلـى ذِكـرِهِـمُ ... وحـديـثُ الـشَّـوقِ قـد أسـكَـرنـا
بـيـن عـذري وضـمـيـري عـربٌ ... يـأمـنُ الـخـائـفُ فـيـهـم مـا جـنـى
كـلَّـمـا شَـنَّـتْ عـلـيـهـم غـارةً ... أغـمـدوا الـبـيـضَ وسـلُّـوا الأعـيُـنـا

وقال: [من مجزوء الكامل]

يـا مـنـفـذاً مـاء الـجـفـو ... نِ[2] وكـنـتُ أُنـفِـقُـهُ عـلـيـه
إنْ لـم تـكُـنْ عـيـنـي فـأنْـ ... ـتَ أعَـزُّ مَـنْ نـظـرَتْ إلـيـه

عبد العزيز بن أحمد[3]

ابن محمد بن علي بن سليمان، أبو محمد، الكَتَّاني، الصوفي، الحافظ، الدمشقي، أحد الرحَّالين في طلب العلم، ولد في رجب سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، تُوفِّي في جمادى الآخرة، وكان من المكثرين من الحديث كتابة وسماعاً مع الصدق والأمانة والسلامة.

محمد بن إبراهيم[4]

ابن علي بن إبراهيم، أبو بكر، العطَّار، الحافظ، الأصفهاني، كان عظيم الشأن ببلده، عارفاً بالرجال والمتون، وكان إماماً ثقة.

محمد بن محمد[5]

أبو عبد الله، الطالقاني، الصوفي، سافر إلى البلاد، وسمع الكثير، وسكن صور إلى أن مات بها في ذي القعدة عن ثمانين سنة.

---

(١) في الديوان: لطلبنا.

(٢) في (ب): العيون.

(٣) تاريخ دمشق ٣٦/ ٢٦٢-٢٦٥، والأنساب ٣/ ٩-٢١٠، والمنتظم ١٦/ ١٥٨-١٩٥. وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٢٤٨.

(٤) تاريخ بغداد ١/ ٤١٧، والمنتظم ١٦/ ١٥٩.

(٥) تاريخ دمشق ٥٥/ ١٩٨-٢٠٠.

ومن رواياته عن أبي عبد الرحمن السُّلمي(١)، عن محمد بن عبد الله الرازي، عن أبي الحسين النُّوري قال: رأيتُ غلاماً جميلاً ببغداد، فنظرتُ إليه، ثم أردت أن أُكرِّر النظر، فقلت: تلبسون النِّعال الصَّرارة، وتمشون في الطرقات؟ فقال الغلام: أحسنتَ! أتُجمِّشُ(٢) بالعلم؟ ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

تأمَّل بعينِ الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً إلى صفةٍ فيها بدائعُ فاطرِ
ولا تُعْطِ حظَّ النَّفس فيها لِما بِها وكُنْ ناظراً بالحقِّ قُدرةَ قادرِ

محمد بن عبيد الله(٣)

ابن أحمد بن أبي الرعد الحنفي، قاضي عُكْبَرا، تُوفِّي بها يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر، وكان ثقةً.

الماوردية البصرية(٤)

كانت زاهدةً عابدةً صالحة، تجمع إليها النساء فتعظُهُنَّ وتؤدِّبهنَّ، قاربت ثمانين سنة، أقامت منها خمسين لا تفطر بالنهار ولا تنام بالليل، ولا تأكل خبزاً ولا رطباً ولا تمراً، وإنما تُطحن لها الباقِلَاء فتتقوَّت بها، وكانت وفاتُها بالبصرة، ولم يبقَ بالبلد إلا من شهد جنازتها، ودُفنت بظاهر البصرة عند قبور الصالحين.

السنة السابعة والستون وأربع مئة

فيها في صفر مرض القائمُ بأمر الله مرضاً شديداً، وانتفخ حلقُه، وامتنع من الفَصْد، فقصد الوزيرُ فخرُ الدولة بابَ الحجرة ليلاً، وحلف بالأيمان المغلَّظة أنه لا يبرح حتى يقع الفَصْد، فأذن في إحضار الطبيب، وافتصد فصلح، وانزعج الناس في الدار

(١) طبقات الصوفية ص ١٦٧ .
(٢) يقال: جمش المرأة؛ أي: غازلها بقرصٍ أو ملاعبة. المعجم الوسيط (جمش).
(٣) المنتظم ١٦/١٥٩ .
(٤) صفة الصفوة ٤/٤٧ ، والمنتظم ١٦/١٥٩-١٦٠ .

والحريم، ونقلوا أموالهم إلى الجانب الغربي، وارتجَّ البلد، ولمَّا تفضَّل الله تعالى بالعافية فرح الناس واطمأنُّوا[1]، فقال الشريف بن البياضي: [من البسيط]

إن كان أرجَفَ مَنْ في قلبهِ مَرَضُ ... بما تكادُ لهُ الأرواحُ تنفطِرُ
ففي السَّلامةِ ممَّا يرجفونَ بهِ ... حلاوةٌ ثمَّ في أفواههم صَبِرُ
وما يضرُّ أميرَ المؤمنين إذا ... أمسى سليماً من لأواءِ ما ذكروا
قد أرجفوا برسولِ اللهِ في أُحدٍ ... فلم يكُنْ منهم نفعٌ ولا ضَرَرُ
واللهِ لو علموا ما في سلامتِهِ ... لقاسموه على الأرواح إن قَدَروا
لكنَّهم شربوا في ظلِّ دولتِهِ ... خمرَ السُّرورِ فقالوا ذاك إذ سكِروا
عفواً وصفحاً أميرَ المؤمنين لهُمْ ... في جنب عفوِكَ أجرامٌ لها خطَرُ
فإن عفوتَ فأهلُ العفوِ أنتَ وإنْ ... أبيتَ ذلك فالأقدارُ تنتظِرُ

وفي صفر عاد الغرق إلى بغداد، ومطرت السماء مطراً متداركاً، وأكثر البنيان لم يكن، فقعد الناس على التُّلول والماء يأتيهم من فوق ومن تحت، ومات خلقٌ كثير، ووقع الوباء في الدنيا، فمات بالرحبة عشرةُ آلاف، ومات معظم أهل خراسان والبصرة وواسط، وهبَّتْ ريحٌ سوداء فرمَتْ معظمَ النخل ببغداد وواسط والبصرة.

وفي ربيع الأول فتح شكلي أمير التركمان عكَّا، وسببه أنه كان بها عند أمير الجيوش بدر الجمالي رجل يُعرف بابن شتحا، وكان رفيع المنزلة عند أمير الجيوش، يثقُ به في أموره، ولمَّا خرج إلى مصر أخذه معه، فلمَّا حصل لأمير الجيوش المالُ والجواهرُ بعث بذلك مع ابن شتحا إلى عكَّا في البحر، ليكون فيها مع أمواله وذخائره التي بها، فكُسِر بهما المركب، فغرق ما كان معه، وكان معه في المركب جماعةٌ من أهل عكَّا، فقال: ما بقي لنا وجهٌ عند أمير الجيوش، فهل لكم في أمر توافقوني عليه يكون فيه السلامة؟ فقالوا: نفعل. وكان أمير الجيوش قد أخذ معه إلى مصر رهائن من عكَّا ستين نفساً من خيارهم، فقال لهم ابن شتحا: إن أمير الجيوش قتلهم. فقابلوه على فِعله، فلطم أهلُهم، وأقاموا المآتم، ووافقوه بالحصار، فكتب ابن شتحا إلى شكلي ـ وكان

(١) إلى هنا الخبر في المنتظم ١٦/ ١٦١ .

قريباً منهم وقد أهلك أهل البلد بالحصار ـ فقال: تعالَ في الليل لنفتحَ لك الباب. فجاء بعسكره، وفتحوا له الباب، فدخل فقبض على فارس الدولة النائب عن بدر وابن أبي الليث القاضي وعمال بدر، فضرب رقابهم، واستولى على أموال بدر وذخائره، وقبض على ابنه وزوجته وابنته، وأحضر أبا يعلى بن الأقساسي وقال: أليس بدرٌ زوَّجني هذه ـ يعني ابنته ـ وأنت شاهد عليه؟ قال: بلى. فأحضر القاضي والشهودَ وزوَّجها منه، ودخل بها في ليلته، وأخرج أبا يعلى من عكَّا بعد ذلك؛ لأنه صاحبُ بدر. وقويَ البلدُ، واستفحل أمرُه، وبعث إليه أتْسِز التركي صاحب القدس والرملة، وكان متقدماً على جميع الترك والناوكية بالشام، فقال: ابعَثْ لي زوجةَ بدر وابنَه ونصفَ ما أخذتَ من المال. فامتنع عليه، وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل، وصاهر ابن منزو صاحب دمشق على أخته، وراسل بني كلب، وتقوَّى بهم واستحلفهم، وأخذ رهائنهم، وأعطاهم رهائنه، وكان مسمار أحدُ مُقدَّميهم معه.

وفي هذا الوقت وردت الأخبار أن ملك شاه عبر جَيحون ليأخذ بثأر أبيه، وأنه حاصر تِرْمِذ، وأخذ ولبس خِلْعة الخليفة عليها، وأنه وقعت قطعة من السور وصل إليها النقَّابون وأحرقوها، ودخل العسكر، ونهبوا البلد، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا طغاتكين أخا شمس الملك بن طمغاج خان صاحب بخارى وسمرقند، وأنَّ شمس الملك بعث إلى السطان يلتمس الصلح، فأجابه وصالحه، وعاد السلطان إلى مرو وهو على عزم الوصول إلى بغداد، وأنَّ شمس الملك بعث للسلطان خيلاً وثياباً وطيباً وألطافاً، وبعث إليه السلطان أيضاً عِوَضَ هديته، ووصلت كتب السلطان إلى بغداد بذلك، وتُوفِّي بدر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وكان في خدمة السلطان على تِرْمِذ، فمات بها، ورتَّب نظام الملك ابنه نصر بن بدر مكانه.

وفي جمادى الأولى تُوفِّي محمود بن الزَّوقلية صاحب حلب، ورتَّبها لولده نصر مكانه.

وفي جمادى الآخرة ورد عميد الدولة إلى العراق، وهو كان السبب في صلح ملكشاه، وصلح شمس الملك صاحب ما وراء النهر، وكان ملكشاه يقول: لولا عميد الدولة [ما صالحتُه حتى أنزل على سمرقند، وكان عميد الدولة][1] عاقلاً مدبراً، ولمَّا

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

قدم بغداد خرج الخليفة والخدم والخواصُّ والحُجَّاب لاستقباله، وبعث إليه رسالةً جميلةً أنبأت عن جميل الرأي فيه، فقويَتْ نفسه، وانشرح صدرُه، وخرج معظم أهل بغداد الخواص والعوام سروراً بوروده وسلامته؛ لأنه كان محسناً إليهم.

وفي رجب توفي القائم بأمر الله، وولي عُدَّةُ الدين [بن] الذخيرة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الباب السابع والعشرون في خلافة المقتدي [بأمر] الله

واسمه عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس محمد بن عبد الله الإمام القائم بالله، وكان يُلقَّب قبل الخلافة بعُدَّة الدين، ويكنى أبا القاسم، ولم يكن أبوه أبو العباس يلي الخلافة؛ لأنه مات في حياة أبيه القائم، ومولد المقتدي يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وأربع مئة، وأمُّه أم ولد أرمينية تُسمى أرجوان وتُدعى قُرَّةُ العين، أدركَتْ خلافتَه وخلافةَ ابنه وابنِ ابنه، وكان الذخيرة قد بقي من أولاد القائم ولم يبقَ له سواه، فتوفِّي، فاستشعر الناس انقراض الدولة لعدم ولد البيت القادري وأنَّ من سواهم من الأسرة مخالطُ العوام من البلد، وجار مجرى السوقة، وأن ذلك ينفر قلوب العامة عن المتولي، فحفظ الله هذا البيت بأن كان الذخيرة قد ألمَّ بجاريته أرجوان، ومات وهي حامل، وتشوَّف الناس إلى حملها، فولدت عدة الدين المقتدي بعد موت أبيه بخمسة أشهر، فوقعت البشائر، ولم يزل جده القائم ضنيناً به حدباً عليه، فلما كانت نوبة البساسيري كان لعدة الدين دون أربع سنين، فسيَّره أهلُه، وحملوه إلى أبي الغنائم بن المحلبان، فسار به إلى الجزيرة، وتنقَّل به وبأمه، [وببنت القائم، ثم ردَّهم إلى بغداد لمَّا عاد القائم، ولمَّا كبر ذُكر على المنابر، ولمَّا احتضر القائم كتب كتاباً بالعهد][1] ولم يزل منذ حين بلوغه إلى أن ولي الخلافة على الستر والسلامة والعفة والصيانة، وحفِظَ اللهُ به هذا البيت، وظهرت كراماته؛ فإن ملكشاه تغيَّر عليه، وأمره بالخروج من بغداد، فقال: أمهلني عشرة أيام. فمات ملكشاه سرعة.

---

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع السابق من (ب).

ذكر بيعته:

جلس بعد وفاة جدِّه[١] يوم الجمعة ثالث شعبان في دار الشجرة وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء لطيفة وطرحة قصب دُرِّية، ودخل الوزير فخر الدولة وعميد الدولة ومؤيد الملك بن نظام الملك، والنقيبان طرَّاد والعلوي وقاضي القضاة الدامغاني ودُبيس وأبو طالب الزَّينبي وابن جردة ووجوه الأشراف والعدول والأعيان وأبو إسحاق الشيرازي وابن الصباغ وأبو محمد التميمي، وأول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى مُقدَّم الحنابلة.

قال أبو جعفر: لمَّا بايعتُه أنشدتُه: [من الطويل]

إذا سيِّدٌ منا مضى قام سيِّدٌ[٢]

ثم أُرتِجَ عليَّ، فقال المقتدي:

قَؤولٌ بما قال الرِّجالُ فعولُ

وكان الشريف قد بايعه قبل هذا عند غسل القائم، ولُقِّب بالمقتدي بأمر الله، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وأيام، وكان من رجالات بني العباس، له همة عالية، وشجاعة وهيبة، وكان حسن الهيئة والوجه، ضخم الجسم.

وفي شعبان أمر الوزير فخر الدولة المحتسب بنفي المفسدات من حريم دار الخلافة، وبيعِ دورهِنَّ، ومنع الناس أن يدخلوا الحمامات بغير مَيازِر، وأخرب أبراج الحمام والهوادي[٣]، ومنع من اللعب بالطيور لأجل الاطلاع على الناس، ومنع الحمَّامين من إجراء ماءِ الحمَّامات إلى دجلة، وأمرهم بحفر آبار يجتمع فيها الماء، ونهى الملَّاحين أن يحملوا الرجال والنساء في السفن مجتمعين[٤].

وفي شعبان ورد الخبر بقتل ملكشاه عمَّتَه كوهر خاتون، وكانت زوجة أريسغي التركي، وكانت قد انصرفت من العسكر قاصدةً أذربيجان النازوكية المترددين إلى بلاد

(١) في (خ): أبيه، والمثبت من (ب).

(٢) البيت للسموأل وهو في ديوانه ص٩١ .

(٣) في (خ) الجرادي، والمثبت من المنتظم، والهوادي من الطير: هي التي تطلب وكرها من مسافات بعيدة وتحمل البطائق والأخبار. ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب ٣/ ١٣٦ .

(٤) الخبر بطوله وبنحوه في المنتظم ١٦/ ١٦٤-١٦٦ .

الروم، وكان نظام الملك قد استقرض للسلطان منها خمسين ألف دينار، فجاء لوداعها، فنَمَتْ عليه وتهدَّدته، وأظهرت أنها تقصد النازوكية، [والمقابلة ما عوملت به من القبيح][(١)] وكانت عند قتل قاروت بك قد انصرفت من الري مستوحشة، ونهبت ما به من أعمال بنيسابور، وعاد نظام الملك إلى ملكشاه وأخبره بما أظهرت وما قد عزمت عليه، فبعث وراءها مئتي غلام، وأمرهم بقتلها، فساروا خلفها وقد رحلت مرحلتين أو ثلاثاً ولم تعلم بهم، وكانت في عسكر كثير، فجاء منهم سبعة غلمان، فهجموا عليها السُّرادق، وقتلوها عَجِلين بعد أن جرحت منهم ونكأت فيهم، ووقعت عليها جاريةٌ من جواريها تفديها بنفسها، فجُرحت عدة جراحات، وجاء باقي الغلمان وحفظوا خيمتها ومالها، وحملوا الجميع إلى ملكشاه، وسأل عن الجارية المجروحة، فأخبروه خبرها، فاصطفاها لنفسه لِما بلغه من نصحها ومحافظتها على عهد سيدتها.

وفي رمضان خرج عميد الدولة ابنُ جَهير إلى ملكشاه لأجل البيعة للمقتدي، وحمل معه ثمان مئة ثوب منوعة وخمسة عشر ألف دينار. وقيل: إنه بعث له عشرة آلاف أخرى.

وفي رمضان التقى أَتْسِز التركماني صاحب القدس بشكلي في الساحل، فهزمه، فجاء شكلي منهزماً إلى رفنية، ونزل أَتْسِز فحاصر دمشق.

ومن العجائب أنه في شوَّال وقع ببغداد حريقٌ من الجانبين، أكلت النار البلد في ساعة واحدة، وأول ما وقع بدكان خباز بنهر مُعلًى، فأتت على السوق جميعه، ثم وقعت في مطبخ الخليفة، ثم في باب الأزج، ثم وقعت في باب البصرة والكَرْخ ونهر طابق والمحال الغربية، فصارت بغداد تلولاً كما جرى عليها في الغرق.

وورد الخبر من واسط بأنها احترقت في ذلك الوقت أيضاً، فكان في كتاب ابن قاضيها إلى قاضي القضاة الدامغاني يقول فيه: وإن النار أحرقت البزَّازين والنخَّاسين ودار القاضي الوالد وغيره، حتى أتت على ما فيها من ثياب وقماش وذهب وفضة وحنطة وشعير وخزانة الحكم والسجلات، وخرج القاضي عرياناً بعد أن أشرفنا على الهلاك، وافتقر الناس وجلسوا على الطرقات.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

وفي عيد الأضحى يوم الخميس أو يوم الجمعة قُطعت الخطبة [العباسية من مكة، وأعيدت الخطبة المصرية، وكانت مدة الخطبة][١] بها أربع سنين وخمسة أشهر؛ لأنها أقيمت يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثلاث وستين وأربع مئة، وقُطِعت يوم الجمعة في هذه السنة.

ذكر السبب في ذلك:

لمَّا استولى بدر أمير الجيوش على الديار المصرية والصعيد ولم يبقَ له ما يشغله، راسل ابنَ أبي هاشم في الخطبة، فلم يلتفِتْ، فعدل عنه إلى أعيان بني عمه، وقال: أنتم أولى منه، فلم يلتفتوا، فراسلهم ثاني مرة وقال: الحُجَّة التي كان يحتجُّ بها قد زالت، وهي وفاةُ ألب أرسلان وخليفةِ بغداد، ولم يبقَ في رقبته عهد، وهذه الدولة التي نحن فيها لكم ومنكم، وقد فعلتم ما لا ينغسل إلا بالرجوع، فإن أبيتم كاتَبْنا بني عمكم الأشراف، أخرجناكم من البلد، وقوَّيناهم بالمال والرجال. فاجتمعوا [وبعث لهم المال واجتمعوا][٢] فاجتمعوا بابن أبي هاشم، وأعادوا عليه ما قال، وقالوا: المصلحة إعادة الخطبة للمصريين، وإلَّا خرج الأمر من أيدينا، وكان الغلاء قد وقع بالحجاز، وقطع عنهم الميرة، فخاف ابنُ أبي هاشم، فقبض المالَ الذي بعث به أمير الجيوش، وأعاد الخطبة كارهاً غير مختار، وقلعت ألقاب القائم والسلطان من لوح كان على زمزم، وحُطَّت الكسوة الخراسانية، وجُعِلَ مكانها كسوة بيضاء دبيقية، عليها ألقاب المستنصر صاحب مصر.

وفيها قَتَل أتْسِز أميرَ التركمان شكلي بطبرية، وأوقع بولد قُتُلْمِش؛ كان شكلي قد كتب إلى ابن قُتُلْمِش التركي ـ وكان في أطراف الروم ـ يحثُّه على قصد الشام ليضاف إليه: ابن قتُلْمِش هو ابن عم السلطان ألب أرسلان، وكان في كتاب شكلي إليه: إلى ابن قُتُلْمِش، أنت من السلجوقية وبيت الملك، وإذا أطعناك وكنا في خدمتك تشرَّفنا بك وافتخرنا، وأتْسِز ليس من بيت الملك، ولا نرضى باتباعه وطاعته.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

وهوَّن عليه أمر أتْسِز والشام. قال: وقد جاءتنا من مصر وعودٌ بالأموال إذا كسرناه وأبعدناه عن الشام، فجاءه ابن قُتُلْمِش، فاجتمعا وسارا إلى طبرية، وأظهروا طاعة صاحب مصر، فسار إليهم أتْسِز من القدس، وخرجوا إليه، وساعدهم أهلُها واقتتلوا، فهزمهم أتْسِز، وقتل شكلي ولدَه صبراً بين يديه، وأطلق أباه؛ لأنه كان شيخاً كبيراً، ونهب طبرية، وقتل أهلها، وأسر ابنَ قتُلْمِش وأخاً له صغيراً وابنَ عمه، وكان لابن قُتُلْمِش سبع سراري تركيات مثمنات، فقالت له إحداهنَّ وكانت حاملاً منه: تدعنا يفضحنا الأعداء؟ قال: فما أصنع؟ قالت: اقتلنا جميعاً. فقتلهنَّ.

وأسلم ولد شكلي، وجاء إلى عكَّا، فأغلق أهلُها الباب في وجهه وكاتبوا جوهر المدني خادم صاحب مصر وكان مقيماً بصور، فقدم عليهم، فجاؤوا إليه وسلَّموا إليه البلد، وأعادوا الخطبة لصاحب مصر، ووصل إلى الشام في هذا الشهر ثلاثة آلاف من الغلمان من عسكر ملكشاه إلى أتْسِز كان كاتبهم، وورد ـ أيضاً ـ أخٌ لابن قتُلْمِش ـ كان في الروم ـ إلى حلب فحصرها، وكان محمود بن الزَّوقلية قد مات، وملَكَ ابنُه نصر بن محمود، فخرج إليه نصر بأحداث حلب فقاتله ودفعه وقال: أنا نائب السلطان، قد[1] كنتَ مطيعاً للسلطان فارحَلْ عنا. وأرضاه بمال، فرحل ونزل بأرض سلمية، وراسل أتْسِز في مضيِّ[2] أخيه، فقال أتْسِز: قد راسلتُ السلطان بسببه، وأنا متوقعٌ الجواب، فإن رسم أنفذتُه إليه، وإن رسم شيئاً آخر كان. فقصد ابنُ قُتُلْمِش أنطاكية وكان في قلبه من أحداث حلب، حيث قاتلوه نهبوا أصحابه، وقتلوا منهم جماعة، وحصروا أنطاكية، وقرَّر عليهم عشرين ألف دينار في كل سنة؛ ليحمي سوادَها من الغارات، واتَّفق أنَّ طائفة من التركمان الذين جاؤوا طالبين أتْسِز نزلوا على حلب، وخرج إليهم عدد كثير من أهلها، فسار ابن قُتُلْمِش من باب أنطاكية إلى حلب، فأخذ القافلة، وقطع آنافهم، ونهبهم؛ تشفياً بأهل حلب، وقاتل من التركمان مَنْ قاتله، ورجع فأقام على باب أنطاكية للخفارة والحماية.

---

(١) في (ب): فإن.

(٢) في (ب): في معنى.

وفي أواخر ذي الحجة ورد عميد الدولة ابنُ جَهير من عند ملكشاه، وقد أخذ البيعةَ للمقتدي على السلطان ونظام الملك والحاشية والعسكر عن غير صفاء من نظام الملك ولا تحقيق، بل مغالطة، ودفع لما في قلبه من الوزير فخر الدولة ابن جَهير مما نقل إليه أعداؤه.

وفيها تُوفِّي

الحسن بن عبد الودود(١)

ابن عبد المتكبِّر بن المهتدي، أبو علي، الهاشمي، ولد سنة ثمانين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، وقُبِلَتْ شهادتُه عند القضاة، وتُوفِّي في ربيع الآخر، ودُفن عند جامع المنصور، وكان سيداً صدوقاً.

القائم بأمر الله، أميرُ المؤمنين(٢)

واسمه عبد الله بن أحمد، القادر، وكنيته أبو جعفر، وأمه قطر الندى، أم ولد، رومية، أدركت خلافته، وماتت في سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة.

ولد القائم يوم الخميس سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، وولي الأمرَ بعد أبيه وعمره إحدى وثلاثون سنة، في ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة.

وكان جميلاً، مليحَ الوجه، أبيضَ اللون، مُشرباً حمرةً، أبيضَ الرأس واللحية، متديناً، ورعاً، زاهداً، عالماً، في وجهه أثر صفار من قيام الليل، وكان يسرد الصوم، وكان قليل الجماع؛ فلهذا قَلَّ نسلُه، وكان سبب تركه للجماع أنه جامع ليلة جاريةً له وبين يديه شمعة، فرأى صورتَه على الحائط صورةً شنيعةً، فقام عنها وقال: لا عُدْتُ إلى مثلها. وامتنع بعدما رجع من الحديثة عن أكل الطيبات، واقتصر وقتَ إفطاره على ثردة، فضعُف، فعمدت جاريةٌ له فصنعت له ثردةً في مرقة دجاجة، فلمَّا رآها قال لها: لا تعودي إلى مثلها.

وكان يحبُّ الصالحين ويبرُّهم ويزورهم في الليل، وكان كثير الصدقات، وافر الإحسان.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٦٧-١٦٨ وتحرف «الحسين» في (ب) إلى: الحسن.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٧ .

ذكر وفاته:

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب فُصِدَ القائمُ بأمر الله من ماشرا[١] لحِقَتْه عن أكل كمأة مشوية في جدي وقطايف بدهن الفستق، وأُخرِجَ مئةٌ وخمسون درهماً دماً فسكن مابه، وقد كان جسمُه منذ ورد ما ورد من حديث ذلك الماء الغاشم، وفعله ما فعل بالدار والحرم من الغَرَقِ طرق قلبه من المصائب في ذلك والأمراض تتداركه، فلمَّا كان في يوم فَصْدِه نام ولم يكن عنده أحد إلى آخر النهار، فانتبه وقد انفجر فِصادُه، وخرج منه دمٌ كثيرٌ، وسقطت قوَّتُه، وانقضَتْ مُدَّتُه، ووقع اليأسُ منه، وانتفخ وجهُه وأطرافُه، وكثُر الإرجافُ به، وظهرت أماراتُ الخوف عليه، ولمَّا أحس القائم بانقراض المُدَّة استدعى الأميرَ عدة الدين وأجلسه بين يديه، وقال له: قد استخدمتُ ابنَ أيوب وابنَ المُسلمة وابن دُرُسْت وابنَ جهير، فما رأيتُ أوفقَ وأصلحَ للدولة من ابن جَهير وولده الصحيح المقاصد المأمون على الدولة والمال، الجيد الرأي والمقال، فلا تعدِلْ عنهما ولا تخالِفْهما. وأوصاه بهما، فقبَّل عدة الدين يده وبكى، وقال: سمعاً وطاعة. وأحضر الدَّواة، وكتب القائمُ رُقعةً بذلك، وقال له: اكتُبْ جوابها بخطِّك بالإجابة والتعويل على عميد الدولة في وزارتك. فكتب، وأُحضِرَ قاضي القضاة والنقيبان من الشهود، أبو محمد ابن أخت قاضي القضاة، وأبو الحسين ابن السبي مؤدِّب الأمير، وأبو الحسين البيضاوي شيخ الشهود، في يوم الأحد تاسع شعبان، وأقاموا في الديوان إلى الليل، ثم استدعوا مع الوزير إلى الحجرة ولم يصِلْ غيرُهم، وكان الخليفة من وراء شُبَّاك مسنده والأمير عدة الدين قائمٌ على رأسه، والقوم يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، وأُخرجت رُقعةٌ فقال: اشهدوا بما تضمَّنتِ الرُّقعة التي كتبتُ فيها سطري بخطي. فقالوا: السمع والطاعة. وأُسبِلَت الستارة، وخرج الجماعة، وكان مضمونُ الرُّقعة ولايةُ العهد للأمير عدة الدين، وردَّ الأمر إليه، والتعويلَ عليه، وأن لا يُغيِّر على الخدم وغيرهم شيئاً، وكان في الرُّقعة:

(١) الماشرا: ورم حار عن ورم صفراوي يصيب الوجه، وربما غطى العين. التعريفات للمناوي ورقة ١٠٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم:

إنَّ أمير المؤمنين بحُكم ما وكَلَه اللهُ إليه من أمور عباده وبلاده، وأوجبَ عليه من صلة طريقه في الإحسان إليه، رأى أن يُفوِّض أمورَ المسلمين والنظرَ في مصالحهم وإسباغَ ظلِّ المعاطفة على أكابرهم إلى الحدِّ الذي يُخلي مشاربهم من الكدر، ويُعري ملابِسَهم من ملابس الحَذَر، فكذلك اقتضَتْ عزائمُه الميمونة إحضارَ وزيرِ دولته محمد بن محمد بن جَهير وولدَه محمد، ... وذكر الجماعة المُسَمين، وحين مثلوا بين يَدَيْ سُدَّته، أنعم متبرعاً بمشافهة سلالته [الطاهرة] (١) أبي القاسم عبيد الله بن محمد بن أمير المؤمنين بتولية أمر المسلمين، وتصييره خليفته بعده في العالمين، وذكر ما يقتضي الوصية ويتضمن الإحسان إلى الناس، واتَّفقت وفاتُه يوم الخميس الثالث عشر من شعبان، وجلس الوزير فخر الدولة وولده عميد الدولة في الديوان على الأرض حافِيَين، وقد خرقا ثوبيهما، ونحَّيا عمامتيهما، وطرحا رداءين لطيفين عِوَضَهما، وفعل الناس مثل ذلك، ومنع المقتدي الجواري والخدم من الصراخ واللَّطم، وغُلِّقت الأبواب، وكان القائم قد أوصى بأن يُغسِّله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي، وأُعْطِي ما كان عنده وعليه، فامتنع ولم يقبل شيئاً.

وقال أبو محمد التميمي: ما حسدتُ أحداً قطُّ إلَّا الشريفَ أبا جعفر في ذلك اليوم، وقد نال مرتبة التدريس والتذكرة والسفارة بين الملوك، وروايةَ الأحاديثِ، والمنزلةَ اللطيفة عند الخاصِّ والعام، فلمَّا كان ذلك اليوم خرج علينا الشريف وقد غسَّل القائم عن وصيةٍ منه بذلك، وأمر له بمال وبما عنده، وأعطاه الأمير عدة الدين جميعَ ذلك فلم يأخذ منه شيئاً، وكان له قيمة، وأخرج منديلاً من كمِّه نشَّف به القائم، وقال: هذا يكون في كفني. ثم خرج علينا ونحن قعود على الأرض كلٌّ منا قد مزَّق ثوبه، وغيَّر حالته على قدر منزلته في الدولة، وهو على حاله لم يغيِّر شيئاً، ومضى إلى مسجده، فعلمتُ أن الرجل هو ذاك.

ثم انتقل الوزير والجماعة من الديوان إلى صحن السُّلَّم بعد صلاة الظهر، وجلس المقتدي على كرسيٍّ، ودخل عليه الوزير عميد الدولة والقضاة والأعيان فبايعوه بالخلافة، وبرز المقتدي من وراء السَّبيبة(٢) فصلى بالناس العصر، وبعد ساعة حُمِلَ

---

(١) ما بين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ١٦١-١٦٣، والكلام منه.

(٢) السبيبة: شقة من الثياب. اللسان (سبب).

تابوت القائم على سكون ووقار من غير صياح ولا عويل، وصُلِّي عليه وكُبِّر أربعاً، ونُقل إلى حجرة كانت برسم جلوسه فدُفِنَ فيها، وجلس الوزير أبو عميد الدولة في صحن السلم ثلاثة أيام، وكان أبو الأغر دُبيس قد استُدعي في مرض القائم فقدم يوم الخميس بكرةً، ومات القائم بعد حضوره، ودخل مع الناس، وبايع المقتدي، وحضر [العزاء](١) مع الوزير والجماعة، وخرج في اليوم الرابع توقيع التعزية والنهوض من العزاء، وغُلِّقت الأسواق، وعُلِّقت المسوح، وفُرشت بالبواري، وناح النُّواح، ولطم الهاشميات بالحريم ليلاً بالطرف.

وعاش القائم خمساً وسبعين سنة وثمانية أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وقيل: أربعاً وسبعين سنة ـ وأقام في الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ويوماً ـ وقيل: وخمسة وعشرين يوماً، وقيل: وثمانية وأربعين سنة ـ وكان رَبْع القامة، غليظَ المحاسن، في وجهه أثرُ جُدَريٍّ وصفار من أكل الطين.

وأُحضِرَ نورُ الدولة ابنُ مَزْيَد إلى الديوان والجنائبُ بين يديه من عند الخليفة، وأُعطيَ لواءً أبيضَ مكتوباً عليه بسواد، وقميصاً من ثياب القائم التمسه، وامتنع من الخِلَع التي عُرِضَتْ عليه لأجل موت الخليفة، وحزن عليه حزناً شديداً، وسار من يومه إلى بلده، وإنما استُدعي إلى بغداد خوفاً من فتنة؛ فإنَّ العيَّارين واللصوص كانوا قد استدانوا على موت القائم لينهبوا دار الخلافة ودُور الناس، فاحترز الوزير فخرُ الدولة، وأقام الغلمان على أبواب دار الخليفة وعلى الدروب، وكانت النفوس خائفةً وَجِلةً، فكان من قضاء الله تعالى من السكون والهيبة مالم يكن في الحساب، وكأنَّه لم يَمُتْ سلطان، ولا فُقِدَ صاحبُ العصر والزمان، رحمه الله.

عبد الرحمن بن محمد(٢)

ابن المُظفَّر بن محمد بن داود، أبو الحسن بن أبي طلحة، الداودي، الحافظ، وُلِدَ سنة أربع وسبعين وثلاثة مئة، وسمع الحديث، وقرأ الفقه، ودرَّس، وأفتى ووعظ،

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) المنتظم ١٦/١٦٨-١٦٩.

وصنَّف، وكان له حظٌّ من النظم والنثر، وكان لا يفتر عن ذكر الله، وقع في بلده نهبٌ فامتنع من أكل اللحم سنين.

ودخل عليه نظام الملك زائراً له، فقعد بين يديه فوعظه، فكان من جملة ما قال: إنَّ الله قد سلَّطَكَ على عباده فانظر كيف تُجيبه إذا سألك عنهم، وإنما أنت في أضغاث أحلام، وقد رأيتَ مصارع مَنْ تقدَّمك. فبكى نظام الملك.

وكانت وفاة الداودي ببوشنجة.

سمع الحديث من أبي الحسن بن الصلت وأبي عمر بن مهدي وخلقٍ كثير.

وروى عنه أبو الوقت عبد الأول صحيحَ البخاري، وأنشد أبو الوقت من شعره فيما رواه عنه: [من الخفيف]

كان في الاجتماعِ للناس نورٌ ... فمضى النورُ وادلهمَّ الظلامُ
فسدَ الناسُ والزمانُ جميعاً ... فعلى الناس والزمان السلامُ

عبد السلام بن أحمد(١)

ابن محمد بن عمرو، أبو الغنائم، نقيب الأنصار، ولد سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، وسمع الكثير، ولقي الشيوخ، وتُوفِّي في شعبان، ودُفِنَ بمقبرة جامع المنصور.

أبو الحسن بن علي(٢)

ابن الحسن بن علي بن الطيب، الباخَرْزي، صنَّف «دمية القصر في شعر أهل العصر»، والعماد الكاتب حذا حَذْوَه، فكان الباخَرْزي فريدَ دهرِه، وله ديوان مشهور، ومن شعره: [من الكامل]

قالوا التحى ومحا الإلهُ جمالَهُ ... وكساهُ ثوبَ مَذَلَّةٍ ومَحاقِ
كتبَ الزمانُ على محاسِنِ وجهِهِ ... هذا جزاءُ مُعذِّبِ العُشَّاقِ

ومن شعره أيضاً: [من الكامل]

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٦٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٣/ ٣٣-٤٨ .

أقْوَتْ مغانيهم[1] بشطِّ الوادي فبقيتُ مقتولاً بذاك النادي[2]
وسكرتُ من خمرِ الفراقِ فرقْرَقَتْ[3] عيني الدُّموعَ على غناءِ الحادي
قالَتْ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ لاقَيتُه من حاضرٍ أو بادي
أنا في فؤادك فارْمِ طرفَكَ نحوَهُ تَرَني فقلتُ لها وأينَ فؤادي

ومن شعره أيضاً: [من الطويل]

أرى حضرةَ السُّلطانِ تقضي عُفاتُها إلى روض مجدٍ بالسماحِ يجودُ
فكم لجباهِ الرَّاغبين لديهِ مِنْ مجالِ سجودٍ في مساجد جودُ

وقال: [من الطويل]

زكاةُ رؤوسِ الناسِ في عيدِ فِطْرِهِمْ بقولِ رسولِ الله صاعٌ من البُرِّ[4]
ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصدَّقي بفيكِ علينا فَهْوَ صاعٌ من الدُّرِّ

وقال: [من الطويل]

وإنَّ اغترابَ المرءِ من غيرِ فاقةٍ ولا حاجةٍ يسمو لها لَعجيبُ
وحسبُ الفتى ذُلًّا وإنْ أدركَ الغنى وقد نالَ ملكاً أن يُقال غريبُ

ومن نثره يصف رجلاً:

اكتحلَتْ بغُرَّتِه الزَّهراء، واستضاءت بزهرتِه الغَرَّاء.

وقال: له هممٌ تنطحُ الجوزاء بالقِمم، ومحلٌّ يعصر عنقودَ الثُّريا تحت القدم.

وقال: الكريم مرتجى، إن أساء بأنه يرتجى، وسألزم حاجبَه حتى يقضي من حقي واجبَه، ولا أُفارق حضرتَه حتى يفارق الآسُ خضرتَه.

وبلغه عن إنسان تهديد قال: أمَّا تهديدُ فلان وإيعادُه وإبراقُه وإرعادُه فما أولاه بأن ينساني، ويتركَ في الغد لساني، فلستُ بالذي يتضعضع من سنانه، ولا يتقعقع من شنانه، وكيف أُجرب ذُباب السيف على ذُباب الصيف.

---

(١) في معجم الأدباء: معاهدهم.
(٢) في معجم الأدباء: بشطِّ الوادي.
(٣) في معجم الأدباء: ورقَّصت.
(٤) في (ب): والتمر.

قُتِل الباخَرْزي على مجلس الشرب في هذه السنة، وذهب دمُه هدراً، سامحه الله تعالى.

وصنَّف أبو الحسن عليٌّ البيهقي كتاباً سمَّاه «وشاح دمية القصر» وهو من جنس الذيل لكتاب الباخَرْزي، وكان البيهقي فاضلاً فصيحاً، وهو القائل: [من الطويل]

يشيرُ بأطرافٍ لطافٍ كأنَّها أنابيبُ مسكٍ أو أساريعُ مندلِ
ينمُّ على ما بيننا من إشارةٍ نسيمُ الصّبا جاءت بريَّا القَرَنفُلِ

علي بن الحسين(١)

ابن أحمد بن الحسين، أبو علي، التغلبي، ويُعرف بابن صَصْرَى، دمشقي، ذكره الحافظ ابن عساكر وأثنى عليه، وتوفِّي بدمشق، حدَّث عن تمام بن محمد وغيره، وروى عنه الخطيب وغيره، وكان ثقةً.

وأصل بني صَصْرَى من قرية بالموصل، وسكنوا دمشق.

علي بن عبد الملك(٢)

أبو الحسن، المعدَّل، كان حسن الصوت، عالماً بالقراءات، فاضلاً، تُوفِّي في شعبان، ودُفن بباب حرب، وكان ثقة.

كوهر خاتون

عمة السلطان ملكشاه، أخت ألب أرسلان، كانت دَيِّنةً عفيفةً، صادرها نظام الملك لمَّا مات أخوها ألب أرسلان، وأخذ منها أموالاً وجواهر، وخرجت إلى الري لتمضي إلى الناوكية تستنجد بهم على قتال نظام الملك، فأشار نظام الملك على السلطان بقتلها، وقال: اقتُلْها وإلَّا فَتَحتْ علينا باباً عظيماً. فقتلها، ولمَّا وصل الخبر إلى بغداد ذمَّ الناسُ نظامَ الملك وقالوا: ما كفاه بناء هذه المدرسة النظامية، وغصبُه لأراضي الناس، وأخذُ أنقاضهم حتى دخل في الدماء. فأشار على ملكشاه بقتلِ عمه قاروت بك وخنْقِه بوَتَر، وكحَلَ أولاده، وقتل عمَّته، وبلغ نظام الملك فقال: ما أقام هذه الشناعة عليَّ إلَّا فخر الدولة ابن جَهير.

---

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٣٤٩-٣٥١ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٦٩ ، وتاريخ الإسلام ٧/ ٢٦٦ .

(٢) المنتظم ١٦/ ١٦٩-١٧٠ .

محمد بن الحسين(١)

ابن أحمد بن منصور، الحِميري، القاضي، الكوفي، ولي القضاء بدمشق والخطابة نيابةً عن الشريف أحمد الزيدي، ثم خرج إلى طرابلس فأقام بها حتى تُوفِّي، وكان يصحب الوزير ابن الماسكي قبل وزارته، فلمَّا ولي الوزارة قصَّر في حقِّه، فكتب إليه: [من الوافر]

أسيِّدَنا الوزير نسيتَ عهدي ... وقد شبَّكتَ خمسكَ بين خمسي
وقولُكَ إن وَليتُ الأمرَ يوماً ... لأتخذنَّ نفسَكَ قبل نفسي
فلمَّا أنْ وَليتَ جعلتَ حظِّي ... من الإنصافِ بَيْعَكَ لي ببَخْسِ

محمد بن عبد الله بن عبيد الرحمن(٢)

أبو الحسين، الدمشقي، يُعرف بابن أبي العجائز، الأزدي، سمع الحديث، وتُوفِّي بدمشق، وكان ثقةً.

محمد بن علي(٣)

ابن محمد بن موسى بن جعفر، أبو بكر، الخياط، البغدادي، المقرئ، ولد سنة سبع وسبعين وثلاث مئة، تُوفِّي في جمادى الآخرة، ودُفن بمقبرة جامع المنصور، وكان قد توحَّد في زمانه بعلم القراءات، وسمع الحديث، وكان فاضلاً ثقةً.

محمود بن نصر بن صالح(٤)

صاحب حلب، ويُعرف بابن الزَّوقلية، وكان عمُّه عطية قد أخذها منه، فحصره مدةً حتى أخذها، وقد مدحه أبو الفتيان محمد بن حَيُّوس، فقال لمَّا أخذ حلب: [من الطويل]

---

(١) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣٣٨.
(٢) تاريخ دمشق ٥٣/ ٣٦٦-٣٦٧، وفيه أن وفاته كانت ببيروت.
(٣) المنتظم ١٦/ ١٧٠.
(٤) المنتظم ١٦/ ١٧٥، ولكن جعله في وفيات سنة ٤٦٨هـ.

أبى اللهُ إلَّا أن يكونَ لكَ السَّعدُ ... فليسَ لِما تبغيه منعٌ ولا رَدُّ
قضَتْ حلبٌ ميعادَها بعد مَطْلِها ... وأطيبُ وصلٍ ما مضى قبلَهُ صَدُّ
تهزُّ لواءَ النصرِ حولَكَ عصبةٌ ... إذا طلبوا نالوا وإن عقدوا شدُّوا
وخطيَّةٌ(١) سمرٌ وبيضٌ صَوارِمٌ ... وضافيةٌ(٢) زَغْفٌ(٣) وصافنةٌ جُرْدُ

وله قصائد، وكان محمود ذا فضلٍ ومروءةٍ وسماحةٍ وسخاءٍ، جواداً، ممدَّحاً، كريمَ الأخلاق، ولمَّا أخرج العميد عمَّه عطية من حلب مضى إلى بالِس فأرسل إليه مناشير بإقطاعات ومال، فلم يرضَ، ومضى إلى القسطنطينية مستصرخاً بملك الروم، فمات عنده في ذي الحجة سنة خمس وستين وأربع مئة، وكانت وفاة محمود ليلة الخميس ثالث عشر شعبان الليلة التي مات فيها القائم بأمر الله، وسبب موته أنه عشق جارية لزوجته، وكانت تمنعه منها، فماتت الجارية، فحزن عليها، ومات بعد يومين، ولمَّا مات وقع بين العسكر الخلاف، وكان محمود قد أوصى إلى ولده أبي المعالي شبل بن محمود، وأسكنه القلعةَ، والخزائن عنده، وأسكنَ ولده نصر بن محمود البلد، وكان كارهاً له، فكانت العساكر مائلة إلى نصر، وكان شبل بن محمود صغيراً، فاستولى عليه النساء والخدم، فبذل نصر العطاء، ونشر العدل، فمالَ الناس إليه وملَّكوه، وكان نصرٌ مُمدَّحاً، وقد مدحه ابن حَيُّوس بقصائد منها: [من الطويل]

كفى الدينَ عِزًّا ما قضاهُ لكَ الدهرُ ... فمَنْ كانَ ذا نذرٍ فقد وجبَ النَّذرُ
ثمانيةٌ لم تفترِقْ مُذْ جمعتَها ... فلا افترقَتْ ما افترَّ عن ناظرٍ شُفْرُ
ضميرُكَ والتقوى وجودُكَ والغنى ... ولطفُكَ والمغنى وعزُّكَ والنَّصرُ
وقد جاد محمودٌ بألفٍ تصرَّمَتْ ... وغالبُ ظنِّي أن سيَخلِفُها نصرُ

فأعطاه ألف دينار، وقال: واللهِ لو قال: سيُضعِفُها نصر، لأضعفْتُها له. وكان على بابه جماعة من الشعراء، فكتبوا إليه: [من الطويل]

على بابِكَ المعمورِ مِنَّا عصابةٌ ... مفاليسُ فانظُرْ في أمورِ المفاليسِ

(١) الرماح الخطيَّة: هي المنسوبة إلى خط موضعٍ باليمامة. الصحاح (خطط).
(٢) الدروع الضافية: الدروع السابغة. اللسان (ضفا).
(٣) الزَّغف: الدرع اللينة الواسعة المحكمة.

وقد قنِعَتْ منكَ العصابةُ كلُّها بعُشرِ الذي أعطيْتَهُ لابنِ حَيُّوسِ
وما بينَنا هذا التَّفاوتُ كلُّهُ ولكن سعيدٌ لا يُقاسُ بمنحوسِ

فقال: ولِمَ بعُشرٍ؟ وهلَّا قالوا: بمِثْلٍ. ثم وصلهم وأحسن إليهم.

وقُتِلَ نصر في السنة الآتية.

أبو الفتح منصور بن أحمد(١)

ابن دارست، وزير القائم بأمر الله، كان له مالٌ عظيم، فقيل للقائم: هذا أمين وهو غني النفس. فاستوزره، فلم يكن له دربة بالوزارة، وكان سيئ التدبير.

السنة الثامنة والستون وأربع مئة

فيها في يوم الثلاثاء ثالث المُحرَّم خرج مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد يريد والده، وكان أبوه قد مرض، وخرج معه أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد البيضاوي الشاهد رسولاً من الديوان إلى إبراهيم بن مسعود صاحب غزنة يخبر بوفاةِ القائم وإقامة المقتدي.

وفي يوم الاثنين سابع صفر فُتحت قلعة منبج، وارتُجعت من يد الروم بعد حصار طويل سلَّمها الحافظ لها بأمان إلى نصر بن محمود صاحب حلب، وأعطاه إقطاعاً ومالاً، وكانت مدة بقائها في يد الروم سبع سنين وشهراً، فإنها أُخذت في المُحرَّم سنة إحدى وستين وأربع مئة.

وفي صفر ورد العميد أبو نصر إلى بغداد مطالباً للديوان بمئة ألف دينار من إقطاعه وإقطاع حواشيه، وقال: العساكر كثيرة، وما عند السلطان مالٌ. فلم يُجِبْه الخليفةُ، وأخرج عميد الدولة وظفر الخادم إلى السلطان بهذا السبب، ولم يلتفت العميد إلى مجيء الجواب، بل أدخل يده في الإقطاع، وصرف بُوَّاب الخليفة وولَّاها الأعاجم، وورد سعيد الدولة الكوهراني إلى بغداد بسبب الوزير ابن جَهير، وعزله لأجل نظام الملك، فخرج الوزير إليه فتلقَّاه، فلم يلتفت إليه، ونزل أصحابه في دور الناس،

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٧٠ .

وفعلوا كلَّ قبيح، وجاء الحلباشية إلى الديوان، وخرقوا الهيبة، وصالوا وجالوا، وخاف الوزير، وقال: أنا أخرج إلى السلطان وأُبيِّن له كذبَ ما قيل عني، وأذكر سابقَ خدمتي، وبالأمس بعث قاروت بك إلى القائم يبذل له ثلاث مئة ألف دينار ليولِّيه الأمر، فأشرتُ بأن لا يولِّيه خدمة السلطان، ويكون جزائي هذا التهديد، وكان مع سعد الدولة كتاب مختوم إلى الخليفة، وأظهر أن عزل الوزير فيه، فلمَّا فتح الكتاب لم يكن فيه عزله، وإنما كان فيه في بعض الفصول: أيها الوزير، إن أصحابنا العائدين من بغداد يذكرون اتِّفاقك لحوائجهم وإعراضهم، ويجب أن تزول هذه الطريق عن هذه الخلائق، وإلَّا كاتبنا الحضرة الإمامية بالكراهة لك، التي تقتضي الاستبدال بك، والتعويل على من يكون أصحابنا له شاكرين، ولأفعاله حامدين. فندم الوزير على ما بدر منه في معنى قاروت بك، وقال لسعد الدولة: لو أَعلمتَني أن الكتاب يشتمل على ما يتعلق بك لكنتُ جمعتُ من الناس أكثر مما جمعت، لكنَّك أسأتَ التدبير [وفعلتَ ضدَّ الصواب. وطاب قلب الوزير][1] وبعث بالكتاب إلى الخليفة، فطابَتْ نفسُه ونفوسُ الحاشية، ثم جاءت كتب السلطان بعد ذلك بالإفراج عن إقطاع الخليفة والحاشية.

وفي جمادى الأولى ورد رسول أتْسِز التركماني صاحب الشام ومعه ولد قُتُلْمِش المأسور وأخٌ له صغير، فتسلَّمهما سعد الدولة الكوهراني، وبعث بهما إلى السلطان، وفي هذا الوقت أخذ أتْسِز رَفَنِيَّة[2]، ونهب أعمالها، وراسل نصر بن محمود صاحب حلب وقد طمع في شيء من أمواله وأموال أبيه التي خلَّفها، وطالبه بتزويج أخته، وتسليم البلاد، واستقرَّ الأمر على أن بعث له خمسة عشر ألف دينار، وعاد إلى حصار دمشق، فإنه ما زال مضايقاً لها، ونازل طرابلس وصور وأخذهما خفارةً، فكانت الخطبة المصرية بها لم تتغيَّر، والغُزُّ يدخلون إلى صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها، وعلى هذا كانت الهدنة.

وفيها قُتِلَ محمود بن نصر صاحب حلب، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) رفنية: مدينة من أعمال حمص، وقال قوم: هي بلدة عند طرابلس من سواحل الشام. معجم البلدان ٣/ ٥٥.

وفيها وردت الأخبار بأن بدراً أميرَ الجيوش بمصر لبس الدُّرَّاعة[١] التي برسم الوزارة، حتى لا يترتَّب في الوزارة مَنْ يُفسد عليه الأمور، وخرج إلى الصعيد لقتال السودان واستعادته منهم، فإنهم كانوا قد استولوا عليه.

وفيها ظفر القاضي جلال الملك بن عمار بكتب من بدر الجمالي إلى جماعة من وجوه طرابلس تدني عن موافقة تجري بينهما في القبض على جلال الملك، وتسليم البلد إلى مَنْ بيديه القبض عليه، فقبض عليهم، وصادرهم، وقَتَل منهم، ونَفَى الباقين.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر شوال خلع الخليفةُ على عميد الدولة بن فخر الدولة الخِلَع السنيَّة، وفوَّض إليه الأمور، وكتب له التوقيع، وكانت الجُبَّةُ سقلاطون، وفَرَجيةَ ديباجٍ نسيجٍ بالذهب، وحُمِلَ على فرس بمركب ذهب، بعد أن استدعاه ووالده وخاطبهما بما طيَّب به نفوسهما، وفوَّض إلى عميد الدولة أَزِمَّةَ التدبير، وخرج معهما توقيع الخليفة إلى بيت النُّوبة، وقُرئ بحضرة الأعيان، وكان من إنشاء أبي سعد بن الموصلايا النصراني، وفيه بعد البسملة: إن أمير المؤمنين إذا تصفَّح مواقف خلصاء دولته وأصفيائها المُبرِّزين في المقاصد التي عند الجمال في مطاويها وأبياتها، وجد أوفاها في الكمال زيداً، وأكسبَها في الزمان ثناءً وحمداً، ما اختصَّ به مؤيد الدولة بن فخر الدولة شرف الوزراء أبو نصر صفي أمير المؤمنين من المقامات التي غَبرَ فيها على من مضى، وأحرز ألقاباً تتنافس فيه من كرم الرضا، وأحلَّته من أمير المؤمين بالمنزلة التي لا يدانيه نظيرٌ في جلالها، ولا طمع أحدٌ قبله في أمثالها، وحين تَفَرَّدْتَ بالآثار التي أصبحَتْ غُرراً في الدهر لامعة، وأحلاماً لأقسام الفخار حاويةً جامعة، والمساعي التي أوجبت بها على الدولة الحقَّ الذي لا يُنكر، وأوجدت منها الطرق إلى لتي اعتمادِك بالمكرمات التي يبقى شرفُها على الأيَّامِ ويُذْكَر، فأدناك من مقرِّ سُدَّته، وناجاك من مزايا الإكرام بما لا يبلغ مداك من خدمته، وذكر كلاماً طويلاً.

وفيها عزم السلطان على أن يُنفذ أخاه تاج الدولة تُتُش إلى الشام، وكان نظام الملك لا يؤثر ذلك، وبلغ أتْسِز الخُوارَزمي صاحب الشام، فكتب إلى السلطان: أنا الخادم الطائع النائب في هذه الأعمال التي أفتتِحُها بنفسي من غير أن أُكلِّفه فيها مؤونةً، ولا

---

(١) الدُّرَّاعة: ثوب من صوف، أو: جبة مشقوقة المقدَّم. المعجم الوسيط (درع).

طلبتُ معونةً، وأقمتُ له الدعوة وما أَخْلَيْتُه مما أقدر عليه من حمل الأموال، وقد بلغني ما عليه العزم من إنفاذ الأمير تاج الدولة تُتُش، وما هاهنا من يقتضي استعمال ذلك وإبعادي عن الخدمة ونظري في جملة الأعداء والأضداد، وذكر كلاماً كثيراً هذا معناه. وقال: وأنا بإزاء مَنْ بمصر من خليفة وجند ورجال ودولة وأموال لابُدَّ لمن يقاومها أن يجعل نفسه في عدادها، ويتحمَّل لحمالها، ولمَّا وقف نظام الملك على كتابه بعث إليه بقَباء السلطان وقَلَنْسوته [وفرسه][1] وسيفه وتُرسه تشريفاً له وإكراماً، وطيَّب قلْبَه.

وفيها قبض بدر الجمالي على قاضي الإسكندرية ابن المُحَيْرق وجماعةٍ من صالحيها وفقهائها، وأخذ منهم أموالاً عظيمة.

وفي ذي الحجة وردت كتب أتْسِز على الخليفة بفتوح دمشق صلحاً وتسليمها إليه، وسببه اتِّصالُ الحصار، وغلوُّ الأسعار، وموتُ أهلها، وأن كارة الطعام بلغت نيِّفاً وثمانين ديناراً مغربية، وبقيت على ذلك أربع سنين، والكارتين ونصف غرارة بالشامي، وهذا شيء كثير، الغرارة بمئتي دينار ثمنها ثلاثة آلاف درهم.

وفي ذي الحجة أُعيدت الخطبة، وسببه أنَّ السلار الخراساني قرَّر مع الشريف أبي هاشم أمير مكة أن يزوِّجه أختَ السلطان ملكشاه، فتعلَّق طمعُه بذلك، ومنَّتْه نفسُه الأماني، فقال لبني عمه: إنما كنا نخطب للدولة المصرية لمالٍ يُرجى، أو خوفٍ يُخشى، والآن فلم يبقَ هناك ما نخافه، وليس من الصواب خروجُنا عن دولة السلطان خوفاً على نفوسنا، وينبغي أن نبعث إلى هناك رسولاً يخبرنا بشرح الحال، فإن كانت الأمور على السداد ثَبَتْنا على ما نحن عليه، وكان بنو عمِّنا أحبَّ إلينا وأكرمَ علينا، وإن كان بخلاف ذلك دبَّرنا أحوالَنا. فأنفذوا إلى مصر اثنين من ثقاتهم، وأمروهما أن يظهروا أنهما وردا للإفادة والتماس الصِّلات، واستدعاء المال المحمول كلَّ سنة مع الكسوة، واستجلاب بدر الجمالي لهم، فذهبا وعادا ومعهما رسولٌ من مصر بعشرةِ آلاف دينار ـ وقيل: قيدٌ من ذهبٍ أيضاً مع المال وزنُه ثلاثة آلاف مثقال ليحلف ابن أبي هاشم لصاحب مصر ويُقَيِّدَ نفسَه على عادتهم ـ وكسوةِ البيت دبيقية، وخِلَعٍ لأمير مكة

(١) مابين حاصرتين من (ب).

والعلويين، ونفقةٍ برسوم كانت لهم، وخلا ابنُ أبي هاشم بالرسولين، وسألهما عمَّا شاهداه، فقالا: ما بقيَ هناك ما يُستند إليه، ولا يُعوَّل عليه، والأحوال قد فسدَتْ، والأموال قد ذهبَتْ، والرجال قد قُتلوا، وخلَتِ البلاد. فقال ابنُ أبي هاشم لبني عمه: قد علمتُم الحالَ. وورد عليه كتاب سلار الحاج الخراسانية أنه قد فصل الأمر مع السلطان، والمهر عشرة آلاف دينار، فقال لرسول مصر: السلطانُ قاصدٌ العراق، وأخاف منه، فأجروا الخطبة لكم حتى نُبصر ما يكون. ودفع به، وأخذ المال والخِلَع، وبطل خطبة المصريين، وخطب للمقتدي ولملكشاه.

وفيها خطب أتْسِز للمقتدي على منبر دمشق، وكان بها الأمير وزير الدولة لمَّا هرب مُعلَّى بن حيدرة بن منزو، فاجتمعت المَصامدة[1] على وزير الدولة انتصار بن يحيى، فاختاروه لِحُسن سيرته، فغلَتِ الأسعارُ بدمشق [وأكل الناس الميتات، ووقع بين المصامدة والأحداث][2]، وكان أتْسِز قد أخرب ظاهرها خراباً كلياً، وضيَّق على أهلها، فراسلهم في الصلح، فاستوثقوا منه بالأيمان، ودخلها في ذي القعدة واستولى عليها، وحلَّ بأهلها منه قوارعُ البلاء، ونزل أصحابُه في دورهم، وأخذوا حريمهم، وصادرهم بحيث لم يُبقِ مع أحدٍ منهم درهماً، واتَّصلت دعوات الناس عليه وعلى أصحابه في المساجد، ثم إنه نظر في عمارة البلاد لا في عمارة دمشق، فأطلق الغِلال للفلاحين، وألزمهم الزراعات، فرخصتِ الأسعار، وطابت نفوس الرعية.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن علي[3]

ابن محمد بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، أبو الحسين، جلال الدولة، قاضي دمشق، في أيام المستنصر، وهو آخر قضاة المصريين بدمشق، قال يوماً وعنده [أبو][4] الفتيان بن حَيُّوس: وددتُ أني في الشجاعة

---

(١) المَصامِدة: قبيلة من المغاربة. تاريخ الإسلام ١٠/ ١٥١.

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

(٣) تاريخ دمشق ٥/ ٧١-٧٢.

(٤) مابين حاصرتين سقط من الأصل (خ)، واستُدرك من تاريخ الإسلام ١٠/ ٢٥٧ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٠٢، وغيرهما.

مثلُ جدي علي، وفي السخاء مثل حاتم. فقال له ابنُ حيُّوس: وفي الصدق مثلُ أبي ذر. فخجل الشريف؛ لأنه كان يتزيَّد في كلامه.

توفي بدمشق في ذي القعدة، ودُفِنَ بداره، ثم نُقِلَ إلى الباب الصغير.

أحمد بن منصور(١)

الغسَّاني، أنشد لغيره: [من المنسرح]

أعتقني سوءُ ما صنعت من الرِّقِّ فيا بَرْدَها على كَبِدي
فصِرْتُ عبداً لِلسُّوءِ فيكَ وما أحسن سوءٌ قبلي إلى أحدِ

إسماعيل بن علي(٢)

أبو محمد بن العين زَرْبيّ، الشاعر، سكن دمشق، ومات بها، ومن شعره [من الطويل]:

وحَقِّكُمُ ما زُرتُكُمْ في دُجُنَّةٍ ... من اللَّيلِ تُخفيني كأنِّيَ سارِقُ
ولا زُرْتُ إلَّا والسيوفُ شواهرٌ ... عليَّ وأطرافُ الرِّماحِ لواحِقُ

وقال: [من المتقارب]

أحِنُّ إلى ساكنات الحجاز ... وقَدْ حَجزتني أمورٌ ثِقالُ
بكيتُ ففاضَتْ بحورُ الدموعِ ... كأنَّ لها من جفوني انثيالُ
وظنَّ العواذلُ أني سلوتُ ... لِفَقدِ البكاءِ وجاروا وقالوا
حقيقٌ حقيقٌ وجدتَ السلوَّ ... فقلتُ محالٌ محالٌ محالُ

وقال: [من الطويل]

ألا يا حَمامَ الأيْكِ عَيْشُكَ آهِلٌ ... وغصنُكَ ميَّاسٌ وإلفُكَ حاضرُ
أتبكي وما امتدَّتْ إليكَ يدُ النَّوى ... ببينٍ ولم يَذْعَر جناحَكَ ذاعِرُ(٣)

---

(١) تاريخ دمشق ٦/ ٣١-٣٢.

(٢) تاريخ دمشق ٩/ ٢٦-٢٩.

(٣) الذَّاعر: المخيفُ المُفزِعُ. تاج العروس (ذعر).

محمد بن علي[(١)]

ابن محمد بن أحمد، أبو علي، الهاشمي، ابن عم الشريف أبي جعفر بن أبي موسى الحنبلي، سمع الكثير، وتوفِّي في ربيع الأول، ودُفِنَ بباب حرب، وكان سيداً ثقةً.

مسعود بن المحسن[(٢)]

ابن الحسن بن عبدالرزاق، أبو جعفر، البياضي، الشاعر، البغدادي، برع في الأدب، وتوفِّي ببغداد في ذي القعدة، ودُفِنَ بباب أبرز، ومن شعره: [من الخفيف]

حبَّذا مسجداً بباب مُعلَّى ... سخنَتْ فيهِ أعينُ القُرَّاءِ
كان للدرسِ والصلاةِ محلًّا ... فهُوَ اليومَ مجمعُ الأهواءِ
كمْ قتيلٍ فيهِ بسهمِ لَحاظٍ ... صرَعَتْهُ من مُقلَةٍ حَوراءِ
وتراني إذا دخلتُ إليهِ ... أتخطَّى مصارعَ الشُّهداءِ

وقال أيضاً: [من الوافر]

إذا هبَّتْ له نسماتُ وَجدٍ ... يعيشُ لمَرِّها ميتَ البعادِ
إذا غنَّى به الحادي ركاباً ... ترنَّحتِ الغواربُ والهوادي
وطابَ السَّيرُ وانقضتِ الفيافي ... وعادت بعد جذْبٍ كالنِّجادِ
أُحِبُّ القُربَ من سُكَّان نجدٍ ... وإن طابوا نفوساً بالبِعادِ
وأُخلِصُ في مودَّتِهم ضميري ... وإن لم يعرِفوا حقَّ الودادِ
وقد أغلقْتُ باب السَّمعِ عن مَنْ ... ينازِلُهُ بألسنةٍ حِدادِ
إذا ركبوا ملامَهُمُ لِعَذْلي ... ركبتُ هوايَ في ذاكَ الجهادِ
وعَزَّ عليَّ أنهمُ صديقٌ ... ألاقي فيهمُ ملقى الأعادي
ولكنَّ الهوى فرسٌ جموحٌ ... يُجاذبني العِنانَ إلى الطِّرادِ

وقال: [من الكامل]

يا مَنْ لبِسْتُ بهَجْرِهِ ثوبَ الضَّنا ... حتى خفيتُ به عن العُوَّادِ

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٧٤.

(٢) المنتظم ١٦/ ١٧٥-١٧٦، الكامل ١٠/ ١٠١-١٠٢. وفي السير ١٨/ ٤٠٩، وبقية المصادر: مسعود بن عبد العزيز.

وأنِسْتُ بالسهرِ الطويلِ فأُنسِيَتْ أجفانُ عيني كيفَ كان رُقادي
إنْ كانَ يوسفُ بالجمالِ مُقطِّعَ الـ أيدي فأنتَ مفتِّتُ الأكبادِ

وقال: [من المديد]

قلتُ للعاذلِ لمَّا جاءني من طريقِ العذْلِ يُبدي ويعيدُ
أيُّها العاذِلُ لي في زعمهِ لا تُرِدْ نُصحاً لمن ليس يُريدُ
فالذي أنتَ له مُسْتَقبِحٌ ما على إحسانهِ عندي مَزيدُ
فإذا نحنُ تشاكينا الهوى فاستماعُ العَذْلِ شيءٌ لا يُفيدُ
حبَّذا الليلُ الذي أسهرُهُ في هوى مَنْ هو عن ليلي رَقودُ
ونَعمْ أهلاً بسربال ضنا جسدي يبلى به وهو جديدُ
وهنيئاً لفؤادي أنَّهُ في جهادِ الأعينِ النُّجلِ شهيدُ

وقال: [من الطويل]

لئِنْ كانَ ذاك الوُدُّ كُدِّرَ شُرْبُهُ فحاشى لِذاكَ القلبِ أن يتكدَّرا
فلا تحسبَنَّ الوُدَّ صارَ مُهوَّناً ولا أنَّ معروفَ الهوى صار مُنكَرا
فواللهِ إني ذلك المخلصُ الذي عزيزٌ على الأيَّامِ أن يتغيَّرا
وإنْ تَسْعَ رجلي نحوَ غيرِكَ عن رضا فلا برِحَتْ طولَ الزمانِ تَعثَّرا
وإنْ نظرَتْ عيني إليهِ بلذَّةٍ فلا صافَحَتْ أجفانُها لذَّةَ الكَرى

وكتب إلى القائم بأمر الله وكان قد استكتب أهل الذمَّة، وضمَّن ابن فضلان اليهودي ضياعه، وفتك في المسلمين: [من الكامل]

يا ابنَ الخلائفِ من قريشٍ والذي طهُرَتْ أصولُهمُ من الأدناسِ
قلَّدْتَ أمرَ المسلمين عدوَّهُمْ ما هكذا فعلَتْ بنو العباسِ
حاشاكَ من قولِ الرعيةِ إنَّهُ ناسٍ لقاءَ اللهِ أو مُتناسِ
ما العذرُ إنْ قالوا غداً هذا الذي ولَّى اليهودَ على رقابِ الناسِ
أتقولُ كانوا وفَّروا أموالنا فبُيوتُها قفرٌ بلا إيناسِ
لا تذكُرَنْ إحصاءَهم ما وفَّروا ظلماً وتنسى مُحصيَ الأنفاسِ
وخَفِ الجزاءَ غداً إذا وُفِّيتَ ما كسبَتْ يداكَ اليومَ بالقِسْطاسِ

فـي مـوقـفٍ مـا فـيـه إلَّا شـاخِـصٌ أو مُـهـطِـعٌ أو مُـقـنِـعٌ بـالـراسِ
أعـضـاؤهـم فـيـهِ الـشـهـودُ وسـجـنُـهُـمْ نـارٌ وحـاكـمـهـم شـديـدُ الـبـاسِ
إن تَـمطُلِ الـيـومَ الـدُّيونَ مع الـغـنـى فـغـداً تُـوفِّـيـهـا مـع الإفـلاسِ
لا تـعـتـذِرْ عـن صـرفِـهـمْ بـتـعـذُّر الـ ـمُـتـصـرِّفـيـن الـحُـذَّقِ الأكـيـاسِ
مـا كـنـتَ تـفـعـلُ بـعـدَهُـم إن أُهـلِـكـوا فـافـعَـلْ وعُـدَّ الـقـومَ فـي الأرمـاسِ

وقال أيضاً: [من البسيط]

قُلْ للذين جفَوني إذْ لَهجْتُ بهمْ وصارَ ذِكرهُمُ يجري مع النَّفَسِ
صُدُّوا وأرضُوا مُحِبَّكُمْ إذا دَرسَتْ آثارُ قربٍ جديدٍ غيرِ مُندَرِسِ
ماذا يضرُّكُمُ أنِّي أُحِبُّكُمُ مع البراءةِ من عيبٍ ومن دَنَسِ
إنْ كنتُ أذكُرُ شيئاً غيرَ حُبِّكُمُ يا سادتي فرماني اللهُ بالخَرَسِ

وقال: [من الكامل]

إن كنتُ بعدَكُمُ أَلِفْتُ هجوعا فحُرمْتُ سُؤْلي في اللقاءِ سريعا
أو ذُقْتُ حلواً غيرَ ذِكْرِكُمُ فلا صدقَتْ مُنايَ أن نعودَ جميعا
للهِ ما صنع الفِراقُ ندامةً ما انفَكَّ سِنِّي بعدها مقروعا
لو قلتَ سَلْ صارَتْ جميعُ جوارحي في الحالِ ألسنةً تقولُ رجوعا

وقال: [من البسيط]

لولا الخدودُ ولولا الأعينُ النُّجُلُ ما تَمَّ قولٌ لإبليسٍ ولا عمَلُ
إنَّ العيونَ إذا استمكَنَّ من رجلٍ فعَلْنَ في القلبِ ما لا يفعَلُ الأَسَلُ[1]
ليسَ الهُمامُ الذي يحمي مَطيَّتَهُ يومَ النِّزالِ ونارُ الحربِ تشتعلُ
لكنَّ مَنْ غضَّ طَرْفاً أو ثنى بصراً عن الحرامِ فذاكَ الفارسُ البطلُ

وقال أيضاً: [من البسيط]

يا ليلتيَّ بذاكَ الشيحِ والضَّالِ ومنبتِ البانِ من نُعمانَ عُودا لي
ويا مراتعَ أترابي بذي سَلَمٍ لهفي على ما مضى من عصرِكِ الخالي

---

(١) الأَسَل: نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف. المعجم الوسيط (أسل).

قدْ كانَ قلبي بكُم مأوى السرورِ فَمُذْ ... نأيتُمُ صار مأوى كلِّ بَلبالِي[1]
فلو شَرَيْتُ بعمري ساعةً سَلَفَتْ ... من عيشتي معكُمْ ما كانَ بالغالي
ما لي أُعلِّلُ نفسي بالوقوفِ على ... منازلٍ أقفرَتْ منكمْ وأطلالِ
قد بُدِّلتْ صامتاً من ناطقٍ لَسِنٍ ... ونافرٍ عاطلاً[2] من أُنسِكُمْ حالي
أُميتُ من حرِّ أنفاسي خمائِلَها ... طوراً وأَبكي فأُحييها بتَهمالي
وأبتغي من رسومٍ قد دَرَسْنَ بها ... رجْعَ الكلامِ وما يُبْهِمْنَ تسآلي
أأرتجي البُرءَ منها وهْيَ باليةٌ ... هيهاتَ كيفَ يُداوي بالياً بالي
مَنْ لي بكتمانِ ما ألقاهُ من ألمٍ ... وظاهري مُغْرِبٌ عن باطنِ الحالِ
قالوا تشاغلَ عنَّا واصطفى بدلاً ... منا وذلك فِعْلُ الخائنِ السالي[3]
وكيفَ أُشغِلُ قلبي عن محبَّتكُمْ ... وغيرِ ذِكركمُ يا كُلَّ أشغالي
لِيهْنَ قومٌ أطاعوا في عواذِلهم ... إنِّي على العهدِ في عصيانِ عُذَّالي

وقال أيضاً: [من الكامل]

قد حانَ من سفرِ الصُّدودِ قدومُ ... فإلى متى هذا الصُّدودُ يدومُ
لم يبقَ منِّي ما يبينُ لناظرٍ ... إلَّا ثيابٌ تحتهنَّ رسومُ
لو أنها ظهرت لأقصرَ عاذلي ... ولَقالَ كيف يُخاطَبُ المعدومُ
إنَّ الذي يَهوَى ظلومَ وينتهي ... عنها بعَذْلٍ إنَّهُ لظَلومُ[4]
ما لامَ فيها عاذلٌ فبدَتْ لَهُ ... عمداً فأبصرَها يكادُ يلومُ

وقال: [من الطويل]

أبثُّهُمُ وجدي وهُمْ بيَ أعلمُ ... وأرجو شفائي منهمُ وهمُ هُمُ
وكَمْ عذلوني فيهمُ غيرَ مرَّةٍ ... فقلتُ لهم واللهُ بالصِّدقِ أعلمُ
وجدتُمْ ولكنِّي وجدتُ عليكُمُ ... لأنَّكُمُ ما جُدْتُمُ إذْ وجدتُمُ

---

(١) البلبال: شدة الهم. المعجم الوسيط (بلبل).
(٢) في (ب): عاطراً.
(٣) السالي: النَّاسي، من السُّلُوِّ.
(٤) في النسخة الوحيدة (خ): عذوله لمظلوم. ولم يستقِمْ لي وزنُه ولا معناه، ولعل الصوابَ ما استظهرتُه.

إذا كـانَ قـلـبـي مـوثَـقـاً فـي حـبـالـكـمْ وجـسـمـي لـديـكُـمْ كـيـفَ أفـهَـمُ عـنـكـمُ
فـإنْ شـئـتـمُ أنْ تـعـذِلـوا فـتـرفَّـقـوا إلـى أنْ يـعـودَ الـقـلـبُ ثـمَّ تـكـلَّـمـوا

وكتب إلى القائم بأمر الله: [من الوافر]

أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـن نـداءُ عـبـدٍ يـراكَ الـصَّـرفَ صـرفَ الـدَّهـرِ أهـلا
فـلـي فـي الأرضِ مُـتَّـسَـعٌ وقـومٌ ألاقـي عـنـدهُـمْ أهـلاً وسـهـلا
ولـسـتُ بـضـارعٍ إلَّا إلـيـكُـمْ فـأمَّـا غـيـرُكـمْ حـاشـا وكـلَّا
وهـذا شـرحُ حـالـي فـاسـمَـعَـنْـهُ فـقـد أنـهـيـتُـهُ والأمـرُ أعـلـى

وقال: [من الطويل]

ألـفتُ الـضَّـنـا مـن بـعـدكُـمْ فَـلَـوَ انَّـهُ يُـغَـيَّـبُ عـن جـسـمـيَ جـئـتُ إلـيـهِ
وصـارَ الـبُـكـا لـي مـؤنـسـاً فَـلَـوَ انَّـهُ تـبـاعـدَ عـن عـيـنـي بَـكـيـتُ عـلـيـهِ

وقال أيضاً: [من الخفيف]

لـيسَ لـي صـاحـبٌ مُـعـيـنٌ سوى الـلَّـيـ ـلِ إذا طـال بـالـصُّـدودِ عَـلـيَّـا
أنـا أشـكـو هـمَّ الـحـبـيـبِ إلـيـهِ وهـو يـشـكـو بُـعْـدَ الـصَّـبـاحِ إلـيَّـا

ناصر [ابن محمد] بن علي(١)

أبو منصور، التركي، والد محمد بن ناصر، ولد سنة تسع وثلاثين وأربع مئة، وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث الكثير، وقرأ الأدب واللغة، وتُوفِّي ببغداد في ذي القعدة شاباً لم يبلغ ثلاثين سنة، وكان صالحاً ثقةً، ورثاه أبو عبد الله الحسين بن محمد البارع بقصيدة طويلة أولها: [من المتقارب]

سـلامٌ وأنَّـى يـردُّ الـسَّـلامـا مـعـاشـرُ فـي الـتُّـربِ أمـسَـوا رِمـامـا
لـدى الـبـيـضِ صـرعـى كـأنَّ الـحِـمـام سـقـاهُـمْ بـكـأسِ الـمـنـايـا مُـدامـا
أأحـبـابَـنـا فـي بـطـونِ الـثـرى مـقـيـلٌ لـكـم إن أردتُـم مُـقـامـا
تـبـدَّلـتُـم بـالـقـصـورِ الـقـبـور فـأبـلَـيْـنَ تـلـكَ الـوجـوهَ الـوسـامـا

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٧٦-١٧٨ . ومابين حاصرتين سقط من (خ).

ألا هـل أرى لـكـم أوبـةً ... ولـلـشَّمـلِ بـعـد الـفـراقِ الـتـئـامـا
أرى كـلَّ يـومٍ مـطـايـا الـمـنـون ... تـحـفُّ بـكـم مـوحـداً أو تـؤامـا
نُـحـيِّـي ضـرائِـحَـكُـمْ إنَّـهـا ... تَـضَـمَّـنَّ قـومـاً عـلـيـنـا كـرامـا
سـلامٌ عـلـى جـدَثٍ بـالـعـرا ... قِ أغـمـدتُ بـالأمـسِ فـيـهِ حُـسـامـا
دفـنـتُ الـعُـلا والـتُّـقـى والـعـفـا ... فَ والـحـلـمَ والـعـلـمَ فـيـه حـمـامـا
أنـاصـرُ يـفـديـكَ مَـنْ لَـوْ أطـا ... قَ دافـعَ عـنـكَ الـمـنـايـا وحـامـى
أنـاصـرُ لـو أنَّ لـي نـاصـراً ... شننتُ[1] [على][2] الموت موتاً زؤاما[3]
هـو الـدَّهـرُ لا يُـتـقَّـى ضـيـمُـهُ ... [الـشـيءِ][4] فـأجـدَرُ أنْ لا يُـضـامـا
أُنـاديـكَ إذ لاتَ حـيـن الـدُّعـاء ... بـمُـسْـمـعـةٍ لـو أطَـقْـتَ الـكـلامـا
لـقـدْ خـصَّـنـي يـا قـريـنَ الـشَّـبـا ... بِ فـيـكَ الـمُـصـابُ وعَـمَّ الأنـامـا
وأوجـدنـي مـنـكَ ريـبُ الـمـنـو ... نِ ظـمـآنَ لـم أشـفِ مـنـك الأُوامـا[5]
وكـيـف يـطـيـرُ قـصـيـصُ الـجـنـا ... حِ خـانَـتْـهُ عـنـد الـنـهـوضِ الـقُـدامـى
وأُطـفِـئُ بـالـدمـعِ نـارَ الـحـشـا ... و يـأبـى لـهـا الـوجـدُ إلَّا ضِـرامـا
وكـنـتُ أُلامُ عـلـى أدمـعـي ... فـأيـقـنـتُ بـعـدكَ أن لا أُلامـا
فـلا اسـتـشـعـرَ الـقـلـبُ عـنـكَ الـسُّـلُـوَّ ... ولا ازدادَ بـعـدَكَ إلَّا هُـيـامـا
إذا رامَ صـبـراً تـمـثَّـلْـتَ فـيـهِ ... فـأقـصـى خَـيـالُـكَ ذاك الـمَـرامـا
ومـا أنـا مـن بـعـد عـلـم الـيـقـيـن ... أحـسَـبُ يـومَـكَ إلَّا مـنـامـا
لـقـد كـنـتَ غُـرَّةَ وجـهِ الـزَّمـان ... فـقـد عـادَ مـن بـعـد[6] بِـشْـرٍ جَـهـامـا
وكـنـتَ عـلـى تـاجِـهِ دُرَّةً ... تُـضـيءُ الـدُّجـى وتُـزيـن الـنِّـظـامـا
فـأضـحـى بـكَ الـدهـرُ مـسـتـأثـراً ... وجـلَّـلَـنـا بـعـد نـورٍ ظـلامـا

---

(١) في المنتظم: صببتُ.

(٢) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

(٣) الزُّؤام: العاجل. المعجم الوسيط (زأم).

(٤) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

(٥) الأُوام: حرارة العطش. المعجم الوسيط (آمَ).

(٦) في المنتظم: عاد.

وضَنَّ بكَ الدهرُ عن أهلِهِ فثُبْتَ[(١)] حميداً ولم تلقَ ذاما
وأيقنتَ أنَّ الدُّنا للفنا ءِ فاعتضْتَ في الخُلدِ عيشاً دواما
لتَبْكِ عليكَ فنونُ العلوم فقد كنتَ في كلِّ فنٍّ إماما
وما كنتَ إلَّا قريعَ الزمان والناسُ بعدَك إلَّا سواما
ألا لا أرى مشكلاتِ الأمور يَزْدَدْنَ بعدَكَ إلا انعجاما[(٢)]
فمَنْ ذا يُفرِّجُ عنَّا الهمو مَ إذا ازدحمَتْ في الصُّدورِ ازدحاما
ومَنْ للمجالسِ صدرٌ سِواك إذا اضطربت أبحُرُ العلمِ عاما
ومَنْ للمحاريبِ أهلٌ سِواك وقدماً تقدَّمتَ فيها غلاما

وقال أيضاً[(٣)]:

تجاوزتَ في العلم حدَّ الشيوخ وكلُّ سِنيكَ ثلاثون عاما
ولم [أرَ][(٤)] كاليومِ بدراً سوا كَ عاجلَ فيه السَّرارُ[(٥)] التماما
فحاشا لساناً تلا ما تلو تَ يُصبحُ للدُّودِ يوماً طعاما
وهوَّنَ وجدي أنِّي غداً كما قد لقيتَ ألاقي[(٦)] حماما
وأن سوفَ يجمعُنا موقفٌ ترى الخلقَ في حافَتيهِ قياما
عليكَ السلامُ فإنِي امرؤٌ على القُربِ والبُعد أُهدي السَّلاما

السنة التاسعة والستون وأربع مئة

فيها في صفر غلب على المدينة محيط العلوي، وأعاد خطبة المصريين، وطرد منها الحسين مهنا أميرَها، فقصد خراسان إلى ملكشاه ونظام الملك، وكان قد أساء السيرة، ووضع على الواردين لزيارة قبر النبي ﷺ أتاوةً، فقامت الشَّناعة، واجتمعت القبائل مع محيط بهذا السبب.

---

(١) في (ب): فمُتَّ وفي المنتظم: فنِلْتَ.
(٢) في المنتظم: انقحاما.
(٣) هذه العبارة من الأصل (خ)، وكأنها مقحمة؛ لأن ما بعدها هو تتمة للقصيدة، وهي ليست في المنتظم.
(٤) مابين حاصرتين من المنتظم.
(٥) السَّرار: آخر ليلة في الشهر. المعجم الوسيط (سرر).
(٦) في المنتظم: مُلاقٍ.

وفي ربيع الأول تُوفِّي رئيس العراقين أبو أحمد بن عبد الواحد بن الخضر النهاوندي على باب ملكشاه بأصبهان.

وفيه سار ملكشاه إلى خُوزستان، ودخل البصرة، فأقام يوماً واحداً لمشاهدة المدِّ والجزر.

وفي ربيع الآخر تزوَج الأمير قراقر بن كاكويه الديلمي أرسلان خاتون عمة السلطان وزوجة [الخليفة][1] القائم، وحمل إليها مئتي ثوب أصنافاً وعشرة آلاف دينار. ودخل بها.

وفيه ورد كتاب أتْسِز الخُوارَزمي تاريخه سلخ صفر [من أول الجفار] بأنه قد سار إلى مصر.

وفيه زادت دجلة زيادةً عظيمةً، فنُقِلَ تابوت القائم من الدار إلى الرُّصافة في الليل خوفاً عليه من الماء، ولم يعلم به أحد.

وفيه سار أُرْتُق [بك] التركماني واسمه ساراكسك، فقطع حُلوان إلى القطيف، ومرَّ على البصرة، فنهب أصحابُه ما مرُّوا به، فأُغلقت أسواقُها، وسُدَّت أبوابُ دروبها، وعَدِم الناسُ الماءَ ثلاثة أيام، وخرج إليه أعيان أهلها وقبَّحوا عليه ما فعل، فطلب منهم الجمال والروايا والزاد والمال ليذهب إلى الأحساء، فأعطوه بعض ما طلب، وسار منها في رجب إلى القطيف، فوجد يحيى بن العباس الخفاجي صاحبَها قد أخلاها ومضى إلى جزيرة أُوال، ونجم أرتق إلى الأحساء فنهبها، وكان بقلعتها جماعةٌ من القرامطة، فراسلوه وخدعوه، وقالوا: نحن نُعطيك عشرة آلاف دينار ونَخطُبُ للخليفة والسلطان. فأجابهم، فقالوا: ابعُدْ عنَّا مدةً قريبةً ليتراجع الناس، ونجمع المال. وأعطَوه رهائن، فرحل عنهم، فخرجوا إلى آبار غامضة في بساتينهم مملوءة طعاماً، فنقلوها إلى البلد، وعلم أرتق أنهم خدعوه، فعاد إليهم، وقتل من الرهائن عِدَّةً، واحتبس منهم[2] من رأى عنده رأياً، وأخرب السَّواد، ونُهبت القرى، وامتلأت أيدي مَنْ معه من النهب، وقاسوا من شدة الحرِّ ما حملهم على طلب نفورهم، وكان هناك

---

(١) مابين حاصرتين في هذا الموضع والموضعين الآتيين من (ب).

(٢) في (ب): عندهم.

رجل ـ يقال له: عبد الله بن علي الغنوي ـ عدواً للقرامطة، فأخذ أرتق ولده معه رهينة، ورتَّب معه مئتي فارس من التركمان، وأقام على حصار الأحساء، وكان للغنوي في تلك الأرض حصن يُعرَفُ بالمحصنة، وهو من بناء أبي البهلول المتغلب على جزيرة أُوال، والحصن قريب من الجرعاء، وقلَّتِ الغلال بها، ولا يعرف أهلها القوت إلا من التمر والسمك، ويُطعمون بهائمهم ذلك، والحنطةُ متعذِّرةٌ عندهم، فاشتدَّ الغلاء، وبلغ الرطل السمك الجرعاني مئتي درهم رصاصاً، ومعاملتهم بالرصاص، يبلغ الدينار إلى ثمانية عشر ألف درهم وإلى عشرين ألفاً بدينار، وعاد باقي التركمان إلى البلاد.

وفي رجب أغار خطلج أدران[1] على بني خفاجة، كانوا على واد السباك بالحجاز، ومعهم غَزْنة وزبيد، فخرج خطلج من الكوفة وصَحِبه جماعةٌ من التركمان طمعاً في النهب، فقال لهم: [المال لكم، والنساء لي، لا تتعرَّضوا للحريم. فقالوا][2]: نعم، وساروا في البرية ثلاثة أيام، فصبّحهم وقتَ السحر، ودقَّ الطبول، وضُربت البوقات، فركبوا خيولهم وانهزموا، وجاء هو إلى الحلل، فأسبل أثواب البيوت، وحمى مَنْ فيها من النساء وما عندهنَّ من الأموال، ونهب التركمانُ الجمال والغنم، ولم يُمكِّن أحداً من رفع سجاف عن امرأة، وكان عدد الجمال خمسة آلاف جمل، وأما الغنم فلا تُحصى، غير أنها لم تتبعهم؛ لضعفها، ورجع بطلب الكوفة، فرأى مع أصحابه من الإماء ثلاثاً، فأنكر عليهنَّ، فقالوا: هؤلاء سألْنَنا أن نأخذهنَّ لنخلصهنَّ من خدمة[3] العرب، فقلن: نعم، فقال: لا، وردُّوهن إلى العرب.

وفي رجب عاد أتْسِز الخُوارَزمي إلى دمشق منهزماً من القاهرة في خمسة عشر فارساً، وقد نُهبت أمواله، وقُتلت رجاله، وكان لمَّا تسلَّم دمشق تصوَّر في عزمه قصدَ مصر، فجمع من التركمان والأكراد والعرب عشرين ألفاً، ووصل إلى الريف، وأقام نيِّفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال، ويسبي الحريم، ويذبح الأطفال، وهو يراسل بدراً الجمالي، ويطلب المال، وقد انزعج الناس، وكان عسكرُ مصر بالصعيد [يحارب

(١) كلمة: أدران، ليست في (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) في (ب): من أيدي.

العبيد، فضمِن له مئةً وخمسين ألف دينار، واستدعى من كان بالصعيد][1] من العساكر والسودان، وكان مع أتْسِز بدر بن حازم الكلبي في ألفي فارس، فاستماله بدر، فانتقل إلى القاهرة، وورد القاهرةَ ثلاثةُ آلاف رجل في المراكب بنيَّة الحج، فقال لهم بدر: دَفْعُ هذا العدو أفضلُ من الحج. وأعطاهم المالَ والسلاحَ، وقالوا لوالد شكلي التركماني الهارب من أتْسِز: كاتِبِ التركمان. فكاتبهم، وأفسد منهم نحواً من سبع مئة غلام، وكانوا كارهين لأتْسِزْ من شُحِّه وعسفه، واتفقوا أن الحرب متى قامت استأمنوا إلى بدر، وسار أتْسِز إلى القاهرة في أواخر جمادى الآخرة، فأرسل بدرٌ ألفي فارس يصدمونه حتى يستأمن مَنْ أفسدهم أبو شكلي، فلم يستأمن أحداً، وكسرهم أتْسِز، فرجعوا مفلولين إلى القاهرة، وكان قد التجأ إليها أهل الضياع والأصقاع ومصر والتجار، فوقفوا على باب القصر باكين صارخين، فخرج من [عند][2] المستنصر خادمٌ فقال: يقول لكم أمير المؤمنين: إنما أنا واحدٌ منكم، وعِوَضُ ما تتضرعون على بابي وتبكون، فارجعوا إلى الله تعالى وتضرَّعوا له، ولازموا المساجد والجوامع، وصوموا، وصلُّوا، وأزيلوا الخمور والمنكرات، فلعلَّ الله أن يرحمني وإيَّاكم، ويكشفَ عنَّا ما قد نزل بنا. فعاد الناس إلى المساجد [من الجوامع، وخرج النساء كاشفات الوجوه، منثورات الشعور][3] يبكينَ ويستغِثْنَ، والرجال يقرؤون القرآن، وكان بدر الجمالي قد هيَّأ المراكب والسُّفن؛ إن رأى غلبةً نزل منها الإسكندرية، وكذا صاحب مصر، فضجَّ الناسُ، وقصدوا باب القصر، وقالوا: تمضي أنت وبدر في السفن ونهلِكُ نحن؟! فخرج الجواب: إني معكم مقيمٌ، فإن مضى أمير الجيوش إلى حيث يطلب السلامة فهاهنا من السفن مايعمُّكم، مع أنني واثقٌ من الله بالنصر، وعندنا في الكتب السالفة أنَّ هذه الأرض لا تؤتى من الشرق، ومن قصدها هلك، فلمَّا كان وقت السحر خرج بدرٌ إلى ظاهر القاهرة والعسكر معه، وأقبل أتْسِز في جحافله، والدبادب والبوقات بين يديه، فرأى بدرٌ ما لم يظنَّ له به طاقة، وكان بدر قد أقامَ بدرَ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) مابين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

ابن خازم من وراء أتْسِز كميناً في ألفي فارس، فخرج من ورائهم، فأخذ البغال المحمَّلة، وضرب النار في الخيم والخركاوات، واستأمن إلى والد شكلي السبع مئة غلام كانوا في الميسرة، وحمل بدرٌ على الميمنة فهزمها، وحمل السودان على القلب وفيه أتْسِز، فانهزم وقُتِلَ مَنْ كان حوله، وتبعهم السودان والعرب أسراً وقتلاً إلى الرمل، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها أحدٌ قبل ذلك، وكان فيما أخذ ثلاثةَ آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجاريةً، وأما من الأموال والثياب فما لا يُحصى، وأقاموا مدة شهر رجب يحوزون الأموال والخيل والأمتعة والأسارى، وجاء العسكر وأهل البلد إلى باب القصر، فضجُّوا بالأدعية، فخرج إليهم جواب المستنصر: قد علمتُم ما أشرفَ عليكم من الأمر العظيم والخطب الجسيم الذي لم يخطر في نفوسنا القدرة على دفعِه وردِّه، حتى كشفه الله تعالى، وما يجب أن يكون في مقابلته إلا الشكر لله تعالى على نعمته، ومتى وُجد إنسانٌ على فاحشة كان دمُه ومالُه في مقابلة ذلك، ثم وُجِدَ بعد ذلك ستةُ سكارى، فأُخذوا وخُنقوا، وزال[1] ما كان بمصر من الفساد، ولازموا الصلوات وقراءة القرآن، ومضى أتْسِز في نفر يسير، فلمَّا وصل غَزَّة ثار أهلُها به، وقتلوا جماعةً ممَّن كان معه، فهرب إلى [الرملة، فخرج إليه أهلها، فقاتلوه وقتلوا من كان معه، فهرب إلى][2] دمشق في بضع عشرة نفساً، فخرج إليه ولدُه ومسمار أحد أمراء الكلبيين، وكان قد استخلفهما بدمشق في مئتي فارس من العرب، وكان وصوله في عاشر رجب، فنزل بظاهرها في مضاربَ ضربها له مسمار، وخرج إليه أهل البلد فخدموه، وهنَّوه بالسلامة، وشكَوه، فشكرهم، وأطلق لهم خراج تلك السنة، وأحسن إليهم، ووعدهم بالجميل، فقام واحدٌ منهم فقال: أيها الملك العادل ـ وبه كان يُخاطب ويُخطَبُ له ـ قد حلفتَ لنا وما حلَفْنا لك، وتوثَّقتَ منَّا، وأنا والله أصدُقُكَ وأنصحُكَ. فقال: قُلْ. قال: قد عرفتَ أنه لم يبقَ في هذه البلدة عشرُ العُشرِ من الجوع والفاقة والفقر والضعف، ولم يبقَ لنا قوةٌ، ومتى غُلقت أبواب هذا البلد من عدوٍّ قصدَه، ورُمْتَ منا منَعةً أو حفظاً، فإن كنت مقيماً بيننا فنحن بين يديك مجتهدون، ولك

(١) في (خ): وذلك، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

ناصحون، وإن بَعُدْتَ عنا فلا طاقة لنا بالقتال مع الفقراء والضعفاء، فلا تجعل غلبة العدو سبباً لهلاكنا ومؤاخذتنا. فقال: صدقتَ ونصحتَ، وما أبعدُ عنكم، ولا أُخليكم من عسكر يكون عندكم. ثم أقام بدمشق، جاءه التركمان من الروم، ولم يستخدم غيرهم، وعصى عليه الشام، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام، وقام بذلك المَصامِدة والسودان، وكان أتْسِز وأصحابُه قد تركوا أموالهم [بالقدس، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم] ونسائهم فنهبوها، وقسموا التركيات بينهم، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واستَرَقُّوهم، فخرج من دمشق فيمن ضوى إليه من التركمان، ووصل إلى قريب القدس، وراسلهم وبذل لهم الأمان، فأجابوه بالقبيح، وتوعَّدوه بالقتال، فجاء بنفسه إلى تحت السور، فخاطبهم وسبُّوه، فقاتلهم يوماً وليلةً، وكان مالُه وحرمُه في برج داود، ورام السودانُ والمَصامِدةُ الوصول إليهم فلم يقدروا، وكان في البرج نفق[(١)] إلى ظاهر البلد، فخرج أهلُه منه إليه، ودلُّوه عليه، فدخل منه ومعه جماعةٌ من العسكر، وخرجوا من المحراب، وفتحوا الباب، ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان، واحتمى قومٌ بالصخرة والجامع، فقرَّر عليهم الأموال، حيث لم يقتلهم لأجل المكان، وأخذ من الأموال شيئاً لا يبلغه الحصر، بحيث بِيعَتِ الفضة بدمشق كلُّ خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار، وقُتِلَ القاضي والشهودُ صبراً بين يديه، وقرَّر أمور البلد، وسار إلى الرملة، فلم يرَ فيها من أهلها أحداً إلى غزة، وقتل كلَّ منْ فيها، فلم يدَعْ بها عيناً تطرف، وجاء إلى العريش فأقام فيه، وبعث سريةً فنهبت الريفَ وعادت، ثم مضى إلى يافا فحصرها، وكان بها رزين[(٢)] الدولة، فهرب هو ومن كان فيها إلى صور، فهدم أتْسِز صورها[(٣)]، وجاء كتابه إلى بغداد بأنه على نية العَوْد[(٤)] إلى مصر، وأنه يجمع العساكر، ثم عاد إلى دمشق، ولم يبقَ بها من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمس مئة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مئتان وأربعون خبازاً، فصار بها خبَّازان، والأسواق خالية، والدار

(١) في (ب): رتق.

(٢) تحرفت في (خ) إلى: وزير، والمثبت من (ب).

(٣) هكذا في (خ) و(ب)، ولعلها: سورها.

(٤) في (خ): العهود، والمثبت من (ب).

التي كانت تساوي [ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها عشرة دنانير، فلا يشتريها أحد، والدكّان الذي كان يساوي][1] ألف دينار ما تُشترى بدينار، كان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيُضرمون فيها النار فتحترق، ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به، وأُكِلت الكلابُ والسنانير، وكان الناس يقفون في الأزِقَّة الضيِّقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم، وكان لامرأة داران قد أُعطيت قديماً في كلِّ دار ثلاثُ مئة دينار أو أربع مئة دينار، ولمَّا ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر، فاحتاجت إلى سِنَّور، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطاً، واشترت بها سِنَّوراً.

وفي شوال وقعت فتنة بين الشافعية[2] والحنابلة، وسببها أنه ورد إنسان يُعرف بأبي نصر بن عبد الكريم القُشيري النيسابوري الواعظ المتكلم على مذهب الأشعري، فجلس في المدرسة النظامية، وخلطَ وغْظَه بالكلام، وذمَّ الحنابلة، وتكلَّم في القرآن، فأنكرت الحنابلة ذلك، وعَنَّ لأبي إسحاق الشيرازي إمام الشافعية وأصحابه معونته على الحنابلة، وتتبَّعَ بعضُهم بعضاً في الطرقات ضرباً وسبًّا، فالشافعية لقلة عددهم اعتضدوا بنظام الملك، وأما الحنابلة فمع كثرة عددهم تقوَّوا بسواد البلد، وكان في يوم مجلس ابن القُشيري يحضر قومٌ من اليهود والنصارى، ويرغبون فيما يعطون فيُسلمون، ويُخلَع عليهم، ويُحملون على الخيل ويُطاف بهم، فتقول العوام: هذا إسلام المغايظة والرِّشا، لا إسلامُ الدين والتُّقى. وزاد الأمر فيما بينهم، وجلس جماعةٌ، وكتب أبو إسحاق إلى نظام الملك يشكو أمر الحنابلة ويستدعي منه المعونة، وبعث جماعةً بكتُب، وكان أبو جعفر عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي مُتقدِّم الحنابلة مقيماً بالرُّصافة، فبان له من شحنة بغداد، ويُعرف بالسلار القاروني، تعصُّب عليه خدمة لنظام الملك، وبلغه أنَّ ابن القُشيري على عزمِ قصد جامع الرُّصافة يوم الجمعة ومعه الشحنة، فخاف، وجاء إلى دار الخليفة شاكياً، وأقام بباب المراتب أياماً، ثم مضى إلى مسجده بباب النُّوبي، فأقام به على عادته، وحُمِلَ إليه يهوديٌّ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) في المنتظم ١٦/ ١٨١-١٨٣ - والخبر فيه - بنحوه مختصراً - : الأشعرية.

فأسلم، وخرجوا معه، وقصدوا باب النُّوبي، وعزموا على الهجوم على ابن أبي موسى [في][1] مسجده، ورتب ابنُ أبي موسى أصحابَه على سطحِ المسجد وبابِه وجوانبِه، فلمَّا وصلوا رماهم الحنابلة بالآجر من سطح المسجد، فقُتِلَ واحدٌ من الشافعية خياطٌ من سوق الثلاثاء، وخرج آخرون، ووقع في صاحب الباب آجُرَّة، وانهزم الشافعية، وغلقوا أبواب النظامية، ونُهبت عمائمُ الناس، وصاحت الشافعية على باب النُّوبي: المستنصر يا منصور؛ تهمةً للمقتدي أنه يميل إلى الحنابلة، وأُدخِلَ ابنُ أبي موسى إلى دار الخليفة، وأُسكِنَ في موضع؛ حراسةً له، وحجراً عليه، وكفًّا للفتنة، وغضب أبو إسحاق الشيرازي وجمعَ أصحابَه، وعزمَ على الخروج من البلد، فبعث الخليفةُ مَنْ ردَّه، وأحضر ابنَ القشيري وأبا سعد الصوفي وأبا إسحاق وابنَ أبي موسى إلى الديوان، وأُصلحت الحالُ، ووقع التراضي بأنَّ ابن القشيري يجلس بجامع القصر مجلسين أو ثلاثاً، فلمَّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة جلس بالجامع، وبعث الخليفةُ جماعةً من الرجالة بالسلاح يحفظونه من العوام، فشرع في الوعظ، وخلَّط بكلام الأشعري، فقام رجل أعمى وقف بإزائه وانتزع آياتٍ من القرآن، مثل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم: ٤٢] ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وما أشبه ذلك، فشكى ابنُ القشيري إلى ابن جَهير، فحبس الأعمى، والفتن قائمة، ووردت رُسُلُ أبي إسحاق الشيرازي في المُحرَّم سنة سبعين ومعهم كتابان إلى فخر الدولة ابن جَهير وابنِه عميد الدولة أبي منصور، فمضمون كتاب فخر الدولة: كتابي أطالَ اللهُ بقاء سيِّدِنا الوزير الأجلِّ السيد مؤيد الدين فخر الدولة شرف الوزراء، أدامَ الله رفعتَه وتمكينَه وبسطتَه، وذكر ما جرت به العادة من الدعاء، وقال: بلغنا ما تجدَّد ببغداد من القضايا المتعلِّقة بالدين التي تظهر في أثنائها على الصُّدفَة، واعتقادُ المداهنين يُشعر بأن الضمائر المنطوية على النفاق أبَتْ إلا ما تُكِنُّه، والسرائر المعقودة على الخِلاف والغلِّ لم تصبر على استحفاظ ما تُجِنُّه، حتى ورد إثرَ ذلك عدةٌ من الفقهاء ونفرٌ من العلماء، فأوضحوا ما يجري هناك مما كانت تخفى حقيقتُه وجَليَّتُه، وما ظهرت بذلك صورتُه، ولعمري إن هذه الطائفة ـ يعني

(١) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

الشافعية - إذا قَلَّتْ غواتهم ولم يجدوا فيما دَهَمَهم مَنْ ينصرهم ويُظافرهم، ولم يقُمْ معهم فيما حزَبَهم ويؤازرهم، وإن كانوا لم يزالوا مُقدَّمين مميَّزين مُكرَمين فلم يُصبحوا أغراضاً لِسهام النوائب يطعن فيهم كلُّ مخالفٍ ومُجانبٍ، لا يرعى لهم حُرمة، ولا يرقُبُ فيهم إلّاً ولا ذِمَّة، غير اعتقاد المذهب الذي هم به موسومون، ومن علومه يتعلمون، وقد بنينا لهم مدرسةً تصير مأواهم، ويتَّخذونها في السراء والضراء مثواهم، وإن هؤلاء الذين ينتحلون مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله - وإن كان هو بريئاً من سوء دَخَلِهم وأفعالهم، منتفياً من ذميم طرائقهم وأقوالهم، مع كثرةِ عددهم في تلك البقعة واشتداد شوكتهم، واتفاقِ أقاويلهم في الضلال وكلمتِهم - لم يتجاسروا في زمن الأزمة على ما جعلوه الآن بينهم سورةً يتدارسونها، وصَنْعَةً يمارسونها، مِنْ سبِّ الأئمةِ، والوقيعةِ في علماء الأمَّةِ، من غير منعٍ ولا معاقبة، ولا تخوُّفٍ ولا مراقبة، والعجبُ من إقدامهم في تلك البقعة الحرجة على أهل السنة، وإلقائهم إياهم في كلِّ محنة، وعندنا بخراسان وبلاد الترك - مع تباعُدِ أقطارها واتِّساع أكوارها - لا يُعرف فيها سوى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، ومَنْ سُمِعَتْ منه كلمةٌ عوراء في سائر كُوَرِها تُخالف المذهبين وتُباينُ اجتماعَ الفريقين نرى دمَه حلالاً، ونُوسِعُهُ ضرباً وإذلالاً، وليس الإغضاءُ عمَّا يبدو منهم من البدع، ويُضاف إليهم من شرٍّ مجتمع، إلَّا ترفُّقاً أن يجري في جوار الخِلافة المُعَظَّمةِ وسُدَّةِ[1] الإمامة المكرمة ما يُخِلُّ بلوازم الهيبة، ويفلُّ جوانب التعظيم والرَّهْبَة[2]، وأما ما يخصُّني أنا في ذلك البلد فما أجدُ أصْلَحَ من حسم القول فيما يتعلق بتلك المدرسة؛ لئلَّا يجري على من يتفيَّأ ظلَّ عنايتي، ويلحَظُ بعين رعايتي ما يجري، وذكر كلاماً طويلاً ممزوجاً بتهديد، وكذا كتاب عميد الدولة.

وحكى أبو الفتح الحلواني - وكان قد حضر هذه القضية - أنَّ الخليفة لمَّا خاف من تشنيع الشافعية عليه عند نظام الملك أمر الوزير أن يُجيل الفكر فيما يحسم به الفتنة، فاستدعى ابنَ جردة، وأمره بإحضار الشريف أبي جعفر وأبي إسحاق الشيرازي وابن القُشيري وأبي سعد الصوفي على وجه التلطُّف، فأحضرهم، فعظَّم الوزيرُ أبا جعفر ابنَ أبي موسى ورفَعَه،

(١) في (خ): الخليفة العظمة وشدة.

(٢) في (خ): الوفية.

وقال: إن أمير المؤمنين قد ساءه ما جرى، وهؤلاء يصالحونك على ما تريد، وأمرهم بالدنوِّ من الشريف، فقام أبو إسحاق الشيرازي إليه ـ وكان يتردَّد إلى مسجده أيام المناظرة بدرب البطيخ ـ فقال له: أنا الذي تعرف، وهذه كتبي في أصول الفقه أقول فيها خلافاً للأشعرية. ثم قبَّل رأسه، فقال له الشريف: قد كان ما تقول، إلَّا أنك لمَّا كنتَ فقيراً لم يظهر لنا منك ما في نفسك، فلما جاء الأعوانُ والسلطانُ وخواجا بزرك أبديتَ ما كان مخفيًّا. ثم قام أبو سعد الصوفي وقبَّل يدَ الشريف وتلطَّف به، فالتفت الشريف إليه وقال: أيها الشيخ، أمَّا الفقهاء فإذا تكلَّموا في الأصول فلهم في مسائلها مدخل، أمَّا أنت فصاحب لهو وسماع وتغبير، فمن زاحمك على ذلك حتى أقمتَ الفتن وسوقَ التعصُّب؟!. وقام ابن القشيري ـ وكان أقلَّهم احتراماً للشريف لجروانه معه ـ فقال الشريف: من هذا؟ فقيل: أبو نصر بن القشيري. فقال: لو جاز أن يُشكرَ أحدٌ على بدعته لكان هذا الشاب؛ لأنه بادَهَنا بما في نفسه، لم ينافقنا كما فعل هذان. ثم التفت إلى الوزير، وقال: أيُّ صلحٍ بيننا؟ إنما يكون الصلح بين خصمين على ولايةٍ أو دَين أو قسمةٍ لميراث، أو تنازعٍ في ملك، فأمَّا هؤلاء القوم فيزعمون أننا كفار، ونحن نعتقد أنَّ من لا [يَعتقِدُ ما][1] نعتَقِدُهُ فهو كافر، وهذا الإمام مفزَعٌ للمسلمين، وقد كان جدُّه القادر وأبوه القائم أخرجا اعتقاداً للناس، وقُرئ عليهم في دواوينهم، وحمله عنهما الخراسانيون والحجيج إلى أطراف خراسان، ونحن على اعتقادهما. وأنهى الوزير إلى الخليفة ما جرى، فخرج الجواب: عُرِفَ ما أنهيتَه من حضورِ ابن العم ـ كثَّرَ اللهُ في الأولياء مثلَه ـ وحضورِ مَنْ حضر من أهل العلم ـ والحمد لله ـ على جمع الكلمة، وضمِّ الأُلفة، فليؤذَنْ للجماعة في الانصراف، وليقُلِ الشريفُ أنه قد أُذِنَ له موضعٌ قريبٌ من الخدمة ليراجع في كثير من الأمور الدينية، وليتبرَّك بمكانه، فلمَّا سمع الشريف هذا قال: أفعلمتوها؟. فحُمِلَ إلى موضع أُفرِدَ له، فكان الناس[2] يدخلون عليه مدةً، فقيل له: قد كثُرَ استطراق الناس لدار الخلافة، فاقتصِرْ على من يُعين دخوله. فقال: مالي غرضٌ في دخول أحد عليَّ. فامتنع الناسُ عنه، ثم مرض مرضاً أثَّر في رجليه فانتفختا، فيقال: إن بعض المتفقِّهة من الأعداء ترك له في مداسه سماً، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين من ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٥ .

(٢) من هنا يبدأ السقط من الأصل (ب) وينتهي بنهاية السنة (٤٧٣)هـ .

وخرج ابنُ القشيري إلى الحج، وسكنت الفتنة، وكتب ابنُ أبي الصقر إلى نظام الملك يقول: [من مجزوء الرمل]

يا نظامَ المُلْكِ قد حُلَّ ببغدادَ النِّظامُ
عَظُمَ الخطبُ ولِلْحربِ[1] اتصالٌ ودوامُ
وابنُكَ القاطِنُ فيها مستهانٌ مُسْتضامُ
وبها أودى له قَتْلاً غلامٌ وغلامُ
والذي منهم تبقى سالماً فيه سهامُ
يا قِوامَ الدِّين لم يَبْقَ ببغداد مقامُ[2]
فمتى لم تحسمِ الداءَ بكفَّيكَ الحسامُ
ويكفُّ القومَ في بغْداذَ فتْكٌ وانتقامُ
فعلى مدرسةٍ فيها ومن فيها السَّلامُ

ولمَّا وقف نظام الملك على الرُّقعة حنق على ابن جَهير، وقد كان النظام يعلم ميل الخليفة إلى الحنابلة وبُغضَه للأشاعرة، ولكنَّه كان يستأثر الأمور، لا يمكنه أن يصرِّح بذلك، وكان في الباطن يُحرِّض ملك شاه على الخليفة الوزير.

وفيها أزال الخليفة المواخير، ونفى المفسدات وكانت مغلة الشحنة، فأعطاه من عنده ألف دينار.

وفي ذي القعدة خرج أبو طالب بن أبي تمام الزينبي إلى مكة لأخذ البيعة للخليفة والسلطان، وخرج معه خطلج أدراز أمير الكوفة، وكان ذلك مخالسةً، وما علم به من أصحابه إلا رجلان أو ثلاثة، فتبعوه، وحجَّ وعاد مع الزينبي، وخلعا على أمير مكة.

وفي ذي القعدة بعث سابق بن محمود بن الزَّوقلية صاحبُ حلب إلى أنطاكية بأحمد شاه والتركمان الذين معه وعدد كثير من بني كلاب وأحداث حلب، فحصروها، فبلغ الخبزُ بها رطلين بدينار، وقرَّروا عليه مئةً وخمسين ألف دينار، وقبضوها وعادوا عنها.

(١) في الأصل (خ): عظم الحرب والخطب، والتصويب من الكامل ١٠/١٠٩، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٣١١، وغيرهما.
(٢) في الأصل(خ): قوامُ، والمثبت من المصادر السابقة.

وفيها تُوفِّي

اسبَهْدُوست بن محمد بن الحسن(١)

أبو منصور، الديلمي، الشاعر، كان يهجو الصحابة ﷺ والناسَ، ثم تاب وحسُنت توبتُه، فقال: [من الكامل]

لاحَ الهُدى فجلا عن الأبصارِ ... كالليلِ يجلوهُ ضياءُ نهارِ
ورأَتْ سبيلَ الرُّشدِ عيني بعدما ... غطَّى عليها الجهلُ بالأستارِ
لابدَّ فاعلَمْ للفتى من توبةٍ ... قبلَ الرحيلِ إلى ديارِ بوارِ
يمحو بها ما قَدْ مضى من ذنبهِ ... وينالُ عفوَ إلهِهِ الغفَّارِ
وعلمتُ أنهمُ هُداةٌ قادةٌ ... وأئمةٌ مثلُ النجوم دراري
وعدلتُ عما كنتُ معتقداً له ... في الصَّحبِ صحبِ نبيِّكَ المختارِ
السيِّدِ الصدِّيقِ والعدلِ الرِّضا ... عمرٍ وعثمانٍ شهيدِ الدارِ
وعليٍّ الطُّهرِ المُفضَّلِ بعدَهُمْ ... سيفِ الإلهِ وقاتلِ الفُجَّارِ
صحْبُ النبيِّ الغُرُّ بل خلفاؤه ... فينا بأمرِ الواحدِ القهَّارِ
رحماءُ بينهُمُ فتلكَ صفاتُهمْ ... ورَدَتْ أشِدَّاءٌ على الكفَّارِ
وتَراهُمُ من راكعينَ وسُجَّدٍ ... يستغفرونَ اللهَ بالأسحارِ
أيقنتُ حقًّا أنَّ من والاهمُ ... سيفوزُ بالحسنى بدارِ قَرارِ
فعَدلْتُ نحوَهمُ مقرًّا بالولا ... ومخالفاً للعُصبةِ الأشرارِ
مترجِّياً عفوَ الإله ومحوَهُ ... ما قدَّمتهُ يدي من الأوزارِ
وإذا سألتَ عن اعتقادي قلتُ ما ... كانَتْ عليهِ مذاهبُ الأبرارِ
وأقولُ خيرُ الناسِ بعدَ محمدٍ ... صِدِّيقُهُ وأنيسُهُ في الغارِ
ثمَّ الثلاثة بعده خيرُ الورى ... أكرِمْ بهِمْ من سادةٍ أطهارِ
هذا اعتقادي والذي أرجو بهِ ... فوزي وعتقي من عذابِ النارِ

وكانت وفاته في ربيع، ودُفن بباب أبرز.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٨٤-١٨٥ .

حمزة [بن علي] (١)

أبو يعلى بن العين زربي، الشاعر، كان فصيحاً فاضلاً أديباً، لما فتح أتْسِز بن أوق القدس وقتل بها ذاك العالم العظيم كان حمزة بالقدس، فقُتِلَ بالحرم في شوال رحمه الله، ومن شعره: [من السريع]

يا راكباً يقطعُ عرضَ الفلا ... بَلِّغْ أحبَّائي الذي تسمعُ
وقُلْ لهم ما جَفَّ لي مَدْمَعٌ ... ولا هنا لي بعدَكُمْ مضجَعُ
ولا لَقيتُ الطَّيفَ مُذْ غبتُمُ ... وإنَّما يلقاهُ مَنْ يهجَعُ

وقال: [من الطويل]

تناسيتُمُ عهدَ الهوى بعدَ تذكارِ ... فأجرى حديثي عِندكُم دمعيَ الجاري
وأنكرتمُ بعدَ اعترافِ مودَّتي ... فهيَّجتُمُ وجدي وأضرمتُمُ ناري
وهَلْ دامَ في الأيَّامِ وَصْلٌ لهاجِرٍ ... وودٌّ لِخَوَّانٍ وعهدٌ لِغَدَّارِ
أما حاكمٌ لي في هواكُمْ يُقيْلني ... أمَا آخذٌ لي بعدَ سفكِ دمي ثاري
وإنِّي لصبَّارٌ على ما ينوبني ... ولكن على هجرانكُمْ غيرُ صَبَّارِ

طاهر بن أحمد بن بابَشاذ(٢)

أبو الحسن، النَّحْوي، المصري، صاحب المقدمة المشهورة، كان عالماً فاضلاً، وله تصانيف في النحو، وسمع الحديث ورواه، وقُرِئ عليه الأدب بجامع مصر سنين، صعد يوماً إلى سطح جامع مصر فوقع فمات من ساعته في رجب.

السنة السبعون وأربع مئة

فيها في ثالث المُحرَّم قتل السلطانُ جلالُ الدولة ملك شاه أنموه بن أتابك صاحب الجيش، وكان قد عصى عليه.

---

(١) تاريخ دمشق ١٥/ ٢١٢-٢١٣ ، ومعجم الأدباء ١١/ ٥-٨ ، ومابين حاصرتين من المصادر.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١٧-١٩. وتنظر باقي مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤٣٩ .

وفي يوم الخميس النصف من صفر قدم مؤيد الملك بن أبي بكر نظام الملك إلى بغداد، وخرج إلى لقائه الوزير فخرُ الدولة بن جَهير وولدُه عميد الدولة وجميعُ الخدم والحُجَّاب إلى الحلبة، وجاء إلى بيت النوبة، فخدم وانصرف.

وفي يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول تُوفِّي القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد ابن البيضاوي، الشافعي.

وفي ربيع الأول ظهر في السماء حُمرةٌ مستديرةٌ كنصف دائرة كبيرة، ثم عقبها ريحٌ شديدةٌ ورعدٌ وبرقٌ شديد، ووقعت منه صاعقةٌ في محلة التُّوتةِ غربي بغداد على نخلتين في مسجد فأحرقَتْهما، واشتعل سَعَفُهما وكَرَبُهما وليفُهما، وأخذ الصبيان من السَّعَفِ والنار تشتعل فيه وهو يَقِدُ كالشمع وأُطفِئت النار[1].

وفيه جاء خطلج دُزْدار[2] أمير المؤمنين إلى الديوان يطلب تشريفاً، وكان قد ظلم أهلَ الكوفة وأخذ أموالهم، فقيل له في الجواب: ما تقدَّم منك ما يوجب ذلك، ولا ما يقتضيه. فخرج مُغضَباً، وعاد إلى الكوفة، واجتاز بنهر الملك، فقبض على نائب الخليفة في ضياعه، وأخذه معه إلى الكوفة، ثم أطلقه، فكتب الوزير إلى نظام الملك بما جرى وما أقدَمَ عليه خطلج من خرق الهيبة، فكتب نظام الملك من ديوان ملك شاه كتاباً إلى خطلج يُوبِّخه ويلومه ويقول: أيها السلار سيف الدولة، وفَّقكَ اللهُ للرشد، إن قوامَ الدين والدنيا ومصالحَ البلاد والعباد وسكونَ الدهماء ونظامَ الأحوال كلِّها معقودٌ بأُبَّهة المواقف الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المقتدية، ظاهرَ اللهُ مجدَها، وقمعَ ضِدَّها، التي هي الظِّل الظليلُ في أرضه، ورحمتُه على خلقه، وجميعُ ما يشملنا ويصفو لنا ويصفو علينا، من عوارف الله تعالى ومواهبه ونعمه وعوائده، فمِنْ أيامِها الزاهرة، ودولتِها القاهرة، وبركاتِ توفُّرِنا على عبوديتها، وقيامِنا بمفروضِ طاعتها، وانتسابِنا أين كنَّا وحيث حلَلْنا إلى خدمتها، ومَنْ يبغِ في خلافِ خلافِها، ومدَّ عُنُقَه عن ربقة بياعتها، فلا همَّ لنا إلَّا شدْخَ هامته، وإقامةَ قيامتِه كيف وافى، ومن أين لكَ أن تُلِحَّ على السُّدَّة العزيزة بما لو ورد إلى فَمِكَ لهَتَمه[3]، ولو حُمِلَ على ظهرك

---

(١) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ١٩٠ . والكَرَبُ: جمع كَرَبة، وهي أصل السَّعَفةِ العريضة. اللسان (كرب).

(٢) في (خ): أدرار، ودُزْدار: لفظ أعجمي معناه: حافظ القلعة وهو الوالي. وفيات الأعيان ٧/ ١٤٢ .

(٣) الهَتْم: الكسر. المعجم الوسيط (هتم).

لقصَمَه، ثم تُلفي في منصرفك عنها بعضَ المنتمين إليها فتُرجِّله عن دابته وتمدُّ يَدَك إلى أذيته، ولقد عظُمَ علينا استماعُ ما تمادى منك إليه، وما بدا من فعلك المستنكرِ عليه، ولو رأتِ المواقفُ الجلاليةُ تقويمَكَ بأن تجعلك عبرةً لغيرك لأمرتُ به، ولكنَّها أبَتْ عواطفُها الكريمة، ورحمتُها الواسعةُ العميمة إلا إعراضاً عن جريمتك، وإغضاءً عن عقوبتك، ولعِلْمنا بأنَّ المواقف المقدسة الإمامية لا تستجيز عقوبتك، ولا ترى مقاتلتك، فمَرِّغْ خدودَك على تراب الهيبة الشريفة، وتضرَّعْ إلى مكارم تلك المراتب المُنيفة، وتعلَّق بأذيال تلك المكارم الفائضة، واستدِرَّ ظلالَ الرحمة الواسعة، وذكر كلاماً هذا معناه.

وفيها ورد كتاب أرتق بك من الأحساء باستظهاره على القرامطة وأخْذِ بلادهم وغنيمتِهم، فحضر أرتق بك في الديوان وقرأه، وخرج توقيع الخليفة يشكره، وخلع عليه، وأعطي الفرس بمركب ذهب والمنجوق وثياباً.

وفي شعبان تُوفِّيت بنت الوزير نظام الملك زوجة عميد الملك، وجلس الوزيرُ ولدُه في العزاء، ودُفنت بدار الوزير بباب عمورية، ولم تكن العادةُ جاريةً بالدفن فيما يدور عليه السور.

وفي رمضان حُمِلَ إلى مكة منبرٌ كبيرٌ مُذْهَب، تولَّى عمَلَه فخر الدولة بن جَهير في داره، وكُتِبَ عليه اسم الخليفة وألقابُه والآياتُ المتعلقة بالحاج ومكة، فاتَّفق وصولُه إلى مكة وقد أُعيدت الخطبة المصرية، فآل أمرُه إلى أن أُحرِقَ.

وفيها ورد كتاب نظام الملك إلى أبي إسحاق الشيرازي جواباً عن كتابه المتقدِّم يشكو فيه الحنابلة نسخته: وردَ كتابُكَ أيها الشيخ بشرحٍ أطَلْتَ فيه الخطابَ، وندبتنا إلى استدعاء الجوابَ، وليس من الواجب أن نتحيَّز في المذهب إلى جهةٍ دون جهة، وليس ذلك مقتضى السياسة والمعدلة في الرعية، ونحن بتأييد السُّنن أولى من تشييد الفتن، ولم يتقدَّم ببنيان هذه المدرسة إلا لضيافة العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمورُ على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب فليس إلَّا التقدم على بغداد ونواحيها، ونقلهم عما جَرَتْ عليه عادتهم فيها، فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحلُّه بين الأئمة وقدرُه

معلومٌ في السنة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد ما تجدَّد مسألة سئل عنها أبو نصر بن القشيري من الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه من معتقداتهم، وألِفوه من عادتهم، فنقموا ذلك عليه، وليس في العادة أن يُجبَر الإنسان على الانتقال من مذهبه، ولا عن الانحراف عن معتقده، ومعلومٌ أنَّ أهل قاشان كانوا على مذهب أبي حنيفة، فلم يكن يلزمهم أصحاب الشافعي الدخول في معتقدهم، وكذا أصحاب الظاهر اعتقدوا مذهب الشافعي، فلم يُلزمهم أصحابُ الرأي الخروجَ عن مذهبهم، وقد منع اللهُ عن ذلك مَنْ تقدَّم، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] وقد كان أهلُ المذاهب بأصبهان وغيرها من البلاد أكثرَ انتشاراً منه ببغداد، فلم يتقدَّم إليهم في ذلك بما يشقُّ به عليهم، والشيخ أبو إسحاق فرجلٌ سليمُ الصدر، سلسُ الانقياد، يُصغي إلى كلٍّ ما يُنقل إليه، ويقع تعويلُه عليه، وعندنا مِنْ تضادُدِ كتُبه ما يدلُّ على ما وصفناه من سهولة مجتذبه، والسلام. وبلغَ الحنابلةَ، فسُرُّوا واطمأنُّوا، وانبسطوا واستطالوا، فلمَّا كان في اليوم الثامن من شوال ومجتمع الناس للبطالة والفرجة خرج من مدرسة النظامية فقيهٌ يُعرَفُ بالإسكندراني - وكان معروفاً بإثارة الفتن ـ ومعه جماعةٌ من أبناء جنسه إلى سوق الثلاثاء، فتكلم بتكفير الحنابلة، فثاروا عليه وضربوه، ونُهِبَ السوقُ، وقُتِلَ بينهم رجلٌ من الشافعية، وثارت الفتنة، وترامَوا بالنُّشَّاب، وبعث الخليفةُ أصحابَه وخدمَه الخواصَّ، ففرَّقوا بينهم، وحُمِلَ القتيلُ إلى الديوان، وكُتِبَ إلى نظام الملك بشرح الحال، فجاءت منه مكاتبات بضد الأول، وأن يُدخِلَ العميدُ يدَه في بعض إقطاع الخدمة الذين نشِبتْ إليهم الفتنة، ووصل تاج الدولة تُتُش أخو ملك شاه إلى الشام.

وفي يوم السبت التاسع عشر من شوال وُلد للخليفة مولودٌ سمَّاه أحمد، وكنَّاه أبا العباس، وجلس الوزير فخر الدولة في باب الفردوس للهناء، وغُلِّقت بغداد من الجانبين سبعة أيام، وهذا المولود ولي الخلافة وهو المستظهر بالله، ووُلِدَ له في ذي القعدة آخرُ سمَّاه هارون، وتُوفِّي في العشر الثاني من رمضان سنة إحدى وسبعين وأربع ومئة[1].

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ١٩١ .

وفيها توفِّي

أحمد بن عبد الملك بن علي(١)

أبو(٢) صالح، النيسابوري، المؤذِّن، ولد سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وسمع الحديث الكثير، وصنَّف الأبواب والشيوخ، وكان يؤذِّن ويَعِظ، وكانت وفاتُه بنيسابور في رمضان، وكان قد سأل اللهَ أن لا يُميتَه إلَّا فيه، فاستجاب دعاءَه، وخرج عن ألف شيخ له ألف حديث، كلُّ حديث عن شيخ، وكان شيخ الصوفية في وقته علماً وعملاً وصدقاً وأمانةً وصلاحاً، وكان حافظاً صدوقاً، أنشد لغيره(٣): [من البسيط]

يا رُبَّ ساعٍ له في سعيِهِ أملٌ ... يفنى ولم يَقْضِ من تأميلهِ وطَرا
ما ذاقَ طعمَ الغنى من لا قنوعَ لهُ ... ولن ترى قانعاً ما عاش مفتقرا
العُرْفُ مَنْ يأتِهِ يحمَدْ مغبَّتَهُ ... ماضاعَ عُرْفٌ ولو أوليتَهُ حَجَرا

عبد الخالق بن عيسى(٤)

ابن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن عبدالله ابن سعيد بن العباس، أبو جعفر بن أبي موسى، الشريف، الهاشمي إمام الحنابلة ومُقدَّمهم في زمانه، وُلِدَ سنة إحدى عشرة وأربع مئة، كان إماماً ورعاً فاضلاً، قوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، تفقَّه على القاضي أبي يعلى، وكان يشهد، ثم ترك الشهادة قبل وفاته، ولم يزَلْ يُدرِّس بمسجده في سكة الخرقي بباب البصرة وجامع

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٦٧، والمنتظم ١٦/ ١٩٣، والكامل ١٠/ ١٠٨، ومعجم الأدباء ٣/ ٢٢٤، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٢٨٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٠٦ وغيرها. وتنظر تتمة المصادر في السير ١٨/ ٤١٩.

(٢) في (خ): بن، والتصويب من المصادر.

(٣) وهو مهدي بن سابق كما في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣/ ١٥٨، ونسب - أيضاً - كما في الحلية ٧/ ٢٢٠ إلى مسعر بن كدام.

(٤) المنتظم ١٦/ ١٩٥-١٩٧، وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٨-٢٤١، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١-٢٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٥٦٤.

المنصور مدةً، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي، فكان يُدرِّس بمسجد مقابل دار الخلافة، ودرَّس بجامع الرُّصافة وغيره، ولمَّا غسَّلَ القائمَ أوصى له بأشياء كثيرة، فلم يأخذ منها شيئاً، فلمَّا فرغ من غسله استدعاه المقتدي فبايعه في مكانه منفرداً، وأسكنه المقتدي في داره خوفاً عليه، ولمَّا اشتدَّ مرضُه قال: احملوني إلى باب حجرة الخليفة. فحملوه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرُبَ الوقتُ، وما أُحِبُّ أن أموت إلَّا بين أهلي. فأذِنَ له، فمضى إلى بيت أخته بالحريم الطاهري، ولم يُخلِّف شيئاً من الدنيا سوى الحبل والدلو الذي كان يستقي به الماء، وكتاباً يُطالع فيه، وكانت وفاتُه ليلةَ الخميس النصف من صفر، وصُلِّي عليه يوم الجمعة بجامع المنصور، وكان يوماً مشهوداً، يُقال في جنازته: ترحَّموا على الشهيد المسموم القتيل. فيُقال: إنه سمَّه بعضُ المخالفين في مداسه. ودُفِن إلى جانب الإمام أحمد رحمة الله عليه، وكان الناسُ يبيتون هناك كلَّ ليلة أربعاء، ويبيعون المأكول والفواكه، فيُختَم عنده في تلك المدة عشرةُ آلاف ختمة، ثم جاء الشتاء، فانقطعوا. وكان صدوقاً، ثقةً، زاهداً، عابداً، وصنَّف التصانيف في مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

عبد الرحمن بن محمد(١)

ابن إسحاق بن محمد بن يحيى بن إبراهيم، أبو القاسم، الأصفهاني، ويُعرَفُ بابن مندة، ومندة لقب إبراهيم جدِّه، إمامٌ ابنُ إمام، وُلد سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة، وسمع خلقاً كثيراً، وكان عظيمَ الشأن، كثيرَ السماع، سافر البلاد، وصنَّف التصانيف، وخرَّج التاريخ، وكان له سمتٌ ووقارٌ، وأتباعٌ فيهم كثرة، وكان متمسكاً بالسنة، معرضاً عن أهل البدع، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وكانت وفاتُه بأصبهان، وصلَّى عليه أخوه عبد الوهاب، وكان في جنازته خلقٌ لا يُحصَون كثرةً.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٩٤-١٩٥، وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٢، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٦-٣١، والكامل ١٠/ ١٠٨. وتنظر باقي المصادر في السير ١٨/ ٣٤٩.

السنة الحادية والسبعون والأربع مئة

فيها في يوم الاثنين عاشر المُحرَّم ورد سعد الدولة الكوهراني من أصفهان، وضرب على بابه بباب الطاق الطبل في أوقات الصلوات الثلاث؛ الفجر والمغرب والعشاء الآخرة، فأُنكر عليه، فقال: معي توقيع السلطان بذلك. وحضر باب الفردوس، وأخرج كتاباً معه من السلطان إلى الخليفة، فقال: لا أجتمع مع الوزير فخر الدولة وقد أُمرتُ بذلك. وظهرَتْ لوائحُ الشكوى من الوزير وكراهيته، وكان في الكتاب رسالةٌ لا يسمعها الوزير، فلم يُجِبْه الخليفةُ، وتردَّد إلى باب الفردوس أياماً، وجرى منه من سوء الأدب وخرق الهيبة ورفع الحشمة ما لا يُذكر، ثم مضى إلى دار المملكة، وجمعَ القضاةَ والشهود، وقال: اشهدوا أني سألتُ الوصول إلى الخليفة لأؤدِّي رسالةً حمَّلني إيَّاها السلطان فمُنِعتُ، وأُريد خطوطكم بهذا لأعودَ إلى السلطان وأُعرِّفَه، فيزولَ العيبُ عني. فأشاروا عليه بالتوقف والمعاودة، ووقع الخوض في ذلك إلى أن أُجيب إلى الوصول، فجلس الخليفةُ يوم الثلاثاء ثاني صفر والوزير حاضرٌ، فلمَّا حضر سعد الدولة دفع رقعةً كانت معه إلى بعض الخدم، فناولها الخليفة من وراء الشباك الحديد، فقرأها وتقدَّم بإسبال الستارة بينه وبين الجماعة وانصرفوا، وكانت مشتملةً على كراهية الوزير، والمطالبة بصرفه، وأن لا يُنفذ إلى بغداد رسولٌ من خراسان من دار الخلافة، وأن لا يكون فيها غلمان أتراك للخاصِّ ولا للخدم والأتباع، ثم أنفذ الكوهراني أصحابه إلى باب الفردوس للمطالبة بعزل الوزير، فامتنع الخليفة، وقيل في الجواب: إن فخر الدولة ما هو وزيرنا[1] وإنما الوزير ولده، وقد أنفذناه إليكم، ووالده نائبٌ عنه. ثم أنفذ سعدُ الدولة إلى رجلٍ مُعيَّن يُقال له: أبو الحسن بن دُبَّه، وكان يسكن بحريم دار الخلافة، وهو الذي تولَّى حريق مشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما، فقُبِضَ عليه، فثار الناسُ مع ابن دُبَّه، فقال الكوهراني لأصحابه: أحرقوا حريم دار الخلافة وانهبوه، واقتلوا مَنْ فيه. ثم صلب ابن دُبَّه في السماكين قريباً من الكَرْخ.

---

(١) في (خ): ورنا، والمثبت من المنتظم ١٦/ ١٩٨ .

وفي يوم الاثنين النصف من صفر جاء الكوهراني وهو سكران إلى باب الفردوس، وقال: إن سُلِّم الوزيرُ إليَّ وإلَّا دخلتُ وأخذتُه، وإن كلَّمني إنسان قتلتُه. وجاء الليل، وغُلِّقت الأبواب، وأقام على حاله إلى أن مضت قطعةٌ من الليل، ثم وعد بما يريد، وعاد من الغد، وشدَّ خيله على باب الفردوس وبات هناك، وجاء الظهر والعصر والمغرب، فضُربت الطبولُ على باب الفردوس، وخاف الناسُ، ونقلوا أموالهم، فخاف الوزيرُ على الخليفة، فكتب إليه يستعفي، ومضى إلى داره، وبرز توقيع إلى الكوهراني، معناه: لمَّا علم محمد بن محمد بن جَهير ما عليه جلالُ الدولة ونظامُ الملك من المطالبة بصرفه سأل الإذن في ملازمة داره، فأذِنَّا له في ذلك، فقام الكوهراني ومضى.

وأما عميد الدولة فإنه وصل إلى أصفهان في يوم الاثنين عاشر مُحرَّم، فوجد نظام الملك على تغيُّرٍ شديد، فأظلمتِ الحالُ، وكان عميد الدولة جلداً حاذقاً، فما زال حتى أصلح الحال، واستَلَّ ما في نفس نظام الملك، فكتب الكوهراني كتابين أحدهما عن السلطان، والثاني عنه يقول: أُنهي إلينا ما فعلتَ وعبتَ عليه. فأُحضِرَ إلى باب الفردوس، وسلَّم إليه الكتابين، وعوتب فقال: ما فعلتُ إلَّا بعضَ ما أمرتني به، وإنَّني ماضٍ إلى هناك، فإني قد استُدعيتُ، وسأوقَفُ على ذلك بحضرة عميد الدولة. ثم خلع السلطان على عميد الدولة الخِلَع الجميلة، وخرج الحُجَّاب والأمراءُ يمشون بين يديه، وفي جملتهم الكوهراني، وبعث نظامُ الملك لفخر الدولة فرسين بعدَّتهما وعشرين قطعةً ثياباً؛ إظهاراً لرجوع مودَّته، وكتب معه تواقيع بما يريد الخليفة، ووصل في جمادى الأولى إلى الحلبة، وبلغَ الخليفةَ عنه ما أوحشه، فبعث إليه ورقةً بخطِّه: لكلِّ أجلٍ كتاب، وقد أعدناك إلى والدتك لِما سلفَ من خدمتك، والله سبحانه وتعالى يُحدِثُ في كلِّ يوم أمراً، لا مُعقِّبَ لِحُكمه، ولا مراجعةَ لك بعد اليوم إلى خدمتنا. فانكفأ مُصاحباً، فمضى إلى دار ابنه بباب عمورية وكان قد خرج الناسُ لاستقباله فرحين، فعادوا متفرِّقين. ثم رتب الخليفة في الديوان أبا شجاع محمد بن الحسين نائباً[1].

---

(١) الخبر بطوله وبمعناه في المنتظم ١٦/١٩٨-١٩٩.

وفي هذا الشهر عاد تُتُش أخو ملك شاه من حصار حلب، وعبر الفرات، ونزل بالبارعية، وكان من العقلاء الساسة، وكان مقيماً ببلاد حِيرة وبَرْذَعة، فلمَّا جرى على أَتْسِز بن أوفى الخُوارَزمي بمصر ما جرى كتب ملك شاه إلى تُتُش بالمسير إلى الشام، فسار على تؤدة، فلمَّا انتهى إلى ديار بكر بلغه أن أَتْسِز لم يهلك، وأنه قد أخرب الشام وقتل أهله لعصيانهم عليه، فكتب إلى السلطان بخبره، وطلب منه عسكراً، فإنه كان في قلَّةٍ من العساكر، وعرف أَتْسِز، فبعث إلى السطان هدايا ومالاً وقال: ما فعلتُ فعلاً يقتضي إنفاذَ الأمير تُتُش نحوي، فإنني العبد الطائع، وأنا نائب في هذه البلاد عن السلطان، ما آخذُ منها غير ما أصرفه في مؤنتي والجند الذين معي، وأنا أحمل في كل سنة إلى الخزانة ثلاثين ألف دينار. فكتب السلطان إلى تُتُش أن لا يتعرَّض إلى الشام الأعلى، ويقصد ناحية حلب، وبعث إليه الأمير الأفشين وصُرَّق الحاجب بمن معهما من التركمان، وكان الحاجب أيتكين قد انضمَّ إليه إلى تُتُش من ديار بكر، ثم عبروا الفرات، وبدؤوا بمنبج، فحصروها وأخذوها، وأقاموا عليها شهوراً، وكان صاحبها سابق بن محمود، وجاءهم مسلم بن قريش نجدةً، واستدعى السلطان الحاجب أيتكين إليه بسؤال مسلم؛ لأنه كان عدوَّه، وتحالفت بنو كلاب على قتال الغُزِّ ودفعِهم عن البلاد، وكان مع مسلم غِلالٌ كثيرةٌ له ولأصحابه، وكان بحلب غلاء شديد، فباعهم، فعاتبه تُتُش وقال: أنتَ أتيتَ في مساعدتي عليهم أو في نفوسهم؟ ارجعْ إلى أعمالك، مالي إليك حاجة. فعاد إلى سنجار، ولقي عليها بهاء الدولة من أمراء التركمان نجدةً لتُتُش، فخوَّفه المسيرَ من بني كلاب، فلم يلتفِتْ، وقطع الفرات، ونزل وادي بزاعة، فقصدته بنو كلاب وجماعةٌ من بني عقيل، فأوقعوا به، ونهبوه، وقتلوا معظم أصحابه، وبلغ تُتُش، فخرج من حلب يريد بني كلاب، وترك أثقاله على حلب، فخرج أهلُها، وقتلوا جماعةً من أصحابه، وانصرف التركمان عنه، وعبروا الفرات، وجاء إلى بزاعة، فعبر الفرات يريد أعمال مسلم؛ لأنه اتَّهمه، فوجده قد جمع واستعدَّ، فسار إلى ديار بكر، فاجتاح أعمال نصر بن مروان، وأقام بها يُخرِّبها وينهبها، وينفق الأموال في العساكر، وكتب تُتُش إلى ملك شاه يعرِّفه الأحوال، ويطلب نجدته.

وفي شوال ورد خطلج أدراز من باب السلطان، مضى إليه وطلب مالاً ينفقه في طريق الحج، فلم يُعْطِه شيئاً، فعاد وقد اجتمع ببغداد جماعةٌ لِيمضوا في صحبته، فامتنع مَنْ لم يكن معه ما يبلغه، ونَجَمَ(١) من أعطى أجرة الجمال ومال الخفارة، وأخذوا من الخُفراء الرهائن، وأعطاهم من الحاجِّ ما قرَّره لهم، وسار معهم كالمودِّع، ونَجَمَ وعاد سالماً إلى الكوفة مستهلَّ ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين، وكانت العرب قد ذلَّتْ له وأطاعتْه لشهامته، ونفى بني خفاجة عن البلاد، ووحَّد الخطبة بمكة لصاحب مصر، وكان القحط شديداً وليس لهم مؤونة إلَّا من مصر، فاجتمع بابن أبي هاشم، وكان مائلاً إلى بني العباس وأهله آل أبي طالب، فاعتذر إليه وأنه لم يقدِرْ على المنع مع انقطاع ما كان يحمل إليه من المال كلَّ سنة، وإدرار المال والغِلال من مصر، فقال خطلج: المال يأتيك عن قريب. ووحَّد الخطبة بالمدينة لصاحب مصر، وكان خطلج قد أساء عُشرة الحاجِّ وعاقهم، وأخذ من كلِّ حملٍ عن الخفارة تسعين ديناراً، ومن كلِّ راجل خمسةَ دنانير، ومن كلِّ واحد عن زيارة قبر رسول الله ﷺ ستة دنانير.

وفي ذي القعدة وقع الرضا عن عميد الدولة ابنِ جَهير وعودِه إلى الخدمة، وسببه كتاب نظام الملك إلى الخليفة يشير بردِّه، وأنَّ أحداً لا يقوم مقامه، وإنني ما رضيتُ عنه، وزوَّجتُه بولدي، ورميتُ كلَّ عداوة كانت من جهتي، وصافيتُه، إلَّا لقُربه من الخدمة، وكان نظامُ الملك دائماً يثني على عميد الدولة؛ يقول: ما أحسِدُ أحداً إلَّا فخر الدولة على ولده. ويصفه بالعقل والحلم، وانقطع أبو شجاع عن الديوان، ورتَّب على باب الحجرة مجلساً كلَّ يوم ينهي الأمورَ إلى الخليفة، ويخرج إليه الأجوبة، ثم أذن للوزير فخر الدولة فَتْحَ بابِهِ، ففتح، ودخل الناس عليه للتهنئة، حتى النساء، ثم استدعى الخليفةُ ولدَه فشافهه بما طيَّب به نفسَه، وكتب له توقيعاً منه: إنَّ أمير المؤمنين يرى من أخبار رسوم مواهبه وآلائه، وأحلى مذاق النعمة عند المتمسكين بشروط مسابغته، وولاية واختصاص مَنْ أحسن الطاعة في إثر يومه وأمسه، وتخشَّن على أعداء الدولة وَقْعَ مسِّه ولمسه، ولمَّا عدوتَ يا عميد الدولة منفرداً في الكمال بما عُلِمَ كونُكَ ممَّن لا يُجارى فيه، ولا يُبارى في إحراز وافيه، وأنك قد حُزْت هذه المرتبة، فُقْتَ

(١) نَجَمَ: طَلَع وظَهرَ. اللسان (نجم).

السبق، وقُمتَ فيها بالحق، أعاد أمير المؤمنين من وزارتك ما كان قد تجاوز في الإعراض حدَّه، مما لا يستطيع الجاحدُ جحدَه، وذكر كلاماً آخر.

وفيها مات أبو الفضل بن التركماني، صاحب سعد الدولة الكوهراني، وكان شِرِّيراً، إلا أنه انحدر إلى واسط مع سعد الدولة، وكان ابنُ فضلان اليهودي ضامنُ ضياع الخليفة قد فعل بالمسلمين كلَّ قبيح، وصادرهم، ومدَّ يده إلى حريمهم، وكان إذا كتب فيه إلى الخليفة لا يُؤخذ لأحدٍ بيد، فقتله ابنُ التركماني بواسط، وأخذ منه عشرة آلاف دينار، وعزَّ ذلك على الخليفة، وكتب إلى نظام الملك بسببه، ولمَّا مات ابنُ التركماني رآه إنسان في المنام، فقال: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: غفرَ لي. قيل: بماذا؟ قال: بما أزَلْتُ عن المسلمين بقتل ابن فضلان اليهودي من النصرة، وعن الخلافة من المعرة، وابنُ التركماني هو الذي قتل ابنَ دُبَّة النوبي الذي أحرق المشهد، وصلبه بالسماكين.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وفي سنة إحدى وسبعين خرج من مصر عسكر كبير مع نصير الدولة الجيوشي، ونزل على دمشق محاصراً لها، واستولى على أعمالها وعلى فلسطين، فاضطرَّ أتْسِز إلى مراسلة تُتُش بعده بتسليم دمشق ويكون في الخدمة بين يديه، فتوجَّه نحوه، وبلغ نصير الدولة قُربَه، فرحل إلى الساحل، وكان ثغر صور وطرابلس في يدي قاضيهما قد تغلَّبا عليهما، ولا طاعة عليهما لأمير الجيوش، بل يصانعان الملوك بالهدايا، ووصل تُتُش إلى مرج عدرا، فخرج إليه أتْسِز بعد أن استخلفه، وسلَّم إليه دمشق، فدخلها، ولاحَتْ له من أتْسِز أماراتٌ استوحش منها، فقبض عليه واعتقله، وقتل أخاه أولاً، ثم خنقه بوتر قوسه غدراً منه في ربيع الأول، واستقام الشام لتُتُش، ثم مضى إلى حلب فنازلها، وأقام عليها أياماً، ثم رحل عنها، وقطع الفرات مشرقاً، ثم عاد إلى حلب في ذي الحجة، وملك حصن بزاعة والبيرة، وأحرق ربض أعزاز، ورحل عنها عائدا إلى دمشق. وغيرُ ابنِ القلانسي يقول: كان ذلك في السنة الآتية، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

إبراهيم بن علي بن الحسين[١]

أبو إسحاق، شيخ الصوفية بالشام، ولد سنة أربع وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وأقام بصور أربعين سنة، وبها مات، وكان صدوقاً ثقة.

الحسن بن أحمد بن عبدالله[٢]

أبو علي، ابن البنَّاء، الحنبلي، ولد سنة سبع وتسعين وثلاث مئة، وتفقَّه على ابن الفرَّاء، وصنَّف في كلِّ فن، وكان يقول: صنَّفتُ خمس مئة مصنف، وسمع الكثير، وكان له حلقة بجامع القصر مقابلة مقصورة الخطيب يفتي فيها ويُقرئ الحديث، وتوفي ليلة السبت خامس شهر رجب، وصلَّى عليه أبو محمد التميمي، ودُفن بمقبرة باب حرب، واتَّفقوا على فضله وصدقه وزهده وورعه، وتكلَّم فيه ابنُ السمعاني ولا يُسمع منه.

الحسين بن عَقيل[٣]

ابن محمد بن[٤] علي بن ريش، الدِّمشقي، تُوفِّي في جمادى الآخرة، ودُفن بباب الصغير، وكان ثقةً، ومن شعره: [من الطويل]

ولـمَّـا حـدا الـبَـيـنُ الـمُـشـتِّـتُ شـمـلَـنـا ... ولـم يَـبْـقَ إلَّا أن تُـنـائـي[٥] الأيـانـقُ

ولـم نـسـتـطِـعْ عـنـد الـوداعِ تـصـبُّـراً ... وقـد غـالَـنـا وَجْـدٌ عـن الـدمـعِ نـاطـقُ

وقـفـنـا [الـتـوديـعِ][٦] فـكـادَتْ نـفـوسُـنـا ... لأجـسـادِنـا قـبـلَ الـفـراقِ تُـفـارِقُ

فـبـاكٍ لـمـا يـلـقـاهُ مـن فـقـدِ إلْـفـهِ ... وشـاكٍ لـهُ قـلـبٌ بـهِ الـوجْـدُ نـاطـقُ

---

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٦١-٦٣.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٠٠-٢٠١، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٢-٣٣، والكامل ١٠/ ١١٢، ومعجم الأدباء ٧/ ٢٦٥-٢٧٠. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٣٨٠.

(٣) تاريخ دمشق ٤/ ١٠٣-١٠٤، ومعجم الأدباء ١٠/ ١٢٤-١٢٦.

(٤) تحرفت في الأصل (خ) إلى: أبو، والمثبت من المصدرين السابقين.

(٥) في معجم الأدباء: تُثار.

(٦) مابين حاصرتين سقط من (خ) واستدرك من معجم الادباء.

سعد بن علي(١)

ابن محمد بن علي بن الحسين، أبو القاسم، الزَّنجاني، الحافظ، الصوفي، ولد سنة ثمانين وثلاث مئة، وطاف البلاد، وانقطع في آخر عمره بمكة، وصار شيخ الحرم، ولمَّا عزم على الإقامة بمكة والمجاورة بالحرم عزم على نفسه نيِّفاً وعشرين عزيمة من المجاهدات والعبادات، ففعل الجميع، ومات بعد ذلك بأربعين سنة، ولم يُخِلَّ منها بعزيمة واحدة.

وقال أبو المظفر بن السمعاني جدُّ صاحب «الذيل»: كنتُ على عزم المجاورة بمكة، فرأيتُ والدتي في المنام وكانت بخراسان، وقد كشفتْ رأسها وهي تقول: باللهِ عليك ولدي، لا تُجاوِرْ، ارجِعْ إليَّ فلا صبرَ لي على فراقك. فانتبهتُ مغموماً، وتردَّدتُ بين المقام والرجوع إليها، فقلت: لابُدَّ أن أشاور أبا القاسم الزَّنجاني، فأتيتُه وعنده خلقٌ عظيم، وكان إذا خرج من بيته ترك الناسُ الطوافَ بالبيت، وقبَّلوا يديه أكثر مما يُقبِّلون الحجر الأسود، فتقدَّمتُ إليه وقد قام ليدخل بيته، فمشيتُ إلى جانبه ولم أُكلِّمْه، فالتفتَ إليَّ وقال: يا أبا المظفر، العجوزُ تنتظرك. ولم يَقُلْ غيرَ هذا. فخرجتُ مع الحاجِّ إلى مرو، واجتمعتُ بوالدتي، ولمَّا مات بمكة أميرُها محمد بن أبي هاشم ما كان في الحرم من يُستحى منه غير هذا الشيخ. وكان إماماً، حافظاً، ورعاً، زاهداً، عابداً، مفتياً، وكان ينشد لغيره(٢): [من الخفيف]

مـا تـطـعَّـمـتُ لـذَّةَ الـعـيـشِ حـتـى ... صِـرْتُ لـلـبـيـتِ والـكـتـابِ جـلـيـسـا
لـيـس عـنـدي شـيءٌ أعـزَّ مـن الـعلْـ ... ـمِ فـلا أبـتـغـي سـواه أنـيـسـا
إنَّـمـا الـذُّلُّ فـي مـخـالـطـة الـنَّـا ... سِ فـدَعْـهُـمْ تـعِـشْ عـزيـزاً رئـيـسـا

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٦٦-٢٦٧، والمنتظم ١٦/ ٢٠١، وتاريخ دمشق ٢٠/ ٢٧٣-٢٧٥، والأنساب ٦/ ٣٠٧. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٣٨٥.

(٢) وهو علي بن عبد العزيز الجرجاني كما في صفة الصفوة، وشذرات الذهب ٣/ ٥٦-٥٧، ومعجم الأدباء ١٤/ ١٩، وغيرها من المصادر.

[وفيها توفِّي]

محمد بن علي(١)

أبو عبدالله بن المهتدي، الهاشمي، ويُعرف بابن الحَنْدَقوقي، سمع الحديث، وكان يسكن بباب البصرة، ومات في ذي الحجة، ودُفِنَ في داره، وكان صحيحَ السماع ثقةً.

السنة الثانية والسبعون والأربع مئة

فيها وقف العميد أبو نصر القريةَ المعروفةَ بالمالكية من طريق خراسان على مشهد موسى بن جعفر عليهم السلام، وكان مُحبًّا للعلويين، يقضي حوائجهم، وزوَّجَ عدداً منهم، وخَتَنَهم(٢)، وخرج في ثالث مُحرَّم إلى أصفهان، وبعد خرجه تُوفِّيت والدة فخر الدولة ابنِ جَهير بباب العامة، وحُمِلت إلى تربة الرُّصافة، فدُفِنت بها ليلاً، وتبعها الخدم والحواشي.

قال محمد بن الصابئ: في ربيع الآخر وصل الأمير تاج الدولة تُتُش إلى دمشق وملكها.

ذكر القصة: كان بدر الجمالي قد سيَّر من مصر إلى دمشق الجيوش من العرب والغُزِّ والأكراد والصنهاجة والبربر والسودان وبني خفاجة، والأمير عليهم غلامٌ له متقدِّمٌ عنده، والأمر مردودٌ إلى أبي الفرج المصري، فساروا إلى دمشق، وحصروا أتْسِز، فأرسل إلى تُتُش وهو يحاصر حلب يستنجده، فرحل والأفشين معه، وبلغ العسكر المصري، فتأخَّر إلى الرملة، ووصل تُتُش إلى دمشق، وخرج إليه أتْسِز فقبض عليه وقتله، واستولى على البلد، فاستوحش الأفشين منه، فعاد هارباً، فنهب المعرة وكفر طاب ورفنية، وذهب إلى أنطاكية فأخرب وقتل ونهب، وصانعه أهلُها على ثلاثين ألف دينار، وجرت فيها قصص، ولم يعطوه شيئاً، وراسلوا تُتُش وضمنوا له مالاً، وكان في قلبه منه، فسار يطلبه، فهرب إلى ديار بكر، وعاد تُتُش إلى دمشق، وأظهر العدل،

(١) المنتظم ١٦/ ٢٠٤.

(٢) ختنهم: صاهرهم.

فعُمِّرت، وزُرعت البلاد، وأمنت السُّبل، ودرَّت القوافل، وبعث إلى القدس فحاصره وبه أصحاب أتْسز، وكان قريبٌ له في برج داود، ومعه قطعةٌ من أمواله، وكان بين قتل أتْسِز وما فعله بالقدس مدة يسيرة.

وفي رجب وصل السلطان ملك شاه إلى الأهواز متصيداً، وقبض على ابنِ عَلَّان اليهودي ضامنِ البصرة وقتلَه، وأخذ منه أربع مئة ألف دينار، وكان منتمياً إلى نظام الملك، وكان بين يدي نظام الملك وسعد الدولة الكوهراني وخُمارتكِين الشرابي عداوةٌ، فتوصَّلا في هلاك ابن عَلَّان، وكان ابن عَلَّان قد استولى على البصرة، وماتت زوجتُه، فمشى في جنازتها كلُّ مَنْ فيها إلَّا القاضي، وكانت أسامي الأماكن التي فيها أمواله معه مكتوبة، فلمَّا أمر ملك شاه بتغريقه غرقَتْ معه، ومع هذا فوجدوا له أموالاً عظيمةً، وكان نظام الملك بأصبهان، فغضب وأغلق بابه ثلاثة أيام، فقيل له: المصلحة الرجوع. فرجع، ولمَّا عاد السلطان إلى أصبهان دعاه نظام الملك إلى دعوة خسر فيها جملة، ثم عاتبه عتاباً كان من جوابه ما طيَّبَ به نفسه وإن لم يَرْضَ.

وفي ذي القعدة ورد خطلج أدراز من أصبهان، واجتمع إليه الحاجُّ، وخرج بهم على القاعدة في أكريتهم وخفارتهم.

وفي ذي الحجة توفِّي نصر بن مروان الكردي صاحب آمِد وميَّافارقين، وجلس ولدُه منصور بن نصر موضِعَه، والناظرُ في أموره ابنُ الأنباري من أهل الرحبة.

وفيه فتح مسلم بن قريش حلب.

ذكر القصة:

لمَّا اشتدَّ بأهلها الحصار والغلاء هَجَّ معظمُهم، وجاءت طائفةٌ منهم إلى الموصل، واجتمعوا بمسلم، وأشاروا عليه بقصدها، وكاتبه الأحداث وبنو كلاب ليدفع عنهم الغُزَّ، فأنفذ ولده من خاتون عمة السلطان ملك شاه إليه، وشرط على نفسه في كلِّ سنة ثلاثَ مئة ألف دينار، وللسلطان، فأجابه، وأمره بقَصْدها، فسار إلى قلعة جَعْبَر وحصرها، وكان بها جَعْبر وأصحابُه يقطعون الطرق، فصالحوه على أنهم لا يعودون إلى شيء من ذلك، وسار إلى حلب، فوصلها ثاني عشر ذي الحجة، ومعه بنو كلاب وكلب ونمير وجميع القبائل، وقد أطاعوه خوفاً من الغُزِّ، وأنفق فيهم الأموال، فكسر

الأحداثُ الأبوابَ يوم الجمعة لعشرٍ بقين من ذي الحجَّة، ودخل أصحابُه إليها، ولم يتأذَّ أحدٌ من أهلها، ولا أغلق فيها دُكَّاناً، وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة، مراسلة، انتهت إلى أن يزوِّجه سابقٌ بابنته ويُعوِّضه مالاً على أن يُسلِّم القلعة، فرضي، وحطَّ سابقٌ رَحْلَه ومالَه إلى البلد، ولم يبقَ إلا أن ينزل، فوثب عليه أخواه ووثَّاب فقبضا عليه، واستوليا على القلعة، فجمع مسلم مُقدَّمي بني كلاب، وقال: قد علمتم أني أنفقتُ أموالي، وبعدتُ عن بلادي في حراسة بلدكم وأموالكم وكفِّ عادية الغُزِّ عنكم، وهذه مقابلةٌ ما أعرفها، فإن كنتم رجعتم فها أنا أرجع إلى بلادي ومسيري منكم. فأنكروا ما جرى، وشرطوا السعيَ فيه، وإزالةَ ما تجدَّد منه.

قال المصنف رحمه الله: وقفت على تاريخ لدمشق فيه: أن تُتُش لمَّا رحل عن حلب في السنة الماضية وقد ضعُفَ عسكره جاء إلى حماة فاستولى عليها وعلى القلعة التي للمعرة وما يليها، وأطاعه صاحب حمص، فأقرَّه عليها، فلمَّا دخلت هذه السنة بعث بدر الجِمالي بالعساكر مع يُمن الخادم بحصار دمشق، فأرسل أتْسِز إلى تُتُش يقول: أنجِدْني وأكونُ نائبك بدمشق. فجاء تُتُش إلى دمشق، وعاد العسكر المصريُّ إلى مصر، وقبض تُتُش على أتْسِز وخنقه، فكانت أيامُه ثلاثَ سنين وستةَ أشهر وأياماً، ولمَّا استقامت دمشق لتُتُش حشد ليقصد حلبَ، وعَلِمَ سابقٌ، فراسل مسلماً يستصرخه وقال: أنت أولى بي من الغير، والعربية تجمعنا، وكتب: فإن كنتُ مأكولاً فكُنْ أنت آكلي. فسار إليه مسلم بخيله ورَجِلِهِ، فلم يفتح له الباب، ولم يَفِ له بشيء، وكان وعَدَه أن يُعطيه حماة والمعرة وكفر طاب ويقنع سابق بقصبة حلب، وكان أصحاب مسلم قد أسروا الشريف أحمد بن علي الهاشمي رئيس حلب، فاتَّفق مسلم معه سراً وأطلقه، فدخل البلد ومسلمٌ مُخيِّمٌ بظاهره، ففتح له الشريفُ الباب، فدخل، وتحصَّن سابق وإخوته بالقلعة، فحصرهم، ثم تقرَّر الصلحُ على مال وقلاع، وسلَّم إليه القلعة، ونزل منها هو وأهله، وانتهت دولة بني الزَّوقلية، وخطب بها مسلم للخليفة ولملك شاه، وكتب إلى الخليفة، فبعث بعهده إليه وتقليده إياها، وفي ذلك يقول ابن حيُّوس يمدح مسلم بن قريش: [من الكامل]

مـا أدركَ الـطَّـلِـبـاتِ غـيـرُ مُـصـمِّـمِ   إن أقـدمَـتْ أعـداؤهُ لـم يُـحْـجِـمِ

تـركَ الـهُـوَيْـنـا لـلـضـعـيـفِ مَـطـيَّـةً وسـرى إلـى الـعـلـيـا بـلـيـلٍ مُـظْـلِـمِ
ولـقـد تـحـقَّـقَـتِ الـعـواصـمُ أنَّـهـا إنْ لـم تُـلِـمَّ بـقُـطْـرِهـا لـم تُـعـصَـمِ
حَـنَّـتْ إلـيـكَ عـلـى الـبِـعـادِ فـشـوقُـهـا شوقُ الرياضِ إلى السَّحابِ المُنْجَمِ
يـا رحـمـةً بُـعِـثَـتْ فـأحـيَـتْ أمـةً قـد طـال مـا مُـنِـيَـتْ بِـمَـنْ لـم يَـرْحَـمِ
إنَّ الـرعـايـا فـي جـنـابِـكَ أمَّـنـتْ كـيـدَ الـغَـشـومِ وفـتـكـةَ الـمُـتَـغَـشـرِمِ
ولـقـد ظَـفِـرْتَ بـمـا يَـعِـزُّ مـرامُـهُ إلَّا عـلـيـكَ فـدُمْ عـزيـزاً واسْـلَـمِ
كـانـت تـعـدُّ مـن الـمـعـاقـلِ بُـرهـةً وسمَتْ بمُلْكِكَ فَهْيَ بعضُ الأنْجُمِ
مَـنْ كُـنـتَ يـا فـخـرَ الـمـلـوكِ ظـهـيـرَهُ فـبـنـاؤهُ فـي الـمـجـدِ لـم يـتـهـدَّمِ
والـمـجـد شِـنْـشِـنَـةٌ لآلِ مُـسـيَّـبٍ مـاكـلُّ شِـنْـشِـنـةٍ تـنـاطُ بـأخـزَمِ

وفي يوم الاثنين سادس عشر ذي الحجة جرَتْ بمكة فتنةٌ سببها غلام تركي لخطلج أدراز، وجرت بينه وبين أحد السودان من جند مكة مشاجرةٌ في حمام، خرج إليه التركي منها، وثار السودان على خطلج وهو قائم يُصلي عند البيت الشريف، فقتلوا ثمانيةً من أصحابه عند الكعبة، وتلاحقه أصحابُه فاستنقذوه، وقتلوا عشرين أسود، وجاء خطلج إلى الدار التي كان نازلاً بها، وزحف إليه السودان، فقتلوا من أصحابه عشرة، وقتل الغُزُّ من السودان جماعةً، وجاء ابنُ أبي هاشم إلى دار خُطلج، فكفَّ السودان، واعتذر إليه، وبعث إليه خيلاً وثياباً، وصلحت الحال، وأُقيمت الخطبة في هذه السنة للمقتدي وللسلطان، وكتب ابنُ أبي هاشم كتاباً إلى عميد الملك ابن جَهير بذلك، وعرض فيه بطلب رسومه.

وفيه تُوفِّي

محمد بن محمد بن أحمد(١)

أبو منصور، العُكْبَري، ولد في رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة، وكان فاضلاً، فصيحاً، صدوقاً، تشيَّع، يحكي الحكايات المستحسنة، أنشد: [من الوافر]

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٢٣٩، والمنتظم ١٦/ ٢٠٨، والكامل ١٠/ ١١٧، وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٣٩٢. وتحرف في (خ) إلى: محمد، والتصويب من المصادر.

أُطيلُ تفكُّري في أيِّ ناسٍ[١] مضَوا عنَّا وفيمن خَلَّفونا
همُ الأحياءُ بعد الموتِ ذِكراً ونحنُ من الخُمولِ الميِّتونا
لذلك قد تعاطيتُ التجافي وإن خلائقي كالماء لِينا
ولم أبخَلْ بصُحبتِهمْ لأمرٍ ولكِنْ هاتِ ناساً يصحبونا

وكانت وفاته في رمضان ببغداد.

نصر بن مروان[٢]

صاحب ميَّافارقين، ويُلقَّب نظام الدين، قد ذكرنا أنَّ نظام الملك أخرجه إلى السلطان وأحسن إليه، وأنه سمَّ أخاه سعيد بن مروان، ولمَّا مات وُلِّي بعدَه ناصرُ الدولة منصور، ودُفِنَ عند أبيه نصر الدولة، وخلَّف ثلاثةَ أولاد؛ منصور وبَهْرام وأحمد، وكان وزيرَه أبو طاهر ابن الأنباري، فدبر الملك، وكان قد تقدَّم عند الأمير طبيب يقال له: أبو سالم، وكان عطاراً بسوق العطارين بميَّافارقين، فتقدَّم عليه، حتى أشار عليه بقبض ابن الأنباري، وولى منصور الطبيب، فاستبدَّ بالأمور، وكتب أبو نصر بن محمد ابن جَهير إلى ملك شاه يخبر بما في الخزائن والقلاع من الأموال والجواهر، ويقول: أنا خدمتُ فيها مدةً وأعرفها. فجهَّز إليه العساكر، ومضى فحصر ميَّافارقين وآمِد، وقصد منصور باب ملك شاه، وبعث ملك شاه إلى أُرْتُق بك، فساعد ابنَ جَهير، وضايقوا ميَّافارقين، وقطعوا أشجارها، وشفع الأمراءُ في منصور، فقال للسلطان: يقنع بميَّافارقين وتكون آمِد وباقي البلاد لنا. وكان أبو سالم الطبيب في ميَّافارقين وجماعةِ الأمراء، وبلغه، فكتب إلى منصور، ويقول: لا تنزل عن ملكك، فلو أقاموا عشر سنين ما قدروا علينا. فرجع عن ذلك الرأي، وطالبه السلطانُ بتسليم آمد، فامتنع، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) صدر البيت في (خ) هكذا: "أطيل فكري في أناسٍ" ولا يستقيم وزنه، والمثبت من المنتظم.
(٢) الترجمة مختصرة جداً في الكامل ١٠/١١٦-١١٧ .

هيَّاج بن عُبيد(١)

ابن الحسين بن محمد، الحِطِّيني، وحطِّين: قرية غربي طبرية، ويقال: إن قبر شعيب عليه السلام بها، وبنْتِه صفورا زوجة موسى عليه السلام.

سمع هيَّاج الحديث وتفقَّه، وجاور بمكة، وصار فقيهَ الحرم ومفتيَ أهل مكة، وكان زاهداً، عابداً، ورعاً، مجتهداً في العبادة، يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويأكل في كلِّ ثلاثة أيام مرة، ويعتمر في كلِّ يوم ثلاث مرات على قدميه، وأقام بالحرم أربعين سنة لم يُحدِثْ فيه، وكان يخرج إلى الحِلِّ فيقضي حاجتَه، وما لبس نعلاً في الحرم قطُّ، وكان يزور النبي ﷺ في كل سنة ماشياً، ويزور ابنَ عباس رضي الله عنه في الطائف في كلِّ سنة مرة، يأكل أكلةً بالطائف وأخرى بمكة، وما كان يدَّخر شيئاً، ولم يكن له غيرُ ثوب واحد، وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

أقولُ لمكَّةَ ابتهجي وتيهي ... على الدنيا بهيَّاج الفقيهِ
إمامٌ طلَّق الدنيا ثلاثاً ... فلا طمَعٌ لها من بَعْدُ فيهِ

وكان السبب في وفاته وقوع فتنة بين السنة والشيعة بمكة، فشكا بعضُ الشيعة إلى محمد بن أبي هاشم أميرها، وقال: إن السنة يستطيلون علينا بهياج، فأخذه وضربه ضرباً عظيماً على كِبَر سنِّه، فبقي أياماً ومات، وقد نيَّف على ثمانين سنة، ودُفِنَ إلى جانب الفضيل بن عياض رحمة الله عليه.

السنة الثالثة والسبعون والأربع مئة

فيها كان ملك شاه قد قصد كرمان في السنة الماضية لقتال سلطان شاه بن قاروت بك، فلمَّا وصل إليه رأى أن يطيعه، فخرج إلى خدمته مستأمناً من القلعة، وقبَّلَ الأرض بين يديه، فقام السلطان قائماً وأجلسه إلى جانبه، وتحالفا، وزوَّجه ابنتَه، وعاد السلطان إلى أصبهان.

(١) المنتظم ١٦/ ٢٠٩-٢١٠، والأنساب ٤/ ١٧٠. وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٣٩٣.

وفي المُحرَّم ورد الخبر بوفاة شمس الملك تكين بن طمغاج خان صاحب سمرقند وما وراء النهر، وكانت وفاته بالقولنج، وأوصى إلى أخيه حسن أيتكين بأولاده وأهله بعد أن أجلسه موضعه، وردَّ حسنٌ سمرقند، فأفاض العدل، واستعمل الجميل، وبلَغَه أنَّ تكش أخا السلطان قد قطع جيحون، وأنه على قصد بخارى، فسار إليه حسن في ثمانية آلاف من التركمان، فالتقيا بجراورد بين بخارى وتِرْمِذ، فهُزِمَ تكش، وغَنِم حسنٌ عسكرَه، وقصده من الحانية عمر طُغرُلتكين، فالتقيا، فهرب حسنٌ وغنم ما في عسكره، ودخل سمرقند وقد اشتمل على النصر في الوقعتين، وورد الخبر أن تاج الدولة تُتُش قبض على مسمار أمير بني كلب، وسببه أنَّ تُتُش خرج يوماً يتصيَّد، فرأى قوماً، فاختفوا منهم، فطلبهم وأخذهم وفتَّشهم، فوجد معهم مكاتبات من مصر إليه ومنه إلى مصر، وورد الخبر بأن حصن الدولة ابن منزو كان مقيماً ببانياس، فنقل أمواله إلى صور، وانتقل إليها، فقبض عليه ابنُ أبي عقيل المستولي عليها، وأخذ جميع ما نقله إليها.

وفي ربيع الأول فتح أبو بكر بن نظام الملك قلعة تكريت تسلَّمها من حسام بن المهرباط، وضرب الدنانير باسمه، فأنكر عليه الخليفة، فبطل ذلك.

وفيه وصل الحاجُّ وأميرُهم خطلج أدراز وهم له شاكرون.

قال محمد بن الصابئ: وفي يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر فتح مسلم بن قريش قلعة حلب، ونقل الغلَّات من الموصل إليها، وكتب إلى بغداد بالفتح.

وفي جمادى الأولى تُوفِّي العميد أبو منصور الأصفهاني بالبصرة، وأمر أن يُتصدَّق بألفي دينار مما خلَّفه على آل أبي طالب، وكان رئيساً، نبيلاً فاضلاً، جامعاً للمحاسن ومكارم الأخلاق.

وفي ذي الحجة قُبِضَ ببغداد على ابن الرسولي الخباز وعبد القادر الهاشمي البزاز؛ انتسبوا إلى الفتوة، وكان ابن الرسولي قد صنَّف في الفتوة وفضلها كتاباً، وذكر قوانينها ورسومها، وجعل عبد القادر المتقدِّم على من يدخل في الفتوة، وأن يكونوا تلامذته، وكتب المُقدَّمين مناشر، وأقطعهم أصقاعاً، ولقَّب نفسَه كاتبَ الفتيان، وجعل ذلك طريقاً إلى منفعته ودعوات واجتماعات تعود على مصلحته، وكتب إلى خادم لصاحب مصر بمدينة

النبي ﷺ يُعرف بخالصة الملك ريحان الإسكندراني، قد ندب نفسه لرياسة الفتيان، والكتب صادرة إليه بذلك من جميع البلدان، وجعلوا اجتماعهم بجامع براثا، وكان مسدودَ البابِ مهجوراً، ففتح ابن الرسولي بابَه، ورتب له قيِّماً يُنظِّفه، وعرف أصحاب عبد الصمد ذلك، فأنكروه، وعظَّموا ما يكون منه، وقالوا: إن هؤلاء يدعون لصاحب مصر، ويجعلون دار الفتوة عنواناً لجمع الكلمة على هذا الباطن، فتقدَّم الخليفةُ إلى عميد الدولة بالقبض على ابن الرسولي وعبد القادر، فقبض عليهما، ووجد لابن الرسولي في هذا المعنى كتباً كثيرةً، وآل[1] الخادمَ المقيمَ بالمدينة، فسأله عميد الدولة عن الموافقين له، فسمَّاهم، فقبض على جماعة منهم، وهرب الباقون، وصودر جماعةٌ بسببهم[2].

وكان من جملة الكتاب الذي وضعه ابن الرسولي: الحمد لله القديم فلا يخلقُه دهر، العظيم فلا يلحقه قهر، العليم فلا يخفى عليه سر ولا جهر، الأول فليس لوجوده ابتداء، الآخر فليس لجوده انتهاء، الظاهر بلا مُعينٍ ينصره، الباطن بلا زمانٍ يحصره، أحمده إذ وفقني لحمده، وأشكره شُكرَ مَنْ بذل غاية جهده، وأشهد أن لا إله إلا الله، إرغاماً لمن كفر ونافق، وإدحاضاً لمن نفر وشاقق، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله على حين فترة من الرسل، وختم بملَّته[3] سائر المِلَل، وعصمه من كلِّ زلل، وكان ممن تقدَّمه أشرف وأجلّ، فأيَّده بالرسالة، وعظَّمه بالشرف والجلالة، والحمد لله مُعزِّ الفتيان بالفتوة، وجاعِلها إرثَ الإمامة والنبوة، وجعلها لأهلها أنساباً، وسمَّاهم بها أحباباً، فهي حلاوةٌ يجدها العارفون، ويقِفُ عندها الراغبون، ويرغب فيها مَنْ عرف معانيها، وتسمو إلى مراتبها نفسُ متعاطيها، ومازالت منذ آدم، ظهرت مع العالم، وقام بحقِّها، فلمَّا انتهت مُدَّته أوصى بها إلى شيث مستحقِّها، ثم انتقلت إلى نوحٍ فصرفها إلى سام، ثم ظهرت في الخليل عليه السلام، فحاز الفضلَ العميم،

(١) آلَهُ: ساسَه. المعجم الوسيط (آل).

(٢) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢١١-٢١٢.

(٣) في (خ): وختم به، والمثبت من (ب).

بما نطقَ به الكتابُ القديم: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[الصافات: ١٠٧]، ثم ظهر لموسى منها ما بطن، ففوَّض إلى هارون منها أوفى السنن، ثم ظهرت في المسيح الأمين، المبشِّرِ بسيد المرسلين. وذكر كلاماً طويلاً، وتقليده الموافقين له على ذلك الأمر، وذكر أساميهم وأنسابهم وما يتعلَّق بهم في مقدار كُرَّاسَين، فأفتى الفقهاء باستئصالهم، وإلزامهم الرجوع عن ضلالهم، وكفِّهم عن الفساد، وإطغاء العباد،فنُهِبت دورُهم، وحلَّ بهم هلاكُهم وثبورُهم، وكان وافقهم على مثل هذا نيِّفٌ ومئةٌ من الأشراف والأعيان، وزعماء البلدان.

وفيها ملك جلال الملك أبو الحسن بن عمار قاضي طرابلس حصن جبلة، وسببه أن الفردوس صاحب أنطاكية وجبلة قبض على قاضي جبلة، فراسله ابنُ عمار فيه، فأفرج عنه، وأنفذه إليه، فسأل فيه أن يردَّه إلى قضاء جبلة، ففعل، وتحدَّث معه ابنُ عمار في تسليم جبلة، فقال: نعم، ومضى ودبر الحيلة إلى أن تمَّت، فأرسل إلى ابن عمار يقول: ابعَثْ أصحابك في البحر في الليلة الفلانية، فبعث إليه ابن عمار بغلام يلقَّب بعين الزمان، في ثلاث مئة رجل من التركمان، كانوا حصلوا في جند طرابلس وجماعة من البحرانية، فجاؤوا في الليلة التي سمَّاها، فاحتال القاضي على الحرس حتى ناموا وجماعة من البَحْرانية، وفتح لهم الباب فدخلوا، وأقاموا الخطبة للمقتدي وملك شاه.

قال المصنف رحمه الله: ورأيتُ في بعض التواريخ أنَّ الخليفة عزل وزيره عميد الدولة في هذه السنة، واستوزر أبا شجاع محمد بن الحسين الرُّوذراوري، وكان صالحاً عفيفاً، إلَّا أنه كان بخيلاً، فهجاه الموصلي فقال: [من الكامل]

ما استبدلوا ابنَ جهيرَ في ديوانِهِمْ ... بأبي شجاعَ لرفعةٍ وجلالِ
لكن رأوهُ أشحَّ أهلِ زمانِهِ ... فاستوزروه لحفظِ بيتِ المالِ

وما وليَ لبني العباس أعفُّ من أبي شجاع ولا أكثرُ صدقات، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

محمد بن الحسين[١]

ابن عبدالله بن أحمد بن يوسف بن الشِّبل[٢]، أبو علي، الشاعر، البغدادي، توفِّي في المُحرَّم، ودُفن بباب حرب، وكان شاعراً مجوداً، ومن شعره: [من الكامل]

لا تُظهِرنَّ لعاذلٍ أو عاذرٍ ... حالَيكَ في السرَّاءِ والضَّرَّاءِ
فلِرَحمةِ المتوجِّعينَ مرارةٌ ... في القلب مثلُ شماتةِ الأعداءِ

وقال أيضاً: [من البسيط]

يُفني البخيلُ بجَمْعِ المالِ مُدَّتَهُ ... وللحوادثِ والأيامِ ما يدَعُ
كدودةِ القَزِّ ما تبنيهِ يهدِمُها ... وغيرُها بالذي تَبنيهِ ينتفعُ

وقال أيضاً: [من الوافر]

بربِّكَ أيُّها الفلَكُ المُدارُ ... أقَصْدٌ[٣] ذا المسيرُ أمِ اضطرارُ
مدارُكَ قلْ لنا في أيِّ شيءٍ ... ففي أفهامنا عنكَ ابتهارُ
ودنيا كلَّما وضعتْ جنيناً ... عراه من نوائبِها طوارُ[٤]
هي العشواءُ ما خَبَطتْ هشيمٌ ... هي العمياءُ ما جرحَتْ جُبارُ[٥]
فإنْ يَكُ آدمٌ أشقى بنيهِ ... بذنبٍ ما لَهُ منهُ اعتذارُ
فكَمْ من بعد غُفرانٍ وعفوٍ ... يُعَيَّرُ ما تلا ليلاً نهارُ
لقد بلغَ العدوُّ بِنا مُناهُ ... وحلَّ بآدمٍ وَبِنا الصَّغارُ
وتِهْنا ضائعين كقومِ موسى ... ولا عِجْلٌ أضَلَّ ولا خُوارُ
فيا لكِ أكْلَةً ما زالَ فيها ... علينا نقمةٌ وعليهِ عارُ

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢١٣-٢١٤، ومعجم الأدباء ١٠/ ٣٣-٤٥، وفيه: اسمه الحسين بن عبد الله، وطبقات الأطباء ص٣٣٣-٣٤٠، والأنساب ٧/ ٢٨٤. وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤٣٠.

(٢) في (ب) والنجوم الزاهرة ٥/ ١١١: الشِّبلي، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المصادر.

(٣) في الأصلين (خ) و(ب): أقصدك، والمثبت من مصادر الترجمة.

(٤) في معجم الأدباء: غَذَتْه من نوائبها ظؤارُ.

(٥) الجُبار: ما لا قوَد فيه.

نُعاقَبُ في الظُّهورِ وما وُلِدْنا ... ويُذبَحُ في حشا الأُمِّ الحُوارُ(١)
ونخرجُ كارهينَ كما دخلنا ... خروجَ الضبِّ أخرجَهُ الوَجارُ(٢)
وكانَتْ أنعُماً لو أنَّ كوناً ... يُشاوَرُ قبلهُ أو يُستشارُ
وما أرضٌ عصَتْهُ ولا سماءٌ ... ففيمَ يغولُ أنجُمَها انكِدارُ

وهذا الشعر يدلُّ على فساد عقيدته.

محمد بن سلطان(٣)

ابن محمد بن حَيُّوس، الأمير، الشاعر، الفصيح، هو أحد الشعراء الشاميين، وفحولتِهم المُجيدين، مدح أعيان الأمراء والأكابر، وله ديوان مشهور، ولد سنة أربع وتسعين وثلاث مئة بدمشق، ومات بها في شعبان وقد جاوز الثمانين، وأنشد له ابن عساكر: [من الطويل]

أسُكّانُ نَعمانِ الأراكِ تيقَّنوا ... بأنَّكُمُ في رَبْعِ قلبيَ سُكَّانُ
ودوموا على حفظِ الودادِ فإنَّني ... بُليتُ بأحبابٍ إذا حُفِظوا خانوا
سلوا الليلَ عني مُذْ تناءَتْ ديارُكُمْ ... هل اكتَحلَت بالغَمْضِ لي فيهِ أجفانُ
وهَلْ جرَّدَتْ أسيافُ برق ديارِكُمْ ... فكانتْ لها إلا جفونيَ أجفانُ

السنة الرابعة والسبعون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد كتاب رجلٍ ـ يُقال له: ابن وهبان ـ من واسط، يذكر فيه أنَّ امرأةً بنهر الفضل أصابها جُذامٌ فسقط أنفُها وشفتاها وأصابعُ يديها ورجليها، وجافت رائحتها، فأخرجها زوجُها وولدُها إلى ظاهر المحلة، وبَنَوا لها كوخاً تُكِنُّ فيه، وبقيَتْ مدةً فيه لا يقدر أحدٌ من الاجتياز بها من نَتْنِها، فجاء ولدها إليها برغيفين شعير، فقالت له: يا بُنيَّ، قِفْ ـ بالله ـ حتى أُبصِرك، وجِئني بجرعة من ماء أشربها فقد قتلني العطش. فلم يقدرِ الصبيُّ أن يدنوَ منها وهرب، وكان قريباً منها خربةٌ يُجمع فيها ماء الكثبان،

---

(١) الحُوار: ولد الناقة.

(٢) الوجار: جحر الضب ونحوه.

(٣) تاريخ دمشق ٥٣/ ١١٣، وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤١٣.

فحملها العطشُ على قصْدِها والشُّرْبِ منها، فزحفَتْ فوقعَتْ عندها لضعفها وغاصَتْ فيها، فذكرتْ أنها رأتْ رجلين وامرأتين جلوساً عندها، وأخرجوا لها قُرصين عليهما ورقةٌ خضراءُ قد غطَّتهما، وجاؤوها بكُرازٍ[١] فيه ماء وقالوا لها: كُلي من الخبز واشربي من هذا الماء. قالت: فشرعتُ آكُلُ، وكُلَّما أكلتُ عاد القُرص كما كان إلى أن شبعت، وشربتُ من الكُراز مالم أشرب مثلَه قَطُّ ولا ألَذَّ، فقلت: من أنتم يا سادتي؟ فقال أحدهم: أنا الحسن، وهذا الحسين، وهذه خديجة، وهذه فاطمة، ثم أَمَرَّ الحسنُ يدَهُ على صدري ووجهي، والحسينُ على ظهري، فعادت شفتاي وأنفي، ونبتَتْ أصابعي، وعاد كلُّ عضوٍ قد زال مني، وأقاموني، فسقط مني نحو زَنْبيلين[٢] كهيئة صدف السمك، وهرع الناسُ لمشاهدتها من البلاد والتبرُّكِ بها[٣].

وفي يوم الأحد النصف منه وصل خطلج والحاجُّ إلى الكوفة سالمين.

وورد الخبرُ بأن مسلم بن قريش فتح بلد حران وسروج، ووصل إليه أُرْتُق بك في جمعٍ من التركمان نجدةً لتُتُش ومعه والدة تُتُش، وطلب العبور إلى تُتُش، فمنعه مسلم وقال: إن أردت تعبر جريدةً، وإلَّا فأخاف عليك من العرب. فاستقر الأمر على عبور أم تُتُش وخدمُها.

وفي ربيع الآخر ورد كتاب مسلم إلى بغداد يخبر أن صاحب الرُّها [أطاعه، ونقش اسمَه على السِّكَّة، وكان قد اتَّخذ جامع الرُّها][٤] حانةً يشرب فيه الخمر مع امرأته، فخرج منه وسلَّمه إلى المسلمين، فأقاموا فيه الجماعة، وبعث مسلم توقيعاً إلى حربى بخمس مئة دينار يعمل بها منبراً، وكانت إقطاعه، فردَّ الخليفة عليه توقيعَه، وأمر بعمل المنبر من الديوان.

وفي سلخه وصل ملك شاه إلى أصفهان عائداً من تِرْمِذ وحربِ أخيه شهاب الدولة تكش، وكان قد خلع الطاعة، وتحصَّن بقلعةٍ من قلاع تِرْمِذ، وسار ملك شاه ورآه بعد

(١) الكُراز: القارورة. المعجم الوسيط (كرز).

(٢) الزَّنبيل: السلَّة. المعجم الذهبي ص٣١٦ .

(٣) الخبر في المنتظم ١٦/٢١٧-٢١٨ .

(٤) مابين حاصرتين من (ب)، وقد سقط من (خ).

أن جرَتْ بين العسكرين مناوشةٌ عند بَلْخ ظهر فيها أصحاب السلطان، ثم عبروا، وكان أصحابُ تكش قد حصَّنوا أموالهم ومواشيهم في جبال لا سبيلَ إليها، فسار عسكر السلطان إليها، فظفروا بها وأخذوها، فانزعج أصحاب تكش وقالوا له: قد أخذتَ أموالنا، فإمَّا صالحتَ لتعود إلينا، وإلَّا خرجنا إلى السلطان وخدمناه، فراسل السلطان فقال: يخرجُ من تِرْمِذ ويُسلِّمها ويعود إلى ما كان له أولاً من بَلْخ وأعمالها ويطأ البساط. فقال: أُسَلِّم تِرْمِذ نَعَمْ بَلى، أطأُ بساطَهُ لا. فسلَّم تِرْمِذ، ورجع إلى أصفهان ولم يجتمعا، وكتب إلى الخليفة بشرح الحال.

وفي ليلة الأربعاء سادس جمادى الأولى تُوفِّي أيتكين السليماني بعُكْبَرا.

وفي ليلة الجمعة بعد العشاء وثب خادم مسلم بن قريش ـ وكان حظياً عنده في الحمَّام ـ عليه فخنقه بوترٍ وصاح، فسمعَتْ خاتون الصيحة، فجاءت إليه، فرأت باب الحمَّام مغلقاً، فكسرَتْه ودخلت والخادمُ خارجٌ من عنده، فبدأها وقال: الأمير في كلِّ وقت يسومني للقبيح، وأنا أمتنع عليه، وقد ضربني الساعة، وأنا هاربٌ منه. وخرج فركب فرساً وهرب، فدخلت خاتون فرأته ميتاً قد خرج الدم من أنفه، فأخرجَتْه فتنفَّس وهو في أدنى رمق، ثم دبَّ الدمُ فيه قليلاً قليلاً، ثم أفاق، فأمر بطلب الخادم، وبَثَّ الخيل فوجده في منارة مشهد على جبل سنجار، فأخذ وهو يقول: ويلَكُم إلى من تحملوني؟! واللهِ ما خرجتُ من الحمَّام وقد تركتُ فيه روحاً.

وحملوه إليه، فاستخلاه ومنَّاه، وحلف له، فأقرَّ على جماعة من عشيرته أنهم حملوه على ذلك، فقتله، واستوحش من حواشيه، واحتجب عن أكثر خواصيه ومؤانسيه، وقبض على جماعة من أهله، وبعثهم إلى القلاع، ثم عاش مسلم بعد هذا إلى أن قُتِلَ في حرب قُتُلْمِش سنة سبع وسبعين وأربع مئة. وقيل: إنما وثب عليه خادمان، وكان بمكان يقال له: القابوسية.

وفي يوم الأحد مستهلِّ رجب ركب قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني إلى باب الأزج، ومعه ولدُه أبو الحسن والشهود والوكلاء، فولَّاها ولدَه أبا الحسن، وحكم بين يديه فيها.

وفي رجب ورد الخبر بأن بهمنيار الشرابي اجتمع بملك شاه، وتكلَّم في نظام الملك، وذُكِرَ أنه ينثر من الأموال في كلِّ سنة سبعَ مئة ألف دينار، وأقام وجوهَها في الأماكن، وضمن أصفهان زيادة سبعين، فسُلِّمت إليه، فلم يَفِ بما قال، وفي أثناء ذلك جاء صوفيَّان إلى نظام الملك ومع أحدهما قُرصان، وقال: هذان من إفطار فلان الزاهد، فتبرَّكْ بأكل شيءٍ منهما. فأومأ بيده إليهما، فغمزه الصوفيُّ الآخر، فكفَّ يده، وظهر له أنهما من دسيس ابن بهمنيار، فأُخِذَ الصوفيُّ ليُقتل، فمنعهم نظام الملك، ووهب له شيئاً، وأخبر السلطان، فقال ابن بهمنيار: هذه موضوعة عليَّ ليكون طريقاً إلى إبعادي عنك، تضييع المال الذي ضمنته. فتصوَّر إلى السلطان صحةُ قوله، فلم يسمع فيه قولاً، وعلت منزلتُه عنده[1].

وفي شعبان كان في الديوان إملاكٌ لأبي القاسم علي ابن نقيب النقباء الكامل على ابنة علي بن الملك جلال الدولة ابن بُوَيه، و كانت وردت من مصر بعد قَتْلِ أبيها هناك.

وفيه أُفرجَ عن الرسول وعبد القادر الهاشمي متقدِّم الفتيان ومَنْ كان في الاعتقال منهم.

وفي شوال توفي دُبيس بن مَزْيَد.

وفيه ورد الخبر بأن أبا الحسن علي بن مُقَلِّد بن نصر صاحب تل الحسن أخذ حصن شَيْزَر من الروم.

قال محمد بن الصابئ: وقفتُ على كتاب بخطِّه منه: كتابي هذا من حصن شَيْزَر وقد رزقني الله تعالى من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأتَّ لمخلوق، ومن دون هذا الحصن بيض الأنوق، ومن وقف على حقيقة الحال علم أني هاروت هذه الأمة، وسليمانُ الجِنِّ المَرَدة، وأنني أُفرِّقُ بين المرء وزوجته، وأستنزل القمر من محلِّه، وأجمع بين الذئب والغنم، إنِّي نظرتُ إلى هذا الحصن فرأيتُ أمراً يُذهِلُ الألباب، ويُطيشُ العقول، يسع ثلاثة آلاف رجل، ليس عليه حصار، ولا فيه حيلةٌ لمحتال، فعمدت إلى تلٍّ قريبٍ منه يُعرف بتلِّ الحسن، فعمَرْتُه حصناً، وجعلتُ فيه عشيرتي

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢١٦.

وأهلي، وكان بين التلِّ وشَيْزَر حصنٌ يعرف بالحراض، فوثبتُ عليه، وأخذتُه بالسيف، وحين ملكتُه أحسنتُ إلى أهله، ولم أُكلِّفْهم ما يعجزون عنه، وخلطتُ خنازيرَهم بغنمي، ونواقيسَهم بأصوات المؤذنين عندي، وصِرْنا مثلَ الأهل مختَلِطين، فحين رأى أهلُ شَيْزَر فِعْلي مع الروم أنسوا بي، وصاروا يجيئوني من واحد واثنين، إلى أن حصل عندي نحو نصفهم، فأجريتُ عليهم الجرايات، ومزجتُهم بأهلي، وحريمَهم [بحريمي](١)، وأولادَهم مع أولادي، وأيُّ مَنْ قصد حصْنَهم أعنتُهم عليه.

وحصرهم شرفُ الدولة مسلم بن قريش، فأخذ منهم عشرين رجلاً فقتلهم، فدسَسْتُ إليهم عشرين عِوَضَهم، ولمَّا انصرف عنهم جاؤوا وقالوا: نُسَلِّم إليك الحصن. فقلت: لا، ما أُريد لهذا الموضع خيراً منكم، وجَرَتْ(٢) بينهم وبين واليهم نَبْوَةٌ، فنفروا منه، وجاؤوا إليَّ وقالوا: لا بُدَّ من تسليم الحصن إليك. فقلت: ذاك اليوم. فسلَّموه إليَّ ونزلوا منه، وحصلتُ فيه ومعي سبعُ مئة رجل من بني عمي ورجالي، وحصلوا في الرَّبَض، لم يُؤخَذ لواحد منهم درهم فرد، وأعطيتُهم مالاً له قدر، وخلعتُ على مقدَّميهم وأعطيتُهم واجباتهم لستة أشهر، وقمتُ بأعيادهم ونواقيسهم وصُلْبناهم وخنازيرهم، وسمع بذلك أهلُ بَرْزَبه وعينِ تاب(٣) وحصون الروم، فجاءني رسلُهم، ورغب كلُّهم في التسليم إليَّ، فبينا أنا على تلك الحال إذ شُنَّت عليَّ الغارات، وجُيِّشت نحوي الجيوش من ناحية مسلم بن قريش؛ غيظاً منه لِمَ تسلمتُ حصنَ شَيْزَر بعد أن حلف لي قبل ذلك أنني إن أخذتُ حصن شَيْزَر أنه لا يقودُ إليَّ فرساً، ولا يبعث جيشاً، وباللهِ أقسم لئِنْ لم ينتَهِ عني لأُعيدَنَّه إلى الروم ولا أُسلِّمه إليه ولا إلى غيره أبداً.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في يوم السبت السابع والعشرين من رجب هذه السنة ملكَ الأميرُ أبو الحسن علي بن المُقَلَّد بن منقذ حِصْنَ شَيْزَر من الأسقف الذي كان فيه

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) تحرفت في (خ) إلى: وجهرت، والتصويب من (ب).

(٣) تحرفت في (خ) إلى: رزنة وعشاب، والمثبت من (ب)، وبَرْزبه: هكذا تقول العامة، وهي بَرْزُويَه: حصن قرب السواحل الشامية على سنِّ جبل شاهق، وعينُ تاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية، معجم البلدان ١/ ٣٨٣ و٤/ ١٧٦ .

بمالٍ بذله له وأرغبُ فيه، وإلى أن حصل في يده، وشرع في عمارته وتحصينه والممانعة عنه، إلى أن تمكّنت حالُه فيه، وقَوِيَتْ نفسُه في حمايته والمراءاة دونه.

وفي شوال ابتدأ مسلم بن قريش بعمارة سور على الموصل من حجارة وحصى، وكان قومٌ من أهلها قد سألوه ذلك ليحموه ممن يتطرَّقهم عند بُعدِه عنهم، وقدَّر لعمارته مئةَ ألف دينار، أطلقَ لهم بعضَها من ماله معونةً.

وقيل: إنَّ طوله ثلاث مئة وستون برجاً، بين كلِّ بُرجين أربعون ذراعاً.

وفيه خلعَ على الوزير فخر الدولة وأُعطي الفرس بمركب مغموس، وندب الخروج إلى أصبهان بسبب اتصال الخليفة بابنة ملك شاه، وكان الوزير يُؤثِر ذلك فأُجيب.

وسار يوم السبت لسبعٍ بَقِين من شوال، ووصل عُقيب مَسيرِهِ بهاء الدولة منصور بن دُبيس قاصداً باب السلطان ليُقرَّر في مكان أبيه.

وفي يوم الخميس خامس ذي القعدة سار خطلج بالحاجِّ من الكوفة على عادته إلى مكة.

وفيه خرج الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين الأصفهاني إلى أصفهان، وأصحَبه الخليفةُ مختصاً الخادمَ، وتوقيعاً بخطِّه إلى نظام الملك، يتضمَّن الوصيةَ به وعودَه إلى منزله محروساً.

ذكر السبب:

لمَّا عُزِل فخرُ الدولة وكان ابنُه عميدُ الدولة غائباً عن الديوان، ترشَّح لذلك مؤيدُ الملك أبو بكر بن نظام الملك، وكان يومئذ ببغداد، وأظهر التوبة من شُرْبِ الخمر وغيره، وجرَتْ في ذاك مخاطبات، وحملَ إلى الديوان مالاً أعاده الخليفة إليه، وأنكر أن يكون جرى في هذا شيء أو طُولع به، وأحضر الوزيرُ أبا شجاع ورتبه في الديوان منفذاً للأمور، إلى أن تستقرَّ الحال على مَنْ يقوم بهذا الأمر، وجلس على طرف البساط، ولم يجلس في مرتبة الوزارة، فنقل ذلك عليُّ بن نظام الملك وكاتَبَ أباه، وعاد عميد الدولة إلى الوزارة، وكان الخليفة يميل إلى أبي شجاع؛ لعقله، وتركِ

مخالطة الأعاجم، فورد من نظام الملك إلى الخليفة كتابٌ بتبعيد أبي شجاع عن بغداد وإقصائه، فاقتضى ذلك إنفاذُه إليه لإزالة مافي نفسه.

وفي ذي الحجة تُوفِّي داود بن السلطان بأصبهان، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت لثلاثٍ بَقِين منه رفع صاحب خبر إلى السلطان بأنَّ بهمنيار كاتب خُمارتِكين الشرابي جلس عند موت داود، وتشاغل بالشرب والغناء، ومعه جعفرك، وكان السلطانُ قد سلَّم إليه ولدَه أحمد يُربِّيه، وأن جعفرك أخذ القدح وشربه، وقال: سار ملَك الموت حيث أخذ داود ولم يأخذ أحمد. وكان السلطان قد حزن على داود حُزناً لم يحزَنْه والد على ولد، فشقَّ ذلك عليه، وبعث في الحال وكبس دار ابنِ بهمنيار، فوجد فيها الدليلَ على ما حكي عنه، فأحضر المُغنِّيات والمُغَنِّين فشهدوا بذلك، فشقَّ لسانَ جعفرك ثلاثَ قِطَعٍ، وقتله، وكحلَ ابنَ بهمنيار دفعات حتى عمي، وكُفيَ نظامُ الملك أمره بعد أن كان قد أشفى على التلف، وكان بهمنيار قد تقدم عند السلطان بقدر ما زاد على نظام الملك، فكان إذا أحضر إليه ما يأكل ويشرب يقول السلطان لمن بحضرته: كُلْ منه واشرَبْ، فإنَّ هذا الرجل قد صار له أعداءٌ كثيرون منذ قَرُبَ منا، فيجب أن نحرسَ نفسه ونُلاحِظَ أمره.

وفيها توفِّي

داود بن السلطان ملك شاه

في يوم الخميس حادي عشر ذي الحجة بأصبهان، ولَحِقَ والدَه عليه ما زاد عن المعهود، وفعل في مُصابه مالم يُسمَعْ به، ورام قتل نفسه دفعات، ولازمه أصحابُه وخواصُّه لمنعه من ذلك، ولم يُمكِّنْ من أخذِه وغسله؛ لقلة صبره على فراقه، حتى تغيَّر وكادت رائحتُه تظهر، فحينئذ مكَّن منه، وامتنع عن الطعام والشراب، وسلَّم إلى الهلَعِ زمانَه، وأعطى الجزَعَ قيادَه، ونزع عن الصبر أثوابَه، وأغلق دون السُّلُوِّ أبوابه، واجتمع الأتراك والتركمان في دار المملكة فجزُّوا شعورَهم، واقتدى بهم نساء الحواشي والحشم والأتباع والخدم، وجُزَّت نواصي الخيول، وقُلِبتِ السروج، وأُقيمت الخيولُ مُسَوَّدات، وكذا النساء المذكورات، وأقام أهلُ البلد المآتم في منازلهم وأسواقهم،

وبقيت الحالُ على ذلك سبعة أيام، وورد كتاب من أصبهان مضمونه: كتابي من بلدةٍ أقلبتُ بها في ساعة واحدة، وما رأيتُ قبل ما شاهدت الآن مثلَه فأصفه وأشرحه، وقد وقف بذلك أمير الوصلة التي مضى فيها فخر الدولة، وخرج السلطان من بعد شهر من يوم الحادثة إلى الصيد، وكتب بخطِّه رَقعةً يقول فيها: أمَّا أنا يا ولدي داود، فقد خرجتُ أتصيَّدُ وأنتَ غائبٌ عني، وعندي من الانزعاج لفراقك لي، والاستيحاشِ لبُعْدِكَ عني، والبكاءِ على أخْذِكَ مني، ما أسهرَ ليلي، ونغَّصَ عليَّ عيشي، وقطع كبدي، وضاعف كمدي، فأخبِرْني أنت بعدي ما حالُكَ؟ وما غيَّر البِلى منكَ؟ وما فعل الدودُ بجسمك والترابُ بوجهِكَ وعينِكَ؟ وهل عندك عليَّ مثلُ ما عندي لك؟ وهل بلغ بِكَ الحزنُ مثلَ ما بلغَ بي؟ فواشوقاه إليكَ، ويا حُزناه عليك، وواأسفاه على ما فات منك.

وحُملتِ الرُّقعة إلى نظام الملك، فقرأها وبكى بكاءً شديداً، وجمع الوجوهَ والمحتشمين[١]، ومضى إلى القبر، وقرأها عنده، وارتجَّ المكانُ بالبكاء والعويل، وتجدَّد الحزن في البلد، وعادت المصيبة كما حدثت، وجلس عميدُ الدولة للعزاء في صحن السُّلَّم ثلاثةَ أيام، أولها يوم السبت لثلاثٍ بقِينَ من ذي الحجة.

نورُ الدولة[٢]

دُبَيس بن علي بن مَزْيَد، أبو الأغر، صاحب الحِلَّة، عاش ثمانين سنة، كان فيها أميراً نيِّفاً وستين سنة، وكان في دولة الإسلام مثلَ جذيمة الأبرش؛ يُجير الوزراء والأمراء والأكابر من جميع العرب وغيرهم، وكانت الطبول تُضرَبُ على بابه في أوقات الصلوات، وكانت وفاته بِشَهْرابان من أعمال مطير آباذ، فحُمِلَ إلى النَّجف، ودُفِنَ في مشهد أمير المؤمنين رضوان الله عليه، وقام بعدَه ولدُه أبو كامل منصور بهاء الدولة، وأظهر العدل والإحسان، وأزال المكوس.

---

(١) في الأصلين (خ) و(ب): واجتمع المحتشمين! والتصويب من المنتظم ١٦/ ٢١٧ ، والكلام فيه.
(٢) المنتظم ١٦/ ٢٢٠ ، وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٥٥٧ .

سليمان بن خلف[1]

ابن سعد بن أيوب بن وارث، أبو الوليد، الباجي، القاضي، الإمام، المتكلم، الفقيه، أديب، شاعر، رحل إلى المشرق والحجاز، ورجع إلى الأندلس، وصنَّف الكتب، ومولده في ذي الحجة سنة أربع أو ثلاث وأربع مئة، وسمع الحديث الكثير، وكان عظيماً في العرب، سُمِّي ذا الوزارتين، وكان على مذهب مالك، وله فيه التصانيف المشهورة، ومن شعره: [من المتقارب]

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأنَّ جميع حياتي كساعَهْ

فلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها ... وأجعَلُها في صلاحٍ وطاعَهْ

واتَّفقوا على فضله وصدقه وثقته وأمانته ودينه وورعه، وأنه تُوفِّي بالأندلس بالمَرِيَّة، وقبره ظاهرٌ يُزار.

السنة الخامسة والسبعون وأربع مئة

فيها شَفَعَ أُرْتُق بك إلى تاج الدولة تُتُش في الأمير مسمار الكلبي فأَفرج عنه، وسار أُرْتُق إلى القدس وبها تُرْمُس من قبل أَتْسِز، فراسله وطيَّب قلبه، فخرج إليه، وسلَّم البلد، فأخذ له أُرْتُق من تاج الدولة مثل إقطاع القدس وزيادةً من ذلك قلعة صرخد، وكان في القدس خالُ أَتْسِز وزوجتُه وابنتُه، فلم يأمنوا المُقام بأرض الشام، فساروا إلى بغداد.

وفي صفر ورد منصور بن دُبيس من أصبهان ماضياً إلى بلده، فانحدر عميد الدولة الوزير إلى مشرعة البصلية تحت بغداد وتلقَّاه، فنزل منصور عن فرسه وقبَّل الأرض، وقام الوزير له وهنَّاه بقدومه، وتقرَّر أن يحضر بيت النُّوبة ليخلع عليه الخليفة بمحضر من القضاة والنقباء والأشراف يوم السبت منتصف صفر، وتقدَّم إليه بالحضور، فبكَّر الناس لذلك، فوجدوا منصوراً قد سار في أول الليل إلى بلده، فعادوا.

(١) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٢٤-٢٢٩، ومعجم الأدباء ١١/ ٢٤٦-٢٥٥. وتنظر مصادر الترجمة في السير ٨/ ٥٣٥.

وقيل: السبب أنه طُولِبَ بأملاكٍ في بلده أُظهِرَت كتُبُها، فقال: لم يطالَبْ بها والدي فلِمَ أُطالَبُ بها أنا؟ إن كان هذا لأجل الخِلَعِ فما أُريدها. ورحل، ثم أُنفِذَت إليه الخِلَعُ بعد مدة مع مختصٍّ الخادم إلى بلده، وأمسك عن الأملاك التي بقُربه.

وقدم خطلج والحاجُّ سالمين في سلخ صفر.

وفي ربيع الأول وردت البشائر من أصبهان بأن السلطان أجاب إلى تزويج ابنته من الخليفة.

قد ذكرنا خروج الوزير فخر الدولة إلى أصبهان في السنة الماضية بهذا السبب ومعه الخِلَعُ والهدايا للسلطان والجماعة وما تقصر عن عشرين ألف دينار، ووصل فخر الدولة إلى أصبهان يوم الخميس ثالث ذي الحجة، وخرج إليه نظام الملك والأمراء والوجوه، واتَّفق وفاةُ داود بن السلطان يوم الجمعة حادي عشره، فلمَّا انقضى الشهر عن الوفاة جارى فخرُ الدولة نظامَ الملك في معنى الوصلة، وكان معه خادمٌ بهذا السبب، فقال لخادم المملكة: عندي[1] في هذا أصلٌ مقرَّر، فاكتبوا إلى أمير المؤمنين ليُجهِّز من يتحدَّث مع والدة الصَّبيَّة، وإما أن يعودوا يحتجُّوا بهذه المصيبة الحادثة، وأمَّا إذا مضت الأيام وسلي هذا الحُزْن[2] فأَجْدَدْتُ خُطاي. فقال فخر الدولة: ما عندي في هذا أمرٌ أقوله، وإنما هذا الخادم حكى لي أنَّ هذا الأمر جرى ها هنا عامَ أول، فأنفذني الخليفةُ لإتمامه والمسير في صحبة هذه السيدة، وأنفذ هذا الخادم ليتولَّى أمرها. فقال مَنْ مع فخر الدولة لنظام الملك: نحن إذا كتبنا نعلم أن الخليفة يردُّ الأمر إليك، فافعل ما تراه. فقام نظام الملك، ومضى إلى خاتون، وقال لها: أمير المؤمنين راغبٌ إليك في الوصلة إلى ابنتك. فقالت: قد رغب إليَّ في ذلك ملك غزنة لابنه، وملوك الجابية، وبذل كلُّ واحد منهم أربعَ مئة ألف دينار، فإن أعطاني أمير المؤمنين هذا القدر كان أحبَّ إليَّ من غيره. فقال النظام: أمير المؤمنين لا يُواجَه بمثل هذا. وجرَتْ مخاطباتٌ انتهت إلى تسليم خمسين ألف دينار عن حقِّ الرضاع وزناً نقداً، وهذه عادة الترك عند التزويج، ومئة ألف دينار نقداً مهراً. فقال فخر الدولة: نحن

(١) في (خ): فقال الخادم الملك ما عندي، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): المهر! والمثبت من (ب).

نحصل ها هنا عشرة آلاف دينار، ونُنفِذ من بغداد أربعين ألف دينار، ووقع الرضا بهذا، وشرعوا في تحصيل العشرة آلاف فلم يكن لها وجه، وعرف السلطان، فأمر بتأخير الكلِّ إلى أن ينفذ من بغداد.

وقالت خاتون: إذا أملكتُ ابنتي بأمير المؤمنين فأُريد أن يخرج إلى عمته وأمه وجدَّته ومن يجري مجراهنَّ من أهل بيته ومحتشمي دولته، وأُحضر أنا خواتينَ غَزْنة وسمرقند وخراسان ووجوهَ البلد، ويكون العقد بمحضرٍ منهنَّ، وأُنفذ معها في الجماعة من يصلح على قدر ما يليق بحال أمير المؤمنين وحالنا. فقال فخر الدولة: تُعطينا يدَها على ذلك لتقع الثقة، وشاور النظام السلطان، فأذن في ذلك، وأعطاهم يده، واخترقت خاتون أشياءَ، منها: أنه لا يبقى بدار الخليفة سُرِّية ولا قَهرمانة، وأن يكون مقام الخليفة عندها. وعاد فخر الدولة إلى بغداد في ربيع الأول، فخرج ولدُه والحجَّاب والوجوهُ للقائه، وجاء إلى باب الحُجرة، وأخبر بما لقي من السلطان والنظام من الإحسان والخِلَع والإطلاق وأعطاه السلطان ألفي دينار، وببغداد مثلها، ولولده عميد الدولة مثلَها، وأعطاه الأعلام والكوسات والخيل بمراكب الذهب والثياب المُذْهبة، ولمَّا ودَّع السلطانَ أخذ يده على أنه لا يُمكِّن الخليفةَ من الاستبدال بهم في خدمته، ولم يُفسِح للوزير أبي شجاع في العَوْد إلى بغداد، ورسم له بالمُقام في العسكر، وعاد مختصُّ الخادمُ الذي كان معه، ونقل ذلك إلى الخليفة، ونسبه إلى فخر الدولة.

وفي هذا الشهر عاد مسلم بن قريش من الشام إلى منزله بالقابوسية من أعمال الموصل.

ذكر السبب:

لمَّا صَعِد إلى الشام طالب الفردوس والي أنطاكية بمال الهدنة وهو ثلاثون ألف دينار في كل سنة، فلم يحمل إليه شيئاً، وكانت أهل أنطاكية قرَّروا معه فَتْحَها وتسليمَها إليه، وكان من سوء رأي مسلم وتخلُّفه أنه كان له كاتب نصراني، فكان يدَعُ عنده مكاتباتهم ثقةً به، وتحقَّق الكاتبُ فتحَ أنطاكية، فهرب إليها ومسلمٌ بحلب، ودفع تلك الكتب إلى الفردوس، فلما وقف عليها أحضرهم، وكانوا ثلاث مئة إنسان، فقتلهم بين يديه صبراً، وكاشف مسلماً، وكتب إلى السلطان بأنه يكاتِبُ صاحب مصر ويُنفِذُ له

الخِلَعَ والأموال، واستقرَّ أنَّ الفردوس يَحمل إلى السلطان في كل سنة مالَ الهدنة، وبعث نظام الملك، فعَتَب مسلم بن قريش، فقال في الجواب: إن كانت الكتبُ مني إلى صاحب مصر توجَّه العَتْبُ عليَّ، وإن كانت منه إليَّ فاحفظوا صاحباً لكم يرغب فيه صاحبُ مصر، لا تُخرجوه عن أيديكم، وارغبوا فيه كما رغب فيه غيرُكم. ثم سار مسلم إلى شَيْزَر وفيها ابن منقذ، فحاصره، واستقرَّ أن يعطيه عشرة آلاف دينار ويرحل عنه، وسار إلى حمص وهي في يد ابن ملاعب، فتحصَّن بالقلعة، فأخذ البلد، وكتب ابن ملاعب إلى تُتُش يستنجده، فكتب إلى مسلم: إنَّ هذا صاحبي مُنتمٍ إليَّ فارحَلْ عنه. فبعث إليه: إنَّ هذا رجل مفسدٌ في أعمال السلطان قاطعٌ سُبُلَها، فإن كان صاحباً لك فخُذْه إليك. فرحل تاج الدولة تُتُش من دمشق يريد ابن قريش، فخاف من عَتْب السلطان وأنه حارب أخاه، فسار إلى صور، وأظهر أنه يريد حصارها، فرجع تُتُش إلى دمشق، وعاد مسلم إلى حمص، فخرج نساءُ ابن ملاعب وحريمُه فتعلَّقْنَ بذيل مسلم، فاستحيى منهنَّ، وذمَّ له وأبقاه على حاله، ولم يُطالِبْه بمال تقرَّر عليه، واستحلفه وحلف له، وعاد إلى حلب، وكان في أعمالها نحوٌ من ثلاث مئة فارس من التركمان بقايا مَنْ كان يخدم بني الزَّوقلية، فاستدعاهم من الأعمال، وأظهر أنه يعرضهم، فلمَّا حضروا على بابه أمر العرب فنكسوهم عن خيولهم وقيَّدوهم، وفرَّقهم في القلاع، وكان ذلك آخر العهد بهم، وقبض على حسن بن مَنيع بن وثَّاب النمري الأعرج صاحب سروج، وأخذها منه.

وقيل: إنه وجد له منطلقات إلى تُتُش، فكان آخر العهد به، وقبض على شبيب ووثَّاب ولدَي محمود بن الزَّوقلية، وطالبهما بتسليم قلعتي أعزاز والأثارب، فسلَّماهما، فأفرج عنهما، وعوَّضهما الخاتونية، وقرقيسيا، ودوراً من أعمال الرحبة.

وفيه ثار رجل بالبصرة يُعرف بعبد الباقي بن الشاموخي، فجمع العوامَّ، وتعرَّض لأماكن الشيعة، منها مسجد البغل، سَدَّ بابه، وفتح له باباً إلى ناحية السُّنَّة، وسمَّاه مسجد عائشة، وجعل فيه حجراً زعم أنها كانت تصعد عليه إذا ركبت الجمل، ولفَّه في ثياب ديباج. وفي محلَّة بني مازن مسجدٌ يعرف بعلي رضي الله عنه، فأخذ ما كان فيه من الآلات، وأمر العوامَّ بغسله وتطهير القبلة، وكان إلى جانبه أشرافٌ مدفونون، فنبشهم

وأحرقهم، وكتب على باب المسجد: أمير المؤمنين معاوية العدل الرضا، ثم الإمام صالح المؤمنين ـ يَزِيدُ ابنُهُ ـ وسلَّط العوام، فكانوا يتعرَّضون لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وبلغ الخليفة، فقامت عليه القيامة، وأحضر نقيب النقباء الكامل إلى البصرة، فالتجأ ابن الشاموخي إلى الجامع، وأقام يتعبَّد، ورجع عن تلك الأفعال، وثار عليه الهاشميون، وقصدوا قتله، ونهبوا منزله، فدافع عنه أصحابُه، وقُتِلَ بينهم جماعةٌ وهرب، ثم أصلح النقيبُ الحالَ.

وفي ربيع الآخر تكلَّم على العوام رجلٌ قاصٌّ، فقال: هذه المدرسة التي بناها الطوسي ـ يشير إلى نظام الملك ـ مدرسةٌ للدين، مفسدةٌ على المسلمين، ويجب أن تُنقَض وتُدْرَس، ثم هرب إلى دار علي بن عقيل، فبعث عميد الدولة، فكبس دارَ ابن عقيل، وأخذ القاصَّ فأدَّبه وحبسه، وهرب ابنُ عقيل إلى الحريم.

وفيه أمر السلطان بأن يكتب لوحان مضمونهما رفع المكس عن قافلة الحاجِّ صادرة وواردة، وكتب في أول اللوحين اسم المقتدي، وبعده اسم السلطان، وجعل أحدَهما على باب الحلبة، والآخرَ في باب جامع القصر، ولعن من يُغيِّر ذلك أو يُبدِّله.

وفي رجب عاد الوزير أبو شجاع من أصفهان على أن يلازم داره بباب المراتب ولا يركب إلى دار الخليفة، فأخرج له الخليفة الموكب إلى الحلبة لتلقِّيه، ودخل إلى باب الحجرة وخدم، وخرج له التوقيع بما سُرَّ به، وانكفأ إلى منزله، ثم كتب الخليفةُ إلى نظام الملك في معناه، وبقبيح ما فعل معه من منعه هذه المدة.

وفيها سار تُتُش إلى حلب، فأخذ من غلَّاتها ما باعه بثمن بخس عجلةً وسرعةً. قيل: إن ملك شاه كتب له بمال على ابن قريش فمَطَله، فسار بنفسه وباع ما قدر عليه، وأنفذ مسلمٌ أصحابَه لحفظ حلب، فغاظ تُتُش، وأقام بجسر الحديد وما يقارب حلب، وأمر أُرْتُق بك بشنِّ الغارات على حلب، فظفر أصحابُه بطلائعَ من العرب، فأسروا منهم نيفاً وثمانين رجلاً، فقتلهم أُرتق بك جميعَهم، وعاد أصحابُ مسلم إلى القابوسية، ووردت كتب السلطان إلى أخيه بأن يرجع إلى دمشق ولا يُقيم ببلد حلب، وإلى أُرْتُق بك بالعود إلى بابه، ففارقه أُرْتُق بك من جسر الحديد، وسار تُتُش إلى دمشق، فنزل

على فرسخين وحلَّ بها، وضعُفَتْ نفسُه لمفارقة أُرْتُق بك، وعبر مسلم في العرب والأكراد وراء تُتُش إلى دمشق، فنزل على فرسخين منها.

وفي يوم الخميس ثالث شعبان جلس مؤيد الملك بن نظام الملك للعزاء بأخيه الأكبر جمال الملك، وركب إليه الوزير فخر الدولة وولده عميد الدولة، وكان جمال الملك قد خرج من نيسابور في رجب لاحقاً بالسلطان وابنِه، فعرض له قولنج كان يعتاده دائماً، فنزل عن فرسه في خَرْكاة، واستدعى والدته من نيسابور، فلمَّا وصلت إليه قضى نحبَه، فدخلت عليه وكمُّه على وجهه، فظنَّت أنه نائم، فلمَّا طال عليها يَقَّظَتْه وكشفت عن وجهه فإذا به ميت، فخرجت حاسرةً قد حثَتِ الترابَ على رأسها، فلمَّا شاهدها أصحابُه وغلمانُه جزُّوا شعورهم، وحذفوا[1] خيولهم، وطرحوا ذلك على باب الخَرْكاة، فكان كالميل الأسود، وأُعيد إلى نيسابور فدُفن بها، وكان قد خرج منها خروج الملوك، فرجع كما قال[2]: [من مجزوء الرمل]

رُحْنَ في الوشيِ وأصبَحْـ ... ـنَ عليهنَّ المُسوحُ
كلُّ نطَّاحٍ من الدَّهْـ ... ـرِ له يومٌ نَطوحُ

وقيل: إن السلطان أراد قتله؛ لأنه كان قد استولى على خراسان، فراعى قلب والده، فدسَّ إليه مَن سَمَّه.

وفيها فتح ابن قُتُلْمِش حِصْنَ طَرَسُوس من الروم، وبعث إلى ابن عمار وقاضي طرابلس يستدعي لها قاضياً وخطيباً.

وفي يوم الجمعة لخمسٍ إن بَقِينَ من شوال عبرَ قاضٍ أشعريٌّ - يُقال له: البكري - إلى جامع المنصور، ومعه الشِّحنة والأتراك، والعجمُ بالسلاح، وكان يذكر أنه من ولد أبي بكر رضي الله عنه، وكانت فيه حِدَّةٌ وجرأةٌ وطيشٌ وخِفَّة، وورد بكتب نظام الملك تتضمَّن الإذن له في الجلوس بالمدرسة النظامية والكلام بمذهب الأشعري، فجرى بينه وبين أصحاب ابن الفراء الحنبلي سيئاتٌ ورجم، وآل أمره إلى أن خرج من بغداد سابع عشر شوال إلى عسكر السلطان، وأُعطي من الديوان مئتا دينار وخمسُ قطع من الثياب،

---

(١) من الحَذْف: وهو القطع. اللسان، (حذف).
(٢) قائله أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص٩٨ .

ولُقِّب علمَ السنة، وكان سفيهاً طرقياً، ظاهرُ أحواله الإلحاد، وأغرى بسبِّ الحنابلة، وقال: هؤلاء يقولون: لله ذَكَر. فرماه الله في ذَكَرِه بالخبائث، فمات ودُفِنَ بمشرعة الزوايا عند الأشعري يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى سنة سبع وسبعين.

وفيها رجع السلطان من بَلْخ وكان قد سار لقتال أخيه شهاب الدين تُتُش، ولمَّا وصل بَلْخ وجد الغلاء العظيم، وتعذَّرَ الأقوات والعلوفات، ووصل القلعة، وتعرف بدركز، وهي على سن رأس جبل، ومساحة الموضع ـ على ما قيل ـ أربعة فراسخ، وبين يديها ساحة كبيرة يطيف بها جبل شامخ، والعسكر في تلك الساحة، وفي الجبل بابٌ يُدْخَل منه إلى الساحة، ولم تكن له حيلة في الوصول إلى تلك الساحة، فجاءه تركماني ودلَّه على مكان يصل منه إليها، فركب السلطان، وجاء إلى ذلك المكان، وأشرف على الساحة ومعسكر تكش بها، فصعد تكش ومن معه إلى القلعة، وجاء أصحاب السلطان فنزلوا في الخيم، ووقع القتال، وأُسِرَ جماعةٌ من أصحاب السلطان، فأحسن إليهم، فدخلوا بينهما وأصلحوا الحال، على أن يردَّ عليه تِرْمِذ، ويعطيه تكش ولدَه رهينة، وظهر تكش من القلعة على بعد، وخدم السلطان، ورضي عنه، ورحل عن المكان، وسبب رحيله وصلحه كثرة الثلج والغلاء وعدم الأقوات، ولمَّا قرب السلطان من سرخس جاءه أخو طغان شاه صاحب تلك البلاد وخدمه، ولاطفه بالهدايا، وشرب عنده، فقال له على سكر: يا سلطان، أنت ما تعطي إلَّا لمن يخرج عليك ويعصيك، ومن يطيعك ويتقرَّب إليك تحرمه وتمنعه ـ يعني أخاه تكش ونفسه ـ فغضب السلطان من قوله، وقبض عليه، وبعث به إلى أصفهان، وراسل القلعة التي فيها والدته وأولاده وأمواله ليأخذها، فامتنعت أمه من تسليمها، ثم سلَّمتها بعد ذلك.

وفي ذي الحجة أخرج الخليفة أبا إسحاق وشافهه بما يقوله ـ وهو أبو إسحاق الشيرازي ـ ممَّا يجري على البلد وأهله من العهد، فاستشعر الوزيرُ وولدُه من ذلك، وخافا أن تكون الرسالة في معناهما، فقام ولد الوزير من الديوان، ومضى إلى داره، وأغلق بابَه، فأرسل الخليفةُ إليه وطيَّب قلبه، فعاد إلى الديوان على كُرْهٍ وفي نفسه ما فيها، وأقام أبوه في داره على كُرْهٍ أيضاً، وقد كان كتب إلى أصفهان يسأل إنفاذَ مَنْ يخرجه من موضعه ويحمله إلى مقصده.

وفيها سار مسلم بن قريش إلى دمشق فحصرها، وعاد عنها ولم يظفر بطائل.

وفيها تُوفِّي

ابن ماكولا[1]

علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دُلَف بن القاسم بن علي، أبو نصر، الأمير، الحافظ، العجلي، أصله من جَرْباذقان من نواحي أصفهان، ولد ببغداد، ونشأ بها، ووَزَر أبوه هبة الله للقائم، ووُلِدَ أبو نصر خامس شعبان سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة بعُكْبَرا، وسمع الحديث الكثير، وصنَّف المصنفات الحِسان، منها: «الإكمال» و«مستمر الأوهام على ذوي النُّهى والأحلام».

وقال أبو عبد الله الحميدي: ما راجعتُ الخطيبَ في شيءٍ إلَّا وأحالني على كتاب، ولا راجعتُ ابنَ ماكولا في شيء إلَّا وأجابني من حفظه، كأنما يقرأه من كتاب.

وتُوفِّي في هذه السنة. وقيل: سنة تسع وسبعين. وقيل: سنة سبع وثمانين. وقيل: سنة نيِّفٍ وسبعين وأربع مئة.

وخرج إلى خراسان ومعه غلمان له تُركٌ أحداث، ومالٌ كثير، وخيلٌ وثياب، فوثبوا عليه بجرجان - وقيل: بخوزستان - فقتلوه، وأخذوا الجميع، وهربوا، وطاح دمُه هدراً.

ومن شعره: [من الطويل]

أقولُ لنفسي قد سلا كلُّ عاشقٍ ... ونفَّض أبوابَ الهوى عن مناكِبِهْ
وحبُّكِ لا يزدادُ إلَّا تجدُّدا ... فيا ليتَ شعري ذا الهوى من مُناكَ بِهْ

وقال [من الطويل]:

ولمَّا توافَينا تباكَتْ قلوبُنا ... فمُمسِكُ دمعٍ يومَ ذاكَ كساكِبِهْ
فيا كَبِدي الحرّى البَسي ثوبَ حسرةٍ ... فِراقُ الذي تَهوينَهُ قد كساكِ بِهْ

وقال: [من الوافر]

(١) تاريخ دمشق ٥٢/ ١٥-١٧ (نشر مجمع اللغة العربية)، ومعجم الأدباء ١٥/ ١٠٢-١١١، والمنتظم ١٦/ ٢٢٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٥٦٩.

أليسَ وقوفُنا بدِيارِ هندٍ وقد سارَ القَطينُ من الدواهي
وهندٌ قد غدَتْ داءً لقلبي إذا صدَّتْ ولكنَّ الدوا هي

وقد روى عنه الأئمة، ولم يتكلَّم فيه غير عبد الوهَّاب الأنماطي، فقال: العلم يحتاج إلى دين. وكان يتَّهمه بالغلمان.

السنة السادسة والسبعون وأربع مئة

فيها في يوم الجمعة لخمسٍ بَقِينَ من صفر خرج توقيع الخليفة إلى الوزير عميد الدولة، فعزله عن الوزارة، نسخته:

لكلِّ أجلٍ كتاب، انصرِفْ من الديوان إلى دارِك، وخَلِّ ما أنت منوطٌ به من نظرِك.

فوصله التوقيع وهو في داره بباب عمروية لم يمضِ إلى الديوان بعد.

قال عميد الدولة: فلمَّا قرأتُه قلت: السمع والطاعة، قد كنتُ في الديوان متحملاً للأعباء، وأنا الآن متوفِّرٌ على الدعاء، وكان قد جاءني ليلةَ الجمعة توقيعٌ يتضمن الشكرَ لي والإحماد، والثقةَ والاعتداد، وما يجري هذا المجرى من الجميل الذي ما أعرف سببُهُ، فارتبتُ به، وتعجبتُ منه، وما زلتُ مُفكِّراً فيه ليلتي، فلما جاءني هذا التوقيع الثاني علمتُ أن هذاك لهذا، وحضرني بعض الخواصِّ عُقيب توقيع العزل، فأشار عليَّ بالمقام والتوقُّف والتثبُّت وترك الانصراف، فزاد ارتيابي، ونهضتُ من وقتي، واتفق وصول تارَح الحاجب المنْفَذ من جهة السلطان بكتب منه إلى الخليفة؛ إمَّا أن تستخدمنا وتُوفِّينا حقوقَ الخدمة ورجوعَنا إلى المألوف منه، أو الإذنُ لنا بالانصراف إليه والقدومِ عليه، وكان والدي كتب إليَّ هناك بأننا مُتَّهمون بكلِّ ما يكون منه اعتراضٌ للديوان والحاشية، فإمَّا أن تزول هذه التُّهم عنا، وإمَّا أن ننتقل إلى أصفهان فنُقيمَ هناك في ظلِّ السلطان، وكتب السلطان إلى والدتي وإليَّ بالمبادرة إليه إذا لم يقع من الخليفة إيثار بخدمتنا، ولم يبقَ مع العزل للكتب وإيصالها حكم، فخرجتُ أنا ووالدتي وإخواني وأهلُنا، ورحلنا بعد أن اجتمع الحاجب الوارد وشحنةُ بغداد والعميدُ والعجمُ على باب عمورية بالسلاح، حتى خرجنا بأموالنا وأهلنا من غير استئذان الخليفة في ذلك ولا إعلامٍ به، وتعجَّب الناسُ من هذه الحال، ونزلنا في دار المملكة.

قال ابن الصابئ: وأقاموا بها يتجهَّزون، وقد اجتمع إليهم حشدٌ كبيرٌ إلى عشية السبت ثالث ربيعِ الأول، وساروا نحو أصفهان في تحمُّلٍ كبير ومعهم ابنةُ الوزير نظام الملك زوجة عميد الدولة، وكان مسيرُهم ليلاً، واستُدعيَ تارَح الحاجب، وأُخِذت منه الكتب، ورُدَّت الأجوبة بكراهية بني جَهير والتماسِ إبعادهم، وأُعطي هذا الحاجب ثلاثَ مئة دينار، وفرساً بمركب، وثياباً؛ تطييباً لقلبه، حيث لم يستَقِلْ من الديوان عند وروده، واستُنيب من الديوان مُنفِذٌ وناظرٌ أبو الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، كان قبلَ ذلك على عمارة الدار وأحوال الخدم والخواص[(١)].

وفيها سلَّم ابنُ الصَّيْقَل قلعة بعلبك إلى تاج الدولة تُتُش، كان مقيماً فيها من قبل المصريين.

وفي ربيع الأول عاد مسلم من دمشق إلى حَرَّان عَجِلاً.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في سنة خمس وسبعين توجه تُتُش إلى الروم وفي خدمته وثَّاب بن محمود ومنصور بن كابل، فأقام هناك مدةً، واتَّصل به خبر مسلم وما هو عليه من الاحتشاد للنزول على دمشق، فعاد تُتُش فوصلها أوائل المُحرَّم هذه السنة، ووصل مسلم بن قريش[(٢)] وسار مُجِدًّا على دمشق، ووصل إليه جماعةٌ من عرب قيس واليمن، وقاتلَ أهلَ دمشق، وخرج إليه عسكر تُتُش والتقوا، وثبت مسلم، وقاتلت العرب، ثم انهزموا، وتضعضع عسكرُه، وأشرف هو على الأسْر، وتراجع أصحابُه، وكان قد اعتمد على نجدة المصريين فتقاعدوا عليه، وجاءه من بلاده ما شغل خاطِرَه، فرحل إلى مرج الصفر، ثم عاد إلى الشرق وجدَّ السير، فهلكت المواشي، وانقطع من الناس خلقٌ كثير من العطش، وخرجت به الطريق إلى قريب سلمية، فأنفذ وزيرَه صدقة إلى أن خلَّفَ ابنَ ملاعب المقيمَ بحمص، فخرج إليه، فأكرمه وخلع عليه، وقرَّر معه حفظ الشام الأسفل، وسار إلى الشرق، وخرج تُتُش إلى ناحية طرابلس، وافتتح حصن أنطرطوس وبعض الحصون وعاد إلى دمشق. وقيل: إنه قصد حلب، فلم يظفر منها بطائل.

---

(١) ينظر المنتظم ١٦/ ٢٢٧.

(٢) تحرف في (خ) إلى: يابس!.

وقال محمد بن الصابئ: لمَّا وصل مسلم إلى دمشق لم يكن مع تاج الدولة تُتُش من العسكر ما يخرج بهم إليه، فعدل وثَّاب بن محمود إلى جماعة من وجوه بني كلاب فراسلوه وواعدوه يوماً عيَّنوه، واستعدَّ مسلم، وجمع إليه الأكراد والعبيد المحيطين به، وانفرد بنو كلاب وبنو نمير عنه واقتتلوا، وقُتِلَ من الفريقين عددٌ كثير، ووصل الخبر إلى مسلم بأنَّ أهل حرَّان عصوا عليه، فرجع كارًّا إلى حمص، وصالح في طريقه ملاعباً وخالفه، وأعطاه مضافاً إلى حمص رَفَنيَّة وسلمية، وأقطع شبيبَ بن محمود بن الزَّوقلية حماة، واستخلفه في تلك الأعمال، وعاجل حرَّان فوصلها يوم الجمعة ثامن ربيع الأول، فوجد قاضيها ابن جبلة الحنبلي قد استغوى أهلَها، وأدخل إليها جماعةً من بني نمير مع ولد صغير لمَنيع بن وَثَّاب، وأنفذ ابنُ عطير أحدَ وجوه بني نمير إلى خَنْق أمير التركمان وكان قريباً، واستدناهم إليه ليُسلِّم إليهم البلد، وشرع القاضي يُعلِّل مسلماً ويُمنِّيه خديعةً منه ليصل التركمانُ، وعلم مسلمٌ، فحاربهم، ورمى قطعةً من السور، وبينا هو كذلك وصل التركمانُ، فترك أقواماً يقاتلون البلد، وركب هو بمن معه فأشرف على التركمان، واتصل الطَّراد وقال للعرب: املكوا عليهم النهر ـ المعروف بالجلاب ـ واجعلوه وراءكم، وحُولوا بين التركمان وبينه. ففعلوا وعَطِشوا وخيلَهم، وهجَّرتِ الشمسُ عليهم، فمالوا بجميعهم طالبين رأس الماء على أن يشربوا ويسقوا خيولهم ويعودوا على العرب، فلمَّا عطفوا خيولَهم لم يشُكَّ العرب أنها هزيمة، فألقوا نفوسَهم عليهم فانهزموا، فتبعوهم وغنموهم، وقتلوا وأسروا، وأقام مسلم على حصار حرَّان، وكان لمَّا رمى قطعةً من السُّور نصب ابنُ جبلة بإزاء الثُّلمة مجانيق وعرادات منعت مَنْ يروم القرب منها، وراسله: إنك كلَّما رميتَ قطعة من السُّور جعلتُ مكانها مجانيق وعرادات ورجالاً أشدَّ منها. فتوقَّف عن حربهم وتربَّص، واتَّفق أنه استأمن إلى مسلم من أهلها ثلاثةُ إخوة، فأخذ القاضي أباهم ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فأصعده إلى السور وقتله، ورمى برأسه إلى مسلم، فلمَّا حضر الرأسُ بين يديه وعلم الحال قال: غداً أفتح البلد إن شاء الله تعالى، فهذا بغيٌ أرجو من الله النصر في جوابه، وأنفذ إلى العرب وأمرهم بالبكور للقتال، فجاؤوا ولبسوا السلاح، وتقدَّم مسلم وعليه السلاح، وكان قد

بعث رجالاً في الليل نظَّفوا الحجارة من الطريق لأجل الخيل، فسُئِلَ أن يكاتب ابن جبلة ويعطيه الأمان لئلا يَهلِكَ الناس وتُنهَبَ البلد، فلمَّا كتب عاد جوابه على رأس الورقة:

السيفُ أصدق أنباءً من الكُتبِ[١]

فتقدَّم إلى العرب بالدخول إلى الفتحة فما منهم من أقدم، فجمع عبيدَه وخواصَّه وهجمَ، وأتَتْه الحجارة فسَلِمَ منها، ودخلها وأحرق المجانيق والعرادات[٢]، وقتل كثيراً من أهل البلد عندها، وتبِعَتْه العرب حينئذٍ، فدخل البلد، وصَعِد ولد أيْتَكين السليماني ونزل من السور، وفتح الباب، فأقطعه قرقيسيا، ثم طلب القاضي، فوُجِدَ في كندوج فيه قطن، فأُخِذَ ولدُه، وقبض على أعيان أهل حرَّان، ونهب البلد إلى آخر النهار، ثم رفع النهب، وصلب القاضي وولديه وأعيان الحرَّانيين على السُّور، وقتل خلقاً من العوامِّ، وعاد إلى منازله بأرض الموصل.

وفي يوم الثلاثاء تاسع وعشرين ربيع الأول قدم أبو إسحاق الشيرازي والخادم الذي كان معه من أصفهان إلى بغداد بكُتُب السلطان بإزالة الاعتراض عن إقطاع الحواشي، وأُوْصِلَ الشيرازي إلى الخليفة، وخاطبه بما طيَّب قلبه، وكان في الكتب كتابٌ من نظام الملك إلى الخليفة جواب في معنى آل جَهير، مضمونه: إذا لم يكن أمير المؤمنين يرضاهم لخدمته، وقد انصرفوا عن حضرته، وقصدونا ملتجؤون إلينا، ومستجيرون بنا، فلا بُدَّ من مقابلة ذلك بما يُصلحُ أحوالَهم، ويُحقِّق فينا ظنونَهم. وثَقُل على نظام الملك صرف الوزير عميد الدولة وزوجته من بغداد ثقلاً شديداً، ثم ورد الخبر أنهم لمَّا وصلوا إلى أصفهان أخرج نظامُ الملك ليلاً إلى ابنته زوجة عميد الدولة عماريتين جلست في إحداهما وبناتها من عميد الدولة، وفي الأخرى بنات عميد الدولة من أختها التي ماتت، ومعهم الخدم والغلمان والأتراك بالشموع، وخرج نساء الحُجَّاب والأمراء والخواص للقائهم، ودخلوا على السلطان، فأجلسهم بين يديه، ووعدهم

---

(١) هو صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٤٠ وعجزه:

فـي حـدّه الـحدُّ بـيـن الـجدِّ والـلَّـعبِ

(٢) العرادات؛ جمع عرَّادة: وهي شيء أصغر من المنجنيق شِبْهُه. تاج العروس(عرد).

بالجميل، وأُفردت لهم الدُّور الجليلة، وأُقيمت لهم الأموال الكثيرة، وأطلق لهم السلطان أموالاً، وقدموا لهم الهدايا ـ للسلطان والجماعة ـ فلم يقبَلْ منهم أحدٌ شيئاً، وقالوا: ما هذا وقتُه. فثَقُل ذلك على الخليفة، وكَبُرَ موقعُه منه.

وفي جمادى الأولى عقد السلطان لفخر الدولة الوزير على ديار بكر بمالٍ ضمنه عنها، وخلع عليه، وأُعطي الكوسات والأعلام، وأُذِن له في ضرب الدبادب على بابه في أوقات الصلوات الثلاث؛ الفجر والمغرب وعشاء الآخرة في المعسكر السلطاني، والصلوات الخمس في ديار بكر، وأن يخطب لنفسه بعد السلطان في الجمع، وينقش اسمَه على السِّكك.

وقد تقدَّم في ترجمة أحمد بن مروان في سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة ما جرى لفخر الدولة معه في هذا المعنى، ثم إنه لم يقنع بتغيير دولة بني مروان الكردي حتى اتَّفق مع نظام الملك على تغيير الدولة العباسية، فلولا أن الله تعالى لطف بالخليفة فمات السلطان وقُتِلَ نظامُ الملك، لأُخرِجَ الخليفةُ من بغداد.

وفيها عُزِلَ السلطانُ خطلج عن الكوفة وإمارة الحج؛ لكثرة شكاوى الناس منه.

وفيها عزم تُتُش على مصاهرة بدر الجمالي على ابنه بدر، فأشار ابن عمار صاحب طرابلس على تُتُش أن لا يفعل، فامتنع بعدما وردت هدايا وملاطفات من مصر.

وفي شعبان استوزر الخليفةُ أبا شجاع محمد بن الحسين، وخلع عليه خِلَعَ الوزارة، ولقَّبه بظهير الدين، مؤيد الدولة، سيد الوزراء، صفي أمير المؤمنين، وكتب له توقيعاً بليغاً بخطِّ ابن الموصلايا، وكان أبو شجاع من أعقل الناس وأعفِّهم وأكثرِهم اجتهاداً في خدمة سلطانه.

وفيها وَلَّى السلطانُ سرهنك ساوتكين إمرة الحاجِّ والكوفة، فأحسن إلى الرعية، وأسقط عنهم وعن الحاج ما كان يأخذه خطلج من الكرى والخفارة، واستدعى العرب، وضمَّنهم الطرق، والتزم جميع ما كان يؤخذ منهم من ماله.

وفيها تُوفِّي السلطان شاه إسحاق بن قاروت بك بكرمان، فجاءت أمُّه إلى السلطان بهدايا وألطاف وأموال، فأكرمها وأقرَّ أخاه مكانه.

وفيها تغيَّرت نيةُ السلطان لنظام الملك ثم صَلُحت.

ذكر السبب:

كان أبو المحاسن بن أبي الرضا كاتبُ ديوان الرسائل قد نفق على السلطان وأخيه، ومال إليه، وأنس به، وعوَّل عليه، بحيث ينفرد بالأعمال، واطَّرح نظامَ الملك، وأطلق فيه لسانه، وضمَّنه بألف ألف دينار، وضمَّن أبا الرضا والدَه بخمس مئة ألف دينار، وكذا لشرف الملك أبي سعد المستوفي، فصنع نظام الملك سِماطاً عظيماً ودعا السلطان إليه، فلمَّا أكل خلا به، وأقام مماليكَه الأتراكُ على خيولهم، وكانوا أكثرَ من ألف غلام وعليهم أسلحتهم وجنائبهم، وجمالهم وخيامهم عليها، وأزاح عللهم، ثم قال: أيها السلطان، إنني ما آخذه من عُشر أموال أُنفقه في هذا العسكر الذي تراه، وإنَّ جامَكياتهم تشتمل على مئين ألوف في كل سنة، وهؤلاء يقاتلون أعداء دولتك، ولو لم أدفع إليهم هذا المال من عندي لاحتجتَ إلى أن تعطيهم من خزانتك، وقد جمعتُهم وخيلَهم وسلاحَهم وجمالَهم وخيامَهم، فتقدَّم بنقلهم إلى مَنْ تراه من الحُجَّاب يصرف إليهم هذا العُشر الذي آخذه وأستريح أنا من التعب والخطر، ومع هذا فقد خدمتُ جدَّك وأباك، وشِخْتُ في دولتكم، وأنا واللهِ مشفقٌ من مُضيِّك على ما أنت ماضٍ عليه، وخائفٌ من عُقبى ما أنت خائضٌ فيه.

ثم قدَّم له من الجواهر والأموال والأمتعة ما ملأ عينه به، وضمن له أن يستخرج من المتكلمين فيه أموالاً كثيرة، فأطلعه السلطان على ما جرى، وحلف له، وقبض على أبي المحاسن وغيره واعتقلهم، وانتهى أمرُ أبي المحاسن إلى أن حُمِلَ إلى قلعة ساوة وقُوِّرَتْ عيناه بالسكِّين، وحُمِلتا إلى السلطان، فأمر أن تُطرحا لكلب صيد كان بين يديه، فأكلهما، ونسب نظامُ الملك ما جرى من أبي المحاسن إلى الخادم الذي خرج من دار الخلافة لعقد الأملاك، وأنه اجتمع مع أبي المحاسن على ذلك، وحمل له من الخليفة خِلْعةً في جملتها دواةٌ، وأنَّ الخليفة انحرف عن نظام الملك لما فعله من الجميل مع بني جَهير.

وفيها قدم سعد الدولة الكوهراني إلى بغداد نجدةً لابن جَهير، وقبَّحوا له أن يتَّبعه ويخدمه ويحملوا إليه عن الخليفة ما ألفته عن عزمه، فأقام يتعلَّل، ووصل ذلك نظام

الملك، فاستدعاه إلى أصفهان، وبعث كتاباً إلى ابن مَزْيَد وأبي فراس بن وَرَّام بالمسير إلى نجدةِ ابنِ جَهير بالعسكر الذي كان مع سعد الدولة، فسارا، وحشد مسلم بن قريش لنصرة ابن مروان، وسار فنزل في الحَدِّ بينه وبين ميَّافارقين، وكتب إلى السلطان يقول: هؤلاء القوم أعداؤنا، ومتى وَطِئوا بلادَنا وقعت الفتن، وابن مروان فعبد طائع سامع، وهو يحمل من المال ما يطلب منه.

وفي ذي الحجة ورد الخبر بأنَّ فخر الدولة ابن جَهير أخذ بلاد خلاط والقلعة وقبض على أصحاب ابن مروان، وحصل في هذه السنة من الأمن والرُّخص ما لم يُعهد؛ تسير القوافل من جَيحون إلى الشام والتجار بالأموال العظيمة والأمتعة بلا خفير ولا رفيق على الاجتماع والانفراد، ولا يُؤخَذُ لأحد عقال.

وأما الرُّخْص فبلغ كُرُّ الحنطة ببغداد عشرَ دنانير بعد ثمانين ديناراً، والشعير بخمسة دنانير بعد خمسين، واللحم ثمانون رطلاً بدينار، والسمك مئة رطل بثلاثة قراريط، وعلى هذا الفواكه جميعها.

وحصل بعض السَّوادية في بلد الحِلَّة كارة شعير ليبتاع بها كحلاً لمولود فلم يُعْطَ بها شيئاً، فرمى بها في النهر، وقال: ما أعمل بما لا يصلح ثمناً لكحل مولود.

وحجَّ بالناس خُمارتِكِين الحسَّاني.

وفيها تُوفِّي

إبراهيم بن علي بن يوسف[1]

الفَيْروزآبادي، أبو إسحاق، الشيرازي، الإمام، الشافعي، ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وتفقَّه بفارس على أبي الفرج بن البيضاوي، وببغداد على أبي الطيب الطبري، وبالبصرة أيضاً، وسمع الحديث، وقدم بغداد سنة خمس عشرة وأربع مئة، وكان يعيد الدروس في ابتدائه مئة مرة، وإذا كان في المسألة بيتٌ يستشهد به حفظ القصيدةَ كلَّها لأجله، وصنَّف الكُتُبَ الحِسان: «المهذب»، و«التنبيه» و«النكت في

---

(١) تبين كذب المفتري ص٢٧٦-٢٧٨، والأنساب ٩/ ٣٦١-٣٦٢، والمنتظم ١٦/ ٢٢٨-٢٣١، وصفة الصفوة ٤/ ٦٦-٦٧. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٥٢.

الخلاف» و«اللُّمع في أصول الفقه» و«طبقات الفقهاء» و«التبصرة» و«المعونة» وغير ذلك، وكان له اليدُ البيضاءُ في النظر، وبُورك له في تصانيفه، وانتفع بها الناس؛ لِحُسن قصده، وانتشر عِلْمُه، وكثُر أتباعُه.

وكان طلقَ الوجه، دائمَ البِشر، مَليحَ المحاضرة، يحكي الحكايات الحِسان، وينشد الأشعار المستحسنة، مع الزهد في الدنيا، والورعِ الشافي، وكان لا يُخرج شيئاً إلا بنية، ولا يتكلَّم في مسألة إلا قدَّم الاستعانة بالله، ولا صنَّف باباً إلَّا وصلَّى ركعتين، فلا جرمَ شاع اسمُه في الدنيا، وانتشرت تصانيفه شرقاً وغرباً، ببركات هذا القصد والنية والإخلاص، ورأى النبيَّ ﷺ فقال له: يا شيخ. فكان يفتخر بهذا ويقول: قال لي رسول الله ﷺ: يا شيخ.

ولمَّا قدم خراسان في الرسالة تلقَّاه الناس، وخرجوا إليه من نيسابور، فحمل إمام الحرمين أبو المعالي الجويني غاشيته، ومشى بين يديه كالخدم، وقال: أنا أفتخر بهذا.

وسُئِلَ عن التأويل فقال: هو حَمْلُ الكلام على إخفاء مَحامله.

وما عِيب عليه شيء إلا دخوله النظامية، وذكره الدرس بها؛ لأنَّ حالَه في الزهد والورع خلافُ ذلك.

وكان يمشي يوماً في الطريق ومعه صاحبٌ له، فعرض له كلبٌ، فزجره صاحبُه، فقال له أبو إسحاق: لم زجرتَه؟ أما علمت أن الطريق مشتركٌ بيننا وبينه؟

وله أشعار منها في غريق [في][1] الماء: [من الطويل]

غـريـقٌ كـأنَّ الـمـوتَ رَقَّ لأخْـذِهِ　　فـلانَ لـهُ فـي صـورةِ الـمـاءِ جـانِـبُـهْ
أبـى الـلـهُ أنْ أنـسـاهُ دهـري فـإنَّـهُ　　تـوفَّـاهُ فـي الـمـاءِ الَّـذي أنـا شـارِبُـهْ

وقال: [من الوافر]

سـألـتُ الـنَّـاسَ عـن خِـلٍّ وَفِـيٍّ　　فـقـالـوا مـا إلـى هـذا سـبـيـلُ
تـمـسَّـكْ إنْ ظـفِـرْتَ بـوُدِّ حُـرٍّ　　فـإنّ الـحُـرَّ فـي الـدُّنـيـا قـلـيـلُ

وقال: [من الوافر]

(١) مابين حاصرتين من (ب).

إذا طـالَ الـطـريـقُ عـلـيـك يـومـاً فـلـيـسَ دواؤُهُ إلَّا الـصـديـقُ
تُـحـادِثُـهُ وتـشـكـو مـا تُـلاقـي ويَـقـرُبُ بـالـحـديـثِ لـكَ الـطَّـريـقُ

وقال: [من البسيط]

لـمَّا أتـانـي كـتـابٌ مـنـكَ مـبـتـسـمـاً عن كلِّ لـفـظٍ ومعـنًى غـيـر مـحـدودِ
حـكَـتْ مـعـانـيـه فـي أثـنـاءِ أسطُـرِهِ أفـعـالَـكَ الـبِـيضَ فـي أحـوالـيَ الـسُّـودِ

ومنها: [من المجزوء الكامل]

جـاء الـربـيـعُ وحُـسْـنُ وِرْدِهْ ومـضـى الـشـتـاءُ وقُـبْـحُ بَـرْدِهْ
فـاشـرَبْ عـلـى وجـهِ الـحـبـيـ بِ ووجـنـتـيـهِ وحُـسْـنِ خَـدِّهْ

ذكر وفاته:

تُوفِّي ليلةَ الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخرة بدار الخلافة من الجانب الشرقي في دار المظفر بن رئيس الرؤساء، وغسَّله ابنُ عقيل، وتقدَّم الخليفةُ بأن يُحمَلَ تابوتُه إلى باب الفردوس، فصلَّى عليه الخليفةُ أولَ الناس، ثم صلَّى عليه المظفر بن رئيس الرؤساء وهو يومئذٍ نائب بالديوان، ثم حُمِلَ إلى جامع القصر فصُلِّي عليه، ثم حُمِلَ إلى باب أبرز فدُفِنَ به، وقبره ظاهرٌ يُزار.

وقال أبو يعلى: رأيتُ أبا إسحاق في المنام بعد موته، فقلتُ له: أليس قد مِتَّ؟ قال: لا والله ما مِتُّ، ثم قال: أبرأُ إلى الله من المدرسة وما فيها. قلتُ: أليس قد دُفِنتَ في التربة التي تُعرف ببيت فلان؟ فقال: لا والله مامِتُّ.

وقال ابن عقيل: رُؤي أبو إسحاق في المنام وعليه ثياب بيض، وعلى رأسه تاج، فقيل له: ما هذا؟ فقال: الثيابُ شرفُ الطاعة، والتاجُ عِزُّ العلم.

وقد روى عن أبي إسحاق جماعةٌ من الأئمة، وكانت له اليد العليا في المناظرة واللسان الذَّلِق في الجدال والمشاجرة، حتى ضُربت به في ذلك الأمثال، وفاق النُّظراء والأمثال.

قال أبو زكريا ابن السلار العقيلي: [من الطويل]

كـفـانـيَ إذْ عَـنَّ الـحـوادثُ صـارمٌ يُـنـيـلُـنـيَ الـمـأمـولَ بـالأثْـرِ والأَثَـر
يـقـدُّ ويـفـري فـي الـلِّـقـاء كـأنـهُ لسانُ أبي إسحاقَ في مجلسِ النَّظر

ولمَّا مات أبو إسحاق أجلسوا مكانه بالنظامية أبا سعيد المتولي، وسنذكره إن شاء الله.

طاهر بن الحسين(١)

ابن أحمد بن عبد الله، أبو الوفاء، القوَّاس، ولد سنة تسعين وثلاث مئة، وقرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقَّه أولاً على أبي الطيب الطبري، ثم رأى مذهب الإمام أحمد رحمه الله، فتفقَّه على القاضي أبي يعلى، وأفتى ودرَّس، وكانت له حلقة بجامع المنصور للمناظرة والفتوى، وكانت وفاته في شعبان، ودُفن بدكة الإمام أحمد رحمه الله إلى جانب الشريف أبي جعفر.

وروى عنه الشيوخ، وكان زاهداً، عابداً، ورعاً، ثقةً، أقام بمسجده المعروف به بباب البصرة خمسين سنة لا يخرج منه إلا إلى الجامع.

محمد بن أحمد(٢)

ابن محمد بن إسماعيل، أبو طاهر بن أبي الصقر، الأنباري، وُلد في ذي الحجة سنة سبع وسبعين وثلاث مئة بالأنبار، وتُوفِّي في شعبان، ودُفِنَ ببلده، وكان يقول: هذه كتبي أَحَبُّ إليَّ من وزنها ذهباً.

واتَّفقوا على صدقه وثقته وزهده وصيامه وقيامه، وكان يشعر، فمن شعره: [من الكامل]

صدِّقْ وصَلِّ وصُمْ وجاهِدْ مشركاً ... واحجُجْ وطُفْ بين الحطيمِ وزَمْزَمِ
وتجنَّبِ السبعَ الكبائرَ واجتهِدْ ... في الخيرِ ويحَكَ لا تُلِمَّ بمحرمِ
إنْ لم تعِفَّ عن الفواحشِ كلِّها ... وتخافَ خالِقَنا فلستَ بمسلمِ

وأنشد لابن الرومي: [من الكامل]

يا دهرُ صافيتَ اللِّئامَ مواليـاً ... أبداً وعاديتَ الأكارمَ عامدا
فغدوتَ كالميزان ترفع ناقصاً ... أبداً وتخفضُ لا محالةَ زائدا

---

(١) اسم أبيه في (خ) و(ب): الحسن، والمثبت من مصادر ترجمته: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٤، والمنتظم ١٦/ ٢٣١. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٥٢.

(٢) الترجمة مختصرة في المنتظم ١٦/ ٢٣٢. وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٥٧٨.

محمد بن أحمد[1]

ابن الحسن بن جردة، أبو عبدالله، البَيِّع البغدادي، أصله من عُكْبَرا، كان يتردَّد منها إلى بغداد يبيع الخام، وكان رأسُ ماله عشر نصافي، فبارك الله له، ووسَّع عليه، وأثرى حتى صارت بضاعتُه ثلاثَ مئة ألف دينار، وزوَّجه الشيخُ الأجلُّ أبو منصور ابنتَه، وكان جليلاً، نبيلاً، جواداً، سمحاً، مُحبًّا للعلماء، وما خرج عن ملبوس التجار، ولا غيَّر زيَّه، وبنى مسجده بالرَّيحانِيّين، وهو الذي قال فيه ابن البياضي: [الخفيف]

حبَّذا مسجدٌ بنهر مُعلَّى

الأبيات

وخَتَم في هذا المسجد مئةَ ألفٍ في مئةِ ألفِ خَتمة على مدى الأنفاس، وكانت صدقاتُه دارَّةً على الفقراء والمساكين والأرامل، وكانت أكثرُ صدقاته سِرًّا على أرباب البيوت، وكانت دارُه بباب المراتب بمقدار الجامع فيها ثلاثون داراً، ولها بابان، على كلِّ باب مؤذن، إذا أذَّن أحدُهما لا يسمعه الآخر.

ولمَّا دخل البساسيري بغداد ونهب دارَ الخليفة خرجت خاتون زوجةُ القائم إلى دار ابن جردة، فخدمها وأحسنَ إليها، وحمل إلى قريش عشرةَ آلاف دينار حتى حمى داره من النهب، فلمَّا اجتمعت خاتون بالسلطان طُغْرُلْبَك حكَتْ له ما فعل ابنُ جردة معها، فلمَّا دخل طُغْرُلْبَك بغداد جاء بنفسه إلى دار ابن جردة شاكراً له.

وكانت وفاتُه في ذي القعدة، ودُفن في التربة الملاصقة لتربة أبي الحسن القزويني الزاهد في الحربية رحمة الله عليه.

السنة السابعة والسبعون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد الخبرُ بأن تُتُش ورد من دمشق إلى أنطرطوس، فحصرها وأخذها من ابن ملاعب، وسلَّمها إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس، وأخذ منه مالاً، وكان قد سأله ذلك وعاد إلى دمشق.

(١) المنتظم ١٦/ ٢٣٢-٢٣٣ .

وفي صفر وصل الحاجُّ سالمين مع خُمارتِكين الحسباني، وذكروا حُسْنَ سيرته.

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الأول كانت وقعةٌ عظيمةٌ على باب آمد بين فخر الدولة ابن جَهير ومسلم بن قريش.

ذكر السبب:

كان ابن جَهير قد سار إلى ديار بكر لفتحها، فبلغه أن مسلم على قصده، [ومنعه][1]، فكتب إلى السلطان يلتمس منه عسكر الدفعة، فتقدم إلى أُرْتُق بك يجمع التركمان والعرب من فخر الدولة، ففعل، وسار مسلم إلى ابن جَهير، فأرسل إلى أُرتُق بك، فجاءه بجمع كبير من التركمان، ووقعت المراسلة، وكلٌّ أشار على مسلم بالرجوع إلى أعماله، فقال: ترجعون مرحلةً إلى ورائكم وأرجع أنا؛ لئلا يُقال: إنَّني منهزماً عدتُ، فامتنع أُرْتُق بك وقال: أنا لا أردُّ رايات السلطان على عقبها. وعرف التركمان ما يجري فقالوا: نحن جئنا من البلاد البعيدة لطلب النهب، وهؤلاء يسارعون في الصلح؟!.

وركبوا نصف الليل من غير إعلامٍ لأُرْتُق بك، وأشرفوا يوم الجمعة على العرب، وكانوا أضعاف العرب، فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب، واحتاطوا بهم، ولم يكن لمسلم سبيلٌ إلى الهرب، فطلب صوب[2] آمِد، وتبعه ابنُ مروان وجماعةٌ من أصحابهما فدخلوا آمد، وبقوا يومَهم وليلتَهم لم يَطْعَموا طعاماً، ولا شربوا شراباً، وكذا خيلُهم، وأشرف ابنُ جَهير وأُرْتُق على القوم ضاحي النهار وقد استولى التركمان على الحِلل والأموال والمواشي، وكان ممَّا [لايُحصى و][3] لا يُحَدُّ ولا يُحصر، وأخذوا النساء وفضحوهنَّ، وربطوا أمراء بني عقيل بالحبال، وباعوهم بالقراريط، وأشعل التركمانُ عشرةَ آلاف رمح تحت القدور، وجرى على العرب ما لم يجرِ عليهم قبلُ، وسبَوا نساءهم، وبلغ الفرسُ الجيِّدُ ديناراً، وكذا الجملُ والرأسُ الغنم نصفَ قيراط، والعبيدُ والإماءُ من دينار إلى دينارين، وما سوى ذلك فما اشتُري ولا بِيع،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ): صواب، والمثبت من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

وراسل مسلم أُرْتُق بك وقال: لمثل هذا اليوم خبأتُكَ، ولمثله تُستَحبُّ الصنيعةُ، وأُريد أن تمُنَّ عليَّ بنفسي. وبذل له مالاً أرغبه فيه، فأجابه، وبعث ابنُ جَهير إلى أُرْتُق بك يقول: قد حصلت بنو عقيل في أيدي التركمان، ويجب أن تجمعَهم وتُنفِذَهم إلى السلطان، وتُقيم على هذا الإنسان ـ يعني مسلم بن قريش ـ وتستنزله، وقد ملكتُ الأرض إلى مصر. فقال أُرْتُق: هذا أمرٌ ما إليك منه قليل ولا كثير، وأنا صاحب الحرب، وليس عادتُنا مع من نأسره أن نحبسه، بل نبيعه ونُطلِقُه.

وكانت نيةُ أُرْتُق بك مع السلطان غيرَ مستقيمة، فأنفذ ابنُ جَهير إليه يقول: إن السلطان أنفذ لِي شحنةً معي وجنداً بين يدي يفعلون ما أراه، وكان على آمد، فغضب أُرْتُق بك، ورحل من وقته، وذلك في اليوم الثالث من الوقعة، وتبعه أكثرُ التركمان، وقصد سنجار، وسار ابنُ جَهير ومن معه إلى ميَّافارقين ولم يقدروا على المقام بعد أُرْتُق بك، فخرج مسلم من آمد يوم الأحد لتسع بَقِين من ربيع الأول، ووصل الرقة، وبعث إلى أُرْتُق بك بما كان بذله له وزادَه، وأقام ابنُ جَهير على ميَّافارقين، فاشتدَّ الغلاءُ، وراسل أهلَها وأهلَ آمد، فهمُّوا بفتح الأبواب، وعلم ابنُ مروان، فقبض عليهم، وبطل ذلك التدبير، ومضى ابنُ جَهير إلى أخلاط، وعاد مَنْ معه إلى العراق، وكتب إلى السلطان يشكو أُرْتُق بك، وكان اتصل بالسلطان ما جرى، وأن مسلماً في آمد محصورٌ، ولم يشُكَّ في أخذه، فندب عميد الدولة لحرب الجزيرة، وأخذ مسلم، وردَّ إليه أمر حلب والرحبة، وبعث معه خُمارتِكين صوب الحاجب وجماعةٍ من الأتراك، وكُوتِبَ أُرْتُق بك بموافقته، وسار من أصفهان، وبلغه في الطريق خلاصُ مسلم، فكتب إلى السلطان يخبره، فسار السلطان يريد الموصل، وسار أُرْتُق بك من سنجار إلى الموصل، فالتقى عميدَ الدولة، وكان قد مرض بدَقوقا، ونزلا بإزاء الموصل، وراسل عميدُ الدولة أهلَها أن يفتحوا للسطان الباب ويطيعوه، فقالوا: إذا حضر السلطان سلَّمنا إليه، وجاء السلطان، فخرج إليه نُوَّاب مسلم [وأجابوه][1] وحاموه وأطاعوه، وقالوا: أمرَنا صاحبُنا أن لا نُغلق في وجهك باباً. فأعجبه ذلك، وأمَّنهم، ودخل إليها، وأقام أياماً.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

وفي جمادى الأولى توفي سرهنك ساوتكين الحاجب، وخلف ألفي ألف دينار وخمسة عشر ألف ثوب، منها تسعة آلاف ديباج رومي، وخمسة آلاف رأس خيل، وألف جمل، وثلاثين ألف رأس غنم، سوى الضياعات والأسلحة والأمتعة، وجاء للسلطان خبرٌ من ناحية أخيه تُتُش، فرأى إعادة مسلم إلى بلاده، فأرسل إليه أبا بكر بن نظام الملك، وكان نازلاً مقابل الرحبة، فتوثَّق به، وعاد به إلى السلطان، فخلع عليه وأعاده إلى أعماله، ورجع إلى أصفهان في الرابع والعشرين من رجب.

وفي يوم الخميس سلخ رجب فتح سليمان بن قُتُلْمِش نيقية وهي بلدة بالساحل تضاهي أنطاكية، وجمع ما يليها من طَرَسوس وأذَنة والمِصِّيصة وعين زربة.

وكان الفردوس المتولِّي على أنطاكية من قِبَل ملك الروم قد أساء السيرة، وصادر أرباب الأموال، وقتل من الأحداث خلقاً كثيراً، وقبض على ولد نفسه وحبسه، فكاتب سليمان، وواعده ليلةً بعينها، فجاء في طائفة من التركمان، ففتحوا له الباب، فدخلها واستولى على أموالها وقلعتها، واستولى على الكنيسة وما فيها من الأموال والجواهر، وكان الفردوس قد خرج إلى بعض النواحي، ولم يتعرَّض سليمان للودائع، ثم نادى في عسكره: لا تتعرَّضوا لأحد من النصارى، ولا ينزل أحد في دار أحد، فلم يؤخذ لأحد درهم، وأحبَّته النصارى، وشاع عدلُه فيهم، فعمرت أنطاكية، وعادت أحسن حالاً من جميع البلاد، فبعث مسلم إلى حلب ألفي فارس يحفظها، وأرسل إلى سليمان يقول: للسلطان في كلِّ سنة على أنطاكية مال، فإن كنتَ طائعاً فابعَثْ به إليَّ، وإن كنتَ عاصياً فعرِّفني. فقال: بل أنا السامع المطيع، وقد كتبتُ إلى السلطان أُخبره بهذا الفتح، والمال إنما كان يؤخذ من صاحب أنطاكية على وجه الجزية ونحن مسلمون، ومن جند السلطان، وكانت الرسالة مع ابن الحلزون نائب مسلم بحلب، فقال: ما نعرف إلا المال. وأغلَظ له، فغضب سليمان، وأرسل عسكره، فنهبوا سواد حلب من منبج إلى المعرة، وسَبُوا وساقوا من الجمال والدوابِّ والماشية شيئاً كثيراً، وقصده أرباب النهب، فاعتذر إليهم وقال: ما لي بهذا عادة، وإنما أميركم فعل هذا حيث نَزَّلني منزلة الكفار، ثم تقدَّم بردِّ النَّهبِ عليهم، فردَّ بعضَه، وصونِعَ عن الباقي بشيء يسير.

وقيل: أخذ عن كلِّ دابة ديناراً أو درهماً، وبلغ ابنَ قريش، فسار من منزله بالقابوسية إلى حلب وهو مُخف من العسكر والمال؛ لما جرى عليه وعلى آمد، واتَّفق أنه وقع بين الحنيني الهاشمي مُتقدِّم الأحداث بحلب وبين علي أخي مسلم المقيم بحلب لحمايتها، فأنفذ الهاشميُّ إلى مسلم يشكو منه، وقال في رسالته: قد شاع ما في أنطاكية من العدل والإنصاف، وأخاف أنَّ أهل حلب يريدون ويقصدون ويتوصَّلون إلى تسليم البلد، فقبض مسلم على أخيه واعتقله، وأخذ منه عشرة آلاف دينار، وتتبَّع الهاشميُّ أصحابَه، فقبض عليهم، وشفى فؤاده منهم، وخبُثت نفسُه، فابتاع حصناً يُعرف بحصن أبي قبيس لا يرام، ونقل أمواله وذخائره إليه، وقُتِلَ مسلمٌ في هذه السنة.

وأمَّا السلطان فسار مُجِدًّا في نفر يسير، حتى ورد نيسابور ولَحِقَ به عسكرُه، فوجد أخاه تكش[1] قد أفسد في البلاد، وأخذ وجوه أهل مرو وصادرهم؛ ظناً منه أن السلطان توغَّل في الشام، والتقت طلائع الفريقين، فانهزم تُكش إلى قلعته بعد أن أُسِرَ من أصحابه جماعة، فبعث بهم السلطان إلى أصفهان معتقَلين، وسار وراءه متيمِّماً، وبعث إلى تِرْمِذ مَن انتزعها من يد نُوَّاب[2] تُكش، وراسل إبراهيم بن مسعود صاحب غزنة، وقال: قد عرفتَ ما فعلتُه مع أخي، وأحسنتُ إليه وخرج عليَّ وعصاني، وقد حاصرتُه وما له ميرةٌ إلَّا من بلادك، فإن منعتَه فهو المأمول منك، وإن أعنتَه كنتَ ناكثاً لما بيننا من الأيمان. فأرسل إلى إبراهيم يعتذر ويومئ إلى توسُّط الحال وإصلاحها، ومضى جماعةٌ من الحُجَّاب والأمراء نحو القلعة[3] والسلطان نازلٌ على المضيق، فوقعوا بخيول وجمال، ومواشٍ وغلمان، فأخذوا الجميع، وكان عدداً لا يُحصى، وكان تكش على قرب منهم سكران، فهرب وسَلِم.

وقال محمد بن هلال: وردت الأخبار إلى السلطان لمَّا كان بالموصل أنَّ تكش نزل بمرو الرُّوذ فأخربها ونهب أموالَ أهلها، وانتقل إلى مرو الشاهجان، فخدع أهلَها، ففتحوها له، فأباحها ثلاثةَ أيام، فنهبوا الأموال، وهتكوا الحريم، وشربوا الخمور في

---

(١) تصحفت في هذا الموضع والموضعين الآيتين في (خ) إلى: تتش، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): من ديوان، والمثبت من (ب).

(٣) في (خ): وأمراء القلعة، والمثبت من (ب).

نهار رمضان بالجامع الأعظم، وفعلوا ما لا يَستحسن الكفارُ فِعْلَه، ثم صادر أربابَ الأموال، وأخرب البلاد، ثم سار إلى سَرَخْسَ، وبها مسعود ناجر التركماني نائب السلطان، وكان تكش مغتاظاً عليه؛ لأنه هزمه مرة بعد مرة، فتحصن منه بقلعة سَرَخْسَ وهي في حصانتها لا تُرام، فنازلها أياماً، وراسله وخدعه ومسعود يقول: كأنك بالرايات السلطانية قد أطلت، فنصب المجانيق وقاتل.

فوصلت الأخبار بوصول السلطان إلى الري، وبلغه ما فعل تكش، فقدَّم بين يديه المقدمات، وبلغه ما اقتضى مسيره بنفسه، وتقدَّم العساكر في خواصِّه، وحمل الكوسات على الجمَّازات، فوصل من الري إلى نيسابور في ستة أيام، وكتب إلى مسعود يقول: إذا سمعت صوت الكؤوس في الوقت الفلاني، فاخرُجْ في عسكرك من أمامهم، ونحن نأتي من ورائهم. فاتَّفق أن طلائع تكش أخذوا الجاسوس، وحملوه إلى تكش، فلما وقف على الكتاب دُهِشَ ورحل من وقته، وحمل ما قدر عليه، وضرب الباقي في النار، وكان شيئاً كثيراً، وجاء إلى مرو، فغلق أهلُها في وجهه الباب، وقاتلوه، وقتلوا من[1] تخلَّف من أصحابه.

ووصلت مقدمات السلطان مع الأمير بُزان إلى سَرَخْسَ، فانضمَّ إليه مسعود، ولحق بهما الأمير بُرْسُق، وساروا يقصُّون أثر تكش ويسارقونه، ولا يقدمون على الهجوم عليه، ووصل إلى بَلْخ، وأقام يستخرج ماله وذخائره، ودنا السلطان منه، فسار إلى قلعة بلخ، واتَّبعه السلطان، [فنزل][2] على مرج قريب من بلخ، فيه عشب كثير، وأطلق الناسُ دوابَّهم فيه، وكان أُرْتُق بك معهم، [فرتبه] على بعض المضايق، وفرَّق الأمراء حول القلعة، وركب السلطان وصَعِد على جبل مشرف عليها، فرأى مكاناً قَوِيَ في خاطره الوصولُ إليها منه.

ووصل رسول صاحب غَزْنة يشفع في تكش، فقال السلطان للرسول: إذا فرغنا من هذا الوجه قصدناكم، فإنَّ صاحبك هو الذي يجسره على العصيان. فقال الرسول:

(١) في (خ): ممن، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

صاحبي يقول: أنا مقيمٌ على العهد الذي بيننا، وقد فرَّغتُ غَزْنة[١] ونقلتُ أهلها وأموالها إلى بلاد الهند، وأعوذُ بالله أن أواجهك أو أحاربك، ألقاك بالخضوع حتى يزول ما وقر في صدرك. فقال السلطان: إنَّا نرفعه من الدخول في[٢] عهد هذا الغلام الجاهل، ولا نؤثر مقاطعته لأجله.

وضاق بجند تكش الأمر، وأشرفوا على الهلاك، وتغيَّروا عليه، فأرسل رسولاً إلى السلطان يخدعه باطناً، ويُجامله ظاهراً، ووصل الرسول إلى نظام الملك، فقال له السلطان: قد خشيتُم أن نردَّ إليه منكم رسولاً أو كتاباً، ولا يتجاسر أحدٌ على خطابه في معناكم. فقال الرسول للنظام: هو قد ألقى إليك مَقاليدَه[٣]، وفوَّض إليك أموره، وحكَّمك فيما تراه. وقال: إن رأيتَ أنني أجيءُ وأطرحُ نفسي عليه جئتُ بعد أن تتوثَّق لي من السلطان، وأنا أُسلِّم إليه القلاع التي في يدي، فإنها سبب الوحشة، ويقرُّ عملي في يدي. فدخل النظام على السلطان وأخبره، فقال: عندي من الأمر أوفى من ذلك وأتمّ، إن أراد أن أُقِرَّه في بلاده وأدعَ قلاعَه في يده، وأزيدَه في الإحسان فليحضُرْ عندي بعد أن يُحَلِّفني بما شاء، ويتوثَّق بما أراد من جهتي وجهتك، وإن خاف الحضور فأنا أُفرِدُ له من بلادي موضعاً آخر، وأُفرِّج له عن الطريق حتى يمضي إليه ويُسلِّم ما بيده من هذه القلاع، وإن شاء أن أُسلِّم إليه طخارستان سلَّمتُها إليه، وليس بعد هذا عندي كلام ولا جواب، فأعلِمِ الرسولَ بهذا، وقل له: إن عاد بغير أَحَدِ هذه الأقسام ضربتُ عنقه.

واتَّفق أنَّ بعض الأمراء توغَّل في شعب تحت القلعة فيه قصرٌ قريبٌ من الباب وفيه تكش سكران، فواقعه، وحماه أصحابُه واستنقذوه، فصعد إلى القلعة، وعاد الرسول، فقيل له: بماذا جئت؟ فقال: بما يرضي السلطان. فبادر النظام، وأخذ بيده، ودخل على السلطان، فقال له: بماذا جئت؟ فقال: الملك العادل يقول: أمَّا القلاع فلا أُسلِّمها، ولكني أُخرِبُها، وأمَّا اللِّقاء فإنني لا أحضر بابك، ولكني أكون على رأس

(١) في (خ): عشيرته، والمثبت من (ب).
(٢) في (خ): على، والمثبت من (ب).
(٣) في (ب): مقايده، والمثبت من (خ).

جبل وأنت على آخر، وبيننا الوادي، فنتحدث ونتعاهد، وتُسلِّم إليَّ بلد هراة، وتُنفذ إلى خواجا بزرك لأقرر معه هذه القواعد، فلستُ بأقلَّ من مسلم بن قريش. فاستشاط السلطانُ غضباً، وأمر بضرب عنق الرسول، فقام نظام الملك وقبَّل الأرض، وسأله فيه، وعزَّ على النظام؛ لأنه بادر به إلى السلطان، وكان في مجلس شُرْبِه، فلمَّا عرف مجيء نظام الملك أمر برفع المجلس احتراماً له، وهذه كانت عادتُه، فلمَّا لم ينفصل أمرٌ عَزَّ على النظام ذلك، وأمر السلطان بأن يُطاف بالرسول العسكر، وأن يُضرب ضرباً مُبرِّحاً، ففعل به ذلك، وعاد إلى صاحبه.

ووصل الأمير منصور بن مروان صاحب ميَّافارقين فنزل على الأمير، فماج، وحمل من الغد خيلاً لا قيمةَ لها، وأشياءَ زرية، فأقامت على سرادق السلطان يوماً لم يلتفِتْ إليها، ورآها فلم تُعجِبْه، وحمل إلى خاتون هديةً قليلةً، ولم تمضِ عليه غيرُ خمسة أيام حتى بعث إلى إياز النظامي يقترض منه ألف دينار، وأمرَ دلَّالةً أعجميةً أن تقترض له على ثلاثة آلاف دينار بسبعة آلاف، وأظهر جماعةٌ تواقيع للسلطان عليه منذ عشر سنين لم يُعطِ أهلَها شيئاً، وطالبوه وأهانوه هواناً كثيراً، فذلَّ، ومع هذا لم يؤثر فيه، وقصد نظام الملك ورمى بنفسه عليه وعلى الحاشية، فلمَّا كثروا على السلطان في أمره قال: لا سبيل إلى إعادة البلاد حتى ينفصل أمر تكش، فقال النظام لمنصور: لا سبيل إلى إعادة ما أخذه ابن جَهير منك، فقال: لو أخذ مني ضيعةً ما رضيتُ.

وورد كتابُ ابنِ جَهير أنه قد استولى على أربعة حصون، وأنَّ أهل ميَّافارقين قد كاتبوا بالتسليم، فحينئذٍ أجاب على أن يكون له ميَّافارقين، وتوقَّف الحال، وتحدَّث في مصاهرة السلطان، وبذل ستين ألف دينار، فقيل له: أنت تستقرض بالربا، فمن أين لك ستون ألف دينار؟ وافتضح وصار ضحكةً بقلَّة عقله، وقد كان خرج من ميَّافارقين بغير خيمةٍ ولا زادٍ ولا درهم.

وفي ذي الحجَّة فُتحت مدينة ملطية، فتحها خالٌ لسليمان بن قُتُلْمِش.

وفيها بنى بدر الجمالي جامع العطَّارين بالإسكندرية، وسببه أن ولداً له عصى عليه، ودخل الإسكندرية فتحصَّن بها، فسار أبوه إليها فنازلها شهراً، وطلب أهلُها الأمان، وفتحوا له الباب، فدخلها، وأخذ ابنَه أسيراً، وبنى هذا الجامع.

وفيها وردت الأخبار من ناحية الغرب بأن الفرنج استولوا على جزيرة الأندلس، وفتكوا بأهلها، وأنَّ صاحب طُليطِلة استصرخ بالملثمين واستنجدهم على الفرنج فأنجدوه، ووصلوا إليه في خلقٍ عظيمٍ والتقوا، وكان الفرنج في مئين ألوف، فكُسِروا كسرةً عظيمةً لم ينْجُ منهم إلَّا من سبقَ جواده، وأُخِّر [في][1] أجله، بحيث أُحصيَ القتلى فكانوا عشرين ألفاً جُمِعتْ رؤوسهم، وبُنِيَ بها أربعُ منائر للمؤذنين في غاية الارتفاع[2]، وأذَّنَ المسلمون فيها، وعاد عسكر الملثَّمين إلى بلادهم مسرورين ظافرين.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن محمد بن دوست[3]

أبو سعد[4] ، الصوفي، النيسابوري، صاحب رياضات ومجاهدات، سافر كثيراً، وحجَّ مرات، وكان يجمع الفقراء ويخرج بهم إلى البادية، وينتقل في القبائل، وكان حسنَ الأخلاق، دائمَ البشر، وتقدم حتى صار شيخَ الصوفية ببغداد، وكان له الجاهُ العظيم، وكان غاب بالبادية مدةً، ثم جاء فنزل على صاحبه أبي بكر الطُّرَيثيثي، وكانت له زاويةٌ صغيرة، فقال له أبو سعد: يا أبا بكر، لو بنيتَ للأصحاب موضعاً أوسع من هذا وأرفع باباً. فقال له: إذا بنيتَ أنت رباطاً للصوفية فاجعل له باباً يدخل فيه جملٌ براكبه[5]، فذهب أبو سعد إلى نيسابور فباع جميع أملاكه، وجاء إلى بغداد، فكتب إلى القائم بأمر الله يلتمس منه خربةً يبني فيها رباطاً، فأذن له، فبنى الرباط، وجمع الصوفية، وأحضر أبا بكر الطُّرَيثيثي، وعمل له دعوةً، وأدخل رجلاً راكباً على جملٍ

(١) مابين حاصرتين من (ب).
(٢) العبارة في (خ) هكذا: وبُني لها أربع منائر الميادين في غاية! والمثبت من (ب).
(٣) المنتظم ١٦/ ٢٣٥ ، وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٩١ .
(٤) وقعت كنيته في بعض المصادر: أبو سعيد.
(٥) في (ب): يدخل فيه الجمل بركابه.

من باب الرباط، وقال للطُّرَيثيثي: يا أبا بكر، قد امتثلتُ ما رسمتَ. ثم جاء الغرق سنة سبع وستين فهدم الرباط، فأعاده أحسن[١] ما كان، وقال ولدُه[٢] أبو البركات: لمَّا غرقت بغداد كان الماء يدخل إلى الدور من السطوح، فأخرب الجانبَ الشرقيَّ، فاكترى أبي زورقاً وحُملنا والصوفيةَ فيه، والماءُ يرمي الحيطان، ويحدر الأخشابَ والأبوابَ والجذوعَ إلى البطائح والبحر، فقال أحمد بن زهير الصوفي لوالدي: يا أبا سعد، لو اكتريتَ مَنْ يجمعُ هذه الأخشاب في مكان، فإذا نقص الماء بنيت بها الرباط ثانياً. فقال له أبو سعد: هذا زمانُ تفرقة لا زمانُ جمع، فإذا جاء وقت الجمع جمعنا.

واجتاز أبو سعد بالسوق قبل أن يبني الرباط، فرأى الخبز النقي، وكان من عادة الصوفية أكل الخشكار، فقال: إنْ قُدِّر لي بناء رباط لأشرُطَنَّ في سجلِّه أن لا يطعم الصوفية إلا الخبز النقي، فهم الآن على ذلك.

وكانت وفاتُه ليلة الجمعة في ربيع الآخر، ودُفِنَ بمقبرة باب أبرز قريباً من أبي إسحاق الشيرازي، وقد أناف على السبعين، وأوصى أن يُقام ولدُه مقامَه، وله اثنتا عشرة سنة، ومولده سنة خمس وستين وأربع مئة.

نشأ ببغداد، وسمع الحديث، وزار القدس، ونزل بخانكاه السُّمَيساتي بدمشق وعاد إلى بغداد و[قد][٣] صار شيخَ الشيوخ بها.

وكتب إليه أبو القاسم [عبد الله بن القاسم] بن علي الحريري: [من الطويل]

سلامٌ كأزهارِ الربيعِ نضارةً ... وحُسْناً على شيخِ الشيوخِ الذي صفا
و[لو] لم يَعُقْني الدَّهرُ عن قصدِ رَبْعِهِ ... سعيتُ كما يسعى المُلبِّي إلى الصَّفا
ولكِنْ عداني عنه[٤] دهرٌ مُكَدَّرٌ ... ومَنْ ذا الذي واتاه في دهره الصَّفا

(١) في (ب): مثل، وفي المنتظم: أجود.
(٢) في (خ): لولده، والمثبت من (ب).
(٣) مابين حاصرتين هنا وفي الموضعين الآتيين من (ب).
(٤) في الأصلين (خ) و(ب): عذلني عنده، ولا يستقيم الوزن ولا المعنى، والمثبت من معجم الأدباء ١٦/ ٢٧٣ والأبيات فيه.

عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد(١)

أبو نصر بن الصباغ، الإمام، الشافعي، ولد سنة أربع مئة، وتفقَّه وبرع في الفقه، وصار فقيهَ العراق، وكان يُقدَّم على أبي إسحاق في معرفة المذهب، وصنف الكتُبَ الحِسان؛ منها: «الشامل» و«الكامل» و«تذكرة العالم» و«الطريق السالم».

وولي التدريس بالنظامية قبل أبي إسحاق عشرين يوماً، وكان قد سافر إلى السلطان وأحسن إليه، فلمَّا قدم [بغداد] هرع الناس يهنُّونه بذاك أياماً.

وكانت وفاته في جمادى الأولى، ودُفن بداره بدرب السلولي من الكَرْخ، ثم نُقل إلى باب حرب.

وكان ثقةً ثبتاً صدوقاً [ديِّناً] فاضلاً.

علي بن أحمد بن عبد العزيز(٢)

الأندلسي، رحل وسمع الحديث الكثير، ومن شعره: [من البسيط]

صَيِّرْ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً ... سَمُّ الخِياطِ مجالٌ للمُحِبَّينِ
ولا تُسامِحْ بغيضاً في معاشَرةٍ ... فقلَّما تسَعُ الدنيا بَغيضينِ(٣)

مسلم بن قُريش بن بدران

أبو البركات، شرف الدولة، أمير بني عقيل، صاحب الموصل والجزيرة وحلب، وزوَّجه السلطان ألب أرسلان أُختَه.

وكان شجاعاً جواداً داهيةً، يحتاج إليه الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والأعيان، وأولد أختَ السلطان، وخُطِبَ له على المنابر من باب بغداد إلى العواصم

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٣٦-٢٣٧ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٩٦-٢٩٧ . وينظر السير ١٨/ ٤٦٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٢١-٢٢٤ .

(٣) قلت: والبيتان المذكوران لم أقف على من نسبهما لصاحب الترجمة سوى المصنف، وهما لغانم بن الوليد كما في معجم الأدباء ١٦/ ١٦٧-١٦٨ ، والمغرب ١/ ٣١٧ ، ونفح الطيب ٣/ ٢٦٤ وغيرها من المصادر.

والشام، وأقام حاكماً على البلاد نيِّفاً وعشرين سنة، ولمَّا مدحه ابن حَيُّوس بقصيدته التي أولها: [من الكامل]

مـا أدركَ الـطَّـلِـبـاتِ مـثـلُ مُـصـمِّـمِ إن أقـدمَـتْ أعـداؤُهُ لـم يُـحْـجِـمِ

وقد تقدَّمت الأبيات، فأعطاه الموصل، فأقامت بيده - يعني في حكمه - ستة أشهر، ومات ولم يدخلها.

ذكر مقتله:

قد ذكرنا استيلاء سليمان بن قُتُلْمِش على أنطاكية، وأنَّ مسلماً خاف منه، فقطع الفرات في خفٍّ من العسكر، فنزل على حلب، ثم توجَّه إلى أنطاكية، فخرج إليه سليمان في التركمان واقتتلوا أياماً، وكان مع مسلم طائفةٌ من التركمان، فمالوا إلى سليمان، وانهزمت العرب، وبقي مسلمٌ في أربع مئة فارس من بني عقيل، فثبتوا معه، وقاتلوا دونه، فصَعِد على عقبة هي آخر أعمال حلب وأول أعمال أنطاكية وقتَ العصر يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر، وكان قد جمع جمعاً من الأرمن من سُمَيْساط، وأخذ من حلب ستَّ مئة رجل من أحداثها، وأطلق لجُبَّق مُقدَّم التركمان الذين كانوا معه مالاً، وكان قد صادقه وصار معه، فمال أصحاب جُبَّق إلى سليمان مستأمنين، وأجفلت بنو كلاب من الميمنة وبنو نمير من الميسرة، وقتل من أحداث حلب نحواً من أربع مئة، وبقي وحده، فانهزم، فأدركوه فقتلوه وغنموا عسكره، وسار بنو عقيل إلى القابوسية، وأخرجوا أخاه إبراهيم بن قريش من القلعة وهو لا يقدر أن يمشي ولا يركب سِمَناً، وكسروا القيد، وأمَّروه عليهم، وكانوا مُحِبِّين له، ومؤثرين لخدمته أكثر من مسلم، ووقع لهم بالإطلاقات والإقطاعات.

وكتب ابن الحنيني الهاشمي[١] الحلبي إلى السلطان يخبره بما جرى، وطلب أن يتقدَّم إليه بتسليم البلد إلى من ينظر فيه، وأغلق الأبواب وحاصره ابن قُتُلْمِش، وقيل: إنهم أجلسوا مكان مسلم ولده بهاء الدولة.

(١) في (خ): الشافعي، والمثبت من (ب).

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وفي سنة ثمان وسبعين وأربع مئة كان مصاف بين الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش وبين الملك سليمان بن قُتُلْمِش في رابع وعشرين صفر على نهر سفيان، فكُسِرَ عسكرُ قريش وقُتِل، ورحل سليمان نحو حلب محاصراً لها في غرة ربيع الأول، ولم يتهيَّأ له ما أراد، فرحل عنها خامس ربيع الآخر إلى أنطاكية، والأصحُّ أنَّ مسلماً قُتِلَ في هذه السنة، والله أعلم.

السنة الثامنة والسبعون وأربع مئة

فيها في ثالث صفر فتح فخر الدولة بن جَهير آمِد لكثرة الغلاء بها، فإنه بلغ المكوك الحنطة ديناراً، وقالت النصارى: ما نبيعه إلا بأكثر. فثار بهم المسلمون، وقتلوا جماعةً منهم، ونهبوا أموالهم، وكان وزير آمد نصرانيًّا من قِبَل وزير ميَّافارقين، وكان الآخر نصرانيًّا، فهدَّدهم، فأعلنوا بشعار فخر الدولة، وفتحوا له الباب فدخلها، وأحسن إلى أهلها، وجلب إليهم الغلَّات، وأقام ولده زعيم الرؤساء في قصر السلطان، وسار إلى حصار ميَّافارقين، وورد الخبر بمسير أُرْتُق بك من حلوان والجبل، وكانت إقطاعه طالباً الجزيرة والشام، ورجع ابنُ جَهير إلى آمد متحصِّناً بها لخوفه من أُرْتُق بك؛ لأن ابنَ جَهير هو الذي كاتب السلطان فيه، وأنه أطلق مسلماً وأخذ منه المال، فاستوحش أُرْتُقْ بك، وكان قد اتَّفق مع مسلم أنهما يمضيان إلى حلب ويكاتبان المصري وينحازان إليه ويُدخلان تاج الدولة تُتُش معهما في ذلك، وكان مسلمٌ أنفذ عمَّه مقبل بن بدران عند انفلاته من آمد إلى مصر بالانتماء إلى دولتهم، وأن يأخذ لهم العراق والجزيرة والشام، ويلتمس إنفاذَ عسكرٍ إلى الشام، ويعبر هو الفرات ويسير إليهم ويتَّفق معهم، وبعث بدر الجمالي ولدَه وابنَ المغربي[1] وجماعةً مع مقبل إلى الشام، فوصلوا دمشق وأقاموا بها، وبعثوا مقبلاً يشعر مسلماً وأُرْتُق بوصولهم، فوصل حلب، فوجد مسلماً قد قتل قَيِّم آل قرقيسيا، واجتمع بأُرْتُق، فوعده بإفساد التركمان لتلك الدولة، ونقلهم إلى الشام، وأقام أُرْتُق بالجزيرة وقد فَتَّ قتلُ مسلم[2] عضُدَه، وكان أُرْتُق لمَّا سار من خراسان نهب ضياعاً للسلطان، وأنفذ إليه السلطان خِلَعاً وذهباً فلم يقبَلْ منه

---

(١) تحرفت في (خ) إلى: العربي، والمثبت من (ب).

(٢) بعدها في (خ) زيادة: في.

شيئاً، وكان جماعةٌ من عسكر السلطان بديار بكر منهم الكوهراني وقراتكين وأنوشكين، فراسلوه، وقربوا منه، وقالوا: إن كنت عاصياً سِرْنا إليك، وإن كنتَ طائعاً فيجب أن تجتمع معنا على خدمة السلطان.

وراسلوا التركمان الذين معه، وخرجوا ولم يبقَ معه إلَّا أصحابُه وخواصُّه، وأعاد الجواب أنَّني سامع مطيع، غير أنَّ ابنَ جَهير جعل في نفس السلطان أنني خلَّصتُ ابنَ قريش من آمد، وقد تشوَّشَتْ نيتُه، وما آمَنُ على نفسي منه، وأنا أمضي إلى حلب فأقيم بظاهرها بإزاء سليمان بن قُتُلْمِش وأكفُّه عن فساد[1] طرأ منه، وقد كانت الكتب وردت إليَّ بذلك ويطلبها منه.

وفي جمادى الأولى فتح ابنُ جَهير ميَّافارقين عنوةً، واستولى على مملكة بني مروان.

ذكر السبب:

كان الطنطاق الحاجب المقيم معه شحنةٌ في تلك الأعمال، مائلاً إلى أخذ البراطيل ممن كان في ميَّافارقين، فلذلك طال المُقام عليها، واتَّفق وفاته، فوجد ابنُ جَهير في تركته مكاتبات القوم إليه، فكتب إليه سعد الدولة الكوهراني، فلحق به فأوقفه على الكتب، وصدقوا القتال ثلاثة أيام، ففتح البلد يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى.

وفي يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة قُبِضَ على تُكش، وحُمِلَ إلى قلعة فيروز كورة من أعمال الدامغان، فوصلها في العشرين من رمضان واعتُقِلَ فيها.

وفيها توفِّي قاضي القضاة ابن الدامغاني، وخلع على أبي بكر محمد بن المظفر الشاهد، وولي قاضي القضاة.

وفي رمضان ورد زعيم الرؤساء أبو القاسم بن فخر الدولة بغداد ومعه من أموال بني مروان ما ظفر بها أبوه، ونزل في دار المملكة، ثم خرج في شوال متوجِّهاً إلى أصبهان، وبعث الخليفةُ تاجَ الرؤساء أخا الوزير أبي شجاع مختصَّ الخادم إلى السلطان بسبب الوصلة بابنة السلطان، وبعث معهما بالتحف والهدايا.

وفي ذي القعدة تُوفِّي حاجب باب النُّوبي، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

(١) بعدها في (خ) زيادة: إن.

وفي ذي الحجة تُوفِّي أبو علي بن الوليد المعتزلي، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها وقع طاعون عظيم بالعراق، ثم عمَّ الدنيا، فكان يكون الرجل قاعداً في شغله فتثور به الصفراء فتصرعه فيموت من وقته.

وهبَّتْ ببغداد ريحٌ سوداء فأظلمت الدنيا، ولاحَتْ نيرانٌ في أطراف السماء وأصواتٌ هائلة، فأهلكت خلقاً كثيراً من الناس والبهائم، واشتدَّت الأمراض ببغداد، فكان الأطباء يصفون اللحم في الحميات لحفظ القوة، وامتلأت المقابر من الموتى، وفُقِدَ المغسِّلون والحفَّارون.

ومرَّ بعضُ الأتراك بباب مُحَوِّل، فرأى طفلةً على باب بيت وهي تقول: مَنْ يغتنِمْ أجري ويأخُذْني، فإن أبي وأمي وأخواتي ماتوا في هذا البيت. فدخل التركيُّ فرأى في البيت عدة أموات، فخرج مسرعاً وركب، ثم خطر له أن يرجع ويأخذها، فعاد فلم يجدها على الباب، فنزل ودخل الدار، وإذا بها ميتة في صدر أمها.

وكان أهلُ الدرب يموتون كلهم فيُسَدُّ بابُ الدرب.

وفيها اتَّفق جماعةٌ مع ولد بدر الجمالي بمصر على قتله وينفرد بالملك، وعلم بدر، فقتل الجماعةَ الذين واطؤوه، وعفَّى آثار ولده.

ويقال: إنه دفنه حياً. وقيل: غرَّقه. وقيل: جوَّعه حتى مات. وكان بدر فاتكاً جباراً عاتياً، قتل خلقاً من العلماء وغيرهم، وأقام الأذان بحيَّ على خير العمل، وكبَّر على الجنائز خمساً، وكتب سبَّ الصحابة على الحيطان.

وفيها أمر المقتدي بالله بأن يلبس أهل الذمة الغيارات والزنانير ويهانوا، وتُنْقَضَ دورُهم التي تعلو دور المسلمين، وتُسدَّ أبوابُهم المقابلة للجامع، وأن يغضُّوا أصواتهم عند قراءة التوراة في دورهم، وأمر بإراقة الخمور وكسر الملاهي ونقض دور المفسدين.

ووردت الأخبار بأن الأنبروت ملك الفرنج نزل على المهدية، وضايقها وفتحها عنوةً، وقتل رجالها، وسبى نساءها.

وعاد سليمان بن قُتُلْمِش إلى حصار حلب وطمع فيها، فوصلت أخبار السلطان أنه قاصدٌ إلى الشام، فرحل عنها، وجاءه تُتُش وقد رحل من حلب والتقيا، فهزمه تُتُش وغنم عسكره، ومضى ابن قُتُلْمِش إلى أنطاكية.

قال ابن القلانسي: وحاصر تُتُش حلب وضايقها فسلمها إليه ابن البرغوثي الحلبي، ووصل السلطان ملك شاه إلى الشام، ودخل حلبَ في شهر رمضان، وانهزم تُتُش إلى دمشق.

والأصحُّ أنَّ السلطان قدم الشام في السنة الآتية لما نذكر إن شاء الله تعالى.

وحجَّ بالناس خُمارتِكين، وكان محمودَ السيرة.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن الحسن(١)

ابن محمد بن إبراهيم، أبو بكر، سبط ابن فورك، وخَتَن أبي القاسم القشيري على ابنته.

وكان يعظ في النظامية، فوقعت بسببه الفتنة في المذاهب، وكان مؤثراً للدنيا، طالباً للجاه، لا يتحاشى من لبس الحرير.

وقيل لابن جَهير الوزير: ألا تُحضره لتسمع منه؟ فقال: الحديث أصلَفُ من الحال التي هو عليها.

وكان داعيةً إلى البدعة، يأخذ مكس الفحم من الحدَّادين ويأكل منه.

وتوفِّي في شعبان وقد نَيَّفَ على الستين، ودُفِنَ عند قبر الأشعري.

الحسين بن علي(٢)

أبو عبد الله، المردوسي، حاجب باب النُّوبي، وكان رئيس زمانه، كاملَ المروءة، لا يسعى إلَّا في مكرُمة، كثيرَ الصلاة والصوم والصدقة والتعبُّد.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٤٣، تحرف اسم أبيه في (ب) إلى: الحسين.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٤٣-٢٤٤.

وكان الخلفاء والملوك يحترمونه، وعمَّر طويلاً، وخدم بني بويه إلى هُلمَّ جراً.

وكانت وفاته في ذي القعدة عن خمس وتسعين سنة، وهو صحيح البدن، سليم الحواس، مستقيم الأحوال، ودُفن بمقبرة باب التبن، وكان قد حفر قبره قبل موته بخمسين سنة.

عبد الرحمن بن مأمون بن علي(١)

أبو سعيد، المتولِّي، وُلِدَ سنة سبع وعشرين وأربع مئة، ودرس بالنظامية موضع أبي إسحاق، ودرس الأصول مدة، ثم قال: الفروع أسلم. وكان فاضلاً شجاعاً فصيحاً.

تُوفِّي ليلةَ الجمعة ثامن عشر شوال، وصلَّى عليه أبو بكر الشامي، ودُفِنَ بمقبرة باب أبرز.

عبدالملك بن عبدالله بن يوسف(٢)

إمام الحرمين، أبو المعالي، الجُوَيني، وجُوَين قرية من قرى نيسابور، ولد سنة سبع عشرة وأربع مئة، وتفقَّه في صباه على والده وله دون العشرين سنة، فأقعده مكانه للتدريس، فأقام الدرس، وسمع الحديث الكثير بالبلاد، وحجَّ وجاور أربع سنين، ثم عاد إلى نيسابور، فجلس يُدرِّس موضع أبيه ثلاثين سنة، وإليه المنبر والمحراب والخطابة، ويجلس للوعظ يوم الجمعة، وكان يحضر درسه في كلِّ يوم نحوٌ من ثلاث مئة فقيه، وتخرَّج به جماعةٌ من الأكابر، ودرَّسوا في حياته، وصنَّف «نهاية المطلب».

وكان أبو إسحاق يقول له: أنت إمام الأئمة.

وكان ابن الجويني قد بالغ في علم الكلام، وصنَّف الكتب الكثيرة، كـ«الإرشاد» وغيره، وقال: ركبتُ البحر الأعظم، وغُصتُ في الذي نهى أهل الإسلام عنه، كلُّ ذلك في طلب الحق، وكنتُ أهرب في سالف الدهر من التقلُّب، والآن فقد رجعتُ إلى كلمة الحق: عليكم بدين العجائز، فإن لم يتداركني الحقُّ بلطيف برِّه، وإلَّا فالويلُ لابن الجويني.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٤٤ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٥٨٥ .

(٢) تبيين كذب المفتري ص٢٧٨-٢٨٥ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص٣١٢-٣١٣ ، والمنتظم ١٦/ ٢٤٤-٢٤٧ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٦٨ .

وكان يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به.

وقال محمد بن علي تلميذ أبي المعالي الجويني: دخلتُ عليه في مرضه الذي مات فيه وأسنانه تتناثر من فيه، ويسقط منها الدم والدود، ولا يستطاع شمُّ فيه، فقال: هذه عقوبة اشتغالي بالكلام فاحذروه.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر عن تسع وخمسين سنة بظاهر نيسابور، ثم نُقل إلى داره بعد سنتين إلى مقبرة الحسين، فدُفن إلى جانب أبيه، وكان أصحابه المقتبسون من علمه نحوُ أربعِ مئة يطوفون في البلد وينوحون عليه.

علي بن عبد السلام بن محمد[1]

أبو محمد[2] الأرمنازي ولد سنة سبع وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث، وكان فاضلاً شاعراً، فمن شعره: [من الطويل]

ألا إنَّ خيرَ الناسِ بعدَ محمدٍ ... وأصحابِهِ والتابعينَ بإحسانِ
أُناسٌ أرادَ اللهُ إحياءَ دينِهِ ... بحفظِ الذي يروي عن الأولِ الثاني
أقاموا حدودَ الشَّرعِ بعدَ نبيِّهمْ ... بما أوضحوهُ من دليلٍ وبُرهانِ
وساروا مسيرَ الشمسِ في جمعِ علمهِ ... فأوطانُهم أضحَتْ لهُمْ غير أوطانِ
فلستَ ترى ما بينهم غيرَ ناطقٍ ... بتصحيحِ علمٍ أو تلاوةِ قُرآنِ

من أبيات

وكانت وفاته بدمشق، وكان ثقة.

محمد بن أحمد[3]

ابن عبدالله بن أحمد بن الوليد، أبو علي، المتكلِّم، المعتزلي، شيخ المعتزلة والفلاسفة، والداعية إلى مذهبهم ورأيهم، وهو من أهل الكَرْخ، وكان يدرِّس علم

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ٦٨-٧٠.
(٢) تحرف في (ب) إلى: أبو أحمد
(٣) المنتظم ١٦/ ٢٤٧-٢٤٩.

الاعتزال والفلسفة والمنطق، فاضطرَّه أهلُ السنَّة إلى أن لزم بيته خمسين سنة لا يتجاسر أن يظهر.

ولم يكن عنده من الحديث سوى حديث واحد لم يروِ غيرَه، سمعه من شيخه أبي الحسين البصري، ولم يروِ أيضاً غيره، وهو قوله ﷺ: «إذا لم تستَحِ فاصنَعْ ما شئت»، فكأنهما خوطبا بهذا الحديث، كأنهما لم يستحيا من بدعتهما التي خالفا بها السُّنَّة وعارضاها بها، ومن فعل ذلك فما استحى.

ولهذا الحديث قصة، وذلك لأنَّ القَعْنبي لم يسمع من شعبة غيره؛ لأنه قدم البصرة فصادف مجلس شعبة قد انقضى، ومضى إلى منزله، فوجد الباب مفتوحاً، وشعبة على البالوعة، فهجم عليه من غير استئذان وقال: أنا غريب، وقد قصدتُكَ من بلد بعيد لتُحدِّثني، فاستعظم ذلك شعبة وقال: دخلتَ منزلي بغير إذني، وتُكلِّمني وأنا على مثل هذه الحال؟ حدثنا منصور، عن رِبْعي بن حِراش، عن أبي مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئت»، ثم قال: واللهِ لا حدَّثتُكَ غيرَه، ولا حدَّثْتُ أقواماً أنتَ منهم.

وقيل: إنَّ القَعنْبي كان يشرب النبيذ، ويصحب الأحداث، فجلس يوماً على بابه، فمرَّ شعبةُ والناس خلفه يهرعون، فقال: من هذا؟ قيل: شعبة. قال: وما شعبة؟ قيل: مُحدِّث. فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدِّثني. فقال: ما أنتَ من أصحاب الحديث. فشهر سِكِّينه وقال: أتُحدِّثني أو أجرحك؟ فقال: حدثنا منصور، وذكر الحديث، فرمى سِكِّينه، ورجع إلى منزله فأهرق ما عنده، ومضى إلى المدينة، ولزم مالك بن أنس، ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث، وهو حديث صحيح اتَّفق مسلم والبخاري على إخراجه[1]، ولفظ الصحيح: «إنَّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئت».

واسم القَعْنبي عبدالله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب، وكنيته أبو عبد الرحمن.

---

(١) الحديث تفرد بإخراجه البخاري (٣٤٨٣)، ولم يخرِّجه مسلم!

وقال ابن عقيل: جرت مسألةٌ بين أبي علي بن الوليد وبين أبي يوسف القزويني في إباحة جماع الولدان في الجنة، فقال ابن الوليد: لا يمتنع أن يُجعل ذلك من جملة لذَّاتهم في الجنة لزوال المفسدة؛ لأنه إنما منع منه في الدنيا لما فيه من قطع النسل، وكونه محلًّا للأذى، وليس في الجنة ذلك؛ ولهذا أُبيح لهم شرب الخمر لمَّا أُمِنَ فيه السكرُ وغائلتُه من العربدة وزوال العقل، فلمَّا أُمِنَ ذلك من شربها لم يمنع من الالتذاذ بها. فقال له أبو يوسف: إنَّ الميلَ إلى الذكور عاهة، وهو قبيح في نفسه؛ لأنَّ هذا المحل لم يُخلَق[1] للوطء، ولهذا لم يُبَحْ في شريعة، بخلاف الخمر، وهو - أيضاً - مخرج [الأذى و][2] الحدث، وإذا كانت عاهةً فالجنةُ منزَّهةٌ عن العاهات. فقال ابن الوليد: إن العاهة هي التلويث بالأذى، وإذا لم يكن أذى لم يبقَ إلَّا مجرَّد الالتذاذ.

وكانت وفاة ابن الوليد في ذي الحجة، ودُفن بالشُّونيزية.

وسُئِلَ أبو الفضل بن ناصر عن الرواية عنه، فقال: لا تحِلُّ، كان داعيةً إلى الاعتزال.

ومن شعره: [من السريع]

أيا رئيساً بالمعالي ارتدى ... واستخدمَ العيُّوقَ[3] والفَرْقدا
مالِيَ لا أجري على مُقتضى ... مودةٍ طالَ عليها المدى
إنْ غِبْتُ لم أُطْلَبْ وهذا ... سليمانُ بنُ داودَ نبيُّ الهدى
تفقَّدَ الطيرَ على مِلْكِهِ ... فقال ما ليْ لا أرى الهُدْهُدا

محمد بن علي[4]

ابن محمد بن الحسن بن عبد الملك بن عبد الوهَّاب بن حمُّويه[5]، أبو عبد الله، الدَّامَغاني، القاضي، الحنفي.

(١) في (خ): لم يحل، والمثبت من (ب) والمنتظم.
(٢) مابين حاصرتين من (ب).
(٣) العَيُّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرَّة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدَّمها، ويطلع قبل الجوزاء. المعجم الوسيط (عوق).
(٤) المنتظم ١٦/ ٢٤٩-٢٥٢ . وتاريخ بغداد ٣/ ١٠٩، والأنساب ٥/ ٢٥٩. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٨٥ .
(٥) هكذا في الأصلين (خ) و(ب)، والمنتظم، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٢١، والبداية والنهاية ١٢/ ١٢٩، لكن في تاريخ الإسلام ١٠/ ٤٣٣، والسير: حسُّويه.

ولد بالدامغان في ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة، وتفقَّه ببلده، ثم قدم بغداد في رمضان سنة تسع عشرة، وتفقَّه على الصَّيمري والقَدُوري، وسمع منهما الحديث، وبرع في الفقه، وخُصَّ بالفضل الوافر، والتواضع الزائد، فارتفع وشيوخه أحياء، وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة.

وكان فصيحَ العبارة، مليحَ الإشارة، غزيرَ العلم، سهلَ الأخلاق، وعانى من الفقر في بدايته شدة، فربما كان يستضيء بسراج حارس الدرب للمطالعة من حرصه.

وفي ربيع الأول سنة إحدى وأربعين شهد عند أبي عبد الله بن ماكولا قاضي القضاة، فلما مات ابن ماكولا قال القائم بأمر الله للشيخ الأجلِّ أبي منصور بن يوسف: قد كان هذا الرجل قاضياً حسناً نزهاً، ولكنه كان خالياً من العلم، ونريد عالماً قاضياً ديِّناً، فعلم ابنُ يوسف أن عميد الملك هو المستولي على الدولة، وهو شديدُ التعصب للحنفية، فأراد أن يتقرَّب إليه، فأشار بابن الدامغاني، فولي قضاء القضاة يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة سنة سبع وأربعين، وخلع الخليفة عليه، وقُرئ عهدُه وقصد خدمة طُغْرُلبَك، فأعطاه دَسْتَ ثياب وبغلة، فاستمرت ولايته ثلاثين سنة، ونظر في الديوان نيابة عن الوزارة مرتين؛ مرةً للقائم، ومرةً للمقتدي.

وقال: كنتُ آخذ الجزء في كُمِّي وأنزل أيام الحر إلى دجلة أتفيَّأ ظلال المشتيات وأُعيده، فلا أقوم إلا وقد حفظتُه، فانتهى بي السعي يوماً إلى مشتيات الحريم الطاهري، فجلستُ أقرأ، وإذا قد اطَّلع شيخٌ حسنُ الهيئة، وجاءني خادمٌ بعد ساعة فأقامني وأدخلني إلى دار كبيرة، وعلى بابها حواشٍ وخدم، وإذا بالشيخ جالسٌ، فسلَّمتُ عليه، فردَّ واستدناني ورحَّبَ بي، وكان عليَّ قميصٌ خامٌ وَسِخٌ، فسألني عن بلدي، فقلت: الدَّامَغان. فقال: ما تقرأ؟ قلت: مذهب أبي حنيفة. قال: من أين مؤنتك؟ فقلت: لا مؤنة لي. فسألني عن مسائل فأجبتُه، فقال: تجيء كلَّ خميس إلى هنا. ورمى إليَّ قرطاساً مكتوبٌ فيه شيئاً بخطِّه، وقال: تعرِضُ هذا على مَنْ فيه اسمُه، وتأخذ ما يعطيك، فأخذتُه ودعوتُ له وخرجتُ، وإذا على الباب رجلٌ جالس، فقلت له: من صاحب هذه الدار؟ فقال: ابن المقتدر. فأعطيتُه الكتاب، فقال: نَعمْ، هذا

خطُّ مولانا. وإذا فيه عشر كارات دقيق سميد، وعشر دنانير، وكانت الكارة تساوي ثمانية دنانير، فأعطاني الدقيق والدنانير، فاتَّسعتُ به، واشتريت الكتب والكسوة.

وكانت وفاتُه ليلةَ السبت الرابع والعشرين من رجب، وقد ناهز الثمانين، وكانت له جنازة عظيمة، نزع العلماء طيالسهم ومشوا فيها، وصلى عليه ابنه [أبو][1] الحسن، ودفن بداره بدرب القلايين، ثم نُقل إلى مشهد أبي حنيفة ﵁.

واتَّفقوا على فضله ودينه ورياسته ونزاهته وصدقه وثقته.

وبذل ابنُه [أبو] الحسن مالاً للخليفة ليولِّيه القضاء فلم يفعل.

محمد بن عمر[2]

ابن محمد بن أبي عقيل، أبو بكر، الكَرْخي، الواعظ، ولد سنة خمس وأربع مئة، وسافر إلى البلاد، واستوطن دمشق، وتوفِّي بها في رجب، ودُفن بالباب الصغير.

وكان فاضلاً فصيحاً ثقة ثبتاً صدوقاً صالحاً، ومن شعره: [من البسيط]

بَيِّضْ صحيفتَكَ السوداءَ[3] في رجبِ ... بصالحِ العمل المُنْجي من اللَّهَبِ
شهرٌ حرامٌ أتَى من أشهرٍ حُرُمٍ ... إذا دعا اللهَ داعٍ فيه لم يَخِبِ
طوبى لعبدٍ زكا فيهِ لهُ عَمَلٌ ... فكَفَّ فيه عن الفحشاءِ والرِّيَبِ

منصور بن دُبَيس[4]

ابن علي بن مَزْيَد، أبو كامل، بهاء الدولة، صاحب الحِلَّة، تُوفِّي بها، وقيل: بالسل[5].

وكانت إمارتُه ستَّ سنين، وقام بعده ولده سيف الدولة صدقة، وكانت وفاة منصور في رجب، وقيل: في سنة تسع وسبعين[6].

---

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب)، وهو موافق للمصادر التي أوردت الخبر.
(٢) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٣١-٤٣٢.
(٣) في الأصلين (خ) و(ب): البيضاء، والمثبت من تاريخ دمشق.
(٤) المنتظم ١٦/ ٢٥٢.
(٥) في (خ): بالليل، والمثبت من (ب).
(٦) تحرفت في (خ) إلى: وتسعين.

هبةُ الله بن عبد الله بن أحمد[١]

أبو الحسن، السِّيبي، البغدادي، ولد سنة أربع وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث، وكان شاعراً فصيحاً، وتُوفِّي في المُحرَّم، ودُفِنَ بباب حرب، وكان قد أدَّب المقتدي وأولاده، وكان ثقةً، وبلغ خمساً وثمانين سنة، وهو القائل: [من المتقارب]

رجوتُ الثمانينَ من خالقي ... لِما جاءَ فيها عن المصطفى
فبلَّغنيها وشُكراً لَهُ ... وزادَ ثلاثاً بها أردفا
وها أنا منتظرٌ وعدَهُ ... ليُنجِزَهُ فهو أهلُ الوفا

يحيى بن محمد بن طَباطَبا[٢]

أبو المُعَمَّر، العلوي، بقية شيوخ الطَّالِبيين، وكان هو وأخوه من نُسَّابهم، وكان فاضلاً ظريفاً، شاعراً أديباً، فقيهاً في مذاهب الشيعة، نزل بركة زلزل بربع الكَرْخ غربي بغداد، ويأوي إليه الطالبيون وغيرهم، وتُوفِّي في رمضان، وهو آخر من بقي بالعراق من أولاد طَباطَبا، ولم يُعقِبْ.

السنة التاسعة والسبعون وأربع مئة

في صفر قُتل سليمان بن قُتُلْمِش.

وفي ربيع الآخر ورد صدقة بن منصور بن دُبَيس[٣] إلى بغداد يريد قصد السلطان بأصفهان ليولِّيه أعمال أبيه.

وفيه عاد إبراهيم بن قريش من أصفهان إلى الموصل، وقد قرَّره السلطان على الموصل والجزيرة، وزوَّجه خاتون صفية عمته التي كانت زوجة مسلم، وكانت مقيمةً بالموصل.

وفيه تُوفِّي خطلج أدراز أميرُ الحاجِّ وصاحبُ الكوفة بقرية من قرى أصفهان، وكان يمنع الحاجَّ من التجارة ويوفرها على نفسه، ويأخذ منهم في الطريق أضعافَ ما كان

(١) المنتظم ١٦/ ٢٥٣.
(٢) المنتظم ١٦/ ٢٥٤.
(٣) تحرف في (خ) إلى: زيد، والمثبت من (ب).

يُقرِّره عليهم، وأما الرجَّالة فيسير بهم عدةَ فراسخ في مرحلة، فيموتون ظناً منه أنه معهم ما يأخذه، فكثُر الدعاء عليه، والشكوى منه، فعجَّل الله عليه.

وفيه عاد تاج الرؤساء أخو الوزير أبي شجاع ومختصٌّ الخادم من أصفهان [ومعهما منشور على طريق خراسان بعشرين ألف دينار كلَّ سنة، وبثلاثين ألف دينار حوالة على صدقة بن منصور معونةً للخليفة على ما يحتاج إليه من مؤنة لنقل بنت السلطان إليه.

وفيه ورد محمد بن مسلم بن قريش من أصفهان][1]. وقد عقد له السلطان على الرحبة والرقة وحرَّان والأعمال النميرية، وقَرَّر عليه في كلِّ سنة ما قرَّر على عمه إبراهيم بن قريش، وزوَّجه السلطان بأخته من الرضاع، وتلقَّاه الوزير أبو شجاع، وخلع عليه في بيت النُّوبة الخِلَعَ التامة؛ الفَرَجية، والعمامةَ، والمركبَ الذهب، والمنجوق، وذلك في سابع جمادى الآخرة، وتوجَّه إلى الرحبة.

وفي سابع ذي القعدة سار الحاجُّ على هيئة لم تكن أيام خطلج من زيادة وكثرة، وتحمَّل مع خُمارتِكين الحسباني، وبعث الخليفة معه صفائحَ من ذهب وفضة لتُطبَق على باب الكعبة، فأُطبقت، وقُلِعَ كلُّ ما كان في الحرم ممَّا عليه اسم صاحب مصر، وجرى من العلويين امتناعٌ، فمنعهم أمير مكة ابنُ أبي هاشم.

وفي ثالث ذي الحجة دخل السلطان ملك شاه إلى بغداد عائداً من الشام.

ذكر القصة:

لمَّا قُتِلَ سليمان بن قُتُلْمِش قتله تُتُش، ونزل على حلب، فتح له أهلُها الباب كراهية لابن الحنيني الهاشمي، وكان قد بنى فيها قلعةً يأوي إليها خوفاً من أهلها وهي قلعة الشريف، فاستنزله تُتُش، وحمله معه إلى دمشق، وكان السلطان قد قدَّم بين يديه الأمير بُزان الحاجب، فلمَّا وصل إلى الجزيرة ومعه سنقر الحاجب وعلِمَ تُتُش، عاد إلى دمشق، ومضى[2] أُرْتُق بك إلى بيت المقدس، وكان تاج الدولة تُتُش قد سلَّمه إليه، وجعل أهله وماله في محراب داود عليه السلام، وسار السلطان في جمادى الآخرة من

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) بعدها في (خ) زيادة: إلى.

أصفهان، ووصل إلى تكريت تاسع رجب، وصنع له مؤيد الملك بن نظام الملك سِماطاً بهاءً[١] وحضره السلطان، وكانت تكريت بيد مؤيد الملك، وسار من الغد إلى الموصل، ولقيه في طريقه قومٌ من العرب، وسألوه أن يُعطيَهم أماناً لمن في الجزيرة، فأعطاهم نُشَّاباً يُفرِّقونه في حِلَلهم، لئلا يتعرَّض لهم أحدٌ، وجاءه بدوي فقال: يا سلطانَ العالم، أخذ بعضُ الغلمان رمحي. فأمر الشاوشيَّة بالبحث عنه، فأحضروا الغلام والرمح بيده، فأمر بقطع يده، وقال للبدوي: ضَعْها على رأس الرمح، وطُفْ بها في الحِلَل ليطمئنُّوا. ففعل، وسار من الموصل يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب، وجاء أهل الرُّها في بذل تسليمها، فأنفذ إليها أحد العمداء، وكان الفردوس الذي بأنطاكية قد عامل أهلَها بما عامل به أهل أنطاكية، وسار السلطان إلى قلعة جَعْبَر، وكان بها لصوصٌ يقطعون الطريق، فعصَوا عليه، فقاتلهم، وخرجوا إليه من الباب، واشتدَّ القتال، فما شعروا إلّا بثلاثةٍ من الغلمان قد صَعِدوا السُّور من مكان ما كان يُظَنُّ أنَّ مخلوقاً يصعد منه، فبهت الخارجون، ونادى الغلمان بشعار السلطان، وحملَ العسكر، فحالوا بين المقاتلة والباب فقتلوهم، وقُتِلَ جَعْبَر ومَنْ كان بها من المفسدين، وصَعِدت زوجة متقدِّمهم إلى رأس القلعة، وألقَتْ نفسَها إلى الأرض، فانكسرَتْ ساقُها وسلِمَت، وبلغ السلطان فأحضرها، وقال لها: لِمَ خاطرتِ بنفسكِ؟ فقالت: خِفْتُ الفضيحة، فاخترتُ القتلَ عليها. فعجب وقال: من [أين][٢] أنت؟ فقالت: من دمشق. فأمر بحملها إلى أهلها.

وسار السلطان إلى حلب، فنزل إليه من القلعة سالم بن مالك العقيلي، وكان بها من قبلُ مسلم بن قريش قد عصى على تُتُش وغيره، وحفظ القلعة، وشكر السلطانُ له ذلك، فأعطاه قلعة جَعْبر، فهي تُعرَفُ ببني مالك، وأعطاه عانة وهيت، وجاءت رسل تُتُش إلى أخيه بإظهار الطاعة، وسأل أن يكون مقيماً بإقطاعه أو ينصرف إلى مكان يأمن فيه، فأجابه السلطان بما يُطيِّب قلبه، وسار السلطان إلى أنطاكية، فخرج إليه العميد نائب سليمان بن قُتُلْمِش، وأخذ الأمان لبني سليمان وأهل البلد، ورحل السلطان إليها

(١) أي: ابتهاجاً.
(٢) مابين حاصرتين من (ب).

يوم الجمعة غرة رمضان، وأبقى العميد على حاله، وأضاف إليه أحدَ الحُجَّاب شحنةً له، وأخذ معه ولد سليمان وأهله، وأقطعهم إقطاعاً بخراسان، وجاءه ولد أبي الحسن ابن منقذ صاحب شَيْزَر طامعاً، فأبقاه عليها، وجاءه ابن ملاعب صاحب حمص بخيلٍ وهديةٍ، فأقرَّه على عمله، وتقدَّم إليه بمنع من يمضي من عسكره إلى تُتُش، وكان قد تسرَّب منهم إليه عدد كثير، ولمَّا قطع السلطان الفرات مضى(١) أُرْتُق إلى القدس، ثم مضى إلى الرمل، فنزل الجفار مستوحشاً من السلطان، واتَّفق الغلاء في عسكر السلطان وعدم الميرة، فبلغ الخبزُ كلَّ اثني عشر رغيفاً بدينار، ومكوك شعير بدينار، وغرارة تبن بثلاثة دنانير، فنفقت الخيل والجمال والبغال، وهلكت الأموال والأثقال، ورحل عدد كثير من العسكر، وعادوا على أقبح صورة، حدروا ما بقي من الأثقال في الفرات إلى بغداد، وانكفأ السلطان راجعاً، ورجع أهل الرُّها عما كانوا عليه من الطاعة؛ لأن العميد الذي ولَّاه عليهم استقصى [أموالهم](٢) فنفروا منه، وقبضوا على الأرمن المرتبين في البلد مع الشحنة الذين سلَّموا البلد إلى السلطان، وأخرجوا العميد من البلد، فأقطع السلطانُ للأمير بُزان الرُّها، فنزل عليها وحاصرها، فسلَّمها إليه رجلٌ تاجرٌ نصرانيٌّ من أهلها - يقال له: ابن كدانا - في ذي الحجة، فدخلها، وخرج الوزير فخر الدولة من ميَّافارقين، فتلقَّى السلطان على دارا(٣)، وحمل إليه أموالاً كثيرةً من أموال بني مروان، ورفع عليه العميد أبو علي الذي كان يتعرَّف أحوال البلاد المروانية، وقال: إن ابن جَهير اقتطع الأموالَ والجواهر والأمتعة لنفسه، وكثُرتِ السِّعايات به والشناعات عليه، فعُزِلَ عنها، ووليها العميد المذكور، وسار إليها، وسار السلطان حتى نزل بعَقَرْقُوف، فخرج إليه أبو شجاع والخدم ووجوه الناس، وعظَّمه الخليفةُ أكثرَ ما جرت به العادة، بعث له الإقامات الكثيرة، فقيل: إنه كان يُعلِّق كلَّ يوم على خيله أربعةَ أكرار، وصنع له الخليفة سِماطاً عظيماً دخله ألفا رأس، وحملاناً ودجاجاً وحلواء، فجلس عليه قليلاً، ثم قام وانتهبه الضعفاء والحواشي.

---

(١) بعدها في (خ) زيادة: إلى.

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

(٣) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين. معجم البلدان ٢/ ٤١٨ .

ودخل عليه الوزير أبو شجاع فسلَّم عليه عن الخليفة، وأدَّى رسالةً تتضمَّن السرور بقدومه، فجثا على ركبتيه، وقدَّم له الوزيرُ سُبحةً فيها جواهر قيمة، فسُرَّ بها، فأومأ إلى تقبيل الأرض، وركب أبو شجاع، وخرج نظام الملك في صحبته وعظَّمه، وركب السلطان من عَقَرْقوف في اليوم الثالث من ذي الحجة، ودخل بغداد، ونزل بدار المملكة، وقد امتلأت بغداد بالناس من الجانبين يدعون له ويضِجُّون، وهو يردُّ عليهم لا يمنعهم من المشي بين يديه.

وكان السبب في مجيئه إلى بغداد خاتون زوجته، فإنها ألزمَتْه لتنقل ابنتها إلى الخليفة، وأنفذت من الموصل إلى أصفهان مَنْ يُحضِر الجهاز إلى بغداد، وضرب نظام الملك سُرادِقَه بالزاهر ومعسكره حتى يقتدي به العسكر ولا ينزلون في دار أحد، فلم يتجاسر أحدٌ أن ينزل في دار أحد، وكان العوامُّ يدخلون على السلطان متُظلِّمين وشاكين، فيكشف مظالمهم، ويزيل شكواهم، وكان النساء يمشين بين الخيام لا يقدر[1] أحدٌ من العسكر من التعرُّض لهم، ولم يروا مثلَ هذا [الأمن][2] ولا مثلَ هيبة هذا السلطان، وكان في جملة [عسكر] السلطان فخر الدولة ابنُ جَهير وولدُه مثلَ بعض الناس، وما انتفعا بإزالة ملك بني مروان، ولم يدخل بغداد سوى الأمراء والحُجَّاب والخواص، ومَنْ سواهم تفرَّقوا في البلاد.

وكان أهل بغداد قد خافوا من زيادة الأسعار، [فادَّخروا الأقوات، فلمَّا انصرف العسكر رخصت الأسعار]، وركب السلطان إلى قبر أبي حنيفة فزاره، وإلى قبر معروف ومقابر الشهداء، والعوامُّ بين يديه يضِجُّون له بالدعاء، ومضى إلى قبر موسى بن جعفر إلى الكوفة يوم الثلاثاء نصف ذي الحجة وزار المشهد، وإلى مشهد الحسين رضي الله عنه، وفرَّق في المشهدين الأموال، وأمر بعمارة ما دُثِرَ[3] من السور، [وبإجراء نهرين إلى المسجدين]، وفعل نظام الملك في هذه المشاهد والصدقة على العلويين أعظم ممَّا فعل السلطان.

---

(١) في (ب): يقدم.

(٢) مابين حاصرتين هنا وفي المواضع الآتية من (ب).

(٣) في (ب): درس.

وفي ليلة الاثنين سابع ذي الحجة مضَتْ والدة الخليفة وعمَّتُه إلى دار المملكة إلى خاتون، فنزلت إليهما وخدمَتْهُما، وضربت لهما سرادقاً إلى الدار، وصعدتا إلى الدار، ثم نزلتا وهي معهما، وانحدرت إلى دار الخليفة، وحمل السلطانُ إلى الخليفة عشرين ألف دينار، ومئةً وخمسين ثوباً ديباجاً وخيلاً.

وفيه وصل نظام الملك إلى حضرة الخليفة في الليل، والتقاه أبو شجاع الوزير، والخدمُ والخواصُّ، وبين يديه الشموع، والخليفةُ جالسٌ في الشُّبَّاك، فقبَّل الأرض مراراً، وسأله تقبيلَ يده، فأخرجها الخليفةُ من الشُّبَّاك فقبَّلها ووضعها على عينيه، وخاطبه بما شرح به صدرَه، وأدَّى رسالة السلطان وانصرف.

وفيه استغاثت امرأة إلى السلطان وقالت: صَعِد البارحةَ فرَّاشٌ أعجميٌّ سطحي وهو نازلٌ في جواري، فانتهرتُه وقلت له: لئِنْ لم تنزل لأستغيثَنَّ غداً إلى السلطان. فسبَّ السلطان، وغصبني على نفسي. فسيَّر مَنْ أحضره، فقال: اخصوه؛ لما فعل بها، واقطعوا يدَه ورِجلَه؛ لِتَسلُّقه عليها، ولسانَه؛ لذِكْرِه لنا. ففُعِلَ ذلك به، وحُمِلَ إلى المارستان، فمات بعد ثلاث.

قال المصنف رحمه الله: هذا آخر تاريخ محمد بن هلال الصابئ، ويُسمى «عيون التواريخ».

وفيها خلع الخليفةُ على زعيم الكُفاة أبي منصور بن المفرِّج، وقلَّده المظالم، وأزال المُكوس، وأخرب المواخير، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.

وخرج المقتدي يوماً يتمشَّى في داره وفيها صناع، وإذا بثلاثة قد جاؤوا إليه، فقبَّلوا الأرض، فخاف منهم وقال: ما أنتم؟ قالوا: مظلومون، ولنا على هذا الباب ثلاثة أشهر، ماكان لنا مَنْ يوصِلُنا، فتحلَّينا ودخلنا في صورة روزجاريَّة. قال: ومَنْ ظلمكم؟ قالوا: ابن زريق ناظر واسط. فتقدَّم من ساعته بإيضاح الحال، فإن كان كما قالوا فيُعزلُ ابنُ زريق ويصعد مُنكَّلاً به، ثم تقدم إلى صاحب المظالم أن لا يكتم عنه حالَ أحدٍ من الرعية [1].

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢٥٦-٢٥٧ .

وفيها ولى نظامُ الملك الشريفَ العلويَّ الدبوسيَّ النظامية بعد موت أبي سعيد المتولي، وكان فاضلاً في الجدل والفقه.

وصاد السلطانُ في سفرته أربعةَ آلاف غزال ـ وقيل: عشرة آلاف ـ فبنى بها منارة بين مشهد النجف والكوفة وسمَّاها أمَّ القرون، وبنى أخرى بأصبهان على مثالها.

وقيل: إنما فعل ذلك في السنة الآتية.

وفيها تُوفِّي

خُتْلُغ بن كنتِكين

أبو منصور، أمير الكوفة والحاج، ذمَّه محمد بن هلال الصابئ، وذمَّ سيرته. وكان شجاعاً، وله وقائع مع العرب بالبرية، وكانوا يخافونه، وكان محافظاً على الصلوات في جماعة، ويختم القرآن الكريم[1] في كل يوم، ويختصُّ بالعلماء والقُرَّاء، وله آثار جميلة في المشاهد والمساجد والجوامع والمصانع بطريق مكة والمدينة، ولبث في إمارة الحاجِّ اثنتي عشرة سنة، وكانت وفاته في جمادى الأولى، وتأسَّف عليه نظام الملك لمَّا بلغه موته، وقال: مات ألف رجل[2].

سليمان بن قُتُلْمِش[3]

هو ابن عمة السلطان. وقيل: هو من التركمان الناوكية الذين نزلوا الشام. وقيل: هو جد ملوك الروم، وفتح عدةً من بلدان الروم، وآخر ما فتح أنطاكية، وكان قد حاصر حلب ورجع عنها، وقَتَلَ مسلم بن قريش في حربه، وجاء تاج الدولة تُتُش فحصر حلب، وأخذ معه الشريف إلى دمشق، وعاد ابن قُتُلْمِش فنزل على حلب، وجاء تُتُش وأُرْتُق من دمشق والتقوا، فاقتتلوا في آخر أعمال حلب قريباً من المكان الذي قُتِلَ فيه مسلم، فجاء سليمانَ سهمٌ في وجهه فوقع من فرسه ميتاً، فدُفِنَ إلى جانب مسلم، وكان بينهما ستة أيام.

(١) بعدها في (خ) زيادة: القديم.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٦٢ .

(٣) السير ١٨/ ٤٤٩ .

ويقال: إن تاج الدولة عاد إلى حلب، ففتحوا له باب البلد فدخله، وقد بقي سالم ابن مالك في القلعة حتى سلَّمها إلى ملك شاه، وعاد أصحاب سليمان إلى أنطاكية.

صافي(١)

الخرقي، الخادم، عتيق القائم بأمر الله، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان ورعاً، صاحبَ معاملاتٍ وصدقاتٍ وإحسانٍ إلى الناس، ولمَّا احتضر أعتَقَ عبيدَه وإماءه، وأوصى لهم بجزء من ماله، وأجاز ذلك المقتدي.

ولمَّا مات أمر المقتدي بحمل تابوته إلى بين يديه فصلَّى عليه، وحُمِلَ إلى الرُّصافة فدفن بتربة الطائع.

عبد الله بن أحمد(٢)

ابن محمد بن عبدالله بن عبد الصَّمد بن المهتدي بالله، الخطيب، أبو جعفر، كان صاحبَ مروءة، نبيلاً، جليلاً، فاضلاً، خطيباً، فصيحاً، يروي الأخبار والحكايات، حسنَ المحاضرة، وكانت وفاته في شعبان، ودُفن عند جامع المنصور.

علي بن فضَّال بن علي(٣)

أبو الحسن، المغربي، القيرواني، كان فاضلاً، له النَّظم والنَّثر، مات بغَزْنة في ربيع الأول، ومن شعره: [من السريع]

إنْ تُلْقِكَ الغُربَةُ في معشرٍ ... قد أجمعوا فيكَ على بُغضِهِمْ
فدارِهِمْ ما دُمتَ في دارِهِمْ ... وأرضِهِمْ ما دُمْتَ في أرضِهِمْ

وقال أيضاً: [من السريع]

كأنَّ بَهرامَ وقد عارَضَتْ ... فيهِ الثُّريا نظرَ المُبصِرِ
ياقوتةٌ يعرِضُها بائعٌ ... في كفِّهِ والمشتري مشتري

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٦٢ .

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٦٢، وفيه أبو جعفر أبو الفضل.

(٣) المنتظم ١٦/ ٢٦٣ ، ومعجم الأدباء ١٤/ ٩٠-٩٨ . وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٥٢٨ .

علي بن المُقلِّد[(١)]

ابن نصر بن منقذ بن محمد بن مالك بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار[(٢)] بن زياد ابن رغيب[(٣)] بن مكحول بن عمر بن الحارث بن علي بن عامر بن مالك بن أبي مالك ابن عوف [بن كنانة][(٤)] بن بكر بن عُذرة بن زيد اللات بن رُفيدة بن ثور [بن كلب] بن وَبْرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن حِمْيَر بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حِمْيَر بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، الأمير، سديد الملك، عز الدولة، صاحب شَيْزَر.

وذكره ابن عساكر فقال: هو علي بن المقلِّد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ[(٥)] بن نصر بن هاشم، أبو الحسن، الكِناني.

قال الأمير أبو عبدالله محمد بن الأمير أبي سلامة مرشد بن علي بن المُقلِّد بن نصر ابن منقذ: كان جدي الملك أبو الحسن علي بن المُقلِّد ممن كان يُنسب إلى عمل الشعر، وكان من أبلغ أهل الشام في معرفة اللغة والنحو، وكان بينه وبين ابن عمار صاحب طرابلس مودةٌ وكيدةٌ ومكاتبات، وسببه أنه كان له مملوك يسمى رسلان، وكان زعيمَ عسكره، فبلغه عنه ما يكره، فقال له: اذهَبْ عني وأنت آمن على نفسك، فقصد ابنَ عمار إلى طرابلس، وسأله أن يسأل جدي في ماله وحرمه، فسأله، فأمر بإطلاقهم، وكان قد اقتنى منه مالاً كثيراً، فلمَّا خرج الرسولُ بالمال والحريم لحقه جدي، فظنَّ أنه قد بدا له، فقال: غدرتَ بعبدك ورغبتَ في ماله؟ فقال: لا [واللهِ][(٦)] ولكن لكلِّ أمر حقيقة، حطُّوا عن الجمال والبغال أحمالها. فحطُّوا، فقال: أبصروا ما عليها. فنظروا فإذا في قدور النحاس خمسةٌ وعشرون ألف دينار، ومن المتاع ما يساوي مثلها وزيادة،

---

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ٢٤٩-٢٥٢، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٠-٢٢٦.

(٢) تصحفت في (خ) إلى: نزار.

(٣) في الأصلين (خ) و(ب): رغيبة، والتصويب من مصادر الترجمة وكتب التراجم.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب)، وهو موافق لما في المصادر. وينظر الاستيعاب ص٢٤٢، والإصابة ١/ ٤٥، وأسد الغابة ١/ ٧١.

(٥) تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: سعد، والتصويب من تاريخ دمشق وكتب التراجم.

(٦) مابين حاصرتين من (ب).

فقال جدي للرسول: أبلِغ ابنَ عمار سلامي، وعرِّفه بما ترى؛ لئلا يقول رسلان: إنني أخذتُ ماله.

ثم إنَّ جدي زارَ ابنَ عمار، وأقام عنده مدة، ولمَّا رحل إلى حصنه أنشد: [من البسيط]

أحبابنا لو لقيتُم في مُقامِكُمُ ... من الصَّبابةِ ما لاقيتُ في ظَعَني
لأصبحَ البحرُ من أنفاسِكُمْ يَبَساً ... كالبَرِّ من أدمُعي ينشَقُّ بالسُّفُنِ

وكان بينه وبين صالح بن محمود صاحب حلب مودة، وكانا أخوين من الرَّضاع، ومن شعره: [من البسيط]

تجني وتعرِفُ ما تجني فأُنكِرُهُ ... وتدَّعي أنَّهُ الحُسنى وأعترِفُ
وكم مُقامٍ بما يُرضيكَ قمتُ على ... جمرِ الغضا وهو عندي روضةٌ أُنفُ

وقال أيضاً: [من البسيط]

إذا ذكرتُ أياديكَ التي سلفَتْ ... وسوءَ فعلي وزلَّاتي ومُجْتَرمي
أكادُ أقتلُ نفسي ثم يمنعُني ... علمي بأنك مجبولٌ على الكرمِ

وقال: [من البسيط]

ألقى المنيَّةَ في درعين قد نُسجا ... من المنيَّة لا من نسجِ داودِ
إنَّ الذي صوَّرَ الأشياءَ صَوَّرني ... ناراً من الناس في بحرٍ من الجودِ

وقال: [من السريع]

لا تعجلوا بالهجر إنَّ النَّوى ... يحملُ عنكُمْ مِنَّةَ الهَجْرِ
وظاهِرونا بوفاءٍ فقَدْ ... أغناكُمُ البَينُ عن العُذرِ

قال المصنف رحمه الله: وقد وقع لي بيتان في هذا المعنى أرشَقُ من هذين، وهما: [من السريع]

أحبابَنا كم تنجِتون لي ... ذنباً وكم أدأبُ في العُذْرِ
ولا تعجلوا بالهجر إنَّ النَّوى ... يحملُ عنكُمْ كُلفَةَ الهَجْرِ

وكانت وفاته بشيْزَر. وقيل: إنه مات سنة خمس وسبعين، وهو وهم.

ولمَّا مات قام ولدهُ نصر بن علي مقامه، وتُوفِّي سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

محمد بن أحمد(١)

أبو علي، التُّسْتَري، كان متقدم البصرة، وله مراكب تعمل في البحر، ثم ترك، وسمع الحديث، وتوفي في رجب، وتفرَّد برواية «سنن أبي داود» عن ابن عمرو، وكان فصيحاً، صحيحَ السماع، ثقةً.

محمد بن محمد بن أحمد بن المسلم(٢)

أبو علي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وتُوفِّي في رمضان، ودُفن بباب حرب، وكان زاهداً يقيم أياماً، لايتكلم إلَّا فيما يعنيه.

محمد بن محمد بن علي(٣)

أبو نصر، العباسي، أخو النقيب الكامل، ولد في صفر سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، وسمع الحديث، وتزهَّد في عنفوان شبابه، وانقطع في رباط أبي سعيد الصوفي، ثم انتقل إلى الحريم الطاهري، وتُوفِّي في جمادى الآخرة، وصلَّى عليه أخوه الكامل، ودُفِنَ بمقابر الشهداء بباب حرب عن ثلاث وتسعين سنة، وكان سيداً، فاضلاً، صدوقاً، ورعاً، ثقةً.

محمد بن عبد القادر(٤)

ابن محمد بن يوسف، أبو بكر، البغدادي، سمع الكثير، وكان صالحاً ورعاً، لا يخرج من بيته إلا في أوقات الصلوات، وتُوفِّي في ربيع الأول، ودُفن بمقبرة باب حرب.

وكان عالماً متقناً(٥)، ذا ورعٍ وتُقى، كثير السماع، متشدداً في السُّنة، حضر أخوه مجلس ابن القشيري فهجره.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٦٤ .

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٦٤ ، ووقع فيه: بن المسلمة، بدل: بن المسلم.

(٣) المنتظم ١٦/ ٢٦٤-٢٦٥ .

(٤) المنتظم ١٦/ ٢٦٥ .

(٥) في (خ): متثبتاً، والمثبت من (ب) وهو الموافق لما في المنتظم.

هبة الله بن القاضي أبي الحسن(١)

محمد بن علي بن المهتدي، الخطيب بجامع المنصور، ولد سنة تسع عشرة وأربع مئة، وولي القضاء بعد أبيه، ووقعت فتنة عظيمة بين السنة وأهل الكَرْخ على المذهب، وعجز عنها الشحنة والغلمان، وقُتِلَ من الفريقين عددٌ كبير، فركب فرسه ووقف بين الصفين ليردَّهم، فجاءه سهمٌ عائرٌ فوقع فيه فمات، وذلك في يوم الجمعة تاسع عشر صفر، فحُمِلَ إلى القبة الخضراء عند جامع المنصور، فدُفِنَ عند أبيه، وكان سيداً، صالحاً، ثقةً.

السنة الثمانون وأربع مئة

فيها بعث تُتُش أخو السلطان إليه رسولاً يقول: قد استولى المصريون على الساحل، وضايقوا دمشق، وأسأل السلطان أن يأمر آق سنقر وبُزان أن يُنجداني، فكتب السلطان إليهما بأن يُنجداه، وكان بُزان بالرُّها، وآق سنقر بحلب، وكانت تقرَّرت ولاية حلب له من قِبَلِ ملك شاه، وأحسن السيرة فيها، وبسط العدل، وحمى السابلة، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وأباد المفسدين، وأبعد أهل الشر، فتواترت القوافل، ودرَّ الارتفاع أضعافَ ما كان.

وفيها رفع السلطان المكوس ببغداد، وكُتبت ألواحٌ، وأُلصقت على الجوامع، وفيها اسم الخليفة والسلطان.

وفي المُحرَّم بعث الخليفةُ ظفر الخادم يستدعي السلطان إلى دار الخلافة، وبعث معه بالطيار، فقام السلطان من دار المملكة، وقبَّل الأرض، ونزل في الطيار، وجاء إلى باب العَزْبة، وقد هُيِّئ فرسٌ من خيل الخليفة، وسَرْجُه حديدٌ صيني، ولُبده أسود، فركبه ونزل عند باب صحن السُّلَّم، ومشى إلى الخليفة، وقبَّل الأرض مراراً، ونظام الملك قائم مشدود الوسط بين يدي الخليفة يقول للأمير بالفارسية: هذا أمير المؤمنين، ويقول للخليفة: هذا العبد الخادم فلان بن فلان، وله من العساكر كذا وكذا، والأمير

(١) المنتظم ١٦/ ٢٦٥-٢٦٦.

يُقبِّل[١] الأرض، وكانوا أربعين أميراً، والسلطان جالس على كرسيٍّ بين يدي الخليفة، وجاء أمير يقال له: آيْتِكين خال السلطان، فاستقبل القبلة، وصلَّى بإزاء الخليفة ركعتين، واستلم بيديه الحيطان، وأمر الخليفةُ بإفاضة الخِلَع على السلطان، فقام إلى المكان الذي فيه الخِلَع، فخلع عليه، ورجع وقد أثقله التاج والطوقُ والسِّواران، وقلَّده سيفين، وكُمُشْتِكينَ الجندار يرفع ذيله عن يمينه، والكوهراني يرفعه عن شماله، وجاء إلى بين يدي السُّدَّة وبينه وبين الخليفة الشباك، فقبَّلَ الأرض دفعات، وسأل الخليفةَ أن يُقبِّلَ يدَه فلم يفعل، وأعطاه خاتمه، فقبَّله ووضعه على عينيه، وقال له أبو شجاع الوزير: ياجلال الدولة، هذا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، الذي اصطفاه الله بعزِّ الإمامة، واسترعاه الأمة، فقد أوقع الوديعة عندك موقعها، وقلَّدك سيفين لتكون قوياً على أعدائك وأعداء الله تعالى، وخرج وبين يديه ثلاثةُ ألوية، ونثرت الدراهم والدنانير، وقُرِئ صدرٌ من عهده، وقُرِئ الباقي في داره من الغد، وجلس للهناء، وبعث الخليفة بالأموال والهدايا.

وفيه دخل نظامُ الملك مدرسته ولم يكن رآها، فجلس بها، وأملى الحديث، وسمع عليه، وسأل عن العلماء ببغداد، فلم يبقَ مَنْ يُشار إليه، وفرَّق الخِلَع والمال في الفقهاء وأحسن إليهم.

وفي مستهلِّ صفر زُفَّت ابنةُ السلطان إلى الخليفة، وأمر بضرب القباب وتزيين البلد من الجانبين، ونُقل الجهازُ على مئة وثلاثين جملاً، وبين يديه العساكر والخدم، ونثر الناس عليه الدراهم والدنانير، فلمَّا كان من الغد نُقِل شيءٌ آخر على أربعة وسبعين بغلاً، وكانت الخزانة اثني عشر صندوقاً من فضة، وبين يديها ثلاثون فرساً جنائب، ونُقلت خاتون في الليل في محَفَّة مُرصَّعة بالجواهر، وقد أحاط بها مئتا جارية من خواصِّها وبين يديها نظام الملك وأبو سعد المستوفي والأمراء، وبِيَد كلِّ واحد منهم شمعة، فدخلت دار الخليفة.

---

(١) في (ب): والأمراء يقبِّلون.

وفي رواية: نُقِلَ جهازُها في ثلاثة أيام[١] على الجمال والبغال أثواب الديباج، وفي أعناقها أرسان الحرير وقلائد الذهب، والصناديق مملوءة ذهباً وفضةً وجواهر.

وجاءت والدة الخليفة وعمته إلى دار المملكة في الليل، وضربوا السرادق من دجلة إلى الدار، فنزلت خاتون وقبّلت الأرض بين أيديهما، وسلمت إليهما ابنتَها، وأصبح الخليفة، فعمل لأصحاب السلطان سِماطاً لم يُعمَلْ مثلُه، استعمل فيه أربعون ألف منّ من السكر، وخلع على خواص أصحاب السلطان، وكان السلطان قد خرج ليلة الزفاف إلى الصيد فأقام ثلاثاً.

وفي صفر خرج السلطان ومعه نظام الملك نحو أصبهان، وخرج الوزير أبو شجاع معه مُودِّعاً إلى النهروان، وعاد.

وفيه وُلِدَ للسلطان ولدٌ سمَّاه محموداً، وولي الأمر بعد أبيه، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي شعبان وردت كتب السلطان إلى الخليفة يسأله أن يخطب لابنه الأمير أحمد بن ملك شاه من بعد ذكر أبيه، وكان السلطان قد جعله وليَّ عهده، ومشى في ركابه، فتقدَّم الخليفةُ إلى خطباء المنابر بذلك، ونُثِرت الدنانير على الخطباء.

وفيه زُلزلت هَمَذان وأعمالُها زلزلةً عظيمةً دامت سبعة أيام، فهلك تحت الردم خلقٌ كثير، وهرب الناس إلى البرية.

وفي ذي القعدة ولِدَ للخليفة من بنت السلطان ولدٌ أسماه جعفراً، وكنَّاه أبا الفضل، وجلس الوزير للهناء بباب الفردوس، ونُصِبت القباب، وزُيِّنت بغداد من الجانبين، ونُثِرت الدنانير والدراهم.

وفيها بنى تاج الملك أبو الغنائم المدرسة التاجية بباب أَبْرز، وضاهى بها النظامية، ووقفها على الحنفية، وقيل: على الشافعية، ودرَّس بها [في][٢] أول السنة الآتية أبو بكر الشاشي[٣].

---

(١) في (خ): أعوام، والمثبت من (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) تنظر هذه الأخبار بنحوها في المنتظم ١٦/ ٢٦٧-٢٧١ .

وفيها توفِّي

شافع بن صالح بن حاتم(١)

أبو محمد، الحنبلي، الفقيه، تفقَّه على القاضي أبي يعلى، وتُوفِّي في صفر، ودُفِنَ بباب حرب، وكان صالحاً زاهداً فاضلاً ثقة.

فاطمة بنت علي المؤدِّب(٢)

الكاتبة، برعت في الكتابة على طريقة ابن البواب، وكتب الأعيان على خطِّها، وأمرها الخليفةُ فكتبت كتاب الهدنة بين الديوان وملك الروم، وقالت: كتبتُ لعميد الملك الكُنْدَري ورقةً، فأعطاني ألف دينار.

سمعت الحديث، وتُوفِّيت في المُحرَّم، ودُفِنت بباب أَبْرز، وكانت صالحةً زاهدة.

محمد بن المقتدي(٣)

تُوفِّي بالجُدَري وقد قارب تسع سنين، وحزن أبوه عليه حزناً عظيماً، وجلس الوزير للعزاء في باب الفردوس ثلاثة أيام، ومنع الخليفةُ من ضرب الطبل في أوقات الصلوات، وغُلِّقت الأسواق، وبطلت المعايش، ثم برز توقيعُ الخليفة إلى الناس: إن أمير المؤمنين أول من اقتدى بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦] ولمَّا مات إبراهيم ولدُ النبي ﷺ، وذكر الحديث.

وقد عزَّى أميرُ المؤمنين نفسه بما عزَّى الله به الأمة بعد نبيِّه ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾الآية [الأحزاب: ٢١]، فإنا لله وإنا إليه راجعون تسليماً لحكمه، ورضًا بقضائه، فليعلم الحاضرون ذلك، وقد أذن لكم في الانكفاء مشكورين.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٧١ .

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٧٢-٢٧٣ .

(٣) المنتظم ١٦/ ٢٧٣ باختصار.

محمد [بن محمد] (١)

ابن زيد بن علي بن موسى بن جعفر [بن علي] بن الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين، الحسيني، ذو الكنيتين، أبو الحسن وأبو المعالي، ولد سنة خمس وأربع مئة ببغداد، وبها نشأ وسمع الحديث [الكثير](٢)، وسكن سمرقند، وصنَّف فأجاد.

وكانت له دنيا واسعة، فكان يملك نحو أربعين قرية بنواحي كَشّ، وكان يؤدي زكاة ماله، ويتنفَّل بالصدقة، فيبعث إلى جماعة من الأئمة بألف دينار وخمس مئة إلى كل واحد وعشرة آلاف دينار، ويقول: أنا لا أعرف الفقراء، ففرِّقوها أنتم عليهم.

وكان يرجع إلى عقل كامل، وفضل وافر، ودين متين.

ولمَّا اشتهرت عنه هذه الفضائل حسده قاضي سمرقند وما وراء النهر، فقال الخضر ابن إبراهيم ملك ما وراء النهر: إن له بستاناً ليس للملوك مثله. فبعث إليه: أريد أن أُبصرَ بستانك. فقال للرسول: قُلْ له: أنت تشرب الخمر، وهذا عمرتُه من المال الحلال لأجتمع فيه بأهل الزهد والدين. فأعاد الرسول عليه الجواب، وطلبه فاختفى، فأظهر الخضر أنه قد ندم، فظهر الشريف فقبض عليه، واستصفى أمواله وحبسه.

قال بعض وكلائه: فتوصَّلتُ إليه وقلت له: إنه يأخذ مالك بغير اختيارك، فأعطِه ما يريد وتخلَّص. فقال: قد طاب لي الحبس والجوع، وقد كنت أُفكِّر في نفسي منذ مدة وأقول: مَنْ يكون من أهل بيت رسول الله ﷺ لابُدَّ أن يُبتلى في ماله ونفسه، وأنا قد ربيتُ في النعم والدولة، فلعلَّ فيَّ خللاً، فلمَّا وقعت هذه الواقعة فرِحْتُ بها، وعلمتُ أنَّ نسبي صحيحٌ متصلٌ برسول الله ﷺ، فأنا أصبر ولا أفعل شيئاً إلا برضا الله تعالى، فمنعوه الطعام، فمات وأُخرج من القلعة، فأخذه ولدُه فدفنوه، فقبره ظاهر يُزار.

ورآه أبو العباس الطبري وهو في الجنة وبين يديه مائدة موضوعة عليها الطعام، قال: فقلت له: ألا تأكل؟ قال: لا، حتى يجيء ابني المطهر فإنه غداً يجيء، فانتبهت من نومي، فقُتِلَ ابنُه من وقت الظهر من ذلك اليوم.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٧٣، والزيادة الآتية منه ومن النسخة (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

محمد بن هلال[1]

ابن المحسن بن إبراهيم الصابئ، أبو الحسن، الملقَّب بغرس النعمة، صاحب التاريخ المسمى بـ«عيون التواريخ»، ذيَّله على تاريخ أبيه، وأبوه ذيَّل على تاريخ [ثابت ابن سنان، وثابت بن سنان ذيَّل على تاريخ][2] ابن جرير الطبري، فتاريخ الطبري انتهى إلى سنة اثنتين أو ثلاث وثلاث مئة، وتاريخ ثابت إلى سنة ستين وثلاث مئة، وتاريخ هلال إلى سنة ثمان وأربعين وأربع مئة وتاريخ غرس النعمة من سنة ثمان وأربعين وأربع مئة إلى سنة تسع وسبعين وأربع مئة.

وكان غرس النعمة فاضلاً، أديباً، مترسلاً، له صدقةٌ ومعروفٌ، وإحسانٌ كثير، ومروءةٌ ظاهرة، وكانت وفاته في ذي القعدة، ودُفِنَ في داره بشارع عوف غربي، ثم نُقل إلى الكوفة فدُفن بمشهد أمير المؤمنين، وخلَّف سبعين ألف دينار، وكان محترماً عند الخلفاء والوزراء والأكابر، وقد غمزه عبد الله بن المبارك السَّقطي، ضعيف.

أمير المُلثَّمين بمراكش والمغرب[3]

وكنيته أبو بكر بن عمر من ولد تاشفين، كان مجاهداً في سبيل الله تعالى، يركب في خمس مئة ألف من رجال الديوان والمطاوعة ويخطب للدولة العباسية، وكان مثل واحد من أصحابه يواسيهم بنفسه، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويقيم الحدود، ويلبس الصوف، وينصف المظلوم، ويعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية.

خرج في غَزاة، فلقي الفرنج وظهر عليهم، فبينما هو واقف إذ جاءه سهمٌ عائرٌ فذبحه، وبلغ نيِّفاً وستين سنة.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

(٣) المنتظم ١٦/ ٢٧٦ .

السنة الحادية والثمانون وأربع مئة

فيها سار السلطان طالباً سمرقند، وقطع جَيحون، وأخرج الخليفةُ أصحاب خاتون زوجته من حريم داره، فنزلوا بدار المملكة، وسببه استطالتُهم على العامة، فضجُّوا واستغاثوا إلى الخليفة، فخاف من فتنة.

وفيها شرع أهل باب البصرة يبنون القنطرة الجديدة، وثار عليهم أهل الكَرْخ، فكان أهل البصرة ينقلون الآجر في أطباق الذهب والفضة، وثارت الفتنة.

وفيها تُوفِّيت داية السلطان بحلب، كانت تأخَّرت عند قسيم الدولة آق سنقر، فجلس يوماً وبيده سكين، فأومأ إليها يداعبها، فخرجت من يده بغير قصده، فأصابت مقتلها، فماتَتْ، فحزن عليها حيث ماتَتْ بهذا السبب، وكانت قد أوصَتْ أن يُحمل تابوتُها إلى المشرق، فجهَّزها وخرج مع التابوت مرحلةً وعاد.

وفي رجب سار آق سنقر من حلب فنزل على شَيْزَر محاصراً لها، ونهب ربَضَها، فصالحه ولد أبي الحسن بن منقذ على مالٍ وأطاعه، فرحل عنها[1]، وحجَّ من العراق الوزير أبو شجاع، واستناب في الديوان ابنَه أبا منصور وطرَّاد بن محمد الزينبي.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن محمد[2]

ابن الحسن بن الخضر، أبو طاهر، الجواليقي، والد أبي منصور موهوب، كان شيخاً صالحاً متعبداً، من أهل البيوتات القديمة ببغداد، وكان جدُّه صاحبَ دنيا واسعة، وتُوفِّي في رجب فجأة.

---

(١) في (ب): عنه.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٧٨.

عبد الله بن محمد بن علي[1]

أبو إسماعيل، الهروي، الأنصاري، ولد سنة خمس وتسعين وثلاث مئة [وتُوفي بِهَراة][2] في ذي الحجة، وكان صائماً، متعبداً، زاهداً، ثقةً، سمع أبا الحسين بن بُشْران وغيره، وروى عنه الكَرْخي وغيره.

قلت: هذا مضمون ما ذكره المصنف رحمه الله، ومثله لا يخفى عنه محلُّ شيخ الإسلام الأنصاري رحمه الله عليه من العلم والعمل، فإنه كان كبيرَ الشأن، عظيمَ المحلّ، والعجَبُ من المصنف كونُه اقتصر على ما ذكره ولم يُنبِّه على شيء من مناقبه مع كثرتها.

عبد الواحد بن الفرج

أبو الرِّضا، المعرِّي، الشاعر، كان سليم الصدر، إلَّا أنه يأتي بديهة بالعجائب، استدعاه معز الدولة ثِمال بن صالح بن الزَّوقلية صاحب حلب، فوافاه جالساً على قُوَيق، فأنشده: [من الطويل]

رأيتُ قُويقاً إذْ[3] تجاوزَ حدَّهُ ... له زَجَلٌ[4] في جَرْيِهِ وضَجيجُ
وكان ثِمالٌ جالساً بشفيرهِ ... فشبَّهتُهُ بحراً لدَيهِ خليجُ

فقال له ثِمال: قد زعم الحلبيُّون أنَّ هذا ليس بشعرك.

ونظر إلى غرابين على نشزٍ، فقال: قُلْ فيهما بديهاً. فقال: [من الخفيف]

يا غُرابينِ أنتما سببُ البَيـ ... ـنِ فكيفَ اجتمعتُما في مكانِ
إنَّما قد وقفتُما في خُلُوٍّ ... لفراقِ الأحبابِ تشْتَورانِ
فاحْذَرا أنْ تُفرِّقا بين إلْفَيـ ... ـنِ فما تدريان ما تلقيانِ

فطرب ثِمال وأعطاه جائزة.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٧٨-٢٧٩ ، وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٧-٢٤٨. وينظر السير ١٨/ ٥٠٣ .

(٢) مابين حاصرتين من (ب) والمصادر.

(٣) في (ب): قد.

(٤) في (ب): جزل.

وكان بالمعرة قصرٌ عظيمٌ لبعض الملوك في محلة شيات، فأمر صاحب المعرة بنقضه ليأخذ حجارته يبني بها مكاناً آخر، فاجتاز المعرِّي بالقلعة وهم يخربونه، فوقف مفكراً، وأنشده بديهاً: [من الطويل]

مررتُ بقصرٍ في شياتٍ فساءني ... بهِ زجلُ الأحجار تحت المعاولِ
تناولَها عبلُ الذِّراع كأنَّما ... جرى الحربُ فيما بينهم حربُ وائلِ
فقلتُ لهُ شَلَّتْ يمينُكَ خَلِّها ... لمُعْتَبِرٍ أو زائرٍ أو مُسائلِ
منازل قومٍ(١) حدَّثتنا ديارُهُم ... ولم ألقَ أحلى من حديثِ المنازلِ

السنة الثانية والثمانون وأربع مئة

فيها بعث السلطان صواب الخادم يطلب ابنتَه من الخليفة، فإنَّ شكاويها قد كثُرت منه، وأنَّه معرضٌ عنها، فأذِنَ لها في الخروج، فقالت: أُريد ولدي أبا الفضل جعفر. فامتنع الخليفة من خروج الولد معها، فشدَّدت عليه، فأذن لها على كُره، فخرجت من بغداد يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأول، وأصحبها الخليفةُ النقيبين الكامل والطاهر وجماعةً من الخدم، وخرج الوزير أبو شجاع مُشيِّعاً للأمير أبي الفضل بين يدي مِحَفَّته إلى النَّهروان، وكان السلطان قد قطع النهر إلى سمرقند(٢).

وفي صفر كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السنة والشيعة، وسببها أنَّ أناساً من أهل البصرة كبسوا الكَرْخ [فقتلوا رجلاً وجرحوا آخر، فأغلقت أسواق الكَرْخ](٣) ورفع أهلُها المصاحف، وقُتِلَ بينهم خلقٌ كثير، وجاء خمارتاش [نائب](٤) الشحنة، فنزل قريباً من دجلة ليكفَّ الفريقين فما قدر، وكان أهل باب البصرة يزحفون وبين أيديهم سَبُعٌ أحمر قد زيَّنوه يقاتل وهم خلفه، وبعث الخليفة إليهم الخدم والخواصَّ والهاشميين والقضاة والأعيان والمشايخ، فلم يلتفتوا، ورفع العامَّةُ الصلبان على

(١) بعدها في (خ) كلمة مقحمة: قد.
(٢) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢٨١ .
(٣) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم ١٦/ ٢٨١-٢٨٢ والخبر فيه، لكن وقع في (ب): فقلت، بدل: فأُغلقت.
(٤) مابين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ٢٨٢ .

القصب، ونادوا: المستنصر يا منصور، ونادت الطائفة الأخرى: المسيحَ يا منصور، وتفاقم أمر الفتنة، وقُتِلَ من الفريقين نحوٌ من مئتين، وسبَّ أهلُ الكَرْخ أصحابَ رسول الله ﷺ، [وأزواجَه رضوان الله عليهم، وتعدَّوا إلى سبِّ رسول الله ﷺ][1] وكتب الخليفة إلى صدقة بن مَزْيَد بإنفاذ جيش، فبعث إليه بالعرب، واتفقوا مع الشِّحنة، فنقضوا الدُّور، وأحرقوا المحالَّ، وحلقوا الشعور، [وأحرقوا] ونهبوا أماكن المفسدين من الفريقين، فسكنت الفتنة.

وفي شوال ورد الخبر بموت خاتون بنت السلطان بأصبهان بالجُدَري، فجلس الوزير في العزاء بباب الفردوس ثلاثة أيام ـ وقيل: سبعة أيام[2] ـ وأخرج الخليفة أبا محمد التميمي وعفيف الخادم لتعزية السلطان.

ووردت الأخبار أن السلطان ملك شاه فتح سمرقند وأسر مِلِكَها ابن طنغاج، وكان زوج أخت السلطان، وله منها ثلاثة أولاد، فجعل الولايةَ لأحدهم واسمه أحمد، وأمر بالخطبة له على المنابر. وقيل: إن هذا أحمد مات سنة أربع وثمانين.

وفيها ولَّى السلطانُ عميدَ الدولة ابنَ جَهير ديار بكر بسعي نظام الملك، فمضى إليها ومعه زوجتُه زبيدة بنت نظام الملك، وكان مقصودُه بالولاية أَخْذَ مال أبيه فخرِ الدولة من الودائع العظيمة، فأخذها وأقام إلى سنة أربع وثمانين، فاستدعاه السلطان إليه، ومات أبوه سنة ثلاث وثمانين، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها عمرت المنارة بجامع حلب.

وفيها جهز بدر الجمالي عسكراً من نصير[3] الدولة الجيوشي، فنزل على صور وبها القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل، فسلَّمها إليه لمَّا لم يكن له به طاقة، وفتح صيدا وجُبيل وعكا، وكان لتُتُش بهذه البلاد أموال، فأخذها ونزل على بعلبك، وجاءه ابن ملاعب وخطب للمستنصر، وبعث تُتُش إلى آق سنقر بحلب وإلى بُزان بالرُّها وقال

---

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

(٢) الخبر إلى هنا في المنتظم ١٦/ ٢٨١ .

(٣) في (خ): نصر، والمثبت من (ب)، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٢٨ .

لهما: هذه البلاد التي أُخِذَتْ كان لي فيها ذخائر وأموال وقد أُخِذَتْ، وطلب منهما النجدة، فبعثا له عسكراً.

وفيها تُوفِّي

طاهر بن بركات بن إبراهيم(١)

أبو الفضل، القرشي، الخشوعي، من أكابر شيوخ دمشق.

قال ابن عساكر: سألتُ ولده إبراهيم بن طاهر: لِمَ سُمِّيتم الخشوعيين؟ فقال: لأن جدَّنا الأعلى كان يؤمُّ الناس، فمات في المحراب.

وكانت وفاة طاهر بدمشق، وكان صدوقاً ثقة.

عاصم بن الحسن(٢)

ابن محمد بن علي بن عاصم، أبو الحسين، ولد سنة سبع وتسعين وثلاث مئة،وتوفي في جمادى الآخرة، ودفن عند جامع المنصور، وكان ظريفاً شاعراً، فصيحاً أديباً، ثقة متقناً حافظاً، ومن شعره: [من الكامل]

لهفي على قوم بكاظمةٍ ... ودَّعْتُهم والركبُ مُعترِضُ
لم تتركِ العَبَراتُ مُذْ بَعُدوا ... لي مُقلةً ترنو وتغتمِضُ
رحلوا فطَرْفي دمعُهُ هَطِلٌ ... جارٍ وقلبي حشوُهُ مَرَضُ
وتعوَّضوا لا ذُقْتُ فَقْدَهمُ ... عنِّي ومالي عنهمُ عِوَضُ
أقرضتُهم قلبي على ثقةٍ ... بهم فما ردُّوا الذي اقترضوا
فَرَضوا على الأجفانِ أنهمُ ... لا تلتقي فَرَضُوا بما فَرَضُوا
أم أبرموا أمراً فإنَّهمُ ... بصدودِهم للعهدِ قد نَقَضُوا

وقال: [من الرجز]

أتعجبون من بياض لمَّتي ... وهجرُكُمْ قد شيَّبَ المفارقا

---

(١) تاريخ دمشق ٢٤/ ٤٤٩-٤٥٠ والمثبت منه ومن النجوم الزاهرة ٥/ ١٢٨ ، فقد تحرف اسم بركات في (خ) و(ب) إلى: ركاب.

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٨٦-٢٨٧ .

لـمَّـا رأيـتُ داركُـمْ خـالـيـةً ... مـن بـعـدمـا ثـوَّرتُـمُ الأيـانـقـا(1)
بـكـيـتُ فـي ربـوعِـهـا صـبـابـةً ... فـأنـبـتَـتْ مـدامـعـي شـقـائـقـا

وقال: [من الكامل]

مـاذا عـلـى مـتـلـوِّنِ الأخـلاقِ ... لـو زارنـي فـأبُـثَّـهُ أشـواقـي
وأبـوحَ بـالـشـكـوى إلـيـه تـذلُّـلاً ... وأفـضَّ خـتـم الـدَّمـع مـن آمـاقـي
فـعـسـاهُ يـسـمـحُ بـالـوصـالِ لـمـدنـفٍ ... ذي لـوعـةٍ وصـبـابـةٍ مـشـتـاقِ
أسـرَ الـفـؤادَ ولـم يـرِقَّ لـمـوثـقٍ ... مـا ضـرَّه لـو جـادَ بـالإطـلاقِ
يـا قـاتـلـي ظـلـمـاً بـسـيـف صـدودِهِ ... حـاشـاكَ تـقـتـلـنـي بـلا اسـتـحـقـاقِ
أسـقـيـتَـنـي دمـعـي ومـا يَـروى بـهِ ... ظَـمَـأي ولـكـن لا عَـدِمـتُ الـسـاقـي

وقال: [من الطويل]

وحرَّم غـمـضـي بـالـحـجـيجِ على منى ... غـزالٌ رأيـنـاهُ بـمـكـة مُـحـرِمـا
رمـى وَهـو يـسـعـى بـالـجِـمـارِ وإنَّـمـا ... رمى جمرةَ القلب المُعذَّب إذ رمى
ولـمَّـا تـفـرَّقْـنـا بـمُـنـعـرجِ الـلِّـوى ... وأنـجـدْتُ لا أرجـو الـلِّـقـاءَ وأتْـهـمـا
بـكـيـتُ عـلـى وادي الأراكِ ومـاؤُهُ ... مَـعـيـنٌ فـصـار الـمـاءُ مِـنْ عَـبْـرتـي دما

وقال: مرضتُ فغسلتُ ديوان شعري، وكان ذلك من المرض أيضاً.

علي بن [أبي] يعلى(2)

ابن زيد، أبو القاسم، الدَّبُوسي(3)، من أهل دَبُوسة بلدة بين بخارى وسمرقند، أقدمه نظام الملك إلى بغداد لتدريس النظامية بعد المتولي، كان فاضلاً عارفاً بالفقه والجدل والمناظرة، وكانت وفاته في شعبان [ببغداد](4).

---

(١) الأيانق: جمع ناقة. الصحاح (نوق).

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: البيوسي، وكذلك الكلمة الآتية: دبوسة، إلى: يبوسة، والتصويب من المصادر السابقة.

(٤) مابين حاصرتين من (ب) والمصادر.

السنة الثالثة والثمانون وأربع مئة

فيها تولى تُتُش على حمص وفيها ابن ملاعب، ومع تُتُش آق سنقر وبُزان، وقاتلوه مدةً، وقالوا: أنت نزلت إلى المصريين وخطبتَ لهم، فلمَّا ضايقوه طلب الأمان على نفسه وماله وأهله، فأعطوه، فنزل من القلعة، وتوجَّه إلى مصر، وتسلم تُتُش حمص، ثم أقام بمصر مدة وعاد إلى الشام، فدبَّر الحيلة على حصن فامية وملكه، وقدم أبو عبد الله الطبري بغداد في المُحرَّم ومعه منشور نظام الملك بالتدريس في النظامية، فدرس، ثم وصل عبد الرحمن الشيرازي ومعه منشور آخر، فتقرَّر أن يكون يذكر الدرس هذا يوماً، وهذا يوماً.

وفي ربيع الآخر خلع الخليفة على علي بن طِراد وولَّاه نقابة العباسيين بعد أبيه.

وفيها ظهر بالبصرة رجل مُنجِّم فادَّعى أنه المهدي، وكان من القرامطة، فاحتال حتى أحرق البصرة وهرب، فأتت النار على معظمها، واسمه بلبا، فآل أمرُه إلى أن حُمِل إلى بغداد، وأُشهِر على جمل، وصُلِب في السنة الآتية.

وفيها تُوفِّي

جعفر بن محمد

ابن جعفر بن المكتفي بالله، كان عاقلاً أديباً صالحاً، سمع الحديث، ومات في جمادى الآخرة، ودُفن بباب حرب عن ست وتسعين سنة.

علي بن محمد

القيرواني، كان فقيهاً فاضلاً شاعراً فصيحاً، وهو القائل: [من مجزوء الكامل]

ما في زمانِكَ ماجدٌ ... لو قد تأمَّلْتَ الشَّواهِدْ
فاشهَدْ بصدقِ مقالتي ... أولا فكذِّبني بواحِدْ

محمد بن محمد بن جَهير[1]

أبو نصر، فخر الدولة، الوزير، أصله من الموصل وبها وُلد، وقَدِم ميَّافارقين، وكتب إلى القائم يسأله أن يستوزره، فأجابه، ثم نقم عليه ونفاه إلى الحِلَّة ثم أعاده،

(١) المنتظم ١٦/ ٢٩٠. وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٦٠٨.

ووَزَر للمقتدي فنفاه، ولابنه عميد الدولة، فمضى إلى السلطان، وتحدَّث على بني مروان، وأطمعه في مملكتهم، فأزالها، وفتح ميَّافارقين وآمِد وديار بكر، وخطب له على المنابر بها، وكان يبعث بالأموال إلى ولده عميد الدولة من ميَّافارقين، وعميد الدولة عند السلطان.

وكان مما أنفذ له مائدة بِلَّور، دورها خمسة أشبار، وقوائمها منها، وزبادي، وأقداح بِلَّور ليس لها قيمة، وبعث إليه خُفًّا من ذهب فيه السُّبحة التي كانت لنصير الدولة، وكانت مئةً وأربعين حبة لؤلؤ، وزنُ كلِّ حبة مثقالٌ وزيادة، وفي وسطها الحبل الياقوت، وقطع بلخش قيمة الجميع ثلاث مئة ألف دينار.

واستولى ابنُ جَهير على أموال ديار بكر، وأخذ من أبي سالم الطبيب ألفي ألف دينار سوى الجواهر واليواقيت، ولمَّا بلغ السلطان هذا استدعاه إلى بابه، فهمَّ بالعصيان، ثم فكَّر، فعلم أنه لا يقدر على ذلك وابنُه عند السلطان، فجاء إليه وقد عاد من حلب وولى السلطانُ ديارَ بكر للعميد قوام الدين أبي علي البلخي، فسار إليها، وكان فقيهاً عفيفاً، فكان يجلس للدرس من بكرة إلى قريب الظهر، ثم يمضي إلى الديوان فيقضي أشغال الناس إلى العصر، وأظهر العدل والإحسان.

وسمع ليلةً صوت ناقوس بدير عباد على الجبل، فقال: أيُضرب الناقوس في بلاد المسلمين؟ فأخرب الديرَ، وبناه مسجداً، ووقف عليه الوقوف، وأقام حاكماً، حتى تعصَّب عليه نظام الملك وعزله وولَّى عميدَ الدولة، وقد ذكرناه، وذكرنا قصد صاحب ميَّافارقين بابَ السلطان، وأنه لم يلتفت عليه لخِسَّة نفسه، فلمَّا فُتحت بلادُه قال السلطان: قولوا له: أيش يريد؟. فجاءه الرسول فقال: أيش تريد حتى يُعوِّضك السلطان؟ فقال: نريد حربةً تقع في صدره تخرج من ظهره. فقيل للسلطان: قد طلب حربى قريةً ببغداد ارتفاعها ثلاثون ألف دينار، فأقطعه إياها، فأقام بها حتى مات ملك شاه.

وكان أبو سالم الطبيب قد حبس الوزير أبا طاهر بن الأنباري بميَّافارقين، فأطلقه ابنُ جَهير، وبعث به إلى حصن كيفا وبها خادمٌ يقال له: ياقوت، وناظرٌ يقال له: أبو الحسن علي بن الأزرق، فقيل لفخر الدولة: إن ابن الأنباري قد عرف أموال بني

مروان وذخائرهم، فإن أطلقتَه ربما مضى إلى السلطان وأخبره بما وصل إليك. فبعث إلى ياقوت الخادم وابن الأزرق يأمرهما بقتله، فقال ابن الأزرق للخادم: هذا رجل كبير القدر، وربما عزل ابنَ جَهير من البلاد فلا تقتُلْه. قال: وكيف أعمل؟ قال: أظهِرْ موته وأخْفِه. فقال الخادم لابن الأنباري: تمارَضْ أياماً. ففعل وعاده الناس والأطباء، ثم أظهر موته، وأخرج جنازةً وصلَّى عليها الناس، وكتب إلى ابن جَهير بذلك، وأثبت موتَه على القاضي، ثم ظهر ابنُ الأنباري بعد مفارقة ابن جَهير البلاد، ولم يأخذ أحد من الوزراء من الأموال والجواهر ما رأى ابن جَهير من بلاد بني مروان، ولم تزل الأقدار تتقلب به حتى عاد إلى الموصل فمات بها.

وكان قد سأل السلطان لمَّا رأى تغيُّره عليه أن يأذن له في المقام بالموصل، فأذِن له، فمرض في رجب، وتُوفِّي، فحمل أمراءُ بني عقيل جنازته إلى تلٍّ توبة شرقي الموصل، فدُفِنَ به.

السنة الرابعة والثمانون وأربع مئة

فيها في صفر كتب الوزير أبو شجاع إلى الخليفة يُعرِّفه باستطالة أهل الذمة على المسلمين، وأنَّ الواجبَ تمييزُهم عنهم، فأمره الخليفة أن يفعل ما يراه، فألزمهم لبس الغيار والزنانير، وتعليق الدراهم الرصاص في أعناقهم، مكتوب على الدراهم: ذمِّي، وتُجعل هذه الدراهم في حلوق نسائهم في الحمامات ليُعرَفْنَ بها، وأن يلبسنَ الخفاف فردةً سوداءَ وفردةً حمراء، وخلخالاً في أرجلهن، فذلُّوا وانقمعوا، وأَسْلَمَ حينئذٍ أبو سعد بن الموصلايا كاتبُ الإنشاء للخليفة، وابنُ أخيه أبو نصر هبةُ الله، وسأل أن يكون ذلك بحضرة الخليفة، فأُجيب إلى ذلك.

وفي جمادى الأولى قدم أبو حامد الطوسي الغزالي بغداد مدرساً بالنظامية ومعه توقيع نظام الملك[1].

(١) هذان الخبران في المنتظم ١٦/ ٢٩٢.

وفي شعبان حدث بالشام زلزلةٌ عظيمةٌ لم يُسمع بمثلها، ووافق ذلك تشرين الأول، وخرج الناسُ من دورهم هاربين، وانهدم معظم أنطاكية، ووقع من السور نحوٌ من تسعين برجاً، ونزل آق سنقر على فامية فأخذها وأخرج ابنَ ملاعب منها.

ووردت الأخبارُ بأنه مات سلطان سمرقند المرتب في مملكة جدِّه.

وفي رمضان خرج توقيع الخليفة بعزل الوزير أبي شجاع من الوزارة، وكان له أسباب:

أحدُها أن نظام الملك كان يكرهه ويروم الوزارة لابنه.

ومنها شكوى أصحاب السلطان منه وما يعاملهم به.

ومنها أن الخليفة كان قد ضجر من أفعالِه وكَسْرِه لأغراض الديوان، وتبرُّمِه بالخدمة، وكان قليلَ الرغبة فيها، فصادف ذلك أن السلطان لمَّا فتح سمرقند كتب إلى بغداد، فخلع الخليفة على البشير، وضرب بين يديه الدبادب، فقال أبو شجاع: وأيُّ بشارة هذه؟ كأنه من بلاد الكفار، وهل هم إلَّا مسلمون استُبيح منهم ما يُستباح من الكفرة؟ وكتب إلى السلطان بذلك، فشقَّ عليه، وكتب إلى الخليفة يشكوه، ووافق ما ذكرناه من الأسباب، فعزله وهو بالديوان، فلم يتأثَّر، وقام على حاله في حاشيته وهو ينشد: [من الوافر]

تولَّاها وليسَ لهُ عدوٌّ ... وفارقَها وليسَ له صديقُ

ثم ورد كتاب نظام الملك بإبعاده عن بغداد، فاستأذن في الحجِّ فأُذِن له، فخرج إلى مشهد أمير المؤمنين رضوان الله عليه، فأقام به ينتظر الحاجَّ، وبلغ نظام الملك، فَرقَّ له، وكتب إليه يقول: سألتُكَ بالله أن أكون عديلَك. وكان النظام عَزَمَ على الحج، لكن لم يُقْدَرْ له، فقال أبو شجاع لرسوله: اخدمه عني، وقل له: منذ أطبق أمير المؤمنين دواتي لم أفتحها، ولولا ذلك لكتبتُ الكتاب والجواب، وأنا أعادله بالدعاء. ولمَّا فارق الوزير الديوان ناب فيه ابن الموصلايا الكاتب ولُقِّب أمينَ الدولة[1].

---

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢٩٣.

وفي رمضان أخرج الخليفةُ أبا محمد التميمي إلى ميَّافارقين يُحضر عميدَ الدولة ابنَ جهير ليولِّيه الوزارة، وسببه ميل نظام الملك إليه، وكونه صهره على ابنته.

وفي رمضان دخل السلطان بغداد ومعه نظام الملك، فخرج إلى لقائه ابنُ الموصلايا والموكب، ثم سار السلطان إلى زيارة المشهدين الحائر ومشهد الكوفة، ومعه ولده وولد ابنته من الخليفة.

وفي ذي القعدة قدم عميد الدولة بغداد ومعه الأعيان؛ القاضي أبو القاسم بن نُباتة، وولده أبو الحسن، والقاضي أبو بكر بن صدقة، وغيرهم. ويقال: إن عميد الدولة والجماعة قصدوا أصبهان وقدموا بغداد مع السلطان، واستناب عميد الدولة أخاه الكافي، وكان أصغر إخوته بميَّافارقين، وخلع الخليفةُ على عميد الدولة خِلَع الوزارة وهذه هي النوبة الثانية [من][1] وزارته، وركب إليه نظام الملك إلى داره بباب العامة فهنأه.

وفي ذي الحجَّة عَمِلَ السلطان السَّذَقَ[2] بدجلة، وهو إشعال النيران والشموع العظيمة في السفن والزواريق الكبار، وعلى كل زورق قبة عظيمة، وبات أهل بغداد على جانب دجلة من كل ناحية، وحملوا الملاهي في السفن، ولم يبقَ ببغداد من حاشية السلطان وغيرهم إلَّا من حمل الشمع والمشاعل، وكانت ليلةً عظيمة، وعلى السطوح أيضاً، وأكثرَ الشعراءُ في ذلك، فقال أبو القاسم المُطرِّز: [من البسيط]

وكلُّ[3] نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمةٌ ... من نارِ قلبي أو من ليلةِ السَّذَقِ
نارٌ تجلَّتْ بها الظَّلماءُ واشتبَهَتْ ... بسُدْفةِ الليلِ فيها غُرَّةُ الفلَقِ
وزارتِ الشمسُ فيها البدرَ واصطلحا ... على الكواكبِ بعد الغَيظِ والحَنَقِ
مُدَّتْ على الأرضِ بُسْطٌ من جواهِرِها ... ما بينَ مجتمِعٍ وارٍ ومُفترِقِ
مثلِ المصابيحِ إلَّا أنَّها نزلَتْ ... من السماءِ بلا رجْمٍ ولا حَرَقِ

(١) ما بين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ٢٩٤ .

(٢) وقع في الأصلين (خ) و(ب): الصدق، والصواب ما أثبتُّه، والسَّذَق: كلمة فارسية معرَّبة، وقد ذكر المصنف معناها. ينظر اللسان (سذق).

(٣) في (خ): وكأن، والمثبت من (ب)، والمنتظم ١٦/ ٢٩٤ ـ والخبر فيه ـ ، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٤٧٥ وغيرهما من المصادر.

أعْـجِـبْ بـنـارٍ ورضـوانٌ يُـسَـعِّـرُهـا ... ومـالـكٌ قـائـمٌ مـنـهـا عـلـى فـرَقِ
في مجلسٍ ضحكَتْ روضُ الجِنان لَهُ ... لـمَّـا جـلا ثـغـرُهُ عـن واضـحٍ يَـقَـقِ[1]
ولـلـشـمـوعِ عـيـونٌ كـلَّـمـا نـظـرَتْ ... تـظـلَّـمَـتْ من يـديـهـا أنـجـمُ الـغَـسَـقِ
مِنْ كلِّ مُرهَفَةِ الأعطافِ كالغصنِ الـ ... ـمـيَّـادِ لـكـنَّـهُ عـارٍ مـن الـورقِ
إنّـي لأعـجَـبُ مـنـهـا وهـي[2] وادعـةٌ ... تـبـكـي وعـيـشـتُـهـا في ضـربـة الـعُـنُـقِ

قال المصنف رحمه الله: إن أبا القاسم المطرز [مات سنة تسع وثلاثين وأربع مئة، فإما أن يكون هذا الشعر لمطرِّزٍ آخر][3] أو يكون وهماً من الكاتب، أو نسياناً، والله أعلم.

وقال أيضاً: أنشدني علي بن الحسن الأبنوسي بالموصل سنة ثلاث وست مئة في نار السَّذَقِ[4] منها: [من المنسرح]

والـلـهِ مـا خـمـرةٌ مُـشَـعْـشَـعـةٌ ... خـمـراً تـأتّـى كـالـشـمـسِ في الـغَـسَـقِ
مـشـمـولـةٌ تـغـتـدي وقـد سـكـبَـتْ ... لابـسـةً حُـلَّـةً مـن الـشَّـفَـقِ
رَقَّـتْ وطـابَـتْ عَـرْفـاً فـلـو سُـقِـيَـتْ ... عُـزَيـرَ عـامَ الـسُّـبـاتِ[5] لـم يَـفِـقِ
ولا حـيـا[6] ديـمـةٍ لـه زَجَـلٌ ... قـد جـعـل الأرضَ مـنـهُ في طـبـقِ
أقـام شـهـراً يـنـهَـلُّ هـيـدبُـهُ[7] ... مُـنْـبَـجِـسـاً لـم يُـبِـنْ عـن الأُفُـقِ
تـحـسَـبُ مـنـه بـروقَـه سَـحَـراً ... نـارَ مـجـوسٍ في لـيـلـة الـسَّـذقِ
يـومـاً بـأيـدٍ مـن الـمـلـوكِ ولا ... أطـيـبَ عَـرْفـاً مـن نـشـرِهِ الـعَـبِـقِ
يـا ابـنَ الـفـلانـيِّ يـا أعـزَّ فـتـى ... لـه أيـادٍ كـالـطَّـوقِ في عُـنـقـي
أثـقـلْـنَ ظـهـري بـحـمـلِـهِـنَّ فـلـو ... رُمْـتُ نـهـوضـاً بـالـشُّـكـرِ لـم أُطِـقِ

---

(١) اليَقَق واليَقِق: شديدُ البياض ناصِعُه. اللسان (يقق).
(٢) في (خ): كل، والمثبت من (ب) والمصادر المذكورة آنفاً.
(٣) مابين حاصرتين من (ب).
(٤) السَّذَق: مُعرَّب «سَذَه» أي ليلة الوقود، وهي ليلة عيد عند الفرس يشعلون فيها نيراناً عظيمة. ينظر اللسان (سذق)، ومجلة المنار لمحمد رشيد رضا العدد (٥٦) الصفحة ٤ .
(٥) تصحفت في (خ) إلى: عزيز عام الشباب، والمقصود عُزَيرٌ عليه السلام حينما أماته الله عزَّ وجل.
(٦) الحيا: المطر. اللسان (حيي).
(٧) الهيدب: السحاب المتدلِّي. اللسان (هدب).

وفيها حاصر تُتُش طرابلس ومعه آق سنقر بُزان، وبها جلال الملك ابن عمار، فاحتجَّ عليه بأنَّ معه منشور السلطان بإقراره على البلد، فلم يقبل منه تُتُش، ونصب عليه المجانيق، وتوقَّف آق سنقر عن قتاله، فقال له تُتُش: أنتَ تبَعٌ لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبَعٌ لك إلا في عصيان السلطان، وهذا من أصحابه. فغضب تاج الدولة ورجع إلى دمشق، ومضى آق سنقر إلى حلب، وبُزان إلى الرُّها.

وفيها بعث السلطان سعد الدولة الكوهراني إلى اليمن، فاستولى على البلاد السهلية والساحلية دون القلاع، وخطب للسلطان بها، فاستقام له معظم الدنيا إلَّا مصر والمغرب، وكان في عزمه أن يسير إلى مصر بنفسه، فجاءه ما لم يكن في حسبانه.

وفيها ملك يوسف بن تاشفين الأندلس ونفى ابن عباد عنها، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

عبد الرحمن بن أحمد بن علَّك(١)

أبو طاهر، الأصبهاني، ولد بأصبهان، وسمع الحديث، وسافر إلى سمرقند فتفقَّه بها. وقيل: إنه كان السبب في فتحها، وكان من رؤساء الشافعية، كثيرَ المال، واسعَ الحال، يُقرض الأمراء من خمسين ألف دينار فما زاد، وكان عظيمَ الجاه، قدم مع السلطان إلى بغداد فتوفِّي، فمشى تاج الملك وحاشية السلطان إلى قبره بين يدي جنازته من النظامية إلى باب أبْرز، وجاء السلطان عشية ذلك اليوم إلى قبره وصلَّى عليه، وجاء نظام الملك فجلس عند قبره وهو يُدفَن، فقال: لا إله إلا الله، دُفِنَ في هذا المكان أزهدُ الناس في الدنيا وأرغبُهم فيها، يشير إلى أبي إسحاق الشيرازي، فإنه الزاهد، وإلى ابن علَّك، فإنه الراغب.

وكان قد مشى جميع الدولة في جنازته إلا نظام الملك وحده، فإنه ركب واعتذر بعلوِّ السن.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٩٥-٢٩٦، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٠٠، تحرف في الأصلين (خ) إلى: عليك، وفي (ب) إلى غلبك، والتصويب من المصدرين المذكورين، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٣٢ وغيرها من المصادر.

وكان فقيهاً فاضلاً، لم يُرَ في زمانه فقيهٌ أنصفُ منه ولا أعلم، وكانت له هيبةً حسنة، ومروءةٌ ظاهرة.

عيشون بن عمران بن محمد(١)

أبو بكر، الرَّبَعي، السَّبتي، قدم الشام، وحجَّ ونزل بغداد، وسمع الحديث، وأعطاه ابنُ جَهير كتباً من المقتدي إلى وُلاة الغرب بإقامة الدعوة له، وكان وجيهاً، فجاء الإسكندرية وركب البحر، وبلغ بدراً الجمالي ذلك فطلبه ففاته، فلمَّا كان بعد أيام ردَّت الريحُ المركب الذي كان فيه إلى الإسكندرية، فقبضوا عليه، وأخذوا الكتب، وحُمِلَ إلى بدر فقتله، وكان فاضلاً ثقةً.

محمد بن أحمد(٢)

ابن علي بن حامد، أبو نصر، المروزي، كان إماماً في القراءات، وصنَّف فيها التصانيف، وانتهت إليه الرياسة فيها، وغرق في البحر، وجاء وقت الصلاة، وزالت الشمس، فشرع في الصلاة على حسب الحال، فنُجِّي ببركات تلك النية، وعاش نيِّفاً وتسعين سنة، ومات في ذي القعدة أو الحجة.

محمد بن علي بن محمد(٣)

أبو عبد الله، التنوخي، الحلبي، ويُعرف بابن العُظَيمي، ومن شعره: [من البسيط]

يلقى العِدا بِجَنانٍ ليس يُرعِبُهُ ... خَوْضُ الحِمامِ ومتنٍ ليس ينقصِمُ
فالبِيضُ تُكسَرُ والأوداجُ داميةٌ ... والخيلُ تعرِمُ والأبطالُ تلتطِمُ
والنقعُ غيمٌ ووقْعُ المرهَفاتِ بهِ ... لمعُ البوارقِ والغيثُ المُلِثُّ دَمُ

---

(١) لم أقف على من ترجم لعيشون هذا سوى المصنف.
(٢) المنتظم ١٦/ ٢٩٧.
(٣) تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٩٣-٣٩٤.

السنة الخامسة والثمانون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم أمر السلطان بعمارة جامع السلطان قريباً من دار المملكة على باب بغداد، وتولَّى السلطانُ تقديرَه وذَرْعَه بنفسه، وجمع له المنجِّمين وأرباب الرصد والهندسة، وندب للإشراف على عمارته قاضي القضاة أبا بكر الشامي، ونقلوا أخشابه من جامع سامرَّاء، وأمر بعمارة الأسواق حول داره، فعوجل في هذه السنة، ومطلت عمارة الجامع حتى تمَّ سنة أربع وعشرين وخمس مئة.

وفي النصف من ربيع الأول توجَّه السلطان من بغداد إلى أصبهان، وخرج معه الأمير أبو الفضل جعفر بن الخليفة(١).

وذُكِرَ في بعض التواريخ أن تُتُش قدم بغداد في هذه السنة شاكياً من آق سنقر، فلم يلتفت السلطان إليه، فترك ابنَه عند السلطان وعاد إلى دمشق.

قال المصنف رحمه الله: وهذا بعيدٌ؛ فإن السلطان وصل حلب ولم يَلْتَقِه تُتُش لأنه كان مستوحشاً منه.

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الأول وقت الظهر وهو السادس من نيسان اقترن زُحل والمريخ في برج السرطان، وذكر أهل صناعة النجوم أن هذا القران لم يحدُثْ مثلُه في هذا البرج منذ بُعِثَ النبيُّ ﷺ وإلى هذه السنة، فكان من تأثير هذا القران هلاكُ ملك شاه سيد الملوك، ومقتل نظام الملك سيد الوزراء.

وفي غُرَّة رمضان توجَّه السلطان من أصبهان إلى بغداد بنيةٍ غيرِ مرضيةٍ في حقِّ الخليفة، وعزم على تغييره، وكان معه النظام، فقُتِلَ في عاشر رمضان في الطريق ووصل السلطان [إلى](٢) بغداد ثامن عشر رمضان، وقد حزن على نظام الملك على ما قيل، فلما قارب بغداد خلع الخليفةُ على عميد الدولة جبراً لمصابه بنظام الملك؛ لأنه صهره على ابنته، ولما نزل السلطانُ داره ثاني عشرين رمضان يوم السبت دخل عليه عميد الدولة وهنَّأه عن الخليفة بمَقْدَمه، وبعث السلطان يقول للخليفة: لا بُدَّ أن تترك

---

(١) الخبران في المنتظم ١٦/ ٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) مابين حاصرتين من (ب)، والمنتظم ١٦/ ٢٩٩ ـ والخبر بنحوه فيه ـ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٤ .

لي بغداد وتذهب إلى أيِّ بلد شئت. فانزعج الخليفة، وبعث إليه يقول: أمهلني شهراً. فقال: ولا ساعة. فأرسل الخليفةُ إلى تاج الملك أبي الغنائم، وكان السلطان قد استوزره، فقال: سَلْه أن يؤخِّرَنا عشرةَ أيام. فدخل تاجُ الملك على السلطان وقال له: لو أنَّ بعض العوام أراد أن ينتقل من دار إلى دار لم يقدر على النقلة في أقلَّ من عشرة أيام، فكيف بالخليفة وخدمه وأهله وأسبابه؟ فيحسن أن يؤخَّر عشرة أيام. فقال السلطان: يجوز. ومرض السلطان ومات بعد أيام، وعدَّ الناسُ من كرامات[1] الدولة العباسية موتَه.

وفيها وقع[2] بالبصرة بَرَدٌ وزن البَرَدة خمسةُ أرطال إلى اثني عشر رطلاً وأكبر، فهدم الأبراج المبنيَّة بالجصِّ والآجرِّ، وقلع عامة النخيل، وأهلك خلقاً كثيراً، وخرج الناس للحجِّ، فنهبهم بنو خفاجة، فعادوا.

وفيها تُوفِّي

نظام الملك[3]

الحسن بن إسحاق بن العباس، أبو علي الطُّوسي، ولد بطُوس، وكان من أولاد الدَّهاقين وأرباب الضياع بناحية بَيْهَق، كان عاليَ الهِمَّة، إلَّا أنه كان فقيراً مشغولاً بسماع الحديث والفقه، يخدم أبا علي بن شاذان المعتمد عليه ببَلْخ كاتباً بين يديه، فكان في كلِّ وقت يصادره، فهرب منه إلى داود بن ميكائيل وعرَّفه خدمته، وأخذ بيده وسلَّمه إلى ألب أرسلان، فقال: يا محمد، هذا حسن الطوسي، فتسلَّمْه واتَّخِذْه والداً ولا تُخالِفْه. فلمَّا وصل إلى ألب أرسلان دبَّر دولتَه أحسن التدبير عشرَ سنين، ومات ألب أرسلان، فازدحم أولاده على الملك، فوطده لولده ملك شاه، ولمَّا دخل على المقتدي أمره بالجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك لرضا أمير المؤمنين عنك. وكان مجلسه عامراً بالعلماء والصُّلحاء، حتى كانوا يشغلونه عن كثير من مهام الدولة، فقال له بعض كُتَّابه: قد بسطت هذه الطائفة في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية، فلو حجبتَهم وأذِنْتَ لمن شئت، وأمرت بأن لا يُضيِّقوا عليكَ مجلسك، وإنما

---

(١) في (خ): مكرمات، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): قطع، والمثبت من (ب) وتاريخ الإسلام ١٠/ ٤٧٩. والخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ٣٠١.

(٣) المنتظم ١٦/ ٣٠٢-٣٠٧، والكامل ١٠/ ٢٠٤-٢١٦.

يجلسوا ناحيةً. فقال له: ويحك، هذه الطائفة أركان الإسلام، وجمال الدنيا والآخرة، فلو أجلستُ كلَّ واحد منهم على رأسي لما استكثرتُ له ذلك ولا استقللتُه.

وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي بن الجويني قام لهما وأجلسهما إلى جانبه، وإذا دخل عليه أبو علي الفارْمَذي قام له وأجلسه في طراحته وجلس بين يديه، فامتعض من ذلك القشيري وابن الجويني، وقالا للحاجب: نحن أولى بالإكرام من الفارمَذي. فأبلغَ الحاجبُ النظامَ ما قالا، فقال: القشيريُّ وابنُ الجويني وأمثالُهما إذا دخلوا عليَّ أضرُّوني، وقالوا: أنتَ وأنتَ، ووصفوني بما ليس فيَّ، فيزيدُني كلامُهُم تِيهاً، والفارْمَذي إذا دخل عليَّ وعظني وزجَرَني ويذكر لي عيوبي وظلمي فأنكسر وأنتفع به، وأرجع عن كثيرٍ ممَّا أنا فيه، وكان يُعظِّم الصوفية ويُحبُّهم، حتى إنه أعطى بعضَ متمنِّيهم في أوقاتٍ ثمانينَ ألف دينار.

وسأله التميمي عن سبب تعظيمه إيَّاهم، فقال: كنتُ في خدمة بعض الأمراء، فأتاني صوفيٌّ فقال: اخدُمْ من تنفعُكَ خدمتُه، ولا تخدُمْ من تمزِّقُه الكلاب غداً. فلم أفهم معنى قوله، وكان الأمير يشرب الخمر، فشرب في تلك الليلة، وكانت له كلابٌ كالسباع الضارية تدور حول خيمته وتفترس الغرباء، فغلبه السُّكْرُ، فخرج آخرَ الليل وحدَه، فلم تعرِفْه الكلاب فمزَّقَتْه، فعلمتُ أن الرجل كُوشِفَ بذاك، فأنا أطلب أمثالَه.

وكان النظام إذا سمع الأذان أمسك عما كان فيه، ويراعي أوقات الصلوات، ويصوم الاثنين والخميس، ويكثر الصدقة، وكان حليماً وقوراً، وبنى المدارس والرباطات في كلِّ بلد، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، وله بأصبهان نظاميةٌ وبغيرها، وصرف العناية إلى نظامية بغداد، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، منها سوق المدرسة وغيره، ونقل إليها الكتب الفائقة، وشرط أن يكون بها القُرَّاءُ والنُّحاةُ، وكان يُطلِقُ ببغداد في كلِّ سنة برسم الصِّلاتِ(١) عشرين ألف دينار وخمس مئة كُرِّ غلَّةً.

ولمَّا بنى المدارس والرباطات في المفاوز والقناطر والجسور ونحوها سعى به أعداؤه إلى ملك شاه، وقالوا: قد ضيَّع عليكَ أموالاً عظيمةً في هذه الوجوه، وكان قد

---

(١) في (خ): الصلوات، والمثبت من المنتظم.

كتب على أبوابها اسم ملك شاه، فعاتبه [عليه][1] وقال: ضيَّعتَ الأموال في هذه الأشياء[2]؟ فقال له: يا ملك، لمَّا أقمتُ لكَ [العساكر تقاتل بين يديك، والأعداء بالنهار، أقمتُ لك] جنداً في الليل يصفُّون أقدامهم ويدعون لك وأنت نائم، وبعد هذا فانظُرْ في المال الذي غرمته في هذه الوجوه فأنا أحمله لك، وأمحو اسمك من أبوابها، وأكتب اسمي، ليبقى لي ذِكْرُها وأجرُها. فقال ملك شاه: لا واللهِ ما أريد أن أمحو اسمي من أماكن البر والصلة، وجزاك اللهُ خيراً فيما فعلتَ.

وعبر جَيحون، فأطلق للملَّاحين عشرة آلاف دينار على عامل[3] أنطاكية، وشكى إليه الفرَّاشون وهو بما وراء النهر تأخيرَ جامكياتهم[4]، فوقَّع لهم على مال الهدنة إلى القسطنطينية، فقيل له: بالأمس تُطلِقُ على أنطاكية واليوم على القسطنطينية؟ فقال: قصدتُ إظهار هيبة الملك الذي أنا في خدمته في الدنيا وأنَّ أحداً من الملوك ما وصل إلى هذا، وملَكَ من الغلمان ألوفاً، ومن المال ما لا يُحصى، ومع هذا فكان يتمنى الانقطاع إلى الله تعالى، ويقول: أتمنَّى أن تكون لي قريةٌ ومسجدٌ أتخلَّى فيه بطاعة ربي. ثم قال بعد ذلك: تمنَّيتُ قطعةً من الأرض أتقوَّتُ بها [وأتخلَّى في مسجد. ثم قال بعد ذلك: أتمنَّى أن يكون لي رغيفٌ كلَّ يوم وأتعبَّد في مسجد].

وقال: رأيتُ إبليس في المنام، فقلتُ له: ويلَكَ، خلقك الله ثم أمركَ بسجدةٍ فلم تفعل، وأنا حسنٌ أمرني اللهُ بالسجود، فأنا أسجد له كلَّ يوم سجدات. فقال: [من مخلع البسيط]

مَـنْ لـم يـكُـن لـلـوصـال أهـلاً فـكـلُّ إحـسـانِـهِ ذنـوبُ

وقال التميمي: كان قد وظف على الهند والروم والترك وظائف في كل سنة، فكان يطلق في بلاد ساقون والصين وما وراء القسطنطينية جامكيات الفراشين والغلمان، وهذا شيء ما جرى لغيره.

---

(١) مابين حاصرتين وفي الموضع الآتي من (ب).

(٢) في (ب): الوجوه.

(٣) في (ب): عمل.

(٤) في (ب): جوامكهم. والجامكيات: الأُعطيات والمرتبات الشهرية أو السنوية.

ذكر مقتله:

واختلفوا في السبب على أقوال:

أحدها: أنه طال عمره فخدم ألب أرسلان وملك شاه تسعاً وعشرين سنة، أخرج أموالاً عظيمة، وكثر عليه أعداؤه عند ملك شاه. فوضع عليه من قتله.

والثاني: أنَّ ملك شاه بعث بعض مماليكه إلى مرو والياً، وكان بها ابنُ نظام الملك مقيماً، فعسف المملوك الناسَ وظلم، فقبض عليه ابنُ نظام الملك، فسُئِلَ فيه فأطلقه، فجاء إلى ملك شاه واستغاث بين يديه وبكى، وقال: ما فعلَ هذا إلا بك. فغضب ملك شاه، واستدعى أرباب دولته وقال لهم: امضوا إلى خواجة حسن وقولوا له: إن كنتَ شريكي في ملكي فلذلك حُكم، وإن كنتَ تابعي[1] فيجب أن تلزم حدَّك، وهؤلاء أولادُك قد استولَوا على الدنيا، و لا يُقنعهم ذلك حتى يخرقوا الحرمة[2]. فجاؤوا إليه وأبلغوه كلامه، فقال: قولوا له: ما علِمَ أنني شريكُه في الملك إلى اليوم؟! وهل بلغ ما بلغ إلَّا بتدبيري؟ أو ما يذكر لمَّا قُتِلَ أبوه كيف جمعتُ الناس عليه وكان قد تطاول إلى هذا الأمر إخوتُه وعمُّه فأبعدتُهم وقرَّرتُ الملك فيه، وعبرتُ النهر، وفتحتُ البلاد، وحكمتُ على الدنيا، وجعلتُ ملوكها طوعاً له؟ وبعد هذا فقولوا له: إن ثبات قَلنسوةٍ على رأسه معذوق[3] بفتح هذه الدَّواة، ومتى أُطبقَتْ هذه زالَتْ تلك. فعادوا إليه وأخبروه بما قال، فخاف، واتَّفق مع تاج الملك على التدبير عليه، وأن يُفوِّض الأمر إلى تاج الملك أبي الغنائم.

والثالث: أن ملك شاه [كان][4] قد عزم على تشعيث الأمر على الخليفة، وأن يقيم خليفةً على حكم إرادته، وأطلع النظام على ذلك، فسفَّه رأيَه وقال: الله الله، لا يجوز ذلك شرعاً ولا عقلاً. فاطَّلع تاج الملك رأيَه[5]، فصوَّب رأيه وقال: اقتل النظام لتستريح منه.

---

(١) في (خ) و(ب): متعالي، وفي الكامل ١٠/ ٢٠٥: نائبي، والمثبت من المنتظم ١٦/ ٣٠٥، وبغية الطلب ٥/ ٢٤٩٥.

(٢) في المنتظم: حتى يخرجوا من الحرمة.

(٣) معذوق: مُعلَّق.

(٤) مابين حاصرتين من (ب).

(٥) العبارة في (خ): فاطَّلع ملك شاه تاج الدولة، والمثبت من (ب).

والرابع: أن خاتون طلبت من ملك شاه أن يعهد إلى[1] ابنها محمود، فشاور النظام فقال له: بأيِّ وجهٍ تلقى الله غداً وقد وَلَّيتَ على المسلمين امرأةً وصبياً ولك أولاد كبار؟ فاتفقت خاتون وملك شاه وتاج الملك على قتله.

ذكر كيفية قتله:

كان ملك شاه قد خرج من أصبهان غُرَّة رمضان يقصد بغداد، وسار نظام الملك بعده، فنزل بقرية من قرى نهاوند مكان الوقعة التي كانت في زمن عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: هذا موضعٌ مباركٌ قُتِلَ فيه جماعة من الصحابة، وطوبى لمن كان منهم. وكان جالساً والملوك والأمراء بين يديه، وكان صائماً يوم الخميس، فتقدم إليه رجل من الأجناد فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ قد أتاك وأنت في مِحفَّةٍ فأخذك منها. فاستبشر النظام وقال: الحمد لله بشارةُ خير، وهل أريد وأبغي إلا هذا؟ فلما فرغ الناسُ من الأكل حُمِلَ النظام في مِحفَّةٍ إلى خيمة النساء، وكان به نقرس، فاعترضه صبيٌّ ديلميٌّ في زيِّ الصوفية وبيده قصبة، فدعا له، وسأله أن يناوله إيَّاها من يده إلى يده، فقال: هاتِ. فمدَّ يدَه، فضربه بسكين في فؤاده، فحُمِلَ إلى مضربه فمات، وهرب الديلميُّ، فتعثَّر بطُنْب خيمة فقُطِّع قِطَعاً.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وثب عليه رجل ديلميٌّ من الباطنية، فقتله وهرب من ساعته، فطُلِبَ فلم يوجد، ولا ظهر له خبر، ولا بان له أثر، فأسف الناس [وتألَّموا][2] لِما أصاب نظام الملك، وتضاعف حزنُهم لفقد مثله؛ لما كان عليه من حسن الطريقة، وإيثار العدل في النصفة، والإحسان في أهل الدين والفقه والقرآن والعلم، وحبِّ الخير، وحميد السياسة، وما كان قد أثر من الآثار الحسنة في البلاد، بحيث كان رزقُه على اثني عشر ألف إنسان من فقيه وغيره، وحزن السلطان ملك شاه عليه، وتأسَّف لفقده، وذلك ليلة الجمعة عاشر رمضان، ونظام الملك أولُ من قتَلَتْه الباطنية، وكان عمره ستاً وسبعين سنة وعشرة أشهر وأياماً.

ووَزَر لألب أرسلان وملك شاه على نسق واحد تسعاً وعشرين سنة.

---

(١) العبارة في (خ): أن يقبض على، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

وقال محمد بن الصابئ: وقيل: محمد بن عبد الملك الهَمَذاني [وَزَر لهما أربعاً وثلاثين سنة. وقال العماد الأصفهاني]: وزَرَ لهما حدود أربعين سنة.

ومن شعره: [من مخلع البسيط]

بعد الثمانينَ ليسَ لي قوةٌ ... لهفي على قوةِ الصَّبوَّة

كأنَّني والعصا بكفِّي ... موسى ولكِنْ بلا نُبُوَّة

ووصل نعيُ نظام الملك إلى بغداد يوم الأحد ثامن عشر رمضان، فجلس عميد الدولة للعزاء ثلاثة أيام في الديوان، وحضر الناس على طبقاتهم وحزنوا عليه، ولم يتخلَّف عن العزاء سوى الخليفة، وتأسَّف عليه؛ لأنه كان يعظِّمه عند السلطان، ويُزيِّنه في عينيه، ويمنعه من الإقدام عليه، ويقضي حوائجه، ويوصل إليه أشياءَ كانت خارجةً عن إقطاعه.

أسند نظامُ الملك الحديثَ، وحدَّث بمرو ونيسابور والري وأصفهان وبغداد وفي مدرسته وبجامع المهدي، وكان يقول: إني لأعلمُ أني لستُ من أهل الرواية للحديث النبوي، لكن أريد أن أربط نفسي على قطار النَّقَلةِ لحديث رسول الله ﷺ.

وحدَّث عنه جماعة، منهم: أبو الفضل الأرموي، وأبو القاسم بن العُكْبَري.

قال مقاتل بن عطية يرثيه: [من البسيط]

كانَ الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغَها الرحمنُ من شَرَفِ

عَزَّتْ فلم تعرفِ الأيامُ قيمتَها ... فردَّها غَيْرةً منهُ إلى الصَّدَفِ

وقال: [من الكامل]

قد قلتُ للرجل المُولَّى غسْلَهُ ... لو قد أطاعَ وكنتُ من نُصحائِهِ

جنِّبهُ ماءَكَ ثمَّ غسِّلهُ بما ... أبكَتْ عيونُ المجدِ من آلائِهِ

وأزِلْ أفاويةَ[1] الحَنوطِ وطيبَهُ ... عنهُ وطيِّبْهُ بطيبِ ثنائِهِ

لا تُوهِ أعناقَ الرجالِ بحَمْلِهِ ... يكفيهِ ما فيهنَّ مِنْ نَعْمائِهِ

ومُرِ الكرامَ الكاتبينَ بحَمْلِهِ ... شَرَفاً ألستَ تراهُمُ بإزائِهِ

---

(١) الأفاويه؛ جمع أفواه، وأفواه جمع فُوه: وهو ما يعالج به الطيب. الصحاح (فوه).

وقال التميمي: كان نظامُ الملك مُمدَّحاً، يقال: إنَّ مُدَّاحه كانوا خمسة آلاف وزيادة، والقصائد التي مُدِح بها ثلاث مئة ألف قصيدة.

وقال علي بن عقيل: رأينا في زماننا في أوائل أعمارنا أُناساً طاب العيش معهم من العلماء والزُّهاد وأعيان الناس، وأما نظام الملك فإنَّ سيرته بهرت العقول جوداً وكرماً وحشمةً وإحياءً لمعالم الدين، فبنى المدارس، ووقف عليها الوقوف، وأنعش العلم وأهله وعمَّ الحرمين، وأكثر الصدقات، وفتح أبواب البرِّ والصِّلات، وكانت أسواق العلم في أيامه قائمة، وما ظنُّكَ برجل كان الدهر في خفارته؛ لأنه قد أفاض من الإنعام ما أرضى به الناس، وإنما كانوا يذمُّون الدهر لضيق الأرزاق واختلال الأحوال، فلمَّا عمَّهم إحسانُه سكتوا عن ذمِّ الدهر، وتُرِكَ الناسُ بعده موتى، أمَّا أهل العلم والفقر ففقدوا العيش بعده بانقطاع الأرزاق، فمات العلم، وأمَّا الصدور والأغنياء[1] فكانوا مستورين بالغَناء عنهم، فلمَّا عرضت الحاجات إليهم عجزوا عن تحمُّلِ بعض ما عوَّدَ نظام الملك من الإحسان، فانكشفَتْ أحوالُهم، وبانت معايبُهم، وضيقُ أخلاقِهم، فهؤلاء موتى بالذمِّ، والآخرون موتى بالحاجة، وأما هو فحيٌّ بعد موته بمدح الناس لأيامه، ثم خُتِمَ له بما خُتِمَ من الشهادة، فكفاه أمرَ أخراه كما كفى أهلَ العلم أمرَ دنياهم، ولقد كان نعمةً من الله على أهل الإسلام فما شكروها، فسُلِبوها.

ذكر أعيان شعرائه وأصحابه:

منهم أبو طالب علي بن الحسن العلوي، مدحه بأبيات[2] فقال: [من الوافر]

نظامُ المُلكِ عِشْتَ مع السرورِ ... مُوفَّى الدَّستِ محفوظَ السَّريرِ
ودُمْتَ مُخلَّداً مِلكاً عزيزاً ... دوامَ الطينِ فينا والسَّريرِ
ومَنْ والاكَ مرفوعُ السَّواري ... ومَنْ عاداكَ مقطوعُ السَّريرِ
عليُّ القَدْرِ منصورُ السرايا ... إلى أن ينمحي أثرُ السَّريرِ
ولا زالَتْ أياديك اللَّواتي ... إذا عُدَّتْ تزيدُ على السَّريرِ
لتحيا في ذُراكَ الخلقُ طُرًّا ... حياةً في النعيمِ وفي السَّريرِ

(١) العبارة في (خ): وأنا الصدور ففقدوا العيش بعده! والمثبت من (ب).

(٢) بعدها في (خ) كلمتان غير واضحتين.

فـغـوثـاً يـا قـوامَ الـديـن غـوثـاً فـحـالـي فـي الـوَضـاعـةِ كـالـسَّـريـرِ
وذلــك إنــمــا لــو وَدَّ ظــلــمــاً تـعـرَّقَ مـأبـضـي وأخـاسَ ريـري
قـد اسـتـولـى عـلـى حـالـي وأقـعـى كـمـا يُـقـعـي الـهـديـرُ عـلـى الـسَّـريـرِ
لــحــاهُ الــلــهُ ثــمَّ أراحَ مــنــهُ وأركَـبَـه مـربَّـعـةَ الـسَّـريـرِ(١)

ومن شعره أيضاً: [من الوافر]

سـلَـوْتُ عـن الـصِّـبـا ولـهَـيـتُ عـنـهُ وقـلـتُ أجـوبُ مـيَّـا فـارِقـيـنـا
لِـمـا مـارَسْـتُ مـن سُـعـدى وسـلـمـى وزيـنـبَ قـلـتُ مـيَّـافـارقـيـنـا

ومن خواصِّ نظام الملك وأصحابه الكامل أبو الفضل المظفر بن أحمد عارض الحماسة، فنظم بإزائها، وهو القائل: [من الطويل]

إذا لـم يـكُـنْ لـي مـنـكَ جـاهٌ ولا غـنـى ولا عِـنْـدَمـا يـغـتـالُـنـي الـدهـرُ مُـوئـلُ
فـكـلُّ سـلامٍ لـي عـلـيـكَ تـكـرُّمٌ وكـلُّ الـتـفـاتٍ لـي إلـيـك تـفـضُّـلُ

وقال: [من الوافر]

شـقـيـنـا بـالـنَّـوى زمـنـاً فـلـمَّـا تـلاقـيـنـا كـأنَّـا مـا شَـقِـيـنـا
سـخِـطْـنـا عـنـدمـا جـنـتِ الـلـيـالـي فـمـا زالَـتْ بـنـا حـتـى رضـيـنـا
سَـعِـدْنـا بـالـوصـالِ وكَـمْ شَـقِـيـنـا بـكـاسـاتِ الـصُّـدودِ وكَـمْ بُـلِـيـنـا
فـمَـنْ لـم يـحـيَ بـعـدَ الـمـوتِ يـومـاً فـإنَّـا بـعـدمـا مِـتْـنـا حَـيـيـنـا

ومن أصحاب نظام الملك أبو عبدالله الكناء، كان صاحبَ سرِّه وخازن كتبه، وله ولد اسمه شاه مَرْزُبان، ومن شعره: [من الوافر]

أمـيـرُ الـحُـسْـنِ رِفـقـاً بـالـرعـايـا فـإنَّ الـعـنـفَ مـن شـرِّ الـسَّـجـايـا
ولا تـسـبِ الـقـلـوبَ وأنـتَ فـيـهـا فـأنـتَ إذاً تـكـون مـن الـسَّـبـايـا

---

(١) جاء على هامش (ب) معنى السرير في هذه الأبيات، ففي البيت الأول: التخت، وفي الثاني: الماء، وفي الثالث: العنق، وفي الرابع: خطوط الكف، وفي الخامس: الرمل، وفي السادس: خفض العيش، والسابع: التراب، والتاسع: الأكمه، والعاشر: النعش. وقد ذكر عند البيت الثامن شارحاً قوله: "تعرَّق مأبضي" هو المأبض العَرِق، ثم قال: والرِّير: المخ.

وصِلْني واشْفِ نفسي من جَواها فقد عذَّبْتَني هجراً ونايا
وكان هواكَ أبقى بعضَ صَبْري فقد ضربَ الفراقُ على البقايا

ومن أصحاب نظام الملك أبو نصر الزَّوزني، وهو القائل: [من الطويل]

ولا أقبَلُ الدنيا جميعاً ببذلِهِ ولا أشتري عِزَّ المراتبِ بالذُّلِّ
وأعشَقُ كحلاءَ النَّواظرِ خِلْقةً لئلا تُرى في عينها مِنَّةُ الكُحْلِ

ومن أصحابه أسعد بن علي الزَّوزني البارع. قال المصنف رحمة الله عليه: ويُعرف بالبارع أيضاً، أبو منصور بن حيدر الخراساني، هجى الأبيوردي فقال: [من السريع]

وليلةٍ بِتُّ بها نافضاً أضالعي من شدة البردِ
كأنَّما تنفضُ آفاقُها على الرُّبا شعرَ الأبيوردي

فقال الأبيوردي: [من الكامل]

هاتيكَ نيسابورُ أشرفُ خُطَّة بُنِيَتْ بمُعتَلجِ الفضاءِ الواسعِ
لكِنْ بها بَرْدانِ بردُ شتائها إمَّا شتوتَ وبَرْدُ شعْرِ البارعِ

ذكر أولاده:

وزَرَ منهم جماعةٌ للخليفة والملوك، فأحدهم: أحمد وزَر لمحمد بن ملك شاه والمسترشد. والثاني: علي، وزَرَ لتاج الدولة تُتُش، ولقبه فخر الملك، والثالث: مؤيد الملك عبيد الله، وزَرَ لبركياروق، ثم استوزر بركياروق فخر الملك، وعزل مؤيد الملك، وكان له الحسين عز الملك وعبد الرحيم وغيرهم.

عبد الباقي بن محمد[1]

ابن الحسين بن داود بن ناقيا، أبو القاسم، البغدادي، ولد سنة عشر وأربع مئة، وتُوفِّي في المُحرَّم.

قال أبو الحسين علي بن محمد الدهان: دخلتُ عليه لأُغسِّله بعد موته، فإذا يده مضمومة، فاجتهدت في فتحها، وإذا فيها مكتوب: [من الطويل]

---

(١) تنظر الترجمة في المنتظم ١٦/٣٠٨-٣١٣.

نَـزلـتُ بـجـارٍ لا يُـخَـيِّـبُ ضـيـفَـهُ أُرَجِّي نـجـاتـي مـن عـذابِ جـهـنَّـمِ
وإنِّـي عـلـى خـوفٍ مـن الـلـهِ واثـقٌ بـإنـعـامـهِ والـلـهُ أكـرَمُ مُـنـعِـمِ

ملك شاه بن ألب أرسلان[1]

ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق، أبو الفتح، جلال الدولة، كانت له أفعال في الخيرات كثيرة، وفي العزل غريبة عجيبة، يُنصف المظلوم من الظالم، ويردع العساكر عن العظائم والمآثم، وأسقط الضرائب والمكوس من بلاده، وكان مبلغها ألفي ألف دينار، وكان حسنَ الوجه، كريمَ الأخلاق، عظيمَ الخِلْقة، كثيرَ الركوب، لا يستقرُّ في مكان، وكان حسنَ السيرة، عمر القناطر والجسور، وأسقط الضرائب والمكوس، وحفر الأنهار، وبنى الجامع على باب بغداد والمدرسة التي تقابل مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان حنفيًا، وبنى وراء النهر منارةً من قرون الغزلان، وبنى أخرى مثلها ظاهر الكوفة، وقالوا: قال: أحصوا ماصِدْتُ بنفسي من الصيود، فأُحصي، فكان عشرة آلاف صيد، فتصدَّق بعشرة آلاف دينار، وقال: إني خائف من الله تعالى من إزهاق روحٍ لغير مأكلة.

وخُطِبَ له من أقصى بلاد الترك والصين إلى أقصى اليمن، وراسله الملوك، حتى قال نظام الملك: كم من يومٍ قد وقَّعتُ بإطلاق إقاماتٍ لرسل ملك الروم، ورُسلِ ملك اللَّان والخزر والزنج والسند والهند والصين والشام واليمن وفارس والأهواز وغير ذلك.

وكان خَراجُ هذا السلطان في السنة عشرين ألف ألف دينار، وكانت السُّبُلُ في أيامه آمنةً، ونيَّته في الخير جميلةً، تقف له المرأة والضعيف، فيقف لهم، ولا يبرح من مكانه حتى ينصفهم، وصان دُورَ البلاد عن ترك العساكر، وصان حريمَهم، وكانت له هيبةٌ لم تكن لغيره، ولمَّا توجَّه إلى قتال أخيه تُتُش اجتاز بطوس، فنزل عند تربة علي بن موسى الرضا رحمة الله عليهما ومعه النظام، فترجَّل وصلَّى ودعا وتصدَّق بمال على العلويين، فلمَّا خرج قال: يا حسن، ثم دعوتُ فقال: بأن يظفرك الله بأخيك. فقال:

---

(١) المنتظم ١٦/ ٣٠٧-٣٠٨، والكامل ١٠/ ٢١٨.

لكني قلت: يا إلهي، إن كان أخي أصلحَ للمسلمين مني فظفِّرْه بي، وإن كنتُ أصلحَ منه فظفِّرْني به.

وركب يوماً للصيد، فلقيه سواديٌّ يبكي، فوقف وقال: مالك؟ فظنَّه بعضَ الأمراء، فقال: كان معي حمل بطيخ هو بضاعتي، فدخلتُ إلى هذا العسكر لأبيعه، فالتقاني ثلاثةٌ من الغلمان، فأخذوه. فقال له: امضِ إلى العسكر، فهناك خيمةٌ حمراءُ فاقعُدْ عندها حتى أرجع وأُعطيك ما يغنيك. فمضى الرجل، وقعد عند الخيمة، وعاد السلطان، فقال للشرابي: قد اشتهيتُ بطيخاً. ففتَّش خِيَمَ العسكر، فمضى وعاد وأحضر البطيخ فقال: وأين كان هذا؟ قال: في خيمة فلان الحاجب. فقال: أحضِرْه. فحضر فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جابه الغلمان. قال: أريدهم الساعة. فمضى وقد أحسَّ الغلمان بالشر، فهربوا، فعاد الحاجب وقال: هربوا لمَّا علموا أن السلطان يطلبهم، فقال: أحضروا السواديَّ. فحضر فقال: هذا بطيخك؟ قال: نعم. قال: خذه، وهذا الحاجب مملوك أبي ومملوكي، وقد سلَّمتُه إليك، ووهبتُه لك، ووالله لئِنْ تركتَه لأضربنَّ عنُقَك، وقد هرب الغلمان وتعيَّنَ هو. فأخذ السواديُّ بيده وأخرجه، فاشترى نفسه منه بثلاث مئة دينار، وعاد السواديُّ إلى السلطان، فقال: قد بعتُ المملوكَ الذي وهبتَه لي بثلاث مئة دينار. فقال: ورضيت؟ قال: نعم. قال: اقبِضْها وامْضِ مُصاحَباً.

ولقي مرةً تُجَّاراً على عقبة ضيقة، ومعهم بغال عليها أثقال وأحمال[1]، فأراد أصحابُه يُنحُّون البغال إلى جانب الجَبَل، فنهاهم وقال: نحن يمكننا أن نصعد إلى الجبل، وهذه بغال مُحَمَّلة وعليها أثقال، وفي ترقيتها إلى الجبل خطر. فتنحَّى إلى الجبل ووقف حتى مضت البغال وساق.

ولقي امرأةً تمشي فقال لها: إلى أين؟ فقالت: إلى الحج. فأخرج ما كان في خريطته من الدنانير، فطرحه إليها في إزارها وقال: اكتري بهذه، وأنفقيها عليكِ.

---

(١) في (خ): عليها أحمال ثقال، والمثبت من (ب).

وجاء إليه تركمانيٌّ قد لزم تركمانيًّا آخر وقال: هذا وجدتُه مع ابنتي قد انثنى بها، وأريد أن تأذن لي في قتله. فقال: لا، ولكن تُزوِّجها به، ونُعطي المهر من خزانتنا عنه. فقال: لا أقنع إلا بقتله. فسَلَّ السلطانُ السيفَ وأعطاه إيَّاه، وأمسك بيده الجفن، وأمره أن يعيد السيف إلى الجفن، فكلَّما رام الرجلُ ذلك لم يُمكِّنه السلطان، وقال: مالَكَ لا تُدخل السيفَ فيه؟ فقال: ما تدَعُني. فقال: كذلك ابنتُكَ. فبقي الرجلُ متحيِّراً وقال: الأمر إلى السلطان يفعل ما يشاء. فزوَّجه بها، وحمل المهر من الخزانة.

ودخل عليه بعض الوُعَّاظ فحكى له أنَّ بعضَ الأكاسرة انفرد عن عسكره، فجاز على باب بستان، فاستسقى ماءً ليشرب، فأخرجَتْ له صبيةٌ إناءً فيه ماء قصب السكر والثلج، فشربه واستطابه، وقال: هذا كيف يُعمل؟ فقالت: إنَّ قصب السكر يزكو عندنا حتى يُعصر بأيدينا فنُخرج منه هذا الماء. فقال: أحضريني منه شيئاً آخر. فمضت وهي لا تعرفه، فنوى في نفسه اصطفاء المكان لنفسه وتعويضهم عنه، فما كان بأسرع من أن خرجت وهي باكية، فقال لها: مالَكِ؟ فقالت: نيَّةُ سلطاننا قد تغيَّرتْ علينا. فقال لها: من أين علمتِ؟ فقالت: كنتُ آخذُ من هذا الماء ما أريدُ من غير تعسُّف، والآن فقد اجتهدتُ في العصر فلم يسمح بشيء مما كان يخرج عفواً. فعلم صدقها وقال: ارجعي الآن فإنك تبلغين الغرض. ونوى أن لا يفعل ما عزم عليه، فعادت وخرجت ومعها مثل الأول، فقال له ملك شاه: أنت تَحكي لي مثل هذا فلِمَ لا تحكي للرعية أنَّ كسرى اجتاز وحدَه على بستان، فقال للناطور: ناولني عنقوداً من الحصرم، فقد كظَّني العطش، واستولَتْ عليَّ الصفراء. فقال: لا أفعل؛ لأن السلطان لم يأخذ حقَّه منه، وما يُمكنني خيانتُه.

وسار من جَيحون إلى أنطاكية في مئة ألف، فما قدر أحدٌ يقول: إنَّ أحداً أخذ علاقة تبن بغير ثمنها.

ودخل بغداد ثلاث مرات فما نزل أحدٌ دارَ أحد، وكانت السُّوقةُ تمشي ليلاً ونهاراً تخترق عسكره، والسَّوادية يطوفون بالدجاج والتبن والبيض والخبز، والنساء يمشين بين الخيام، ولا يتعرَّض أحدٌ لأحد.

وأسقط من المكوس والضيافات ما قيمتُه ألفي ألف دينار، فكتب إليه النوَّاب: قد ضاقَتْ علينا الأمور، وتعطَّلت المصالح برفع هذه الضرائب، فكتب على رأس الرقعة: المالُ مالُ الله، والعبيدُ عبيدُ الله، والبلادُ بلاد الله، وإنَّما أنا واسطة، وما يبقى لي غير هذا، فمن راجعني فيه ضربتُ عنقه.

وقصده رجلان يُعرفان بابني غزال من قرية تُعرف بالحدادية فتعلَّقا بركابه وقالا: نحن من أسفل واسط من قرية مقطعة لخُمارتكين الحلبي صادَرنا على ألف وست مئة دينار، وكسر ثنيتي [أحدنا بيده][1] وقد قصدناك أيها الملك لتقتصَّ لنا منه، فقد شاع من عدلك ما حَمَلَنا على قصدك، فإن أخذتَ بحقِّنا كما أوجب الله عليك وإلَّا فاللهُ الحاكمُ بيننا وبينك. ونزل عن فرسه وقال: ليُمسِكْ كلُّ واحد منكما بطرف كُمِّي، واسحباني إلى دار حسن ـ يعني نظام الملك ـ فأفزعهما ذلك، ولم يُقدِما عليه، فأقسم عليهما إلَّا فعلا ذلك، فأخذ كلُّ واحد منهما بطرف كمِّه وسارا به إلى باب النظام، وبلغه الخبر، فخرج مسرعاً، وقبَّل الأرضَ بين يديه، وقال: أيها الملك[2] المُعظَّم ما حملَكَ على هذا؟ فقال: كيف يكون حالي غداً عند الله تعالى إذا طولبتُ بحقوق المسلمين وقد قلَّدتُك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا الموقف؟ فإن تَطرَّقَ على الرعية ثَلْمٌ لم يتطرَّقْ إلا بك، وأنت الطالب فانظُرْ بين يديك. فقبَّل الأرض وسار في خدمته، ثم عاد فكتب بعزل خُمارتِكين وحلِّ إقطاعه، وردِّ المالِ عليهما، وقلع[3] ثنيَّتيه إن ثبت ذلك عليه بالبينة، ووصلهما نظام الملك بمئة دينار وأعادهما من وقتهما.

واستحضر ملك شاه مغنيةً مستحسنةً بالري فأعجبَتْه، فتاقَتْ نفسُه إليها وأرادها، فقالت له المغنية: إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يُعذَّب بالنار، إن بين الحلال والحرام كلمة. فقال: صدقتِ، وتزوَّجها.

وقال الجرجاني الواعظ وكان خِصِّيصاً بملك شاه: كانت الباطنية قد أفسدَتْ عقيدته، فكان يقول لي: أيش هو الله؟ وإلامَ تشيرون بقولكم: الله؟ فذكرتُ له أدلة

---

(١) مابين حاصرتين من (ب)، والعبارة في المنتظم: فكسر ثنيتي أحدنا والثنيتان بيده.

(٢) في (ب): أيها السلطان.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: وقطع، والتصويب من (ب) والمنتظم.

النقل، فقال: أريد جواباً حسناً. فكتبتُ إليه: أيها السلطان، إنَّ هؤلاء الجُهَّال يطلبون الله من طريق الحواس والمشاهدة، والله تعالى لا يُعلَم من حيث الحسِّ؛ لأنه مُباينٌ له فجحدوه، وإنما يُعلَم من حيث النقل والعقل، ولابدَّ لهذه الموجودات من صانعٍ صنعها، وخالقٍ ابتدعها، وإلَّا فذهبت فائدةُ الوجود، وذكرتُ كلاماً في هذا المعنى، فقال لي: صدقتَ، ولعنَ اللهُ أولئك القائلين ماقالوا.

ذكر وفاته:

وسببها أنه خرج إلى الصيد بعد صلاة عيد الفطر، فأكل من لحم الصيد فأُتْخِم، فافتصد وحُمَّ. وقيل: إنه طرقَتْه حُمَّى حادَّة فجأةً. وقيل: إن خردك سمَّه[1] في خلال تخلَّل به، فأقام مريضاً مشغولاً بنفسه، مات ليلة الجمعة منتصف شوال، فكان بينه وبين نظام الملك ثلاثةٌ وثلاثون يوماً، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، ومدة ملكه تسع عشرة سنة وستة أشهر.

وأُخرج ليلاً من دار المملكة إلى الشونيزية يحمله رجلان، ولم يُصَلِّ أحدٌ عليه؛ لأنهم كتموا موته[2].

قال السِّمناني: خرج السلطان يوم العيد بعد وصوله إلى العراق في المرة الثالثة، وذلك يوم السبت، فرجع إلى داره يوم الخميس، ولم يَصِلْ إليه أحدٌ من خواصِّه، فكأنه اختُلِسَ من بين العالَم، فلم يُصَلَّ عليه، ولا ظهرت له جنازة، ولا حُذِفَ عليه ذَنَبُ فرس، ولا بكى عليه باكٍ، ولم يُسمع بملك في الإسلام ملك من كاشغر إلى القدس طولاً ومن القسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً سواه، وكان في مملكته جميعُ ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة وحلب والشام، وخُطِبَ له على جميع منابر الإسلام إلا[3] المغرب، وأسقط المكوس من تركستان إلى الشام، وحفر المصانع بطريق مكة، وبنى الربط والخانات في المفاوز، وبنى ببغداد

---

(١) العبارة في (خ): إنه جردك سمكة! والمثبت من (ب) والمنتظم.

(٢) في (ب): أمره.

(٣) في (خ): إلى، والمثبت من (ب).

داراً وأضافها إلى دار المملكة، وحفر بالعراق نهر شبلي والأسحقي وسابروج، فأخرج من النهروان أنهاراً، وكان يحب العمارة والعدل.

قال ابن الهمذاني: وفتح الرُّها وقلعة جَعْبَر وغيرَها، وبلغت عساكرُه إلى القسطنطينة، وأجرى الماء إلى الحرمين، وأجرى على المجاورين الأرزاق، وأزال المواخير من الدنيا، والخمورَ من جَيحون إلى الشام.

وكان الرجل يسير وحده من كاشغر إلى اليمن، ولم تَزلْ دولتُه في إقبال من السعادة وسَعة العطاء بجميع الخلائق من الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء والأدباء والأغنياء والفقراء، وهو أول من صلَّى العيدين من الملوك ببغداد على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بالتكبير.

وكان جواداً، سمحاً، شجاعاً، يباشر الحروب بنفسه، ولم يَلِ من أول الإسلام إلى زمانه من هذه أوصافه ولا من عمَّ[(١)] الدنيا فضلُه وإنصافُه، وكانت سعادتُه بسعادة وزيره نظام الملك مقرونة، وظهرت الأسرار التي كانت في طيِّ الأقدار مخزونة.

ولمَّا تُوفِّي ضبطَتْ زوجتُه خاتون تركان بنت الخان الأمورَ أحسنَ ضبط، فلم يلطِمْ عليه أحدٌ، ولم يشُقَّ ثوباً، وبعثت بخاتمه مع قوام الدولة إلى أصبهان بتسليم قلعتها، وساستِ الأمورَ سياسةً عظيمةً، وفرَّقت في العساكر عشرين ألف ألف دينار، وبعثت إلى الخليفة بتقرير ولدها أبي القاسم محمود وعمره يومئذ خمس سنين وعشرة أشهر، فبعث إليها الخليفة بالخِلَع مع عميد الدولة ابن جَهير، وعزَّاها في السلطان، فألبسها محموداً، وخُطِبَ له على المنابر ببغداد، واستوزرت له تاجَ الملك أبا الغنائم المَرْزُبان بن خسرو، وكان السلطان قد هيَّأ له خِلَع الوزارة ليقيمه مقام النظام، فعاجله القدر، فخلعت عليه خاتون، وفوَّضت الأمورَ إليه، ثم خرجت وابنَها وتاجَ الملك إلى أصبهان بالعساكر يوم الثلاثاء العشرين من شوال، وحُمِلَ الأميرُ أبو الفضل جعفر بن المقتدي إلى أبيه، ووصلت خاتون إلى أصبهان، وكتبت إلى الخليفة أن يكتب لابنها عهداً بالسلطنة، فقال: لا يجوز ذلك؛ لأنه لم يبلغ الحلم، وكتبوا فتاوى، فقال بعض الحنفية ويعرف بالمشطب ابن محمد: يجوز. وقال الغزالي: لايجوز. فأعجبَ الخليفةَ قولُ الغزالي.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

ولمَّا وصلت خاتون أصبهان وجدت غلمان نظام الملك قد أقاموا بركياروق بن ملك شاه في السلطنة، وكان أكبر أولاده [وأمُّه زبيدة](١) وخطبوا له بالملك، وانحاز إليه العساكر، وكان بالري، ولقَّبوه غياث الدين، فأخرجت خاتونُ ثلاثةَ آلاف ألف دينار، وأنفقَتْها في العساكر، وبعثت معهم تاجَ الملك أبا الغنائم، فالتقوا في عشر ذي الحجة بالري، فاستأمن أكثرُ العسكر إلى بركياروق، وانهزم تاج الملك فيمن بقي معه، فلحقه غلمان نظام الملك فقطَّعوه قِطَعاً ومثَّلوا به؛ لأنهم نسبوا قتل النظام إليه، ثم اتفق الصلحُ على أنَّ أصبهان وفارس لخاتون وابنها محمود، وباقي البلاد لبركياروق وهو السلطان، ثم جاء تاج الدولة تُتُش عم بركياروق لقتاله، فخرجت خاتون لتلقِّي تاج الدولة، ثم رجعت من جَرْباذَقَان، وجاء بركياروق إلى أصبهان طارحاً نفسه على أخيه محمود، ومستنجداً به على عمه تاج الدولة، فنزل محمود من السرير وأجلسه عليه، ثم مات محمود بعد قليل، فقيل: حُمَّ فمات. وقيل: كحله بركياروق.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: كان تُتُش قد خرج من دمشق إلى بغداد للقاء أخيه ملك شاه والخدمة له، فوصل الخبر بوفاته، فرجع إلى الرحبة وضايقها، فلم يستقِمْ له فيها أمر، فسار إلى دمشق وحشد، وعاد إليها، وكتب إلى آق سنقر صاحب حلب ومؤيد الدولة يغي شعبان صاحب أنطاكية يسألهما المساعدة، فجاءا بأنفسهما وأنجداه، وضايقها وملكها بالأمان، وكان قد نذر على نفسه متى ملكها شهر سيفَه فيها، فلمَّا دخلها شهر سيفه عند بابها ثم أغمده، فقال: قد وفيتُ بنذري، وأحسن إلى أهلها، وسار إلى نَصيبين، وقد كان إبراهيم بن قريش رجع إلى أعماله الموصل وأعمالها، وغلب ولد أخيه شرف الدولة محمداً وأبعده عن الولاية، ولمَّا نزل تُتُش على نَصيبين خرج إليه واليها طائعاً، وعصاه الجند الذين كانوا بها من أصحاب إبراهيم بن قريش، فملكها بالسيف، وهدم قطعةً من سورها، وقتل كلَّ من التجأ إلى الجامع والمساجد، وهتك أصحابُه البناتِ وفضحوهنَّ، وقتل ألفي رجل، وجرى على المسلمين منه مالا يستحِلُّه الكفار، وكان الأتراك يباشرون النساء في الطرقات، وكان فتوحُها سنة سبع وثمانين وأربع مئة.

---

(١) في (خ): عمر، والمثبت من (ب).

المَرْزُبان بن خسرو(١)

أبو الغنائم، تاج الملك، الوزير، بنى التاجية ببغداد وتربة أبي إسحاق الشيرازي، وعمل لقبره ملبناً.

هبة الله بن عبد الوارث(٢)

ابن علي بن أحمد بن بوري، أبو القاسم، الشيرازي، أحد الرَّحالين في طلب الحديث، وحكى عن والدته فاطمة بنت علي [أنها(٣)] قالت: سمعت أبا زُرعة الطبري يقول: سافرتُ مع أبي إلى المدينة، فلحِقَتْنا إضاقةٌ شديدةٌ، فجلسنا عند الحجرة النبوية وبِتْنَا طاويين. فقال أبي: يارسولَ الله، نحن أضيافُكَ. ونِمْنا، فانتبه أبي، وفي يده دراهم، فقال: يابُنيَّ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ وترك في يدي هذه الدراهم. قال: فأنفقنا منها إلى شيراز، وكانت وفاته بمرو بمرض البطن، وكان في كل مرة يقوم ويغتسل، فقام في تلك الليلة سبعين مرة، فدخل النهر ليغتسل فمات، وكان حافظاً متقناً، ثقةً صدوقاً، صالحاً ديناً.

السنة السادسة والثمانون وأربع مئة

فيها خطب تُتُش لنفسه بالسلطنة، وراسل الخليفةَ بأن يخطب له ويوعده، فماالتفت إليه، وكتب في الجواب: إنما تصلح للخطبة إذا حصلتِ الدنيا بحُكْمِك، والخزائنُ التي بأصبهان، وتكون صاحب المشرق وخراسان، ولم تُبقِ من أولاد أخيك من يخالفك، أما في هذه الحال فلا سبيل إلى ما التمسته، فلا تَعْدُ حَدَّ العبيد، ولْيَكن خطابُك ضراعةً لا تحكُّماً، وسؤالاً لا تجبُّراً، وإن أبيتَ قاتلناك وردَّيناك، وأتاك من الله مالا قِبَل لكَ به.

فلما وقف على ذلك سار إلى الموصل وبها إبراهيم بن قريش، فخرج إليه في بني عقيل، والتقوا على الهرماس فاقتتلوا، فقتل إبراهيم ، وقتل عليه أعيان بني عقيل، وكان علي بن مسلم بن قريش عند بركياروق، فأخبره فعزَّ عليه، وكتب إلى تُتُش يلومه

(١) المنتظم ١٦/ ٣١٣ـ ٣١٤.
(٢) المنتظم ١٦/ ٣١٤ ، والكامل ١٠/ ٢١٨.
(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

ويقول: هؤلاء القوم أصهارنا وأصحابنا، وما بدا منهم مايوجب ما فعلتَ[١]. فلم يلتفت، فبعث إليه بركياروق بجيش عظيم، فرجع تُتُش إلى دمشق، ومضى بركياروق، ودخل بغداد، وتلقَّاه الوزير عميد الدولة والناس.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وعاد تُتُش عن نَصيبين بعدما جرى فيها ما جرى طالباً لإبراهيم بن قريش، وكان قد استنجد وحصل في خلق عظيم، وجاء فنزل شرقي الهرماس، وتُتُش على دارا، فلمَّا كان يوم الاثنين ثاني ربيع الأول التقى الجيشان على نهر الهرماس، واشتدَّ القتال، وقُتِلَ جماعةٌ من الغُزِّ والأتراك، وعاد كلٌّ فريق إلى مكانه، فلمَّا استقر بالعرب المنزل عاد[٢] عسكر تُتُش عليهم وهم غارون، فانهزموا، وأخذهم السيف، وقُتِلَ إبراهيم بن قريش وأمراءُ بني عقيل، وكان القتلى من الفريقين عشرة آلاف، فاستولى تُتُش على القتل والنهب والسبي، وقتلَ كثيرٌ من نساء العرب[٣] نفوسهنَّ خوفاً من الفضيحة، وقصد تُتُش آمِد، فأخذها وأخذ ميَّافارقين، واستولى على ديار بكر والجزيرة، وبعث عمَّاله إلى[٤] الموصل وسنجار، وانهزم بنو عقيل إلى بركياروق، وكان علي بن مسلم بن قريش ووالدته خاتون بنت السلطان محمد بن داود عمة السلطان ملك شاه في جملة بني عقيل، فشكوا إلى بركياروق ما فعل بهم تُتُش، وانفصل عنه آق سنقر بُزان، ودخلا على بركياروق مخالفين له، وعاد تُتُش إلى ديار بكر، وقصد سروج فأخذها، وبلغه أنَّ آق سنقر وبُزان دخلا على بركياروق، فأكرمهما وسُرَّ بمقدمهما، وأنهما وقعا في تُتُش، وقبَّحا أفعاله، وذمَّا سيرته، وأنه على طلب السلطنة، والمصلحةُ معاجلتُه، فسار معهما إلى الموصل، وردَّ إمرة بني عقيل إلى علي ابن مسلم بن قريش، وسار آق سنقر إلى حلب في شوال ومعه جماعة من بني عقيل ومن عسكر بركياروق إلى بغداد، و[سار][٥] تُتُش إلى دمشق في آخر ذي الحجة، ومعه

---

(١) في (ب): ما يوجب ذلك.

(٢) العبارة في (خ): فلما استقر بالعرين الترك! والمثبت من (ب).

(٣) في (خ): الغربين، والمثبت من (ب).

(٤) العبارة في (خ): وبعث عماد الدولة على، والمثبت من (ب).

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

وثَّاب بن محمود بن صالح وجماعة من بني كلاب لم يجرؤوا[١] على الإقامة بحلب خوفاً من آق سنقر.

وفيها فتح العسكر المصري صور، وكان قد عصى بها منير الدولة، فحمل إلى مصر وأصحابه وأجناده، فضرب بدر الجمالي رقابَ الجميعِ، ولم يعْفُ عن أحد منهم، وقطع على أهل صور ومَنْ وافقهم ستين ألف دينار عقوبةً لهم.

وفي هذه السنة وردت الأخبار من[٢] ناحية العراق بإبطال مسير الحاج خوفاً عليه، وسار من دمشق [الحاجُّ][٣] صحبةَ الأمير الحابي أحد أصحاب السلطان، وحجُّوا ولم يُوصِلوا إلى أمير مكة مايرضيه، فلمَّا رحلوا خرج فنهبهم، وعاد مَنْ سَلِم منهم على أقبحِ حال وتخطَّفتهم العرب.

وفيها توفي

جعفر بن المقتدي[٤]

وأمُّه خاتون بنت [السلطان][٥] ملك شاه، وكان قد نشأ نشوءاً حسناً، فحزن عليه الخليفة، وصلَّى عليه، وحُمِلَ تابوتُهُ إلى الرُّصافة، وجلس الوزير في العزاء بباب الفردوس ثلاثة أيام، وكانت وفاتُه يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى.

عبد القادر بن عبد الكريم بن الحسين[٦]

أبو البركات، ولد بدمشق في ذي الحجة سنة تسع عشرة وأربع مئة ، ومات بها في ذي الحجة.

---

(١) في (ب): لم يجسرا.

(٢) في (خ): على، والمثبت من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

(٤) المنتظم ١٧/ ٥ .

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

(٦) تاريخ دمشق ٣٦/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

وكان شيخاً صالحاً، خطب بدمشق لبني العباس والمصريين، وأنشد لبعضهم: [من الطويل]

يُعَدُّ رفيعُ القومِ مَنْ كان عاقلاً وإن لم يكُنْ في قومهِ بحسيبِ
فإنْ حَلَّ أرضاً عاش فيها بعقلِهِ وما عاقلٌ في بلدةٍ بغريبِ

عبد الواحد بن محمد(١)

ابن علي بن أحمد، أبو الفرج، الحنبلي، أصله من شيراز، وولد بحَرَّان، وينتهي نسبُه إلى الأنصار، وقدم بغداد، وتفقَّه على أبي يعلى بن الفراء، ثم عاد إلى حرَّان، وقدم دمشق فأقام بها، ونشر مذهب الإمام أحمد رحمة الله عليه بها وبأعمالها، وصنَّف كتاب «الإيضاح» في مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه، وكان صالحاً، زاهداً، متعبداً، ورعاً، صاحبَ كرامات، مشغولاً بنفسه، يعظ الناس، وتوفي بدمشق في ذي الحجة، ودفن بالباب الصغير، وقبره ظاهر يُزار، والدعاء عنده مستجاب، وكان صدوقاً، ثبتاً، وافرَ العلم، متينَ الدين، حسنَ الوعظ، محمودَ السمت، توفي يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر المذكور.

علي بن أحمد(٢)

ابن يوسف بن جعفر بن عرفة، الهَكَّاري، ويعرف بشيخ الإسلام ـ والهَكَّارية: جبالٌ فوق الموصل فيها قُرًى وبِنًى ـ [وابتنى(٣)] أبو الحسن عليٌّ المذكور أربطةً، وقدم بغداد، ونزل برباط الزُّوزني، وسمع الحديث، وكان صالحاً من أهل السنة، كثيرَ التعبد، وكان يقول: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام [في الروضة في المدينة(٤)] فقلت: يارسول الله أوصني، فقال: عليك باعتقاد أحمد بن حنبل ومذهب الشافعي رضي الله عنه، وإيَّاك ومجالسةَ أهل البدع.

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٦٨ ـ ٧٣، والكامل ١٠/ ٢٢٨. وينظر السير ١٩/ ٥١.
(٢) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩، في المنتظم ١٧/ ٧، والكامل ١٠/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ وذيل تاريخ بغداد ٣/ ١٧٣ ـ ١٧٥، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص٣٢٦ ـ ٣٢٨. وينظر السير ١٩/ ٦٧.
(٣) ما بين حاصرتين من المنتظم، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٦٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٨.
(٤) ما بين حاصرتين من (ب) والمنتظم، إلا أنه وقع في المنتظم: المدرسة، بدل: المدينة.

وكانت وفاته في المُحرَّم ببلده، وكان شيخَ بلاده في التصوف، من السيَّاحين في الدنيا، أول مرة سافر إلى الأمصار وتغرَّب ولقي المشايخ، وكان من أرباب المجاهدات والرياضات والخلوات، وقد غمزه ابن عساكر، وظاهِرُ حاله الصدق.

نصر بن الحسن بن القاسم(١)

أبو الليث، التاجر، التُّنُكُتي، وتُنُكُتْ(٢) بلدة عند الشاش بما وراء النهر، ولد سنة سبع وأربع مئة، وطاف الدنيا شرقاً وغرباً من الصين إلى الأندلس مدةً، وسمع الكثير، وكان ثقةً، صدوقاً، مأموناً، فاضلاً، من أهل الثروة والنِّعم والصِّلات والصدقات، وعاد إلى خراسان، فتوفي بنيسابور، وخلف مئة ألف دينار وثلاثين ألف دينار.

السنة السابعة والثمانون وأربع مئة

فيها تُوفي المقتدي ببغداد والمستنصر وبدر الجمالي بمصر، وقُتِلَ آق سنقر وبُزان، وتُسمَّى سنةَ الخلفاء والأمراء. ويُقال: إن المريخ وزُحل إنما اقترنا في برج الأسد في هذه السنة.

وكانت زلزلةٌ عظيمةٌ في المُحرَّم ما بين العشاءين حدث بها الفتن وغلاء الأسعار(٣).

الباب الثامن والعشرون في خلافة المستظهر بالله أحمد بن عبدالله المقتدي، وكنيته أبو العباس، وأمه طيف الخيال، أم ولد، مصرية، وقيل: تركية، ولد في شوال سنة سبعين وأربع مئة، وكان له يوم بويع بالخلافة ست عشرة سنة وشهران وأيام، وبُويع بالخلافة يوم الثلاثاء ثامن عشر المُحرَّم بعد موت أبيه بثلاثة أيام، وتولَّى البيعة له عميد الدولة ابنُ جَهير، وحضر نظام الدين بن نظام الملك وزيرُ السلطان والقضاةُ والأعيانُ وطِراد

(١) المنتظم ١٧/ ٩ ، والكامل ١٠/ ٢٢٧-٢٢٨ ، والأنساب ٣/ ٨٨، وجذوة المقتبس ص٣٥٦ ، وذُكِرَت له كنيتان: أبو الليث وأبو الفتح. وينظر السير ١٩/ ٩٠ .

(٢) في الأصلين (خ) و(ب) : تنكتان، والمثبت من المصادر.

(٣) الخبر في المنتظم ١٧/ ١١

الزينبي والغزالي والأماثل وسيف الدولة صدقة بن مَزْيَد، وكان المقتدي قد نصَّ عليه وولَّاه العهد، ولمَّا بُويع قال لعميد الدولة: أنت على وزارتك والأمور مفوَّضَةٌ إليك. فقال: هذا وقت صعب، وعندنا السلطان، والخزائن مقفلة، ونحتاج إلى المال. فقال: هذه الخزائن بين يديك، تصرَّفْ كما تختار من غير مراجعة ولا استئمار. ففتح الخزائن، وأخرج الأموال، وفرَّقها في العساكر، ثم استدعى المستظهر بركياروق إلى حضرته، وخَلَع عليه خِلعَ السلطنة، وتقرَّرت الخلافة والملك في المُحرَّم.

وفي شعبان وَلِيَ أبو الحسن الدامَغاني قضاءَ القضاة وخُلِعَ عليه، وولَّى أخاه أباجعفر قضاء الرُّصافة، ومن أعلى بغداد إلى الموصل(١).

وفيها حشد تُتُش، وسار من دمشق إلى حلب وأفسد ضواحيها، وكتب بركياروق إلى بُزان وكربوقا(٢) ليسيرا إلى حلب فيُنجدا آق سنقر، فسارا إليه، ونزل آق سنقر من قلعة حلب، وساروا جميعاً، والتَقوا بتُتُش بين قِنَّسْرين وتل السلطان، فكان بينهم قتال عظيم، أُسِرَ فيه آق سنقر وبُزان وكربوقا، وقُتل معظمُ أصحابهم، وانهزم الباقون، وغَنِمَهم تُتُش، واعتُقل بُزان وكربوقا بحمص، وأحضر آق سنقر وقال له: لو ظفرتَ بي ماكنتَ تفعل بي؟ قال: أقتُلُك. قال: فأنا أحكم عليك بما حكمت به عليَّ. فقتله وصلبه، ثم سار إلى حلب، فأخذها وعبر الفرات، وجاء إلى الرُّها، فعصوا عليه، فقتل بُزان ورمى برأسه إليهم، وأقام كربوقا معتقلاً بحمص حتى أُطْلِقَ بعد قتل تُتُش، ثم استولى على الجزيرة وديار بكر، وكان قد فعل بأهل نَصيبين مافعل، فأرسل إلى أهل ميَّافارقين، وكانوا قد اتفقوا ـ عند نزول الكافي بن جَهير من عندهم وموت ملكشاه ـ على الشيخ أبي سالم يحيى بن الحسن بن المنجور، فامتنع، فأصعدوه برج الملك كرهاً، وسلَّموا إليه مفاتيح البلد، وكان قوم تُتُش بدمشق، فكان ناصر الدولة منصور ابن مروان مقيماً بِجزْبى، فأصعد إلى جزيرة ابن عمرو وملكها وأقام بها، وكاتبه قومٌ

(١) الخبر في المنتظم ١٧/ ١٤.

(٢) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) هنا وفي الأماكن الآتية إلى: كربوعا، والتصويب من مصادر ذِكْره.

من أهل ميَّافارقين، وكرهه آخرون لما رأوا من عدل ابن جَهير، وكان ابنُ أسد الفَارقي الشاعر[له[١]] عشيرة، فاجتمعوا إليه، وانضاف إليهم العوام، وصاروا يدورون في البلد على سبيل الحفظ له، وطال على الناس جواب بركياروق، وكانوا قد كاتبوه، وجاء تُتُش من دمشق، وفعل بأهل نصيبين مالا يفعله الكفار، فخاف أهلُ ميَّافارقين منه، فجاء إليه أعيانُهم وسألوه المسيرَ إليهم، وابن المنجور في برج الملك بحاله[٢]، وكان قد سار إلى تُتُش ابنُ زيدان والقاضي ابنُ صدقة وغيرُهما، فالتقاهم تُتُش وأكرمهم، وقال: تصبرون أياماً ونسيرُ جميعاً. وكان منصور بن مروان مقيماً بالجزيرة، فأرسل إلى أبي نصر الفارقي فوعده بالجميل، فاستدعاه وسلَّم إليه البلد، فدخل، واستوزره، ولقَّبه محيي الدولة، وأمِنَ ابنُ المنجور على نفسه، فنزل من البرج، ثم خرج إلى نَصيبين يطلب أباه، وكان قد خرج مع القاضي وغيره فوجدهم قد ساروا مع تُتُش إلى آمِد، ففتحها، ثم جاء إلى ميَّافارقين في هذه السنة وخوَّفهم، ففتحوا له الباب، وخرج منصور إلى المخيم، فاستجار بوزير السلطان أبي النجم، فأجاره، وسلَّم تُتُش ميَّافارقين إلى الوزير ابن الأنباري الذي كان ابنُ جَهير أمر بقتله، فأقام بها إلى أن قَتل تُتُش ابنَ أسد الفارقي الشاعر، فاستوحش منه، وخرج إلى الهيَّاج، فأقام به مدة، وكان معه ولده الأمير أبو القاسم وولده أبو سعد وابنُ أخيه محمد بن السديد، وكان أخوه السديد أبو الغنائم بميَّافارقين، فقبض عليه طُغْتُكِين مملوك تُتُش، وأقام ابنُ الأنباري بالهيَّاج، ثم ألحَّ تُتُش في طلبه، فسُلِّم إليه، فضرب عنقه وعنق ولده أبي القاسم عند ملطية في هذه السنة، وقتل طُغْتُكِين السديدَ أبا الغنائم بميَّافارقين، ضرب عنقه على بابها في رجب، وكان صائماً، فعرض عليه الماء، فقال: لا والله لا ألقى الله إلَّا صائماً. فقتلَ تُتُش بعدُ أولادَ الأنباري شرَّ قِتلة.

ولمَّا قَتل تُتُش ابنَ الأنباري على ملطية سار إلى عراق العجم يريد الاستيلاء على الممالك، وخرج بركياروق من بغداد يقصد الجزيرة للقائه.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (ب): المملكة.

قال السِّمناني: وكتب تُتُش إلى الأمراء بأصبهان ليطيعوه، فأجابه بعضُهم، وكانت خاتون تركان مقيمةً بهَمْدان، فكتبت إليه وأطمَعَتْه في نفسها، فسار على طريق أذربيجان متباعداً عن بركياروق، فأخذ خلاط ومنازكرد وإرمينية، وسار إلى همَذَان، وخرجت خاتون للقائه، فتوفِّيت بين هَمَذان وأصبهان، ووصل هَمَذان وبها فخر الملك ابن نظام الملك وزير بركياروق، فأراد قتْلَه، فشفع فيه بعيسان، فتركه، واستولى تُتُش على الممالك من باب الري إلى القدس، وأما بركياروق فإنه وصل أصبهان وحشد ما قدر عليه، وأنفذ تُتُش من هَمَذان إلى بغداد يوسف بن آبق التركماني وعلى يده كتب، وقد أضمر السوء، فنزل دار المملكة ولم يلتفِتْ إليه. وقيل: إنماكان ذلك في السنة الآتية، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

آقسُنْقُر بن عبد الله(١)

قسيمُ الدولة، كان شجاعاً، عادلاً، منصفاً، وكان الملوك السلجوقية يحترمونه، ولم يكن له ولد غير زنكي، فلمَّا قُتِلَ انضمَّ إلى مماليك أبيه وصار معهم.

بدر(٢)

الجَمالي، الأرمني، أميرُ الجيوش، وولي الشام والساحل للمستنصر، ثم خالفه، وأقام بعكا، ثم استدعاه المستنصر إلى مصر، وفوَّض إليه الأمور، فاستقامت وسكنت الفتن، وكانت وفاته في ذي الحجة. وقيل: في سنة خمس وثمانين.

ولمَّا مات ولَّى المستنصرُ ولدَه أبا القاسم شاهنشاه، ولقبه الأفضل، فأحسن إلى الناس، وشاع فضلُه في الدنيا، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وقف الشعراء بباب بدر بمصر فَكُلٌّ آيَسَهُمْ، وخرج بدر إلى الصيد، فخرج علقمة الشاعر في إثره، وعمل في عمامته ريشَ النَّعام كأنه مظلوم، فلمَّا قرب منه أنشده: [من الكامل]

نحن التُّجارُ وهذه أعلاقُنا ... دُرٌّ وجُودُ يمينِكَ المُبتاعُ

---

(١) تنظر مصادر الترجمة في السير ١٩/ ١٢٩ .

(٢) الكامل ١٠/ ٢٣٥-٢٣٦ . وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٩/ ٨١ .

قَلِّبْ وفَتِّشْها بسمعِكَ إنَّما هي جوهرٌ تختارُه الأسماعُ
كَسَدتْ علينا بالشَّآمِ وكُلَّما قلَّ النِّفاقُ تعطَّلَ الصُّنَّاعُ
فأتاكَ يحمِلُها إليكَ تِجارُها ومَطِيُّها الآمالُ والأطماعُ
حتى أناخوها ببابِكَ والرَّجا من دونِك السمسارُ والبيَّاعُ
فوهَبْتَ مالم يُعْطِهِ في دهرِهِ هَرِمٌ ولا كعبٌ ولا القعقاعُ
وسبقْتَ هذا الناس في طلب العُلا فالناسُ بعدكَ كلُّهمْ أتباعُ
يا بدرُ أُقسِمُ لو بِكَ اعتصمَ الورى ولَجَوْا إليك جميعهُم ما ضاعوا

وكان على يده بازٍ، فدفعه إلى البازدار، وقبض على يد علقمة، وانفرد به عن الجيش، وجعل يستنشده الأبيات ويردِّدُها حتى عاد إلى مجلسه، ثم التفت إلى غلمانه وخاصَّته وقال: مَنْ أحبَّني فليخلَعْ عليه. قال علقمة: فوالله لقد خرجتُ من عنده ومعي وقر سبعين بغلاً من الخلع، وأمر لي بعشرة آلاف درهم، فقلت لمن ببابه من الشعراء والقُصَّاد: يا متخلفين الحقوا بي إلى منزلي. فلحِقُوني، مامنهم إلا من خلعتُ عليه وأعطيتُه من جائزتي.

تركان بنت طغراج الملك(١)

من نسل أفراسياب ملك الفرس، وكانت حازمةً [حافظةً](٢) شهمة، قادت الجيوش، وكان في خدمتها عشرة آلاف فارس إلى أن توفِّيت، ودبَّرت الأمور بعد موت ملك شاه، وحفظت أموال التجار فلم يذهب لهم عقال، وكانت صاحبة أصبهان، وتباشر الحروب، وتوفِّيت في رمضان. وقيل: إنما سُمَّت في الطريق.

الحسن بن أسد(٣)

أبو نصر، الفارقي، الشاعر، قد ذكرنا أنه سلَّم ميَّافارقين إلى منصور بن مروان، فلما دخلها تُتُش اختفى، فلمَّا عاد تُتُش إلى حرَّان ظهر ووقف بين يديه، وأنشده: [من البسيط]

(١) المنتظم ١٧/ ١٤ ، والكامل ١٠/ ٢٤٠ .
(٢) ما بين حاصرتين المنتظم.
(٣) معجم الأدباء ٨/ ٥٤-٧٥ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٨٠.

فاستَحلبَتْ حلبُ جفنيَّ فانهملا ... وبشَّرَتْني بحرُّ القتلِ حَرَّانُ

فقال تُتُش: من هذا؟ فقيل له: [هذا ابنُ[1]] أسد الذي حشد الجموع قبل دخولك ميَّافارقين وسلَّمها إلى ابن مروان، فقال: اضربوا عنقَه. فضربوا عُنُقَه، وكان قولُه: «وبشَّرتْني بحرِّ القتلِ حرَّانُ» فألاً على هلاكه.

وكان شاعراً، فصيحاً، فاضلاً، عارفاً باللغة والأدب، من أعيان أهل ميَّافارقين، ومن شعره: [من البسيط]

يامَنْ إذا ما بدا والبدرُ كانَ لَهُ ... عليهِ في الحُسْنِ إشراقٌ ولَألاءُ
كم [قد][1] سألتُكَ لي وصلاً فلا نَعَمٌ ... كانت جوابَكَ لي فيه ولا لاءُ

وقال أيضاً: [من البسيط]

ما العمرُ لو فهِمَ الإنسانُ غايتَهُ ... إلَّا مكارِهُ لا تَفنى وأسواءُ
وما البريةُ إلَّا واحدٌ وهُمُ ... في قيمةِ الذاتِ أكفاءٌ وأسواءُ

وقال أيضاً: [من المتقارب]

إذا ما نبا بلدٌ بي رحَلْتُ ... وألقيتُ حبلي على غاربي
وأصبحتُ ذا كوكبٍ طالعٍ ... لجوبِ المفاوزِ أو غاربِ
فباعِدْ إذا ما نويتَ الرَّحيلَ ... بهمِّكَ في الأرضِ أو قاربِ
[فمَنْ لجَّ في خوضِ لُجِّ الفَلا ... ةِ لم يقربِ الموتَ من قاربِ][1]
فسِرْ أو تموتَ غريباً بغيرِ ... أخٍ لك راثٍ ولا نادبِ
وإنْ أنتَ ناديتَ أهلَ الحِفاظِ ... فعرِّضْ بذكريَ أو نادِ بي
يُجِبْكَ فتًى نَسبَتْهُ الكِرامُ ... مفاخِرُه حليةُ الناسبِ
شَرُفْتُ فأكثرتُ غيظَ الحسودِ ... وأنكَرني أعرَفُ الناسِ بي

وقال أيضاً: [من الوافر]

قديماً كان في الدنيا أناسٌ ... بهمْ تحيا العُلا والمكرماتُ
فلمَّا عالَ فِعْلَ الخيرِ دهرٌ ... بهِ عاشَ الخنا والمكرُ ماتوا

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

وقال: [من الطويل]

إذا نِلْتَ مِنْ دنياك خيراً ففُزْ بِهِ ... فإنَّ لِجَمْعِ الدَّهرِ من صَرْفهِ شَتَّى
فكَمْ مِنْ مُشَتٍّ لَمْ يُصَيِّفْ بأهلِهِ ... وآخرُ لم يدرِكْهُ صيفٌ إذا شَتَّى

وقال: [من السريع]

ليثٌ بلا خُرقٍ ولا لوثةٍ ... والخُرقُ واللوثةُ في اللَّيثِ
غيثٌ بلا غَيثٍ[1] إذا ما هما ... والغيثُ لا يخلو من الغَيثِ

وقال أيضاً من شعره: [من الوافر]

وإخوانٍ بواطِنُهم قِباحُ ... وإنْ أضحَتْ ظواهِرُهم مِلاحا
حسبْتُ مياهَ وُدِّهِمُ عِذاباً ... فلمَّا ذُقْتُها كانَتْ مِلاحا

وقال: [من المتقارب]

أتيتُ إلى دارِهِ البارِحَهْ ... وفي كلِّ ناحيةٍ نائِحَهْ
وقدْ عَلقتْهُ أكُفُّ المنون ... ففي كلِّ جارحةٍ جارِحهْ

وقال: [من المنسرح]

كم ساءني الدَّهرُ ثم سرَّ فلَمْ ... يُدِمْ لنفسي همًّا ولا فرحا
ألقاه بالصَّبرِ ثم يَعْرِكُني ... تحتَ رحًى مِنْ صروفِهِ فرحى

وقال: [من الطويل]

بعُدْتَ فقد أضرَمْتَ ما بين أضْلُعي ... ببُعْدِكَ ناراً شَجْوُ قلبي وَقودُها
وكلَّفْتُ نفسي قطعَ بيداءَ لوعةٍ ... تكَلُّ بها هُوجُ المهارَى وَقودُها

وقال: [من البسيط]

كم خاطبَتْني خطوبٌ ما عبأتُ بها ... ولَمْ أقُلْ جزعاً عن حَوْزتي جوزي
علماً بأنِّي مجزيٌّ بمكتسبي ... إنِ امرؤٌ بجوازي فِعلِهِ جوزي

وقال: [من البسيط]

يا مَنْ تُسَلُّ علينا من لواحظِهِ ... بيضٌ وتُشْرَعُ من ألحاظِهِ أسَلُ

---

(١) الغيث: الإفساد. اللسان (غيث).

بحقِّ مُعطيكَ هذا الحُسنَ صِلْ دَنِفاً ... فإنَّني منكَ غيرَ الوصلِ لا أسَلُ

وقال: [من الخفيف]

صِرْتُ في الناس أجنبياً لأنِّي ... في زمانٍ لم ألْقَ فيه وفيَّا

فيه غدرٌ وفيَّ حُسْنُ وفاءٍ ... فتأمَّلْ ما قلتُ فيهِ وفِيَّا

المقتدي بأمر الله(١)

عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله، وكنيته أبو القاسم، ومولده في جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وأربع مئة، وأمه أُرْجُوان أمُّ ولد، أرمينية. وقيل: قرة العين

كان من رجال بني العباس، له همَّة عالية، وشجاعةٌ وافرة، وفي زمانه قامت حشمة الدولة العباسية، وخُطِبَ له في الشرق بأسره، وبما وراء النهر وغَزْنة والهند والصين والجزيرة والشام واليمن، وكانت أيامُه كثيرةَ الخيرات، عمرت فيها بغداد، واسترجع المسلمون الرُّها وأنطاكية في خلافته، وكان قد تقرَّر مع السلطان بركياروق لمَّا قدم بغداد أن يحمل مال البيعة وأن يخطب له بالسلطنة على رسم أبيه، وتقدم إلى أبي سعيد ابن الموصلايا أن يكتب عهده، فكتبه، وهُيِّئت الخِلَع، وذلك يوم الجمعة رابع عشر المُحرَّم، وحُمِلَ العهدُ إلى الخليفة في هذا اليوم، فوقع فيه وتأمل الخِلَعَ، ثم قُدِّمَ إليه طعامٌ فتناول منه ثم غسل يده، وأقبل على النظر في العهد وبين يديه شمس النهار القهرمانية، فقال لها: من هؤلاء الأشخاص الذين دخلوا علينا بغير إذن؟ قالت: فالتفتُّ فلم أرَ أحداً. وتغيَّرت حالُه، واسترخَتْ يداه ورجلاه، وانحلَّت قُواه، وسقط إلى الأرض، فظننتُها غشيةً، ومرةً غلبت عليه، فحللتُ إزاره، فوجدتُه ليس فيه عرق يضرب، فتيقَّنتُ موتَه، فسكنتُ وتماسكتُ، وكانت عندي جاريةٌ، فقلت لها: ليس هذا وقت الجزع، فإن صِحْتِ قتلتُكِ، وأفردْتُها في حجرة، وغلقتُ عليها الباب، ثم استدعيتُ يمن الخادم صهري على ابنتي، وقلت: أحضِرْ لي عميد الدولة. فحضر عند

---

(١) المنتظم ١٧/ ١٤، والكامل ١٠/ ٢٣١-٢٣٣.

اختلاط الظلام، وقد خاف وذَهِل عقلُه، فلما رأى القهرمانةَ خدمها على عادته وأبلغ، فدخلت الحجرة كأنها تشاور، ثم خرجت وقالت: الخليفةُ مودِّع، وسينتبه عن قريب. ثم فاوضَتْهُ في أحاديثَ وقالت له: قد عجزتُ عن الخدمة، وأريد الحجَّ، وأن تسأل أمير المؤمنين في ذلك، وأنت شفيعي إليه، واستحلفَتْه وأكَّدَتْ عليه الأيمان أن يحفظها في المشهد والمغيب، فلما استوثَقَتْ منه قالت له: قُمْ. فدخل فرأى الخليفةَ مُسَجًّى، فأجهش في البكاء، واستدعى وليَّ العهد وعرَّفه الحال، فبكى، ثم بايعه، وكانت وفاتُه فجأةً ليلة السبت خامس عشر المحرَّم. وقيل: إن القهرمانة سمَّته في ذلك الطعام لأنها خافَتْه، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة وثمانية أشهر ويومين، وخلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ويومين، وصلَّى عليه ولده المستظهر، وحُمِلَ تابوتُه إلى الرُّصافة، ووَزَرَ له فخر الدولة ابنُ جَهير وابنُه عميد الدولة، ثم أبو شجاع، ثم عزله وأعاد عميدَ الدولة، وكان على قضائه أبو عبد الله الدامَغاني، ثم أبو بكر الفامي، وحاجبه أبو عبدالله المردوسي، ثم أبو نصر بن المفرج، وخلَّف ستَّ بنين.

محمد بن أبي هاشم[1]

أمير مكة، كان ظالماً، جباراً، فاتكاً، سفاكاً للدماء، مسرفاً، متلوناً، تارةً مع الخلفاء، وتارةً مع المصريين، وكان يقتل الحاجَّ ويأخذ أموالهم، وكانت وفاته بمكة وقد ناهز السبعين[2] فرح المسلمون بموته، وقام بعده ولده هاشم.

المستنصر مَعَد

ابن علي الظاهر بن منصور، الحاكم، أبو تميم، صاحب مصر، ولد بالقاهرة سادس عشر جمادى الآخرة سنة عشرين وأربع مئة، وبُويع يوم مات أبوه وهو يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين، وعمره يومئذ سبع سنين وسبعة وعشرون

(١) الكامل ١٠/ ٢٣٩.
(٢) في (ب): التسعين، والصواب ما أثبتُّه، وهو الموافق لما في الكامل ١٠/ ٢٣٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٤٠.

يوماً، وخُتِنَ وهو ابن ست سنين، وأقام والياً ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يَلِ أحدٌ من الخلفاء الأمويين والعباسيين والمصريين مثلَ هذه المدة، وعاش سبعاً وستين سنة وخمسة أشهر في الهزاهز[١] والشدائد والوباء والغلاء والجلاء والفتن، وكان القحط في أيامه سبعَ سنين مثل سنيّ يوسف الصِّدِّيق صلوات الله عليه، من سنة سبع وخمسين[وأربع مئة] [٢] إلى سنة أربع وستين وأربع مئة، أقامت البلاد سبع سنين، يطلع النيل فيها وينزل، ولا يوجد مَنْ يزرع؛ لموت الناس، واختلاف الولاة والرعية، فاستولى الخرابُ على البلاد، ومات أهلها، وانقطعت السُّبُل براً وبحراً، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين، وكانت وفاته يوم عيد الفطر وهو يوم الخميس ثامن عشر من ذي الحجة، وبايعَ الناسُ ابنَه أبا القاسم أحمد، ولُقِّب بالمستعلي بالله، وتُوفِّي سنة خمس وتسعين وأربع مئة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في أيامه ثارت[٣] الفتن في[٤] بني حمدان وأكابر القُوَّاد، وغلَتِ الأسعار، واضطربَتِ الأحوال، واختلَّتِ الأعمال، وحصره ماءٌ في قصره[٥]، وطُمِعَ في خلعه؛ لضعف أمره، ولم يَزَلْ على ذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدراً الجمالي من عكَّا إلى مصر، فاستولى على التدبير، وقتل جماعة ممن يطلب الفساد، فتهمدت الأمور، ولم يبقَ للمستنصر أمرٌ ولا نهيٌ إلَّا الركوب في العيدين، ولم يزَل كذلك حتى مات بدر وقام بعدَه ولدُه الأفضل، ولمَّا مات المستنصر وقام المستعلي مقامَه وتقرَّرت الأمور خرج عبدالله ونزار ابنا المستنصر من مصر خيفةً، وقصد نزار الإسكندرية، وحصل عند نصير الدولة واليها، وجَرَتْ بينه وبين الأفضل حروب.

---

(١) المثبت من (ب)، والهزاهز: الابتلاءات والفتن. ووقع في (خ): الهزائز: وهي الشدائد.
(٢) ما بين حاصرتين من (ب).
(٣) في (خ): كانت، والمثبت من (ب).
(٤) في (خ): بين، والمثبت من (ب).
(٥) العبارة في (خ): حصر في قصره، والمثبت من (ب).

السنة الثامنة والثمانون وأربع مئة

قد[١] ذكرنا مسير تُتُش إلى هَمَذان، وكان بعث ولده فخر الملوك رضوان يطلبه بعساكر الشام، فسار ومعه الأمير[٢] نجم الدين إيل غازي بن أُرتق، ووثَّاب بن محمود بن صالح، وجماعةٌ من أمراء العرب، فنزلوا على الرحبة، وبعث تاج الدولة تُتُش يوسف بن آبق[٣] التركماني إلى بغداد في صفر لإقامة الدعوة [له][٤] فلم يلتفت إليه. وقيل: أُخرِجَ إليه حاجبٌ من الديوان، فلمَّا لقيه ضربه يوسف ونزل بدار المملكة، وكان في عزمه نهب بغداد، فاستعدَّ له الوزير، وأحضر صدقة بن منصور وكان نافراً عن تُتُش، فبينا يوسف على عزم السوء جاءه أخوه فأخبره بقتل تاج الدولة تُتُش، فانهزم إلى حلب.

وفي ربيع الأول خُطِبَ لولي العهد أبي منصور الفضل بن المستظهر.

وفي ربيع الآخر خرج الوزير عميد الدولة فخطَّ السُّور على حريم دار الخلافة بأمر المستظهر، وهذا السور مذكورٌ في الملاحم، وأنه يسعى في بنائه رجلٌ أصفرُ من بني تغلب [يعني[٥]] عميدَ الدولةِ ابن جَهير، قال الشاعر: [من الطويل]

إذا طَلَع المرِّيخُ من أرض بَابِلٍ ... وقارَنَهُ النَّجمانِ فالهربَ الهربْ
ويبني على الزَّوراء أصفرُ تغلِبٍ ... على الجانبِ الشَّرقي سوراً على شَغَبْ
ويبنيهِ غلمانٌ يُخالطهم نِسا ... وفيهم رجالٌ بالمزاهرِ واللُّعَبْ

ولمَّا خطَّ الوزير السُّور تقدَّم بجباية المال الذي يحتاج إليه من عقارات الناس ودُورِهم، واجتمع أهلُ المحالِّ بالأعلام والبوقات والدَّبادب وأنواع الملاهي والزمور والخيالات، وجرى من المنكرات وإخراق الربعة ما لم تجْرِ به عادة، وساءت السمعة باجتماع الرجال والنساء والمخانيث واختلاطهم، فأنكر علي بن عقيل على الوزير، وكتب إليه كتاباً طويلاً من جملته: كان هذا الخرق الذي جرى بالشريعة عن عمدٍ لمناصبة واضعها، فما بالُنا نعتقد

---

(١) قبلها في (خ) زيادة كلمة: فيها.
(٢) بعدها في (خ) زيادة كلمة: ابن.
(٣) تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: أرتق، وقد تقدم ـ على الصواب ـ قريباً.
(٤) ما بين حاصرتين من (ب) والمنتظم ١٧/ ١٥ .
(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

القرآن ورواية الأحاديث؟ وإذا نزلَتْ بنا نازلةٌ تقدمنا بجموع الختمات والأدعية عقيبها؟ وأين هذا من طبول وزمور مخانيث وخيالات وكشف عورات؟ ومعنى هذا أننا مستهزؤون بحكم الله لا نبالي به، فبأيِّ وجه نلقى محمداً ﷺ؟ وأيُّ حرمةٍ تبقى لنا عند الله؟ ثم إنكَ يا ابن جَهير تقيم الحدود في عتبة باب تأمر بلثم ترابه، ثم تمزج العوامَّ في المنكر المجمع على تحريمه. وذكر كلاماً طويلاً بمعناه، فلم يلتفت إليه، وجرت الأمور على ماهي عليه حتى استدار سور الحريم.

وفي رمضان جرحَ السلطانَ بركياروق إنسانٌ سِجْزيٌّ، فأخذ فأقرَّ على رجلين سِجْزيَّين أنهما أعطياه مئة دينار، فقُتِلَ الرجل، وأُخِذَ الرجلان فقُرِّرا، فطُرِحَ أحدُهما تحت أرجل الفِيَلَة، فقال: خلِّصوني حتى أُقِرَّ. فخلَّصوه، فقال لرفيقه: ياأخي، لا بُدَّ من هذه القتلة فلا تفضح أهل سجستان بإفشاء سرِّهم. فقُتِلا.

وفي ذي القعدة خرج أبو حامد الغزالي من بغداد متوجهاً إلى البيت المقدس زاهداً في التدريس بالنظامية، لابساً خشن الثياب بعد ناعمها، وناب عنه أخوه أحمد في التدريس، وعاد في السنة الثالثة من خروجه منها، وقد صنَّف كتاب «الإحياء»، ثم حجَّ سنة تسعين وعاد إلى بلده.

وقال بعضهم: ولمَّا دخل بغداد قُوِّم ما عليه من الثياب والطوق في عنق بغلته بألف دينار، ثم عاد إلى بغداد وجميعُ ما عليه يساوي ديناراً، فنزل في رباط أبي سعيد الصوفي، واجتمع إليه خلقٌ كثير يسمعون عليه الأخبار.

وفيها اصطلح أهل السنة والشيعة ببغداد، ودخل أهل باب البصرة الكَرْخ، ودخل أهل الكَرْخ إليهم وعملوا الدعوات وتزاوروا، وجاء أهل باب الأزج المختارة، ودخل أهل المختارة إلى باب الأزج، وهذا من العجائب، ما جرى مثلُه ببغداد إلا نُوبة النسوي؛ بغضاً لولاية النسوي عليهم، أما في هذه النُّوبة فبغير سبب ظهر لكنها خطرات[١].

---

(١) هذه الأخبار بنحوها في المنتظم ١٧/ ١٥-١٨ ، والكامل ١٠/ ٢٥١-٢٥٢ .

وفيها تُوفِّي

تُتُش بن ألب أرسلان

محمد بن داود بن ميكائيل، أبو سعيد، تاج الدولة، كان مقيماً بالشرق، فاستنجده أتْسِز الخُوارَزمي صاحب الشام، فقدم دمشق سنة اثنتين وسبعين وأربع مئة، فقَتَلَ أتْسِز، واستولى على دمشق، وامتدَّت أيامه، وهو الذي قتل آق سنقر وبُزان، وسار إلى الشرق وملك هَمَذان، وكان ابنُ أخيه بركياروق بالري قد حشد وجمع ثلاثين ألفاً، وتُتُش في خمسة عشر ألفاً، فالتقوا على الري يوم الأحد سابع [عشر[1]] صفر هذه السنة، وكان تُتُش في القلب مقابل بركياروق، وكان لمَّا قُتِلَ آق سنقر وبُزان أخذ جماعةً من الأمراء فقتلهم بين يديه صبراً، وكان بكجور من أكابر الأمراء، فقتل أولاده [بين يديه] صبراً، وأفلت إلى بركياروق، وكان تُتُش قد نادى في عسكره قبل المصاف بيوم: مَنْ ظفرتم به من عسكر بركياروق فاقتلوه، ومن بقي بعد الحرب فأنا أقتله. فاستشعر العسكر منه، فلمَّا التقوا على الري استأمن أكثرُ عسكر تُتُش إلى بركياروق، وجاء بكجور إلى بركياروق وهو يبكي على أولاده، فقال: قد قتل عمُّكَ أولادي بين يديَّ صبراً، وأنا قاتله بأولادي لآخذ بثأري. فقال: افعَلْ. فلما نشبت الحرب واختلط الناس قصد بكجور تاجَ الدولة فطعنه فألقاه عن فرسه، ونزل [سُنْقُرجه ـ وكان صاحبَ ثأرٍ ـ] فحزَّ رأسه. وقيل: رماه مملوك بُزان بسهم في ظهره فوقع، فقتلوه وأتوا برأسه إلى بركياروق، فطِيفَ به في العسكر، وبعث به إلى بغداد، وانهزم أصحابُه وأمر بركياروق بالكفِّ عنهم، ونادى بالأمان، وأُسِرَ فخر الملك علي بن نظام الملك وزير تُتُش، فعفا عنه بركياروق لأجل أخيه مؤيد الملك وزيره، وكان المستظهر قد هيَّأ الطيار، وأخذ بالحزم، وأعدَّ السفن، ونقل إليها أمواله وأهله لينحدر إلى الأهواز، وخرج عميد الدولة إلى حِلَّة صدقة خوفاً من ظهور تُتُش، فجاء ـ من لُطفِ الله ـ مالم يكُنْ في الحساب، فقُتِلَ تُتُش، وطيف برأسه في إقطاع بغداد، ثم وُضِعَ في خزانة الرؤوس، وعاد ابنُ جَهير ووضع الرأس بين يديه، فقال أبو الفضل عطية يخاطبه: [من البسيط]

(١) ما بين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

ورايـةٍ كـادَ أن يُـعـنـى الـزمـانُ بـهـا — أمـدَّهـا بـجـيـوش الـرأيِ إمـدادا
ضَـرَبْـنَ بـالـريِّ مـن آرائـه قُـضُـبـاً — أضحى لـهـا مِغْفَرُ التِّيجانِ أغـمـادا
ومـأتـمٌ قـامَ نـحـوَ الـغـربِ صـارِخُـهُ — فـعـادَ أيـامُ مَـنْ بـالـغـرب أعـيـادا
ومـعـجـزاتٍ أرادَ الـلـهُ يُـظـهِـرُهـا — فـي كَـبْـتِـه لـك أعـداءً وحُـسَّـادا

ذكر ما جرى لأولاد تُتُش:

كان ابنُه رضوان قد خرج من الشام بجيش كثيف يريد أباه لينصره، ووصل الرحبة، فبلغه مقتلُ أبيه، فعاد إلى حلب، ففُتِحت له، ووصل [إليه][1] من الفلّ[2] الذين كانوا مع أبيه أخوة دُقاق وجماعةٌ من خواص أبيه، فأقام بحلب مدةً يسيرة، وكان ساوتكين الخادم والي دمشق، فكاتب دُقاقاً، ووعده أن يُسلِّمها إليه، فسار إليها. ولم يُعلِم أخاه رضوان، وبلغَه مسيرُه، فبعث وراءه عسكراً فلم يلحَقْه، ودخل دمشق، وحسدَه رضوان، فسار إليه بالعساكر، فحصره مدة شهرين فلم يظفَرْ بطائل، فعاد إلى حلب، وبعث دقاق إلى بركياروق يُعرِّفه، فأرسل إليه طُغْتِكين مملوك تُتُش ليدبِّر أمره، فقتل ساوتِكين الخادم، وأقام بدمشق.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: ورد الخبرُ إلى رضوان بقتل أبيه وهو نازل بعانة على الفرات يريد المسير إلى أبيه، فقلق، وسار مُغِذّاً في نفر من غلمانه وخواصِّه إلى حلب، ونزل العسكر، ورآه، وفتح الوزير أبو القاسم النائب بالقلعة لها أبوابَها، فصَعِد إليها، ووصل إليه أخوه دُقاق من ناحية ديار بكر، فأقام بحلب مدةً، ثم راسلَ[3] ساوتِكين المقيم بقلعة دمشق، فأجابه، فخرج في الحال من حلب [ليلاً[4]] مُجِدًّا ليلاً ونهاراً، وبعث رضوان خلفه الخيل ففاتهم، ووصل دمشق، فأجلسه ساوتِكين في منصب أبيه، وأخذ له العهد على الأمراء والعساكر، فاستقام أمرُه، ووردت الأخبارُ بخلاص الأمير ظهير الدين طُغْتِكين أتابِك من اعتقاله عقيب الكسرة، وتوجَّه عائداً إلى دمشق، وخرج

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).
(٢) في (خ): القتلى، والمثبت من (ب)، والفَلُّ: المنهزمون.
(٣) في (خ): أرسل، والمثبت من (ب).
(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

صاحبُه حصن الدولة بختيار شحنة دمشق ليلتقيه، وقد كان تُتُش رشَّح طُغْتِكين في حداثة سنِّه لحجبته، واستنابه في عسكره، وفوَّض إليه أموره أيام غيبته، فأحسن السيرة، وأنصف الرعية، فعَلَتْ منزلتُه، وولاَّه ميَّافارقين وهي أول ولايته، وسلَّم إليه ولدَه دُقاق، واعتمد عليه في تربيته، فدبَّر أمر ميَّافارقين، وأنكى في جماعة عُرِفَ منهم خيانةٌ ومخامرةٌ، فاستقامت أحوالُها، وسار مع تُتُش إلى لقاء بركياروق، وشهد الواقعة، وأسر واعتقل، ثم خلص، فسار إلى دمشق في هذه السنة، فتلقَّاه دُقاق في العسكر وأرباب الدولة، وبالغَ في إكرامه، وردَّ إليه النظر في الإسفهسلارية على حاله، واتُّهم ساوتِكين برضوان فقُتِل، وتزوَّج طُغْتِكين بخاتون أم دُقاق، وأحسن السيرة، وكانَ رضوان يحبُّ دمشق ولا يختار غيرَها، فجمع واستنجد بِسُكْمان بن أُرْتُق، وبرز طالباً دمشق، وقد كان دُقاق غاب عنها في هذا الوقت مع يغي شعبان[١] وإيل غازي بن أُرْتُق، ووصل رضوان بعسكره، ونزل ظاهر دمشق. وقيل: كان ذلك سنة تسع وثمانين، وكان بدمشق وزير دُقاق زين الدولة محمد بن الوزير أبو القاسم، ونفرٌ قليل من العسكر، وانضاف إليهم جماعةٌ من الأحداث، وأغلقوا الأبواب، وصَعِدوا على الأسوار، ورشقوهم بالنُّشَّاب، فرجعوا إليهم من سوق الغنم وباب الجابية والباب الصغير، فأراد أهلُ البلد الخروجَ إليهم ودفْعَهم، فمنعهم بختيار شحنة البلد وأمين الدولة محمد بن الصوفي رئيس البلد، وقاتلوهم على الأسوار، ومنعوهم الوصول إليها.

وجاء حاجبَ رضوان حجرُ المنجنيق وهو قائمٌ يُحرِّض على القتال فقتلَه، وسكنت الحرب، واشتغلوا به، وعادوا إلى خيامهم ولم يتمَّ لهم أمر، وبلغهم أنَّ دُقاق قد عاد بالعسكر، فرحلوا[٢] وطلبوا مرج الصفر ليقصدوا القدس، ووصل دُقاق إلى دمشق، وسار رضوان طالباً ناحية حلب.

---

(١) هكذا وقع اسمه في الأصليين (خ) و(ب): شعبان، وفي الروضتين ١/ ٨٧و١٠١، وبغية الطلب ١/ ٤٨١ و٤/ ١٩٥٦ و ٥/ ٢٤١٣ و٧/ ٣٣٥٤ : سغان، وفي الكامل ١٠/ ٢٤٧ ، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٤٨٣ ، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٤٧ ، والعبر ٣٣٢ ، وبغية الطلب ١/ ٨٧ : سيان، وفي السير ٩/ ٤٠١ : بسان.

(٢) في (خ): فدخلوا، والمثبت من (ب).

وقيل: إن أولاد تُتُش اقتسموا البلاد، فكانت حلب وماليها لرضوان، ودمشق وميَّافارقين لدُقاق، وانكفأ يغي شعبان إلى أنطاكية.

رزق الله بن عبد الوهاب(١)

ابن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن أُكينة بن إبراهيم بن عبد الله، ويقال: أُكينة هو إبراهيم، وعبدالله بن إبراهيم كان اسمُه عبد اللات، فسمَّاه رسول الله ﷺ: عبد الله، وعلَّمه، وأرسله إلى اليمامة والبحرين ليعلِّمهم أمر دينهم، ودعا له، فقال رسول الله ﷺ: «نزعَ اللهُ من صدرِك وصدرِ ولدك الغِشَّ والغِلَّ إلى يوم القيامة»(٢).

وكنيةُ رزق الله أبو محمد التميمي الحنبلي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وقيل: سنة أربع مئة، وقرأ القرآن على أبي الحسن الحمامي بالروايات، وسمع الأحاديث، وتفقَّه على أبي علي بن أبي موسى الهاشمي، وشهد عند القاضي أبي عبد الله الحسن بن علي ابن ماكولا قاضي القضاة، فلمَّا ولي بعده قاضي القضاة أبو عبدالله الدامَغاني ترك الشهادة ترفُّعاً أن يشهد عنده، فجاء قاضي القضاة إليه مستدعياً لمودَّته وشهادته عنده، فلم يشهد ، وكان التميمي قد جمع بين الفقه والقرآن والحديث والأدب والوعظ وحُسْنِ الصورة، فوقع له القبول التامُّ عند الخاصِّ والعامِّ، وجعله الخليفةُ رسولاً إلى السلطان في مهام الدولة، وهو الذي بعثه فأحضر عميدَ الدولة ابنَ جَهير من ميَّافارقين يستوزره، وكان له حلقةٌ في الفقه والحديث والفتوى والوعظ بجامع المنصور، فلما انتقل إلى باب المراتب كانت له حلقة بجامع القصر، وكان يقصُّ في رجب وشعبان ويوم عرفة وعاشوراء عند قبر الإمام أحمد رضي الله عنه، ومن شعره: [من الطويل]

أفِقْ يافؤادي مِنْ غرامِكَ واستَمِعْ ... مقالةَ محزونٍ عليكَ شفيقِ
علِقْتَ فتاةً قلبُها مُتعلِّقٌ ... بغيرِكَ فاستوثقتَ غيرَ وثيقِ
فأصبحْتَ موثوقاً وراحَتْ طليقةً ... فكَمْ بينَ موثوقٍ وبينَ طَليقِ

---

(١) المنتظم ١٧/ ١٩-٢١ .

(٢) لم أقف على من أخرجه، لكن ذكره ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٨٣ .

وكانت وفاتُه ليلة الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى، وصلَّى عليه ابنُه أبو الفضل عبد الواحد، ودُفِنَ في داره بباب المراتب بإذن الخليفة، ولم يُدْفَن بها أحدٌ قبله، ثم توفي ابنُه أبو الفضل سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فنُقِلَ معه ولدُه إلى مقبرة باب حرب فدُفنَ إلى جانب أبيه وجده وعمه بدُكَّة الإمام أحمد رحمة الله عليه عن يمينه. سمع خلقاً كثيراً، وروى عنه ابنُ ناصر وطبقتُه، وأجمعوا على فضله وصدقه وثقته ورياسته.

وقال علي بن عقيل: كان التميميُّ سيدَ الجماعة من أصحاب الإمام أحمد يُمناً ورياسةً وحشمةً، وكان أحلى الناس عبارةً في النظر، وأجرأهم في الفُتيا، وأحسنَهم وعظاً.

عبد السلام بن محمد[1]

ابن يوسف بن بُندار، أبو يوسف، القَزويني، شيخ المعتزلة في زمانه، ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وقرأ القرآن، سمع الحديث، وقرأ الكلام على عبد الجبار الهَمَذاني، وفسَّر القرآن في سبع مئة مجلدة ـ وقيل: في ثلاث مئة. وقيل: في أربع مئة ـ والكتاب وقفٌ في مشهد[2] أبي حنيفة، وقال: من قرأه عليَّ وهبتُه له، فلم يقرأه عليه أحد.

ورحل إلى مصر، فأقام بها أربعين سنة، وحصل أحمالاً من الكتب، وحملها إلى بغداد، وكان محترماً، إذا دخل على قاضي القضاة الدامَغاني قام له وأجلسه إلى جانبه، وكان ظريفاً، حسنَ العشرة، سمحاً، وكان يخالط بني جَهير، فلما أُخرجوا من بغداد اتُّهم بأنَّ لهم عنده ودائعَ، فوكل به بعض الأتراك، فقيل له: ادْعُ الله. فقال: مالله في هذا شيء هذا فِعْلُ الظَّلَمة.

ودخل على نظام الملك وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له: أيها الصدر، قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار. قال: وكيف؟ قال: أنا معتزلي وهذا مُشبِّهي ـ يعني التميمي ـ وذاك أشعري، وبعضُنا يكفِّر بعضاً. فضحك النظام وقال:

---

(١) المنتظم ١٧/ ٢١، وتاريخ دمشق ٢٦/ ٢١٨ـ ٢٢٠.

(٢) في (ب): مسجد، والمثبت موافق لما في النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٦.

اجتمعتُ بملحد المعرة ـ يعني أبا العلاء ـ فقال لي: سمعتُ في مراثي الحسين بن علي مرثيةً تُكتَب. فقلت: قد قال بعض فلاحي بلدنا أبياتاً يعجز عنها شيخ تنوخ. فقال: وما هي؟ قلت: قوله: [من الكامل]

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ ... للمسلمين على قناةٍ تُرفَعُ
والمسلمون بِمَنظرٍ وبِمَسمَعٍ ... لاجازعٌ فيهم ولا مُتوجِّعُ
أيقظْتَ أجفاناً وكنتَ أنَمْتَها ... وأنَمْتَ عيناً لم تكُنْ بِكَ تهجَعُ
ماروضةٌ إلا تمَنَّتْ أنَّها ... لك تربةٌ ولخَطِّ قبرِكَ موضِعُ(١)

فقال المعري: ماسمعتُ أرقَّ من هذه.

وقال ابن عساكر: سكن طرابلس الشام مدة، وكان يتشيَّع. فقال له ابن البراج متكلم الشيعة: ما تقول في الشيخين؟ فقال: سَفِلان ساقِطان. قال: من تعني؟ قال: أنا وأنت.

وقال أبو محمد بن طاوس: استأذنتُ عليه ببغداد فأذن، فدخلتُ عليه فقال: من أين أنت؟ قلت: من دمشق. فقال: من بلد النصب. فسمعتُ منه شيئاً يسيراً، وكان قد أُقعِدَ، وكانت وفاتُه في ذي القعدة وقد بلغ ستاً وتسعين سنة، ولم يتزوَّج إلَّا في آخر عمره، ودُفن بمقابر الخيزُران عند أبي حنيفة رضي الله عنه.

محمد بن الحسين(٢)

ابن عبدالله بن إبراهيم، أبو شجاع، الوزير، الرُّوذراوري، ولد بالأهواز بقلعة كنكور سنة سبع وثلاثين وأربع مئة.

وكان القائم بأمر الله كاتبَ أباه يستدعيه للوزارة وهو بالأهواز، فوصل الكتاب إليه وقد مات.

وكان أبو شجاع قد قرأ الفقه والعربية، وسمع الحديث من جماعة، وصنَّف المصنفات الحِسان، مِنها كتابه الذي ذيَّله على «تجارب الأمم»، ووَزر للمقتدي سنة

(١) هذه الأبيات تُنسب إلى دِعْبِل الخزاعي، وهي في ديوانه ص٣٩٨-٣٩٩، ومعجم الأدباء ١١/ ١١٠ـ ١١١.
(٢) المنتظم ١٧/ ٢٢ ـ ٢٧، والكامل ١٠/ ٢٥٠ ـ ٢٥١. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٢٧.

سبع وسبعين، وعُزِل سنة أربع وثمانين، وكان سليماً من الطمع، وكان يملك حينئذ ست مئة ألف دينار، فأنفقها في الخيرات والصدقات.

قال أبو جعفر بن الخرقي: كنت أنا واحداً من عشرة يتولَّون إخراج صدقاته، فحسبتُ ما خرج على يدي فكان مئة ألف دينار، ووقف الوقوف، وبنى المساجد، وأكثر الإنعام على الأرامل واليتامى، وكان يبيع الخطوط المستحسنة ويتصدق بثمنها، ويقول: أحَبُّ الأشياء إليَّ الدينار والخطُّ الحسن، فأنا أخرج محبوبي لله تعالى.

ووقع مرضٌ في زمانه، فبعث إلى جميع ضعاف البلد أنواع الأشربة والأدوية، وكان يخرج العشر من جميع أمواله النباتية على اختلاف أنواعها.

وعرضت عليه رقعة من بعض الصالحين يذكر فيها امرأةً معها أربعة أطفال أيتام وهم عُراةٌ جِياع، فقال لبعض أصحابه: امضِ إليهم، واحمِلْ لهم ما يُصلِحُهم. ثم خلع ثيابه وقال: واللهِ لا لَبِسْتُها ، ولا أكلتُ طعاماً، حتى تعود وتخبرني أنك كسوتَهم وأشبعتَهم. فمضى الرجل وعاد وهو يرعد من البرد.

وقال حاجبُه الخاص: استدعاني ليلةً، وأمرني بعمل قطايف، فعملتُها، فلما حضرت بين يديه [قال: فرِّقها في الفقراء، فحملها الفرَّاشون معي ففرَّقتُها في الأضِرَّاء والفقراء، فقلتُ له في ذلك ، فقال: لمَّا حضر بين يديَّ[1]] ذكرتُ نفوساً تشتهيه ولا تقدرُ عليه، فتنغَّص عليَّ أكلُه، فلم أذُق منه شيئاً. وكان قد ترك الاحتجاب، ويُكلِّم المرأة والطفل، ويحضر مجالِسه الفقهاءُ والعوامُّ، ولا يمنع أحداً، وإذا أفتى الفقهاء بوجوب القصاص على شخص سأل أولياءَ الدم أخْذَ شيءٍ من ماله وأن يعفوا عنه، فإن فعلوا، وإلَّا أمر بالقصاص، وأعطى ذلك المال ورثةَ المقتول الثاني.

ولقد غُمَّ الهلالُ في رمضان، فأمر بإفطار الناس، وأحضر أطباقاً فيها سُكَّر ولوز وأطعم الناس، ثم تبيَّن أن اليوم من رمضان، فندم أشدَّ الندامة، وذبح البقر والغنم، وتصدَّق بصدقات كثيرة، وآلى أن لا[2] يتكلم في الفروع.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) العبارة في الأصل (خ): وإلى الآن لم ، والمثبت من (ب).

وفي أيامه سقطت المُكوس، وألبَس أهلَ الذمة الغيار، وتقدَّم إلى المحتسب أن يؤدِّب كلَّ من يفتح دُكَّانه يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم، وقال: هذه مشاركة لليهود في حفظ سنتهم(١).

وحجَّ في وزارته سنة ثمانين، فترك في طريقه الزادَ مبذولاً والأدوية، وعمَّ أهلَ الحرمين بصدقاته، وساوى الفقراء في إقامة المناسك والتعبُّد، وكانت به وسوسةٌ في الطهارة ، فكتب إليه ابن عقيل رُقعةً ذكر فيها أخباراً تتعلَّق بالوسوسة، مثل قوله ﷺ: «صبُّوا على بول الأعرابي ذَنوباً من ماء(٢)» و«أمِطْه عنك ولو بإذخرة(٣)» و«يُغسَل [من] بولِ الجارية، ويُنضَحُ [من] بولِ الغلام(٤)» ونحو ذلك، فزالت عنه الوسوسة.

ولمَّا عُزِلَ خرج يوم الجمعة إلى الجامع ماشياً، فانثالَتْ عليه العامة تصافحه وتدعو له ، فقيل للخليفة: إنما قصد الشناعة عليك. فألزمَه بيتَه، وأنكر على مَنْ تَبِعه، فبنى في دهليز داره مسجداً، فكان يؤذِّن ويُصلِّي فيه.

وبعث نظام الملك بإخراجه من بغداد، فأُخرج إلى بلده، فأقام مدة، ثم استأذن الحجَّ، فأذِنَ له، فخرج إلى مكة.

قال أبو الحسن بن عبد السلام: اجتمعتُ به في المدينة، فقبَّل يدي، فأعظمتُ ذلك، فقال لي: قد كنتَ تفعَلُ بي هذا فأحببتُ أن أُكافيك.

وجاور بالمدينة، فلمَّا مَرِضَ مَرَضَ الموت أمر أن يُحمل إلى حضرة النبي ﷺ، فوقف وبكى وقال: يارسول الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

---

(١) في المنتظم ١٧/ ٢٤ : في حفظ سبتهم.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٨٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو بمعناه في صحيح البخاري(٢٢١) ومسلم (٢٨٤). والذَّنوب: الدلو العظيمة . اللسان (ذنب).

(٣) أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٥٣ ، والدارقطني في السنن (٤٤٧)، والبيهقي في السنن ٢/ ٤١٨ عن ابن عباس ﷺ، مرفوعاً .
وأخرجه البيهقي في المعرفة (٥٠١٥) من طريق آخر عن ابن عباس موقوفاً وقال: هذا هو الصحيح، موقوف، ثم قال عن المرفوع: لا يثبت.

(٤) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٣٧٧) من حديث علي ﷺ. ويشهد له حديث أبي السمح ﷺ عند أبي داود ـ أيضاً ـ (٣٧٦)، والنسائي ١/ ١٥٨ ، والحاكم ١/ ١٦٦ ، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤] وقد جئتُ معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك. وبكى، وتُوفِّي من يومه، ودُفِنَ بالبقيع عند قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ بعد أن صلَّوا عليه في مسجد رسول الله ﷺ، وزوَّروا به الحضرة الشريفة النبوية ـ على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام ـ وذلك في منتصف جمادى الآخرة، وهو ابن إحدى وخمسين سنة.

وكان متبرِّماً بالوزارة لدينه وورعه، وكان في غناءٍ عنها، وما كان ينافس في الدنيا، وكانت أيامُه أحسنَ الأيام، وزمانه أنضرَ الأزمان، ولم يكن في الوزارة مَنْ يحافظ على قوانين الشرع مثله، شديداً في أمور الآخرة والشريعة، سهلاً في أمور الدنيا.

وقام للخلافة في أيام نظره حشمةٌ واحترامٌ عادت سالفَ الأزمان.

وكان أحسنَ الناس خطاً ولفظاً، وما كان يخرج كلَّ يومٍ من بيته حتى يكتب شيئاً من القرآن ويقرأ ما تيسَّر، وما وجبَتْ عليه زكاةٌ قطُّ.

وله شعر حسن، ولم يقُلْ بعد الوزارة سوى هذه الأبيات في الزهد، وهي: [من البسيط]

قد آن بعد ظلامِ الجهل إبصاري ... للشيب صبحٌ يناجيني بإسفارِ
ليلُ الشَّبابِ قصيرٌ فاسْرِ مُبتكراً ... إلى الصباح قُصارى المُدلجِ السَّاري
كَمِ اغتراريَ بالدُّنيا وزُخرُفِها ... أبني بناها على جُرْفٍ لها هارِ
دارٌ مآثِمُها تبقى ولذَّتُها ... تَفنى ألا قُبِّحَتْ هاتَيْكَ من دارِ
فما انتفاعي بأوطارٍ مضَتْ سلَفاً ... قضيتُها وكأنْ لم أقضِ أوطاري
فكنتُ إذْ ظفِرَتْ ممَّا كسبتُ يدي ... لم تعتلِقْ من خطاياها بأوزارِ
ليسَ السعيدُ الذي دُنياهُ تُسْعِدُهُ ... إنَّ السعيد الذي ينجو من النارِ
أصبحتُ من سيِّآتي خائفاً وَجِلاً ... والله يعلَمُ إعلاني وإسراري
إذا تعاظمني ذنبي وآيَسَني ... رجوتُ عفوَ عظيمِ العفوِ(١) غفَّارِ

---

(١) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: الذَّنب، وهو تحريف شنيع، والتصويب من خريدة القصر (القسم العراقي) ٢/ ٨٠.

ومن شعره قبل الوزارة: [من السريع]

مـا كـان بـالإحـسـانِ أولاكُـمُ ... لـو زرتُـمُ مَـنْ كـان يـهـواكُـمُ
أحبابَ قلبي مالَكُمْ والجفا ... ومَنْ بهذا الهجرِ أغراكُمُ
ما ضرَّكُمْ لو عُدْتُمُ مُدْنَفاً ... مُمَرَّضاً من بعدِ قتلاكُمُ
أنكرتُمونا مُذْ عَهِدناكُمْ ... وخُنْتُمونا مُذْ حَفِظناكُمُ
لانظرَتْ عيني سوى شخصِكُمْ ... ولا أطاعَ القلبَ إلَّاكُمُ
جُرْتُم وخُنْتُم وتحامَلْتُم ... على المُعَنَّى في قضاياكُمُ
يا قومِ ما أخوَنَكُمْ في الهوى ... وما على الهجرانِ أجراكُمُ
جوروا وخونوا وانصِفوا واعدلوا ... في كلِّ حالٍ لا عَدِمناكُمُ
ما كان أغناني عن المُشتكى ... إلى نجومِ اللَّيلِ لولاكُمُ
سَلُوا حُداةَ العِيسِ هل أورِدَتْ ... ماءً سوى دمعي مطاياكُمُ
أوْ فاسألوا طيفَكُمُ هل رأى ... طرفي غفا من بعد مَسْراكُمُ
أحاولُ النَّومَ عسى أنَّني ... في مُستلَذِّ النَّومِ ألقاكُمُ
ما آنَ تقضون غريماً لكُمْ ... يخشاكُمُ أن يتقاضاكُمُ
يستنشقُ الريحَ إذا ما جرَتْ ... من نحوِ نجدٍ أين مسراكُمُ

وقال أيضا من شعره: [من الطويل].

ألا ليتَكُمْ عاينتُمُ بعد مسراكُمْ ... وقوفي على الأطلالِ أندُبُ مغناكُمْ
أُنادي وعيني قد تفيضُ بذِكركُمْ ... أيا جيرتي لِمْ أبعَدَ البَيْنُ مرماكُمْ
ولِم غبتُمُ عن ناظري بعد رؤياكُمْ ... ولِمْ لعبَ البَيْنُ المُشِتُّ وأقصاكُمْ

محمد بن فُتوح(١)

ابن عبد الله بن حميد، أبو عبد الله بن أبي نصر، الحميدي، الأندلسي، من جزيرة مَيُورْقة، ولد قبل الأربع مئة، وسمع الكثير، وسافر إلى الشام ومكة والعراق،

(١) المنتظم ١٧/ ٢٩ ـ ٣٠، وتاريخ دمشق ٥٥/ ٧٧ ـ ٨١، والأنساب ٤/ ٢٣٣، والكامل ١٠/ ٢٥٤. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٢.

واستوطن بغداد، وكان مختصاً بصحبة أبي علي بن حزم الظاهري، وحمل عنه أكثر كتبه، وقال: أصلُ أبي من قرطبة من محلة يقال لها: الرُّصافة، وسكن الجزيرة - يعني الأندلس - وصنَّف فأحسن التصنيف، وجمع بين الصحيحين، وكان حافظاً ثبتاً متقناً، وبلغ من حرصه على جمع العلم أنه كان يكتب في الليل في حرٍّ بغداد، ويجلس في إجَّانَةٍ[١] يتبرَّد بالماء، وينسخ وهو على تلك الحالة.

وكانت وفاته ببغداد في ذي الحجة سابع عشره، وصلَّى عليه أبو بكر الشاشي في جامع الخليفة، وكان قد أوصى إلى الأجلِّ مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر الحافي، فخالف وصيَّته، ودُفِنَ بباب أبْرز، فرآه في المنام وهو يعاتبه ويقول: خالفتَ وصيتي؟! فنقله في صفرسنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فدفنه في دكة بشر الحافي قريباً منه.

وقال ابن ماكولا: صديقنا أبو عبد الله الحميدي من أهل العلم والفضل، ورد بغداد وسمع أصحاب الدارقطني وابن شاهين وغيرهم، وسمع منه خلقٌ كثير، وصنَّف «تاريخ الأندلس»، ولم أرَ مثلَه في عفَّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم.

وقال ابن عساكر: وقف كتبه ببغداد على طلبة العلم، فنفع الله بها، وكان حافظاً ديِّناً عفيفاً نزهاً، ومن شعره: [من الوافر]

طـريـقُ الـزُّهـدِ أفـضَـلُ مـا طـريـقِ ... وتـقـوى الـلـهِ تـأديـةُ الـحـقـوقِ
فـلا يَـغْـرُركَ مـن يُـدعـى صـديـقـاً ... فـمـا فـي الأرضِ أعـوَزُ مـن صـديـقِ
سـألـنـا عـن حـقـيـقـتِـهِ قـديـمـاً ... فـقـال سـألـتَ عـن بـيـضِ الأنُـوقِ
فـثِـق بـالـلـه يَـكْـفِـكَ واسـتَـعِـنْـهُ ... يُـعِـنْـكَ ودَعْ بـنـيَّـاتِ الـطـريـقِ

محمد بن المظفر بن بَكْران[٢]

القاضي، الشامي، منسوب إلى الشام، ولد بحماة سنة أربع مئة، وحجَّ سنة سبع عشرة، وتفقَّه ببلده بعد حجِّه، ثم قدم بغداد فتفقَّه على أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث، وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامَغاني سنة اثنتين وخمسين، وناب عنه في القضاء،

(١) في (خ): إجامه، والمثب من تاريخ دمشق، والإجانة: إناء كبير يُغسَل فيه الثياب.
(٢) المنتظم ١٧/ ٢٧-٢٩، والأنساب ٤/ ٢٢٩، والكامل ١٠/ ٢٥٣. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٨٥.

وزكّاه عنده أبو يعلى بن الفراء الحنبلي وابن السِّناني، وكان حسنَ الطريقة، كريمَ الأخلاق، عفيفاً، نزهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان فيه حِدَّة، لايقبل من سلطان عطية، ولا من صديق هدية، وأقام بمسجد بقطيعة الربيع يؤمُّ بأهله ويُدرِّس ويُقرأ عليه الحديث زائداً على خمس وخمسين سنة، ولمَّا مات ابنُ الدامَغاني أشار الوزير أبو شجاع على المقتدي بتقليده القضاء فامتنع، فمازالوا به حتى تقلَّده في رمضان سنة ثمان وسبعين، وخُلِعَ عليه، وقُرئ عهدُه، وشرط أن لا يأخذ على القضاء رزقاً، ولا يقبل شفاعةً، ولا يُغيِّر ملبوسه، فأُجيب إلى ذلك، ولم يتغيَّر عليه حالُه في مأكل ومشرب، وكان يتولَّى القضاء بنفسه ولا يستنيب ولايحابي مخلوقاً، فلمَّا أقام على الحقِّ نفرت عنه قلوب المبطلين، ولفَّقوا له معايبَ لم يلتصِقْ به شيءٌ منها، فسخط عليه المقتدي، ومنع الشهود أن يحضروا مجلسه، فلم يتأثَّر، ثم علم المقتدي باطنَ حاله، فرضي عنه بعد سنين وشهوراً، وعاد الشهود إلى مجلسه، واستقامت أحوالُه، ولم يجدوا من يقوم مقامَه.

وادَّعى عنده بعضُ الأتراك على رجل دعوى، فقال: ألكَ بينة؟ قال: نعم، المشطب بن محمد الفرغاني ــ وكان من فحول المناظرين، وكان يلبس الحرير ويتختَّم بالذهب ــ فقال التركي: فالسلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير ويتختَّمان بالذهب؟ فقال القاضي: لا جَرَم لو شهدا عندي على باقة بقلٍ ما قبلتُ شهادتَهما.

وكانت وفاتُه في شعبان، ودُفِنَ عند أبي العباس بن شُريح قريباً من الكَرْخ، وكان ورعاً ثقةً صدوقاً.

منصور بن نصر الدولة بن مروان

صاحب ميَّافارقين، قد ذكرنا سيرتَه، وأنه استولى على الجزيرة فمات بها، وحُمِلَ إلى آمِد فدُفِنَ بقبَّةٍ بَنَتْها له زوجتُه ستُّ الناس بنت عميد الأمة سعيد بن نصر الدولة، ودُفِنت بها أيضاً، وهي مُطلَّة على دجلة.

فصل ولاية بني مروان الدياربكر:

أول ولايتهم سنة ثمانين وثلاث مئة، واستولى ابنُ جَهير على بلادهم سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وتُوفِّي منصور في هذه السنة، فكانت مُدة ولايتهم نيفاً ومئة سنة.

وأعيان ملوكهم أولهم باد الكردي ظهر سنة أربع وسبعين وثلاث مئة، وبعده مروان هو جدُّهم ملَكَ سنة ثمانين وثلاث مئة، وملك بعده ولده أحمد، فأقام إلى سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة، وتوفي [وقام][١] بعده ولده نظام الدين وولده سعيد ومنصور وهو ابن نظام الدين، وقد ذكرناهم.

السنة التاسعة والثمانون وأربع مئة

فيها حكم المُنجِّمون بأن يكون طُوفانٌ مثلَ طُوفان نوح عليه السلام، وكان ببغداد ابن عيشون المنجِّم، فبلغه فقال: أخطأ المُنجِّمون، طوفان نوح كان قد اجتمع في برج الحوت الطوالع السبعة، والآن فقد اجتمع ستة، زُحَلْ لم يجتمع معهم، ولكني أقول: إن بقعةً من البقاع يجتمع فيها عالَمٌ كثيرٌ فيغرقون. فقيل: ما ثَمَّ أكبرُ من بغداد ويجتمع فيها مالم يجتمع في غيرها وربما كانت هي؟ فقال ابن عيشون: لا أدري غيرَ ما قلتُ. فأمر الخليفةُ بإحكام المُسَنَّيات وسدِّ القوارح، وكان الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأن الحاج نزلوا في وادٍ عند نخلة، فأتاهم سيلٌ عظيمٌ فاجتاح جمالهم، وأخذ الرجال والنساء، وما نجا إلَّا من تعلَّق برؤوس الجبال، فخلع الخليفة على ابن عيشون، وأجرى له جرايات، وأمن الناس الغرق[٢].

وفي شعبان استوحش جناح الدولة حسين أتابك من رضوان، وكان تزوج والدة رضوان، وخاف على نفسه منه، ففصَلَ[٣] إلى حمص في خواصِّه وعسكره، وكان قراحة يأتيه بها، فسلَّمها إليه، فنقل أهلَه إليها، وشرع في تحصينها وإحكام قلعتِها، وأمن على نفسه، ووصل عُقيب انفصاله الأمير يغي شعبان صاحبُ أنطاكية إلى حلب، وشرع في الأمر والنهي، وجاءه عسكره، وبرز هو ورضوان من حلب إلى شَيْزَر قاصدين دمشق، ثم وقع الخلاف بين مُقدَّمي العساكر فتفرَّقوا، وعاد رضوان إلى حلب، ويغي شعبان إلى أنطاكية.

(١) ما بين حاصرتين من (ب).
(٢) الخبر في المنتظم ١٧/ ٣١ ـ ٣٢.
(٣) فصل: خرج. المعجم الوسيط (فصل).

وفيها ورد كتاب المستعلي والأفضل بن أمير الجيوش إلى رضوان بالدخول في الطاعة، فأجاب، وأمر بالدعاء للمستعلي على المنابر، وللأفضل بعده، ولنفسه بعدهما، فأقام على ذلك مدة شهر، وكان قد بنى أمره على أنَّ المستعلى ينجده ويبعث العساكر إلى دمشق فيأخذها من أخيه ويسكنها رضوان إليه، فوصل يغي شعبان من أنطاكية وسُكمْان بن أُرْتُق صاحب القدس إلى حلب، وأنكرا على رضوان الدخول في هذه الحال، فأعاد الخطبة العباسية.

وفيها نزل العسكر المصري على صور، وكان قد عصى واليه، ويُعرف بالكتيلة، وخالف صاحب مصر، فأقام العسكر عليها حتى فتحها عنوةً، وقَتلَ بها خلقاً كثيراً، وأخذوا المال العظيم، وأسر الكتيلة، فحُمِلَ إلى مصر فقُتِل بها.

وفيها سار الأفضل بن أمير الجيوش إلى القدس وفيه سُكْمان بن أُرْتُق، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وقاتلهم أربعين يوماً، وراسل أهلَه فواطؤوه على فتح الباب، وطلبوا منه الأمان، فأمنهم، وفتحوا له الباب، وخرج سُكْمان من باب آخر، ومضى إلى الرُّها، ومضى أخوه إيل غازي إلى بغداد.

وفيها تواترت الأخبار بخروج ملك الروم من بلد الروم بخلقٍ لايُحصى، فأخرج يغي شعبان النصارى من أنطاكية، واستصرخ بحلب ودمشق والشرق على أعمال أنطاكية، وقتلوا ونهبوا وسَبَوا. وقيل: إنهم وصلوا إلى المعرة، وسببه قتل تُتُش واختلاف ولديه.

وفيها قتل رضوانُ رئيسَ حلب ويُعرف بالمجنِّ، وقتل ولَدَه، ونهب دارَه، وكان ظالماً فاتكاً، واستوزَر رضوان أبا الفضل بن الموصل مشيد الدين.

وفيها توفِّي

إبراهيم بن الحسين(١)

أبو إسحاق، الخزَّاز الزاهد، العابد، كان يسكن بالرُّصافة من بغداد، وكان في رمضان يصمت فلا يتكلم إلا بالقرآن، وكان ابن عقيل قد قرأ عليه القرآن، فقال له: هذا تعتقده عبادة وإنه معصية. قال ابن عقيل: فصعب عليه، فقلت: إن هذا القرآن

---

(١) المنتظم ١٧/ ٣٣.

العزيز نزل في بيان أحكام الشريعة، فلا يُستعمل في أغراض دنيوية، وما هذا إلا بمنزلة صرّك السدر والأشنان في ورق المصحف. قال: فهجرني وهجرتُه.

وكانت وفاته في ربيع الآخر، ودُفن بباب حرب، وكان صدوقاً.

عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله(١)

أبو حكيم الخَبْري، وخَبْر: إحدى بلاد فارس، وهو جدُّ أبي الفضل بن ناصر لأمِّه، تفقَّه على أبي إسحاق الشيرازي، وبرع في علم الفرائض، وله فيها مصنَّف(٢)، وكان له معرفة بعلم الأدب.

وقال ابن ناصر: كان يكتب المصاحف، فبينا هو يوماً قاعداً مستنداً يكتب، وضع القلم من يده وقال: واللهِ إن كان هذا موتاً فهو موت طيب. ثم تُوفِّي ودُفن بمقبرة باب حرب، وكان حسن الطريقة صالحاً.

عبد الرزاق بن عبد الله(٣)

ابن المُحسِّن، أبو غانم، التنوخي، المعرِّي، ولد بالمعرة سنة ثماني عشرة وأربع مئة، وكانت وفاتُه بها أيضاً، ومن شعره في كوز الفُقَّاع: [من الوافر]

ومحبوسٍ بلا ذنبٍ جناهُ ... له سجنٌ ببابٍ من رصاصِ
يُضيَّقُ بابُه خوفاً عليهِ ... ويُوثَقُ بعدَ ذلك بالعِقاصِ
إذا أطلقْتَهُ خرجَ ارتقاصاً ... وقبَّلَ فاك من فرحِ الخلاصِ

عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد(٤)

أبو الفضل، الهمَذَاني، كان عالماً بالعلوم الشرعية والأدبية، وإليه انتهى علم الحساب والفرائض، وتفقَّه على الماوردي، وسأله الوزير أبو شجاع عن المقتدي أن يليَ قضاء القضاة فلم يُجِبْ، واحتجَّ بعلوِّ السن، وكان لا يفعل شيئاً إلا بنيَّة.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٣٤.

(٢) في (خ): المصنفات، والمثبت من (ب) والنجوم الزاهرة ٥/ ١٥٩.

(٣) تاريخ دمشق ٣٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤) المنتظم ١٧/ ٣٥-٣٦، والكامل ١٠/ ٢٦١. وتنظر المصادر في السير١٩/ ٣١.

قال أبو الحسن ولدُه: كان أبي إذا أراد أن يضربني يأخذ السوط بيده ويقول: نويتُ أن أضرب ولدي تأديباً كما أمر الله تعالى، فإلى أن تتمَّ النية أكون أنا قد هربتُ.

وكانت وفاته في رمضان، ودُفِنَ عند ابن سُريج، وكان زاهداً ورعاً ثقة.

محمد بن أحمد بن عبد الباقي(١)

ويُعرف بابن الخاضبة، الدَّقاق، كان عالماً بالقراءات والحديث، وكان له عائلة، فنسخ «صحيح مسلم» في سنةٍ سبعَ مرات.

وقال: رأيتُ في المنام كأنَّ القيامة قامت، ومنادٍ ينادي: أين ابنُ الخاضبة؟ قلت: هذا أنا. فقيل: ادخُلِ الجنة، فدخلتُ، فاستلقيتُ على فراش، ورفعتُ إحدى رجليَّ على الأخرى وقلت: آه، استرحتُ من النسخ.

وتُوفِّي في ربيع الأول بمقبرة الأجمة المتصلة بباب أَبْرَز، وكان ديناً صدوقاً ثقة.

محمد بن عباد بن إسماعيل(٢)

أبو القاسم، ويُلقَّب بالمعتمد، وأبوه عبَّاد يُلقَّب بالمعتضد، وكنيته أبو عمرو، وكانوا ملوك الأندلس.

وولد محمد بمدينة باجَة(٣) سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة، وَوَلِيَ الملك سنة إحدى وستين بإشبيلية، فقام به أحسن قيام، واهتمَّ به أَبْيَنَ اهتمام، وعدل في الرعية، وقسم بينهم بالسوية، وانتجعه الفضلاء، وقصده الشعراء، وكان جواداً مُمدَّحاً، فأقام على حاله تلك إلى سنة أربع وثمانين، فقصده ابن تاشفين، فخلعه من سلطانه، فقام في أسره مدةً يلاقي أليم ذُلِّه وهوانه، ثم نفاه عن أوطانه إلى مدينة أغمات قاطع العدوة القصوى وبينها وبين بحر الظلمات ثلاث ليال.

وقد ذكره علماء المغرب، وأثنوا عليه، ودوَّنوا شعره.

وقالوا: لما وصل أغمات صادف أهلها يستسقون، فقال على البديهة: [من الكامل]

---

(١) المنتظم ١٧/ ٣٥ ـ ٣٦، وتاريخ دمشق ٥١/ ٦٩ ـ ٧٠. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٣١.

(٢) تنظر مصادر الترجمة في السير ١٩/ ٥٨.

(٣) باجة: مدينة بالأندلس قريبة من قرطبة. الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٧٥.

خرجوا لِيَستَسْقوا فقلتُ لهُمْ قفوا ... دمعي ينوبُ لَكُمْ عن الأنواءِ
قالوا حقيقٌ في دموعِكَ مَقْنَعٌ ... لولم تكُنْ ممزوجةً بدماءِ

ومن شعره أيضاً: [من السريع]

يا مُعرِضاً عني ولم أجْنِ ما ... يوجِبُ إعراضاً ولا هجرا
قد طال ليلُ الهجرِ فاجْعَل لنا ... وصلَكَ في آخره فجرا

وقال أيضاً: [من الطويل]

ولمَّا التقينا للوداعِ غديَّةً ... وقد خفقَتْ في سَاحةِ القصرِ راياتُ
بكيتُ دماً حتى كأنَّ عيونَنا ... لِجَريِ الدموعِ الحُمْرِ فيها جراحاتُ

ينظر إلى قول القائل: [من الطويل]

بكيتُ دماً حتى لقد قَال قائلُ ... أهذا الفتى من جفنِ عينيهِ يرعفُ

ولمَّا غلب عليه يوسف بن تاشفين قيل له: عليكَ بالخضوع له، فلعلَّهُ يُبقي على نفسك. فقال: [من مجزوء الكامل]

قالوا الخضوعُ سياسةٌ ... فليَبْدُ[1] منكَ لهم خضوعُ
إن يسلبِ القومُ العِدا ... ملكي ويسلمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعِهِ ... لم يُسلمِ القلبَ الضُّلوعُ[2]
كم رُمْتُ يومَ نزالِهِمْ ... أن لا تحصِّنَني الدُّروعُ
ما سِرْتُ قطُّ إلى القتا ... لِ فكان في أملي الرجوعُ
شِيَمُ الأُلى أنا منهمُ ... والأصلُ تتبعُهُ الفروعُ

وقال: [من الكامل]

سألوا اليسيرَ من الأسيرِ وإنَّهُ ... بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعجَبِ
لولا الحياءُ وهمَّةٌ لخميَّةٌ ... طيَّ الحشا لحكاهم في المطلَبِ

وقال وهو مأسور في أغمات: [من البسيط]:

---

(١) في الأصلين (خ) و(ب): فليْدنُ، والمثبت من المصادر: تاريخ الإسلام ١٠/ ٦١٢، والحلة السيراء ٢/ ٦٥، والمعجب ١/ ١٤١، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣/ ٥٣.

(٢) في الأصلين (خ) و(ب) الخضوع، والمثبت من المصادر السابقة.

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً أسرَّكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
قد كانَ دهرُكَ إن تأمُرْه ممتثلاً فردَّكَ الدَّهرُ منهياً ومأمورا
مَنْ باتَ بعدَكَ في ملكٍ يُسَرُّ بهِ فإنَّما باتَ بالأحلامِ مغرورا
أرى بناتي في أغماتَ من عدمٍ يغزلْنَ للناس لا يملِكْنَ قِطْميرا
يَمْشينَ في الأرضِ والأقدامُ حافيةٌ وطالَ ماوطِئَتْ مسكاً وكافورا

وتوفي في هذه السنة، وقيل: في سنة ثمان وثمانين، أقام في الأسر أربع سنين، ورثاه ابن اللَّبَّانة[1] فقال: [من البسيط]

لكلِّ شيءٍ من الأشياء ميقاتُ وللمنى من مناياهنَّ غاياتُ
والدَّهرُ في صبغة الحرباءِ مُنْغمِسٌ ألوانُ حالاتهِ فيها استحالاتُ
ونحنُ من لُعَبِ الشطرنجِ في يدِهِ ورُبما قُمِرَتْ بالبيدقِ الشاةُ
انفُضْ يديكَ من الدُّنيا وساكِنِها فالأرضُ قد أقفرَتْ والناسُ قد ماتوا
وقُلْ لعالَمِها الأرضيِّ قد كُتِمَتْ سريرةُ العالَمِ العلويِّ أغماتُ
طوَتْ مظلَّتُها لا بَلْ مذلَّتُها مَن لم يَزلْ فوقَهُ للعزِّ راياتُ
مَنْ كان بين النَّدى والبأس أنصلُهُ هنديةٌ وعطاياه هنيداتُ
وكان مثلَ عيانِ العينِ تُبصِرهُ وللأمانيِّ في مرآهُ مرآةُ
رماه مِنْ حيثُ لم تستُرْهُ سابِغةٌ دهرٌ مصيباتُهُ نبلٌ مصيباتُ
وبدرُ سبعٍ وسبعٌ تستنيرُ بهِ السبعُ الأقاليمُ والسبعُ السماواتُ
له وإن كانَ أخفاهُ السَّرارُ سنًا مثلُ الصباحِ به تُجلى الدجنَّاتُ
لهفي على آلِ عبَّادٍ فإنهمُ أهِلَّةٌ ما لها في الأُفْقِ هالاتُ
فُجِعْتُ منهم بإخوانٍ ذوي ثقةٍ فاتوا وللدهرِ في الإخوانِ آفاتُ
واعتضْتُ في آخرِ الصحراءِ طائفةً لغاتُهُمْ في جميعِ الكُتْبِ مُلغاةُ
بمغرب العُدْوةِ القُصوى دُجَى أملي فهَلْ لهُ بديارِ الشرقِ مِشْكاةُ

ذكر أولاده

كان له أولاد، منهم: يزيد، يُلقَّب بالراضي، وكان فاضلاً، ومن شعره يذمُّ الدنيا: [من المتقارب]

---

(١) هو محمد بن عيسى أبو بكر الداني المعروف بابن اللَّبانة. السير ١٩/ ٣٧٣.

هي الدَّارُ قاطعةٌ بالرجالِ ... وقاطعةٌ لحبالِ الوصالِ
وتفجعُ منها بغيرِ اللذيذِ ... وتَشرقُ منها بغيرِ الزُّلالِ
وتزدادُ مع ذاكَ عِشقاً لها ... ألا إنَّما سعيُنا في ضلالِ
كمعشوقةٍ ودُّها لا يدومُ ... وعاشِقُها أبداً غيرُ سالِ

وقُتِلَ يزيد بين يدي أبيه يوم الوقعة، وكان له ولد آخر يقال له: الفتح، وآخر اسمه عبد الله، والكلُّ فُضلاء شُعراء، وعدَّةُ بناتٍ كُنَّ يغزِلْنَ للناس بالكراء في أغمات، بعد أن كان يقوم على رأس كلِّ واحدة منهنَّ مئةُ وصيفةٍ وخادم.

ذكر وزرائه:

كان له عِدَّةٌ من الوزراء، منهم: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، وهو القائل[1]: [من الرمل]

ودَّعَ الصبرَ مُحِبٌّ ودَّعَكْ ... ذائعٌ[2] من سرِّهِ ما استودعَكْ
يَقرَعُ السِّنَّ على أنْ لَمْ يكُنْ ... زادَ في تِلْكَ الخُطا إذ شَيَّعَكْ
يا أخا البدرِ سناءً وسنًا ... حَفِظَ اللهُ زماناً أطلَعَكْ
إن يَطُلْ بعدَكَ ليلي فلَكَمْ ... بِتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ معَكْ

وقال أيضاً[3]: [من البسيط]

بيني وبينَكَ مالو شِئْتَ لم يَضِعِ[4] ... سرٌّ إذا ذاعتِ الأسرارُ لم يَذِعِ
يا بائعاً حظَّهُ منِّي ولو بُذِلَتْ ... ليَ الحياةُ بحظِّي منهُ لم أبِعِ
تِهْ احتَمِلْ واستَطِلْ اصبِرْ وعِزَّ أهنْ ... وولِّ أقْبِلْ وقُلْ اسمَعْ ومُرْ أطِعِ

---

(١) ديوانه ص٩٤.

(٢) في الأصلين (خ) و(ب): ضائع، والمثبت من الديوان، ونفح الطيب ٤/ ٢٠٦، والذخيرة ١/ ٣٧١، والمغرب ١/ ٦٥ وغيرها من المصادر.

(٣) ديوانه ص٦٨.

(٤) في الأصلين (خ) و(ب): يذعِ، والمثبت من الديوان، والبداية والنهاية ١٢/ ١٠٤ والذخيرة ١/ ٣٧١، والمعجب ١/ ١٠٦ وغيرها من المصادر.

ومنهم محمد بن عمار، كتب إليه أبو يحيى بن صالح المعتصم صاحب البريد[١] ونُجّابه[٢]، وكان ابنُ عمار من أعيان الوزراء: [من الطويل]

وزهَّدني في النَّاسِ معرفتي بِهِمْ ... وطولُ اختباري صاحباً بعدَ صاحبِ
فلم تُؤتِني الأيامُ خِلًّا تسُرُّني ... بواديهِ إلَّا ساءني في العواقِبِ
ولا صِرْتُ أرجوهُ لدفعِ مُلِمَّةٍ ... من الدَّهرِ إلا كان إحدى النوائبِ

فكتب إليه ابن عمار: [من الطويل]

فديتُكَ لا تزهَدْ وثَمَّ بقيَّةٌ ... سيرغبُ فيها عند وقع التجاربِ
وأبقِ على الخُلْصانِ[٣] إنَّ لديهِمُ ... على الدَّهرِ كرَّاتٍ بحُسنِ العواقبِ

ومن شعر [إبراهيم بن خفاجة كتب إلى][٤] محمد بن عباد وهو بأغمات: [من الكامل]

وعسى الليالي أنْ تَمُنَّ بنَظْمِنا ... عقداً كما كُنَّا عليه وأجملا
ولربما نثرَ الجمانُ تعمُّداً ... ليُعادَ أحسنَ في النظام وأكملا

ولابن خفاجة في الحمَّام: [في السريع]

أهلاً ببيتِ النارِ من منزلٍ ... شيدَ لأبرارٍ وفُجَّارِ
يقصدُهُ ملتمسو لذَّةٍ ... فيدخلوا الجنةَ في النَّارِ

[وفيها توفِّي]

محمد بن علي بن محمد[٥]

أبو ياسر، الحمَّامي، البغدادي، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتوفِّي في المُحرَّم، ودُفن بباب حرب، وكان إماماً ثقةً، ورُويَ عنه أنه قال: [من السريع]

---

(١) في (خ): التربة، والمثبت من (ب).

(٢) النُّجّاب: ساعي البريد الذي يمتطي الجمل وحيد السنام. تكملة المعاجم ١٠/ ١٧٠.

(٣) في الأصلين (خ) و(ب): الخلّان، والمثبت من نفح الطيب ٤/ ٤٣٩، والذخيرة ٣/ ٤٠٤، وزهر الأكم ١/ ٢٨٧ وغيرها من المصادر.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب)، وجاء قبلها زيادة مقحمة، وهي: محمد بن عباد.

(٥) المنتظم ١٧/ ٣٦.

دحــرجــنــي الــدهــرُ إلــى مــعــشــرٍ   مــافــيــهــمُ لــلــخــيــرِ مُــســتــمــتَــعُ
إن حــدَّثــوا لــم يــفــقَــهــوا لــفــظَــةً   أو حــدِّثــوا ضَــجُّــوا فــلــم يــســمــعــوا

المنصور بن محمد بن عبد الجبار[1]

أبو المظفَّر، السمعاني، جد أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور صاحب «الذيل»، وأبو المظفر من أهل مرو، وتفقَّه على مذهب أبي حنيفة حتى برع، ثم ورد بغداد [سنة إحدى وستين، واجتمع بأبي إسحاق الشيرازي وابن الصباغ[2]] فانتقل إلى مذهب الشافعي، ورجع إلى بلده فلم يقبلوه، وقالوا: مذهبٌ ناظرتَ عليه أكثر من ثلاثين سنة[3] تنتقل عنه؟ اخرجْ من عندنا، وجلب عليه العوام، فخرج إلى طُوس، ثم قصد نيسابور ووعظ بها، وصنَّف «التفسير» و«البرهان» و«الاصطلاح» و«الاصطلام» و«القواطع في أصول الفقه» و«الانتصار في الحديث» وغير ذلك. وقال: ما سمعتُ شيئاً فنسيتُه قَطُّ.

وسُئِلَ عن أخبار الصفات، فقال: عليكم بدين العجائز.

وسُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥] فأنشد هذين البيتين: [من الخفيف]

جئتُماني لتعلَما سِرَّ سُعدى   تجداني بسِرِّ سُعدى شحيحا
إنَّ سُعدى لَمُنيةُ المتمنِّي   جمعَتْ عِفَّةً ووجهاً صحيحا

ثم رجع إلى مرو فتُوفِّي بها في ربيع الأول.

السنة التسعون وأربع مئة

فيها في يوم عاشوراء هرب أبو نصر بن جلال الدولة أبي طاهر بن بُوَيه من بغداد، وكان ملك شاه أقطعه المدائن ودير العاقول، فالتجأ إلى سيف الدولة بن مَزْيَد فلم يحمله، فتنقَّل في البلاد، وسببُ هربه أنه شهد عليه بالإلحاد عند القاضي، فحكم

(١) المنتظم ١٧/ ٣٧ ـ ٣٨، والأنساب ٧/ ١٣٩ ـ ١٤٠ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٤ . وتحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: أحمد، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

(٣) في (خ): ثلاث سنين، والمثبت من (ب) والمنتظم.

بإراقة دمه، وكان له داران بدرب القيَّار، فتقدَّم الخليفة بأن يجعلا مسجدين أحدهما لأصحاب أبي حنيفة، والآخر لأصحاب الشافعي، وأُقيم في كل واحد إمامٌ ومؤذن، ولم يُدْرَ ما فُعِلَ به، وهو آخر من ركب الخيل من بني بُوَيه[1].

ويقال: إن في هذه السنة خُطِبَ للمصريِّ بحلب، ثم بطل ذلك.

ويقال: إنَّ فيها فتح عسكر مصر صور.

وفيها سار دُقاق من دمشق محارباً لأخيه رضوان، والتقوا على قُويق، فانهزم دُقاق إلى دمشق، وتَبِعه رضوان، ثم أصلح بينهما يغي شعبان بأنَّ كلَّ مَنْ كان في يده شيء يبقى على حاله.

وفيها فتحت الفرنج نيقيَة، وهي أول بلد فتحوه، ثم فتحوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء، ووصلوا إلى البارة وجبل السماق وفامية وكفر طاب ونواحيها.

وفيها توفِّي

محمد بن [محمد][2]

ابن أحمد بن هميماه، أبو نصر، الرامشي، ولد سنة أربع وأربع مئة، وقيل: كانت وفاته في جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، ومن شعره: [من المتقارب]

أدينُ بدِينِ خيارِ الورى ... محمدٍ المصطفى شافعي
ومُعتَصَمي حبُّ أصحابِهِ ... ومُعتَقَدي مذهب الشافعي

المُعمَّر بن محمد[3]

ابن المُعمَّر بن أحمد، أبو الغنائم، الحسيني، الطاهر، ذو المناقب، نقيب الطالبيين.

كان كريمَ الطرفين، حسنَ الأخلاق، كثيرَ العبادة، لايُحفظ عنه أنه آذى مخلوقاً ولا شتم أحداً. وكانت وفاته بداره بالكَرْخ ثامن ربيع الأول، وصُلِّي عليه بجامع المنصور،

(١) الخبر في المنتظم ١٧/ ٣٩.
(٢) ما بين حاصرتين من المصادر، والترجمة في تاريخ دمشق ٥٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠، والمنتظم ١٧/ ٣٧. وينظر تاريخ الإسلام ١٠/ ٦٣٨، وفيه وفي المنتظم وفاته في السنة السابقة ٤٨٩ هـ.
(٣) المنتظم ١٧/ ٤١ ـ ٤٢.

وحُمِلَ إلى مقابر قريش فدُفِنَ بها، ومات عن اثنتين وسبعين سنة، ولي منها النقابة اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً، وولي النقابة مكانَه ولدُه أبو الفتوح حيدرة، ولُقِّب بالرضا ذي الفخرين، ورثاه أبو عبيد بن عطية بأبيات منها: [من الكامل]

هل ينفَعَنَّ من المنونِ حذارُ ... أمْ للأنامِ من الرَّدى أنصارُ
هيهاتَ ما دونَ الحِمامِ إذا دنا ... وزَرٌ ولا يُستطاعُ منهُ جِذارُ
نَفَذَ القضاءُ على الورى من عادلٍ ... في حكمه وجرَتْ به الأقدارُ
مالي أرى الآمالَ تخدَعُ بالمنى ... عِدَةً تطولُ وتَقْصُرُ الأعمارُ
والناسُ في شُغلٍ وقد أفناهُمُ ... ليلٌ يكِرُّ عليهمُ ونهارُ
ويدُ المنيةِ شَثنةٌ[1] مبسوطةٌ ... في كلِّ أنملةٍ لها أظفارُ
لو كان يدفعُ بطشَها عن مُهجةٍ ... ويرُدُّ حتفاً معقلٌ وجِدارُ
لفدَتْ ربيعةُ ذا المناقب واشترَتْ ... حُبًّا لهُ طولَ البقاء نزارُ
خرجَتْ ذُرى المجدِ المُنيفِ وأصبحتْ ... عَرَصاتُ رَبعِ المجدِ وهي قفارُ
وخلا مقامُ النُّسْكِ من تسبيحِهِ ... وبكَتْ على صلواتِهِ الأسحارُ

نصر بن إبراهيم[2]

ابن نصر بن إبراهيم، أبو الفتح، الفقيه، المقدسي، الشافعي، أصله من نابلس، وأقام بالقدس مدةً ودرس به، وقدم دمشق سنة إحدى وسبعين وأربع مئة، وسمع بها الحديث، ثم سافر إلى آمِد والجزيرة وعاد إلى دمشق سنة ثمانين، ودرس بالزاوية شمالي جامع دمشق عند الكلاسة، وكان من الزهد على حالةٍ لم يُسبَق إليها، أقام بدمشق سنة ثمانين إلى أن مات، لايقبل من أحدٍ هديةً، ويقتات من غلة تُحمل إليه من نابلس، يُخبز له كلَّ ليلة منها قرصٌ على الكانون، ولزم طريقةً واحدةً في الزهد في الدنيا والتنزُّه عن أهلها، وسلوك طريقة السلف، من تجنُّب الملوك، ورفْضِ الطمع، والقناعة باليسير من الدنيا.

---

(١) شَثْنة: غليظة خشنة. المعجم الوسيط (شثن).

(٢) تاريخ دمشق ٦٢/ ١٥ ـ ١٨.

وزاره تاجُ الدولة فلم يقُمْ له ولم يلتفت إليه، وكذا ولده دُقاق، وسأله دُقاق: أيُّ الأمور أحلُّ؟ فقال: مال الخوالي. فلما خرج بعث إليه بمبلغ فلم يقبَلْه.

وكانت وفاتُه يوم الثلاثاء تاسع المُحرَّم بدمشق، وكانت له جنازةٌ لم يرَ الناسُ مثلَها، خرج بها بعد الظهر فلم تُدفن إلى وقت الغروب؛ لأن الناس حالوا بينه وبين حامليه، ودُفِنَ بالباب الصغير خارج الحظيرة التي على قبر معاوية الضيِّق جانبها القبلي، وأقام الناسُ على قبره سبعَ ليالٍ يختمون [القرآن](١) كلَّ ليلة عدة ختمات، سمع بدمشق، وأقام بصور عشر سنين، فسمع بها، وأمَّ بالجامع الأقصى بالبيت المقدَّس، ومن صحب أبا إسحاق الشيرازي وابن الجويني عَلِمَ أنَّ الفقيه نصراً كان أفضلَ منهما وأحسنَ طريقةً، رحمةُ الله عليه.

يحيى بن أحمد(٢)

ابن [أحمد(٣)] بن محمد بن السِّيبي، ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة، وتُوفِّي في ربيع الآخر هذه السنة، وعاش مئة وثلاثة وخمسين سنة وثلاثة أشهر وأياماً، وكان صحيحَ الحواسِّ، يُقرأ عليه القرآن، ويسمع الحديث، ورحل الناس إليه، وكان ثقةً صالحاً صدوقاً.

السنة الحادية والتسعون وأربع مئة

فيها كثر الاستنفار على الفرنج، وتواترت الشكايات منهم، وكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع عميد الدولة للجهاد، ويجهز سيف الدولة صدقة، وبعث مقدماته إلى الأنبار، ثم وردت الأخبار إلى بغداد بأن الفرنج ملكوا أنطاكية وصاروا إلى معرة النعمان، فقتلوا ونهبوا، وكانوا في ألف ألف إنسان(٤).

---

(١) ما بين حاصرتين في (ب).

(٢) المنتظم ١٧/ ٤٢، والأنساب ٧/ ٢١٦، والكامل ١٠/ ٢٧١. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب) والمصادر.

(٤) الخبر في المنتظم ١٧/ ٤٣.

ذكر شرح ذلك:

كان خروجهم أولاً إلى بلد أنطاكية فلم ينازلوها، وجاؤوا إلى المعرة، فنصبوا عليها السلالم[١]، ونزلوا فقتلوا من أهلها مئة ألف إنسان، وسبوا مثلَ ذلك، ثم دخلوا كفر طاب، وفعلوا مثلَ ذلك، وعادوا إلى أنطاكية، وكان بها الأمير يغي شعبان، وكان على الفرنج صنجيل، فحاصروها مدةً، فنافق رجل يُقال له: فيروز، وفتح لهم في الليل شباكاً فدخلوا منه، ووضعوا السيف، وهرب يغي شعبان وترك أهله وأمواله وأولاده بها، فلما بعُدَ عن البلد ندم على ذلك، فنزل عن فرسه، فحثا التراب على رأسه وبكى ولطم، وتفرَّق عنه أصحابُه، وبقي وحده، فمرَّ به رجلٌ أرمنيٌّ حطَّاب، فعرفه، فقتله وحمله معه ـ بعد أن قطع رأسه ـ إلى صَنْجيل.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في جمادى الأولى ورد الخبر بأن قوماً من أهل أنطاكية عملوا عليها، وواطؤوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءةٍ تقدَّمت منه في حقِّهم ومصادرته لهم، ووجدوا الفرصة[٢] في برج من أبراج البلد ممَّا يلي الجبل، فباعوهم إياه، وأصعدوهم منه في السحر، وصاحوا، وانهزم يغي شعبان، وخرج في خلق عظيم، فلم يسلَمْ منهم شخص، فسقط من فرسه عند معرة مِصْرين، فحمله بعضُ أصحابه وأركبه، فلم يثبُتْ على ظهر الفرس، وسقط ثانياً فمات.

وأما أنطاكية فقتل منها وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يُدركه حصر، وهرب إلى القلعة قَدْرُ ثلاثة آلاف تحصَّنوا بها، وكان افتتاح المعرة في ذي الحجة بعد فتح أنطاكية.

وفيها اجتمع ملوك الإسلام بالشام؛ رضوان صاحب حلب، وأخوه دُقاق، وطُغْتِكين، وكربوقا[٣] صاحب الموصل، وسُكْمان بن أُرْتُق صاحب ماردين، وأرسلان صاحب سنجار، فنازلوا أنطاكية، وضيَّقوا على الفرنج، حتى أكلوا ورق الشجر، وكان صنجيل مقدَّم الفرنج فيه دهاء ومكر، فرتب مع راهبٍ لهم حيلة، وقال:

---

(١) في (خ): الخيام، والمثبت من (ب)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٦.

(٢) في (خ): الفرج، والمثبت من (ب).

(٣) تقدمت الإشارة إلى أن اسمه: كربوقا، لكنه تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: كربوعا.

اذهَبْ فادفِنْ هذه الحربة في مكان كذا. وقال للفرنج: رأيتُ المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربةٌ مدفونةٌ فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظَّفرُ لكم، وهي حربتي، فصوموا ثلاثة أيام، وصلُّوا وتصدَّقوا، وجاء وهم معه إلى المكان فنبشوه، فظهرت الحربة، فصاحوا، وصاموا، وتصدَّقوا، وخرجوا إلى المسلمين، فدفعوهم عن البلد، وثبت جماعةٌ فقُتِلوا عن آخرهم.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في رجب اجتمعت عساكر الإسلام في عددٍ لا يُدركه حَصْرٌ ولا حَزْرٌ، وقصدوا عمل أنطاكية، فحصروها حتى عدم الفرنج القوت، وأكلوا الميتة، فزحف الفرنج - وهم على غاية من الضعف - إلى عساكر الإسلام - وهم في غاية القوة والكثرة - فكسروا المسلمين، وفرَّقوا جموعهم، وانهزم أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين، وكتب دُقاق ورضوان والأمراء إلى الخليفة يستنصرونه، فأخرج الخليفةُ أبا نصر بن الموصلايا إلى بركياروق إلى الري يستنجده.

وفيها عزل بركياروق مؤيد الدولة بن نظام الملك عن وزارته، واستوزر أخاه فخر الملك، وذلك برأي مجد الملك القُمِّي المستوفي، وكان مؤيد الدولة في غاية من الفضل والعقل وحسن التدبير، وفخر الملك في غاية من الجهل والحمق والتبذير، فانقطع المؤيد إلى الزهد والعبادة، وانسلَّ مستخفياً، فلحق بمحمد بن ملك شاه وهو بكرمان، فأطمعه في الملك، فاستوزره، وسار به إلى أصفهان، فاستولى عليها بغير قتال، بل بحُسن التدبير، وكان فخر الملك قد أساء فيهم السيرة، وقبض محمد بن ملك شاه على زبيدة أم بركياروق، واعتقلها في قلعة وخنقها، وقال: ماتت. وقيل: إنما خنقها مؤيد الملك بوتر.

وفيها شغب الجند على بركياروق وقالوا: لاطاعةَ لك علينا، حتى تُسلِّم إلينا القُمِّي المستوفي وكان قد أساء السيرة فيهم، وضيَّق أرزاقهم، وبلغ القُمِّي، فقال لبركياروق: نفسي فداؤك، دعهم[1] يقتلوني ويبقى عليك ملكُك. فقال: لا والله لا مكَّنتُهم منك

(١) في الأصلين (خ) و(ب): دع، والمثبت من تاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٨.

أبداً. وعزم على تغييبه عنهم، فقيل له: متى أُخرج عنك قتلوه، ولكن أرسله مع كبرائهم، فإنهم يكرمونه. فأرسله مع ولديه وكبراء دولته؛ ظنًّا منه أنهم يكرمونه، فلما جاؤوا به إليهم قالوا لهم: إن السلطان يُسلِّم عليكم ويشفع إليكم فيه، وقد نفذ ولديه معه. فثاروا عليه فقتلوه، ثم جاؤوا من الغد فقبَّلوا الأرضَ بين يدي بركياروق وقالوا: نحن عبيدك. فسكت، وبلغَ مؤيدَ الملك، وكان قد استولى على داره وأسبابه بأصفهان، فسُرَّ بقتله، وعلم أنه قد تمكَّن مما يريد، لكنه بقي مرتهناً بسوء صنيعته مع زبيدة وخنْقِهِ إيَّاها.

ذكر بداية محمد بن ملك شاه:

كان لملك شاه أولاد؛ محمود، وأمه خاتون، وبركياروق، وأمه زبيدة، ومحمد شاه، وسنجر لأم وأب، وكان محمد هذا قد خرج مع بركياروق من بغداد صغيراً لأبويه مختفياً، وكانت أمه في عسكر بركياروق، فلما ولي بركياروق ضمَّه إليه، فأقام عنده مدة، ثم أقطعه كنجةَ وأعمالها، فسار إليها، ورتب بين يديه بعضَ أصحابه ـ كالأتابك ـ له، واسمه محمد، فاستولى عليه، فوثب عليه محمد شاه فقتله، واتفق مع مسير مؤيد الملك بن النظام إليه، وأطمعه في الملك، وجرت له مع أخيه بركياروق حروبٌ ووقائع، واستولى محمد شاه على المملكة، وبعث إلى بغداد، فخطبوا له سنة اثنتين وتسعين، ثم خطب لبركياروق، وسوف نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

الحسين بن الحسن

أبو عبد الله، الشهرستاني، الفقيه، الشافعي، ولي القضاء بدمشق سنة سبع وسبعين في ولاية تُتُش، وكان نَزِهاً، عفيفاً، مَهيباً، شديداً على من خالف الحق، خرج مع الجموع إلى أنطاكية، فاستشهد بها.

أنشد لغيره: [من الطويل]

حبيبي لقد واللهِ[1] ضاقَتْ مذاهبي ... عليَّ وقد واللهِ أسلمني صبري

---

(١) في (خ): والله لقد، ولا يستقيم الوزن، والمثبت من (ب).

فإنْ كنتَ قد أحببتَ فُرقةَ بينِنا على كلِّ حالٍ فانتظِرْ غَيْرَة الدَّهرِ
ومَنْ ينتظِرْ غدرَ الزَّمانِ بإلفهِ يُلاقي الذي يهوى ولا يَكُ ذا عُذْرِ
وإلَّا فأيَّامُ الزَّمانِ بأسْرِها أقَلُّ أذًى مِنْ أنْ تُمَحَّقَ بالهجْرِ

وهي لأبي بكر بن داود بن علي الأصفهاني.

طِراد بن محمد[1]

ابن علي بن الحسن[2] بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عبد الله بن محمد ابن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو الفوارس، الزَّينبي، من ولد زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وهي أم ولد عبد الله بن محمد ابن إبراهيم الإمام، وذلك أنَّ محمداً تزوَّجها فأولدها عبد الله، كانت عظيمة في بني العباس في الفُضلاء مثل المنصور.

ووُلِد طِراد في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، ورحل الناس إليه من الأقطار، وأملى بجامع المنصور، وكان يحضر مجلسه جميعُ المحدثين والفقهاء والأشراف وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامَغاني، وحجَّ سنة تسع وثمانين، فأملى بمكة والمدينة، وولي نقابة العباسيين بالبصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وترسَّل من الخليفة إلى الملوك مراراً، وبيته بيت رئاسة وجلالة، وتُوفِّي في شوال وقد جاوز التسعين، ودُفِنَ في داره بباب البصرة، ثم نُقِلَ في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة إلى مقابر الشهداء، وكان يُلقَّب بذي الشرفين شهاب الحضرتين، وكان يوم مات صحيحَ الأعضاء، سليمَ الحواس، وقد تورَّع بعضُ المحدِّثين عن الرواية عنه والسماع منه؛ لترسُّله إلى الملوك، وأخذِ أموالهم، وتصرُّفِه في الولايات، وهو فما كان يلتمس الرسل، وإنما كان الخلفاء يلزمونه ذلك إصلاحاً لأحوال المسلمين وانتظام الأحوال مع الملوك، ثقةً بأمانته وديانته وفضله وشرفه وطهارة أصله، والظاهر عنه التورُّع عن قبول أموالهم.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٤٣ ـ ٤٤، والأنساب ٦/ ٣٤٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٣٧.

(٢) تحرف في (خ) إلى: الحسين، والتصويب من (ب) والمصادر.

ولمَّا احتضر بكى أهله، فقال: إنما يُبكى على الشباب، أما من جاوز التسعين فلا معنى للبكاء عليه.

المُظفَّر[1]

ابن رئيس الرؤساء أبي القاسم الوزير بن المسلمة، أبو الفتح، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان عارفاً بالفقه والأدب، وكانت دارُه مجمع العلماء والفضلاء، وأقام أبو إسحاق الشيرازي [بداره حتى تُوفِّي بها المظفَّر في ذي القعدة، ودُفن عند أبي إسحاق الشيرازي[2]] وكان جليلاً نبيلاً.

نصر بن علي[3]

ابن المُقلِّد بن نصر بن منقذ، أبو المُرْهَف، الكِناني، عِزُّ الدولة، مَلَكَ شَيْزَر بعد أبيه، وكان [يُعنى] بتربية إخوته وقام بها أحسن قيام، ولمَّا قدم ملك شاه الشام سلَّم إليه فامية وكفر طاب واللاذقية، وكان شجاعاً، سمحاً، صوَّاماً، قوَّاماً، بارًّا بوالديه، وفيه يقول أبوه علي بن المُقلِّد من أبيات: [من الطويل]

جزى اللهُ نصراً خيرَ ما جُزِيَتْ بِهِ ... رجالٌ قضَوا فرض العُلا وتنقَّلوا
هو الولدُ البَرُّ اللطيفُ فإن رمى ... به حادِثٌ فَهْوَ الحِمامُ المُعَجَّلُ
سألقاكَ يومَ الحشرِ أبيضَ واضحاً ... وأشكرُ عندَ اللهِ ما كنتَ تفعلُ
إلى اللهِ أشكو من فراقِكَ لوعةً ... تَوَقَّدُ في الأحشاءِ ثمَّ تَرَحَّلُ[4]
تُفدِّيك يا نصرُ رجالٌ محلُّهمْ ... من المجدِ والإحسانِ أن يتقوَّلوا[5]

وقال أبوعبد الله محمد بن أبي سلامة مرشد بن علي: لم يكن أهل الشام يعرفون الغدر، وفد أبو مسلم بن سليم أحدُ بُناة المعرة على والي حلب ظناً منه أن الناس كما

---

(١) المنتظم ١٧/ ٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) تاريخ دمشق ٦٢/ ٣٦ - ٣٩.

(٤) في تاريخ دمشق: تزلزلوا.

(٥) كذا في الأصلين (خ) و(ب)، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٤٢: يتطوَّلوا. وفي تاريخ دمشق، وخريدة القصر ١/ ٥٧٠: يقوَّلوا.

يعهد، فقبض عليه وحبسه وضيَّق [عليه(١)] وقال: سَلِّم إليَّ المعرة. فقال: أنا واحد من بُناة المعرة. فقطع عليه خمسة آلاف دينار مصرية، ولم يكن يُعرف بالشام غير الذهب المصري، فكتب ابنُ سليم إلى عمه نصر(٢) ـ وكان ابنُ سليم فقيراً لكثرة ما يُعطي الناس ـ: [من السريع]

يا نصرُ يا ابنَ الأكرمينَ ومَنْ ... ملَكَ التِّلادَ بطارفِ(٣) الفخرِ
هذا كتابٌ من أخي ثقةٍ ... هذا أوانُ النَّفعِ والضرِّ
فامنُنْ بما أوليتَ من حَسَنٍ ... أشكو إليكَ نوائبَ الدَّهرِ

فبعث إليه بستةِ آلاف دينار، خمسةِ آلاف خلَّص بها نفسه، وبقي معه ألفُ دينار، ولمَّا تُوفِّي نصر وجدوا في خريطته اسم البيوت التي يتفقَّدها في كلِّ سنة ويُموِّنها من الشام والساحل وحلب ودمشق والقدس ومصر وبغداد ومكة والمدينة وخراسان وأصفهان والمشرق، فكان جملة ما يخرج عليهم في كل سنة عشرين ألف دينار، ولمَّا مات أخرج كلَّ ما خلَّفه والدُه أبو الحسن، ومغلَّ عشر قلاع كانت تحت يده؛ حصن الجسر وشَيْزَر وفامية وكفر طاب وعَلَّان وأسقوبا واللاذقية وغيرها، وبقي عليه سبع مئة دينار سُلِّم إلى أربابها مِلْكٌ استغلُّوه حتى استوفوا مالهم.

وكان يركب في عشرة آلاف فارس من كتابة الأوائل.

قال مرشد بن علي: دخلت عليه يوماً وهو نائم وقد كادت صلاة الصبح أن تفوته، فقلتُ لأمرأته: أينامُ أخي حتى تطلع الشمس وتفوته صلاة الصبح؟ فقالت: قد صلَّى العشاء الآخرة ولم يضَعْ جنبه إلى الأرض حتى صلَّى الصبح ونام، وهذا دأبُه منذ صَحِبتُه.

قال مرشد: أنشدت أخي أبا المرهف قول القائل: [من الخفيف]

كنتُ أستعمِلُ السَّوادَ مِنَ الأمـ ... ـشاطِ والشَّعرُ مثلُ لونِ الدَّياجي

(١) مابين حاصرتين من (ب).
(٢) العبارة في (ب): فكتب ابن سليم إلى عمر.
(٣) التِّلاد: القديم، والطارف: الجديد.

أتلقَّى مثلاً بمثلٍ فلمَّا صارَ عاجاً سرَّحْتُهُ بالعاجِ

فلما كان من الغد أنشدني لنفسه: [من الخفيف]

كنتُ أستعمل البياض من الأمْـ ـشاطِ عُجْباً بلِمَّتي وشبابي

فاتَّخذتُ السوادَ في حالة الشَّيْـ ـبِ سُلُوًّا عن الصِّبا بالتَّصابي

وكانت وفاته في جمادى الآخرة بشَيْزَر رحمه الله تعالى.

السنة الثانية والتسعون وأربع مئة

في يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان استولى الفرنج على البيت المقدس، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كُنْدَهري في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل، والباقون رجَّالة، وفَعَلة، وأربابُ مجانيق، وعرَّادات، وغيرها من آلة القتال، وجعلوا طريقَهم على الساحل، وكان بها افتخارُ الدولة من قِبَل المصريين، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا بُرجَين مُطِلَّين على السور، أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب أسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون، وقتلوا مَنْ فيه.

وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا مَنْ كان عليه، ورمَوا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون، فنزلوا البلد، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى، فاحتموا بها، فهجموا عليهم، فحُكي أنهم قتلوا في الحرم مئة ألف، وسبَوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً، منها عشرون ذهباً، في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة، في كل قنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم بالشامي، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من الأموال مالا يُحصى.

ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة، وكان الأفضل بن أمير الجيوش لمَّا بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفاً، وجَدَّ في السير، فوصل ثاني يوم فتحه ولم يعلم،

وقصده الفرنج، فدخل عسقلان، وقُتِلَ من أصحابه عددٌ كثير، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان، وقطعوا أشجارها، وعادوا إلى القدس.

وذكر أبو يعلى أنَّ فتوح المعرة كان في هذه السنة قبل القدس، فقال: زحف الفرنج في مُحرَّم هذه السنة إلى سور المعرة من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج إلى سورها، وكان أعلى منه، ولم تزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من المُحرَّم، وصعدوا السور، وانكشف أهلُ البلد بعد أن تردَّدت إليهم رسل الفرنج، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم وأن لايدخلوا إليهم، بل يبعثوا إليهم شحنة، فمنع من ذلك الخلف بين أهلها، وملكوا البلد بعد المغرب، وقُتِلَ من الفريقين خلقٌ كثير، ثم أعطوهم الأمان وغدروا بهم، ورحلوا في آخر رجب إلى القدس، وانجفل الناس بين أيديهم، فجاؤوا إلى الرملة فأخذوها عند إدراك الغلَّة، وانتهوا إلى القدس، وقاتلوا أهلَه، وألصقوا البرج إلى السور.

وبلغهم خروج الأفضل من مصر، فجدُّوا في القتال، ونزلوا من السور، وقتلوا خلقاً كثيراً، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم، وهدموا المشاهدَ وقبرَ الخليل عليه الصلاة والسلام، وتسلَّموا محراب داود بالأمان، ووصل الأفضلُ بالعساكر وقد فات الأمر، فنزل ظاهرَ عسقلان في رابع عشر رمضان ينتظر الأسطول في البحر والعرب، فنهض إليه الفرنج في[خلقٍ عظيم، فانهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان، ودخل الأفضل عسقلان، ولعبت سيوف الفرنج في[1]] العسكر والراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زُهاءً عن عشرة آلاف، ومضى الأفضل إلى مصر، وقرَّروا على أهل البلد عشرين ألف دينار تُحمل إليهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد، فاختلف المُقدَّمون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً.

وحُكيَ أنه قُتِلَ في هذه الوقعة[2] من أهل عسقلان من شهودها وبناتها وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبع مئة نفس، ولمَّا تمت هذه الحادثة خرج

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ) السنة، والمثبت من (ب).

المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان [وقطعوا شعورهم، و استغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان[1]] وأوردوا كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من الديوان مَنْ يمضي إلى العساكر السلطاني ويُعرِّفهم بهذه المصيبة، ووَقْعِ التقاعد، فقال القاضي الهروي - وقيل: هي لأبي بكر المظفر الأبيوردي[2] -: [من الطويل]

مزَجْنا دماءً بالدموعِ السواجمِ[3] ... فلم يبقَ منّا عُرضةٌ للمراجمِ[4]
فإيهاً بني الإسلام إنَّ وراءَكُمْ ... وقائعُ يُلحِقنَ الذُّرا بالمناسمِ[5]
بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمرَّةُ الظُّبا[6] ... وسُمْرُ العوالي دامياتُ اللَّهاذِمِ[7]
وبين اختلاسِ الطَّعنِ والضربِ وقفةٌ ... تظلُّ لها الولدانُ شِيبَ القوادمِ[8]
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها ... على هَفَواتٍ أيقَظَتْ كلَّ نائمِ
وإخوانُكُمْ بالشَّامِ يُضحي مقيلُهُمْ ... ظهورَ المذاكي[9] أو بطونَ القشاعمِ[10]
يسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تجرُّونَ ذيلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسالِمِ
وتلك حروبٌ مَنْ يغِبْ عن غِمارِها ... ليَسْلَمَ يقرَعْ بعدَها سِنَّ نادِمِ
وكاد لهنَّ المُستَجِنُّ بطيبةٍ ... يُنادي بأعلى الصوتِ يا آل هاشمِ
أرى أُمتي لا يشرعون إلى العِدى ... رماحَهم والدينُ واهي الدعائمِ
ويجتنبون النارَ خوفاً من الرَّدى ... ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازمِ

(١) ما بين حاصرتين من (ب).
(٢) والأبيات في المنتظم ١٧/٤٧ - ٤٨. والكامل ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٩ - ٦٧٠، وفي غيرها من المصادر.
(٣) السواجم؛ من السجوم: وهو قطران الدمع وسيلانه.
(٤) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: للمناجم، والمثبت من المصادر، والمراجم: الكلم القبيحة.
(٥) المناسم؛ جمع مَنْسِم: وهو طرف خف البعير.
(٦) الظُّبا؛ جمع ظُبَةُ: وهو السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.
(٧) اللهاذم، جمع لهذم: وهو كل شيء قاطع من سنان وسيف ونحوه.
(٨) القوادم، جمع قادم: وهو الرأس.
(٩) المذاكي: جمع مَذَكٌ: وهي الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.
(١٠) القشاعم؛ جمع قِشْعام: وهو النسر المُسِنّ أو الضخم.

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى ويُغْضي على ذُلٍّ كُمَاةُ الأعاجمِ
وليتَهُمُ إذ لم يَذودوا حَمِيَّةً عن الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ
وإن زهِدوا في الأجرِ إذ حميَ الوغى فهلَّا أتوْهُ رغبةً في المغانمِ

وقال أيضا: [من الوافر]

أحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضَيْماً يطولُ عليه للدِّينِ النَّحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ وحِمًى مُباحٌ وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صَبيبُ
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
وكم من مسجدٍ جَعلوهُ ديْراً على مِحرابِهِ نُصِبَ الصليبُ
دمُ الخِنزيرِ فيهِ لهُمْ خَلوقٌ وتحريقُ المصاحفِ فيه طيبُ
أمورٌ لو تأملهُنَّ طِفْلٌ لَطَفَّلَ في عوارِضِهِ المشيبُ
أتُسبى المسلماتُ بكلِّ ثغرٍ وعيشُ المسلمين إذاً يطيبُ
أما واللهِ والإسلامُ حقٌّ يدافعُ عنه شُبَّانٌ وشِيبُ
فقلْ لذوي البصائرِ حيث كانوا أجيبوا اللهَ ويحكُمُ أجيبوا

وفيها توفِّي

إبراهيم بن مسعود(١)

ابن محمود بن سُبُكْتِكين، آلَ أمرُه إلى أن استولى على بلاد غَزْنة.

وكان عادلاً منصفاً شجاعاً جواداً، منقاداً إلى الخير، كثيرَ الصدقات والصِّلات، محبوباً إلى العساكر والرعية.

وقال الفقيه أبو الحسن(٢) الطبري: أرسلني إليه بركياروق في رسالة، فرأيتُ في مملكته مالا يتأتَّى وصفُه، دخلتُ عليه وهو في طيارة عظيمة بمقدار رواق المدرسة النظامية، وسقوفُها وأبوابُها مصفحةٌ بالذهب والفضة، وعلى أبوابها الستور التِّنِّيسي، وللمكان شعاع يأخذ بالبصر، وهو على سرير من الذهب مرصَّعٍ بالجواهر، وحوله

(١) المنتظم ١٧/ ٤٩ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٥٦ .
(٢) تحرف في (خ) إلى: أبو إسحاق، والتصويب من (ب) ومصادر ترجمته في السير ١٩/ ٣٥٠ .

التماثيل المرصَّعة باليواقيت، فسلَّمتُ عليه، وجلست بين يديه[١]، فلما أديتُ الرسالةَ قال للخادم: دُرْ به في القصر. فطاف بي، فرأيتُ ما هالني، ومن جملة ما رأيتُ خَرْكاة عظيمة قد أُلبست صفائح الذهب، وفيها من تماثيل اليواقيت والجواهر مالا أقدر أن أصِفَه، وفي وسطها سرير من العود القُماري، وحوله تماثيل طيور من الذهب بخرْكاةٍ، إذا جلس الملكُ على السرير صفَّقت بأجنحتها، إلى غير ذلك من العجائب، فلمَّا عدتُ إليه أوردتُ له أحاديث، منها قولُه ﷺ: «لَمَناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسَنُ من هذا» فبكى[٢].

وما كان يبني لنفسه مكاناً حتى يبني لله مسجداً أو مدرسة.

وكانت وفاته في رجب، وقد جاوز السبعين، وأقام والياً نيِّفاً وأربعين سنة.

عبد الباقي بن يوسف[٣]

ابن علي بن صالح، أبو تراب، المَراغي، الفقيه، الشافعي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، ونزل نيسابور ودرَّس بها، وكان يقول: أحفظ أربعة آلاف مسألة في اختلاف الفقهاء والكلام عليها، وأُناظر في جميعها.

وكان يحفظ الحكايات والنوادر، قانعاً من الدنيا باليسير على طريقه السلف، بعث إليه السلطان منشوراً بقضاء هَمَذان، فردَّه وقال: أنا في انتظار المنشور الأكبر من الله تعالى بلقائه، وقدومي عليه، وقعودي ساعةً في هذا المسجد على فراغ القلب أحبُّ إليَّ من ملك الثقلين.

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثلاث وتسعين سنة، وكان إماماً زاهداً ورعاً عابداً.

السنة الثالثة والتسعون وأربع مئة

فيها في يوم السبت سادس عشر صفر خرج الوزيرُ عميدُ الدولة لاستقبال بركياروق إلى صَرْصَر في الموكب، وعاد من يومه، ودخل بركياروق يوم الأحد إلى دار المملكة، وبعث إليه الخليفة خيلاً وسلاحاً وهدايا.

---

(١) في (خ): فجلست عليه، والمثبت من (ب).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨) من حديث البراء بن عازب ﵁.

(٣) المنتظم ١٧/ ٥٠ ـ ٥١، والأنساب ١١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٧٠.

وسبب دخوله بغداد أن أخاه محمد شاه كان قد ظهر عليه وخطب لمحمد ببغداد، وطرد بركياروق من هَمَذان، فقصد خوزستان والأهواز هارباً من محمد، ثم قدم واسطاً، فهرب أعيانُ البلد، فدخل العسكرُ البلد، وفعلوا مثل ما فعل الفرنج بالمسلمين، وصادروا الناس، وأخربوا سقوف الدور، وأوقدوا أخشابها، وسبوا الحريم، ثم قصدوا بلاد سيف الدولة صدقة ففعلوا بها مثلَ ما فعل بواسط، ثم قصد بغداد، وكان سعد الدولة الكوهراني مخيماً بالنَّجمي[(١)] مبايناً لبركياروق، مصافياً لمحمد شاه، فرحل عن بغداد في صفر، وأخذ معه زوجة مؤيد الملك بن نظام الملك، وهي ابنة أبي القاسم بن رضوان فلما كان يوم الجمعة منتصف صفر قُطعت خطبة محمد شاه، وأُقيمت لبركياروق، واستولى محمد شاه على أصفهان والممالك، ومال الجندُ إليه.

وفي ربيع الأول استوزر بركياروق العميد أبا المحاسن عبد الجليل الدَّهِسْتاني ولُقِّب بنظام الدين، وجلس للنظر في دار المملكة، فبعث له الخليفة خِلعاً مع عميد الدولة، فحبس[(٢)] بركياروق عميدَ الدولة، واستدعى القاضي أبا الحسن[(٣)] الدامَغاني، وأبا القاسم الزينبي وأبا منصور صاحب الباب، وقال لهم أبو المحاسن: السلطان يقول لكم: قد عرفتُم ما نحن فيه من الإضاقة ومطالبة العسكر لنا بالمال، وهذا الوزير ابنُ جَهير قد تصرَّف هو وأبوه في ديار بكر وخلاط والجزيرة والموصل في أيام جلال الدولة، وجبوا أموالها، وأخذوا ارتفاعها، وينبغي أن يُعاد كلُّ حقٍّ إلى مستحقِّه، فخرجوا إلى الوزير وأعلموه، فقال: أنا مملوك، ولا أقدر على الكلام إلا بإذن مولاي. وانصرف القوم، وأقام الوزير معتقلاً، فكتب الخليفة إلى السلطان كتاباً يتهدَّده ويقول فيه: لايغُرَّكَ إمساكُنا من مقابلة الفلتات، فوَحَقِّ مَنْ سلف من آبائنا [لئن لم[(٤)]] يعُدِ الوزير شاكراً لنفعلنَّ ولنفعلنَّ.

(١) هكذا في الأصلين(خ) و(ب): بالنجمي، وفي الكامل ١٠/ ٢٩٣ ، والمنتظم ١٧/ ٥٣ : بالشفيعي.
(٢) في (خ): فجلس، والمثبت من (ب)، والمصادر.
(٣) تحرفت في (خ) إلى: المحاسن، والتصويب من (ب) والمصادر.
(٤) ما بين حاصرتين من (ب)، ونحوه في المنتظم.

فلمَّا قُرئ الكتاب على السلطانُ أحضر عميدَ الدولة، واعتذر إليه الوزيرُ أبو المحاسن، وقال: السلطان يقول: ثقَّلنا عليك كما يُثقِّل الولدُ على والده. وأطلقه وبين يديه الحُجَّاب، واستقرَّ أن يحمل مئة ألف دينار وخمسين[1] ألف دينار، فحملها.

وفي رابع جمادى الآخرة[2] خرج بركياروق من بغداد، وجاءه محمد شاه في رجب إلى هَمَذان، والتقيا، فانهزم بركياروق في خمسين فارساً، فنزل على فراسخ من مكان المصاف فاستراح، والتأم إليه أصحابُه، ثم لقي أخاه محمداً، فانهزم محمد وأُسِرَ سنجر وأمُّه وهي أم محمد، فأحسن بركياروق إليهما، وبعث بهما إلى أخيه محمد، وبعث محمد مَنْ كان عنده من الأسارى من أصحاب بركياروق.

وفي رجب سار دُقاق من دمشق على الرحبة إلى ميَّافارقين، فتسلَّمها، ورتب فيها نوَّابه.

وفي رجب خرج بيمُنْد زعيم الروم صاحب أنطاكية، فعاث في أرض حلب، وبلغه أنَّ الدانشمَنْد وصل إلى ملطية في جيش كثيف من الأتراك وعسكر سليمان بن قُتُلْمِش، فعاد بيمُنْد إلى أنطاكية وجمع وحشد، وعاد والتقاه المسلمون فأسروه، وقتلوا من أصحابه مقتلةً عظيمة.

وفي رمضان قبض الخليفةُ على عميد الدولة ابن جَهير وإخوته؛ زعيم الرؤساء أبي القاسم، وأبي البركات الملقَّب بالكافي، وجلسوا في دار الخلافَة، واستوزر أبا المحاسن عبد الجليل بن محمد الدَّهستاني وزير بركياروق، ولقَّبه جلال الدولة، إلا أنه لم يتمَّ أمرُه، لأنه استوزر في شوال، وورد كتاب بركياروق يحثُّه على اللحاق به، فسار إليه، فاستوزر الخليفةُ سديدَ الملك أبا المعالي الفضل بن عبد الرزاق الأصفهاني، وكان كاتباً في ديوان الجيش لملك شاه[3].

وفي ذي الحجَّة قتل رجلٌ أميراً في الري في دار فخر الملك بن نظام الملك ـ وقيل: إن الرجل باطني ـ فأُحضرَ إلى بين يدي فخر الملك، فقال: ويحك قتلتَ هذا الأمير في

---

(١) في المنتظم: وستين.

(٢) في المنتظم: رابع رجب. قلت: وهذا الخبر والأخبار السابقة في المنتظم ١٧/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: الروم، والتصويب من (ب) والمنتظم.

داري، وهتكتَ حُرمتي، وأذهبتَ حشمتي. فقال له الباطني: وهل لكَ حُرمةٌ مهتوكة، أو دارٌ مملوكة، أو حشمةٌ تمنع من الدماء المسفوكة؟ أو ما علِمتَ أننا ستةُ نفر بُعِثنا إلى ستة لنقتلهم أحدُهم أخوك؟ قال: وهل أنا في جملتهم؟ قال: أنت أقلُّ من أن تُذكرَ أو نلوِّثَ سكاكينَنا بدمك. فعُذِّبَ على أن يُقِرَّ على من أمر بقَتْلِه، فلم يُقِرَّ، فقتله[1].

وفيها خرج سعد الدولة القوامسي من مصر بعسكر كثيف، فالتقى الفرنجَ على عسقلان، وكان في القلب[2]، فقاتل قتالاً شديداً، فكبا به فرسُه فقُتِلَ، وثبت المسلمون، وحملوا على الفرنج فهزمهم إلى قيسارية، فيقال: إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثَ مئة ألفٍ ولم يُقتَل من المسلمين سوى سعد الدولة ونفرٍ يسير.

وفيها توفِّي

سعد الدولة الكوهراني[3]

من الخدم الأتراك الذين ملكهم أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة، وكان قبل انتقاله إليه لامرأة، فكان بعد إقبال الدنيا عليه ومسير الجيوش تحتَ ركابه يقصد مولاته ويخدمها ويستعرض حوائجها، وبعث به أبو كاليجار مع ابنه أبي نصر إلى بغداد، فلم يزَلْ معه حتى قدم طُغْرُلبك بغداد واعتقل أبا نصر في القلعة، فلم يُفارِقْهُ سعد الدولة، فلما مات خدم سعدُ الدولة ألب أرسلان ووقاه بنفسه لمَّا جرحه يوسف ـ وقد ذكرناه ـ فلمَّا مَلَكَ مَلِك شاه بعثَ سعد الدولة إلى بغداد في رسالة، فجلس له القائم في صفر سنة سبع وستين، وأعطاه الخِلَعَ والعهد لملك شاه، وأقطعه ملك شاه واسطاً، وكان قد ولَّاه شحنة بغداد، ورأى مالم يرَه خادمٌ من المال والجاه ونفوذ الأمر وطاعة العساكر، ولم يُنقَل أنه مرض ولا صدع، ونال مُرادَهُ من كلِّ عدوٍّ له، وذكر أنه لم يجلس قطُّ إلا على وضوء، وكان يتوضأ ولا يستعين بأحد، ويصوم، ويقوم الليل، ويتصدَّق، ولم يصادِرْ أحداً، ولا ظلم أحداً، وكان يوم

(١) هذا الخبر والذي قبله في المنتظم ١٧/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) يعني في القلب على بركياروق ومن معه، ينظر الكامل ١٠/ ٢٩٥.

(٣) ينظر المنتظم ١٧/ ٥٦ ـ ٥٧.

المصافّ بين محمد وبركياروق مع بركياروق، فكبا به فرسُه وعليه سلاحه فلم يعرفوه، فقُتِلَ، وحُمِلَ إلى بغداد فدُفِنَ في الجانب الشرقي مُقابل رباط أبي النجيب، وكان يعمل برأيه في قتل ما لايجوز قتلُه من اللصوص ويُمَثِّل بهم، ويزعم أن ذلك سياسة.

عبد الله بن أحمد[١]

ابن علي بن صابر، أبو القاسم، السُّلَمي، الدمشقي، ويُعرف بابن سِيدَه، وُلِدَ سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، وكانت وفاتُه في ربيع الآخر بدمشق، وأنشد: [من الكامل]

صبراً لِحُكْمِكَ أيُّها الدَّهرُ ... لكَ أن تجورَ ومنِّيَ الصبرُ
آليتُ لا أشكوكَ مجتهداً ... حتى يَرُدَّكَ مَنْ لهُ الأمرُ

عبد الرزاق

الصوفي، العربوني[٢].

كان مقيماً برباط عتاب غربي بغداد، وهو معروف بسُكنى المجردين، حجَّ سنين كثيرة على التجريد وقارب مئة سنة، ولمَّا احتُضِرَ لم يُخلِّف من الدنيا شيئاً، فقالت له زوجته: وافضيحتُكَ [قال: ولِمَ؟ قالت: مالكَ كفن. فقال لها: وافضيحتي][٣] لو كان لي كفن. وتوفِّي رحمه الله واتَّفق أنه مات في هذا الوقت أبو الحسن البسطامي شيخ رباط ابن المحلبان، وكان لا يَلْبَس إلا الصوف، ويغلظ على نفسه، ويُظهر التجريد والفقر، فظهر عنه أن له عشرة آلاف دينار مدفونة، فتعجَّب الناس من تفاوت ما بين الرجلين، وكلاهما شيخا رباطين.

عبد الواحد بن رزق الله بن عبد الوهاب[٤]

أبو القاسم، التميمي، الحنبلي، قدم رسولاً إلى دمشق من المستظهر سنة تسعين بخِلَعٍ إلى دُقاق، وعاد إلى بغداد فتُوفِّي بها، وكان ثقةً صدوقاً.

---

(١) تاريخ دمشق٢٧/ ٣٩-٤٠.
(٢) المنتظم ١٧/ ٥٧.
(٣) ما بين حاصرتين من (ب)، وهو بنحوه في المنتظم، والكامل ١٠/ ٣٠٢.
(٤) تاريخ دمشق ٤٣/ ٣٣٤ (طبعة مجمع اللغة).

محمد بن سلطان(١)

ابن محمد بن حيُّوس، أبو الفتيان، الأمير، الشاعر، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وقال الشعر وله خمسة عشرة سنة، وهو من أهل بيت الفضل والعلم، وتُوفِّي في رجب وقد جاوز تسعين سنة، ومن شعره قال يمدح ناصر الدولة بن حمدان في أبيات: [من الطويل]

لكم أن تجوروا مُغضَبين(٢) وتغضبوا ... وعادتكُم أن تزهدوا حينَ تغضبوا
جنيتُمْ علينا واعتَذْرنا إليكمُ ... ولولا الهوى لم يسألِ الصفحَ مُذْنِبُ
صبابةُ شوقٍ غادرتْهُ صبابةٌ ... إذا ذلَّ فيها طالبٌ عزَّ مطلَبُ
مواصَلَةٌ كانَتْ كأحلامِ نائمٍ ... وإن لامَ فيها عاذِلٌ ومؤنِّبُ
وقد رُمْتُ أن ألقى الصُّدودَ بمثلِهِ ... مقابلةً لكنَّني أتهيَّبُ
وداويَّةٍ بِكْرٍ جعَلْتُ نِكاحَها ... سُرى ضُمَّرٍ فارقنَها وَهْيَ ثَيِّبُ
تضِلُّ فلو بعضُ النُّجومِ سرى بها ... ورامَ نجاةً ما درى كيف يذهَبُ
دليلانِ فيها حُسْنُ ظنِّي وبارقٌ ... يُبشِّرُ بالتَّهطالِ والعامُ مُجْدِبُ
ومُذْ أَريانِي ناصرَ الدولةِ انْجلى ... برُؤياه ما أخشى وما أترقَّبُ
فجاورتُ مَلْكاً تستَهِلُّ يمينُهُ ... ندًى حينَ يرضى أو ردًى حين يغضَبُ
إذا البيضُ كلَّتْ يوم حربٍ فإنَّها ... مواضٍ قواضٍ أنَّ تغلِبَ تغلِبُ
خلائقُ كالماءِ الزُّلالِ وتحتَها ... من العزمِ والإقدامِ نارٌ تلهَّبُ
فإن طابتِ الأوطانُ لي أو ذكرتُها ... فإنَّ مُقامي في جنابِكَ أطيَبُ

وقال: [من الخفيف]

كُنْ بعيداً إن شئتَ أو كُنْ قريباً ... فأياديكَ عندنا لَنْ تغيبا

---

(١) تاريخ دمشق ٥٣/ ١١٠ ـ ١١٤ وفيه أن وفاته كانت سنة (٤٧٣هـ) وإليه ذهب أكثر المؤرخين، فهو كذلك في العبر ٣/ ٢١٨، والسير١٨/ ٤١٣، وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٣، وكشف الظنون ١/ ٧٦٥ وغيرها، بينما ذكره ابن الأثير في الكامل ١٠/ ١١٧ في وفيات سنة (٤٧٢هـ). قلت: ولم يذكره في وفيات هذه السنة ـ يعني سنة (٤٩٣هـ) ـ سوى المصنف، وتابعه عليه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٥. وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤١٣.

(٢) في الديوان والنجوم الزاهرة: معرضين.

خـلـفَـكَ الآلاءُ مُـذْ غِـبْـتَ عـنَّـا ... فـتـسـاوَيْـتَ مـشـهـداً ومَـغـيـبـا
كـالـغَـمـامِ الـرُّكـامِ يـمـضـي و يُـبـقـي ... مـورداً فـائـضـاً ومـرعًـى خَـصـيـبـا[1]

وله أشعار كثيرة.

وقال: [من الطويل]

سـأشـكـرُ مـا دامَ الـكـلامُ يُـطـيـعـنـي ... صُـنـوفـاً أتَـتْ مـن جـودِكَ الـمـتـتـابـعِ
تـوالَـتْ عـلـى مـن لا يُـدِلُّ بـخـدمـةٍ ... عـلـيـك ولا يُـدلـي إلـيـكَ بـشـافـعِ
مَنَحْتُكَ من محضِ القريضِ وحُسْنِهِ ... بـضـائـعَ لـيـسَ الـعُـرْفُ فـيـهـا بِـضـائـعِ

وقال: [من الطويل]

ولـمَّـا وقـفـنـا والـرسـائـلُ بـيـنَـنـا ... دمـوعٌ نـهـاهـا الـوجـدُ أن تـتـوقَّـفـا
ذَكَـرْنـا الـلـيـالـي بـالـعـقـيـقِ وظِـلَّـهـا الـْ ... أنـيـقَ فـقـطَّـعْـنـا الـقـلـوبَ تـأسُّـفـا
كتمتُ الهوى جَهدي وبالصبر مُسْكَةٌ ... وبـرَّح مـا ألـقـى فـقـد بـرح الـخـفـا
ولـي سـنـةٌ لـم أدرِ مـا سِـنَـةُ الـكـرى ... لِـهَـمٍّ أتـى ضـيـفـاً فـألـفـى مُـضـيِّـفـا

وقال: [من الكامل]

هَـلْ غـيـرُ ظِـلِّـكَ لـلـعُـفـاةِ مَـقـيـلُ ... أم غـيـرُ عـفـوكَ لـلـجُـنـاةِ مُـقـيـلُ
نـكَّـلْـتَ بـالأحـداث لـمَّـا أن عَـدَتْ ... فـلِـصِـرْفـهـا عـمَّـا حـمـيـتَ نـكـولُ
يـا مـن قـواضـبُـهُ تُـشـايـعُ عـزمَـهُ ... ولأجـلِ ذاكَ تَـصِـلُّ حـيـن يـصـولُ
حـرمٌ لإكـرامِ الـوفـودِ مُـؤهَّـلٌ ... فـفـنـاؤه أبـداً بـهـم مـأهـولُ
ويـروقُـه الأسَـلُ الـمُـحـطَّـمُ فـي العِـدى ... يـومَ الـوغـى لا الـخـدُّ وهـو أسـيـلُ
إنِّـي بـرغـم عـدايَ مـمـنـوعُ الـحِـمـى ... مـا هـزَّ هـذا الـقَـيْـلَ هـذا الـقـيـلُ
ذَلَّـلْـتَ لـي صـعـبَ الـقـوافـي مـنـعِـمـاً ... فـالـقـولُ جـزلٌ والـعـطـاءُ جـزيـلُ

---

(١) جاء إلى جانبه على هامش(ب):
ومن جيد شعر ابن حيُّوس قوله: [من المتقارب]
ولـمَّـا وقـفـنـا لـتـوديـعـهـم ... بـكـوا لُـؤلُـؤاً وبـكـيـنـا عـقـيـقـا
سـاروا فـأودعـتـهـم أدمُـعـي ... فـصـاحـوا الـغـريـق وصِـحْـتُ الـحـريـقـا
وقد انتحل بعض المتأخرين هذين البيتين لنفسه وهما لابن حيُّوس.
قلت: ولم أقف على من نسبهما إليه.

وقال: [من الكامل]

يـالـلـرجـالِ لـنـظـرةٍ سـفـكَـتْ دمـاً ... ولـحـارثٍ لـم أَلـقَـهُ مـسـتـسـلـمـا
وأرى الـسـهـام تـؤمُّ مـن يُـرمـى بـهـا ... فعلامَ سهمُ اللَّحظِ يُصمي من رمى
يـا آمـري بـتـجـلُّـدٍ لـم أُعـطَـهُ ... مـا نـمَّ دمـعـي بـالـجَـوى حـتـى نـمـا
ولـقـد وقـفـتُ بـدارِ زيـنـب مـوهِـنـاً ... والـوجـدُ يـأبـى أن أقـولَ فـأُفـهـمـا
مـسـتـخـبـراً عـنـهـا فـلـم أرَ مَـعْـلَـمـاً ... مـنـهـا بـأخـبـارِ الأحـبَّـةِ مُـعْـلِـمـا
أبـكـي ويـمـنـعـنـي تـنـاسـي مـا مـضـى ... مـا يـمـنـع الأطـلالَ أن تـتـكـلَّـمـا

وقال: [من الطويل]

عـداكُـمْ هـوًى مُـذْ شَـفَّـنـا مـا تـعـدَّانـا ... فـهـوَّنـتُـمُ خـطْـبـاً مـن الـبَـيـنِ مـا هـانـا
وقـلـتـم تـداووا بـالـفِـراقِ فـمـا الـذي ... ألانَ الـنَّـوى مـن بـعـد قـسـوتِـهـا الآنـا

محمد بن صدقة بن دُبَيس[1]

أبو المكارم، عِزُّ الدولة، كان شجاعاً، ذكياً، جواداً، ولمَّا مرض مرض الموت كان أبوه سيف الدولة صدقة جالساً عنده، فأُتي بديوان أبي نصر بن نُباتة، فأخذ محمد الديوان وفتحه فطلع ما صورتُه، وقال: نُعزِّي سيف الدولة في ابنه أبي المكارم محمد، فأخذ بعض الجماعة الديوان من يده، فأخذه وفتحه ثانياً، فخرج ذلك الشعر الذي قاله ابن نُباتة من قصيدة: [من الطويل]

فـإنَّ بـمـيَّـافـارقـيـنَ حـفـيـرةً ... تـركْـنـا عـلـيـهـا نـاظِـرَ الـجـودِ دامـيـا
وحـاشـاكَ سيفُ الـدولـةِ الـيـومَ أن تُـرى ... من الصبرِ خِلْواً أو إلى الحُزنِ ظاميا
ولـمَّـا عـدِمـنْـا الـصـبـرَ بـعـدَ مـحـمـدٍ ... أتـيـنـا أبـاهُ نـسـتـفـيـدُ الـتَّـعـازيـا

فمات بعد يومين، وجلس الوزيرُ عميدُ الدولة في داره للعزاء ثلاثة أيام، للصهر الذي كان بينهما، وخرج له في اليوم الثالث توقيعُ الخليفة يتضمن التعزية له، والأمر بعوده إلى الديوان، فقرأه قائماً، وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامَغاني إلى حِلَّة سيف الدولة رسالة من الخليفة تتضمّن التعزية له.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٦٠ـ ٦١.

محمد بن محمد[1]

ابن محمد بن جَهير، الوزير، عميد الدولة، شرف الدين، كان حسنَ التدبير، كافياً في المهامِّ، شجاعاً، جواداً، حليماً، لم يعجل على أحدٍ بمكروه، وسمع الحديث على الشيوخ، وكان كثير الصدقات، واسعَ المعروف، يجيز العلماء والشعراء، ويحسن إليهم، وخدم ثلاثة خلفاء؛ القائم، ولمَّا احتضر أوصى به المقتدي، ووَزَر للمقتدي سنة اثنتين وسبعين، فبقي فيها خمس سنين، ثم عُزِل بالوزير أبي شجاع، ثم عاد بعد عزل أبي شجاع سنة أربع وثمانين، فلم يزل إلى أن مات المقتدي، وولي المستظهر، فدبر أمور الخلافة ثمانَ سنين وأحد عشر شهراً وأربعة أيام، وكان سيِّدَ الولاة؛ لبرٍّ كان فيه، وكانت كلماتُه معدودة، كلَّم يوماً لولد أبي نصر بن الصباغ فقال: اشتَغِلْ واداْبْ وإلَّا كنتَ صبَّاغاً بغير أب. فلمَّا قام من مجلسه أتى النَّاسُ ابنَ الصباغ فهنَّوه حيث كلَّمه، وله ترسُّلٌ بديع، وتوقيعاتٌ وجيزة، وأشعارٌ رقيقة، وقرأ الفقه وأنواع العلوم، وكانت له سياسةٌ ورياسةٌ وهيبة، وكان ممدَّحاً، فيقال: إنه مُدِحَ بمئة ألف بيت من الشعر.

وقال العماد: مدحهُ عشرةُ آلاف شاعر، ومن مُدَّاحه: مسعود بن العلاء، المعروف بابن الخباز، ومن مدحه فيه: [من البسيط]

وماءُ دجلةَ أو ماءُ الفراتِ على ... العِلَّاتِ أعذبُ لي من ماءِ يَبْرينِ[2]
كم بين ماءٍ تظلُّ الأُسْدُ شارعةً ... منهُ وتسكنُهُ عيسُ السَّراحينِ[3]
مستوحشٍ في القِفارِ البيدِ منفردٍ ... لا يعرفُ الأمنَ إلَّا في الأحايينِ
وبين ماءٍ كماءِ الوردِ مُطَّردٌ ... تحتَ القصورِ وروضاتِ البساتينِ
عذبٌ إذا عَبَثَتْ أيدي النسيمِ بهِ ... تَنَزَّهَتْ فيه أقمارُ الرواشينِ[4]
والفُلْكُ تقطعهُ عرضاً وتخرِقُهُ ... طولاً وتنقضُّ فيه كالشَّواهينِ

(١) المنتظم ١٧/ ٥٩-٦٠ .وتنظر بقية المصادر في السير١٩/ ١٧٥ .

(٢) يَبْرين: قرية ذات نخل وعيون عذبة بحذاء الأحساء في ديار بني سعد. تاج العروس (بري)

(٣) عيس السَّراحين: الكريم من الذئاب. المعجم الوسيط (عيس) و(سرح).

(٤) الرواشن؛ جمع روشن: وهو الرفّ والكوَّة والشرفة. المعجم الوسيط (رشن)

لا أبتغي الشِّيحَ بالرَّيحان مغتَنماً ولا أحاول حَوْذاناً بنسرينِ[(١)]
ولا ألَذُّ برؤياهُ ويُعجبني شَمُّ الخُزامى ولي نشْرُ الرَّياحينِ
ولا أهيمُ بربعٍ غابَ ساكِنُهُ عنهُ وأصبحَ قفْراً غيرَ مسكونِ
حسبي ببغدادَ داراً والحريمِ حِمًى من طارقاتِ صروفِ الدَّهرِ يكلوني
فالعيشُ غضٌّ به والأمنُ متصلٌ بالعدلِ من شَرَفِ الدُّنيا مع الدِّينِ
مُجرَّبُ الرأي يقظانُ البصيرةِ هجَّامُ العزيمةِ قوَّامُ البراهينِ
يُريكَ في الدَّستِ إطراقاً وهيبتُهُ من الصعيدِ إلى أقطار جَيْحونِ
للحمدِ سوقٌ لديهِ غيرُ كاسدةٍ وللمدائحِ أجرٌ غيرُ ممنونِ
فلو رآهُ ابنُ يحيى وابنُ ذي يَزَنٍ لَعوَّذاه بآياتِ الطَّواسينِ

ثم آل أمرُه إلى أن حبسه الخليفة في داره، وأُخرج ميتاً في شوال، فحُمِلَ إلى داره، فغُسِّل فيها، ودُفن بالتربة التي استجدَّها في قراح بن رزين، ومع ما رأى من الأموال والجواهر التي لم يرَها غيرُه مات مديوناً، فمنع أصحابُ الديون من دفنه في تربته، وقالوا: هذه ملكه، ولم يصحَّ وقفُها. ثم عجزوا عن إبطال الوقف، فسكتوا.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في سنة أربع وتسعين تقدَّم المستظهر بالقبض على عميد الدولة وعلى نوَّابه ومصادرتهم وقتلهم لأشياء نقمها عليه، ومنكراتٍ عُزِيَتْ إليه.

يحيى بن عيسى بن جَزْلة[(٢)]

أبو علي، المتطبِّب، صاحب «المنهاج»، كان نصرانياً، يقرأ على أبي علي بن الوليد المعتزلي، فلم يزَلْ يدعوه إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى أسلم، واستخدمه أبو الحسن قاضي القضاة في كَتْبِ السجِلَّات، وكان يَطُبُّ أهل محلَّته ومعارفه بغير أجرة، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عِوَض، ويتفقَّد الفقراء ويُحسِن إليهم، ووقف كتبه قبل وفاته، وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه وأرضاه.

(١) الحَوْذان: نبت نوره أصفر رائحته طيبه، والنسرين: ضربٌ من الرياحين. اللسان (حوذ) و(نسر).
(٢) المنتظم ١٧/ ٦١، والكامل ١٠/ ٣٠٢.

السنة الرابعة والتسعون وأربع مئة

فيها قتل السلطان بركياروق خلقاً من الباطنية تحقَّق مذهبهم، وكانوا ثلاث مئة ونيِّفاً، وكتب إلى الخليفة بالقبض على من يُتَّهم أنه منهم، فصار مَنْ في نفسه شيء من أحد نسبه إليهم فيُنهب، حتى حُسِمَ هذا الأمر.

وأول ما عُرِفَ من أحوال الباطنية في أيام ملك شاه أنهم اجتمعوا فصلُّوا العيد في ساوة، ففطن بهم الشِّحْنة، فأخذهم وحبسهم ثم أطلقهم، ثم سألوا مؤذناً من أهل ساوة أن يدخل في مذهبهم، فامتنع، فخافوا أن يَنِمَّ عليهم فاغتالوه وقتلوه، ورُفِعَ ذلك إلى نظام الملك [وأخذ المتَّهم بقتل المؤذن ـ وكان نجاراً ـ فقتله، فقتلوا نظام الملك عِوَضَه، وهو أول مَنْ قتلوا، وكانوا يقولون: قتلتُم منَّا نجَّاراً، فقتلنا به نظام الملك][1].

ثم استفحل أمرهم بأصبهان لمَّا مات ملك شاه، فكانوا يسرقون الناس فيقتلونهم ويُلقونهم في الآبار، فكان الإنسان إذا دنا المساء ولم يعُدْ إلى منزله يئسوا منه.

وأجلسوا امرأةً على حصير لا تبرح منه، فدخلوا الدار وأزالوها، فوجدوا تحت الحصير بئراً فيها أربعون قتيلاً ، فقتلوا المرأة، وهدموا الدار والمحلَّة.

وكانوا يُجلِسون رجلاً ضريراً على باب الزُّقاق الذي فيه هذه الدار، فإذا مرَّ به إنسانٌ سأله أن يقوده خطواتٍ إلى الزُّقاق، فإذا فعل جذَبه مَنْ في الدار وأخذوه قهراً فقتلوه، فجَدَّ أهلُ أصبهان فيهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وأول قلعة ملكها الباطنية قلعة في ناحية أصبهان يُقال لها: الرُّوذبار من نواحي الدَّيلم، وكانت هذه القلعة لقماج صاحب ملك شاه، وكان متهماً بمذهبهم، فلمَّا مات ملك شاه أعطوه ألفاً ومئتي دينار فسلَّمها إليهم سنة ثلاث وثمانين وأربع مئة. وقيل: لم يكن ملك شاه مات، وكان مُقدِّمها يقال له: الحسن بن الصبَّاح ، وأصلُه من مرو، وكان كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بَهْرام إذ كان صبياً، ثم سار إلى مصر وتلقَّى من

(١) ما بين حاصرتين من (ب)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٦٧٤ ، وبنحوه في المنتظم ١٧/ ٦٣ .

دعاتهم[١]، وعاد داعيةً[٢] للقوم ورأساً فيهم، فحصلت له هذه القلعة، وكانت سيرتُه في دعائه أنه لا يدعو إلَّا غبياً، لايفرِّق بين يمينه وشماله، ولا يعرف من أمور الدنيا شيئاً، ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى ينشط دماغه، ثم يذكر له حينئذٍ ما تمَّ على أهل البيت عليهم السلام من العدوان والظلم، حتى يستقرَّ ذلك في نفسه، ثم يقول له: إذا كانت الأزارقةُ والخوارجُ سمحوا بنفوسهم في القتال مع بني أمية، فما سببُ تخلُّفِكَ بنفسك عن نُصرة إمامك؟ فيتركه بهذه المقالة طعمةً للسِّباع.

وكان ملك شاه قد أنفذ إلى ابن الصبَّاح يدعوه إلى الطاعة، ويتهدَّده ويأمره بكفِّ أصحابه عن قتل العلماء والأمراء، فقال الرسول: الجواب ما تراه، ثم قال لجماعةٍ وقوفٍ بين يديه: أُريد أن أُنفذكم إلى مولاكم في حاجة، فمن ينهض لها؟ فاشرأبَّ كلُّ واحدٍ منهم لذلك، فظنَّ الرسولُ أنها رسالة يُحَمِّلها إياهم، فأومأ إلى شابٍّ منهم وقال: اقتُلْ نفسَك. فجذب سِكِّينه، وضرب بها غَلْصَمته فخرَّ ميتاً، وقال لآخر: ارمِ بنفسك من القلعة. فألقى نفسه فتقطَّع، ثم التفت إلى الرسول وقال: لهم عندي من هؤلاء عشرون ألفاً هذا حدُّ طاعتهم. فعاد الرسولُ وأخبر ملك شاه، فعجب وأعرض عن كلامهم.

وصار بأيديهم قلاعٌ كثيرةٌ منها قلعة على خمسة فراسخ من أصبهان، وكان حافظُها تركياً، فصادفه نجَّارٌ باطني، وأهدى له جاريةً وفرشاً ومركباً، فوثِقَ به، وكان يستنيبه في حفظ القلعة، فاستدعى النجارُ ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن عطاش، وعمل دعوةً، ودعا التركيَّ وأصحابَه، وسقاهم الخمر، فلمَّا سكروا رفع الثلاثين رجل بالحبال إليه، وسلَّم القلعة إليهم، فقتلوا أصحاب التركي، وسَلِمَ التركيُّ وحدَه وهرب، وصارت القلعةُ في يدي عطاش، وتمكَّنوا وقطعوا الطرقات ما بين فارس وخوزستان، وانصرف جماعةٌ من أصحاب جاولي إليهم، وصاروا معهم، وحسَّنوا لهم اتِّباعَ جاولي والاستيلاء على ماله، فقصَدَه ثلاثُ مئة من صناديدهم، وعلم بهم، فلمَّا توسَّطوا الشعب عاد عليهم وأصحابُه فقتلوهم، ولم يُفلِتْ منهم أحد، وكان جماعة منهم في

(١) في (خ): عادتهم، والمثبت من (ب) والمنتظم وتاريخ الإسلام.
(٢) بعدها يبدأ سقط من الأصل (ب).

عسكر بركياروق، فاستغووا خلقاً منهم، فوافقوهم، فاستشعر أصحابُ السلطان منهم، ولبسوا السلاح، ثم قتلوا منهم نحو مئة رجل.

وكان بالصَّيمر ـ وهو بلد من أعمال المشان ـ رجلٌ منهم يقال له: ابن الشيباش، ويتزهَّد ويدَّعي الكرامات، فمِنْ ذلك أنه أحضر يوماً جَدْياً مشوياً، وكان عنده جماعة، فلمَّا أكلوا أمر بَردِّ عظامه إلى التَّنُّور، فرُدَّت، وجعل على التَّنُّور طبقاً، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدوا جَدْياً يرعى حشيشاً، ولم يروا للنار أثراً، ولا للرماد خبراً، فتلطَّف بعضُ أصحابه حتى عرف القصة، وأن ذلك التَّنُّور كان يُفضي إلى سرداب وبينهم طبق من حديد يدور بلَولَب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه، ثم يُنزِلُ مكانَه طبقاً آخر مثله.

وقال الغزالي: قد شاهدتُ قصة الحسن بن الصبَّاح لمَّا تزهَّد تحت حصن الموت، وكان أهل الحصن يتمنَّون صعوده إليهم، فامتنع، وكان مدة مُقامه تحت الحصن يقول: أما ترون المنكر كيف قد فشا؟ وفسد الناس، فصبا[1] إليه خلق كثير، فخرج الأمير صاحب الحصن إلى الصيد، وكان أكثرُ تلامذته في الحصن، فأصعدوه إليهم، وملَّكوه الحصن، وبعث الأمير مَنْ قتله، ولمَّا كثُرت قلاعُهم واشتغل أولادُ ملك شاه عنهم باختلافهم اغتالوا جماعةً من الأمراء والأعيان فقتلوهم.

وفيها التقى محمد شاه وبركياروق، وكان بركياروق قد قصد خوزستان وانضمَّ إليه أولاد بُرْسُق وإياز، وسار يطلب أخاه محمد شاه وهو بأصبهان وقد جمع خلقاً من التركمان في خمسة عشر ألفاً، وكان بركياروق في خمسة وعشرين ألفاً، واقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتِلَ من الفريقين عددٌ كثير، فانهزم محمد شاه، وهرب وزيرُه مؤيد الملك بن النظام، فتبعه غلمان بركياروق، فأخذوه[2] وجاؤوا به إلى بركياروق، فقام إليه وضرب عنقه بيده، وقال: هذا بوالدتي، فكانت وزارتُه سنةً وأحد عشر شهراً وعمره خمسون سنة، ومضى محمد شاه إلى أخيه سنجر شاه، وكان له في خراسان، فاستجار به لينجده على بركياروق، فأرسل سنجر إلى بركياروق يسأله في محمد، فقال: لابُدَّ أن يطأ بساطي. فامتنع عليه محمد، واستفزَّ عليه طوائف الترك، وكان محمد شاه لمَّا كتب إلى

---

(١) هكذا في الأصل (خ)، وفي المنتظم: فرساً، وفي تاريخ الإسلام: قوساً.
(٢) في تاريخ الإسلام: فصار.

أخيه سنجر يطلب منه مالاً قسَّط عليه أهل نيسابور، حتى أُخِذ من الحمامات والخانات، والكبير والصغير، والقوي والضعيف، وسار إلى محمد ليقصد بغداد، وكان بركياروق قد تفرَّق عنه عسكره، فوصل إلى بغداد في خمسة آلاف فارس، وخرج الموكب لتلقِّيه، فنزل بدار المملكة، ولمَّا وصل لم يرد سيفُ الدولة صدقة إلى خدمته، فراسله السلطان، فقال: إن أردتَ أن أكون في خدمتك فسلِّمْ إليَّ الوزير أبا المحاسن الدِّهِسْتاني، وكان الوزير قد نفذ إلى سيف الدولة قبل ذلك يقول: قد اجتمع عليك للخزانة ألفُ ألف دينار، فإن حملتَها وإلَّا قصدناك. وكان رسولُ العميد، فأنزله في خيمة، ولمَّا قرأ كتاب الوزير أمر أن تُقطع أطنابُ الخيمة، فقُطعت فوقعت عليه، فخرج وركب فرسه وقصد بغداد، وكتب إلى صدقة من الطريق: [من الرجز]

لا ضُرِبَتْ لي بالعراقِ خيمةٌ ... ولا عَلَتْ أناملي على قَلَمْ
إن لم أقُدْها من بلاد فارسٍ ... شعثَ النواصي فوقَها سودُ اللِّمَمْ
حتى تُرى لي في الفرات وقعةٌ ... يُشربُ منها الماءُ ممزوجاً بدمْ

وقطع صدقة خطبة بركياروق، وخطب لمحمد.

وفيها وصل محمد وسنجر إلى النَّهروان، وكان بركياروق مريضاً، فنقلوه إلى الجانب الغربي، ودخل محمد وسنجر بغداد في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، وسار بركياروق إلى واسط، ثم إلى الجبل، وقُطعت خطبتُه ببغداد، وخُطب لمحمد شاه، ونزل بدار المملكة، ونزل سنجر بدار سعد الدولة.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في ربيع الأول جمع سُكْمان بن أُرْتُق خلقاً كثيراً من التركمان، وزحف بهم إلى سَرُوج فملكها، وحشد الفرنج من الرُّها وغيرها وساروا إليه، فهرب التركمان، فضعُفَتْ نفسُه وانهزم، وجاء الفرنج إلى سَرُوج فقتلوا أهلها وسَبَوْهم، ولم يُفْلِتْ إلا من انهزم.

وفيها وصل كُنْدُفري صاحبُ القدس إلى عكَّا وأغار عليها، فأصابه سهمٌ فقتله، وكان قد عمَّر يافا وسلَّمها إلى طُنْكري، فلما قُتِلَ كُنْدُفري سار أخوه بَرْدَوِيل القُومَص صاحب الرُّها إلى القدس في خمس مئة فارس وراجل، فجمع شمسُ الملوك دُقاق العسكرَ، وجاءه جناحُ الدولة صاحبُ حمص، وكان في خمس مئة فارس، وكان

القُومَص قد عبر في بلاده وجاء إلى الساحل، فالتقوه بالقرب من بيروت، فسارع إليه جناح الدولة فأسره، وقتل بعض أصحابه، وانهزم الباقون.

وقيل: إن بَرْدَويل أفلَتَ وحدَه ودخل القدس، فملَّكوه عليهم.

وفيها افتتح الفرنج جملةً من بلاد الساحل منها حيفا وأرسوف وقيسارية بالسيف، وقتلوا أهلها.

وفيها أرسل القاضي ابنُ صُليحة المتغلِّب على ثغر جبلة إلى أتابك طُغْتِكين يلتمس منه إنفاذ مَنْ يراه من ثقاته إليه ليُسلِّم إليه جبلة، فندب إليه ولدَ تاج الملوك يوري، وكان دُقاق بدياربكر، فعاد إلى دمشق بأمواله وأسبابه وخيله وكراعه، فأكرم طُغْتِكين مثواه وأحسن إليه، وطلب أن يُسيِّر معه طُغْتِكين من يوصله إلى بغداد، فبعث معه جيشاً، ووصل، فأُنزِل وأُكرِم، ووشى به واشٍ إلى السلطان وقال: معه أموال كثيرة. فنُهِبَ وأُخِذَ جميعُ ما كان معه، وأمَّا يوري فإنه أساء السيرة في جبلة، وآذى أهلَها وصادرهم، وما ألِفوا إلا الإحسان والعدل، فكاتبوا القاضي جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس، فأرسل إليهم عساكرَ، فغلبوا أصحاب يوري وأخرجوهم من جبلة، وقبضوا يوري، وبعثوا به إلى ابن عمار، فأكرمه وأحسن إليه، وبعث به إلى دمشق، وكتب إلى والده يعرِّفه صورةَ الحال، ويخبره بما جرى، ويعتذر إليه، وحصَّن ابنُ عمار جبلة وأقامَتْ في يده.

وفيها صادر دُقاق أبا علي بن محمد بن علي بن الصوفي رئيس دمشق على عشرين ألف دينار واعتقله، ثم أعاده إلى رياسته.

وفيها تُوفِّي

عبد الرحمن بن أحمد بن محمد(١)

النُّوَيزي، نزيل مرو، ولد سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة، وسمع الحديث الكثير وأملاه، ورحل إليه الأئمة والعلماء، ورأى رجلٌ النبيَّ ﷺ في منامه، فقال له: قُل لعبد الرحمن: أبشِرْ فقد قَرُبَ وصولُكَ إليَّ وأنا مُنتَظِرك.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٦٩.

وكان ورعاً زاهداً عابداً، يحتاط في مطعمه.

عبيد الله[١]

أبو بكر ، مؤيد الملك[٢] بن نظام الملك، قتله بركياروق، وكان فاضلاً جواداً سمحاً، وله شعر، فمنه: [من البسيط]

قالوا أتى العيدُ مفتَرُّ الثغورِ فخُذْ   حظَّ السرورِ فهذا موسِمُ الطَّربِ
فقلتُ والقلبُ في أيدي الفراق لعا[٣]   ومقلةُ العينِ تبكي من دمٍ سَرِبِ
كيفَ السرورُ لنائي الدارِ مُكْتئبٍ   صبٌّ بعيدٍ عنِ الأوطانِ مغتَربِ

عزيزي بن عبد الملك بن منصور[٤]

أبو المعالي، الجِيلي، ويلقب بشَيْذَلة، وَلِيَ القضاء بباب الأزج، وسمع الحديث، وكان شافعياً، لكنه كان أشعرياً يتظاهر بمذهب الأشعري، وكان فيه حِدَّةٌ وبذاذةُ لسان، توفِّي في صفر، ودفن بباب أَبْرز.

وسُرَّ أهلُ باب الأزج بموته، فإنه سمع يوماً رجلاً يقول: مَنْ وجد لنا حماراً؟ فقال: ادخُلْ باب الأزج وخُذْ من شئت.

وقال يوماً بحضرة نقيب النقباء طِراد: لو حلف حالفٌ أنه لا يرى إنساناً، فرأى واحداً من أهل باب الأزج، لم يحنث. فقال [له[٥]] النقيب: من عاشر قوماً أربعين صباحاً فهو منهم.

صنَّف عزيزي الكُتب الحِسان، منها «لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب» ومنها «نسيم الأُنس وقسيم القدس» وذكر في خطبة كتاب « لوامع أنوار القلوب»: الحمد لله الذي اصطفى من خلقه أحِبَّاء وأصفياء، واجتبى منهم أتقياء وأولياء، وزيَّن في قلوبهم حدائقَ حقائق معرفته، وزرع فيها حِياض رياض محبته،

---

(١) لم أقف على من ذكر هذه الترجمة سوى المصنف.
(٢) في (خ): مؤيد الدولة، والمثبت من (ب).
(٣) لعا: صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته. المعجم الوسيط (لعا).
(٤) المنتظم ١٧/ ٦٩ ـ ٧٠ ، والكامل ١٠/ ٣٢٦ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٧٤.
(٥) مابين حاصرتين من (ب).

وأزهر أنوارها بنور مكاشفته، ونسم عليها نسيمَ مشاهدته، حتى تلألأت بأزهارِ أنوارِ أسرارِ الحقائق(١)، وتشعشعت بلوامع جوامع الدقائق، فاخضرَّت بها أوراق أفنان أُنس الغُيوب، وأينعت بها مشاهدة المحبوب، وحلُّوا من منازل القرب بأمرع جناب، فطوبى لهم، ثم طوبى لهم وحسن مآب، أحمدُه على الهداية، وأشكره على العناية، وأسأله سلوكَ سبل الهدى إلى منازل التوفيق، وتبَوُّأ مجالس الرضا على مناصب التحقيق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادةَ مُحِبٍّ مُذْعِنٍ مُقِرٍّ مفتقر، يسكن قائلها في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي نزَّهه عن بوائق الدنيا، وشرح صدره بالوصول إلى الأخرى، واختاره لمحبته وارتضاه، وألقى إليه مقاليد شرعه وحباه، فصلَّى الله عليه ما أورق عود، ورسا عمود.

وبعد، فإنَّ أرقَّ الخطاب وقعاً، وأدقَّ الكلام وضعاً، ماصدر عن صحيح صفاء القلوب، وظهر عن صدر أوصافِ المُحِبِّ والمحبوب؛ لأن الأشجان تُملي على البنان بيانَه، والدموعُ تُمِدُّ المِدادَ ألوانَه، فتُهيِّج في عيون القلوب أرواح العشاق، ويهيم في بيداء الهوى ارتياح المشتاق، كما حُكي أن بعض المشايخ نزل في سفينة في دجلة ليعبر إلى الجانب الشرقي، وهو يشكو إلى أصحابه عجزه عن أوقات أوراده و أسفاره، ويبكي شوقاً إلى ما مضى من طيب أوقاته وأوطاره، فمرت به السفينة تحت قصر من بعض القصور، فسمع منه منشداً يقول: [من المتقارب]

حَمامَ الأراكِ ألا خبِّرينا ... لمن تهتِفينَ ومن تندُبينا
فقد هِجْتِ وَيْحَكِ هذي القلوب ... وأذرفتِ عينيَ ماءً مَعينا
تعالَي نُقِمْ مأتماً للفراق ... ونندُبُ أحبابَنا الظاعنينا
ونُسعِدْك بالنَّوحِ كي تُسعدينا ... كذاك الحزينُ يواسي الحزينا

فقام الشيخ يبكي ويكرر الأبيات، ثم شهق شهقةً ومات، فلهذه الإشارات نظمت الواسطات لجماعة المُحِبِّين، وأوضحت فيها منازل المتيَّمين، كما قال إبراهيم الخوَّاص: إن هذا العلم لايصلح إلا لمن يُعبِّر عن وَجْدِه، ويُخبر عن نَعْتِه، وينطق عن فِعْلِهِ، ويتكلَّم عن صفاء سِرِّه، وقد اشتمل كتابي هذا على أوصاف العارفين،

---

(١) العبارة في (خ): حتى تلألأت أنوارها بنور مكاشفته بأسرار أنوارها الحقائق، والمثبت من (ب).

وحكايات الأوائل منهم والمتأخرين، وقد رُوي عن الجنيد رحمة الله عليه أنه قال: حكايات الصالحين جندٌ[1] من جنود الله، تعيش بها أرواح المريدين، وتجري بها دموع المشتاقين، وأنشد: [من البسيط]

إنَّ الحكاياتِ أصلٌ في الإراداتِ ... فيها مَعانٍ وإظهارٌ لآياتِ

فقيل له: من أين هذا؟ فقال: من قوله تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

والبيت من أبيات وهي:

فيالها عجباً إذ صار عارفُهم ... يمشي على الماء من بين البريَّاتِ
هذا بديعٌ من الأشياءِ ظاهرُهُ ... وليس ذا بعجيبٍ في الإشاراتِ[2]

ورتب الكتاب في عشرة فصول.

محمد بن الحسن[3]

أبو عبد الله ، الراذاني، نزل أوانا قرية من قرى بغداد، وكان زاهداً، منقطعاً، ورعاً، قنوعاً من الدنيا، صاحبَ كرامات وآيات، طلب منه ولدٌ صغيرٌ له غزالاً، فقال: يابُنيَّ، ومِنْ أين لي غزال؟ فألحَّ عليه، فقال: الساعةَ يأتيك، فجاء غزال، فجعل يضرب الباب بقرنيه، فقال: يابُنيَّ، قُمْ فخُذِ الغزال.

وكانت وفاته بأوانا في جمادى الآخرة.

محمد بن علي[3]

ابن عبيد الله[4] بن أحمد بن صالح بن سليمان بن وَدْعان، أبو نصر، القاضي، الموصلي، وإليه تُنسب الأحاديث الودعانية.

(١) في(خ): للحكايات جند، والمثبت من (ب).

(٢) في (ب) : الإرادات.

(٣) المنتظم ١٧/ ٧١ .

(٤) تحرف اسم جده في (ب) إلى: عبد الله، والترجمة في المنتظم ١٧/ ٧١ ، وينظر الكامل ١٠/ ٣٢٧ ، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٧٦٠ .

قدم بغداد سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة، وروى أحاديث مناكير وموضوعات.

وكانت وفاته في ربيع الأول بالموصل.

محمد بن منصور(١)

أبو سعد، شرف الملك، المستوفي، الخُوارَزمي، كان جليلَ القدر، نبيلاً متعصِّباً لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وهو الذي بنى على أبي حنيفة القبة والمدرسة الكبيرة بباب الطاق، ومدرسةً بمرو، ووقف فيها كتباً نفيسة، وبنى الرباطات في المفاوز، وعمل خيرات كثيرة، ثم انقطع في آخر عمره، وترك الاستيفاء، وبذل لملك شاه مئة ألف دينار حتى أعفاه من الخدمة.

وكان الملوك يصدرون عن رأيه، وكان متنعماً، فكان يُحمل إليه ماءُ خُوارَزم وهو بأصبهان؛ لأنه عليه نشأ، وتُحمل إليه حنطةُ مرو ببغداد،ويقول: هي أجود الحنطة. وكانت خاتون الجلالية قد قسطت على أهل أصفهان مالاً على قدر أحوالهم، فقسطت عليه جملة وافرة، فأرسل إليها يقول: هذا الذي أخذتيه مني لم يؤثِّرْ عندي، فإنَّ لي ذخائر كثيرة اكتسبتُها في أيامكم، وإن لم يعلم الناس أنَّ ما أُخِذَ مني لم يؤثِّرْ عندي استوكسوني وأنا الخادم الذي لم يُغيِّره حال، وهذا مالي بين يديها. فاستحسنت خاتون ذلك منه، ولم تتعرَّض له بعد ذلك.

وكانت وفاته بأصبهان في جمادى الآخرة.

محمد بن منصور(٢)

النَّسَوي، عميد(٣) خراسان، ورد بغداد زمن طُغْرُلبكَ، وبنى مدرسةً ووقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وأولاده(٤) فيها إلى هلُمَّ جرًّا، وبنى مدرسة بنيسابور

---

(١) المنتظم ١٧/ ٧٢، والكامل ١٠/ ٣٢٦. وتنظر باقي المصادر في السير ١٩/ ١٨٨.

(٢) المنتظم ١٩/ ١٧/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: عبد.

(٤) بعدها في (خ) زيادة كلمة: فيها.؟

وفيها تربتُه، وكان كثير الخيرات والصدقات، محسناً إلى الرعية.

نصر بن أحمد بن عبد الله(١)

أبو الخطاب، ويُعرَفُ بابن البَطِر، البزَّاز، ولد سنة ثمانٍ وسبعين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، وعُمِّر حتى صارت الرحلة إليه من الأطراف.

وتوفِّي في ربيع الأول، ودفن بباب حرب، وكان صالحاً، ثقةً، صدوقاً، سليمَ الصدر، جعله المستظهر على الدواليب، مشرفاً على علوفات البقر.

وكان يكاتب الخليفة كلَّ وقت، فكتب إليه رقعة على رأسها: العبدُ ابن البَقِر المشرفُ على البَطِر، فضحك الخليفة.

أبو المحاسن(٢)

وزير بركياروق، كان قد نقم(٣) على أبي سعيد الحداد شيئاً، فقتله، فركب الوزير يوماً على باب أصبهان، فوثب عليه غلام أبي سعيد الحداد فقتله، وأخذ بثأر سيِّده، فأمر بركياروق بسلخ الغلام، فسُلخ [حيًّا، وعُذِّب حتى تَلف، رحمه الله ،فقد قام بواجب حقِّ سيده(٤)].

السنة الخامسة والتسعون وأربع مئة

فيها جلس الخليفة لمحمد وسنجر جلوساً عاماً، ودخلا عليه، وقبَّلا الأرض له، فأدناهما، وأفاض عليهما الخِلَع على جاري العادة، وتوَّجهما وطوَّقهما وسوَّرهما، وقرأ الخليفة: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وخرجا إلى بركياروق، [ومضى سنجر إلى خراسان، والتقى محمد بركياروق على رُوذراور] فاقتتلا

---

(١) المنتظم ١٧/ ٧٣ ، والكامل ١٠/ ٣٢٧ والأنساب ٩/ ١٣٣ ـ ١٣٤ وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٤٦ .

(٢) لم أقف على هذه الترجمة إلا عند المصنف، وهي في النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٧ .

(٣) تحرفت في (ب) إلى: نقد.

(٤) ما بين حاصرتين هنا وفي المواضع الآتية من (ب).

ثم اتفقا على أن السلطنة لبركياروق، ولمحمد هَمَذان وقزوين والجزيرة ودياربكر، ثم نقض محمد العهد، وسافر إلى قزوين، وتبعه بركياروق فكسره، فمضى [إلى[1]] أصبهان وبركياروق خلفه، فحصره في أصبهان ثمانية أشهر، وجرى على محمد كلُّ مكروه، ولقي منه أهلُ البلد مصادراتٍ كثيرة، وأفسد عسكرُه في البلد، ثم هرب محمد في الليل، وخرج من بعض الأبواب سراً، فلم يصبح إلا على فراسخ، [فندب بركياروق إياز في طلبه، فلحقه وقد نزل الضعفُ خيلَهُ، فبعث إلى إياز يقول: لي في عنقك أيمان ومواثيق. فقال: اذهَبْ في دَعة الله. فقال: فخَيلي ضعفاءُ. فأعطاه خيلاً، فركبها محمد ومضى، ولم يُعجب بركياروق سلامةُ أخيه.

وفيها عمر صدقةُ الحِلَّة وانتقل إليها، وكان ينزل هو في بيت الشعر]

وفيها قبض بركياروق على إلكيا الهراسي، بلغه عنه أنه باطني، فكتب الخليفة إليه ببراءة ساحة إلكيا، وحسن [سيرته و] عقيدته ودينه، فأطلقه.

ولما اجتاز الشام فنزل ابنُ صَنْجيل الفرنجي على طرابلس، فكتب ابنُ عمار إلى دمشق يستنجدهم، فسار عسكرها مع جناح الدولة صاحب حمص إلى أنطرطوس، والتقوا، فانهزم جناح الدولة إلى حمص ، وعاد فَلُّ المسلمين إلى دمشق في جمادى الآخرة، ومات المستعلي صاحب مصر، وقام ولدُه أبو علي مقامَه، وجهَّز الأفضلُ العساكرَ المصرية إلى الساحل، ووصلوا إلى عسقلان في رجب مع نصير الدولة يُمْن، وخرج بَرْدَويل من القدس في سبع مئة راجل وفارس، وكبس العسكرَ المصريَّ، فثبتوا، وقتلوا معظم من كان معه، وانهزم في ثلاثة نفر إلى الرملة، واختبأ في أجَمَة قصب فأحاط المسلمون به، وأحرقوا القصب، فوصلت النار إليه، فاحترق بعضُ جسده، وأفلت إلى يافا، وأُسِرَ رجالُه، وحُملوا إلى مصر في رجب، وعاد الفرنج إلى طرابلس، فعاد ابنُ عمار وكتب إلى دمشق وحمص، فجاؤوا ودفعوا الفرنج عنه.

(١) مابين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن مَعَد[١]

أبو القاسم، المستعلي، ولد بالقاهرة في المُحرَّم سنة سبع وستين وأربع مئة، وولي يوم الغدير ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع صفر، وله سبع وعشرون سنة، وكانت خلافته سبعَ سنين وشهوراً، والمتصرف في دولته الأفضل ابن أمير الجيوش، وكان هرب أخوه نزار بن المستنصر إلى الإسكندرية، وبها أفتكين، [فولَّى ابنَه، وزعم أن أباه عهد إليه، فقام له بالأمر أفتكين]، ولقَّبه ناصرَ الدولة، وأخذ له البيعة على أهل البلد، وساعده ابنُ عمار قاضي الإسكندرية، وأقاموا على ذلك سنة، فخرج الأفضل من القاهرة بالعساكر سنة ثمان وثمانين، فحصر الإسكندريةَ وضايقَها، فخرج إليه أفتكين فهزمه، فعاد إلى القاهرة، فجمع وحشد ونازلها، ففتحها عنوةً، وقتلَ أعيانَ أهلِها، واعتقل أفتَكين وابن عمار، فكتب ابنُ عمار إلى الأفضل ورقةً من الحبس يقول: [من البسيط]

هل أنتَ منقذُ شلوي من يَدي زمنٍ ... أضحى يقدُّ أديمي قدَّ مُنْتَهِسِ
دعوتُكَ الدعوة الأولى وبي رمَقٌ ... وهذه دعوةٌ والدهرُ مفترسي

فلم تصِلْ إليه. فلما قُتِل وقف عليها، فقال: واللهِ لو وقفتُ عليها قبل قتْلِه ما قتلْتُه.

وكان ابنُ عمار من حسنات الدهر، وقدم الأفضل بأفتكين ونزار إلى القاهرة، وكان أفتكين يلعن المستعلي وابنَ أمير الجيوش على المنابر، فقتله المستعلي بيده، وبنى على أخيه نزار حائطاً، فهو تحته إلى الآن، وكان للمستعلي أخٌ اسمه عبد الله، فظفر به الأفضل، وكان للمستعلي ولدان أبو علي منصور وجعفر، فولي منصور وبُويع له يومَ مات أبوه وعمره خمس سنين؛ لأنه ولد سنة تسعين وأربع مئة، ولُقِّب الآمر بأحكام الله، وقام بأمره الأفضل، فانتظمت الأحوالُ بتدبيره، وكان المستعلي حسنَ الطريقة، جميلَ السيرة في كافة الأجناد والرعية، لازماً قصره كعادة أبيه، مكتفياً بالأفضل سيف الإسلام فيما يُدبِّره[٢].

---

(١) المنتظم ١٧/ ٨٦.

(٢) انظر تاريخ الإسلام ١٠/ ٧٦٥.

الحسن بن الحسين بن محمد[١]

الصوفي، أبو محمد، الكلابي، رئيس دمشق، وأصله من حلب، وسُمِّي الصوفي لأنه كان يُقصِّر ثيابه.

وكان جواداً، شجاعاً، مقداماً، جليلاً، نبيلاً، سمع الحديث، وقرأ الأدب، ومات بدمشق وروى عنه محمد بن صابر وغيرُه.

حسين بن ملاعب

جناح الدولة، صاحب حمص، كان مجاهداً، شجاعاً، يباشر الحروب بنفسه، دخل جامع حمص يوم الجمعة، فصلَّى، فقفز عليه ثلاثة من الباطنية فقتلوه، وقُتِلوا، وجاء صاحب أنطاكية فحصر حمص، فصالحه أهلُها على مال، فرحل، وجاء دُقاق فتسلَّمها. وقيل: إنه قتل سنة ست وتسعين.

وقال ابن القلانسي: في سنة ست وتسعين نزل جناح الدولة من قلعة حمص لصلاة الجمعة، وحوله غلمان بالسلاح، فلمَّا حصل بموضع مُصلَّاه وثب عليه ثلاثة من الباطنية العجم ومعهم شيخ، فجعلوا يدعون له يستحثونه وهم في زيِّ الزُّهَّاد، فضربوه بسكاكينهم، فقتلوه وقتلوا معه جماعةً من أصحابه، وكان في الجامع عشرة من متصوفة العجم وغيرهم، فقُتلوا مظلومين عن آخرهم، واضطرب أهل حمص، وراسلوا[٢] طُغتِكين ودُقاق يلتمسون إنفاذ نائب يتسلم القلعة قبل مجيء الفرنج، فسار شمس الملوك دُقاق وأتابك طُغتِكين بالعساكر إلى حمص، وصَعِدا القلعة، وجاء الفرنج إلى الرستن، فحين عرفوا ذلك تفرقوا، ثم رحلوا طالبين بلادهم، وعاد أتابك ودُقاق إلى دمشق.

وسبب قتل جناح الدولة أنه كان عند رضوانَ ملكِ حلب منجِّمٌ باطني، وهو أول من أظهر مذهب الباطنية بالشام، فندب لقتل جناح الدولة أولئك النفر، وقُتِلَ المنجِّم بحلب، فكان بينه وبين قتل جناح الدولة أربعة عشر يوماً. وقيل: إنه مات فجأة.

---

(١) تاريخ دمشق١٣/ ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) في (ب): وأرسلوا.

السنة السادسة والتسعون وأربع مئة

فيها أُعيدت الخطبة لبركياروق ببغداد، والتقى محمد شاه بأخيه بركياروق، فانهزم محمد إلى إرمينية وخلاط، ثم عاد إلى توريز في جمادى الآخرة، ومضى بركياروق إلى زنجان، ووقع بينهما اتفاق(١).

وفيها استوزر الخليفةُ زعيمَ الرؤساء أبا القاسم علي بن محمد بن محمد بن جَهير على كُرهٍ منه، وعزل وزيرَه سديدَ الملك أبا الفضل [بن(٢)] عبد الرزاق، فكانت وزارته عشرة أشهر.

وفيها قصد أتابك طُغْتِكين ودُقاق الرحبة وحصروها، فسلَّمها أهلُها بالأمان، فقرَّر طُغْتِكين أمرَها وعاد إلى دمشق.

وفي رمضان خرجت العساكرُ المصرية في البر، والأسطولُ في البحر، مع شرف الدولة ولد الأفضل، وكتب إلى دمشق وغيرها باستدعاء العساكر للجهاد، فجاءت العساكر، ونزلت على يافا وتفرقت في السواحل.

وفيها خرج قليج أرسلان بن سليمان بن قُتُلْمِش من بلاد الروم طالباً أنطاكية، فوصل مرعش، وكان الأمير الدانشمند بملطية، فاختلفا، فرجع قليج إلى ملطية، وأوقع بالدانشمند، وقتل رجاله، وانكفأ عن ملطية، وكتب إلى حلب يلتمس الإقامة والميرة لعساكره، وأنه قاصدٌ أنطاكية، فتباشر الناس.

وفيها تُوفِّي

أردشير بن منصور(٣)

أبو الحسين، العبَّادي، الواعظ، من أهل مرو، وكان يخاطَب بالأمير قطب الدين، قدم بغداد سنة ست ـ وقيل: سنة خمسة وثمانين ـ وجلس في النِّظامية، وحضر أبو حامد الغزالي مجلسه، وكان يحاضره ويذاكره، فامتلأ صحنُ المدرسة وأروقتُها وغرفُها وسطوحُها بالناس، وخرج إلى مراح طَغْر فجلس به، وكان يحضر مجلسه من

(١) الخبر بسياق أطول في المنتظم ١٧/ ٨٠، ووقع فيه وفي النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٦: تبرير بدل توريز.

(٢) ما بين حاصرتين في (ب).

(٣) المنتظم ١٧/ ٣-٤، ٨٧-٨٨، ووقعت وفاته في سنة (٤٩٧هـ)

الرجال والنساء ثلاثون ألفاً، وكان صمتُه أكثرَ من نطقه، وإذا تكلَّم هام الناسُ على وجوههم، وترك الناسُ المعاش، وحلق أكثرُ الصبيان رؤوسهم، ولزموا المساجد والجماعات، وبدَّدوا الخمور، وكسروا الملاهي. وكانت عليه آثار الزهد ظاهرة.

وقال إسماعيل بن أبي سعد الصوفي: كان العبَّادي ينزل في رباطنا، وكان في الرباط بركة كبيرة، وكان يتوضأ منها، فكان الناس ينقلون منها الماء بالقوارير والكيزان تبركاً، حتى كان يظهر فيها النقصان، وظهرت له الكرامات؛ قام إليه رجل ليتوب، فقال: قِفْ مكانك ليطهرك ماءُ المطر ـ ولم يكن في السماء قزعة من سحاب ـ فارتفع سحابٌ في الوقت وأُمطِرَ الرجلُ. وقال أبو منصور الأمين: قال لي العبادي يوماً: يا أبا منصور، أشتهي توتاً شامياً وثلجاً، فإنَّ حلقي قد تغيَّر. فعبرتُ إلى الجانب الغربي ولي فيه بساتين، فطفتُ واجتهدتُ فلم أرَ شيئاً، فرجعتُ قُبيل الظهر إلى داري، وكان نازلاً في بيت منها منفرد، فقلت لأصحابه: من جاء اليوم؟ قالوا: امرأة. وقالت: قد غزلتُ غزلاً، وأُحِبُّ أن تقبل ثمنه مني. فأخبرناه فقال: ليس لي عادة بذلك. فجلست تبكي، فرحمها وقال: قولوا لها: اذهبي فاشتري لنا به شيئاً. فقالت: ما الذي أشتري؟ فقال: مايقع في نفسها. فخرجَتْ فاشترَتْ توتاً شامياً وثلجاً وجاءت به.

وقال أبو منصور: دخلتُ يوماً عليه فقال لي: يا أبا منصور، قد أحببتُ أن تعمل لي اليوم دعوة. قال: فاشتريتُ الدجاج، وعقدتُ الحلواء، وغرمتُ أكثر من أربعين ديناراً، فجلس يفرِّقه ويقول: احمل إلى الرباط الفلاني كذا وكذا، وإلى المكان الفلاني، ولم يتناول منه شيئاً، ورأى فيَّ انقباضاً، فغمس أصبعه الصغرى في الحلواء وقال: يكفي هذا.

وكان معه طعام قد حمله من مرو، فكان يأكل منه، ولم يأكل من خبز بغداد. قال: وكنت أرصده، فكان يصلي العشاء الآخرة ويَتَقلَّب على فراشه طول الليل، ثم يقوم فيصلي الفجر بذلك الوضوء.

وقال عبد الوهاب بن أبي منصور: دخلتُ على العبَّادي وهو يشرب مرقة، فقلت في قلبي: ليتَه أعطاني فضلَتَه فأشربَها، لعلِّي أحفظ القرآن. فأعطاني فضلتَه وقال: اشرَبْها على تلك النية. فشربتُها، فحفظتُ القرآن.

ولمَّا قدم بغداد ونفق كلامُه وكان البرهان الغزنوي يعظ بها، فانكسر سوقُه، فقال الدهَّان[١]: [من السريع]

لـلـهِ قـطـبُ الـديـنِ مـن عـالـمٍ مـنـفـردٍ بـالـعـلـم والـبـاسِ
قـد ظـهـرت حُـجَّـتُـهُ لـلـورى قـام بـهـا الـبـرهـانُ لـلـنـاسِ

والبرهان عيسى بن عبد الله الغزنوي كان يُظهر مذهب الأشعري على المنبر، فيُرجم من كلِّ ناحية، ويُكلِّم العباديَّ في الربا وبيع القراضة بالصحيح، وأنكر ذلك، فمُنع من الجلوس، وأُمر بالخروج من البلد، فخرج إلى مرو وأقام بها إلى هذه السنة، فتوفِّي غرَّة جمادى.

وقيل: مات سنة سبع وتسعين.

نبذة من كلامه:

ذكر في تأويل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩] قال: [هو][٢] رقيب العين، وقريب القلب.

وقال: قد تأخَّر الغيثُ، وقحط الناس، وصارت المعاصي عماماً يمنع قطرات الغيث، فانزعوا عن العيث.

وطلب يوماً لفقير شيئاً، فأعطاه رجلٌ دينارين، فقال: [ياصاحب الدينارين، كفاك اللهُ همَّ الدارين].

وقال: السَّحَرة نزلوا تحت الشجرة فنالوا الثمرة.

وقال في قصة موسى عليه السلام حين شمَّ التفاحة فمات: كان شمُّ نفَسِه سُمَّ نَفْسِه.

وسُئِلَ: لِمَ[٣] لم يؤدَّبْ آدمُ في الجنة؟ فقال: كيف يُقامُ حدُّ الأدب في دار [الأنس و[٤]] الطرب.

وقال: السعيد في الجنة الرحيق، والبعيد في النار الحريق.

---

(١) تحرفت في (خ) إلى: البرهان والمثبت من (ب)، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٦
(٢) ما بين حاصرتين من (ب).
(٣) في (خ): لو، والمثبت من (ب).
(٤) ما بين حاصرتين من (ب)

ولا خفاء أن الرجل كانت له معاملات ورياضات دلَّ عليها كثرةُ صلاته وصيامه، ولهذا كان ينتفع الناس بسكوته أكثرَ ممَّا ينتفعون بكلامه.

محمد بن عبيد الله(١)

ابن محمد بن أحمد بن كادِش، أبو ياسر، العُكْبَري، الحنبلي، كان مفيدَ بغداد، سمع الكثير، وكتب وحفظ، وخرَّج وصنَّف، ومات في صفر، ودُفن بباب حرب، وكان ثقةً ثبتاً فاضلاً.

أبو المظفر الخُجَندي(٢)

المدرس بأصبهان، الشافعي، جد بَيت الخُجَنْدي، وينسب إلى المُهلَّب بن أبي صُفْرة، وقعت فتنة بالري، فخرج ليصلح بين الفريقين، فرماه علويٌّ بسهم فقتله، وقُتِلَ العلوي.

أبو المعالي(٣)

الزاهد، البغدادي، كان مقيماً بمسجد بباب الطاق، حضر مجلس ابن أبي عمامة، فوقع كلامه في قلبه فتزهَّد، وكان لاينام إلا جالساً، ولا يلبس إلا ثوباً واحداً شتاءً وصيفاً، وكان منقطعاً إلى العبادة.

جاءه سعد الدولة الكوهراني شِحنةُ بغداد زائراً فقال: أغلقوا الباب. فجاء سعد الدولة، فنزل من فرسه وطرق الباب، وقال: واللهِ ما أبرحُ حتى يفتح لي. ففتحَ له، فدخل فجلس بين يدَي الشحنة يُوبِّخه ويزجره، وسعد الدولة يبكي بكاء كثيراً.

وقال أبو المعالي: أضقتُ إضاقةً شديدة في رمضان، فعزمتُ على المضيِّ إلى رجل من أقاربي أطلب منه شيئاً، فنزل طائر فجلس على منكبي وقال: أنا الملَك الفلانيُّ، لا تمضِ إليه، نحن نأتيكَ به. فلما طلع الفجر إذا بقريبي قد جاء ومعه دنانير، فوضعها بين يديَّ.

ومات في هذه السنة، ودفن بباب حرب.

(١) المنتظم ١٧/ ٨٢ .
(٢) المنتظم ١٧/ ٨٣ .
(٣) المنتظم ١٧/ ٨٢-٨٣ .

[السيدة بنت القائم بأمر الله[(١)]

التي كانت زوجة طُغْرُلْبَك، كانت كثيرة الصدقات، صلَّى عليها المستظهر، وهي عمَّة أبيه المقتدي، وجلس الوزير في العزاء ثلاثة أيام في الديوان، وحُملت إلى الرُّصافة]

السنة السابعة والتسعون وأربع مئة

فيها وقع الصلح بين الأخوة بركياروق [ومحمد وسنجر، على أن يكون اسمُ السلطنة لبركياروق][(٢)]، وضَرْبُ النُّوبة في الصلوات الخمس على بابه، وأن يكون لمحمد أرمينية وأذربيجان ودياربكر والجزيرة والموصل، وأن يكون سنجر على خراسان بحاله، وأن يكون لبركياروق الجبل وهَمَذان وأصبهان والري وبغداد وأعمالها، والخطبة ببغداد لبركياروق، وسنجر ومحمد يخطبان لنفوسهما، وسبب هذا أنَّ الفتن لمَّا طالت بعث بركياروق القاضي أبا المظفر[(٣)] الجرجاني إلى محمد شاه في رسالة[(٤)]، فصَعِد المنبر، ومحمد حاضر، فذكر ما أمر الله به من إصلاح ذات البَين، والنهي عن قطيعة الرحم، فأجاب محمد إلى الصلح، وتحالفا، ووصل الخبر إلى بغداد [فقطعت خطبة محمد، وأُعيدت خطبة بركياروق.

وفيها أخرج الواعظ الغزنوي من بغداد][(٥)] بسبب الفتن، فتوفي بإسفرايين.

[وفي رجب وردت مواكب الفرنج إلى اللاذقية مشحونة بالمقاتلة والتجار وغيرهم، ونزلوا على طرابلس مع صَنجيل، وأقاموا أياماً، وأمنوا أهلها، ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم][(٦)]

---

(١) هذه الترجمة من (ب)، وهي في المنتظم ١٧/ ٨٣.
(٢) ما بين حاصرتين من (ب)، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٧.
(٣) في (خ): مسألة، والمثبت من (ب)
(٤) ما بين حاصرتين من.(ب) والخبر في المنتظم ١٧/ ٨٥.
(٥) ما بين حاصرتين من (ب)، والخبر بنحوه في الكامل ١٠/ ٣٧٢.
(٦) ما بين حاصرتين في (ب).

وفيها نزل الأمير سُكْمان بن أُرتُق صاحب ماردين والأمير جكرمش صاحب الموصل على رأس العين في شعبان عازمين على لقاء الفرنج وقتالهم، ونهض بيمند وطغْتِكري من أنطاكية إلى الرُّها بالعساكر لينجدا صاحبها، وعرف المسلمون، فساروا إلى قريب الرُّها، فصادفوهم والتقوا، فنصر الله المسلمين عليهم، فقتلوا منهم عشرة آلاف مابين راجل وفارس، وانهزم بيمند وطُغْتِكري في نفر يسير، فقَوِيَت قلوب المسلمين.

وفيها نزل بَغْدَوين صاحبُ القدس على عكّا في البر والبحر في نيِّف وتسعين مركباً، فحصروها من جميع الجهات، وقاتل أهلها حتى ضعفوا، وكان واليها زهر الدولة الجُيوشي، فعجَز عنهم، فطلب الأمان له وللمسلمين فلم يُعطوه، وأخذوها بالسيف في رمضان - وقيل: في شعبان - وجاء زهر الدولة منهزماً إلى دمشق، فأحسن إليه طُغْتِكين، ثم مضى إلى مصر، وكان صَنجيل صاحب أنطاكية قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذها به، وشحنَه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابنُ عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم هذا الحصن على غرة، فقتل مَنْ فيه ونهبه، وأخذ من المال والسلاح والمتاع شيئاً كثيراً وهدمه، وعاد إلى طرابلس سالماً غانماً.

وفيها خرجت الفرنج من الرُّها، وانقسموا قسمين، قسم قصدوا حرَّان، والآخر الرقة، فنزل سُكْمان من ماردين، وكان سالم بن بدر العقيلي في بني عقيل نازلاً على عين العروس، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وأُسِرَ سالم، وكانت الدَّبَرة على الفرنج، فانهزموا وقُتِلَ منهم خلقٌ كثير.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن الحسين بن حَيْدرة

أبو الحسين، ويُعرَف بابن خُراسان، الطرابلسي ، الشاعر، هجا فخر الملك بن عمار وأخاه، فأُمِرَ به فضرب حتى مات، ودفن بطرابلس، ومن شعره: [من الطويل]

[سقا اللهُ أرضاً نهرُها البحر طافياً وأرجاؤها من كل ناحيةٍ خُضْرُ

جداولُها خمرٌ ومِسْكٌ تُرابُها وأشجارُها البيضُ الرَّعابيبُ(١) والسُّمْرُ
أُرَجِّي اصطباراً عن هواها وطيبِها وأرجو ولكِنْ مايُطاوعني الصَّبرُ

وقال: [من البسيط]

أحبابنا غيرُ زُهدٍ في محبَّتكُمْ كَوْني بِحمْصَ وأنتمْ في طرابُلسِ
إنْ زُرْتُكُمْ فالمنايا في زيارتِكُمْ وإن هجرتُكُمُ فالهَجرُ مُفترِسي
ولستُ أرجو نجاحاً في زيارتكمْ إلَّا إذا خاض بحراً من دمي فرسي
وأنثني ورماحُ الخطِّ قد حكمَتْ في كلِّ أرْوَعَ لا وانٍ ولا وَلِسِ(٢)

وقال: [من الطويل]

جزى اللهُ عنَّا النَّيْربَ الفردَ صالحاً [لقد جمع المعنى الذي يُذهبُ الفِكرا](٣)
خرَجْنا على أنَّا نقيمُ ثلاثةً فطابَ لنا حتى أقمنا بها عشرا

إسماعيل بن علي(٤)

ابن الحسن بن علي، أبو علي الجاجَرْمي، الأصم، النيسابوري، ولد سنة ست وأربع مئة، وطاف البلاد، وعاد إلى نيسابور فتوفي بها في المحرَّم.

وكان واعظاً، زاهداً، ورعاً، صدوقاً، حسن الطريقة، ثقةً.

دُقاق بن تُتُش(٥)

أبو نصر، شمس الملوك، صاحب دمشق، وليها بعد قتل أبيه تاج الدولة تُتُش سنة سبع وثمانين وأربع مئة، وقام بأمره ظهير الدين أتابك، وتزوَّج والدته.

وقال ابن القلانسي: في هذه السنة عرض لدُقاق مرضٌ تطاول به، ووقع معه تخليط في الغذاء، فأوجب انتقاله إلى علة الدق، فلمَّا وقع اليأس منه تقدمت إليه والدتُه الخاتون صفوة

---

(١) الرَّعابيب؛ جمع رُعبوب: وهي البيضاء الحلوة الناعمة. المعجم الوسيط (رعبب).
(٢) لا وانٍ ولا ولس: لابطيء ولا سريع.
(٣) ما بين حاصرتين من الشعر زيادة من (ب).
(٤) المنتظم ١٧/ ٨٧.
(٥) تاريخ دمشق ٧/ ٤٦٧-٤٦٨ و١٧/ ٣٠٤ وينظر السير ١٩/ ٢١٠

الملك بأن يوصي، فنصَّ على طُغْتِكين في حضانة ولده الصغير تُتُش إلى حين يكبر، وتوفي في الثاني والعشرين من رمضان، ودُفِنَ على الشرف الشمالي بدمشق بقبة الطواويس، فشرع طُغْتِكين في الإحسان إلى العساكر والرعية، وأطلق الأموال، وأكثر الصدقات، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وقمع المفسدين، فاستقامت له الأمور، وأجمع على طاعته الجمهور، وكان دُقاق قبل وفاته قد سيَّر أخاه أرتاش إلى بعلبك، وأمر أن يُعتقل في الحصن عند واليه فخر [الدولة كمُشْتِكين التاجي، فرأى طُغْتِكين في حكم ما يلزمه لأولاد تاج الدولة أن يراسل كُمُشْتِكين في إطلاق أرتاش][1] وإنفاذه إلى دمشق، فأطلقه الخادم، فتلقَّاه طُغْتِكين وأكرمه، وأقام في منصب أخيه دُقاق، وتقدم إلى الأمراء بطاعته، وأجلسه في دَسْت المملكة لخمسٍ بقين من ذي الحجة، ولُقِّب أرتاش مجير الدين، ثم استوحش أرتاش من طُغْتِكين ومن والده دُقاق، وأوقعت أمُّه في نفسه الخوف منهما، وأشارت عليه بالعود إلى بعلبك، فخرج من دمشق في صفر وقد قرَّر مع أيتكين الحلبي صاحب بصرى الفسادَ، وجَمْعَ العساكر، وقتالَ طُغْتِكين، واجتمعا بحوران، وراسلا بَغْدوين صاحب القدس، وتوجَّها إليها، وأقاما عنده مدة بين الفرنج يُحرِّضانه على المسير إلى دمشق، ويبعثانه على إفساد أعمالها، فلم يحصلا منه على طائل، فتوجَّها إلى ناحية الرحبة في البرية، وقضى الله بوفاة تُتُش بن دُقاق، وبسط طُغْتِكين العدلَ، وأفاض الإحسانَ، ورخصت الأسعار، وكثرت الأدعية لطُغْتِكين. وقيل: إنَّ أم دُقاق سمَّته في عنقود من عنب، أدخلت فيه إبراً مسمومة، وبعثت به مع جارية إليه، ثم ندمت، وأرسلت إلى الجارية: لا تفعلي، وقد مات.

علي بن عبد الرحمن بن هارون[2]

أبو الخطاب بن الجراح، ولد سنة عشر وأربع مئة، وكان فاضلاً، أديباً، من أهل بيت الفضل والرياسة، وصنَّف قصيدتين في القراءات، سمَّى إحداهما بـ«المكملة» والأخرى بـ«المستجدة».

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) المنتظم ١٧/ ٨٨، والكامل ١٠/ ٣٧٧-٣٧٨، ومعجم الأدباء ١٢/ ١٩٦-٢٠٥ وتنظر باقي المصادر في السير ١٩/ ١٩٨.

وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن بباب أبْرز عند أبي إسحاق الشيرازي، وكان صدوقاً ثقة.

العلاء بن الحسن(١)

ابن وهب بن مُوصَلايا، أبو سعد، الكاتب، الفاضل، خدم في كتابة الإنشاء للخلفاء خمساً وستين سنة.

وكان نصرانيا، فأسلم في سنة أربع وثمانين على يد المقتدي، وناب في الوزارة في أيامه وأيام المستظهر نوباً كثيرة، وكان كريمَ الأخلاق، طاهرَ اللسان، قال بعض أصحابه: شتمتُ يوماً غلاماً لي فوبَّخني وقال: أنتَ قادر على تأديب الغلام أو صَرْفه، فأما الفواحش والخنا والقذف فإياك والمعاودةَ إليه، فإنَّ الطبع يسرق من الطبع، والصاحب يُستدَلُّ به على المصحوب.

وكانت وفاته فجأة، وكان قد أضرَّ قبل موته، فكان يُملي على ابن أخيه أبي نصر إلى أن مات، وكان عميد الدولة ابن جَهير يثني عليهما ويقول: هما يمينا الدولة وأميناها، ولايُبرم أمراً دونهما، ومن شعر العلاء: [من الخفيف]

[يا خليليَّ خلِّياني ووَجْدي فمُلامُ العَذولِ ما ليس يُجْدي
ودعاني فقد دعاني إلى الحُكْـ ـم غريمُ الغرام للدَّين عندي
فعَساه يرقُّ إذْ ملَكَ القَلْـ ـبَ بنقدٍ من وصلِهِ أو بوعدِ
ثمَّ من ذا يُجيرُ منهُ إذا جا ر ومَنْ ذا على تعديهِ يُعدي

وقال:] [من الطويل]

أحِنُّ إلى روضِ التَّصابي وأرتاحُ وأمتحُ(٢) في حوض التَّصافي وأمتاحُ
وأشتاقُ ريماً كلَّما رُمْتُ صَيْدَهُ تصُدُّ يدي عنهُ سيوفٌ وأرماحُ

---

(١) المنتظم ١٧/٨٩، والكامل ١٠/٣٧٧-٣٧٨، ومعجم الأدباء ١٢/١٩٦ - ٢٠٥. وتنظر باقي المصادر في السير ١٩/١٩٨.

(٢) من متح؛ أي: أخرج الماء من البئر بالدلو.

غـزالٌ إذا مـالاحَ أو فـاحَ نـشـرُهُ   تُـعـذَّبُ أرواحٌ وتَـعْـذُبُ أرواحُ
وكـرخـيَّـةٍ[1] عـذراءَ يُـعْـذَرُ حِبُّـهـا   ومِنْ زَنْدِها في الدَّهرِ تُقْدَحُ أقداحُ
إذا جُلِيَتْ في الكأسِ والليلُ ما انجلى   تـقـابَـلَ إصـبـاحٌ لـديـكَ ومـصـبـاحُ
يـطـوفُ بـهـا سـاقٍ يـسـوقُ جِـمـالَـهُ   نَـفَـاقٌ لإفـسـادِ الـهـوى فـيـه إصلاحُ
بـه عُـجْـمـةٌ في اللَّفظِ تُغري بوَصْلِهِ   وإن كـانَ مـنـهُ بـالـقـطـيـعةِ إفـصـاحُ
وغُـرَّتُـهُ صـبـحٌ وطُـرَّتُـه دُجًـى   ومَـبْـسِـمُـهُ دُرٌّ وريـقـتُـهُ راحُ[2]
أباح دمي مُذْ بُحْتُ في الحبِّ باسمِهِ   وبالشَّجْوِ من قبلي المُحِبُّونَ قد باحوا

ومن نثره: أمطاه اللهُ غوارِبَ[3] العلا وصهواتها، وأعطاه مطالبَ المنى وشهواتِها.

ومنه: كتابنا وملابس السلامة علينا ضافية سابغة، وموارد السعادة صافية سائغة.

السنة الثامنة والتسعون والأربع مئة

فيها تُوفِّي بركياروق، ودخل السلطان محمد شاه بغداد وخطب له بالسلطنة، ثم خرج منها في شعبان إلى الجبل.

وفيها مرض أتابك طُغْتِكين مرضاً خاف منه على نفسه، فكاتب الأميرَ سُكمان بن أُرْتُق صاحب ماردين يستدعيه إلى دمشق في عسكره ليوصي إليه في حماية دمشق وأهله وولده، فجاء سُكْمان فنزل القريتين، فلام طُغْتِكينَ أصحابُه، وقالوا: تُعطي ابنَ أُرْتق دمشق وتُخرِجُها عن ولدك وولد مولاك، وكيف يكون حالنا؟ أوليس قد عرفت أتْسِز لمَّا استُدعي تاج الدولة لنصرته كيف قتله واستولى على الشام، فانتبه طُغْتِكين من غفلته وندم، فأرسل إليه: تثبَّتْ مكانك، فأنا خارجٌ إلى خدمتك. فاتَّفق أنَّ سُكْمان مرض تلك الليلة مرضاً شديداً، وأصبح ميتاً، فأخذه أصحابُه في تابوت، ورحلوا إلى ماردين، فسُرَّ طُغْتِكين.

(١) كرخيَّة؛ أي: منسوبة إلى الكرخ: وهي بلدة نواحي بغداد، وقد تقدمت كثيراً.
(٢) هذا البيت من (ب)، وهو في معجم الأدباء ١٢/ ١٩٩ . والرَّاح: الخمر.
(٣) الغوارب؛ جمع غارب: وهو ما بين السنام والعنق. تاج العروس (غرب).

وفيها هلك صَنجيل صاحبُ أنطاكية، وكان قد صالح ابنَ عمار بطرابلس وهادنه؛ أن يكون لصَنجيل ظاهر طرابلس ولا يقطع الميرة والمسافرين عنها.

وفي شعبان توجَّه طُغْتِكين إلى بعلبك منكراً على كُمُشْتِكين الخادم أسباباً ظهرت منه، وحصرها وضايقها، فبعث يتنصل ويحلف على بطلان ما نقل إليه، فصفح عنه، ورحل إلى حمص، فنزل رفنية، وكان الفرنج قد أحدثوا بها حصناً، فهدمه وقتل مَنْ كان فيه، وأخرب الحصن وأبراج رفنية[١]، وسار إلى حمص.

وفي رجب خرج فخر الملك[٢] رضوان من حلب في خلقٍ عظيم قاصداً طرابلس ينجدها على الفرنج النازلين عليها، وكان الأرمن الذين في حصن أَرْتاح قد سلَّموه إلى رضوان لمَّا شمله جَوْرُ الفرنج، وخرج طُغْتِكري من أنطاكية ليخلص حصن أَرْتاح، فالتقى رضوانَ، واقتتل الفريقان، فانهزم فرسان المسلمين، وثبت الرجَّالةُ وأحداثُ حلب، فحصدهم الفرنج، وفُقِدَ من الفرسان والرجَّالة ثلاثةُ آلاف، ورجع رضوان إلى حلب، وهرب المسلمون من حصن أَرْتاح، وتسلَّمه الفرنج.

وفيها عاد أرياش وأيتكين الحلبي إلى بصرى من الرحبة، فخرج طُغْتكين بالعساكر، ونازل بصرى وحصرهما فيها، واتفق خروج العسكر المصري في عشرة آلاف مع الأمير شمس المعالي ولد الأفضل، وكوتِبَ طُغْتِكين بالمسير معه إلى قتال الفرنج وكان نازلاً على بصرى، فامتنع، ثم رأى تقديمَ الجهاد، فسار إلى العسكر المصري، والتقى المسلمون والفرنج، فانهزم عسكر المصريين إلى عسقلان، وعسكر طُغْتِكين إلى بصرى، [وقُتِل من الفريقين عددٌ كثير، ولمَّا وصل طُغْتكين إلى بصرى[٣]] وجد أرياش وأيتكين قد خرجا منها إلى الرحبة، فأمن أهل بصرى وسلَّموها إليه، فلم يتعرَّض لهم، وطيَّب قلوبهم.

وفيها بعث ضياء الدين [محمد] وزير ميَّافارقين إلى قُليج أرسلان بن سلمان بن قُتُلْمِش وهو بملطيةَ يستدعيه إلى ميَّافارقين.

---

(١) العباره في (ب): ولاحت وأبراج رفينة!

(٢) في (ب): فخر الملوك.

(٣) ما بين حاصرتين في هذا الموضع والموضع الآتي من (ب).

ذكر بداية قُليج[1] أرسلان:

كان قد قصد باب السلطان ملك شاه جلال الدولة، وأقام في خدمته، فأمره بقصد الروم، فسار في جيش من النازكية[2]، ففتح ملطية وقيسارية وأقصرى وقُونية وسيواس وجميع ولاية الروم وأقام بها، فلمَّا كاتبه وزير ميَّافارقين قدم إليها وملكها، واستوزر ضياء الدين محمد، وجمع أمراء دياربكر؛ إبراهيم صاحب آمِد، والسبع الأحمر صاحب أسعرد، وجماعة، وولي ميَّافارقين مملوك أبيه خمرتاش السليماني، وكان أتابكه، وخرج من ميَّافارقين، وأخذ معه ضياء الدين، وأقطعه أبُلُستين[3] وجاء إلى الموصل فالتقاه جاولي مملوك السلطان محمد، فكسره، فانهزم قُليج أرسلان، فلما رأى الهزيمة ألقى نفسه في الخابور، فغرق، وحُمِلَ تابوته إلى ميَّافارقين وقام خمرتاش السليماني في الملك.

وقيل: إن الذي فتح الروم هو سليمان بن قُتُلْمِش وبعده قُليج أرسلان.

قال المصنف رحمه الله: كذا رأيت في «تاريخ ميَّافارقين»، ورأيت في «تاريخ دمشق» لابن القلانسي أنَّ قُليج أرسلان غرق سنة خمس مئة، وسنذكره هناك إن شاء الله تعالى.

وفيها بعث يوسف بن تاشفين أميرُ الغرب إلى المستظهر يخبره أنه خُطب له بالمغرب، ويطلب الخِلَعَ والتقليد، فبعث إليه ما طلب.

وابن تاشفين أول أمراء الملثَّمين، ومات سنة خمس مئة، وقام بعده ولده علي بن يوسف، وفي أيامه ظهر محمد بن عبد الله بن تومرت، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

بركياروق [بن] ملك شاه[4]

أبو المظفر، السلطان، قدم العراق ثلاث مرات، وخُطِبَ له ببغداد ست دفعات، وكان بأصبهان، فاشتدَّ مرضُه، وكان به سِلٌّ وبواسير، فخرج من أصبهان في المُحرَّم

---

(١) بعدها في (خ) زيادة كلمة: بن.

(٢) في (ب): المارکية.

(٣) أبلستين: بلدة مشهورة من بلاد الروم. معجم البلدان ١/ ٧٥.

(٤) المنتظم ١٧/ ٩٠-٩١، ٩٣، والكامل ١٠/ ٣٨٠ فما بعدها. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٩٥. وما بين حاصرتين من (ب) والمصادر

يقصد بغداد، فاشتدَّ مرضُه، فأقام بِبَرُوجِرْد أربعين يوماً مريضاً، وتُوفِّي في ربيع الأول وهو ابن أربع وعشرين سنة [وشهر[1]]، وكانت ولايته اثنتي عشر سنة.

ولمَّا احتُضر أوصى بولده ملك شاه إلى الأمير إياز فدخل بغداد، ونزل بالصبي في دار المملكة وعمره أربع سنين وعشرة أشهر، وأجلسه على التخت مكان أبيه، وخُطب له ببغداد في جمادى الأولى بالسلطنة، ولُقِّب بجلال الدولة، ونُثِرتْ الدراهم والدنانير، وكان سيف الدولة ابن مَزْيَد قد جمع خلقاً عظيماً، وكان مبايناً لإياز وعسكر بركياروق، وكان محمد شاه [بإرمينية، فسار يريد بغداد، فخيَّم إياز بالزاهر، وجاء محمد فنزل بالرملة فركب إياز، وشارف عسكر محمد شاه][2] وشاور وزيره الصفي، وقال: ماترى؟ قال: المصلحة مصالحة محمد شاه. فقال له: اعبُرْ إليه واستوثِقْ منه، وقُلْ له: إني نظرتُ في المصلحة، فرأيتُ أن أغمد سيوف الإسلام، وأحقن دماءهم. فعبر الوزيرُ إلى محمد شاه فأجابه، وعبر ابنُ جَهير وزيرُ الخليفة وإلكيا الهراسي والقُضاة والأشرافُ، وأخذوا اليمين على محمد شاه، واستوثقوا منه، وعبر إليه إياز وخدمه فأكرمه، وعبر محمد شاه إلى دار المملكة، وكان إياز نازلاً في دار سعد الدولة الكوهراني، فعمل السلطان محمد دعوة عظيمة، وقدَّم له الغلمان الترك، والخيل العتاق ، والأسلحة، والجواهر النفيسة، وفيها الحبل الياقوت الذي كان لمؤيد الملك ابن نظام الملك، واتفق أنَّ الأتراك مازحوا رجلاً فألبسوه سلاحاً وفوقه قميصاً، وتناولوه بأيديهم، فدنا من السلطان، فرأى السلاح تحت ثيابه، فاستشعر، ونهض من مكانه إلى داره، واستدعى إياز وسيف الدولة صدقة والوزير ابن سعد الملك إلى داره، وأجلسهم في مكان، وخرج الحاجب، وطلب واحداً واحداً ليستشيره في أمر، فأول ما قام إياز وقد أوقف له في الدهليز غلماناً فقتلوه، ثم جمع بين رأسه وجسده، وكفَّنوه في خرقة خام، ودفنوه بمقابر الخيزران، وذلك في جمادى الآخرة ، ثم خرج محمد شاه من بغداد يريد الجبل، وفوَّض الأمر إلى الرَّشيقي، وجعله شِحْنة العراق، وردَّ أمرَ واسط إلى صدقة بن مَزْيَد.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب)، وفي المنتظم: وشهرين.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

وقال ابن القلانسي: وفي سنة ثمان وتسعين وأربع مئة وردت الأخبار بوفاة بركياروق بنهاوند بعد أن تقرَّرت الأحوال بينَه وبين إخوته، بحيث تكون مملكة خراسان لسنجر وأصبهان وهَمَذان وبغداد وما والاها، والسلطنة لبركياروق، وإرمينية وأذربيجان ودياربكر والجزيرة والشام وما يليه لمحمد شاه، وتوجَّهت عساكر بركياروق بعد وفاته إلى بغداد، ومُقدَّمها إياز، وتوجَّه السلطان إلى بغداد، فلمَّا عرف إياز خاف منه على نفسه، فهرب ومعه ملك شاه بن بركياروق، ودخل السلطان محمد بغداد، وجاءه صدقة بن مَزْيَد، واستقرَّ أمرُه معه، وعرف إياز أنَّ أمره لا يستقِلُّ إلَّا بالعود إلى طاعة السلطان محمد وخدمته، فراسله، وطلب منه الأمان، واستحلفه على الوفاء، وجاء ومعه بركياروق طفل صغير، فلمّا كان بعدَ أيام غدر به محمد شاه، وأخلف وعده، ونقض عهده، وقبض عليه وهو آمن مطمئن فقتله، وجعل سبب هذا القتل أموراً أوردها، واحتجَّ بها ليُعذر في فعله، وما هو بمعذور.

عيسى بن عبد الله بن القاسم[(١)]

أبو المؤيَّد، الغَزْنَوي، الواعظ. قدم بغداد، ووعظ بها، ونصر مذهب الأشعري، وقامت الفتنة، فأُخرِجَ منها، وقصد غَزْنة، فمات بإسفرايين.

وقال ابن الهَمَذاني: كان الغَزْنَوي ببلده كاتباً بين يدي عبد الحميد وزير صاحب غَزْنة، فترك دنيا واسعة، وأقبل على العلم، وجلس في دار[(٢)] عميد الدولة ابن جَهير، وكان الوزيرُ سديدُ الملك حاضراً، فقال الغزنوي في كلامه: من شرب مرقة السلطان [احترقت[(٣)]] شفتاه ولو بعد زمن. ثم قرأ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وأنشد: [من الوافر]

سديدَ المُلكِ سُدْتَ وخُضْتَ بحراً ... عميقَ اللُّجِّ فاحفظْ فيه رُوحَكْ
وأحْيِ معالمَ الخيراتِ واجْعَلْ ... لسانَ الصِّدْقِ في الدنيا فتوحَكْ
وفي الماضينَ مُعتبرٌ فأسرِجْ ... مَروحَكَ في السلامةِ أو جَموحَكْ

(١) المنتظم ١٧/ ٩٣، والكامل ١٠/ ٣٦٢-٣٦٣.
(٢) جاءبعدها في (خ) زيادة مقحمه وهي: عبد الحميد و.
(٣) ما بين حاصرتين من (ب) والكامل.

فقُبِضَ على الوزير بعد أيام، فعجِبَ الناسُ من هذا الاتفاق.

محمد بن أحمد[1]

ابن إبراهيم بن سِلَفة، أبو أحمد، الأصفهاني، كان زاهداً صالحاً عابداً ثقةً، سمع من الطيوري وغيره.

محمد بن علي[2]

ابن الحسن بن أبي الصقر، أبو الحسن، الواسطي، تفقَّه على أبي إسحاق الشيرازي، وسمع الحديث الكثير، ومن شعره ـ وكانت ولادتُه سنة تسع وأربع مئة، ومات بواسط ـ فمنه: [من السريع]

مَنْ قال لي جاهٌ ولي حشمةٌ ... ولي قبولٌ عند مولانا
ولم يعُدْ ذلك نفعٌ على ... صديقِهِ [لا[3]] كان مَنْ كانا

وقال: [من البسيط]

وحرمةُ الودِّ مالي عنكمُ عِوَضٌ ... وليس لي في سواكُمْ بعدكم غرَضُ
أشتاقُكُمْ وبودِّي لَوْ يُواصِلُني ... منكُمْ خيالٌ ولكن لستُ أغتَمِضُ
وقَدْ شرطْتُ على قومٍ صحبتُهُمُ ... بأنَّ قلبي لكُمْ مِنْ دونِهمْ فَرَضُوا
ومِنْ حديثي بكُمْ قالوا به مَرَضٌ ... فقلتُ لازالَ عنِّي ذلكَ المرضُ

وقال مما يُكتب على فصِّ عقيق: [من البسيط]

ما كانَ قبْلَ بُكائي يومَ بينكُمُ ... فَصِّي عقيقاً ولا دمعي استحالَ دما
وإنَّما مِنْ دموعي الآنَ حُمْرتُهُ ... فانظُرْ إلى لونه والدمعِ كيف هما

وجاء يوماً إلى باب نظام الملك، فمنعه البواب، فكتب إلى نظام الملك: [من الكامل]

---

(١) المنتظم ١٧/ ٩٤.

(٢) المنتظم ١٧/ ٩٤، والكامل ١٠/ ٣٩٦-٣٩٧، ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٥٧-٢٦٠. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٢٣٨.

(٣) ما بين حاصرتين سقط من (خ) واستدرك من (ب)، والكامل، ومعجم الأدباء.

لـــــلــــهِ درُّكَ إنَّ دارَكَ جـــنَّــــةٌ　　　لـكِـنَّ خـلْـفَ الـبـابِ مـنـهـا مـالـكـا
أنـعِـمْ بـتـيـسـيـر الـحـجـاب فـإنَّـني[1]　　　لاقَـيْـتُ أنـواعَ الـنَّـكـالِ هُـنـالِـكـا

فاستدعاه وقال له: إذا كنتَ غنياً عن مالنا فانكفِئ عنَّا. فقال: كلانا شافعيُّ المذهب، وإنما أتيتُكَ لمذهبك لا لذهبك.

كان[2] ابن أبي الصقر قد أسنَّ، فقال يعتذر إلى أصدقائه حيثُ لم يقدِرْ على القيام لهم: [من الخفيف]

عِـلَّـةٌ سُـمِّـيـتْ ثـمـانـيـنَ عـامـاً　　　مـنـعَـتْـنـي لـلأصـدقـاءِ الـقـيـامـا
فـإذا عُــمِّــروا تــمــهَّــدَ عُــذْري　　　عــنــدهُــمْ بــالـذي ذكـرتُ قـيـامـا

وقال: [من الوافر]

إذا مـــا مـــرَّ يـــومٌ بـــعـــدَ يـــومِ　　　ووجـــهـــي مـــاؤهُ فـــيـــه مـــصـــونُ
وقُـوتـي قُـرْصـتـانِ[3] إلـى ثـلاثٍ　　　بـهـا مِـلْـحٌ يـكـونُ ولا يـكـونُ
وسِـربـي[4] آمـنٌ وأنـا مُـعـافـى　　　ولـيـسَ عـلـيَّ فـي الـدنـيـا ديـونُ[5]
فـمـا أشـكـو الـزمـانَ فـإنْ شـكَـوْتُ الـزَّمـانَ فـإنَّـهُ مِـنِّـي جُـنـونُ

يعقوب بن سليمان

أبو يوسف، القاضي الإسفراييني، الشافعي، خازن دار الكتب بالنظامية، كان أديباً، فاضلا، مفتياً، توفي في رمضان وقد جاوز الثمانين، ومن شعره يمدح بهاء الدولة منصور بن دبيس الأسدي:

---

(١) في (خ): فإنها، والمثبت من (ب).

(٢) في الأصلين (خ) و(ب): وقال، لكن جاء على هامش (ب) قوله: لعله كان. قلت: وهو الذي يتناسب مع السياق.

(٣) القُرصة: خبزة صغيرة مبسوطة مدورة. المعجم الوسيط (قرص).

(٤) يقال: فلانٌ آمِنٌ في سِرْبه ـ بالكسرة ـ أي: في نَفْسه، وبالفتح: المسلك والطريق. النهاية في غريب الحديث (سرب).

(٥) هذا البيت والذي قبله مقتبسان من حديث: «من أصبح منكم معافًى في جسده، آمناً في سِربه، عنده قوتُ يومه، فكأنما حيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»، والحديث أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبد الله بن محصن ﷺ، وهو حديث حسن بمجموع طرقه، وينظر تمام تخريجه في تفسير ابن كثير ٣/ ٦٩ [طبعة مؤسسة الرسالة].

أيا شجراتِ النيلِ مَنْ يضمَنُ القِرى إذا لم يكُن جارُ الفراتِ ابنَ مزيَدِ
إذا غابَ منصورٌ فلا النورُ ساطعٌ ولا الفجرُ بسَّامٌ ولا النجمُ مهتدي(١)

السنة التاسعة والتسعون وأربع مئة

فيها ظهر رجل بنواحي نهاوند فادَّعى النبوة، وكان يمخرق بالنجوم والسحر، وتبِعَه خلقٌ كثيرٌ، وحملوا إليه أموالهم، فكان يعطي جميع ما عنده لمن يقصده، وسمَّى أصحابه بأسماء الصحابة؛ أبا بكر وعمروعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

وخرج في هذا الوقت بنواحي نهاوند أيضاً رجلٌ من ولد ألب أرسلان يطلب الملك، فطُلِبا وأُخِذا وقُتِلا في يوم واحد، فكانت مدَّتهما شهرين(٢).

وفيها خرج الفرنج إلى سواد طبرية، وشرعوا في عمارة حصن بين السواد والثنية يُقال له: عال، وكان منيعاً، وبلغ طُغْتِكين، فسار في عسكره فبيَّتهم ليلاً، فقتلهم وأسرهم، وأخذ الحصن بما فيه من آلةٍ وغيرها، وعاد إلى دمشق بالأسارى [والغنائم(٣)] في جمادى الآخرة.

وفي هذا الشهر ظهرَ كوكبٌ له ذؤابة كقوس قُزَح من الغرب إلى نصف السماء، فأقام ليالي ثم غاب(٤).

وفيها ملكت الإسماعيلية حصن أفامية، وقتلوا خلف بن ملاعب صاحبه بأمر أبي طاهر العجمي الصانع المقيم بحلب مقام المنجم، وكان بفامية رجلٌ من دُعاتهم يقال له: أبو الفتح السرميني، فقرَّر ذلك مع أهلها، فثقبوا السور، وهجموا على ابن ملاعب فطعنوه بحربة فمات، ونادوا بشعار رضوان صاحب حلب، وكان رضوان قد بنى لهم بحلب دار دعوة، وهو أول من عملها، وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم سنة خمس مئة.

---

(١) البيتان في معجم الأدباء ١٧/ ٢٣٧- ٢٣٨ .
(٢) هذا الخبر في المنتظم ١٧/ ٩٥ .
(٣) ما بين حاصرتين من (ب).
(٤) الخبر في الكامل ١٠/ ٤١٤-٤١٥ .

وقال ابن القلانسي: وفيها وصل فتح قُليج بن أرسلان إلى الرُّها، وكان بحرَّان أصحاب جكرمش، فراسلوه، فجاء، فسلَّموها إليه، ومرض، فعاد إلى ملطية، وأقام أصحابُه بِحَرَّان، فهذا يدلُّ على أنَّ قليج بن أرسلان تأخَّرت وفاته.

وفيها تُوفِّي

عمر بن المبارك بن عمر(١)

أبو الفوارس، البغدادي، ولد سنة ثلاث عشرة وأربع مئة، وقرأ القرآن، وبرع في علمه، وأقرأ الناس سنينَ كثيرة، وختم عليه ألوف من الناس، وسمع الحديث الكثير، وكان من كبار الصالحين الزُّهاد المتعبِّدين، وكان له وِرْدٌ بين العشاءين يقرأ فيه سبعاً من القرآن قائماً لم يقطَعْه مع علوِّ السنِّ، وبلغ سبعاً وتسعين سنة ممتَّعاً بسمعه وبصره وعقله، وكانت وفاتُه في المحرَّم، وحضر جنازته خلقٌ كثير، وغلقت أسواقُ بغداد من الجانبين، فلم يفتح الناس دكاكينهم إلا بعد أسبوع، ودُفِنَ بباب حرب، سمع من القزويني وغيره.

مُهارش البدوي بن مجلِّي(٢)

أبو الحارث، صاحب الحديثة، الذي خدم القائم بأمر الله لمَّا حصل عنده في الحديثة، وفعل معه ما ذكرناه، وكان كثيرَ الصلاة والصوم والصدقة، صالحاً، محبًّا لأهل الخير، وعاش ثمانين سنة.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٩٦-٩٧.

(٢) المنتظم ١٧/ ٩٨، والكامل ١٠/ ٤١٦. وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٩/ ٢٢٤.

الفهرس